ترجمة المؤلف

(١) ترجمة المؤلف بقلمه[١]:

قال عبد الحميد الفراهي: إني ولدت في قرية «فَرْيَه»[٢] من قرى أعظم كره في ١٢٨٠هـ في شهر جمادى الثانية، وحفظت القرآن المجيد وأنا ابن عشر سنين أو بقرب منها. وتعلمت اللغة الفارسية في مدة تسعة أشهر، ولكن لم أشتغل بها إلا بعد عامين لتتابع الأسقام. وشرعت في تعلم اللغة العربية وأنا ابن أربع عشرة سنة، وقرأت أكثر كتب الدرس النظامي على ابن عمتنا العلامة شبلي، ثم تلمذت على بعض مشاهير علماء الهند مثل مولانا عبد الحي رحمه الله الفرنجي محلي في لكنؤو، والأديب الشهير مولانا فيض الحسن السهارنفوري في بلدة لاهور. ثم كابدتُ الأمراض، ولم أشتغل بتحصيل علمٍ مدة سنة.

ثم شرعت في تعلم اللغة الإنكليزية، وفنونها المتداولة... وبعد ذلك بقيت سنتين، أحصِّل علم القوانين الجارية مع كراهيتي الاشتغال به، فنبذته، وتوليت خدمة التعليم في مدارس عديدة، فكنت المعلم (پروفيسر)[٣] في كلية علي كره وكلية

---

(١) هذه الترجمة كتبها المؤلف رحمه الله بخطه في مذكرة الشيخ تقي الدين الهلالي رحمه الله بناء على طلبه. وقد نقلها من مذكرات الدكتور تلميذه الشيخ أبو الليث الإصلاحي الندوي رحمه الله في مقاله عن الفراهي المنشور في مجلة الضياء (عدد رجب ١٣٥٢هـ).

(٢) تعريب «پهريا»، ويكتب أحياناً «پهريها». و«الفراهي» نسبة إلى هذه القرية.

(٣) يعني البروفيسور.

إلاهاباد، والصدر (پرنسپل)[1] في كلية حيدراباد دكن.

ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن= تركتُ الخدمة، ورجعت إلى وطني وأنا بين خمسين وستين من عمري. فيا أسفا على عمر ضيَّعتُه في أشغال ضرُّها أكبر من نفعها، ونسأل الله الخاتمة على الإيمان.

(٢) ترجمة المؤلف بقلم الشيخ تقي الدين الهلالي رحمه الله[2]:

١- وللشيخ المذكور ديوان شعر سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين، وبثِّ الحياة في قلوبهم، وذكرِ عداء الإفرنج لهم، وذكرِ حرب طرابلس والحرب الكبرى.

والرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند. وسنّه تخميناً ٧٠. وقد أسس مدرسة سماها مدرسة الإصلاح، لا يدرس فيها إلا القرآن الذي هو ضالته المنشودة. وسمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عيناي لفصاحتها وحقِّـيَّـتِها.

وهو عارف بمسألة الخلافة، محقق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً لأهل الهند.

---

(١) يعني العميد.

(٢) النص الأول منقول من مذكرات الشيخ الهلالي ومنشور في المقال المذكور آنفاً. وأما النص الثاني فمأخوذ من مقال للشيخ بعنوان «العلة الثانية من علل التعليم في المدارس الإسلامية في الهند» منشور في مجلة الضياء (عدد رجب سنة ١٣٥١هـ).

مجتهد في العقائد والعمليات، لا ينتمي لمذهب لكنه يتعبد على مذهب الحنفية لأنه نشأ عليه، ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل. أسمر اللون، حسن الملامح، طويل القامة، لحيته مستديرة، بيضاء ناصحعة. ماهر في الإنكليزية والعربية والأردوية. قد تقلب في وظائف عديدة، منها أنه كان مدرّساً عالياً في عليكره.

وبالجملة فهو أعلم من لقيته قبل هذا الحين، وهو ١٧ رمضان ١٣٤٢هـ.

٢- زرت العلامة الأوحد الشيخ حميد الدين(١) الفراهي الأعظمكري(٢) رحمه الله رحمة الأبرار في سنة ١٣٤٢هـ بقرية پهريا، فذكر لي ترجمته حتى انتهى إلى تأسيسه لمدرسته، فقال لي: إني منذ زمان قد وقفت ما بقي من حياتي على خدمة القرآن، فأسست هذه المدرسة لتعليم القرآن وما يتعلق به من علوم اللغة العربية، فإنهم في حاجة إلى تعلُّم اللغة العربية تعلُّماً صحيحاً يمكِّنهم من الوصول إلى كنوز القرآن الكريم، وبينت لهم بطلان ما كانوا يتوهمونه من أنهم قد انتهوا من تحصيل علوم اللغة العربية.

ثم قال لي رحمه الله: إن شئتَ أن تشاركنا في هذه الخدمة الشريفة فعلتَ، فاعتذرتُ له بأني أريد أن أتم سياحتي في بلاد الهند، وبعد إتمامها أنظر. فلم يقدَّر لي لقاؤه بعد ذلك إلا في سنة ١٣٤٥هـ بالمسجد الحرام، ثم كان ذلك آخر العهد به رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) لقب الفراهي الذي اشتهر به في الهند.

(٢) نسبة إلى مديرية «أعظم كر» التي تتبعها قرية الفراهي.

خطبة الكتاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ظلَّلَ علينا سُرادقاً من السماء الزرقاء، وعلَّقَ فيها المصابيحَ زُهْرا. وزيَّنَها بالشمس والقمر يقلبه هلالاً وبدراً. وجعَلَ له منازلَ شَفْعاً وَوِترا. حُسباناً، ولِتُعَدَّ أيامُ السنين شهراً فشهرا. وجَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكرا. ووسم آناءهما مواقيتَ الصلاة عشاءَين وفجرا. وعشيًّا وظهرا. لنحمد فيها ربَّنا ولا ننسى له ذُكرا.

والحمد لله الذي وطَّأنا من الأرض نمارقَ خُضْرا. ورقَّش أزهارَها نَقْطاً وسَطْرا. ولوَّنها حُمْراً وشُقْرا. وبيضاً وصُفْرا. لِنُعْمِلَ في بدائعِ صُنْعِ ربِّنا فِكْرا. وجعل عليها من الجبال وِقْرا. التي خلق فيها مما يوقدون عليه وبه فحماً وحديداً وفضةً وذهباً ونُحاساً وقِطْرا. منافعَ للناس وأحجاراً يُغلون لها سعرا. ويتّخذون منها حُلِيّ مرصّعة وشَذْرا.

والحمد لله الذي بثّ في الأرض من السائمة والنَّعَم دَثْرا. وكساها شَعْراً وصوفاً ووَبْرا. لنتخذ منها أثاثاً ولباساً وطعاماً ومتاعاً وفرا. ومن وحش البهائم ذواتِ حافر وظِلفٍ وقَرنٍ تحفر الأرض حَفْرا. بقراً عِيناً وظباءً عُفْرا. ووعولاً تُناطح صخرا. ومن الأحناش ما يؤويه جُحْرا. و ما يدِبّ وما يمشي على بطنه وما يقفز طَمْرا. و من السباع ما أعدّ لها ناباً وظُفْرا. ذئاباً غُبْساً وضِباعاً غُثْرا. ونُمُراً نُمْرا. وضراغمَ غُلْباً تُسْمِعُك من الغِيل والأجزاع زأرا. وخلقاً لا يحصى، أحصاهم الربُّ ويُطْعِم كلَّهم فيتضرّعون إليه جأرا.

والحمد لله الذي خلق من ذوات الأجنحة ما عوَّجَ مناقيرَها وحدّد مخالبها

أَشْرا. صَقْراً وأجدَلَ ونَسْرا. وعُقاباً تأخذ في شماريخ الجبال وَكْرا. ومن رواقصها وسواجعها ومكلّلةِ الرؤوس ومزينةِ الريش كأنها كُسِيَتْ يواقيتَ وتِبْرا. هدهداً وطواويس وقُمْراً. وصُلْصُلاً وحَماماً خُضْرا. فكلٌّ يحمد الربَّ وكلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَه ذَبْرا.

والحمد لله الذي حسَرَ الماءَ عن وجه الأرض فجمعه بحرا. وخلق فيه سمكاً ذواتِ زعانفَ وجُرداً، وما ألبسها عظماً، وما ألبسها قِشرا. سلاحفَ وتماسيحَ تَشَمَّسُ على الرمال إذا أحسَّتْ قَرّا. وما يمجُّ مَرجاناً وما تُجِنُّ في بطونها دُرّا. وما تُخرِج عنبراً فيدسُره البحر دَسْرا. وكثيراً مما يسكن من اليمِّ قَعْرا. فلا ينسى الربُّ هؤلاء، فيدرّ رزقه على جميعهم دَرّا.

والحمد لله الذي أجرى في البحر فُلْكا تشقّ لججَه مَخْرا. تحمِل الناس ليروا من آيات الله، ويربحوا تَجْرا.

والحمد لله الذي أرسل الرياحَ لواقحَ بين يدي رحمته بُشْرا، فأنشأ بها سحاباً متراكماً مكفهرّا. يريكم البرقَ فيه خوفاً وطمعاً، ويُسمعكم الرعد منه يسبّح بحمده زَمْرا. نزل أمرُ الرب، فعصَر السُحُبَ عَصْرا. فأرسلت وَدْقَها قَطرا. وسكبت مطراً ثرًّا. فأجراه على الأرض نهرا. وسلكه في بطونها ينابيع غُزْرا. فأحيا به بلداً قفرا. وأنبتَ به الزرع والخضر والنجم والشجر رُزّا وشعيراً وبُرّا. وقضباً وعنباً وتيناً وزيتوناً ونخلاً تحمِل تمرا. رزقاً لعباده، ودلالةً على سعة رحمته، وحكمته التي تُدهش العقول بَهرا.

فسبحان من نظّم الخلقَ من السماء إلى الأرض بنظام متقَن لا ترى فيه تفاوتاً

ولا فَطْرا. نفذتْ كلماتُه في السماوات فخضعتْ لها الملائكةُ الصافِّين[1] الزاجرِين زَجْرا. المسبِّحين التالين ذِكرا. الطائعِين لما يأمرهم به فلا يعصُون له أمرا. خاشعِين لربّهم، فلا يسبقونه بالقول فَزَعاً وذُعْرا. مَن مثلُ ربنا أو مَن يخلق كخلقه؟ كلّا لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، بل لن يخلقوا ذرّا. فمن يستطيع أن يحصي عجائبَ حكمته حَصْرا. كلّا لن تُحصَى ولو جُعِلَ الأشجارُ أقلاماً، وحُوِّل اللُّوحُ لَوحاً، وبُدِّل البحرُ حِبْرا.

فتبارك ربُّنا رحمةً وبِرّا. كما تعالى وتقدّس عِزّةً وكِبْرا. له الخلق والأمر، فيحكم ما يريد نهياً وأمرا. له الملك والقدرة، فلا يملك أحد دونه نفعاً ولا ضرّا. أحاط بكل خلق علماً وخُبْرا. وأحصى كلَّ شيء عدداً وقَدرا.

هو الرحيم الكريم، خلق الإنسان في أحسن تقويم، فأعطاه سمعاً وبصراً وحِجْرا. وعرّف له عُرْفاً ونُكرا. ونفخ فيه من روحه، فأعظم له شَبْرا. وجعله خليفةً في الأرض، فسوّاه بشَرا حُرّا. ليعبده اختياراً، لا إكراهاً وجَبرا. ميسِّراً له ما آثر لنفسه يُسْراً أو عُسْرا. يزيد هدىً من اتقى وأخذ حِذْرا. ومتاعاً من الدنيا لمن أخلد إليها، وجحد بالآخرة عتوًّا وكفرا. كلّا يُمِدّ هؤلاء وهؤلاء، فلم يجعل لعطائه حَظْرا.

هو الغفور الشكور، فوسّع لهم عَفْواً وغُفْرا. وذكّرهم بآياته عُذراً أو نُذرا. ومتّعهم نعمةً منه، وأمهلهم عمرا. ليتوبوا إليه فيُعْظِمَ لهم أجرا. ويبدّل سيّئاتهم حسناتٍ، ويجازي على الواحدة منها عَشرا. بل أضعافا لا تستطيع لها حَزْرا. قائمٌ بالقسط، فيجمعُهم نَشْرا وحَشْرا. لِيُرِيَهم ما قدّموا لأنفسهم خيراً أو شرا. يُنْبِئُ لهم ما

---

(١) «الصافّين» وما بعده منصوب على المدح.

زرعوه بَذْرا. فيحصدون بما عملوا فوزا أو خُسْرا.

هو الغني الحميد، غيرُ ظلّامٍ للعبيد، فهو أكبر وأجلُّ قدرا. مِن أن يضلّهم من قبل، ثم يولّيهم إثماً، أو يحمّلهم وِزرا. كلّا بل خلقهم على الإسلام فطرا. وأخذ منهم على التوحيد إصْرا.

فهذا ثنائي لربي، وهذا ما أدينُ به، وأدعو إليه جَهْرا. فإنّه كما أثنَى على نفسه، فلا تتبع فيه الظنونُ والآراءُ قَفْرا. بل كتابُه الحكيم الذي أنزله إلينا هُدىً وبصيرةً وذكرا.

ورسولُه سيّدُنا محمد النبي العربي صلّى الله عليه وآله صلاةً تدوم وسلّم تسليماً مستمِرّا. إلى آخر الأمد ومدى العدد دهراً فدهرا. الذي أرسله رحمةً للعالمين طُرّا. سراجاً منيراً، فأشرقت بنوره الأرضُ بحراً وبرّا. مباركاً مطيّباً فنشر منه في الآفاق نشرا. عطوفاً رؤوفاً، فقوّى به الضعفاء جَبرا. غيوراً صَبورا، فقمعَ به الجبابرة كَسْرا. بعثه بحنيفيةٍ سمحاء، فأعطاه ديناً يسرا. وضع به ما كان أغلالاً وإصرا. وجعل له أمة مسلمة يتلو عليهم آياته، ويزكّيهم، ويعلّمهم حكمة وبِرّا. أزاح عنهم نخوةَ الجاهلية، فلم يترك لبعضهم على بعض بطراً ولا فخرا. إخوةً أخلّاءَ لا يحمل بعضهم لبعض حقداً ولا وَتْرا. واختار له منهم صَحْباً كراماً لهاميمَ غُرّا. أشدّ لله حَبًّا، وأوفى ذمةً، وأكمل صبرا. فأخلصوا لربهم منهم سرّا. وشدّوا لنبيه أَزْرا. وأعزّوا لدينه نصرا. فأقرّ الله بهم الصالحين عَيناً، وأضحكَ لهم ثَغْرا. وأهان بهم الظالمين، وملأ صدورهم وَغْراً. واستخلفهم متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله، فرضي الله عنهم، ونضّر وجوههم نَضْرا.

ثم تلاهم قَرْنٌ يأثُرون العلمَ عن أولئك أَثْرا. وهلمّ جرّا. إلى أن خَلَف من بعدهم خَلْفٌ لم يحملوا من حكمة القرآن ومعجز بيانه إلا نَزْرا. فلا تجد في أيديهم من

الصحابة ولا التابعين إلا تفسيرَ الكلمات أشتاتاً، لا يأطُرون على روابط المعاني أطرا. فأين العلم الذي كان يفيض به ابن عباس، فيزخَر به عُبابُه زَخْرا؟ أم أين الحكمة التي يلقيها الحسَنُ إلى النفوس، فيزجرها بها زَجْرا؟ هيهات لما فات، واستبدلوا به من الإسرائيليات مالا تجد لها في الصحاح أصلاً ولا جِذْرا. واشتغلوا من سفاسف الأمور بما صار حجاباً دون تدبّر القرآن وحِجْرا.

ثم تلاهم آخرون قد نفثت اليونانُ في قلوبهم رُقاها، فسحرتهم زخارفُ أقوالها سِحْرا. وراقهم ما يتعمق به الفلاسفة سَفَهاً، وما يتشدّقُ به المناطقة هَذْرا. فاختلفت بهم الآراء، وعميت عليهم الأنباء، ففسروا القرآن بالرأي قَسْرا. ورفع كلُّ ذي رأي رايةً، وأخذ كل فريق آيةً، وشَجَرَ الأمرُ بينهم شَجْرا.

ولن تجد لغفلةِ هؤلاء أو ضَلّةِ هؤلاء سبباً إلا أنهم جعلوا القرآن عِضينَ، وجزَروا نظمه الحكيمَ جَزْرا. وقد أنزله الله متشابهاً مثاني يفسّر بعضُه بعضاً، ومحكماً قِيماً لا عِوَجَ فيه ولا بَتْرا. وهل يَرشُد في مساقِ تأويله مَن يجهل اتساقَ تنزيلِه؟ كلّا بل يعثُر في كلِّ خطوة عَثْرا. ولا ينبّئك مثل خبير، إني قد تصفحت كتبَ التفسير وسبرتُها سَبْرا. فما وجدتُها إلا كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً، فلم تُبْرِدْ غُلّتي، بل زادت قلبي حرّا. وملأتْ كبدي جَمرا.

ففزعتُ إلى تدبرِ كتاب الله وسعةِ معانيه، وتركتُ أقاويلَ الناس هَجْرا. وكان بداية أمري أني بينما كنتُ أُجيلَ الطَّرْفَ في نجوم الآيات، إذ أضاء لي في أفقها الأعلى سلكُ نظامها مثلَ الخيطِ الأبيضِ من الصبح، فما ازداد إلا سُطوعاً وجَهْرا. فكشفَ الحجابَ عن فؤادي، أو طحَرَ قذىً عن عيني طَحْرا. فأبصرتُ قصدي، وتبيّنتُ رشدي، وصِرْتُ أُعمِلُ في أساليب نظامها وأعاجيبِ رباطها فِكْرا.

وقضيتُ على ذلك عَصرا. ومِن أحسنِ عمرى شَطْرا. حتى ولّى الشبابُ

ظهرا. وأذاقني المشيبُ طعماً مُرّا. وكرّتْ عليَّ الأسقامُ والأوجاعُ كَرّا. ولامني الصديقُ، ونظر الحقودُ إليّ شَزْرا. بأنّي قد ركبتُ وَعْرا. وتولّيتُ أمراً إِمْرا. ولكنّي لم أزل مشتغلاً بخِصِّيصاي لا أقصُرُ عنها قَصْرا. كأنّ أمراً من السماء يسوقني إليها قَسْرا. لا أدري لعلّ الله وجد المسلمين في عمياءَ مظلمةٍ، فأراد أن يرفع عن خرائدِ القرآن خِدْرا. وأراد أن يُصلحَ آخرَ هذه الأمةِ بما أصلح به أوّلَها، فشرَحَ من بعضِهم لِفَهْمِ كتابه صَدْرا. ولولا هذا الرّجاءُ لما اقتحمتُ مِن هذا الخِضَمِّ غَمْرا. ولولا حديثُ الإلجام لما تصدّيتُ لأمرٍ لو نزل على الجبالِ لهبطَتْ لعظمته خرّا. فتوكلتُ على الله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

فإن شاء ربي سيجلّي لنواظرك من «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» سِفرا. بديعاً في خصائصه بِكْرا. تجد أسفارَ القوم عن معظمها صِفْرا. كاشفاً لك عن بديع نظام القرآن سِتْرا. متمسّكاً بآياته في التأويل، فكأني نذرتُ نَذرا. أن أتمسّكَ بآيات الله ونظامها، فلا أجاوز عنهما شِبْرا. ناشراً بين يديك حِبَراتٍ من معجز بلاغته نَشْرا. مطلعاً بك على ذروة الحكمة التي تعجز الحكماءُ دونها بَهْرا. معتصماً بأصول راسخة للتأويل يُذعِنُ لها أولو النّهى إلا غُمْرا. منتحياً لتأويلٍ واحدٍ، فتاركاً كلَّ رثٍّ واهنٍ، وآخذاً ما كان مُمَرّا. مجتنباً غلوًّا في الدين، فلم أكن متخذَ الباطنية بطانةً، ولا الظاهريةِ ظهرا. مفارِقاً مَن لم يفرِّقْ بين سنة الله وسنن المخلوقاتِ، فكذّب ببيناتِ القرآن، وحرّفَ آياتِه زورا ومَكْرا. قائلاً للمبتدعة كلِّهم: حِجْرا! وللملحدين جميعِهم: بَهْرا!

ذلك، وقد تبرّأتُ مِن حولي وقوتي إلى توفيق ربي، فما أشدَّنا إليه فقرا! اللّهم ربنا لا تؤاخذني بما نسيتُ أو أخطأت، فأنت الغني الحميد؛ وأنا عبدك الحقير الفقير، فلا ترهقني من أمري عُسْرا. واجعل اللهم ربَّنا عملي خالصاً لوجهك، واجعله لي في الآخرة وسيلةً وذُخراً.

تفسير آية



(١)

اللهم نحمدك بأسمائك الحسنى، ونسألك أن تصلى على محمد ذي المقام الأسنى، صاحب قاب قوسين أو أدنى، ونسألك اللهم أن تخلصنا عن هواجس المُنى، وتمنحنا من ذكرك ذخراً لا يفنى.

أما بعد، فهذا تفسير آية ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، وهو أول جزء من جذر كتاب «نظام القرآن» بعد الكتب التي جعلناها تقدمة له و وسيلة إليه. وإنّما جعلنا لتفسير هذه الآية العليا جزأ مستقلًّا لما رأيناها:

١ - جامعة لمعارف عظيمة.

٢ - وقد جعلها الله إكليل السورة.

٣ - وتفسيرها في كل موضع يوجب محض التكرار.

٤ - وذكرها مع بعض السور دون بعض ترجيح من غير مرجّح .

والقول بأنها في أول سورة الفاتحة من آياته وفي أوائل السور الأخر زائدة قول فيه اختلاف بين العلماء، ولعل الحق فيه مع من لا يفرق بين الفاتحة وغيرها في هذا الأمر، سواء كانت داخلة في آيات السورة أو خارجة. وحينئذ صار شأن هذه الآية

تذكرة

في قول ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ استعاذة لما فيه اعتصام بالله، وتوكل عليه. فيكون من الاستعاذة كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ النحل: ٩٨ - ٩٩. فالقول ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إيمانٌ بالربّ، وتوكّل عليه.

كشأن الأمور الكلية، ولو لم يكن هذا تفسير آية من القرآن لجعلناه من المقدمة التي تضمنت كليات المعارف. وكان من شرط كتابنا أن نجعل للكليات ذكراً منفرداً ليحوّل إليه، فنكون في غنىً عن تكرار القول مهما أمكن. وبسم الله الرحمن الرحيم نبدأ، وإليه نبرأ، وبه ندرأ.

(٢)

هي مأثورة معنى، كما ترى في كتاب سليمان: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ النمل: ٣٠ وأما في كتاب أوستاتير[1] للمجوس فهذا الكتاب منحول، ويعلمه الناقد البصير، لا تقبله المجوس إلّا شرذمة قليلة من أحداثهم. وكم من آية نزلت قبل القرآن ولكن غير بالغة فصاحته، كما ستعلم في الفاتحة وغيرها.

وهي آية من الفاتحة، وفاتحة لكل سورة بدليل النزول والحفظ، فإن الله تعالى وعد حفظ القرآن. وبدليل معناها المناسب بالابتداء، وتأويلها الذي سيأتيك قريبا، ولما روي أنها آية من الفاتحة.

الباء لإظهار العظمة، والبركة، والسند. وهذا الكلام ليس للخبر، ولكنه صار دعاء مثل ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ كما ستعلم.

وأمر به أولاً: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ العلق: ١، وجعل أساس الدين الصلاة، وأساس الصلاة ذكر اسمه، كما قال: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ الأعلى: ١٥ أيضا: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ المزمل: ٨ «تبتل إليه» أي صل له، كما يعلم

(١) كذا في المطبوعة. والظاهر أن المؤلف رحمه الله يشير إلى كتاب «دساتير» الذي وضعته طائفة من المجوس في الهند، ونحلوه إلى قدمائهم.

من نسق الآية. والاسم واسطة لذكر الشيء، فذكر اسم الله ذكر الله، وهو أساس الصلاة فأبقى ذكر الله حين تعذرت الصلاة بصورتها الكاملة. وأمر به حين أمكنت تنبيهاً على أنه هو الأصل كما قال: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾ البقرة: ٢٣٩ من صورتها الكاملة.

وكذلك نبه حين أمر موسى أول مرة، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ طه: ١٤.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأعراف: ١٧٠.

وكما أن الله تعالى جعل الاستعاذة أماناً من الشيطان، جعل اسمه أماناً من النسيان، وهو من الشيطان، كما يلمح مما أتبع تسبيح اسمه قوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ الأعلى: ٦.

فحسن به ابتداء القرآن، لما يطمئن به القلب، كما قال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ الرعد: ٢٨.

وعلمت أن ذكر الله أساس الدين، فجعله أساس القرآن، وبه نزل أولاً، وبذلك أمر النبي الكريم ﷺ.

ثم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ إقرار بأن المنة له، والقوة منه. كأنا نقول: ما أنعم الله علينا لاستحقاقنا، بل لحاظا لاسمه الرحمن الرحيم، كما ترى في غير واحد من آيات التوراة. وأن لا قوة لنا إلا به. ولذلك أمر الله النبي الكريم ﷺ بذكر اسمه في أول الوحي.

واسم الله أول ما نزل على موسى حين هيأ الألواح على الطور، فجاء في الباب

٣٤ من كتاب الرحلة[1].

«أن الرب نزل في الغمام و وقف به هناك، وأعلن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ومرَّ به الربُّ أمامه وأعلن الربّ «الله الرب الرحمن الرحيم الحليم البار الحق» راحماً على ألوف، غافر الظلم والجناح والإثم الذي...».

نقلتُ هذا كله، لكي تعلم مكان بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة بعده. وهكذا فسر القرآن في حال موسى حيث قال تعالى:...[2] ويلمح لك منه تأويل سورة «اقرأ» و«سبح اسم ربك»، فهما مثل ما في صحيفة موسى عليه السلام. ونبسط بعض القول تحتهما، وتأويل سورة الفاتحة كما سيأتيك.

فهذا معنى إظهار البركة والعظمة.

فأما السند، فهو طرف آخر من معنى القرآن الجمِّ الإشارات. فقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الآية [يفيد] أن هذا الكلام منزل من الربّ إشارةً إلى ما جاء في الخامس من كتب موسى (التثنية) الأصحاح الثامن عشر: (١٨-١٩):

«أبعث لهم من بين إخوانهم نبيًّا مثلك، وأضع كلامي في فمه، وهو يكلِّمهم بكل ما آمره. ويقع أن من لا يصغ إلى كلماتي التي هو يكلم باسمي أحاسبه».

وهكذا وقع فمن لم يؤمن بهذا النبي حاسبه الله حساباً شديداً. وقد رأينا أن أول الوحي جاء باسمه تعالى، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١ وحسب

---

(١) أي كتاب الخروج.

(٢) بياض في الأصل. ولعل المؤلف رحمه الله تعالى يقصد قوله تعالى في سورة طه: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾.

ذلك نزلت السورة باسمه تعالى.

ثم شفعه باسمي الرحمن الرحيم ليشمل صفة...[1] وضيعت اليهود هذا الاسم، فتجلى ربهم لهم بصفة القهر، وتقنع رسولهم بالهيبة والشدة لقساوتهم، وضُيِّق عليهم في أحكامهم لبغيهم، كما قال في سورة الأنعام:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ﴾ الأنعام: ١٤٦.

ألا ترى كيف شهد به إسبنوزا اليهودي، حيث قال:

«فنقول إن إلههم كان غضبان عليهم، لا من يوم عمروا مدينتهم كما قال يرميا، بل من يوم أعطاهم أحكامهم، ويشهد على ذلك قول حزقيل (٢٥ من ٢٠): «لذلك أعطيناهم قوانين لم تكن صالحة وأحكاماً ما كادوا يعملون بها»».

وبسطة القول في تفسير سورة الأنعام.

وإن تأملت في هذا الأمر علمت أن مثل هذا الدين لا يدوم، فالرحمن لا يترك الناس في المضيق والعسر، كما بشَّرهم، وأخبرنا في القرآن في سورة الأعراف. قال لموسى:

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧.

---

(١) بياض في الأصل.

وفي سورة بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ الإسراء: ٨.

فإنهم لما استحقّوا العذاب بعبادة العجل حين توجهت إليهم رحمة ربهم، وكانوا كامرأة خانت مولاها ليلة عرسها = أخَّر ربُّهم الرحمةَ إلى بعثة أخرى، ليتجلّى لهم يوم تلك البعثة بصفة الرحمة. وكذلك وصف نبينا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ الأنبياء: ١٠٧ وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ التوبة: ١٢٨. وكذلك وصف صحابته: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ الفتح: ٢٩.

(٣)

مفهوم اسم الله تعالى وأنه من أعظم بقايا الدين الصحيح

الألف واللام للتعريف، فلا يسمي بهذا الاسم إلا الله تعالى الواحد خالق السماوات والأرض وجميع الخلق. وهذا المعنى هو المعلوم عند العرب قبل الإسلام، فإنهم مع شركهم لم يجعلوا أحداً من آلهتهم مساوياً بالله تعالى. وأقرّوا بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض، وإنما عبدوا آلهة أخرى لظنهم بأن هؤلاء مقرَّبون، فيشفعون لهم، كما جاء في القرآن:

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ يونس: ١٨.

وأيضاً: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ الزمر: ٣.

وأيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ

لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ العنكبوت: ٦١ - ٦٣.

وزعم بعض الكتاب من المسيحيين أن هذا الاسم أصله «إيل»[١]، كما جاء في العبرانية في أكثر التراكيب، مثل إسرائيل (عبد الله) وإسماعيل (سمع الله) وعمانويل (الله معنا)، واشتقوه من بعل، وظنوا أنه من أسماء الشمس[٢]. وهذا ظن باطل وهوس ممن يجحد بالنبوات، ويزعم أن دين العبرانيين إنما هو مأخوذ من دين الوثنيين.

والحق أن العبرانية أضاعت حرفاً واحداً من أكثر الثلاثي، والمحققون يطلبون صحة ألفاظ العبرانية من ردها إلى العربية، فإنها أكمل الألسنة السامية وأقربها إلى الأصل، أوهي الأصل، كما ثبت عند علماء هذه اللغات، واعترف به المستشرقون من المسيحيين.

وقد بقي في العبرانية أيضاً هذه الكلمة على أصلها، فإن أول كلمة تبتدئ بها التوراة هي كلمة «إلوهيم»، وهي مستعملة كثيراً في التوراة.

وهذه الكلمة من أعظم ما ورثته العرب من الدين الصحيح، وقد أضاعته اليهود والنصارى. فإنه ليس عندهم اسم خاص لله تعالى، فإنهم يستعملون اسم الله لغيره تعالى، وهو عندهم بمنزلة السيد، كما ترى في المزمور الثاني والثمانين:

«الله قائم في مجمع الله في وسط الآلهة يقضي. حتى متى تقضون جوراً وترفعون وجوه الأشرار».

---

(١) انظر كلمة "God" في "Encyclopedia of Religion and Ethics".

(٢) انظر كلمة BAAL, BEEL, BEL في Encyclopedia of Religion and Ethics.

الكلمة التي ترجموها بـ«الله» هي «إلوهيم». وهي واحد وجمع معاً، فإنهم يزيدون علامة الجمع «يم» للتعظيم أيضا. فقوله «في مجمع الله» أصله في مجمع الآلهة كما تبينه الفقرة التالية، ومجيء الفقرة التالية المشابهة كثير جداً في العبرانية. فالمعنى: أن الله تعالى قائم شهيد في مجمع الحكام، ويقضي هو في وسط القضاة، فكيف وإلى متى تقضون بالجور، وتراعون جانب الأشرار الظالمين[1]؟

والقرآن جاء بالبيان الواضح لهذا المعنى، فإنه كثيرا ما ينبه على ما اشتبه عليهم، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ المجادلة: ٧.

فانظر كيف أنهم لم يفرقوا بين الله والحكام، فجعلوا لهما اسماً واحداً!

وهكذا في سفر الخروج ٤ عدد ١٦:

«وهو (هارون) يكلِّم الشعب عنك، وهو يكون لك فماً، وأنت تكون له إلها».

ومثله في سفر الخروج ٧ عدد ١:

«فقال الرب لموسى: انظر. أنا جعلتك إلهاً لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك».

أي جعلتك أميراً، وهارون سفيراً منك إليه، فيكلمه من جانبك.

---

(١) للتفصيل انظر «مفردات القرآن» للمؤلف، ص ٢٤٩.

ومنه ما جاء في سفر التكوين ٣٢ عدد ٣٠:

«فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذِه. فانخلع حُقُّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: أطلِقْني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال له: لا يُدعَى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرتَ. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي، وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان: فنيئيل قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجهٍ ونجيت نفسي».

وهذه قصة عجيبة معضلة لا مخرج لهم عن حماقاتها، وذلك من استعمالهم كلمة «الله» و«إيل» حيث ينبغي لهم جبار أو عفريت.

فترى أنه لم يكن لاسم الله عندهم كبير منزلة، وكان مثل اسم الأمير، والسيد، والجبار، والشديد، ولذلك معناه عندهم: القوي الشديد، والاسم الخاص لله تعالى عندهم آخر وهو «يهوه» ولكنهم شاكّون في حروف هذه الكلمة وحركاتها، فلا يمكنهم التلفظ بها. جاء في سفر الخروج ٦ عدد ٢-٣:

«ثم كلم الله موسى، وقال له: أنا الربّ، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يَهْوَهْ فلم أُعرَف عندهم».

فعظّمت اليهود هذا الاسم الذي خص به الله نبيّهم موسى، وجعلوه أعظم أسماء الله، وظنوا أنه لا ينبغي النطق به، فكان إمام الشعب يتكلم به مرة في السنة. ولكي يمتنع الناس عن التكلم به جردوه عن الحركات، فبقي الاسم مجهولا. وإذا مرّوا عليه لا يتكلمون به لجهلهم بحركاته، بل يلحدون فيه عن صحيح القراءة، ويقرؤون عوضه «أدونيم».

فيا للعبرة! إنهم لم يضيعوا كتاب الله فقط، بل ضيعوا اسم الرب، فسدّ عنهم باب الدعوة لما ضيّعوا معناه، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ الصف: ٥.

تفسير

سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الأول

(١)

نظام هذه السورة ذو جهات، كجوهرة ذات أطراف براقة، فنذكر جهات النظام واحدة بعد واحدة.

الجهة الأولى: أن هذه السورة ديباجة القرآن، وجامعة لعلومه الثلاث على

تذكرة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ مقام الشكر والذكر.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ مقام التوكل والتسليم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مقام الإخلاص والتوحيد.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ مقام التوحيد والتوكل.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ جامع للإيمان والإسلام.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ جامع الإسلام.

تذكرة

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في إعرابه اختلافات. ولعل فيه أسلوباً خاصاً للنفي، وأصله: لا تهدنا صراط الذين غضبت عليهم، و هو بدل من الموصول، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ فإنه معطوف على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ التوبة: ١٦.

الإجمال، ولذلك سماها العلماء «موفية». ومن حيث إنها ديباجة القرآن وحاوية لجميع علومه، هي قرآن مستقل، كما أن ديباجة الكتاب من حيث إنها هي شيء زائد عليه. وهذا إنما هو من جهة اعتبار واحد، وإلّا فالديباجة ليست إلا جزءاً من الكتاب.

وذلك أمر استنبطه العلماء من القرآن، فإنّ الله تعالى تنبيهاً لعظم منّته على نبيه قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ الحجر: ٨٧.

وقد اتفقت العلماء من السلف إلى الخلف على أن السبع المثاني هذه سورة الفاتحة. فانظر كيف سمّاها الله على حدتها قرآناً عظيماً، كأن لهذه السبع شأناً على حدتها.

وإن قيل: إن العطف ليس للتفسير، بل المراد: إنا أعطيناك هذه الآيات السبع، ومعها القرآن العظيم، فعلى هذا التأويل أيضاً هي زائدة على القرآن العظيم، فإلى أي تقدير تذهب تجدها مستقلة وجامعة.

ومن هاهنا تستدل على كنه ما روي من أن الفاتحة لم تكن في مصحف عبد الله

تذكرة

موقع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ بعد ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾

فاعلم أن ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ ذكر الرب من جهة كونه ديّاناً، ومن جهة التوكل، فإن العلم بالدينونة يهيج التوكل. وبعد التوكل إقرار العبودية، والاستعانة حسن طلب المغفرة، والعذر كما ترى في قول المسيح عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ المائدة: ١١٨. أي نحن عبادك، فافعل بنا ما يفعل الرب بعبده، ولا قوة لنا بالخير إلا بك، فإن أخطأنا فقد سألنا القوة منك.

بن مسعود، فإن القرآن مكتوب في الصدور، وقد جاء به جبريل، وتعلمه النبي الكريم ﷺ، وعلّمه أصحابَه، ووعوه بالقراءة، وإنما كتبوه وجمعوه في المصحف لأجل ذلك.

فإن صح أن عبد الله بن مسعود ﷺ لم يكتب الفاتحة في مصحفه، فلأنها مكتوبة في صدر كل مؤمن، وتجري بها ألسنتهم كل يوم بأكثر من اثنتين وثلاثين مرة. وما أوعيت صدرك فقد بالغت في حفظه، فإنه مع روحك وجسمك. فليس لملك جابر أن يأخذه، ولست تحتاج إلى نقله وحفظه في متاعك عند ترامي السفر بك.

وكانت العرب لا تكتب ما تقدر على حفظه من الكلام. وقد حفظ الله القرآن بهذا الطريق، فأنشأ في الأمة حفاظا إن تعدّهم لا تحصهم، أبقاهم الله وكثّرهم.

وهذا أمر جاء في التوراة مثله، فإن الأمة أمرت بحفظ كلمة التوحيد بكل طريق، وبقية الأحكام أودعت صحيفة، ونُسيت، وأضيعت.

ولما جعل الله هذه السورة في صلاتنا أوجب على جميع الأمة أن يكتبوها في قلوبهم، فهذا هو المراد من قول عبد الله بن مسعود ﷺ. والغافلون لم يفهموه، وظنوا أنه ﷺ أخرجه من القرآن؛ حاشاه الله عن ذلك.

(٢)

وأما أنها كيف جمعت علوم القرآن، فالقرآن بحسب الإجمال يعطيك علوماً ثلاثة: (١) التوحيد (٢) والشرائع (٣) والمعاد. وإن فصلنا هذه الأمور، بحيث تراها تسع جميع القرآن، خرجنا عن هذا البحث إلى فضاء عريض. وسيظهر ذلك على من يتلو القرآن بالتأمل.

ولا نقول: إن بعض آياتها في التوحيد، وبعضها في الشرائع، وبعضها في المعاد على حدتها، فإن هذه العلوم فيها ممزوجة، فلا تراها مفترقة. والتوحيد كجلباب أُسبِلَ

على السورة، ثم تحتها الشرائع والمعاد. وتتجلى لك هذه الإشارات من تفسير السورة إن شاء الله تعالى.

(٣)

ومن هذا الذي قدّمناه تبين لك حكمة وضع هذه السورة للصلاة، فإن الذي قرأ الفاتحة كأنه قرأ جميع القرآن إجمالاً، وبعد علم التفاصيل يذكّرك الإجمالُ جميعَها. وسنبين لك أن هذه العبارة إكمال الصلاة، ولا صلاة أكمل من صلاة حوت هذه الكلمات، وهي بغير هذه الكلمات المعجزة أيضاً مأثورة للصلاة[١]، فلا صلاة إلا بها.

ولذلك أخبرنا النبي الكريم ﷺ بأن «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[٢]، وما أرحم نبينا بالأمة حيث قال ثلاث مرات: «خداج، خداج، خداج»[٣]! لكي يعلموا محل هذه السورة في تكميل الصلاة، ولا يتركوه، كما ترى اليهود والنصارى، فإنهم لم يعرفوا قدر هذه السورة، وهي في كتبهم وصلاة أنبيائهم، كما سنذكر في الفصل...[٤] فجعلوا في صلاتهم أدعية لفّقوها، وكم مرة بدّلوها، واقتتلوا عليها.

ولكن الله تعالى منّ علينا، أمةَ محمد ﷺ خاتم النبيين، بأن كل طائفة يعبأ بها من المسلمين يقرؤون هذه السورة في صلاتهم، كما أنهم لا خلاف بينهم في عدد الصلاة وركعاتها، وقيامها وقعودها. فحفظ الله تعالى هذه الصلاة، كما حفظ القرآن عن التبديل والتحريف.

---

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى الدعاء الوارد في بعض الأناجيل، وقد فسره في الفصل الثاني.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٩٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (٩٠٤).

(٤) بياض في الأصل، وانظر الفصل الثاني.

فنشكر الله ربنا على ما حفظ هذه الأمة عن العثرات، ولم يتركها كاليهود والنصارى في ضلال وظلمات، وظهر أن الإسلام إلى الآن منصور، وظله مبسوط، والأمم إليه راغبة، والأنوار عليها نازلة. وكتاب الله فينا عهده، وصلاتنا ذكر ذلك العهد، كما شهد به التوراة والإنجيل والقرآن، وبسط القول في تفسير آخر سورة الفتح.

وإنما ذكرت هذا الأمر لكيلا تذهل عن منزلة هذه السورة، ومنزلة الصلاة التي هي تقرأ فيها بالخلوص، ثم لكيلا تلتفت إلى قول الذي يدعي أن الإسلام مخذول، والنور عنه محجوب، إلّا ما خصت به فرقته الشاذة!

إن الله بعث خاتم الأنبياء ووعد، فأنجز له النصرة، وإتمام النعمة كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩. وقد كثر بشارة الفتح بهذا النبي حتى إن اليهود كانوا ﴿مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ البقرة: ٨٩.

وقد جاء في الكتب المقدسة مدح الذين يدخلون يروشلم، ومدح في القرآن نماء هذه الشجرة حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ الفتح: ٢٩. فهل كان هذا الظهور ظلًّا زائلاً، وشجرة مجتثّةً، وبرقاً خُلّباً؟ كلا! إن الباطل يزهق، والحق ينمو ويبسق.

(٤)

الجهة الثانية: قد علمت أن الفاتحة من جهة كونها ديباجة هي جامعة لمعاني القرآن، فكما أنها جامعة لعلومه الثلاثة، فكذلك هي جامعة له من جهة نظامها أيضاً. فإنك إذا تلوت الفاتحة تجلت لك جملة القرآن حسب نظمها، فمثلها كمثل مرآة صغيرة تريك شيئاً عظيماً في هيئته وصورته، فهذه جهة أخرى لكونها موفية وجامعة.

وبيان ذلك أن القرآن إذا رأيته بجملته وجدته يبتدئ بحمد الله تعالى، ثم تراه يكشف عن أصول الإسلام ظاهراً وباطناً، حتى ينتهي إلى كمال الفتح والنصرة، وإهلاك المخالفين، وإتمام فرض النبوة. وجعل سورة التوحيد آخر العهد بالله تعالى، ثم ترى بعد تكميل هذه المدينة الإلهية، وسورها، وبروجها حارسَين أو سورتَين أو سيفَين أو صارماً ذا شفيرتين، وذلك سورتا المعوذتين، كأن القرآن جنة عدن يحرسها كروبيان بسيفين لامعين. والتفصيل في تفسير نظام السور.

فإذا صوَّرت القرآن في نفسك هكذا، رأيت الفاتحة تشابهه في هذه الهيئة. فإنّ أولها حمد الله، ثم بعد ذلك عدل يحوي المعاملات كلها، ثم أصلان للعبادات، ثم الصراط المستقيم الذي هو التوحيد والسنّة، كما سنبينه، ثم الاستعاذة من جهتين، ظاهرة وباطنة، كما في المعوّذتين.

وشرح هذا يطول، وإنما تتضح لك المقابلة بعد الاطلاع على تفسير السور الأخيرة، ولكن ستقف على بعض الأمور عند تفسير كلمات هذه السورة إن شاء الله تعالى.

فهذه السورة أيضاً مثلها كمثل جنة عدن يحرسها الكروبيان، وليس هذا التشبيه من تخيلات الشعراء، بل له أصل غامض، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

(٥)

الجهة الثالثة: أن هذه السورة لكونها أصل الصلاة إذ قُدِّمت على سائر القرآن العظيم، استنبطنا من موضعها أن الصلاة أول الأحكام، وأن تارك الصلاة نابذ للدين. ولما كان هذا الاستنباط بطريق الإشارة نظرنا في أحكام القرآن والسنة، فوجدناه موافقاً لهما. فصحّت هذه الإشارة عندنا، وعظمت لدينا منزلة الصلاة بأن الله تعالى جعلها فاتحة عهده بنا.

وقد ذكرنا في تفسير سورة البقرة تحت آية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة: ١٥٢ أن عهد الرب بهذه الأمة إقامة الصلاة، فمتى تمسكنا بها تمسكنا بحبل الله وعروته الوثقى، فينصرنا على أعدائنا، ويحفظنا من أعدى عدونا الذي بين جنبينا، كما وعد بنا كثيراً في كتابه.

وصرح بهذا الحفظ حيث قال عز من قائل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥ وأخبرنا عن غواية قوم لتركهم الصلاة حيث قال: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ مريم: ٥٩,

---

تذكرة

سورة الحمد أول القرآن وآخر الزبور، وفيه بشارة بهذا النبي، اتل آيات ٦-٩ (مزامير ١٤٩) حيث يقول: «الله أكبر في فمهم والسيف ذو الشفرتين في يدهم».

هذه سورة الشكر والذكر، وسورة العهد، والصلاة هي العهد، وذكر له، والعهد على التوحيد.

فقولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ إقرار بالتوحيد وذكر لما عاهدنا به ربنا أولاً، كما ذكر في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ يس: ٦٠ - ٦١.

فقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ جامعة بين الإقرار والدعاء، فإن طلب الهداية من الاستعانة. وقد وعد الله تعالى الإجابة حيث قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة: ١٥٢ وجعل الصلاة صورة الذكر فكأنه قال: صلّوا، فيكون الرب معكم، وينصركم. ولذلك جعل النصر منوطاً =

وقد وضعت هذه الآية بعد ذكر الذين أنعم عليهم من النبيين، وأتباعهم. فلم يخفَ علينا أن ترك الصلاة هو الخروج عن الذين أنعم الله عليهم، وهم حزب الله. ثم في هذه السورة أكد هذا بالدعاء الخاص بأن يسلكنا سبيل هذا الحزب المبارك.

وليكفنا الآن هذا القدر وتجد زيادة على هذا في سورة الحج تحت آية: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾الحج: ٤١.

=

بالصلاة، والخذلان بتركها. ولذلك قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي عهد الله ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾الأعراف: ١٧٠.

تذكرة

﴿ ٱلۡحَمۡدُ ﴾ أول علمنا من جهة التربية، وذلك بما نرى من تربيتنا وتسخير السماوات والأرض وما بينهما لمصالحنا. وكذلك هو أصل علمنا من جهة فطرتنا، فإنا نوقن بصحة مداركنا وذلك يستلزم كون الرب حميداً، كما فصلناه في كتاب «حجج القرآن» وغيره. وهو الواجب بالذات، لأن الإله الحق بمعنى المحسن أو كامل الحسن لهو المستحق للحمد، ويجب علينا شكره فنحمده.

و﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ﴾يلزم حمده وشكره من الكل.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ أول ما يطلب، فإنه التوحيد، وبتفصيله هو الطريق الموصل إلى الرب، وهو الشرع ويلزمه الإطاعة للرسل. وهو أجمع الأدعية، وأتمها، وهو أولها. فإن كل عمل وعلم أخطأه بطل وأبعد.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ تفسير كونه إلهاً، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ٣ ﴾ تفسير الرحمن، و﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ ﴾

=

وفي الجملة الأولى من سورة «قد أفلح»، وفي سورة البقرة تحت آية: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ البقرة: ٢٣٨ وفي سورة الكوثر، وغيرها إن شاء الله تعالى.

(٦)

فهذه جهات ثلاث لنظامه بالنسبة إلى سائر القرآن العظيم، فأما نظام آياته فقبل إيضاحه نرفع بعض الحجب عن الأسرار التي لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى، ولكن تخرج منها لوامع للمتوسم. وإذ هي ليست بالنص الصريح، فلا يجب على العامة أن يؤمنوا بها.

وإنما أردت كشفها، لأن في هذا الزمان نشأت فرقة تؤول القرآن مع الجهل به،

=

توكل، فلا يكون إلا على الإله الرب.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يستلزم كونه إلها، وربا، ومالكا في الآخرة.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فأما «إياك» فلما مرّ، وأما «نستعين» فلتحقيق العبادة، وكمال التعبد: التعبد به وبحوله.

وأيضاً: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ لبعض ما في «نعبد»، فإن التوحيد لا يكون بغير توحيد الاستعانة.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ تفسير لما مر من الطلب، ولما تضمن من معنى التوحيد.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تفسير لصراط التوحيد، وتشخيص له. وما بعدها جهة أخرى لما سبق على جهة النفي، فذكر كلا الطرفين إيجابياً وسلبياً.

كما نشأت فرقة في ابتداء خروج الباطنيين، وادعت دعاتهم للسلطنة أنها من أئمة معصومين مع تصريح المجتهدين منهم باستخراجها من كتب الأنبياء والفلسفة. فكذلك في زماننا ادعت فرقة أن رسولا أرسل إليهم، وكشف له أسرار القرآن العظيم، ففتن ناساً قلّت معرفتهم بهذه العلوم، وشقّ عصا المسلمين، وقضى بالهلاك على من لا يؤمن بهذا الرجل ووحيه.

ولما رأيت فتنة الناس بهذا المدعي، مع خلطه الحق بالباطل، أردنا أن نرفع بعض الحجب ليستمعوا القول، فيتبعوا أحسنه، ويعلموا أن الوحي والرسالة فوق ما زعموا، ولا نتمسك إلا بالقرآن أو كتب الأنبياء.

ومع أني سلكت في هذا البحث مسلك أصحاب الرموز والإشارات فإني تجنبت سخافة الاستدلال، وصرفَ الألفاظ عن ظواهرها. وبعد هذا التمهيد والاحتياط أكشف بحوله تعالى حجباً مستورة.

(٧)

الحجاب الأول يرفع عن سر عدد آيات الفاتحة

تذكرة

دلّ على أولية الصلاة بوضع سورة الفاتحة في أول الكتب، وجعل التمسك بها التمسك بالكتاب، حيث قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الأعراف: ١٧٠. وأشار في ذلك إلى معنى الكتاب، وهو القرآن العظيم من جهة كونه متضمناً على الشرائع وهكذا ما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ الأنعام: ٩٢.

فاعلم أنه لم يصرح بعدد آيات سورة غير هذه، بل سماها الله تعالى بعدد آياتها، فدعانا إلى التدبر فيه. وللعدد اعتبار عظيم في الكتب المقدسة، وكذلك عند الحكماء جميع أمور العالم مقدر بالأعداد. وبمثل ذلك جاء القرآن العظيم حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ القمر: ٤٩. ومثله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ الرعد: ٨. وبسط ذلك في كتاب «التقدير والحسبان»[1]. فلسنا ذاهبين في سبيل التوهمات إذا تدبرنا في مطابقات الأعداد، وإشاراتها.

هذا، وقد أخبرنا القرآن أن الثمانية عدد حملة العرش يوم القيامة، حيث قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ الحاقة: ١٧. وقد فهموا، ونفهم أنها تزيد ذلك اليوم، والآن هم أربعة، كما جاء في الخبر من غير تفصيل. ولكنا نجد في كتب الأنبياء تفصيله، وذلك أن النبي ذا الكفل عليه السلام، وكذلك يحيى عليه السلام رأى تحت العرش سبعة أرواح، وأربعة ملائكة يسبحون ويهللون. فإلى هذا نؤول الخبر.

وقد علمنا من القرآن أن الروح أخص من الملائكة كالإنسان من الحيوان، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ النبأ: ٣٨ وكما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ القدر: ٤ انظر كيف قدم الروح في ذكر القيام، وقدم الملائكة في ذكر النزول لتعلم أن مقام الروح أرفع وأقرب، ثم في ذكر حملة العرش جاء بكلمة تعمّ كليهما، ولكن فرق بين الحملة ومن حول العرش فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ غافر: ٧ وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ الزمر: ٧٥. فعلمنا أن الحملة العليا هم الأرواح السبع، وحول العرش ملائكة حافون به.

(٨)

---

(١) لم نعثر على الكتاب المذكور في آثار المؤلف رحمه الله.

فاعلم أن عدد كليهما سبعة، وللروح أعمال الأرواح، وللملائكة العامة تصرف الأمور الجسمانية، كما قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ القدر: ٤ فما من أمر إلا وينزل به الملائكة والروح، وقال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ المعارج: ٤ وفي كتاب النبي ذي الكفل عليه السلام ومكاشفات يحيى عليه السلام تمثل لهما الملائكة على صورة إنسان، وأسد، وبقر، ونسر، فهذه أربع، والخامس من الحيوانات لم ير، فإنه طرد وقد كان فيهم، وهو الشيطان رئيس عالم الديدان على صورة الحية، ولذلك سُمِّي شيطاناً. وكذلك لم يذكرا ملكين آخرين على عالم النبات، فإنهما تحت ذلك المقام عند سدرة المنتهى، فهذه الخلفاء السبع دون الحملة العليا، وهم سبعة أيضاً كما مر، وصرح به في كتب الأنبياء.

(٩)

القرآن علّمنا من أحوال الروح والملائكة أموراً لم يُكشف عنها في الصحف الأولى، كما أنها ذكرت أموراً سكت عنها القرآن، ولم تتعلق بها الحاجة العامة، فترك إشارات لطيفة ودلائل لائحة لذوي الألباب، ليُعملوا فيها قلوبهم، فيقتنوا بها كرامة زائدة.

فذكر في القرآن الحكيم أولاً أن الله تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم بعد ما نفخ فيه من روحه. وقد علمنا أن الروح نوع عال من عباد الله، فاتضح لنا أن الله إنما أمر الملائكة بطاعة الروح المقدس، وقد صرح القرآن بأن الروح المقدس مكين مطاع عند الرب، فلابد أن تكون الملائكة تحت حكمه.

وقد علمنا أن كل مخلوق في هذا العالم خاضع للإنسان، فهذا آية على أن فيه من ذلك الروح المقدس المطاع، وكلما ازداد الإنسان عبودية وتطهر من لوث النفس زاده الله حظًّا من الروح المقدس وإطاعة العوالم بإذن الله تعالى. ومع ذلك نفي عنه

إرادته من نفسه، فيصير عبداً كاملاً، راضياً مرضياً كما جاء في وصف العباد المكرمين، وجاء في الخبر الصحيح: «حتى أكون سمعه وبصره»(١) إلى آخره. فالعوالم تطيعه، وهو يطيع ربه، فطاعته طاعة الرب كما قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ آل عمران: ٣١ فلا يكون إلها أو شريكه، بل عبداً كاملاً في العبودية، كالكلمة والقلم والكتاب لملك، فمن أطاع أحداً من ذلك أطاع الملك...(٢).

﴿... إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ الشعراء: ٧٧-٨٥ لمحبته والشوق له ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلى حضرته ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ في الدنيا من وراء الحجب ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ من الأمراض الدنيوية، أفلا يشفي غليل الروح العطشان في هذه الحياة الدنيا؟ ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ كما هو يشفي بعد السقم ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ فإنه ديان، عادل، فصح الطمع فيه لأن يتغمدنى بالمغفرة يوم الميعاد ﴿رَبِّ﴾ الآن من شدة القربة دعاه بهذا الطريق، كما دعا في أول القول باسم رب العالمين ﴿هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ من حزبك الذي وصل إليك من آبائنا ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي اجعل في خلقي من يصدِّق قولي ويلحق بي ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ حيث ألحق بحزبك، وحيث تطعمني وتسقيني كما ربيتني، وتغفرني تحت جناح الرحمة.

فهذه الآيات تشير إلى اجتماع الصلحاء في جنة واحدة مع كثرتها، وتفاوت درجاتها، كما ترى في وجودك قوى بعضها فوق بعض مع أن روحاً واحداً يجمعهن،

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

(٢) بياض في الأصل.

فإن أصحاب الجنة مجتمعون كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الحجر: ٤٧.

ثم ترى بعد هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام ذكر أصحاب الجحيم فقال: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ كما أنهم مكبون في هذه الدنيا على وجوههم، والشيطان تصويرهم الكامل الذي يمشي على بطنه ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي سائر عالم المكبين من الذي يمشي على بطنه.

فإن تأملت هذه الآيات رأيت اجتماعين كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ الشورى: ٧ ووصفهما الله تعالى حيث قال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ الملك: ٢٢.

فالإنسان عالم واحد، ويلحق برفقائه، كما قال النبي الكريم ﷺ حين وفاته: «بل الرفيق الأعلى»[(١)] أي الآن تم أمر النبوة، وكملت أركانه، فلا نصبر عن هؤلاء الرفقة. وسمّاهم بصيغة الواحد لشدة اتحادهم فليفهم من يفهم. وهذا الرفيق ليس إلا من هو على الصراط المستقيم، الذي بين العبد والرب، كما قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ هود: ٥٦ وعليه جميع الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، كما ستعلم.

فإن اتضح أن الجنة عبارة عن الوصال، واتحاد الأرواح الطيبات، وتجلي الرب عليه حسب كمال استعداد هذا الإنسان الكامل الذي حوى الأرواح السبع، وصار درجة ثامنة فانية تحت تجلي اسمه الأعظم، علمت أن عدد آيات هذه السورة منازل ودرجات سبع؛ وفوق كلها، كالتاج المبارك، آية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فهي

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٠٦٥).

درجة ثامنة، عليها تجليات أنوار الله التي عبر عنها بالعرش كما بيّن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ القمر: ٥٤ – ٥٥. ونرجع إلى تفسير هذه الدرجة الثامنة في ()[1]. فهذه السورة كما هي جامعة للقرآن، فهكذا هي جامعة لعوالم الأرواح، وحاملة لعرش ربنا.

(١٠)

الحجاب الثاني يرفع عن سر الدرجات

فاعلم أن الله تعالى بيّن قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ في سورة النساء حيث قال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما كتب عليهم على لسان موسى عليه السلام من قبل ﴿أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ كما أخرج موسى عليه السلام آباءهم ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧﴾ كما وعدهم على إطاعة هذا النبي الأمي ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾ النساء: ٦٨ – ٧٠.

فلم يلبس على العلماء بعض ما في هذه الآيات، فإنهم اتفقوا على أن فيها بيان

---

(١) كذا في الأصل.

ما ذكر في الفاتحة من المنعم عليهم، فقالوا: إنهم أربع درجات: النبي، والصديق، والشهيد، والصالح. فالآن نفصل هذا الأمر بالنظر في ما سبق ولحق بهذه الآية الواحدة التي فيها تفصيل الدرجات الأربع.

فاعلم أن هذه الآيات تخاطب أهل الكتاب، الذين فيهم المنافقون، وتدعوهم إلى الإطاعة الصحيحة والانقياد التام للنبي الكريم ﷺ، وتخبرهم بأن الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان إن جاؤوا إلى النبي، واستغفروا الله مستشفعاً بهذا النبي، وجدوا الله تعالى توابا رحيما، فيغفر لهم ما سبق. فإذا ثبتوا على التوبة بالطاعة آتاهم أجراً عظيماً، وهداهم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم. فاتضح لنا أن تحت هذه الدرجات الأربع درجة للذين استغفروا بعد ما ظلموا أنفسهم، وهم الذين يلحقون بهولاء الأربع كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ النساء: ٦٩.

فالتوبة بعد الظلم درجة مستقلة رفيعة، وكثر حمدها في القرآن و الإنجيل. وقد وجدنا في صفات الأنبياء: (١) الإنابة (٢) والصلاح (٣) والشهادة (٤) والصديقية (٥) والنبوة، لأنهم يجمعون درجات العبودية وحسناتها. ثم هذه الدرجات الخمس بين درجتين كما ستعرف.

(١١)

فاعلم أن أول الدرجات: التوبة، وآخرها: الحمد، وبعض الأنبياء أحق ببعضها، وكذلك أتباعهم. وتعلم أن أتم النعم في الدنيا آخر عهد الله بعباده، أي القرآن؛ كما أن أتم النعم في الآخرة لقاؤه والرجوع إليه. فيقرب إلى العقل أن يكون الحمد مقام آخر النبيين، وحسب ذلك ما جاء في القرآن: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ الإسراء: ٧٩. وإلى هذا يشير اسمه أحمد ومحمد، وجاء في الحديث: «إن

لواء الحمد بيده» وهو «قائد الغُرّ المحجَّلين»[١].

وهذه النكتة مفتاح لمعرفة درجات النبيين فإنا نرى أن آدم عليه السلام رأس التوابين، وجامع لصفتي الظلم والتوبة والاجتباء، ومن له حظ من علم الدين لا يزدرى درجة الظلم الذي من الجهل، فإنها «أبجد» الفطرة الإنسانية، وبها استحق كرامة الأمانة، ولولاهما لأبى كالسماء والأرض وليس هذا مقام شرحها فلا شك أن آدم عليه السلام على ابتداء الدرجات، وستعلم أنه بحسب الجامعية على آخرها أيضاً.

(١٢)

فبعد ما علمت أولى الدرجات وأخراها نوجهك إلى سرِّ الدرجات كلها. فاعلم أن في الأنبياء سبع درجات حسب آيات هذه السورة، فالآية الأولى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، تشير إلى درجة محمد ﷺ كما علمت آنفا، والآية الثانية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ إلى درجة عيسى عليه السلام، لما كان على غاية صفة الرحمة لوجوه ظاهرة وخفية. فمن الخفية أن اسم الرحمن يستعمل كثيراً في سور خصت بذكره، وهذه نكتة لا أدري ذكرها أحد من المفسرين. ومن الوجوه الظاهرة أن الله ذكر خاصة في صفة أتباعه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الحديد: ٢٧.

والآية الثالثة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ تذكرنا منزلة موسى عليه السلام

١- لما كان على كمال العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- ولم يعط الله تعالى نبيًّا قبله من الأحكام المفصلة ولا بعده مثل ما أعطاه كما

---

(١) كون لواء الحمد بيده، انظر حديث الشفاعة في سنن الترمذي (٣١٤٨) وكونه قائد الغر المحجلين ورد في حديث الإسراء، انظر مجمع الزوائد (٢٤٥).

شهد به القرآن.

٣- ومثّل لهم دينونة القيامة، وملكوته، فكان الله تعالى عليهم ملكا؛ وأراهم آياته ليوقنوا بيوم الدين ومالكه. تأمّل في آية: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ الأنعام: ١٥٤.

ولا يلتبس ذلك على من نظر في التوراة، وحالة سلطنة بني إسرائيل من عهد موسى عليه السلام إلى داود عليه السلام، حين جدد الله بهم العهد، وبنى فيهم بيته المقدس، فإن ملكوت الرب لا يخفى (انظر كتاب ملكوت الله)[1].

فالآية الرابعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ تذكار لعهد داود عليه السلام لأن شعب الله قد دارت عليهم الدوائر، فتداركهم بعون جديد، وأعطاهم ملكا عظيما، وأقام فيهم بيتاً لنفسه، ليعبدوه ويباركوا بهذا البيت المقدس؛ كما يظهر لك إن رأيت تاريخهم في الكتب المقدسة.

وقد ذكر الله تعالى قصة داود عليه السلام في سورة البقرة، بحيث تذكر عون الله ونصرته، وتعلم أن مقصده ليس غير العبادة وخلاص بيته المقدس انظر تفسير آية: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ البقرة: ٢٥١. فتعلم حقيقة العبادة والجهاد. فكان داود عليه السلام أول ملوكهم، وأما طالوت الذي قبله فكالممهّد له، وإنما مَلَكَ لوقت، وسُلِبَ الملك.

وأما تأخير بناء البيت إلى عهد سليمان عليه السلام، فكان لسبب خاص. وكان داود

---

(١) وهو مطبوع، ولكنه غير كامل.

عليه السلام هو الذي أراد الأمر، وسأل الله تعالى، فمنع لحكمة، و وعده الله أن ابنه يحوز هذا الشرف.

فلا يخفى على البصير الناظر في كتب الأنبياء أن داود عليه السلام هو رأس الملوك في بني إسرائيل، ولذلك ترى في الإنجيل أن عيسى عليه السلام هو وارث داود عليه السلام. وكثر في الكتاب التعبير عن سلطنة بني إسرائيل بسرير داود عليه السلام، فهو العبد المستعين. اتل الزبور لتعلم تضرعات داود عليه السلام للنصرة، والملك، وقمع الأشرار، ونفيهم. ولذلك خص الله تعالى الزبور لخبر بشارة وراثته الأرض حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٥.

وكثر هذا القول في أقوال سليمان عليه السلام.

هـذا، والآيـة الخامسـة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ ظـاهرة الإشـارة إلى درجة إبراهيم عليه السلام. فإن الصراط المستقيم هو التوحيد، والتوجه إلى الله. وما من نبـي إلا على هذا الصراط. ولكن إبراهيم عليه السلام

١- هو رأس الموحدين. وكم في القرآن من الآيات تسمي هدي إبراهيم عليه السلام صراطاً مستقيماً.

٢- وهو أول من كسر الأصنام.

٣-وهو الذي رفع قواعد بيت التوحيد، كما بنى داود عليه السلام بيت النذور، والقدس (انظر هذا البحث في سورة ألم تر كيف).

٤- وهو أول من فرّ إلى الله تعالى بدينه، فصار رأس المهاجرين، ولذلك أمر الله نبينا باتباعه، فإن شؤونه كشؤونه.

٥- وهو الذي سمّانا «مسلمين» من قبل، فالمسلمون أحق بإبراهيم عليه السلام. اتل

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ آل عمران: ٦٧ - ٦٨. انظر كيف ختم الله الآية بأنه ولي المؤمنين، فاستقام سبيل الولاية، واتصل بربنا الذي على صراط مستقيم.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٦١ - ١٦٢. فتبين لك أن الصراط المستقيم له دلالة خاصة على درجة إبراهيم عليه السلام لإقدامه، وتشميره، واستقامته.

ونزيد البحث عن سعة معنى هذه الكلمة الجامعة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(١٣)

وبعد ما علمت مطابقة الآيات الخمس لهؤلاء المرسلين، نشير إلى مطابقة الصفات الأربع من النبوة، والصدق، والشهادة، والصلاح للأربعة منهم، ثم نرجع إلى شرح الثلاث الباقية.

فاعلم أن الأولى درجة محمد ﷺ «النبيّ»، فإنه سمي خصوصاً في التوراة باسم «النبي»، فهذه لام العهد مختصة به ﷺ. والثانية درجة عيسى عليه السلام «الصدّيق». وإنما سمي الصدّيق إبراهيم، وإسماعيل، وإدريس، ومريم عليهم السلام خصوصاً، ولكن أطلق هذا الاسم عموماً للصادقين في الإيمان حيث قال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الحديد: ١٩. فكل نبي صدّيق، كما أن كلّهم شهداء. مع ذلك نرى أن الصديقية زهرة تخرج من الطهارة، ولم يوصف لنا نبي كما وصف عيسى عليه السلام بالطهارة، فقال الله تعالى في صفته: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ ﴾ آل عمران: ٥٥. وفي صفة أمه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

آل عمران: ٤٢.

وطهارة العبد أن يخلص نفسه لربه، وأرى هذه الصفة ساطعة في إبراهيم ﷺ، كما أنه ترك نفسه، وماله، وأباه، وقومه، وهاجر إلى بلد قفر. وكذلك حال إسماعيل ومريم عليهما السلام لتخلُّصهما لخدمة بيت الله وتبتُّلهما. فالصدِّيق عبد صادق في الطاعة، ولذلك سمى المِلك[1] يوسف ﷺ صدّيقاً، فإنه كان عنده طاهراً من كل غشّ، وعبداً صادقاً في العبودية، ولذلك قال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ يوسف: ٥٤ - ٥٥.

فالصدِّيق أول من استحقَّ الأمانة والخلافة، ولذلك جعل الله عيسى ﷺ إماماً لجميع بني إسرائيل، فإنه كمل في درجة الخلوص للربِّ والفداء بنفسه لأمره، فصار ملكاً على جميع إسرائيل، كما جاء في القرآن والإنجيل صراحة.

فبعد ما جعله الله على هذه المنزلة من الطهارة والأمانة والملك جعله مبشِّراً بأحمد الخاتم المكمل، ليكون بشارة بالغة وحجة بازغة لبني إسرائيل، ليؤمنوا بنبي منهم، ويستفتحوا به على ظالميهم.

وقد وقع هذه البشارة بحيث لا يجحده جاحد، فإن محمداً ﷺ بأدنى مدة فَتَح وأباد الأمم الثلاث: فارس، ومصر، والروم التي استعبدت بني إسرائيل، فانتصر لذرية إبراهيم ﷺ، وإخوته، وكل واحدة منهن أعظم الأمم على الأرض، وليس في التاريخ مثال لهذه الواقعة (وبسط الكلام في سورة البقرة).

ثم ترى قربهما، لما سمَّاه الله تعالى «رحمة»، حيث قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ

---

(١) يعني: رسول الملك.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ مريم: ٢١ كما سمّى النبي ﷺ ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ الأنبياء: ١٠٧. وهكذا سمَّى كليهما نوراً، وسراجاً، وعبداً، ومباركاً. فإن صح قرب حالهما، وصحّ أن درجة النبوة الكاملة لنبينا، وصحّ أن درجة الصدِّيق بعد درجة النبي. فيوشك أن يصحّ عندك أن عيسى عليه السلام على هذه المنزلة حسب الكمال بعد خاتم النبيين. ونزيد على هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

والثالثة درجة موسى عليه السلام «الشهيد». وما من نبي إلا وهو شهيد، وأصحابه شهداء، كما صرح به القرآن، ولكن موسى عليه السلام أكبر الشهداء بعد محمد وعيسى عليهما السلام=

١- لما أنه شهد على أمته بتجليات باهرة، وآيات ظاهرة من الله تعالى.

٢- والتوراة إلى الآن أكبر شهادات الجزاء، وملكوت الله، وأنه حاكم على العباد.

٣- ثم إنه عليه السلام جعلهم شهداء للناس بعد ما أوقفهم على المشهد، وأعطاهم كتاباً مبيناً.

٤- ثم وقف بين يدي جبار عنيد ظالم، وأشهد بالحق جهاراً.

وقد جعله الله شهيدا بالحق وناصراً له فطرة، فوكز القبطي على ظلمه، وأمر أمته بأن يقتلوا أنفسهم، وغضِبَ للحق. فأي نبي قبله أمر أصحابه وأتباعه كأمره؟ وهذا هو معنى اسم «الشهيد»، فهو رأس الشهداء في بني إسرائيل. وكل من ينطق بالحق، وينصره، ولا يخاف أحداً دونه، ويجاهد بنفسه وذات يده = فهو من الشهداء.

فبعد ما جعل الله موسى كاملا في الشهادة جعله أكبر الشهداء على نبوة محمد عليهما الصلوات، فإنه وعد بني إسرائيل بأن الله يكملكم بنبي من إخوتكم، وأخذ ميثاقاً غليظاً برشّ الدم على نقباء قبائله الاثنتي عشرة أن يؤمنوا بهذا النبي، وأن الله

يعطيهم الفتح به على أعدائهم، وأخبرهم باللعنة والعذاب إن يكفروا به، فوقع كل ما أخبر عنه موسى عليه السلام.

وتفصيل هذا البحث في سورة المائدة تحت آية: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ... ﴾ المائدة: ١٢ وفي سورة البقرة تحت آية: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ البقرة: ٨٩.

والرابعة درجة داود عليه السلام «الصالح»، فإنه رجل اجتباه الله للخلافة كما صرح به القرآن. وأطلق الله هذا الاسم على كثير من الأنبياء لنعلم أنهم قدوة للصالحين. والصلاح صفة الرجل من جهة كونه أهلاً للمعاشرة، ونظام المدنية. وأصلها: العفو، وبسط العذر للمجرم، والحلم، والأناة، وعدم التقشف، والتبرم بالدنيا، مع الخضوع والاستكانة لله تعالى. فالصلاح ذو درجات عالية. وأصله حسن المداراة، وأهلية للتمدن والمعاش. وبهذا المعنى يتضح حكمة استعمال هذا الاسم في مواقع كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾ النور: ٣٢ وقوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ النساء: ٣٤.

وكثر في التوراة والإنجيل ذكر هذه الصفة للذين يرثون الأرض. اتل حال داود عليه السلام مع شاول (طالوت) في صموئيل الأول، ومع البشالوم في صموئيل الثاني. ولذلك جعله الله مخبراً لخلافة هذه الأمة الوارثة للأرض المقدسة، كما مر آنفا.

فإذا رأيت أربع درجات النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وكونهم على الصراط المستقيم، وقد علمت أن إبراهيم عليه السلام صاحب هذا الصراط، وأنهم في ذريته ومجتمعون بهم تجلّت لك على هذا الصراط المستقيم قافلة روحانية،

قائدهم محمد النبي ﷺ، بيده لواء الحمد يخفق عليهم أجمعين، فهو الإمام لحزب الله، وأول قائل على باب الجنة: (الحمد لله)، والمصلون في الدنيا بهذه الكلمات هم خلف هذا الإمام. وهذا هو المراد من قوله ﷺ: «أنا قائد الغر المحجلين»، وقد علمنا أن المراد بهم المصلون، لما عليهم من آثار الوضوء. فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قالوا: الحمد لله رب العالمين، بصوت واحد، ونحن متعودون به الآن.

لكل امرئ من دهره ما تعودا

ولله الحمد. وقد علمنا أن الله تعالى جعل إبراهيم عليه السلام إماماً عامًّا للناس، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ البقرة: ١٢٤، والأمم الباقية المنتسبة إلى نبي من الأنبياء هم اليهود، والنصارى، والمسلمون، وكلهم يتخذون إبراهيم عليه السلام إماماً، فهو السند الأعلى، وقد أنطقه الله بأكبر البشارة بنبينا عليهما الصلاة السلام، و أوضحها صراحة بما قد دعا لبعثته في بلده، ودعا أن يرثه ولاية بيت الله الذي بناه مركزاً للتوحيد.

(١٤)

الآية السادسة إشارة إلى درجة نوح عليه السلام، لما نرى في القرآن والتوراة أن لا نبي يذكر قبل إبراهيم عليه السلام إلا نوح عليه السلام، ثم كما جاء في بيان المنعم عليهم من الناس تفصيل الدرجات الأربع، فكذلك جاء تفصيل درجات المنعم عليهم من النبيين، حيث قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ مريم: ٥٨.

فقدَّم نوحاً في ذكر الذين أنعم عليهم، ولا شك أن نعم الله شاملة لجميع الخلق، ومع ذلك فيها خصوصية، وقد جعل الله نوحاً عليه السلام أول من خصه الله بها، فصار قدوة للذين أنعم الله عليهم من جهته. ولذلك عرفنا له مقام هذه الآية، والباقون من أهل الإنعام معه، وقد جعله الله مبشِّراً بأكبر نعمه، وهو تكميل الدين

بنبينا ﷺ، حيث جعل الله ذرية سام أهل الدين، وإن الباقي من نسله ينعم بهم، ولم يصدق هذا إلا على نبينا ﷺ، لأن بعثة من قبلهم لم تكن عامّة لكافّة الناس.

(١٥)

والآية السابعة درجة الذين خرجوا من المغضوب عليهم إلى المرحومين، ومن الضالّين إلى المهتدين، كما أشرنا إليه في الفصل التاسع، وهم الذين تابوا من أهل الكتاب وغيرهم. فالمغضوب عليه من نبذ بالحق بعد ما عرفه وتبيّن له، كاليهود، والضال من أخلد إلى الباطل، وألحَّ عليه، كالنصارى. فالمنقَذون من هؤلاء هم الملحَقون الآخرون بأولئك الأربع، وبهم يكمل ويتمّ خاتم كمال آدم ﷺ. وهناك يغلق باب الجنة. فالآية السابعة متعلقة بالتوابين من اليهود والنصارى، اللاحقين بالذين أنعم الله عليهم كما مرّ في (٩).

ولما كانت التوبة أودعت الفطرة، وبها يدوم السلوك على الصراط، وعلمنا أن آدم ﷺ رأس التوابين = فهمنا من الآية السابعة درجته، وقد مرّ في أول (١٠) بعض التوضيح.

الفصل الثاني

(١)

هذه سورة الصلاة، بدليل التواتر العملي، والقولي كحديث الخداج، و«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» وغيرهما، وبها أنا نجد ما يقربها في صلاة علّمها عيسى عليه السلام للحواريين، وإن كانت النصارى قد نسوا بعض عبارتها ومدلولها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ المائدة: ١٤. فلنذكره لتتضح مطابقتها، وبراعة القرآن.

في الإنجيل المنحول إلى لوقس:

«قد وقع أنه (عيسى عليه السلام) كان يصلّي في مكان، فلما فرغ سأله بعض حواريه: مولانا علّمنا الصلاة، كما كان يحيى يعلّمها أتباعه. وقال لهم: إذا صلّوا فقولوا: أبانا الذي في السماء، سبحان اسمك، ليأتين ملكك، ليقعن رضاك في الأرض كما في السماء، أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا. واعف عنا، فإننا أيضاً نعفو عن كلّ من عليه حقُّنا. ولا تهدنا إلى الفتنة، بل أنقذنا من الشر»[1].

وفي الإنجيل المنحول إلى متّى زيادة بعدها:

«فإن لك الملك، والقوة، والعظمة إلى الأبد. آمين»[2].

ولم تكن هذه الجملة في أكثر النسخ من كتاب متى، فلعلهم زادوه جواباً من المقتدين.

---

(١) إنجيل لوقا ١١: ١-٤.

(٢) إنجيل متى ٦: ١٣.

وإن تأملت في هذه الآيات تبينت مشابهتها بالفاتحة. قوله «أبانا الذي في السماء» مبدل، والأصل «ربنا»، كما حكى الله قوله في سورة آل عمران، والمائدة، ومريم، والزخرف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾. وقوله: «سبحانك» مثل «الحمد لله»، ولكن «سبحانك» في الأصل إجلال، و«الحمد» إجلال وشكر معاً، كما ستعلم.

وقوله: «لتأتين حكومتك ليقعن رضاك في الأرض كما في السماء» دعاء ليوم الدين، و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ إذعان له وتوكل عليه. وتجنب الدعاء لعظم الأمر، كما قال في سورة الشورى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الشورى: ١٨.

وقد ساغ الدعاء لعيسى عليه السلام، لأنه كان ﷺ يبشّر ويدعو لحكومة إلهية تأتي بعده، وكان ذلك شاملاً لبعثة نبينا ﷺ. فأنزل الله كل ما ادخر لعباده من الشريعة الفاضلة. وكم من آية في الإنجيل تشير إلى أنه أراد بالحكومة الإلهية بعثة نبينا. ونفصّلها إن شاء الله تعالى تحت آية: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ الصف: ٦.

ولكن حين بعثة نبينا لم يبق من الحكومة الإلهية إلا يوم الدين، فما دعا، ولكن توكّل ورجا له بعد حمده، وذكَر ربوبيته ورحمته، كما روي في الحديث المشهور: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» حتى قال: «وإذا قال (عبدي): ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يقول الله: «فوض إلي عبدي». وهذا التفويض حسن، كما كان يفعل عيسى عليه السلام بعد دعائه.

وقوله: «أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا» كان كلامه أمثالاً، ومثل الخبز لروح القدس الذي به حياة الأبرار. فقد فسره نفسه في إثر دعاء الصلاة، كما كان دأبه، فقال:

«إن أنتم مع كونكم أشراراً تعلمون إعطاء هبات حسنة لأولادكم فما أكثر عطاء الأب السماوي (ربنا الأعلى) من روح القدس لمن يسألونه»[١].

وقال عليه السلام: «مكتوب (في كتاب موسى) أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، بل بكل كلمة من الله»[٢]. أي بأمره وحكمه، فحياتكم في إطاعة شريعته.

هذا يشير إلى قول موسى عليه السلام «لكي يعلمكم أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، بل بكل ما يخرج من فم الربّ يعيش الإنسان»[٣].

فقوله: «أعطنا وظيفة خبزنا» عبارة عن: آتنا ما به حياتنا الأبدية، وهو روح الهداية الذي يهدي إلى صراط مستقيم، كما بيّن عيسى عليه السلام السبيل إليه في شرح الصلاة، كما ذكره متّى فقال:

«ادخلوا الباب الضيق، فقد توسع الباب وتفسح الطريق الذي يهدي إلى الموت ويكثر داخلوه. وقد ضاق الباب ودقّ الطريق الذي يهدي إلى الحياة، وقل من يجده»[٤].

فمثّل سبيلَ الحياة بصراط دقيق، وهو الصراط المستقيم الذي يهدي العبد إلى الرب، وهو أصل الحياة.

فاعلم أن الحياة هو حبّ الله بكل سرّنا، وهدى الله الذي جاء به النبيون صراط إلى هذه الحياة. ومثل ذلك ما جاء في القرآن العظيم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ

---

(١) إنجيل متى ٧: ١١.

(٢) إنجيل متى ٤: ٤.

(٣) التثنية: ٨: ٣

(٤) إنجيل متى ٧: ١٣-١٤.

وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الأنعام: ١٢٢. فجعل الإيمان بالله حياة واتباع الشريعة سلوكا بالنور، وهما لا يفترقان، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران: ١٠١.

وهذا تأويل كلام الإنجيل يشهد به ما جاء في القرآن في ذكر كلام عيسى عليه السلام عدة مرات، حيث حكى الله تعالى قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ آل عمران: ٥١ يعني عبادة الله وحده، وذلك ينطوي على إطاعة هديه كما نبينه. فكان دعاء عيسى عليه السلام كدعائنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ الفاتحة: ٦.

وفي قوله: «واعف عنّا فإننا أيضاً نعفو عن كل من عليه حقنا» يسأل العفو بوسيلة عمل العفو.

وفي قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ نسأل الاستعانة على عمل كل حسنة والكفّ عن كل سيئة، فسلّمنا العفو والأجر إلى ربنا، وراعينا الأدب من وجوه. فما قلنا: أعنّا، وما قلنا: أعنّا لأنا نعبدك مخلصين. فما ذكرنا الوسيلة إلا كناية، وهو: أنا لم نتخذ معبوداً غيرك. ثم جئنا بوسيلتين، فإن قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في نفسه وسيلة، فإننا لم نتخذ غيرك مستعاناً. ثم هاتان الوسيلتان من أعظم الوسائل، فإن أعظم الأعمال هو التوحيد، كما قال عيسى عليه السلام حين سأله بعض الكتاب: «أي الأحكام أولها»[1]، فقال: «استمع يا إسرائيل! الله ربنا إله واحد. وأن تحبَّ الربَّ إلهك بكل قلبك وبكل روحك وبكل عقلك وبكل قوتك. هذا أول الأحكام»[2].

(١) إنجيل مرقس ١٢: ٢٨.

(٢) إنجيل مرقس ١٢: ٢٩-٣٠.

أي كما جاء في صحف موسى. والتوحيد أول تعليم كل نبي كما يشهد به القرآن، وتجده في سورة هود وغيرها.

وقوله: «ولا تهدنا إلى الفتنة (أي الابتلاء) بل أنقذنا من الشر» يعني احفظنا عن سوء الابتلاء، فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها، وأخرجنا عن السوء إن وقعنا فيه، أي لا تفتنّا، ونجّنا. وهذا دعاء حسب حالهم، وقد كثر في الإنجيل الدعاء بالحفظ عن الابتلاء لضعفهم و كثرة ابتلائهم.

ولكن الابتلاء من سنة الله، فلابد من الابتلاء، كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ الملك: ٢. وقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ العنكبوت: ٢ - ٣.

والقرآن أخبرنا عن فتن ابتلى بها النبيين. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ البقرة: ١٢٤.

و ابتلى آدم بالشجرة، ونوحاً بابنه، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هود: ٤٦. فعاذ بالله واستغفر لذنبه. وقال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ ص: ٢٤.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ ص: ٣٤. وابتلاء موسى وهارون عليهما السلام مذكور في كتب اليهود، حتى إنهما ماتا دون «يردن» فزكّاهما الله تعالى في الدنيا. وستعلم ابتلاء عيسى عليه السلام، وابتلى يوسف وأيوب عليهما السلام. واتل شكاية أيوب عليه السلام من كتابه. وابتلى يحيى عليه السلام بقتله، وما لم نعلم نفهم من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ الملك: ٢. وفي آيات كثيرة.

ولكنه عليه السلام ـ لتخشعه و وهن أمته ـ يستعيذ من الفتنة، وقد فتن هو أربعين

يوما، بل كان طول عمره في الابتلاء، حتى رفعه الله ونجاه، كما أخبرنا القرآن: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ آل عمران: ٥٥. وقد فتنت أمته كثيراً، وثبت الله المؤمنين والمؤمنات منهم كما أخبرت به سورة البروج، وشهدت به وقائع جمة.

وكأنه عليه السلام رأى الفتنة فاغرة لأمته، كما قاساها نفسه. ولكي تنكشف لك هذا الأمر اذكر ما وقع على أمته، وكيف غلبت الفتن عليها، حتى لم يبق رجاء إلّا في محمد ﷺ المنجي المنتظر.

وأما «نجنا» فقد نجاه الله، ولكن بطريق أحسن مما سأل، ولكنه مع سؤاله كان راضياً بمشيئة الله تعالى التي هي أكبر منفعة وهكذا ينفع بالرضى. كأني به عليه السلام وهو ساجد في جبل زيتون في مقام «جسمين» معتزلاً من حواريه على مرمى حجر، يتضرع قائلاً:

«يا رب اصرف عني هذا الكأس، إنك على كل شيء قدير، ولكن آثرت رضاك على رضاي فلينزل قضاؤك»[(١)].

وقد أمر حواريه أن يدعوا معه ولكنهم ناموا، وهو يجيء إليهم، ثم يذهب ويدعو ربه حزيناً، راجياً، خائفاً[(٢)].

وكأني به حين انقطعت عنه كل وسيلة حتى قال: «إلهي إلهي لم خذلتني»[(٣)] وكأني به حين كأس الحمام بلغت شفتيه، فصرفها الله، ورفعه، وطهّره، ونجّاه. ذلك

---

(١) إنجيل مرقس: ١٤: ٣٦.

(٢) انظر إنجيل مرقس: ١٤: ٣٧-٤١، ومتى ٢٦: ٤٠-٤٤.

(٣) إنجيل متى ٢٧: ٤٦، وإنجيل مرقس ١٥: ٣٤.

تقدير العزيز العليم.

وكذلك نجى الله المؤمنين من أمته حين آمنوا بنبيّ أمّي بشّر به، وسيؤمنون، فينجون. فأجاب الله دعاءه في المخلصين من أمته، فدخلوا في الإسلام أفواجاً، وسيدخلون. وصرف الإجابة عن الظالمين، كما ترى في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ البقرة: ١٢٤. فهذا معنى دعائه عليه السلام: «لا تفتِنّا ونَجِّنا».

لا يخفى أن هذا الدعاء فرع لدعائه «أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا»، فإن الخبز هو روح القدس وروح الهداية، فمن يهده الله تعالى فقد نجّاه من السقوط في الفتنة، وأنقذه من الشر الروحاني. فدعا لأصل الهداية. ثم بها فسّر أظهر أنَّ لهذه الحياة صراطاً دقيقاً وباباً ضيقاً، فما هو إلا هديه تعالى يجيء به النبيون.

فما جاء بهذا الدعاء إلا اهتماماً بشأن الشريعة، والضلالة المخوفة على أمته، ودأب اليهود الذين افتتنوا بنبوة عيسي عليه السلام كان عثرةً في سبيلهم، كما جاء في الإنجيل. وجاء في القرآن: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ المائدة: ٧٠ - ٧١.

فهكذا قولنا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ الآية فرع وموضِّح لما مرّ، تنبيهاً على الاهتمام بأمر هدى الله الذي ضلَّت فيه أمة، وباءت بسخط الله أمة. ولما أن القرآن قول فصل، أوضح هذا الأمر كلَّ الإيضاح...[1].

(١) هذا آخر ما وجد من هذه القطعة.

تفسير

سورة البقرة

عنوانات التفسير سبعة

(١) المقدمة

(٢) والكلم

(٣) والنحو

(٤) والبلاغة

(٥) والتأويل

(٦) والتدبر

(٧) والنظم

أما المقدمة ففي أمور كلية من عمود السورة ومطالبها، ومواقع نزولها، ووجه خطابها، وترتيب أجزائها.

وأما الكلم ففي معنى الكلمة ومادتها وصورتها. والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب.

وأما النحو ففي تأليف الكلمة. والاستدلال فيه بالنظائر وحسن التأويل.

وأما البلاغة ففي دلالة الأساليب على معان تناسب المحل.

وأما التأويل ففي حمل الكلام على مراده حسب المحل. وفي ذلك معظم الاستدلال بالقرآن وكلام العرب.

وأما التدبر ففي ذكر المبادئ والنتائج، أي اقتضاء النص وإشارته. والاستدلال فيه بصريح العقل وكتاب الله.

المقدمة وفيها عشرة فصول

(١)

حقيقة السورة ونسبتها بالفاتحة وسورة آل عمران

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم أنّ سورة البقرة وجه القرآن كما أنّ الفاتحة غُرَّته، وهذه إكليله كما أنّ تلك دُرَّته. فإنّ هذه السورة تجلِّي أسارير هذه البعثة وأسرارها، وقبلة هذه الملّة وسُرَّة دارها. ثم تهدي إلى أُسّ الديانة ومحورها، ومُخّ الشريعة وجوهرها. وبعبارة أخرى هي تمام النبوة وكمالها، كما تمنى إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ ﴾ البقرة: ١٢٩، [فأجابه] حسب هذا الدعاء، وبعث رسولاً متصفاً بتلك الصفات الأربع، وجعل هذه السورة مرآةً له ولأمة مسلمة دعا لها إبراهيم عليه السلام، وجعل الإيمان به حقيقة الإيمان. فإنّ المراد بالإيمان هو الإيمان بالنبوة، فإن ذلك هو جماع الإيمان وصحته، كما هو مبسوط في محلّه. فهي تحقيق الإيمان الذي هو أول فرع الإيمان الفطري المبني على الحمد والشكر والإنابة.

وبالجملة فهي تفسير لفاتحة الكتاب، وبيان لكلمة التوحيد، وشرح للصراط المستقيم، وإجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام. وسيأتيك بيانه في الفصل التاسع إن شاء الله تعالى.

ولما كانت سورة الفاتحة جامعةً لمطالب القرآن على غاية الإيجاز والإحكام، وتمهيداً للكتاب بتمامه كما سبق، أتبعها سورةً تفصّل تلك المطالب. فإنّ التفصيل بعد الإجمال هو الأسلوب الأوفق بالتعليم، وهو المرعي في القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ هود: ١ بل هو المرعي في تنزيل الكتب كلها. فإن المتأخر إنما جاء بتفصيل ما تقدّم حتى جاء القرآن مفصّلا للكتب السابقة بأسرها.

فأما كون هذه السورة جامعة مفصلة لمطالب الكتاب، فلأنها تشتمل:

(١) على حقيقة الإيمان وأصول أدلة التوحيد والنبوة والمعاد.

(٢) وعلى تفاصيل العقائد وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، وبصفاته تعالى من العلم والقدرة والعدل والحكمة والرحمة والربوبية.

(٣) وعلى أصول العبادات من الصلاة والزكاة والصوم والحج.

(٤) وعلى أصول السياسة من الخلافة والجهاد والسلم والطاعة وحفظ النفوس والأموال.

(٥) وعلى أصول التمدن من حقوق النساء واليتامى، والبيع والتداين.

(٦) وعلى أصول الآداب من المداراة والفضل والتعفف، واجتناب الأرجاس من الخمر والميسر وغيرهما.

ومما ذكرنا يتبين موقعها في أول الكتاب بعد الفاتحة. وأما موقعها قبل سورة آل عمران، فلكونهما مشابهتين، غير أن فصّل في الأولى جانب العلم، وفي الثانية جانب العمل، مع الاتحاد في المطالب، كما سيتضح بعد النظر في تفسير تلك السورة.

ولذلك جمعهما النبي ﷺ في الوصف بأنهما الزهراوان، وأنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان[1]، أي ببركة وسيعة باسطة الظل على المؤمنين. وجمعهما في صلاة، وتارة قرأ آيتين منهما في ركعتي الفجر: آية الكرسي في الأولى، وآية الإسلام في الثانية. فكما أن هذه السورة أولى السور بالفاتحة، فكذلك سورة آل عمران أولاها بهذه السورة.

(١) الحديث، أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة. رقم الحديث (٨٠٤)، وانظر تفسير ابن كثير ١: ٣٢-٣٣.

ولتقديم هذه على تلك وجوه:

الأول: أنّ هذه سورة الإيمان، وتلك سورة الإسلام، كما دلّ عليه النبي ﷺ بما قرأ آيتين منهما في صلاة الفجر، وبذلك دلّ على محّهما. وقال عليه السلام: «لكل شيء سنام ولكل سنام ذروة، وسنام القرآن سورة البقرة، وذروته آية الكرسي»[1]. فدل على محلّ هذه السورة، ومحلّ الإيمان والتوحيد.

والثاني: أن في هذه معظم الاحتجاج على اليهود، وفي تلك على النصارى. والحجة على اليهود هي مفحمة للنصارى أيضا، فهي أوسع. وإنما تلك ردء وتفصيل لبعض ما أجمل هاهنا.

والثالث: أن هذه سورة بدر، كما أن تلك سورة أحد. وكان يوم بدر فتحاً وفرقاناً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ الأنفال: ٤١ وكان يوم أحد ابتلاءً وتطهيراً.

والرابع: أنّ الغلبة أولى بموسى عليه السلام، والابتلاء بعيسى عليه السلام. فما كان خطاباً لليهود جعله لواقعة بدر، وما كان خطاباً للنصارى جعله لواقعة أحد.

فلهذه الوجوه قدم ما هو أقدم وأوسع نزولاً ومنزلة. وسنرجع إلى تفصيل بعض هذه الأمور في مقدمة السورة التالية إن شاء الله تعالى.

---

(١) كذا في الأصل. وقال المؤلف في الحاشية: «لم أذكر اللفظ فنصححه» يعني لم يحفظ لفظ الحديث حين هذا التسويد، وسيذكره عند التبييض بالنص. ولعله يقصد الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ولكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي». وفي مسند أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته... ويس قلب القرآن...». وانظر تفسير ابن كثير ١:٣١.

(٢)
موضوع السورة وغايتها

اعلم أن هذه السورة جمعت عيون مطالب القرآن، كما قدمنا. فإن شئت أن نعبّر عن عمودها بكلمة واحدة قلنا إنها إنجاز لعهد الله تعالى بخليله إبراهيم عليه السلام. وهذا العهد هو الجامع لحقيقة هذا الدين، فإن الخليل عليه السلام أقام ذريته في مركز التوحيد، ودعا الله أن يبعث نبياً وأمته على أكمل صفات الأنبياء والأمة، ووعده الله أنه يبارك به وبهم جميع الأرض. فأنجز ما وعد له ببعثة هذا النبي وأمته، وجعل بناء هذا الأمر على الصبر والصلاة، وهما قاعدتان للدين الإلهي، بهما كمل إبراهيم عليه السلام، وصار إماماً.

وعند كمال ظهور هاتين الصفتين نزلت هذه السورة، فكانت هي أكبر مظهر لحقيقة هذه البعثة. ولذلك سمّاها النبي ﷺ «سنام القرآن»، كما مرّ. وعند نزولها أظهر الله تعالى إنشاء أمة جديدة، وجعل صرف القبلة آية على ذلك وفرقاناً لهم. ومن أي جهة نظرت إلى هذه البعثة وجدت التوحيد أصلها، ووجدت المسجد الحرام مركزها، ووجدت القرآن مطابقاً لهذا الأصل. ولذلك تجد سورة الحج قد وضعت في وسط القرآن، وجمعت فيه أبواب تنظر منها إلى حقيقة هذا الدين.

وإني أتلو الآن منها طرفاً كبيراً ليدلّ على ما ذكرنا من عمود هذه السورة، وأصول مطالبها وفروعها، وما يجب علينا من بذل النفوس والأموال للمحافظة عليها والذبّ عنها، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً أحسن تفسير. فقال الله تعالى في سورة الحج:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا

لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ
وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ
فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا
رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ
وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ
مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا
خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ
شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ
ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ
ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم
مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا
وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا
دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ
لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ
حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ
وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ
﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟
عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ
﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ

أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ
قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ
مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ الحج: ٢٥ - ٥١.

ثم جاء بذكر هؤلاء الساعين حتى رجع الكلام إلى عموده، فقال: ﴿وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞
ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ
﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ الحج: ٥٨ - ٦٢.

ثم ذكر من صفات الله تعالى حتى رجع الكلام، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا
مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ الحج: ٦٧ - ٦٩.

ثم ذكر من صفات الله ما يليق بالمقام من تفرده بالحكم واصطفائه الرسل
حتى رجع الكلام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ
وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ الحج: ٧٧ - ٧٨.

فاعلم أني ما أوردت هذه الجملة بعينها إلا لكي يتبين لك حقيقة بعثة نبينا وكنه ملّة إبراهيم، وكلّ ما تراه في سورة البقرة:

١ -من ذكر بناء الكعبة

٢ -ودعاء إبراهيم أن يجعل مكة بلدا آمنا، ويرزق أهله، ويريهم مناسك العبادة، ويبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب الحكمة ويزكيهم.

٣ -وما ذكر من إجابة هذا الدعاء في نبينا عليه الصلوات.

٤ -وما ذكر من فرض الجهاد على من أخرج النبي والعقاب عليهم بمثل ما فعلوا، وإطفاء الفتنة، وإقامة السلطنة لحفظ النفوس والأموال والحرية، ودخول الناس في السلم كافة.

٥ -وما ذكر من أن دينهم ليس فيه حرج، وهو أصل دينهم، وهو صبغة الله.

٦ -وما ذكر من نصر الله فئته، ودفع الناس بعضهم ببعض لحفظ مقامات ذكره وعبادته.

٧ -وما ذكر من أن الصلاة والزكاة والاعتصام بالله والحج لبيته أصل الغاية في الدين ومنبع جميع الخيرات.

٨ -وما ذكر من وجوب القيام به والشهادة له والاحتساب عليه وبذل النفوس والأموال فيه.

(٣)

مطابقة الواقع لهذه الغاية

وبعد ما تبين لك هذا، فانظر كيف كان تدبير الله في هذا الأمر العظيم؟ فترى أنّ النبي عليه الصلوات لما بعثه الله تعالى أمَرَه بالصلاة، والتوحيد، والصدقة، والصبر؛ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ المدثر: ١ - ٧. فجعل الصلاة والزكاة والصبر أول الأحكام بعد التوحيد.

وهكذا نرى في بعثة موسى عليه الصلوات، حيث قال تعالى في سورة طه: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤﴾.

وهكذا قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾.

فكان النبي عليه الصلوات يفعل ذلك بالصبر والعزم على أذاهم، وصدّهم عن الصلاة، كما جاء في سورة اقرأ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ العلق: ٩ - ١٦.

فكان عليه الصلوات ينذرهم، ويدعوهم باللين وفصل الخطاب إلى ملة إبراهيم، ويذكرهم أن الله تعالى حمى البيت المحرّم عن أصحاب الفيل، وجعله سبباً لإلافكم ورزقكم وأمنكم، فاعبدوا ربّ هذا البيت ولا تشركوا به. فلم يطيعوه، ولم يسمعوه، وكفروا بنعمة الله حتى أخرجوا نبيّهم عن داره.

فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة المكرّمة كان أكبر همّه استخلاص الكعبة وتطهير

البيت المحرم وردّ الملة الحنيفية إلى أصل حالها. فأمر الله تعالى بالقتال، كما جاء في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي إكراه الناس على ترك دينهم ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾. فذكر الله تعالى هذه الأمور ليتضح لهم أنّ الكفرَ بالله، والصدّ عن مسجده، وإخراجَ المؤمنين عنه، وفتنتَهم عن دينهم، وإبطالَ الحرية فيه = أكبر عند الله.

ثم كان أكبر همه استخلاص الكعبة لوجه أخصّ من ذلك. والآن نبيّنه، وقد سبق إليه الإشارة في آخر الفصل الثاني. وكان ذلك أول الأمر وغاية البعثة خاصة، ولكن أمر الله بالصبر حتى تتمّ الحجة وفريضة العظة والدعوة.

(٤)

جماع هذه الغاية استخلاص الكعبة

فاعلم أنّ الله تعالى عهد إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير الكعبة، كما قال في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾. فلزم هذا العهد على وارث إسماعيل، كما جاء في سورة النمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ النمل: ٩١.

وهكذا كان العهد بجميع المؤمنين، ولذلك كتب عليهم القتال؛ فإنّ إبراهيم عليه السلام كما دعا لوارثٍ يعلّمهم الكتاب والحكمة، فكذلك دعا لأمّةٍ وارثةٍ، وسمّاهم جميعاً المسلمين، حيث صرّح به في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا

مِّنْهُمْ ﴾.

ألا ترى كيف أبطل الله تعالى ولاية المشركين، وأثبت ولاية المؤمنين، حيث قال في سورة الأنفال: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الأنفال: ٣٤. وقال في سورة التوبة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ ﴾ التوبة: ٢٨ فأمرهم أن لا يَدَعوا المشركين أن يقربوا بيته المحرّم. فلم يذهب النبي عليه الصلوات من الدنيا حتى تمّ هذا العهد. ففتح الله له مكة، وأورثها أمةً اجتباها للإسلام، فأنجز ما وعد به إبراهيم عليه السلام. وهذا إيراث حزبه للبقاع المقدسة من سنته تعالى. وتفصيل هذا البحث في تفسير سورة الأنبياء تحت آية: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

والمقصد أن يقيموا الصلاة، كما مرّ فيما تلونا من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ الحج: ٤١ وفي ذلك آي أُخر.

وقد صرّح إبراهيم عليه السلام بذلك في دعائه، وفي بيان مقصده من الهجرة إلى هذه البقعة. ففي سورة إبراهيم، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾. ثم ذكر شناعة الأصنام حتى قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا دعاؤه للحج ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾. ثم أثنى على الله تعالى وأحسن الطلب حتى قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

فلهذا العهد الخاصّ الواجب، كتب الله على المؤمنين استخلاص البلد المحرّم

الأمين، ودَفْعَ الذين صدّوا عن سبيل الله والصلاة في مسجده وأخرجوا الرُّكَّع السُّجَّد عن دارهم، لمحض أن قالوا: ربنا الله، ونبذوا شركاءه. وليصمّموا إليه ولوجوه أُخر جعله قبلتهم، وهو القبلة الأولى، وإنما أخَّر هذا التحويل إلى هذا الزمان لمصلحة ذكرتها، فإنه هو بيته العتيق، فحينئذ جعلهم أمّةً على حدة. وهاهنا نشأ حزب خاصّ لله تعالى، وصار للنبي عليه السلام دار وأتباع، وهما من شروط القتال، كما هو مبسوط في موضعه.

ذلك، وأشار إلى مثل هذا الأمر فيما وقع لبني إسرائيل، ولنذكره مقتصراً على خلاصة الأمر فيه.

(٥)
مطابقة ذلك لما وقع لبني إسرائيل

فاعلم أن بني إسرائيل لم تكن لهم قبلة إلى عهد داود، بل إلى عهد سليمان عليهما السلام، غير تابوت السكينة الذي يحملونه ويضعونه في الخيام (انظر تفسير سورة الفيل)، وحين أخذ الفسلطينيون التابوت عنهم سألوا نبيهم أن يجعل لهم ملكاً يقاتلون معهم، كما قال في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ﴾ البقرة: ٢٤٦ فجعل نبيّهم صموعيلُ طالوتَ مِلكاً عليهم.

وقد علمت الصحابة أنهم يوم بدر مثل أصحاب طالوت وأن عددهم كعددهم. فكان هذا مثلاً لأمة محمد ﷺ حين أُخرجوا من مكة، وذكر الله تعالى كيف نصرهم مع قلة عددهم، وأنّ ذلك لدفع الفساد عن الأرض وإقامة السلم والصلاح بالوحدة والعدل والإحسان، كما صرح به حين كتب عليهم القتال بقوله في سورة

البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ البقرة: ٢٠٨، وهكذا حين ذكر القتال في سورة محمد، قال: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ محمد: ٣٥.

فكان النبي عليه الصلاة يحثُّ المؤمنين على استخلاص الكعبة، ويدعو الناس إلى السلم وحكومة إلهية. ومع ذلك يُرشّحهم بالحكمة والشرائع ليكونوا مستحقّين لوراثة بيت الله وأمانته، ويصيروا كنفس واحدة، ويكونوا شهداء لله على الناس أي خلفاءه، حيث قال في سورة البقرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ أي كما جعل قبلتكم وسطاً ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ البقرة: ١٤٣.

وتفصيل هذا العهد على الأمة مذكور في سورة آل عمران، ونورد هاهنا نبذة منها لتعلم ترشيح النبي أمته، ولتعلم التدبير الإلهي في الأمر المهم.

(٦)

نقطة هذه الغاية هي الوحدة القائمة في الله

ذكر الله تعالى في القرآن كثيراً من اختلاف أهل الكتاب وافتتانهم، وحذر المؤمنين عنه تحذيراً شديداً. وذلك لأن مقصد الشريعة بعد التوحيد هو الرحمة والمواساة، والاختلاف أول حبائل الشيطان الذي يقود بها الأمم إلى تيه الضلالات. عقد سورة آل عمران خاصة لهذا التعليم، وجعل استحقاق الخلافة بالاتحاد وهي التزكية التي دعا لها إبرهيم عليه السلام. وأخبر الله عنها كثيرا بأن هذا النبي يعلمهم الكتاب (أي الشرائع) والحكمة (أي أصل المكارم) ويزكيهم (بتطهيرهم عن كل رجس ويجعلهم نفساً واحدة. وسيأتيك بيانه في تفسير هذه السورة). والتزكية هي جماع الشرائع. فأعطانا الله في هذه سورة البقرة من الأحكام السياسية والمدنية ما يرفع الخصام، ويؤتي السلم، ويطهرنا ويزكينا.

ولتعلم ربط هذا بأمر البعثة والبيت المحرم نتلو عليك بعضاً من سورة آل

عمران. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ أي دلائل وإمارات على كونه أول بيت وضع للناس ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

ثم ذكر سعي أهل الكتاب في إغوائهم المؤمنين حتى يكونوا مثلهم، فحذرنا ثم قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ التي هي أصل العداوة والافتراق، وتبينت العرب أنّ الحرب نار، وأكثروا التعبير عنها بها، فنار العداوة شعبة كبرى من نار جهنم ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ هذا هو بيان فرائض منصب الشهادة الذي أعطاه الله هذه الأمة ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ ﴾.

ثم ذكر سوء منقلب أهل الكتاب لما أضاعوا أمر الشهادة، وهم كانوا شهداء، ثم رجع إلى وصف منصبهم، فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ آل عمران: ١١٠.

فهذا بيان معنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٤٣، وهكذا سُنّةُ الله تعالى: يجتبي قوماً من بين الأقوام حسب حكمته وعدله، فينصبهم شهداء على الناس، ويحمّلهم أمانته. فإن أوفوا بالعهد أنعم عليهم بالملك والنصر إلى أن ينكثوه، فإذن يحل بهم الخذلان. وهذا مذكور في أكثر سور القرآن، وصرّح به في التوراة. راجع سفر الخروج (١٩: ٥-

٦)[1].

(٧)
المطابقة بين أحوال النبي وهذه الغاية

فصرَفَ النبي ﷺ عليهم بُرْهةً من الدهر يعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم بما يصلحهم لحمل هذا العبء الثقيل، ويحذرهم عن فتن أهل الكتاب وسيئات أعمالهم. ولما صاروا شهداء لله، وأمناء لعهده، وأولياء لبيته، فتح لهم مكة، وجعلهم وارثين، ومكن لهم في الأرض. فصاروا خير أمة، وصدق فيهم مثلهم في التوراة والإنجيل، كما قال تعالى في سورة الفتح:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي الملك والخلافة والنصر على الكفار، ليتم أمر محبة الله والخلق معا، ويكونوا إخوانا في الله ﴿وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ أي الجنة التي هي تابعة لهذه الحال، وهي عبارة عن ملكوت الله الذي كثر ذكره في الإنجيل. انظر تفسير هذه الآية في سورتها ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾.

ثم رجع إلى ذكر الوعد، وحوله إلى حسن العمل. فصارت غلبتهم شهادة على كونهم مجتبين من حيث الأمة، فإن الملك والنصر يعطى للمجموع، وأما الأفراد فيجازون حسب أعمالهم. فإن بعضاً من الأمة المفضلة آثم، كما أن بعضا من المخذولين مرحوم، كمؤمن آل فرعون. فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم

---

(١) وفيه: «فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خالصة من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض. وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمةً مقدسة. هذه هي الكلمات التي تكلم بها بني إسرائيل».

﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

وهذا الذي قلنا من لزوم النصر وغلبة المؤمنين، والخذلان واللعن للناكثين مسألة عظيمة، كما بيناها في كتاب ملكوت الله[1]. وخلاصتها أن الأمة المنصوبة يحاسبها الله تعالى في الدنيا. والنظرُ في أحوالِ اليهود وشهادات التوراة والقرآن لا يدع شكًّا في ذلك.

فلما فتح الله مكة، وجاء النصر الموعود، وقد أكمل دينهم = أوفى النبيُّ بذمة رسالته، وأصاب غرض بعثته، فحان له الرحيل إلى ربه. وهذا كان معلوماً لعلماء الصحابة. ألا ترى حين نزل ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ النصر: ١ - ٢ عرف من عرف أنها تنعى بالنبي عليه السلام، لما أنهم علموا أنّ لكل شيء أجلاً وغاية، وأن الرسالة قربت من مقصدها، وذلك فتح مكة وردُّ الحنيفية إلى أصلها.

(٨)
مطابقة السورة لزمان نزولها

ذلك، وقد مررت عليه كمر الريح السريع، ولكن إن تفكرت في آيات أوردتها وقابلتها بآيات هذه السورة اتضح لك أن استخلاص الكعبة وتطهيرها كان غرض البعثة، وأن الصلاة كانت كالمركز والنقطة في هذا الغرض، وأن ذكر الله وحبه والمواساة بالخلق وإصلاحه كالروح والسر فيه، وأن الحج والمملكة الدينية صورته، وأن الأمة كانت حاملة لعرشها، فاجتباهم الله شهداء، وأوفى الله بهم العهد كما أنهم أوفوا بعهده، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟

---

(١) نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ الحج: ٤١. فصاروا حزب الله المخلصين، كما وصفهم في سورة المجادلة حيث قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾.

وقد لمحت مخايل هذه الأوصاف بالهجرة، فإنهم لما هاجروا إلى الله صاروا بشهادة ربهم من الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه. فيا لمنصب المهاجرين وحزب الله المفلحين! ثم تبينت هذه الصفات يوم بدر حين قاموا للجهاد عن بيضة الإسلام، وبذلوا مهجهم لربهم بعد ما تركوا الأهل والمال بالهجرة، فصاروا قرابين لله على سنة أبيهم وإمامهم. فجعلهم الله أولياء بيته وورثة عهده، وبارك بهم الأمم، كما وعد خليله. وسنذكره في تفسير هذه السورة.

فهذه السورة وافقت الهجرة وواقعة بدر تنزيلاً كما وافقتهما تأويلاً. فكما كانت الهجرة ظهور طلع الإسلام ومنها فتقت أكمامه، وكما كان يوم بدر غرة هذا الدين وفيه رفعت أعلامه، فهكذا سورة البقرة معظم القرآن وسنامه، كما مر من قول النبي عليه صلاة الله وسلامه.

(٩)

مطابقة السورة لأحوال المخاطبين

مما قدمنا في الفصل السابق يتبيّن أنّ زمان نزول هذه السورة قد اشتمل على حالات ومقتضيات خاصة، فإذا نظرنا إليها اتضح لنا وجوه الخطاب فيها. والآن نذكرها بغاية الإيجاز.

فاعلم أنّ في هذه السورة خطاباً بالرسول، وبالمؤمنين، وبأهل الكتاب أي اليهود، وبكافة الناس.

١- أما إلى النبي، فمن جهة تسليته على ترك من أصرّ على الإنكار حتى هاجرهم لزمان، ومن جهة إقامته معلّماً لمن آمن بالله وكتبه.

٢- وأما إلى المسلمين، فمن جهة أنّ الله تعالى أقامهم أمّةً جديدةً مستقلّةً ليكونوا شهداء لله على الناس، ويحملوا أمانة شريعته ويَكمُلوا فيها حتى يكونوا أسوةً لمن يلحق بهم.

٣- وأما إلى أهل الكتاب، فمن جهة أنهم لم يبق فيهم مطمع للقيام بعهد الربّ، فتُرِكوا وسُلِبوا أمانة الشريعة. ولكن بقي لهم أن يُوفُوا بالعهد الثاني، وهو الإيمان بهذا النبي حتى يرحمهم الربُّ مرة أخرى، كما جاء كثيراً في التوراة، وصرّح به في سورة الأعراف.

٤- وأما إلى كافة الناس، فمن جهة دعوتهم إلى التوحيد الذي هو أصل الديانة، وإلى السلم والتقوى والطاعة لربّهم المنعم الرحمن الرحيم، وذلك جماع السعادات.

والترتيب في هذه الخطابات حسب مقتضى نظم الكلام، وإنما ذكرنا حسب ترتيب الدرجات.

هذا، وأما بيان نظم الكلام في هذه السورة، فيأتيك في الفصل التالي.

(١٠)

النظر الإجمالي في أجزاء السورة ونظام هذه الأجزاء

اعلم أنّ هذه السورة جملة واحدة متصلة منظمة بعضها ببعض على غاية

حسن النظام، كما سيتضح لك من تفسيرها. ولكنها مع ذلك مرتبة على ستة أجزاء: مقدمة، وأربعة أبواب، وخاتمة.

أما المقدمة، فهي جملة الكلام في إثبات القرآن والنبوة وما يتعلق بها، وذلك حقيقة الإيمان. فالإيمان عبارة عن الإيمان بهذا الكتاب الذي يتضمّن الإيمان بسائر الكتب، والنبوات، وبما أمر الله ونهى عنه، وبأصول العقائد وصحاحها.

وأما الأبواب، فجاءت بالترتيب حسبما جاء نعتُ النبي ﷺ في دعوة إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة، كما قال الله تعالى حكاية عن ذلك الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ البقرة: ١٢٩ وقال في إنجاز دعائه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ البقرة: ١٥١.

وقال في موضع آخر: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ آل عمران: ١٦٤.

وفي موضع آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ الجمعة: ٢.

ففي دعاء إبراهيم عليه السلام أخّر التزكية لكونها غايةً، وفي إنجاز ذلك قدّمها، لنعلم أنّ هذا النبي جعلها أول أمره وأتمّها، وإنما تتمُّ بعد العلم والعمل. وفي ذلك إشارة إلى أنّ هذا النبيّ هو آخر الأنبياء، فإنه يفعل ما هو كمال سعادة النفس.

ثم تقديم التزكية في الإنجاز يشير إلى أنّ هذا النبيّ هو النبيّ الذي دعا له إبراهيم عليه السلام، فإنه جعل غاية ما في دعائه أول أمره وأصل قصده، فبدأ به. ثم جعل يعلّمهم الكتاب والحكمة ليتم التزكية. وسيأتيك مزيد في توضيح ذلك.

وكما أنّ التزكية لها بداية ونهاية واتصال بتلاوة الآيات، فكذلك الحكمة لها بداية ونهاية تبتدئ ببداءة التزكية وتتم بتمامها.

١ - فتلاوة الآيات تمهيد لما يتبع من التزكية والتعليم.

٢ - وتعليم أصول الدين خطوة أولى للتزكية.

٣ - وتعليم الأحكام هو الخطوة الثانية لها.

٤ - وتعليم الحكمة هو الخطوة الثالثة لها، وبه تمام التزكية التي تحصل بالعلم والعمل في هذه الحياة.

فبحسب مناسبة هذه الأمور الأربع جعل ترتيب الأبواب.

فالباب الأول في تلاوة الآيات البينة والدلائل الواضحة على إثبات هذه الرسالة الموعود بها في الكتب السابقة حسب وصفه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الجمعة: ٢.

والباب الثاني في بداية التزكية، وهي الذكر، والشكر، والصبر، والتوكل، والتوحيد، والتفكر، والإيمان، والأمانة، والبر، والتقوى. وذلك حسب وصفه الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

والباب الثالث فيما كتب الله عليهم من السياسة العادلة، والشرائع المطهرة، والآداب النقية التي تعين على الحكمة من جهتيه النظرية والعملية. وذلك حسب وصفه الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الشرائع.

والباب الرابع في تحصيل الحكمة التي تحصل بإكمال الطاعة، وهي الخروج الكلّي عن سلطان الشهوات ببذل النفس والمال، ورعاية المواساة، والرفق في المعاملات. وحينئذ تنجلي عن النفس كل غشاوة، وتتزكى عن كل رجس، فتدخل

حظيرة القدس، وتطمئن في حرم الأنس، فتحيا حياة عليا. وهل هي إلا الجريان بما يرضى به الربُّ تعالى حتى تخلص النفس عن أسر الهوى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال: ٢٤.

فالأمة تحيا بإسلامها لربّها، وبذل النفوس والأموال قرابين لله، فيبارك الله لها فيما أسلمَتْ حسب سنّة الله، فيعطيها النور البازغ، والزكاة التامة، والنصر والملك، ليبارك بهم الأمم. هذا هو الوصف الرابع أعني: تعليم الحكمة، وتحقيق التزكية الثانية التالية للحكمة التي هي النعمة الكبرى والكنز الذي لا يفنى، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ البقرة: ٢٦٩.

وحينئذ تتم النعمة، ويكمل السلوك في الدنيا حسب استعداد هذه الفطرة. ثم تتم هذه التزكية في الآخرة بنظر الله تعالى إليهم، كما قال تعالى في ذكر الناكثين: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ آل عمران: ٧٧. فدلَّ على أنّ عباده المتقين يزكّيهم الله يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الحجر: ٤٧.

ومطابقة هذه أوصاف النبي ﷺ لنظم هذه السورة تدلُّك على المطابقة بين النبي ووحيه. وإلى ذلك يشير قول عائشة رضي الله عنها: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[1] فإنّ المعلّم يُرى في تعليمه.

فهذه السورة كأنها مرآة صفات النبي ﷺ، ومرآة لتمام القرآن، لما جمعت أمور الرسالة كلها؛ وأولى السور بالفاتحة، كما مرّ في الفصل الأول.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل.

فهذا بيان الأبواب الأربع. وبالجملة، فتلاوة الآيات أول الأمر. وتعليم الكتاب والشرائع تابع لها. وأما التزكية والحكمة، فلهما طرفان: طرف قبل تعليم الكتاب، وذلك أصول الحكمة والتزكية من التوحيد والعفاف والكرم، وهي أصول الأخلاق التي هي أساس الشرائع المفصلة. وطرف بعد تعليم الكتاب والشرائع، وذلك نهاية الحكمة والتزكية. فتعليم الكتاب، أعني الشرائع، محفوف بالحكمة والتزكية.

ولا يخفى أن النسبة بين الكتاب والحكمة كالنسبة بين التوراة والإنجيل، كما أشار إليه القرآن، حيث قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ آل عمران: ٤٨. فهذا من أسلوب اللفّ والنشر.

وأما النسبة بين الحكمة والتزكية، فإنّ الحكمة تأتي من جهة العقل، و التزكية تأتي من جهة القلب، ولكنهما متصلان فلا تفارق إحداهما الأخرى. فإن تنوير العقل وتطهير القلب متلازمان، وقد هدى إليه بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ البقرة: ٢ وبسطه تحت هذه الكلمة.

وأما الخاتمة فهي جامعة لما سبق من الاعتقاد وعيون الشرائع والثبات عليها، وبذل النفوس للدفاع عنها. وفيها الدعاء للنصر والمغفرة كالنتيجة لهذا كله.

فالآن تبينتَ أنّ نظم هذه المطالب على غاية السداد وصحة الترتيب، فإنك ترى السابق منها وسيلة إلى اللاحق. فإنّ الأدلة وسيلة إلى الإيمان، والإيمان يؤدي إلى الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تتمّ بالحكمة، وبهما تتم التزكية التي هي كمال النفس وفلاحها بإكمال طرفيها: العلمي والعملي.

فهذا نظام السورة من حيث المجموع. وأما النظم التفصيلي لأجزائها، فسيأتيك عند النظر في جزء جزء من السورة.

نسخة أخرى من مقدمة تفسير سورة البقرة[١]

(١) وجدنا هذه النسخة أيضاً في مسودة تفسير سورة البقرة، وفيها فوائد جديدة وتحليل لمطالب السورة فأثبتناها هنا.

ترتيب مضامين هذه السورة مطابق لقوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ البقرة: ١٢٩ فأتى أولاً بالآيات والدلائل. ثم ألقى عليهم الكتاب أي الأحكام. ثم علمهم طريق الحكمة، وزكاهم بالحث على الزكاة. فنزولها يطابق ما دعا به إبراهيم عليه السلام. فهذه السورة أتم ظهوراً لإجابة دعائه.

واعلم أن تلاوة الآيات ابتداء الأمر، وروحها الذكر، وانتهاء الأمر التزكية، وروحها كمال التعبد لله، وهو الرضا به والانخلاع عن هوى النفس. والذكر يفضي إلى إصلاح العمل وطهارة الصفات والأحوال، وهي الحكمة.

فتلاوة الآيات تمهيد وخطوة أولى للتزكية. والعمل بالأحكام خطوة ثانية لها. والحكمة هي الخطوة الثالثة، وهي روح الأحكام. وبعد ذلك تمام التزكية فضلاً من الله تعالى. وهذا قريب من العقل، ولكن دلني عليه القرآن لما وصل التزكية بالآيات، حيث جاء: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٤.

فتلاوة الآيات مستمرة، وكذلك التزكية حتى تتما معاً، وبذلك يتم الدين والنعمة، فبما قدم التزكية على الكتاب والحكمة علمنا أنها الغاية، ويؤيده آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ الشمس: ٩ وقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ أي إن لا يزكَّ فلا أقلَّ من أن يبدأها بالتذكر ﴿ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ عبس: ٣-٤ أي تأتيه التزكية بما يذكَّر.

المقدمة في بيان العهود الإلهية

لما كثر في هذه السورة ذكر الميثاق وناقضيه رأينا أن نذكر منه بقدر الحاجة.

اعلم أن الله تعالى لما كرم الإنسان بالحرية والاختيار فضلاً منه لم يجعل عليه حكومة جبرية حتى حكومته، لكيلا يناقض فطرة الإنسان. فبناها على العهد والإقرار. ولذلك كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون لم يصيروا أمراء إلا بعد البيعة وأخذ الميثاق. والعهد لا يتمّ إلا باحتمال المتعاقدين ما يكون كالعوض من جانبين فيكون لهما وعليهما، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ البقرة: ٤٠. وتمام البحث عنه وإيضاح كنهه في كتاب «ملكوت الله»[(١)]. وهاهنا إنما نذكر عهودنا.

فاعلم أن أصل عهودنا تحقيق العبودية الكاملة، وهي الإيمان بكونه ربّنا لا شريك له. ويلزمه أن نسلم له أنفسنا. فتفرع منها عهدان: عهد التوحيد وعهد الطاعة، ومنهما الإذعان لما ارسل إلينا، ولذلك قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ النساء: ٨٠. فإن الرسول هو المبلغ، ولهذا لا نفرق بين أحد من رسله. والطاعة إنما لله تعالى، فهو الرب وحده، كما صرّح به القرآن كثيراً، وبدأ السورة (الآية: ٤) وختمها به (٢٥٥-٢٨٥). ونعبر عن العهدين إجمالاً بقولنا: «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله». وإليهما الإشارة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وإليه يُلمِع قوله ﷺ، كما رواه البخاري في صحيحه...[(٢)].

وقد أخذ الله هذين العهدين أولاً على سبيل الإجمال في بدء خلقتنا، ثم أخذهما ثانياً على أيدي رسله.

---

(١) للمؤلف، وقد طبع ما وُجِد منه.

(٢) لعله يقصد الحديث الذي أخرجه البخاري في كتاب العلم، وهو: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار». باب من خص بالعلم قوماً دون قوم... رقم الحديث (١٢٨).

١ – فأول ما أخذ من عهد التوحيد ما ذكر الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، وما ذكر في سورة يس: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾. وهذا ينطوي على الطاعة إجمالاً، فإن التعبد لا يتم إلا بالإذعان لرسله. ولذلك أخبر عن الرسل في سورة الشعراء أنهم قالوا: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الآيات: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩ أي لا بد للتقوى من عمل ينجي عن مغبة الظلم. والعمل المنجي يأتي من الرب تعالى على أيدي رسله.

٢ – وأول ما أخذ من عهد الطاعة ما ذكر في سورة البقرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾، وما ذكر أوضح من هذا دالًّا على أن الطاعة لله تعالى وحده. فليس لهم أن يتعصبوا لنبي خاصة بل يؤمنوا بكل من رسله. فقال في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي ميثاقكم في أمر النبيين كما قال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الأعراف: ١٦٩ أي الميثاق في أمر الكتاب ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ فبين أن الإطاعة للأنبياء من الطاعة لله وتوحيده.

وإذ عاهد عامة بني آدم بطاعة الرسل عاهد الرسل بالتبليغ، كما قال في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ وأشار إلى هذين العهدين في سورة النور، حيث قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ﴾ النور: ٥٤ فجعل طاعة الله في طاعة الرسول، وبيّن أن على النبي والأمة كليهما عهداً وأمانةً حملوها.

وهذه العهود الثلاثة فروع لعهد قبل هذه كلها، وهو عهد جامع للتوحيد والطاعة، فإنهما يتحدان في كمالها. وعن هذا العهد الجامع عبّر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ﴾ الأحزاب: ٧٢ وهذه الأمانة هو كبح النفس وردّها إلى طاعة ربّها حتى يكون الإنسان حرًّا كاملاً مختاراً ما يرتضيه روحه الذي نفخ فيه قاهراً مركبه الجموح. فحينئذ تطمئن نفسه حتى يبصر ويسمع ويبطش بالله، وتَحَقَّقُ عبوديته فيدخل في عباد الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ الفجر: ٢٧ - ٣٠ فلا يدخلون جنته قبل دخولهم في عباده باتباعهم، كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ النور: ٥٦. وإلى هذا عهد العبودية أشار في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ طه: ١١٥. وكشف هذا البحث في كتاب «ملكوت الله»[(١)].

فهذه هي العهود في بدء فطرتنا. ثم عاهدنا الله مرة أخرى على أيدي رسله عهوداً بالتوحيد، والطاعة لرسله، وشرائعه إجمالاً وتفصيلاً. وذكر هذا في التوراة والقرآن كثيراً لا سيما في هذه السورة في إثبات نبوة هذا النبي، كما يأتيك في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

---

(١) للمؤلف، وهو مطبوع.

الباب الأول في إثبات هذه البعثة وذكر براهينها

آيات (١-١٥٢)

(نظر إجمالي)

اعلم أن هذا الباب في إثبات النبوات عموماً وإثبات نبوة محمد ﷺ خصوصاً، وهذا بخمسة وجوه:

١- الأول من نفس ما أنزل على محمد ﷺ. فإن سمعها بقلب سليم لا يشك في كونه من الله تعالى.

٢- والثاني من جهة الربوبية. فإنها تثبت الهداية من جانب الله وتلزمنا الطاعة. فأثبت أولاً النبوة والطاعة عموماً، فمهد تمهيداً للدعوى الخاصة. ثم أثبت كون محمد ﷺ نبياً بشهادة القرآن المعجز، فألزم إطاعته.

٣- والثالث من جهة عهد الله بآدم وذريته، كما مرّ في الفصل السابق. فأثبت النبوات عموماً.

٤- والرابع من جهة عهده بموسى عليه السلام وأمته، كما ذكر في سفر التثنية (١٨: ١٨) فأشار إليه حين بدأ الخطاب إلى بني إسرائيل، حيث قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي بما وعدتكم به من النصر والبركة والرحمة، كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

٥- والخامس من جهة عهد الله بإبراهيم عليه السلام بأن يبعث في ذرية إسماعيل عليه السلام رسولاً لإقامة الدين. وختم هذا الباب بآية: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ فهذه هي آية الميثاق بنا. وهذا الخطاب مشابه لما خاطب به بني إسرائيل من قوله: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾البقرة: ٤٠.

ولم يذكر الله في هذه السورة من عهده بنوح عليه السلام، فإن عهده لم يكن له خصوص بهذه البعثة الأخيرة كعهدي إبراهيم وموسى عليهما السلام. وهذان العهدان يلزمان النصارى. فلم يذكر ما في الإنجيل من عهده بأن يؤمنوا بهذا النبي، فإن الإنجيل كله بشارة هذا النبي، ولا حاجة إلى إيضاح ما هو بيّن. إنما سدهم عن قبول الحق شركهم بالله، ولذلك معظم الخصام بالنصارى في مسألة التوحيد، فادخر المقالة لهم في السورة التالية.

وجملة الكلام في (١-١٥١):

١- أنه تعالى أعطانا عهداً وكتاباً، فيه هدى وفلاح. وجعله عامًّا لجميع الناس حسب سنته، واقتضاء رحمته، وإنجاز وعده.

٢- وأن بني إسرائيل نقضوا عهده، فسلبوا هذا العهد.

٣- وأنه تعالى الآن أنجز ما وعد إبراهيم عليه السلام، كما جاء في التوراة من أنه يبارك جميع الأمم بنسل إسماعيل، وكما جاء في هذه السورة. فبعث الله نبياً، به يبارك الأمم كافة. وكذلك اجتبى أمة جديدة لاتباع هذا النبي أمّة وسطاً شهداء لله على الناس أجمعين، وجعلهم أولياء أول بيته وورثة إبراهيم عليه السلام. فألزم الحجة على الناس عموماً، وعلى أهل الكتاب خصوصاً.

فهذا خلاصة هذا الباب. وأما شرح جمله فنذكره الآن بغاية الإيجاز لكيلا

يملوا، ولعلهم يتأملون. والله تعالى هو الهادي.

القسط الأول في نظام السورة

(١) آية: (١) اسم الكتاب من الله تعالى.

آيات (٢-٢٠) إجمال القول في الإيمان بكتاب الله من جهة التقوى، وهي أصل الإيمان وحسن الأعمال. ووجه الكلام إلى النبي تسليةً له على عدم إيمان الكافرين مع ظهور الحق. وتعريض الكلام إلى أهل الكتاب ولا سيما اليهود، فإنّ عليهم حجة هذه السورة ومعظم النفاق فيهم.

فآيات (٢-٥) في المؤمنين الذين ينتفعون بهذا الهدى.

و (٦-٧) في الكافرين الذين استحقوا الضلال لكفرهم.

و (٨-٢٠) في المنافقين. ذكرها تبعاً للكافرين على سبيل التفصيل، وذكر الخاص بعد العام.

(٢) آيات (٢١-٢٩) خطاب بالناس جميعاً بأن يؤمنوا بالقرآن لأجل الإيمان بالتوحيد، وبحكمة الله. فجعل الإيمان بالنبوة جزءاً من الإيمان بالله.

آيات (٣٠-٣٩) خطاب بالناس جميعاً في إثبات عموم النبوة من خلافة آدم، وأخذ عهدها من الملائكة بناء على صفة الخلق التي تلزم التدبير. ثم في إثبات جميع النبوات لأخذ عهد ثان من ذرية آدم. وهذان الدليلان ليسا من الخبر المحض، بل في فطرتنا آيات عليهما.

(٣) آيات (٤٠-٤٦) خطاب ببني إسرائيل إجمالاً بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن لعهد أخذ منهم موسى عليه السلام (تثنية باب ١٨: آية ١٨)، وبيان دائهم وشفائهم. وآيات (٤٧-١٠٣) خطاب ببني إسرائيل في تفصيل نقض عهودهم

وكفرهم وفساد قلوبهم تمهيداً لضرورة عهد جديد بأمة جديدة، وتسلية للمؤمنين على إنكار اليهود، كما قال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ البقرة: ٧٥.

(٤) آيات (١٠٤-١٢٣) خطاب بالمؤمنين في رفع شبهة النسخ وغير ذلك، وذكر فسادهم. وختم الكلام ببني إسرائيل وتحذيرهم كما بدأ.

وآيات (١٢٤-١٥١) خطاب بالمؤمنين مع تعريض ببني إسرائيل في إثبات هذا العهد الجديد بناء على العهد القديم بإبراهيم عليه السلام، وعلى البيت العتيق. وأن أصل هذا العهد الصلاة، وذكر الله، ونفي الأنداد، وتطهير البيت. وفي ذلك تمهيد للجهاد، وذلك أصل الإسلام وسماه صبغة الله. فحجتهم أن لا دين إلا دين اليهود والنصارى داحضة. وأن أمة قد خلت بما كسبت، وبعثتم خلائف فلكم ما تكسبون، وليس عليكم من ذنوبهم شيء. وأنكم أمة وسط، وكذلك قبلتكم. وأنكم على صراط مستقيم. ورفع شبهتهم على نسخ قبلة اليهود. وأن قد حق دعاء إبراهيم عليه السلام ببعثة نبي يزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة.

آية (١٥٢) في بيان عهد هذه الأمة، وهو الذكر والشكر، وجميع الأحكام تتفرع منهما، كما ستعلم. فهذه الآية خاتمة وديباجة، كواسطة العقد بين قسمي الاعتقاد والأحكام من هذه السورة. والذكر والشكر وجهان لأمر واحد.

الباب الثاني في أصل التزكية، وهي بالذكر والشكر والتقوى

(١)

آيات (١٥٢-١٧٧): جزء جامع كلي في ذكر الأحكام العالية. ففصل العهد أي الذكر والشكر ببيان ما يلزمهما أولاً من الصبر والصلاة. والصبر يكون عند الشدائد، وهي مجلبة للذكر ومبتلية للصدق. وإن الصلاة من الذكر، كما جاء كثيراً، وحاملة للشكر. وبذل المال من الشكر، ومنه القرابين. ثم الحج جامع للذكر والقربان والصبر والصلاة. والتوحيد ينطوي على جميع ذلك. فمن أشرك في شيء من الذكر والقربان أبطل كله.

فهذه الآيات جمعت أصول الإسلام، وختمت بآية جامعة ذات تفصيل. وفيها بيان أن الكعبة ليست إلا كالمركز لهذه الأصول، كما جعلت مغرساً لشجرة الإسلام أولاً. وبيان ذلك في سورة إبراهيم والحج.

وكما أن في هذه السورة قدَّم أصول الدين على الشرائع، هكذا في التوراة جعل الباب العشرين للأصول، ثم من الباب الحادي والعشرين ذكر الشرائع.

وكما أن الذكر والشكر أصل العبادات، فكذلك التقوى أصل الشرائع، كما بيّنّا في سورة آل عمران والنساء. ولذلك أكثر كلمة التقوى في بيان الأحكام الظاهرة، كما أكثر كلمة الذكر مع الصلاة والحج، وكلمة الصبر مع الجهاد، وكلمة الحكمة مع مكارم الأخلاق؛ لكي تهتدي إلى غور الإسلام.

فهذه جملة ما في الباب، فأما تفصيله فانظر الصفحة التالية.

(٢)

...[١] أي الصلاة والقربان. وتفرع من القربان المواساةُ بخلق الله، والإنفاق، وإطعام البائس الفقير لوجه الله، كما بينا في تفسير سورة الحج والبلد وغيرهما. فذكر الله تعالى في هذه الجملة من الآيات ما خلطوا من الشرك في القربان للأنداد. ثم بيَّن كيف تنشعب البدعات من الشرك وتنطوي على كفران نعمة الله. فإن الله تعالى هو الحاكم والشارع، فالتشريع من سواه طرف من الشرك، وعمّت بلواه حتى إن النصارى اعتقدوا أن الباب الأعظم هو يُحِلّ ويحرِّم ما شاء، ويغفر الذنوب، فجعلوه إلهاً. والقرآن صرَّح بذلك، حيث قال: ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ التوبة: ٣١. وتفصيل هذا البحث في تفسير سورة الأنعام. وأحلت النصارى ما حرَّم الله، وكتمت حكم الله، فبيَّن الله تعالى ما به الاستقامة على أصل التوحيد.

وجعل الآية الأخيرة (١٧٧) جامعة لأصول الدين، وجعل أول باب الأصول كآخره، حيث بدأ وختم بالصبر. وعلَّمنا أن التقوى من الصبر، وأنها هي الأصل، لما ذكر من الأحكام التي هي المراد من قوله تعالى في صفة النبي في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ البقرة: ١٢٩ أي يتلو عليهم القرآن، ويعلِّمهم الشرائع والأصول، وبذلك يطهِّرهم. والنفس تَزَكَّى بصلاحها حتى يتمَّ إسلامُها لربها، وليست الشرائع إلا لهذا الأمر الواحد. فبعد ذكر الأصول فصَّل الشرائع المطهرة.

(١) لم نجد تفصيل نظام الباب الثاني في المسودة، ولعل القطعة الآتية منه.

الباب الثالث في الشرائع المطهرة

آيات (١٧٨-٢٤٢)

(١)

من آية (١٧٨) يبتدئ تفصيل «الكتاب» أي الشرائع بعد بيان أصول الديانة والحكمة، حسب دعاء إبراهيم ﷺ: (١٢٩)، وإجابته: (١٥١). ولذلك عبر عن الشرائع بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ في القصاص، والوصية، والصيام، والقتال. وكل ذلك يؤول إلى التزكية.

والفرق بين الحكمة والشرائع أنَّ الثانية مظهرة ومصدقة للأولى. وبيان أن الشرائع كلها للتطهير يستدعي تفصيلاً، وستقف على أصل هذا الأمر فيما يأتي. والقرآن صرح بذلك في غير موضع. قال الله تعالى بعد ذكر الوضوء والمسح في سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾. وكذلك بعد ما أمر أزواج النبي بالقنوت لله ورسوله وعمل الصالحات قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ الأحزاب: ٣٣.

فمن هذه الآية إلى (٢٨٣) جملة واحدة في التزكية عن الرجسين. فإنه كما أن للطهارة شعبتين: الصلاة والصدقة، فكذلك للرجس شعبتان: الغفلة عن ذكر الله، والخصام بالعباد. فإن الطهارة ليست إلا فطام النفس عن الشهوات، وحملها على محبة الله والخلق، ولذلك فرض الصلاة والزكاة. وهذا تعليم عتيق يوجد في التوراة والإنجيل وبقيت في العرب كما بيناه في أول سورة النساء.

وأصل الخصام والغفلة عن الله واحد، وهو تخييل النفس إياها منفردة منقطعة، فتذهل عن أصلها، أي إنها قطرة من بحر الأرواح وذرية نفس واحدة،

وكذلك تذهل عن ربها. فإذا عرفت ربها وأصلها أحبَّت الله والخلق، وذلك طهارتها. وبعض البسط في تفسير أول سورة النساء. ألا ترى أن الله تعالى سمّى الخمر والميسر رجساً وعملَ الشيطان لأجل صفتي الخصام والغفلة عن الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ المائدة: ٩٠ - ٩١.

هذا، وأما تفصيل أبواب التزكية فيأتيك بعد ذلك.

(٢)

آيات (١٧٨-١٧٩): سدُّ باب أكبر خصامهم، وذلك ثارات العرب. ولذلك سمّاه الله حياة، وكذلك قال النبي ﷺ بعد ذكر حرمة الدم والمال والعرض: «اسمعوا منّي تعيشوا»[1]. وهكذا في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ الأنفال: ٢٤.

وقد أحيا الله العرب حين ألف بين قلوبهم، ولم تزل بقية منه من لدن إبراهيم عليه السلام في تحريم الشهور والبيت. وترى خطب النبي ﷺ بنيت على هذا التأويل، لا سيما خطبته المشهورة في أيام التشريق، فإن نظامها ونظام الأحكام في هذه السورة واحد. فذكر حرمة الدم، ثم المال، وسمّى الخصام كفراً، ثم تقوى الله في أمر النساء. فقدَّم السياسة المدنية على تدبير المنزل.

ولا يخفى عليك أن أول السياسة أن يكفّوا عن سلّ السيوف بينهم، ويذعنوا

---

(١) مسند أحمد ٥: ٧٢.

لسلطان الحكم والعدل والسلم، وحينئذ يرجعون عن السبعية إلى المدنية. ولم يسلب المسلمون عزّهم إلا بنقض هذا العهد. ولذلك كفّ عثمان ﷺ عن سلّ السيف على المسلمين، وصبر صبر أولي العزم من الرسل. وأمّا علي ﷺ فاضطروه عليه. ثم ماجت الدماء، وصار الإسلام مثل الكفر، كما قال النبي ﷺ في تلك الخطبة وهي آخر وصيته: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[1]، فجعل سلّ السيف بينهم من الكفر.

وقد بيّن الله تعالى لنا السبيل في سورة الحجرات: كيف نفعل إذا بغت من المؤمنين طائفة على الأخرى حتى تفيء إلى أمر الله، فصار فرضاً على المؤمنين أن لا يدعوا بعضهم يبغي على بعض. ولذلك جعل قتل المؤمن أشدّ الكبائر. (النساء: ٩٣).

(٣)

آيات (١٨٠-١٨٢): سدُّ باب خصام ينشأ في ميراث بين ذوي القربى، فهذا بعد خصام الدماء، وحثّ الجماعة على الإصلاح إن خافوا جنفاً من الموصي. وبقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ و﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ بيَّن لنا أنهما من التقوى.

وفي القصاص حفظ النفوس والأمن، فسمَّاه حياة. وفي الوصية حفظ المال عن التغشم، وصرفه إلى أهل الحقوق، فسمّاه قياماً. (أول النساء).

واتصل هذا بذاك أيضاً من جهة أن الدية مال يدفع إلى ذوي القربى الذين أصيبوا بموت من ينفعهم، فصار أمر القصاص من باب أحكام الأموال.

---

(١) متفق عليه.

(٤)

آيات (١٨٣-١٨٨): بعد إثبات السلم وسدّ بابي الخصام النفسي بين الأجانب والخصام المالي بين ذوي القربى، رجع إلى قمع خصام النفس اللجوج ورفع سلطان الشهوة التي تلقي الشح والشحناء. فالصومُ ترويض للصبر، وهو رأس التزكية. وبذلُ النفس في ذات الله تطهيرُها. ولذلك سمّى الله تعالى الكسل والفشل «رجز الشيطان» الأنفال [٥-١١].

والصوم تهيّؤ للجهاد عند العرب، وهكذا نزل. فإن الله لم يفرض الصوم إلا حين فرض القتال. والصوم أيضاً جالب للنصرة والولاء، كما صرّح به. وغايته التقوى، كما مرّ في القصاص والوصية.

وآية (١٨٥)، وآية (١٨٦)، وآية (١٨٧) زدن من بعد لأجل البيان لبعض الأمور المتعلقة بالصوم.

وآية (١٨٨) تتميم طهارة مطلوبة من الصوم في عامة أحوالنا، وهي في كسب الأموال، وذلك بعد الموروث.

فانظر كيف راعى الترتيب في هذه الأحكام من وجوه شتى. فذكر القصاص والدية، ثم الوصية في المال المتروك، ثم ذكر الصوم وقمع الهوى، ثم منع عن كسب كل حرام. فسدَّ أبواب البغي، والخصام، والهوى، والحرص.

(٥)

آيات (١٨٩-٢١٨): جعلهم أمة واحدة بل نفساً واحدةً بالحج، وذلك تمام التزكية، كما فصَّلناه في سور التطهير من الحديد إلى التحريم، وهناك التفصيل. والحج فيه الذكر والشكر، وفيه ائتلافهم بالتقوى وبحب الله فوق حب الآباء والنسل. فحصلت لهم جامعة إلهية خالصة واسعة دائمة إلى أن يجعلهم الله إخواناً على سرر

متقابلين كالمرايا، كما قال النبي ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»[١]. وظهر لنا رفيع منزلة الهجرة والفرار إلى الله، كما وقع قدما، اذكر حج موسى وهجرة إبراهيم عليهما السلام. وفَرَض القتال للدفع عن البيت، والفتنة.

(٦)

آيات (٢١٩-٢٢١): إبطال حبائل الاتحاد الفاسدة وأبواب السماحة الكاذبة من المعاقرة والمقامرة، وإصلاح علائق المودة من تربية اليتامى والمناكحة، فيزكيهم عن أرجاس مخلوطة لا يليق بالمتطهرين.

وذكر هذه بعد الحجِّ لما أنّ كل ذلك من الجوامع وأسباب المؤالفة، فبيّن الحق من الباطل والشفاء من الداء.

وفي هذه الجملة أيضاً قدّم الخمر والميسر لما فيهما فساد السياسة، ثم ذكر أمر المال، ثم أمر النساء، حسبما مرَّ بك في القصاص والوصية وتطهير المكاسب.

(٧)

آيتان (٢٢٢-٢٢٣): تفريع على الطهارة في النكاح. فإن الشرك رجس الباطن، كما صرح به القرآن، وكثر في التوراة، والمحيض رجس ظاهر.

ودلَّ على هذين الأمرين في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾. فالتوبة طهارة الباطن، ونبذ الشركاء، وتخليص القلب لله. ثم في ترك المرأة عند رجسها الظاهر مثال لترك العبد إذا تلطخ بالشرك، كما كثر التصريح به في التوراة. وذكر الإيلاء والطلاق تنبيه عليه.

---

(١) رواه أبو داود في الأدب، باب النصيحة والحياطة، رقم الحديث: ٤٩١٨، والبخاري في الأدب المفرد برقم ٢٣٩.

(٨)

آيات (٢٢٤-٢٣٧): رفع خصام بين المرء وزوجه، الذي يجرّ إلى الفساد المدني والسياسي. الإيلاء والطلاق تفريع على ترك المرأة.

ذكر من النساء أولاً من لا تصلح للمؤمن لرجسها الباطن، ثم من لا تصلح له لرجسها الظاهر العارض، ثم من لا تصلح له لنشوزها الراسخ، وهو فرع من رجس البغضاء. وذلك ربما يكون من جهة المرء، أو لأمر فطري، فحثهم على إصلاح ذات البين، والحلم، والأناة. فأكثر في هذه الجملة من ذكر البر، والتقوى، والإصلاح، والمعروف، والإحسان، والطهارة، والتراضي، والتشاور، والعفو والفضل بينهم. ولم يحرِّم الطلاق ولا ينبغي، ولكن سدَّ أبواب الفساد.

(٩)

آيتان (٢٣٨-٢٣٩): هذه خاتمة الباب بالصلاة والذكر، كما بدأ بها القسم العملي. ولهذا الأسلوب أمثلة في القرآن، وسميته «العود»: سورة البقرة (٤٠ و١٢٢)، والمؤمنون (٢ و٩)، وبني إسرائيل (٢٢ و٣٩)، والحشر (١ و٢٤)، والممتحنة (١ و١٣)، والمعارج (٢٢-٢٣ و٣٤).

واتصال هذه الآية بالتي قبل الأسئلة، وهي آية (٢١٤): ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ الآية. والمقصود منه تنبيه على أصل الأمر وأهمه. ولما كان عهدنا الصلاة والذكر أكّد عليها.

وهكذا فعل في التوراة. والباب العشرون من كتاب خروج يبتدئ بالأحكام العشرة، فبدأ بالتوحيد وختم به. ثم كان القربان صورة عهدهم، كما أنَّ الصلاة لنا، فختم به كلقيات أحكامهم. هذا حسب ظاهر التوراة. وأما القرآن فظاهره يدل على أن الصلاة كانت لهم، كما هي لنا أصل العهد: المائدة ١٢، ويونس ٨٧.

والتوفيق بأن صلاتهم في عهد موسى عليه السلام كانت في شكل القربان والنذور، كما لا يخفى على الناظر المتأمل في التوراة. وبسط القول في تفسير سورة المائدة.

وفي ذكر الصلاة هاهنا أيضاً تنبيه على كونها أهمَّ مقاصد الجهاد. فإن أصل الدين كما علمت: ذكر الله، والإحسان بالخلق، وأصله: السلم. فالقتال لا يجوز إلا لهذين الأمرين. ولذلك وجبت المحافظة على الصلاة للنصرة. والشاهد على هذه الأمور الثلاث قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ الحج: ٤٠ - ٤١ وآي أخر، كما مرّ في القسط الأول.

وكذلك ترى أبا بكر رضي الله عنه أعلم هذه الأمة بالقرآن، لما أرسل أول سريّة أوصاهم بالرحمة، والتجنب عن الفساد وإهلاك الحرث والنسل، ليعلموا أن الله تعالى ينصر المصلح ويخذل المفسد، وأن الجهاد ليس إلا لرفع الفساد. وبالصلاح يستحقون الخلافة والوراثة، فهي واسطة بين ما قبلها وما بعدها.

وكذلك وصّى عمر رضي الله عنه بالصلاة، فقال: «من ضيَّعها فلغيرها أضيع»[(١)]. فإن الصلاة هي الأصل، ولها استخلفوا واستحقّوا وراثة الأرض.

(١) انظر الموطأ، باب وقوت الصلاة. ولفظه: «أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمّاله: إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع».

(١٠)

آيات (٢٤٠-٢٤٢): نزلت من بعد، فضُمَّت بالباب، مثل آخر سورة النساء وسورة المزمل.

وهذا من البيان الذي وعد في سورة القيامة بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ فضمّت آيات البيان إما بالآية التي اقتضت البيان والتأخير، فأخّر الله البيان لمصلحة، وإما بآخر الباب، كما بينا في كتاب «تاريخ القرآن»[1]، و«تفسير سورة القيامة»، و«كتاب دلائل النظام»[2].

فهاهنا ضمّ الآيات المبينة بعد تمام باب الشرائع الشخصية. وبعدها تبتدئ الشرائع المتعلقة بالأمة كالشخص الواحد، كما ستعلم.

---

(١) لم يكمله المؤلف رحمه الله.

(٢) نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٨٨هـ.

الباب الرابع في إحياء أمة وأسباب بقائها وارتقائها

آيات: (٢٤٣-٢٨٣)

(١)

اعلم أن رأس الحياة التوحيد. تأمل آيات (٢٤-٢٨) من سورة إبراهيم.

وذلك هو قربان النفس والمال، والاعتصام بالعروة الوثقى من التوحيد والتوكل، كما علّمنا في أول كتابه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾. فجمع التوحيد والتوكل والارتقاء ترتيباً سببياً، فإن الصراط المستقيم يلزمه الارتقاء إلى مدارج القرب.

والصراط المستقيم هو التوحيد في العبودية، والانسلاخ عن عبودية الهوى. فإذا ارتفع حجاب الهوى انبعث في النفس إحساس المواساة بالخلق، فبذلُ النفس للخلق مبنيٌّ على اتحادهم.

وهذا الإحساس هو معنى الصلاح، وبه تصير الجماعة شخصاً واحداً يتعاون بعضهم ببعض كأعضاء جسم واحد، ويتحقق كمال نفس آدم راجعةً من التبدد إلى التوحد. وبذلك حياتهم حياة واحدة مدنية وروحانية. فالصلاح صفة، بها يصلح واحد لآخر، فيصيران شخصاً واحداً. والفساد خلاف ذلك.

فإن تدبرت في هذا الأمر علمت وجه ربط الجهاد ورفع الفساد مع حرمة الربا، وفرض الصدقة والعفو، وبعد ذلك وعد النصر. انظر سورة آل عمران (١٠٠-١٥٠).

فجمع الله في هذا الباب أمور بذل النفس والمال، كما يأتيك. وهكذا قال المسيح عليه السلام: «ابذل الحياة فتأخذ الحياة»، كأنّ هذه الحياة بذر لتلك الحياة.

(٢)

آيات (٢٤٣-٢٥٣): في بيان إحياء الأمم ببذل نفوسهم، وبيان وجوب القتال لردّ مركز الحياة، ورفع الفساد، وإثبات السلم.

ولم تجمع أمة إلى الآن بغير رابطة دينية. ولذلك كثر عدد الأوثان عند الأمم المشركة إذا اتسع نطاق ملكهم، كما لا يخفى على الناظر في تاريخ الهند والروم، كما بينا في تفسير سورة الكافرون. فكان لبني إسرائيل مركز لاجتماع تابوتهم حتى بنوا البيت المقدس. وفي ذلك مثال لوجوب الجهاد لاستخلاص الكعبة والقبلة.

وبيّن أن الله يعطي الملك والحكمة جزاء لبذل النفس، كما أنه يعطي الحكمة لمن بذل ماله (٢٦٩).

ثم أجاب عن شبهة اقتتال أمة واحدة، وجعل ذلك سبباً لذكر دواء الخصام ومنشئه في الآيات الآتية.

(٣)

آيات (٢٥٤-٢٦٠): في بيان الطرف الثاني من البذل، وهو بذل المال. فعلمنا أن النفس بعملها تخلّصها وتزكّيها، فلزمها بذلها و [بذل] مالها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ النجم: ٣٩. فعليها أن تقرب بالمال كما تقرب بذاتها. فأزاح ظنَّ الشفاعة، وأخذَ الناس أرباباً ظانّين بأنهم شفعاؤهم عند الله.

فبيّن لاختلاف أمة واحدة أمرين: بغيهم لفقدان السماحة، وتركهم الاعتصام بالله. وعلَّمنا كيف يؤيد الله الموحدين بالنور، ويخذل المشركين في الظلمات، فمثَّل لنا ذلك بثلاث قصص:

الأولى: في خروج الملحد المغرور بالدنيا من نور الحجة إلى الظلمة.

والثانية: في خروج الموحد من شك إلى يقين.

والثالثة: في خروج الموقن إلى اطمئنان القلب.

في هذه الأمثال راعى مبنى الكلام، وهو حياة الأمة. وبدأ القصة بذكر إبراهيم، وختم به، لشهرته بالسخاء والتوحيد. والقصة الأولى جمع إبراهيم ﷺ والذي كان خلافه، فإنه اغتر بالدنيا وترك الاعتصام بالعروة الوثقى وهو التوحيد. وأما كيف ربط القصتين بإحياء الأمة، فبيانه في القسط الثالث وهو مهم، فأخرناه لتفرغ له تأملك.

(٤)

آيات (٢٦١-٢٦٦): بيان بركات الله على بذل المال، وضرب أربعة أمثال:

الأول: مثل الزرع في سهول الأرض وخصبها مثلاً للذي ينفق في سبيل الله . وجعل قولاً معروفاً من الصدقة، لتعلم أن المراد هو صلاح القلب.

والثاني: مثل حزونها لا تنتفع بالمطر مثلاً للقاسية قلوبهم.

والثالث: مثل جنة بربوة في نجد يصيبها المطر، وبيّن مقصد الإنفاق وهو ابتغاء مرضات الله، وتثبيت النفس. فعلمنا أن بذل المال سبب لبذل النفس، فإنّ كليهما من الصبر والتسليم لله تعالى.

والرابع: مثل جنة في تهامة تسقى بالأنهار، فعلمنا أن الإنفاق لا يجدي نفعاً إذا كان للرياء وبغير إيمان بالله ولقائه. فالنور والنصر والفضل يأتي من الله تعالى، فليكن الإنفاق لمرضاته.

وفي هذه الأمثال ترى أن البركة أو الخسران ما جاء إلا من عند الله، وهكذا صرح في الجملة السابقة بأن لا شفاعة ولا خلة إلا بإذنه، وهو الذي يخرج من

الظلمات ويهدي إلى الحياة. فجعل الإخلاص في الإنفاق كالإخلاص في العبادة من أهم الأمور، وهكذا يجب عند العقل. فالمنّ والأذى والرياء. يبطل الصدقات. وسيأتيك مثل ذلك في الجملة التالية.

(٥)

آيات (٢٦٧-٢٧٤): بيّن أموراً عظاماً لا تجد أكثرها في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في سائر كتب الأديان والأخلاق:

١- ليكن الإنفاق من التجارة والحرفة والأرض.

٢- وليكن طيباً وعزيزاً. وهذا مما جاء في التوراة. فألزمهم أن يأتوا إلى الله بكل بكر عزيز، وهكذا في القرآن: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢.

٣- الشيطان يمنعكم عن الإنفاق في سبيل الله بتصوير الفقر، ويحثّكم على الإنفاق في المآثم، والله تعالى يعدكم مغفرة وبركة. هاهنا مقابلة بين الفقر والفضل، والفحشاء والمغفرة.

٤- أحسن بركاته أن يؤتيكم حكمة وفهماً سليماً، وبها حياة الأمم وعروجهم.

٥- كل نفقة جالبة لنصر من الله تعالى، لكون المواساة أصل شرط الخلافة.

٦- إظهار الصدقات أحسن لتعليم الجمهور وحثّهم على الخيرات.

٧- إخفاؤها مكفّر لسيئاتكم. وعلى هذا الأصل أكثر الأعمال الصالحة. فالصلاة والذكر فيها ما يكون علانية وما يكون سرًّا.

٨- النبي يعظهم، وقبول العظة لا يأتي من المتدنسين. فإذا أنفقوا اطّهروا

وأفاض عليهم الله هداه، فوجب ابتغاء مرضاته. وطهارة القلب بالإنفاق أمر عقلي، ولذلك سمى الله الزكاة «زكاة»، وصرّح بذلك في مواضع كثيرة.

٩- الإنفاق ليس إلا لأنفسكم، ويُرَدّ عليكم بأضعافه.

١٠- ينبغي ان تعرفوا المستحق بسيماه وتعطوه قبل السؤال، فندب التعفف.

(٦)

آيات (٢٧٥-٢٨١): وضع حرمة الربا بين الصدقة والتداين، لتعلم علة حرمته، وهي كونه ضدًّا للصدقة، ولتعلم أن التداين تعاون ومخالف للربا. ثم صرح بكونه خلاف الصدقة والبيع، وأنه كفر وإثم، وضد للتقوى، وظلم. وفي سورة آل عمران وضعها بحيث تعلم من النظام أن الغفران والنصر لا يتوجه إلى أهل الربا. وبيان وجه الحرمة تفصيلاً يأتيك في القسط الثالث، وهناك ترفع بعض الشبهات لما يرون من رغد الآكلين الربا.

وقوله تعالى: ﴿ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٧٩ يعلمنا أنه من الكبائر الهادمة لصلاح الملك. وذكر الله جزاء هذه المعصية التي سميت حرباً بالله ورسوله في سورة المائدة، حيث قال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ المائدة: ٣٣.

وإنما جعل الفساد حرباً به لأنه تعالى أنزل الشريعة إصلاحاً، فالمفسد محاربه، والربا من الفساد في الأرض. ولذلك نفى عمر ﷺ أهل نجران عنها (صفحة ٧٢ فتوح البلدان بلاذري) لأكلهم الربا، فأجرى عليهم أخف العقوبات لهم. ثم بذلك

كان قد عاهدهم النبي ﷺ حتى كتب: «ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة»[١] مع أنه ﷺ لم يغيِّر دينهم ولا مراتبهم. فاتضح أنه جرم سياسي، ولذلك ذكره في خطبته في حجة الوداع، والبلاغ بعد حرمة الدماء. وأمر الله تعالى بالمهلة لذوي العسرة بل العفو ذخراً لغد، فلا حيف.

(٧)

آيات (٢٨٢-٢٨٣): فيها يتعلق بالتعاون دون الصدقة، وهو القرض. وأوجب فيه الكتابة أو الرهن حين تتعذر الكتابة، فلا رهن فيما عدا ذلك، كما ذهب إليه مجاهد والضحاك رحمهما الله تعالى، فقالا: لا يجوز الرهن إلا في السفر (ابن جرير الطبري رحمه الله)[٢]. وتفصيل هذا البحث في القسط الثالث.

فأوجب أداء الرهن عند ارتفاع الضرورة، تكميلاً لما جاء في التوراة من كراهية الرهن. وأعلن به النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع، فذكر الرهن مع الربا والدم (طبري صفحة ١٧٥٣)[٣]. وترى اليوم كيف اختلط الربا بالرهن، وإنما خفي هذا الأمر لأن الرهن عبّر عنه بالأمانة.

راعى من التفصيل أمرين عظيمين: إملاء الكتابة لمن عليه الحق، وفرض الشهادة. ولا ترى هذين الأمرين في التوراة ولا غيرها من كتب الأديان.

وفرض في التداين عشرة أحكام، ثم زاد عليها اثنين من الرهن، وردَّه إذا

---

(١) فتوح البلدان: ٧٢.

(٢) انظر تفسيره ٦: ٩٥ رقم ٦٤٣٧ و٦٤٤١. وقال ابن كثير: «واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره» ١: ٣١٨.

(٣) انظر تاريخ الطبري ٣: ١٥٠.

حصل الأمن. تأمل هاهنا تجد ترتيباً عقلياً: ذكر الصدقة، ثم ذكر الربا، ثم التداين، ثم الرهن. وأبطل الثاني والرابع، وذكر التجارة الحاضرة ضمناً لخلوها من الخصام. والأحكام العشرة هذه:

(١) الكتابة. (٢) عدل الكاتب.

(٣) لا يأب كاتب. (٤) يملي الضعيف.

(٥) عدله. (٦) وليه يملي بالعدل.

(٧) استشهاد شهيدين. (٨) أو رجل وامرأتين.

(٩) لا يأب الشهداء إذا ما دعوا. (١٠) لا تسأموا الكتابة لصغر الدين.

ثم هذه الآية الواحدة تضمنت بيان حِكَم هذه الأحكام. ثم ذكر سبعة أحكام مما يتعلق بالتجارة والرهن، ولا يخفى ذلك على الناظر فيها.

ثم لا يخفى عليك أن كل ذلك من المعاملات ذكرت تحت الإنفاق، فهو ينبوع هذه كلها. والإنفاق جاء ذكره كالدواء والحصن من الفساد والاقتتال، وكالصنو أو العضد للتوحيد. وأطنب في ذكر الإنفاق، وأدرج فيه أمثالاً وقصصاً للحياة والنور والهلاك والظلمات، واهتم بالإخلاص فيه كالإخلاص في التوحيد.

وإن نظرت فيما أوحى الله من أوائل هذه البعثة إلى أواخرها وجدت الإنفاق مدار أمرها، وكذلك الصلاة. فإن بسط هذا الدين باعه كانت الصلاة يمينه والزكاة يساره.

الباب الخامس في الخاتمة

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية خاتمة لآيات الأحكام، وفيها تأكيد شديد لما ذكر محاسبتهم بما يبدون، ولا بد منه.

وقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ الآية إقرار لما كتب عليهم، كما جاء في كتاب استثناء: «فأخذ موسى عليه السلام العهد عن أمته».

وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ ﴾ الآية تطييب من الله لقلوب المؤمنين. ولا نسخ فيها، لما مر من المحاسبة.

وقوله: ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ فيه بلاغة عجيبة، بما دلّ على كونهم حزب الله وأنه مولاهم. فهذه الكلمة الواحدة دلّت على ربط هذه الآيات بما قبلها من حكم بذل النفوس في سبيل الرب، ومن بعثه تعالى إياهم أمة جديدة.

سورة البقرة نزلت بالمدينة في أوائل الهجرة
وهي مئتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى
مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾.

تفسير الكلم

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾ تقرأ أَلِفْ لَامْ مِيم ساكنةَ الأواخر، وهكذا تقرأ أمثالها، ولذلك تسمّى الحروف المقطّعات، ولم تجئ إلا في أوائل السور. وقد دلّنا القرآن على أنها أسماء السور بما أشار إليها بـ «ذلك» و«تلك». فإنه يشار بها عموما إلى ما سبق، وسيأتيك بيانه. وهكذا دلّت السنة على كونها أسماء للسور.

واعلم أنها مع كونها أسماء للسور هي من القرآن لِرَجْعِ الإشارة إليها، فلا بدّ أن نقرأها بالقرآن. وأيضاً أنها نزلت مع القرآن فلا سبيل إلى تركها، فإنّ القرآن كله محفوظ، كما هو مبسوط في موضعه، وإنّا مأمورون بقراءته.

واعلم أن أسماء حروف الهجاء كانت معلومةً للعرب يتكلّمون بها. فالمفردات من أسماء السور مثل ص، ق، ن من العربي المبين. وأما المركبات مثل حم، الم، المص، حم عسق، فأيضاً بعد الدلالة على أنها أسماء للسور التي تبتدئ بها صارت من العربي المبين.

فإن قلت: إنّها كلمات لم تعرفها العرب، قلنا: إنهم كانوا يسمُّون بالمركّبات فيعطونها معنى خاصًّا لم يُفهم من مفرداتها. فكانوا يسمّون رجالهم وأولادهم وأفراسهم وألويتهم وأسيافهم بأسماء خاصة، ولم تكن العرب تعرف هذه الأسماء بهذه المعاني، وإنما تعرفها بالمعاني العامة لتلك الألفاظ. ولكن استعمال الذين جعلوا

هذه الأسماء بإزاء المعاني الخاصّة كان يدل السامع على وضعها الجديد، وذلك لا يسمَّى خروجاً عن الإبانة. فهكذا تسمية السور بهذه الأسماء بعد الدلالة على ما وُضِعت لها لم تُخرجها عن الإبانة.

فإن قيل: إن الأسماء التي كانت العرب تضعها بإزاء المعاني الخاصّة لم تكن خالية عن مناسبةٍ بين مدلولها العام ومدلولها الخاص، وأما هذه الحروف المقطعة فلا نجد مناسبة بينها وبين هذه السور.

قلنا: عدم العلم بمناسبة بين الاسم والمسمَّى لا بأس به بعد الدلالة على ما خُصَّ به، فإن أكثر الأسماء الجوامد لا نعلم المناسبة بينها وبين مسمّياتها. ثم لا يلزم من جهل المناسبة نفيها، فإنا نعلم أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا لحكمة ونفع، ولكن المنافع تظهر يوماً فيوماً بالتأمل وزيادة العلم، فما خفي نفعه نتفكر فيه ولا ننكره لعدم الاطلاع عليه. فكذلك تفكر العلماء في مناسبة هذه الأسماء لمسمياتها، وفي إعمال الفكر ترويضُه وإكمالُه، ومهما غمض الأمر زاد إعمال الفكر وكان أنفع لترويضه، وأردع للنفس عن الغرور بما علمت، وأحثّ لها إلى التعلم، فإن الإحساس بالجهل أول خطوة التعلم. ومن نعمة الله على العلماء أنهم مهما ازدادوا علماً ازدادوا إحساساً بجهلهم وبقلة علمهم في جنب ما لم يعلموا.

فغموض مناسبة هذه الأسماء ينطوي على حكمة عظيمة، فإنّ القارئ في أول نظره ينتبه على أن هذا الكتاب بحر عميق، وينبغي له أن يستفرغ جهده في تدبره حسبما وجد في نفسه من الأهلية والاستعداد. فإن كل امرئ مكلّف لما في وسعه، كما قال تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ الأنعام: ١٦٥. وستجد في الفصل الخامس عشر إشارةً إلى المناسبة بين هذه الأسماء ومسمياتها.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من السلف أن معناه: «هذا

الكتاب»[١]. وعنوا بذلك أن المراد: هو هذا الكتاب، لا غيره. وهو قول صحيح. وليس معناه أن كلمة «ذلك» بمعنى كلمة «هذا». فإن بينهما فرقاً عظيماً، وتفصيله في كتاب «المفردات»[٢]، ونذكر هاهنا بقدر الكفاية.

فاعلم أن «هذا» تشير به إلى ما كان بين يديك وتُريه المخاطبَ، ولذلك تصدّره بحرف «ها»، فتريه ما بين يدي المخاطب، كما تقول: ها أنا ذا. قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ قريش: ٣. فلو قال: «ربّ ذلك البيت» دلّ على أنّ البيت قد مرّ ذكره فأشير إليه. فإذا سبق ذكر شيء وأشير إليه بـ«هذا» كان المقصود إحضار ذلك الشيء بين يدي المخاطب. ونذكر على سبيل التمثيل لا الاستناد من قصيدة الفرزدق أمثلة. قال:

هذا الّذي تَعْرِفُ البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالبَيْتُ يَعْرِفُه والحِلُّ والحَرَمُ[٣]

وقال في هذه القصيدة:

هذا التّقي النّقي الطّاهِرُ العَلَمُ[٤]

وقال أيضاً:

إلى مَكارِمِ هذا يَنْتَهِي الكَرَمُ[٥]

---

(١) انظر تفسير الطبري ١: ٢٢٥ (تحقيق محمود شاكر) رقم ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) يعني كتابه «مفردات القرآن»، وهو مطبوع. ولا يوجد فيه شرح الكلمة، لأن المؤلف لم يقدر له إكمال الكتاب.

(٣) ديوانه ٢: ٢٣٨.

(٤) صدره:

هذا ابنُ خير عباد الله كلهم

(٥) صدره:

=

فإن الإمام زين العابدين ﷺ كان موجوداً، وكان الشاعر يريه المخاطب إرغاماً له.

وجاء في القرآن: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ٧٩.

وجاء أيضاً: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ آل عمران: ٣٧.

أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ آل عمران: ٥١.

وضرب مثلاً لعيسى عليه السلام ثم قال بعده: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ آل عمران: ٦٢ فبالإشارة بكلمة «هذا» مثّل بين أيديهم ما سبق ذكره.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ آل عمران: ٦٨. فأشار إلى النبي ﷺ بـ«هذا» وهو بينهم.

أما كلمة «ذلك» و«تلك» و«أولئك» فتشير بها إلى ما علمه المخاطب وسبق ذكره، أو يكبر من أن تمثّله بين يديه. تقول بعد تمام الكلام: «ذلك» أي خذ ما ذكرنا. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ محمد: ٤. وقال تعالى بعد ذكر داود عليه السلام: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ البقرة: ٢٥٢ - ٢٥٣. وهكذا بعد ذكر أحكام المواريث قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ النساء: ١٣.

وقال أمية بن أبي الصلت:

=

إذا رأته قريشٌ قال قائلها

انظر ديوانه ٢: ٢٣٩.

تَرَكْتُ اللاتَ وَالعزّى جَميعاً　　　كذلكَ يَفْعَلُ الرّجُلُ البصيرُ[١]

وهذا كثير في القرآن وكلام العرب، وهم يفرِّقون بين استعمالها لفوائد خاصة.

ومن فوائد استعمال كلمة «ذلك» هاهنا دلالتها على أنّ اسم السورة المذكورة قبلها من القرآن، فإنها تشير إليه. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ الشورى: ١ - ٣، فأشار بكلمة «كذلك» إلى المذكور آنفاً.

وأما قول النحويين: إن «هذا» للقريب و «ذلك» للبعيد، فتقريبٌ وليس بيان حقيقة الأمر.

ومما ذكرنا يتبين أنّ ما زعم ابن جرير رحمه الله وتبعه المفسرون أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ هاهنا بمعنى «هذا»، واستشهد بقول خُفاف بن نُدبة:

أَقولُ له والرُّمح يأطِرُ مَتْنَهُ　　　تأمّل خُفافاً إنني أنا ذلكا[٢]

فلا يصح لا في البيت ولا في الآية. أما الآية فقد بينا أنّ «ذلك» هاهنا يدل على أمر لا يدل عليه «هذا»، وفي القرآن نظائر كلها تؤيد ما ذكرنا كما سيأتيك.

وأما البيت فيقبح فيه لفظ «هذا»، فإنّ الشاعر بعد ما ذكر اسمه لعدوه قال له: إنني عدوك الذي سمعتَه وعلمتَه من قبل[٣]. فلو قال: «إنني أنا هذا» لم يدل على

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ٥٠٤. والرواية المشهورة: «الجلد الصبور». والبيت من قصيدة لزيد بن عمرو بن نفيل في سيرة ابن هشام ١: ٢٢٦-٢٢٧، والأغاني ٣: ١١٨-١١٩.

(٢) تفسير الطبري ١: ٢٢٧.

(٣) وبمثل ذلك فسره الأستاذ محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري إذ قال: «وأرى أن الإشارة في هذا البيت إلى معنى غائب، كأنه قال: «أنا ذلك الذي سمعت به وببأسه». وهذا المعنى يخرج البيت عن أن يكون شاهداً على ما أراد الطبري ١: ٢٢٧.

ذلك المعنى. وأيضاً سقط لما أنّ في ذلك دلالةً على عظمته، ولا فائدة في «أنا هذا».

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ اسم الحدثان من كَتَبَ. ويطلق على خمسة معان:

١ - ما قدر الله، كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ الأنفال: ٦٨.

٢ - كتاب عند الله يحوي ما قدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ ق: ٤. أيضاً: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ التوبة: ٣٦. أيضاً: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام: ٥٩.

٣ - الرسالة وما يكتبون، كما قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ النمل: ٢٩. أيضاً: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ البقرة: ٢٣٥.

٤ - الشرائع والأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ المائدة: ١١٠. أيضاً: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ البقرة: ١٢٩، وآل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢.

٥ - ما أنزل الله. وبهذا المعنى يطلق على كتاب الله تعالى قليله وكثيره. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأعراف: ١٧٠. وأيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ آل عمران: ٢٣. وأيضاً: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ يونس: ٩٤. وهذا كثير.

وأصل ذلك اختصاص الكلمة بأكمل أفرادها. وهذا الإطلاق هو المعروف في أهل الكتاب، فإن اليهود كانوا يسمُّون كلَّ كتاب من صحف الأنبياء سِفْراً. وهكذا المترجمون من النصارى سمَّوا هذه الكتب المقدسة باسم «بائبل» وهو في اليونانية بمعنى الكتاب، وباسم «إِسْكِرِفْصَر» [scripture] وهو مثله في اللاطينية. فظهر أن تخصيص اسم الكتاب بكتاب الله أمر معروف من القديم، وبيَّنه القرآن باستعمالاته

فتبيّن معناه للمخاطبين. ثم عرّفه بأسماء كثيرة ليدل على التصور الصحيح للمسمّى، ونذكرها في الفصل الخامس عشر. والمراد هاهنا هو هذا المعنى الخامس.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الرَّيْب هو الشك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ غافر: ٥٩. وارتاب: شَكَّ. قال تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ العنكبوت: ٤٨. وريب الدهر: حوادثه. ومنه: ريب المنون. كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ الطور: ٣٠. رابني فلان: إذا رأيتَ منه ما تكرهه، وما هو مظِنّة لسوء. ومنه: الريبة، للتهمة، وهي ظن السوء، فهي قسم من الشك. قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ التوبة: ١١٠. وأراب الرجل: صار ذا ريبة، وأيضا: أورث الريب، كما قال تعالى: ﴿فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ سبأ: ٥٤. ومنه الحديث: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لا يُرِيبُكَ»[1].

﴿هُدًى﴾ هو اسم الحدثان من هَدَى يَهْدِي. أما وجوه استعمال الفعل منه، فقد مرّ في تفسير الفاتحة. وأما هذه الكلمة، فتأتي حسب أصل معلوم في إطلاق أسماء الحدثان على وجوه:

١ - فالأول: أنه النور والبصيرة في الفؤاد، كما قال قس بن ساعدة:

وَالّذِي قد ذكرت دَلَّ على اللـ　　　ـه نفوساً لها هُدًى واعتبارُ[2]

وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ محمد: ١٧. وأيضاً: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ السجدة: ١٣.

(١) رواه الترمذي في آخر أبواب القيامة. رقم الحديث ٢٥١٨. وأورده البخاري معلقاً، انظر فتح الباري ٤: ٢٩١.

(٢) شعراء النصرانية: ٢١٢.

٢- والثاني هو الدليل والبينة وما تهتدي به، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ طه: ١٠. أيضاً: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥. أيضاً: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ الحج: ٨.

٣- والثالث: الطريق الواضح الموصل. قال امرؤ القيس:

ومن الطريقة جائرٌ وهُدًى ... قَصْدُ السَّبِيل ومنه ذو دَخْلِ[1]

وفي القرآن: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ الحج: ٦٧، ومنه: للسنة والشريعة، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الأنعام: ٩٠ و﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ آل عمران: ٧٣.

٤- والرابع: اسم لفعل الهداية، كما قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ النحل: ٣٧. أيضاً: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ البقرة: ٢٧٢. أيضاً: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ الليل: ١٢. وهذه الوجوه كلها من جهة العربية.

٥- ثم العرب تسمِّي الأشياء ببعض وصفها الظاهر. فعلى هذا الأسلوب سمَّى الله تعالى كتابه «هدى» من جهة هذه الوجوه كلها، لكونه جامعاً لها. والشيء الواحد يسمى بأسماء عديدة، فالهدى من أسماء كتاب الله، كما قال تعالى ذكراً لقيل مؤمنى الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ الجن: ١٣. وأيضاً: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾ الإسراء: ٩٤ وأيضاً: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ البقرة: ٣٨. أي يأتينكم وحي مني. فهذا هو المعنى الخامس للهدى وهو جامع للوجوه السابقة.

---

(١) ديوانه: ٢٣٨ والراجح أنها لامرئ القيس بن عابس الكندي، وهو شاعر صحابي مخضرم.

وسيأتيك بيانه في الفصل الرابع عشر.

﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ أما اللام فللنفع، أي ينتفع به المتقون، وسيأتيك بيانه. وأما «المتقين» فلا يخفى أن الاتقاء افتعال من: وقى ـ يقي، فالمجرد يتعدى إلى مفعولين، كما قال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ الإنسان: ١١ أي حفظهم عنه. وأما الافتعال منه فيتعدى إلى مفعول واحد، واتقيتَ الشرَّ: تحفّظتَ منه. اتقيتَ السيفَ بالتُّرس: جعلتَه حاجزاً بينك وبين السيف. قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الزمر: ٢٤ قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ[١]

وفي الحديث: «اِتّقوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[٢] أي التمسوا وقاية من النار ولو بشق تمرة تعطوها الفقراء[٣].

وربما يراد به على التجريد: محضُ جعل الشيء في القُدّام كالحاجز، كما قال امرؤ القيس:

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أسِيلٍ وتَتَّقِي بِنَاظِرَةٍ مِن وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ[٤]

فجرد عن مفهوم الخوف، وهو قليل. فإن الاتقاء في أصل معناه يكون من خوف ضرر. وعلى هذا يأتي على أربعة أوجه:

---

(١) ديوانه: ٩٣

(٢) متفق عليه وانظر النهاية ٢: ٣٩١.

(٣) «تعطوها» أصله «تعطونها»، وقد حذفت نون الرفع لمجرد التخفيف، انظر شواهد التوضيح لابن مالك: ١٧١.

(٤) البيت من معلقته في ديوانه: ١٦ وانظر شروح المعلقات.

الأول: هو التحفظ عما يخاف الضرر منه، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ آل عمران: ٢٨. أيضاً: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ المزمل: ١٧.

والثاني: هو الخوف من شر، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ الأنفال: ٢٥. أيضاً: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ آل عمران: ١٣١ أيضاً: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ البقرة: ٢٨١.

والثالث: هو التخشع بين يدي المنعم القدوس الذي يرحم على الشاكر البار، ولا يرضى بالكفر والإثم، وهو العالم بكل شيء. وبهذا الوجه يشبه «الرهبة»، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الأنفال: ٢٩. أيضاً: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن: ١٦. أيضاً: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الزمر: ٧٣. وهو كثير.

والرابع: هو الوجه الجامع للوجوه الثلاثة، ويدل على التحفظ عن الإثم من خوف نتائجه السيئة ومن خوف سخط الربّ. وهذا المعنى الجامع يراد منه كثيراً إذا جاء مجرداً عن المفعول، ويعبَّر عنه بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ النحل: ١٢٨. أيضاً: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ آل عمران: ١٧٢. أيضاً: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ آل عمران: ١٧٩. أيضاً: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ آل عمران: ١٨٦. أيضاً: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الأنعام: ١٥٣.

فالمتقي بهذا المعنى من أُشرِبَ قلبُه تعظيمَ الربّ وخوفَ سخطه ونتائج الإثم. ولذلك كثر في القرآن مدح المتقين ومقابلتهم بالمجرمين الطاغين.

والقرآن تارةً يكتفي بهذه الكلمة الجامعة، وتارةً يفصِّل معناه، وتارةً يريد

الوجوه الثلاثة على سواء، وتارةً يريد وجهاً خاصًّا أولاً وبالذات، وباقي الوجوه ثانياً حسبما يناسب المقام، كما هو الأصل في فهم الكلمات الجامعة.

فأما الاكتفاء بهذا الاسم مع إرادة المعنى الجامع فكثير. وذلك حيث مدح الله المتقين، ولم ينبِّه على بعض أوصاف الخاصة.

وأما الإلماع إلى بعض وجوهه حسب محلِّه فأيضاً كثير. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ ص: ٢٨. أي الذين يجتنبون الإثم مع الخشية، فإنّ الفجور هو ارتكاب الإثم مع الجسارة. أيضاً: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل: ٥ – ١٠. الآيتان متقابلتان كما هو ظاهر. وجاءت كلمة «اتقى» في مقابلة «استغنى» فالمراد به: من تخشّع للرب تعالى خاشياً راجياً، فلم يستغن عنه.

وأما تفصيل المعنى الجامع، فكما ترى في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ البقرة: ١٧٧. وذكر قبله أبواب الإيمان والأعمال الصالحة، فدلّ على أنّ المتقين هم الذين جمعوا هذه الصفات.

واعلم أن جهة الحال والكيفية أظهر في معناه من جهة العمل، وجهة الكفّ أغلب من جهة الفعل. ولذلك تارةً تقترن بالفعل على سبيل التقابل، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟﴾ آل عمران: ١٧٢ وتارةً تقترن بالكفِّ على سبيل البيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ آل عمران: ١٢٠، ١٨٦. ومع ذلك لكونها حالةً هي منبع الأعمال، فتقترن بالإيمان على سبيل التقابل والتفصيل، كما ترى في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ آل عمران: ١٧٩، ومحمد: ٣٦. وهذا كثير.

ثم هي منبع العلم أيضاً لكونها حالة تصلح القلب. وسيأتيك زيادة البيان

لصفة التقوى في الفصل الرابع عشر والفصل الخامس عشر.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان يطلق على وجوه:

١ - آمنه: أعطاه الأمن.

٢ - آمن له: أذعن له.

٣ - آمن به: صدَّق به.

٤ - وأما تعريف الإيمان المعتبر عند الله تعالى فقد جاء في القرآن كثيراً، وذكرناه في تفسير سورة والعصر. وسيأتيك ذكر الفرق بين الإيمان والإيقان.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ ١- الغيب اسم الحدثان من غَاب غَيْباً وغَيْبَةً وغُيُوباً ومَغِيباً.

٢- وأيضاً يطلق على ما غاب عنك. وضدّه: الشهادة. قال تعالى: ﴿عالم ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الأنعام: ٧٣، والتوبة: ٩٤، ١٠٥، والرعد: ٩، والمؤمنون: ٩٢، والسجدة: ٦، والزمر: ٤٦، والحشر: ٢٢، والجمعة: ٨، والتغابن: ١٨ أي ما هو غائب عنا، وما هو مشهود لنا.

٣- وعلى ما لا سبيل إلى علمه، كما حكى الله عن النبي ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ الأعراف: ١٨٨ وكما قال حاتم الطائي:

أَمَا، وَالَّذِي لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُه وَيُحْيِي العِظَامَ البِيضَ وَهي رَمِيمُ [1]

٤- وعلى المكان الذي ليس بمشهد منك، والجانب الذي لا يتعين، كما قال عبد الشارق الجُهَني:

---

(١) ديوانه: ١٨٤ وصلة البيت بعده:

لقد كنت أطوي البطن والزاد يُشتهى مخافةَ ـ يوماً ـ أن يقال: لئيم

سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَولَةً ثُـمَّ ارْعَوَيْنَا[1]

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ ﴾ يوسف: ١٠٢. فبيّن معنى الغيب: أي لم تكن بمشهد منهم.

٥- وعلى السرِّ عموماً، كما قال تعالى: ﴿ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ النساء: ٣٤. وأيضاً: ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الجن: ٢٦.

فهذه خمسة وجوه معلومة.

﴿ وَيُقِيمُونَ ﴾ ١-أقام الشيء: جعله قائماً، مثلاً أقام العمود. ومنه إقامة الحدود والسوق إقامة معنوية.

٢- وأيضاً: جعل الشيء مستقيماً لا اعوجاج فيه، وهذا كثير.

٣- وأيضاً: سكن ولبث، كما تقول أقام ببلدة. ومنه بمعنى: دام وبغى، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ التوبة: ٢١.

﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ هي في الأصل الإقبال على شيء. ومنه: الركوع. ومنه: التعظيم، والتضرع، والدعاء. وهي كلمة قديمة بمعنى الصلاة والعبادة. جاءت في الكلدانية بمعنى الدعاء والتضرع، وفي العبرانية بمعنى الصلاة والركوع.

ومن هذا الأصل صَلِيَ النار: أقبل عليها، ثم بمعنى دخل النار، كما قال تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ﴾ المسد: ٣. وأيضاً: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ الانشقاق: ١٢. ومنه: التصلية، كما قال تعالى: ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ الواقعة: ٩٤. واستعملت العرب كل ذلك.

---

(١) من قصيدة له تعد من المنصفات، وهي في الحماسة. انظر شرح المرزوقي: ٤٤٦.

﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ الرزق: النصيب الذي يأتي أحداً من سيّده. والفعل منه كنصر.

﴿يُنفِقُونَ ۝٣﴾ نَفَقَ، وَنَفِدَ، ونَفَذَ من أصل واحد. والمعنى: ذهب وجرى. يقال نفق البيع: راج، ونفق الزاد: نفد، وأنفق القوم: نفقت سوقهم، وأنفق الرجل: ذهب ماله[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾ الإسراء: ١٠٠. والنفَق: سَرَبٌ في الأرض. ومنه النافقاء: لإحدى جِحَرَةِ اليربوع النافذة التي يكتمها، والأخرى القاصعاء، وهي التي يُظهرها وليست بنافذة إلى مكانه. ومنه سمّي المنافق[2]. وأنفق المال: أجراه وأخرجه، ولم يمسكه ولم يحبسه.

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾ صفة صارت اسماً. وتطلق على الدار الآخرة كالدنيا على هذه الدار. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ غافر: ٣٩. ومنه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ القصص: ٧٧.

وأيضاً تطلق على الحياة الآخرة. قال تعالى: ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ النحل: ١٠٧. ومنه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ يونس: ٦٤ والمآل واحد. فربما تذكر الدار الآخرة ويراد بها حياة الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾ العنكبوت: ٦٤. أي حياة الدار الآخرة هي الحياة الكاملة.

﴿يُوقِنُونَ ۝٤﴾ أيْقن بالشيء: علمه من غير شك، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ التكاثر: ٥ - ٧.

والفرق بين «الإيمان» و«الإيقان» أنّ الإيمان تصديق وتسليم، وضدّه:

---

(١) انظر لسان العرب (نفق).

(٢) اللسان (نفق).

التكذيب، والجحود، والكفر. و«الإيقان» ضده: الظن والشك. فليس كل من أيقن صدق، بل ربما يكذب المرء عتوًّا ومكابرةً وقد أيقن بالشيء، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٣ - ١٤.

وكذلك ليس كل من آمن فقد أيقن. فربما يؤمن الرجل بغلبة الظن ثم يوفّقه الله فيخرج عن الظن. ولكن لا يكمل الإيمان إلا بالإيقان. فالإيمان جزءان: علم وتسليم، وبكمالهما يكمل. وفيمن صلح قلبه يكفيه العلم ويورث التسليم والعمل حسب ذلك العلم.

فالإيقان هو الجزء العلمي من الإيمان مع زيادة في صفة العلم. وإذ جاء هاهنا بعد ذكر الإيمان دلّ على كماله في أمر الآخرة.

﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ على بصيرة أو على صراط مستقيم. فحرف «على» تدخل على كلا المعنيين، فأيهما أردت بقي معنى «على» على حاله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ الأنعام: ٥٧. أيضاً: ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الزمر: ٢٢ وهكذا: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ الحج: ٦٧. أيضاً: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ هود: ٥٦.

فأما دخولها على الصراط فظاهر. وأما على النور والبينة والبصيرة، فلما أنّ النور ينبسط فيضيء الطريق للسالك فيمشي عليه، وأما الظلمة فتغشى عليه من الجوانب فهو مغمور بها. ويشير إلى هذا الفرق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ سبأ: ٢٤.

هذا، وقيل: إنّ «على» تدلّ على التمكّن، وهذا لم يتبيّن لي. والله أعلم.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ ١- أفلح: فاز، ضد خسر وخاب، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ الشمس: ٩ - ١٠. أيضاً: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ

ﵟٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢ﵞ المجادلة: ٢٢. أيضاً: ﵟوَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤ﵞ طه: ٦٤. وأيضاً: ﵟفَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمﵞ الأعراف: ٨ - ٩، وسورة المؤمنون: ١٠٢-١٠٣.

٢- وفي كلام العرب جاء أيضاً بمعنى عاش بالنعمة، وذلك قريب من الفوز. واعلم أن مفهوم أصل هذه المادة: الانشراح، فانشق منها: الفلج، والفرج، والفرح، والفرق، والفلق، والفلغ. وهي موجودة في العبرانية. ومن هاهنا الفَلاّح: للحارث، لما هو يفرق التراب عند الحرث. وقيل في اسم «فالج» الذي هو في سلسلة النسب بين نوح وإبراهيم عليهما السلام أنه سمي بفالج لأنه كان يحرث الأرض[1].

٣- وأيضاً جاء في كلام العرب بمعنى بقي.

فهذه ثلاثة وجوه، وﵟٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ﵞ جامع لها. فإن المتقين هم الفائزون، وهم المتنعمون الباقون في نعيم مقيم. وكثر في أوائل الوحي هذه الأوصاف للمتقين. ويدلّ على هذا المعنى الجامع قوله تعالى: ﵟقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ﵞ إلى قوله تعالى: ﵟأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ﵞ المؤمنون: ١ - ١١. فانظر كيف بدأ بـ «أفلح» وتمّم بأنهم المنعَمون الوارثون الباقون.

(١٢)

تأليف الكلم في هذه الجملة

قوله تعالى: ﵟالٓمٓ ١ﵞ جملة مستقلة، أي هذا ألم، كما هو المفهوم في سائر

(١) وجاء في التكوين ١٠: ٢٥ «ولعابر ولد ابنان، اسم الواحد فالج لأن في أيامه قسمت الأرض».

الأسماء التى توضع قبل الكتب والأبواب والفصول وعنوانات أخر. وإذ هي جملة مستقلة يحسن الوقف عليها، وهكذا في سائر الأسماء كما هو ظاهر بيّن في قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ القلم: ١. أيضاً: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ ص: ١. أيضاً: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ ق: ١. أيضاً: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ يس: ١ - ٢. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كلمة ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ قد وقعت خبراً عن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك هو الكتاب الإلهي، كما دلت عليه النظائر. فإنه لم يجئ في القرآن نظائر هذا الكلام إلا على هذا التأليف. مثلاً قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ الشعراء: ١-٢، وسورة القصص ١-٢. فـ «تلك» مبتدأ، وبعدها الخبر عنها. وهكذا قوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ النمل: ١. أيضاً: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ لقمان: ١ - ٢. فليس أنّ المعرفة بعد هذه الأسماء لا بد أن تقع بدلاً وبياناً بل ربما تقع خبراً، كما رأيت في هذه الأمثلة، وهو شائع في كلام العرب. قال النابغة:

وَيَرجِعْ إلى غَسَّان مُلْكٌ وَسؤدَدٌ ... وتلكَ المنى، لو أنّنا نَستَطيعُها[1]

وقال أمية بن أبي الصلت بعد ذكر مكارم الأخلاق:

تلك المكارم لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ[2]

---

(١) ديوانه: ١٠٧.

(٢) عجز البيت:

شيبا بماءٍ فعادا بعد أبوالا

شعراء النصرانية: ٢٣٢.

وسيأتيك ما يؤيد هذا الوجه في الفصل الخامس عشر إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الضمير في ﴿ فِيهِ ﴾ راجع إلى الجملة، أو إلى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ من جهة كونه كتاباً منزّلاً من الله تعالى. فإن الريب لا يتعلق بشيء إلا من جهة الإخبار. مثلاً قوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ غافر: ٥٩. أي لا شك فيها من جهة إتيانها. فهكذا هاهنا ـ أي لا ريب في كونه كتاباً منزَّلاً من الله تعالى. فإن المفهوم من «الكتاب» هاهنا هو كتاب الله كما مرَّ. والجملة تامّة مؤكدة لما قبلها، أي ذلك كتاب الله لا شك فيه. فإن شئت جعلتها حالاً ـ والحال تأتي عن أسماء الإشارة ـ كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ الأنعام: ١٢٦، وإن شئت جعلتها مستقلة معترضة، والمآل واحد. وسيأتيك في فصل (١٤) ما يؤيد كونها مؤكدة.

وأما الظرف فهو متصل بـ«لا ريب»، لا بـ«هدى» على حذف الخبر ـ كما قيل ـ لبعده لفظاً ومعنىً. فأما من جهة المعنى فسنرجع إلى بيانه في ذكر الجملة التالية. وأما من جهة اللفظ،

١ - فلأن الحذف خلاف الأصل.

٢ - ولأن النظائر كلها جاءت بغير الحذف. فإنه قد جاء في القرآن: ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ الشعراء: ٥٠ و﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ طه: ٩٧، ولم يجئ «لاريبَ» في سائر القرآن بحذف الخبر.

٣ - ولأنه لا حاجة لى تقدير الحذف.

٤ - وأقوى الأدلة أنّ «فيه هدى» لا يصح تأويلاً، كما سنذكر. فلا بد أن يكون ﴿ فِيهِ ﴾ متصلاً بـ﴿ لَا رَيْبَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ «هدى» في حالة النصب، لوقوعه حالاً عن اسم الإشارة. ونظيره قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى

وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ لقمان: ١-٥. وأيضاً: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الأعراف: ٥٢. وأيضاً: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥.

واعلم أن الله تعالى كلما ذكر الهدى في وصف القرآن لم يقل إلا أنه هدى، لا أنَّ فيه هدى، وبينهما فرق ظاهر. وترى رعاية هذا الفرق حيث وصف الله تعالى التوراة والإنجيل بكلا الطريقين، فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الأنعام: ٩١. وأيضاً: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ المائدة: ٤٤. وأيضاً: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي عيسى ﴿ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ المائدة: ٤٦. فحين أطلق قال: فيه هدى، وحين قيّد ـ إما بزمان النزول أو بالمتقين ـ قال: هدى. فاعرف هذا الفرق.

ومن هاهنا تبيّن أنّ من قرأ: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ فقد أبعد من جهة المعنى أيضاً، لاختياره ما هو أدون مدحاً، ولما جاءت النظائر بخلافه. كما مرّ بك آنفا. ولا نظير لما زعم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «الذين» في حالة الجر لوقوعه صفةً كاشفةً عما تضمنت كلمة «المتقين»، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ المؤمنون: ١ - ٣. و في مثل ذلك ربما يكون الرفع على الخبرية بتقدير الضمير، والنصب بتقدير «أعني».وهذه الوجوه متساوية في المعنى. ولا يستقيم جعله في حالة الرفع على الابتداء، وجعل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ خبراً عنه، لوجوه:

الأول: أنّ هاهنا بيان المتقين، فلا يقطع عنه ما بعده.

والثاني: أن ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ ﴾ راجعٌ إلى المتقين كما هو راجع إلى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، فكيف يخرج عنه.

والثالث: أنه راجع إلى ما تعلق به الهدى في أول الكلام. فبعدما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ بيّن أوصاف المتقين، فلما فرغ استأنف وقال: هؤلاء المتقون هم على هدىً من الرب، ولهم الفلاح. فصار تأكيداً لما سبق ومطابقاً له. ولا فائدة في جعل الهدى الأول للمتقين، والثاني للمؤمنين بالغيب، فإنّ هاهنا فريقاً واحداً.

والرابع: أن هذا القطع والاستئناف حسب زعمهم لا يهتدى إليه إلا بعد أن تبلغ قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ ﴾، فحينئذ ترجع إلى أول الكلام وتترك الوجه المتبادر. وهذا يجعل التأليف قلقاً، ويخالف انسجام الكلام.

والخامس: أنا نجد الاستئناف بـ «أولئك» في سلسلة هذا النظم بعد سرد الأوصاف، كما ستراه عن قريب، ولا وجه للفرق بين النظائر. وأما جعله في حالة الرفع على الخيرية بعد تقدير ضمير الجمع، فلا حاجة ولا داعية إليه. وأما جعله منصوباً على المدح بتقدير «أعني» فهو قليل الوقوع، وإنما يسوغ إذا كان ذكراً لما لم يدخل فيما سبق. ولكن المتقين مشتمل على ما بعده، والتفصيل بعد الإجمال هو المعروف في القرآن.

(١٣)

بلاغة هذه الجملة في أسلوب بيانها

هذه الجملة جمعت أبواباً من البلاغة لاشتمالها على براعة الاستهلال، وعيون الحكم، ونهاية الإيجاز، وسداد التقسيم، وحسن النظام، ولطف التعريض، وفصل الخطاب، ورعاية التأكيد، واختيار الكلم، كما سيتضح بعد النظر في الفصول التالية. وهاهنا إنما نكتفي بالإشارات.

وإن في هذه الجملة تعريضات باليهود، ونذكرها في الفصل الثاني. وأما هاهنا فننظر من حيث الخطاب العام.

فاعلم أن في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ إشارة إلى كون هذا الكلام عميقاً جدًّا لا ينتهى إلى غوره، وذلك أول تنبيه للقارئ على طريق فهمه.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ تقدِيم الأمر الذي هو عمود السورة، وهو إثبات هذه النبوة. فجاء بقولٍ فَصْلٍ بغاية الإيجاز، وجعل الكتاب نفسه دليلاً على كونه من الربّ تعالى.

ثم أكّد ذلك بقوله: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾. ثم نبّه على طريق كسب هذا العلم وعلى ما يعوق عنه بقوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾. فدلّ على أنّ العلم البيّن يبنى على صلاح القلب، ومن فسد قلبه يبعد عن معرفة الحق. ودلّ على أنّ صلاح القلب يحصل من خشية الربّ تعالى، كما جاء في أول كتاب الحكمة لسليمان عليه السلام: «رأس الحكمة خشية الله».

واختار «التقوى» بدل «الخشية»، فإنها أجمع. لأن الاتقاء ينشأ من المعرفة ومن رغبة النفس إلى الاجتناب عما يدنسها ويضرها، فهي جامعة لبابي العلم والعمل.

واختار «التقوى» على البرِّ والإحسان، فإنّ الضرر أكبر حثًّا من النفع وأشدُّ تنبيهاً، لكون الخوف أكبر تأثيراً من الطمع. ولذلك سمّي العقل عقلاً وحِجْراً لأنّ ظهوره أقرب عند إحساس الضرّ وكبح النفس عن السيئ.

ثم دلّ على ما تضمنت التقوى من العلم والعمل، فقدَّم باب العلم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾. وبذلك دلّ على حدّ العقل، وخاصة الإنسانية. فإنّ العاقل يؤمن بما استدلّ عليه كأنه قد رآه بعينيه وسمع بأذنيه، بل يؤمن بما لا يدركه البصر والسمع.

ثم دلّ بقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ على ما يتبع الإيمان الصحيح من الحال والأعمال. فإنّه ليس مجرد التصور بل التصديق الذي تغلغل في الفؤاد حتى بلغ نقطة الإرادة منه، فهيَّج فيه النظر والرغبة. وبما اقتصر على الصلاة والإنفاق دلّ على جماع صلاح القلب الناشئ من التقوى والإيمان بالغيب،كما سنذكره في فصل (١٦). ولم يكرر الموصول لكون الصلاة والإنفاق يلزمان الإيمان بالغيب، ليدلّ على اتصال اللاحق بالسابق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ يشير:

١ - إلى جهة الإنفاق، وهي الاعتراف بكونه من الربِّ تعالى.

٢ - وأيضاً إلى دليله، فإنّ الإنفاق ببعض ما أعطاه الربُّ يوجبه العقل أداءً للشكر واعترافاً بالمنة.

٣ - وأيضاً إلى التيسير، فإنّ الإنفاق بالبعض من الكل لا يتعسّر.

٤ - وبما أطلق الإنفاق جعله جامعاً لوجوه الصدقات كلها. وتقديمُ الظرف ليس لمحض رعاية الفواصل بل هو من باب تقديم الدليل. ولا دلالة فيه للتخصيص. فإنّ كل ما للعبد فهو مما رزقه الله، فلا معنى للتخصيص.

وأما القول بأن الحرام ليس مما رزقه الله، فلا يصح. قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾ الإسراء: ١٨ - ٢٠. وإنما دعاهم إلى هذا التأويل أنّ الإنفاق في سبيل الله المراد هاهنا لا بد أن يكون من الحلال، ولكن سياق الآية ليس لبيان ذلك. وفي تصريح القرآن وصريح العقل كفاية، فلا حاجة إلى استنباطه من هاهنا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ﴾ الآية. علق الإيمان بنوع ما أنزل فصار جامعاً لجميع كتب الله، وخالياً عما بدّلوا وحرّفوا. والعطف بتكرار الموصول لا يدل على تعدد الموصوف، كما ترى في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ الأعلى: ١ - ٤ وهذا كثير. وإنما يدل على أن المعطوف ليس في نسق واحد مع السابق بل هو مستقل، فإن الإيمان بجميع كتب الله ركن مستقل. وكثير من الفرق الضالة يؤمنون بالغيب ويصلُّون وينفقون، ومع ذلك لا يؤمنون بالنبوة. فللتنبيه على هذا الأصل كرر الموصول. ثم لما كان المعاد أيضاً ركناً مستقلًّا ولكنه كان داخلاً في الإيمان بالكتاب لم يكرر الموصول، ولكن ذكره بفعل مستقل.

وفي تقديم الظرف دلالة على الاهتمام بشأنها، وليس لمحض رعاية الفواصل ولا للحصر، كما هو ظاهر.

وفي اختيار ﴿يُوقِنُونَ﴾ عوض «يؤمنون» تنبيه على شكِّ الناس فيها وغفلتهم عنها، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾ النمل: ٦٦. وأيضاً الإيقان أولى بالإخبار، فاختاره.

وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى...﴾ استئناف ليكون تأكيداً لما سبق. وكرر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ليكون أوكد وأفخم.

﴿هُمُ﴾ لبيان التخصيص.

وفي هذا الاستئناف والتكرار تنويه لشأنهم، وهكذا في زيادة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾. ثم في هذه الزيادة: (١) ذكرٌ لنعمة الرب، (٢) وأنّ الهدى لا يأتي إلا منه، (٣) وأنه من جهة ربوبيته.

وذكرُ الفلاح بعد الهدى بيان الثمرة، فأعقبه إياه. وفي تنكير ﴿هُدًى﴾ دلالة

على النوع، فصار أجمع.

وهذه الآية عود على البدء، فصار الكلام كحلقة مفرغة، كأنه قيل: إنّ هذا الكتاب الإلهي هدىً للمتقين، وهم الذين أوصافهم كذا وكذا، وأولئك على هدىً من ربهم. فإنّ انتفاعهم بالهدى الثاني دليل على الهدى الأول. وهذا وجه من التأويل، وسيأتيك بيانه.

واعلم أنّ هذه الجملة تتضمن من جوامع الكَلِم ولوامع الحِكَم ما ستطّلع على طرف منها عن قريب. وإنما نبهتُك هاهنا لكي تختار من التأويل ما كان أجمع وأوسع وأحسن وأبين. وبعد استيفائك النظر في الفصول الآتية يتضح لك أبواب من البلاغة فاكتفينا في هذا الفصل ببعض الإشارات.

(١٤)

تـذكـرة

نعقد فصلاً مستقلًا في تعريضات السورة باليهود. أما قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ فاعلم أن الكتب السابقة قد دخل فيها الريب، فكأنه قيل لليهود تعريضاً: إنّ الكتاب الذي في أيديكم الآن فقد ارتبتم فيه، ولذلك لاتهتدون به وبقيتم حيارى، كما قال يرمياه النبي في (٨: ٨)[1]، وكما جاء في القرآن: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠ ﴾ هود: ١١٠، فالآن عليكم أن تؤمنوا بهذا الكتاب الذي جاء غضًا طريًا من ربكم مصدّقًا لما وُعِدتم، وقد أُمِرْتم بالإيمان به.

واعلم أنّ شريعتهم بُنيت على خشية الربّ، ووُعِدوا بالرحمة مرةً أخرى على شرط التقوى، كما قال تعالى: ﴿ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٦ الآية.

---

(١) «كيف تقولون: نحن حكماء وشريعة الربّ معنا؟ حقًا إنّه إلى الكذب حوّلَها قلمُ الكَتَبة الكاذب».

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، فإنهم كلما غاب عنهم نبيُّهم تقهقروا، كما دلّ عليه التوراة والقرآن.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾، فقد تركوا الصلاة وغلب عليهم الشحّ حتى ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ آل عمران: ١٨١. وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، فظاهر تعريضه باليهود.

(١٥)

تأويل الكلم والجمل

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ قد سبق أنّ تأويل هذه الكلمة ظاهر لا خفاء عليه، فإنها اسم لهذا السورة. وأما وجه التسمية فليس ذلك في شيء من التأويل، وحالها في ذلك كحال غيرها من الأسماء مما لا نعلم وجه اختصاصها بمسمياتها. ولكن مع ذلك لا شك في أنّ هذه التسمية لكونه من الله الحكيم لا تخلو عن حكمة، ولاسيما إذ وضعت في أول القرآن. ولذلك تدبَّر العلماء فيها، ونحن نذكر ما يتعلق بها في فصل (١٦).

أما تأويل اسم «الكتاب» فاعلم أنّ الأسماء التي لا تصير أعلاماً لمسمَّياتها تدلُّ عليها كما هي بصفاتها. وعلى هذا فاسم الكتاب يدل على جميع أوصاف مسمّاه. ولذلك عرّف الله تعالى كتبه ولا سيّما القرآن بأسماء وأوصاف ليتمَّ لنا تصوّرُ المسمَّى حسب وسعنا. فسماه: الهدى، والبينة، والنور، والبصيرة، والحق، والصدق، والبرهان، والسلطان، وكتاب الله، وكلام الله، والصحف، والزبور، والكتاب، والقرآن، وأحسن الحديث، وفصل الخطاب، والبيان، والموعظة، والذكرى، والتذكرة، والنذير، والبشرى، والشاهد، والمهيمن، والعلي، والحكيم. والقيم، المحكم، والإمام، والصراط المستقيم، والمتشابه، والمثاني، والمبارك، والحكمة، والروح، والأمر،

والوحي، والكلمة. والضياء، والشفاء، والرزق، والرحمة. الرسالة، والبلاغ، والذكر، والتنزيل. والميزان، والفرقان، والتبيان، والتفصيل، وأسماءً أخر إمّا مرادفة لما ذكرنا مثل التوراة، فإنها كالفرقان، والكتاب بمعنى الشريعة؛ ومثل الإنجيل فإنه كالبشرى؛ أو مركبةً منها، كالذكر الحكيم والكتاب المبين.

وربما عرَّفه بوصفٍ كالعزيز، والمجيد، والكريم. وربما عرَّفه بفعل دلَّ على وصف كالمحكم، والمفصل وأمثال ذلك. ثم سمّاه الحروف المقطعات لحكمة ذكرناها في التدبر. واكتفينا هاهنا بمجرد ذكر هذه الأسماء، فإنّ شرح معانيها يأتيك في مواضعها إن شاء الله تعالى.

هذا، وأما تأويل الجملة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فقد مرَّ في الفصل التاسع أنّ معظم الاحتجاج في هذه السورة متوجه إلى اليهود، وقد وعدهم الله تعالى في سفر التثنية[1] أنه يبعث لهم من إخوتهم نبياً، ويضع كلامه في فمه، ويُكمل به الشريعة، وينتقم به من أعدائهم، ويعاقب من لا يسمع له. وجعل من علامته الخاصة:

١ - أن يتكلم باسم الله.

٢ - وأن يصدِّق ما يخبرهم به.

٣ - وأن يبقى حتى يعلو أمره.

وقد وجدوا هذه العلامات كلها صادقة في هذا النبي بعد ما هاجر إلى المدينة وأذعن له أهلها، ولم يقدر أعداؤه على قتله وإطفاء نوره. والسورة نزلت بعد التمكُّن في المدينة.

---

(١) الأصحاح ١٨: ١٨-١٩.

فلما قيل لهم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ فكأنه قيل لهم ذلك هو الكتاب الموعود. وقد كانت اليهود تنتظر هذا النبي وهذا الكتاب، كما جاء في هذه السورة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ أي حسبما وعدهم الله في كتابهم ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي القرآن المجيد ﴿كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ البقرة: ٨٩. أي يأتيهم العقاب حسب ذلك الوعد.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ توكيد لهذا الخبر. أي كون هذا الكتاب منزلاً من الله تعالى لا ريب فيه

١ - لما أنه دليل بنفسه على كونه كتاب الله

٢ - ولما قد عرفتم من العلاقات الصادقة.

وإذ كان الخطاب عامًّا، وكان تنزيله من الله ظاهراً من نفس الكتاب على اليهود والكافرين معاً، لم يصرِّح بالذي ذكرنا من كونه حسب الوعد الذي في التوراة، ليكون أعمَّ من ذلك الوعد. فإنَّ الله تعالى وعد بذلك في الإنجيل أيضاً، وقد وعد به آدم عليه السلام، كما سيأتيك ذكره في تأويل ﴿هُدٗى﴾.

وقد مرَّ أنّ الكتاب يُطلَق كثيراً على كتاب الله، فذلك هو المراد هاهنا. وقد مرّ أيضاً أنّ نظائر ذلك لم تأت إلا على هذا التأليف. ثم قد فسّر الآية أعلمُ الصحابة بالقرآن ـ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ـ حسبما ذكرنا. فقد روي أنه قرأ بعدها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ السجدة: ١ - ٢. وكان من عادته في التفسير أن يقرأ من القرآن بالنظير. وقد أخطأ الرواة كثيراً فيما زعموا ذلك

منه قراءة. وهذا يتضح من تتبع ما ذكروا من قراءات الصحابة[١].

هذا، ثم لهذا التأويل من جهة المعنى نظائر كثيرة في القرآن، فإن كثيراً من أوائل السورة جاء بمثل ذلك مصرَّحاً، والقرآن يفسِّر بعضه بعضاً. مثلاً: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ الزمر: ١، الجاثية: ٢، الأحقاف: ٢. أيضاً: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ غافر: ١ - ٢. أيضاً: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ فصلت: ١ - ٢. وأيضاً: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ النجم: ١ - ٤. فالمقصود هاهنا نفي الريب عنه في كونه منزلا من الله، لا أنه صحيح المعاني.

ثم إن ذلك أحسن تأويلاً من جعل الجملة خبراً و﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ مبتدأ له، بمعنى أنّ هذا الكتاب لا مظنة فيه للريب. فإنّ كثيراً من الكتب الهندسية خالية عن الريب ولكنها ليست منزلة من عند الله. ثم لكونه كتاب الله وجب التسليم له والانتفاع به. واعلم أنَّ هذا أحسن أيضاً من جهة موقع الكلام، لما فيه من التعريض، كما مر في الفصل السابق.

في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ أطلق اسم «هدى» على هذا الكتاب من جميع وجوه معناه، ولا وجه لتخصيص وجه دون وجه. والآن نبيِّن من صفات القرآن ما يدل على كونه هدىً من تلك الوجوه كلها، ولأجل التوضيح ننظر إلى كل صفة من مطلع.

المطلع الأول: كون القرآن نوراً وبصيرةً وضياءً حسب الوجه الأول للهدى،

---

(١) انظر مقدمة تفسير القرطبي ١: ١٣٤: «وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرؤوا بكذا وكذا، إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أنّ ذلك قرآن يتلى».

كما مرّ. وبيان ذلك أن الله تعالى كما نفخ في الإنسان بعد تسوية بنيته من روح القدس فصار ذا عقل وتمييز بين الخير والشر مكلّفاً بالأمر والنهي، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ الشمس: ٧ - ٨، فكذلك أمدّه بروح منه مرة بعد مرة بواسطة رسله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ الشورى: ٥٢. فأنزل الوحي على قلوب الأنبياء روحاً ونوراً، وبه أحيا القلوب وأضاءها، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الأنعام: ١٢٢. ولذلك سمّى كتابه هدىً، ونوراً، وبصائر للناس، وضياءً، وحكمةً في غير ما آية. وبالجملة فالقرآن ليس مجرد القول بل هو نور وروح يختلط بنور القلب وروحه، فيزيده ضياء وقوة. فهو مدد لما أودع الله فطرة الإنسان من النور والبصيرة.

المطلع الثاني: كون القرآن دليلاً يهتدى به حسب الوجه الثاني للهدى، كما مرّ. وبيان ذلك أنّ القرآن كما هو دليل على طرق السعادة والفلاح فكذلك هو دليل على نفسه، فلا يحتاج إلى دليل خارج. ويؤيد هذا التأويل وصفه بالبيّنة، والميزان، والفرقان. وهذا الوصف غير مباين للوصف الأول بل يلزمه. فإن النور والبينة والضياء يكون دليلاً على غيره ولا يحتاج إلى دليل آخر، فهو دليل على نفسه.

ويؤيد هذا التأويل إطلاق الآية على كل جملة من القرآن. والآية في كلام العرب معناها: الدليل والعَلَم على شيء، متلوًّا كان أو مشهوداً. قال تعالى بعد ذكر الآيات المشهودة في الخلق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾ الجاثية: ٦ - ١١. فجعل الدلائل المشهودة والوحي المتلو لغاية المطابقة بينهما شيئاً

واحداً، وسمّاهما آية وهدى.

المطلع الثالث: كون القرآن على غاية الاستقامة في الإيصال إلى رضوان الله تعالى فصار أحقَّ بأن يسمَّي ﴿هُدًى﴾ بمعنى الصراط المستقيم حسب الوجه الثالث للهدى، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ﴾ الكهف: ١ - ٢ الآية. أي كتاباً كصراط مستقيم لا عوج فيه، فهو على غاية الاستقامة لا يضلّ عليه الساري.

وهكذا قال النابغة الجعدي ﷺ فيما أنشد بين يدي النبي ﷺ:

أتيت رسولَ الله إذ جاء بالهدى ويَتْلُـو كتابـاً كالمجَـرَّةِ نيِّرا[(١)]

أي طريقاً واضحاً كالمجرَّة. والعرب تضرب المجرَّة مثلاً للطريق الواضح الذي لا يضِلّ الساري عليه. قال تأبّط شرا:

يرى الوحشةَ الأنسَ الأنيسَ ويهتدي بحيث اهتدتْ أمُّ النجوم الشوابكِ[(٢)]

المطلع الرابع: كون القرآن مسمّى بالمصدر، وذلك لكمال ظهور فعل الهداية به. فصار جديراً بأن يسمِّيه الله تعالى بالهدى بالمعنى المصدري حسب الوجه الرابع، كما سمّاه رحمته لظهور فعل رحمته به.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الأنعام: ٨٧ - ٨٨. فأشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى فعل ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾ وأخبر عنه بقوله: ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي ذلك

(١) جمهرة أشعار العرب: ٧٧٤.

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي: ٩٩.

فعل هداه هو هدى الله يهتدي به من يشاء من عباده.

وهكذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الشورى: ٥٢. أيضاً: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ المائدة: ١٥ - ١٦. فقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ و﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ﴾ يدل على أن القرآن هو مظهر فعل الهداية ومجراه، فأطلق عليه اسم الفعل لغاية الاتحاد بينهما. وهذا يدل على رفيع منزلة حقيقة القرآن من جهة كونه كلمة الله وروحاً من أمره، كما مرَّ في المطلع الأول.

المطلع الخامس: كون القرآن مسمّى ﴿هُدًى﴾ لوجوه ذكرناها، فـ«هدى» اسم لجميع ما أنزل الله. وأطلق الله هذا الاسم على القرآن هاهنا بياناً لإنجاز ما وعد الإنسان في الأول.

وتفصيل هذا الإجمال أنّ الربَّ تعالى لكونه أحسن الخالقين، ومُخرِجَ الخَبْء في السموات والأرضين، ولكونه الربَّ الأكرم والمتمَّ النعم أراد أن يرفع الإنسان، ويقرِّبه منه، ويهيئ له أسباب الهداية بعد ما ابتلاه بهذه الدنيا وزخارفها. فقدّر أن يرسل إليهم كتاباً ويدعوهم به إلى كمال الهدى، كما قال تعالى حين أرسلهم إلى الدنيا: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ البقرة: ٣٨. أي إني أبعث فيكم الرسل يتلون عليكم كتاب الله، فمن عمل به أفلح، كما فسّره في موضع آخر حيث قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الأعراف: ٣٥. فلما نعت كتابه هاهنا بـ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ أشار إلى ذلك الوعد. أي ذلك هو الكتاب الموعود الذي يرجعكم إلى رضوان الرب بعد التزكية، فيدوم لكم ماضيعتموه.

ومما ذكرنا من تأويل ﴿هُدًى﴾ حين يراد به كتاب الله يتبين أنه جامع لعدة أسماء. وذلك هو البصيرة، والضياء، والنور، والبينة، وشفاء لما في الصدور، والميزان، والفرقان، واليم، والصراط المستقيم، والروح، والأمر، والكلمة.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ أما اللام فلبيان محلِّ ظهور ذلك الاسم. وقد وصف الله تعالى كتابه بأسماء، فربما ذكرها مطلقاً وربما ذكر مواقع ظهورها، لنعلم استحقاقه بهذه الأسماء. وإنما يستحق الشيء اسماً بالنظر إلى سلامة الحال أو كثرتها. كما تسمَّى الشمس ضياء، وإنما هي يستحق الشيء اسما بالنظر إلى سلامة الحال أوكثرتها. كما تسمى الشمس ضياء. وإنما هي ضياء لأهل البصر. وكما تسمى المطر بركة، فإنما هو كذاك للأرض الطيبة. فبيّن أن هذه السورة هدى بنفسه، وإنما يحصل الهدى منه للمتقين. وقد كثر في القرآن نظائر ذلك، مثلاً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾ آل عمران: ١٣، النور: ٤٤. وقد أشرنا إلى فائدة هذا البيان في باب البلاغة، وسنزيد عليه في باب التدبر.

وإنما نذكر في «التأويل» ما يزيل شبهة من يتوهم أن القرآن إن كان هدىً لمن كان على التقوى من قبل كان تحصيلاً للحاصل. فنقول:

أما أولاً، فلا دلالة في هذه الكلمة على أنهم المتقون من قبل. والقرآن دلّ كثيراً على أن الاتقاء يحصل بوسيلة ذكر الله واتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾ الأنعام: ٦٩. أيضاً: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ الأنعام: ١٥٥. أيضاً: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾ الأعراف: ٦٣. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ طه: ١١٣. فيكون التأويل: إنه هدىً لمن يسمعه ثم يتقي، كما قال: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ الأعراف: ١٨٨.

وأما ثانياً، فلا يلزم من تقدم الاتقاء كماله. فعلى هذا إنما يهتدي بالقرآن من كان له نصيب ما من التقوى. والقرآن دلّ كثيراً على أنّ الإنذار لا ينفع الغافلين والمستكبرين.

وأما ثالثاً، فإنّ النبيَّ كان يوقظهم بأوائل الوحي حتى إذا هيَّج فيهم التقوى واستعدّوا لمزيدها أنزل إليهم هذه السورة، فصارت هدىً لهؤلاء. والذين لم ينتفعوا بالذكر الأول، فأولئك هم الذين ذكرهم بعد هذه الجملة. فهذه الوجوه مزيلة للشبهة.

وأما توضيح الأمر، فاعلم أنّ أصل الهدى والتقوى مودَع في الفطرة، وأحدهما ينتج الآخر، فهما مستمرّان ويزيدان. والتقوى الفطرية تابعة الهدى الفطري، ثم بعد استعمال النظر وسمع الذكر يزيد الهدى بمدد التقوى الفطرية. فمن بقي على سلامة الفطرة و لم يفسدها بالسيئات، فهو إذا نظر في آيات الله أو سمع دعوة النبي انبعثت فيه التقوى الكامنة كانبعاث سائر القوى الكامنة عند بواعثها.

وقد جاء في القرآن كثيراً أنّ الاهتداء به مبني على استعداد له، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ق: ٣٧، فنظر في آيات الفطرة فتذكر كما هو حال الطبقة العليا كالأنبياء، وبعد ذلك من هم السابقون إلى دعوتهم كما ذكرهم بعد ذلك بقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾. أيضاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر: ١٨.

وجملة الكلام أنّ للتقوى مراتب: فبعضها شرط للاهتداء بالقرآن، وبعضها نتيجة له، ثم هذه سبب لمزيد الهدى، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ محمد: ١٧ أي آتاهم مزيد التقوى، فإن أصل التقوى لا بد من تقدُّمه على الاهتداء. فالهدى والتقوى يتعاقبان، وكلما زادت التقوى زاد الهدى. ومن كان

أشدَّهم تقاةً كان أسبقَهم وأشدَّهم اهتداءً بالذكر. هذا، وسيأتيك مزيد البيان لموقع التقوى في باب التدبر والنظم إن شاء الله تعالى.

وأما «المتقين»، فأراد به الذين آمنوا ويؤمنون، فجعلها كالعلم للمؤمنين بالحق. فبهذه الكلمة ذكر وصفاً جامعاً للمنتفعين بهداه، كما سيأتيك ذكره في الفصل الخامس عشر. وهاهنا إنما نذكر كونه جامعاً من جهة إطلاقه.

فاعلم أنه لم يذكر هاهنا ما يتعلق به الاتقاء، ليدلَّ على كلِّ ما يُتّقى. ومع كونه جامعاً يظهر من موقع الكلام أنّ معظمه تقوى الله وخشيته الناشئة من النظر في آياته الدالّة على صفاته على حسب مراتب الناظر. وأجمع وأكثر هذه المراتب خشيةُ لزوم العواقب، أي خشية يوم الآخرة.

وقد صرّح القرآن بذلك في مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ آل عمران: ١٩١. فأدّى الفكر أولاً إلى ربوبيته، ثم إلى حكمته، ثم إلى تقديسه وكبريائه، ثم إلى خوف العذاب بناءً على ما سبق النظر إليه، ثم إلى الفرار إليه والاستعاذة به. وكما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ يونس: ٥ - ٦.

وإنما قلنا إنّ موقع الكلام دلّ على ذلك، لما جاء بعده من تفصيل أوصاف المتقين. وهذا يتأكد لك بعد النظر في الفصول الآتية.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾. فيه بحسب الظاهر تأويلان:

الأول: أن تأخذ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ مطلقاً جامعاً لكلِّ ما يتعلّق به الإيمان. وعلى ذلك يكون ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ظرفاً، أي يؤمنون وهم بالغيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الأنبياء: ٤٨ - ٤٩. أي قبل مشاهدة الجزاء التي يخشى عندها الكافرون أيضاً، فلا اعتبار لتلك الخشية. وأيضاً: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ فاطر: ١٨. وأيضاً: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ يوسف: ٥٢.

وإلى هذا التأويل ذهب الربيع بن أنس حيث قال: «يؤمنون: يخشون»[1] فجعله مستغنياً من أن تكون الباء للصلة، ولذلك قال في تفسير ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: «آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت»[2]، فجعله جامعاً.

وقول ابن جرير إن كلَّ ذلك من الغيب لا يصلح، فإنّ الرسول ليس بغائب. وأرى أنّ الربيع إنما فسّر ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بـ﴿يَخْشَوْنَ﴾ لأنه أراد حقيقة الإيمان، ونظر إلى نظير هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الأنفال: ٢ - ٤. هذا من أحسن التأويل، وموقع الإيمان مع التقوى يدلُّ عليه. وأيضاً بعض الرواية عن عبد الله بن مسعود ﷺ يؤيد كونَ الغيب ظرفاً، فإنه ذكر في مدح الذين آمنوا ولم يروا النبي ﷺ فقال:

«إن أمر محمد ﷺ كان بيّناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قطُّ إيماناً أفضلَ من إيمان بغيب. ثم قرأ «﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير الطبري ١: ٢٣٥ رقم ٢٦٩.

(٢) تفسير الطبري ١: ٢٣٧ رقم ٢٧٦.

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾»[١].

هذا، والتأويل الثاني أن تجعل الباء صلةً للفعل، كقولك آمنت بالله، ولا حاجة إلى الشاهد لذلك. وهذان التأويلان متقاربان، وإلى كليهما ذهب بعض السلف. والثاني هو مختار ابن جرير، وتبعه أكثر أهل الحديث، لما أنه حمل أكثر الروايات على هذا المعنى. ولكن الأولى بالصواب هو التأويل الأول، وذلك لوجوه:

الأول: أن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ على التأويل الأول يكون جامعاً لكل ما وجب الإيمان به، وفصَّله القرآن في غير موضع. فإن جعلت الباء صلةً حصرت الإيمان بـ «الغيب» فقط، ولا حاجة هاهنا إلى الحصر.

والثاني: أنَّ الغيب لا يطلق على الكتاب والنبي، وهما بعد الله تعالى أعظم ما يؤمن به، فكيف تخرجهما.

والثالث: أنّ اسم الغيب لم يطلق على الله تعالى وليس من أسمائه الحسنى، فأيضاً يخرج عما يؤمن به. فلا يبقى إلا الملائكة وأمور الآخرة والحوادث الآتية، ولا داعية إلى هذا التخصيص.

والرابع: أنّ من أخذ بالتأويل الثاني ذهب إلى المراد بالغيب ما يشاهد في الآخرة، ولكنه مذكور مستقلًّا في قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④﴾، فيكون تكراراً محضاً. وأما على التأويل الأول فبيّن أولاً ما هو حقيقة الإيمان المعتبر، ثم بيَّن آثاره من إقامة الصلاة والإنفاق، ثم بين ما يؤمنون به، فلا تكرار.

والخامس: أنّ في التأويل الأول دلالة على أمر عظيم، وذلك أن الإيمان

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ٤٠.

كالخشية إنما يعتبر إذا كان ناشئاً من البصيرة والتقوى. ألا ترى قوله تعالى لمن آمن عند مشاهدة الأمر: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يونس: ٥١ أي لا اعتبار لإيمانكم بعد أن شاهدتم الواقعة.

ومما قدّمنا تبيّن أنّ في التأويل الثاني لزامَ ما لا يعاضده قرآن ولا سنة. وذلك:

١ - ذكر الربِّ تعالى باسم الغيب.

٢ - صرف نسبة الإيمان عما صرَّح به القرآن كثيراً إلى مفهوم جديد مع قصوره عن أكبر ما يؤمَن به.

فإن قيل: إنّ الباء بعد الإيمان لم تأت في غير هذا الموضع إلا للصلة. قلنا: إن ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لم تأت في غير هذا الموضع إلا ظرفاً. فالاستدلال بالنظائر اللفظية سواء على الجانبين، بل كثرة مجيئه ظرفاً لخشية الرب يؤيد كونه ظرفاً للإيمان، فإن من خشية الربِّ، كما فسَّره الربيع بن أنس.

فتبيّن أن قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ على التأويل الصحيح صار لإطلاقه جامعاً لكل ما يجب الإيمان به. وقد مرّ أنّ الكلم الجامع ربما ينظر إلى بعض الوجوه أولاً، وإلى البواقي ثانياً، حسب موقعه، فهكذا هاهنا. فالمراد بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: إيمانهم بالحق إيماناً جامعاً. ومعظمه وأوله: الإيمان بالله وآياته الدالة على التوحيد والملك والمعاد، والإيمان بما نزل من هداه، فإنّ الموقع بيان ما يكون تفصيلاً للتقوى. فإنّ مَن عرف أن لا ناصر ولا مالك إلا الله، وأن لا حكم إلا له، وأنه لا بد من لقائه، غشيته الخشية، والتمس طرق التقرب إليه، وعطش إلى هداه الذي يرسل به أنبياءه. ولذلك قال الربيع بن أنس: «﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخشون». كما مرّ.

ويؤيد ما ذكرنا أنّ القرآن صرح كثيراً بكون التوحيد والرسالة والمعاد أصول ما يؤمن به. فربما يذكر الله وآياته، وربما يذكر الله ولقاءه، وربما يذكر الله ورسله،

فجعل هذه الثلاث أصول الإيمان. فإذا أطلق اللفظ فهمناه حسب القرينة.

وأما الشواهد فلنكتف بذكر بعضها، فمنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الأعراف: ١٥٨. أيضاً: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ التحريم: ١٢. أيضاً: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ الجاثية: ٦. أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ المؤمنون: ٥٨ - ٥٩. أيضاً: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ البروج: ٨ - ٩. أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ طه: ١٢٥ - ١٢٨.

وهكذا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ العنكبوت: ٢٣ أيضاً: ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ﴾ البقرة: ٢٣٢. أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ البقرة: ٨. وهذا كثير.

وهكذا: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الفتح: ١٣. أيضاً: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ المائدة: ١١١. أيضاً ـ وهو الجامع للثلاث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ النساء: ١٣٦.

فتبيّن أنّ جماع هذا الإيمان هو الإيمان بالله وحده بنور الفطرة والنظر في آياته، وذلك يهدي إلى الجميع. وقد صرّح القرآن بذلك أيضاً كثيراً، فمنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ التغابن: ١١. أيضاً: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ البقرة: ٢٥٦ - ٢٥٧. وهذا كثير.

وجملة الكلام أنّ إطلاق اللفظ هاهنا يدل على وصف جامع، أصله الإيمان بالله المركوزُ في الفطرة، الظاهرُ من النظر في آياته، الشاملُ على التوحيد والرسالة والمعاد، كما دلّ عليه ما سبق وما لحق من التفصيل. وسيأتيك بعض الذكر في الفصول الآتية.

قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بين «صلى» و«أقام الصلاة» فرق لطيف، لما في الإقامة دلالة على التسوية. فأشار إلى ما يلزم مراعاته في الصلاة، وذلك أمور:

الأول: هو الإخلاص، فتكون الصلاة متوجهةً إلى الربّ تعالى وحده. فذلك أول تسويتها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ الأعراف: ٢٩. أيضاً: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ﴾ الروم: ٣٠. ومن هاهنا التوجه إلى مركز التوحيد والدين. وقال تعالى فيما أمر بني إسرائيل. ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ﴾ يونس: ٨٧.

والثاني: دوام التوجه إلى غايتها، وهي الذكر والخشوع. فالالتفات إلى خلاف غايتها تعويجها، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ طه: ١٤. وأيضاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ المؤمنون: ١ - ٣.

والثالث: أداؤها حسبما علّمنا الله من غير تقصير. وإنما رخّص في القصر عند الضرورة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ البقرة: ٢٣٩. وأيضاً: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ النساء: ١٠١

- ١٠٢ الآية. ومن ذلك تسوية الصفوف والتعديل، كما جاء في الحديث: «تسوية الصفوف من إقامة الصلاة»[(١)].

والرابع: أداؤها لأوقاتها، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ الإسراء: ٧٨. وهو المراد بالمحافظة، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ البقرة: ٢٣٨. أيضاً: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ الأنعام: ٩٢.

والخامس: الدوام عليها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ المعارج: ٢٣.

والسادس: إقامة الجماعة والجمعة. وذلك إذا أضيفت إلى الأمة أو الإمام، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ الحج: ٤١. وقال تعالى حكاية عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إبراهيم: ٣٧. وله نظائر كثيرة.

وبالجملة ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يدل على وجوه كثيرة حسنة. وهذا تأويل الإقامة متفق عليه عند السلف رحمهم الله. فالقول بأن المراد بالإقامة نفس الأداء، وإنما عبر عنه بالإقامة لاشتمالها على القيام، كما عبّر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح والذكر، فضعيف جدًّا. فإن في هذه الكلمات دلالة على أمر مهمّ في الصلاة. ولم يعبّر عن الصلاة بمحض القيام والقعود بل عبّر عنها بالتسبيح والركوع وغيرهما مما يدل على تضرع وإنابة وذكر. وأيضاً محض اسم الصلاة جاء في وصف غير المؤمنين، وإقامة الصلاة لم تجئ إلا في مواقع التحسين، فلا بدّ أنّ فيها دلالة زائدة مناسبة للمدح.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٣) في كتاب الأذان، باب إقامة الصف من تمام الصلاة.

قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ ﴾ قد مرّ في فصل البلاغة ما دل عليه هذه الجملة، فراجعه. وستجد مزيداً في الفصل السادس عشر.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية. قد مرّ في فصل البلاغة أنّ العبارة لا تدل على أنّ المراد بهذا الوصف غير الذين سبق ذكرهم. فلا يصح ما قيل من أن المراد به: من آمن من أهل الكتاب، بل هذه الآية تشتمل كل مؤمن صحيح الإيمان.

والآن نستدل عليه بالنظائر، فنقول: إنّ الله تعالى ذكر كثيراً في وصف هذه الأمة أنهم يؤمنون بكل ما أنزل الله تعالى، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦ ﴾ البقرة: ١٣٦. فجعل هذا الإيمان من حقيقة الإسلام، وقد سمّاهم مسلمين من قبل.

ويشبه هذه الآية ما جاء في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ آل عمران: ٨٤. وهكذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ٥٩ ﴾ المائدة: ٥٩.

وكل ذلك جاء في الاحتجاج بأهل الكتاب على سبيل ذكر العلامة الفارقة بين أمة محمد ﷺ وبينهم. فإنّا آمنّا بكل ما أنزل الله من جهة كونه منزّلاً من الله، وإنهم آمنوا بما عندهم على سبيل التقليد للسلف والجمود على العادة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية. هذه الجملة راجعة إلى الذين ذكر الله تعالى صفاتهم الستّ من التقوى، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق، والإيمان بجميع ما أنزل الله، والإيقان بالآخرة. فبيّن أنّ هذا الكتاب هدىً لهؤلاء، فيزدادون به هدىً ونوراً وعلماً وحكمةً، ويتخذونه سنّةً وشريعةً، فلا يزالون مشتغلين به، فهم

على هدىً دائم. والجملة لكونها اسمية دلّت على هذا الدوام، وفيها أيضاً إشارة إلى الهدى السابق، فكأنه قيل: أولئك هم باقون على نور الفطرة ـ فإنّ الله تعالى هَدَى الإنسان فطرةً ـ فلم يضيِّعوا ما أعطاهم الله أولاً، واتصل به الهدى الذي وجدوه بهذا الكتاب. فهؤلاء الذين ذكر أوصافهم هم الباقون على نور الفطرة. ولذلك صار القرآن هدىً لهؤلاء.

ولا منافاة بين التأويلين لعموم ﴿هُدًى﴾، ولما جاءت النظائر بأمرين:

١ - انتفاع أهل البصيرة بالقرآن، وهذا كثير.

٢ - ودوام انتفاعهم به في المستقبل، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إبراهيم: ٢٤ - ٢٥. وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ مريم: ٧٦.

ومن الظاهر أن القرآن يزداد المهتدي به نوراً وحكمةً، وقد سمّاه الله تعالى مباركاً لما يكثر به الخير لمن تدبّر فيه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ ص: ٢٩. فهؤلاء الذين كانوا على نور من ربهم، واتصل به نور القرآن فازدادوا به نوراً على نور، وأصلحوا به ما كانوا مستعدِّين له، فأولئك الذين حازوا الفلاح. ولله الحمد في الأولى والآخرة.

(١٦)

ذكر بعض مواقف التدبر في آيات (١ -٥)

اعلم أنّ في هذه الآيات مواقف كثيرة للتدبر، وقد أشرنا إلى طرف منها في الفصول السابقة. وتفصيل كلها يطول جدًّا، وبعض هذه الآيات لها نظائر في القرآن فلا حاجة إلى استيفاء بيانها هاهنا، فلنقتصر الآن على ما هو أنسب لهذا المقام، ونورده

في مواقف آتية:

الموقف الأول في الحروف المقطعات

قد تفكر العلماء في وجه التسمية بهذه الحروف وذهبوا في كل مذهب، ووجدنا لهم فيه حسبما اطلعنا تسعة وعشرين قولاً. ولكني لم أجد فيها تمسُّكاً بالقرآن، فليس لها الأمر محلّ في كتابنا هذا. ولولا في القرآن إشارة إلى هذا لأمر لطويناه على غَرِّه، ولكنّي آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بقَبَس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فاعلم أنّ العرب إذا وضعوا لشيء اسماً جديداً عمدوا إلى ما يناسب المسمَّى، أو يدلّ على خاصّة مميزة، كما ترى فيما لقّبوا به بعض الرجال كالملك الضِّلِّيل، والمرقِّش، وتأبّط شرًّا. فإنّ الاسم من الوسم، فما يكون علامة يصلح للاسمية. وهكذا سمِّي بعض السور مثل الروم والنمل والبقرة والعنكبوت. وإذ قد ثبت أن هذه الحروف المقطَّعات أسماء للسور، فلا بدّ أن تكون الحروف ذوات المعاني، والمركَّبات منها مثل الأسماء المركبة، كمعدي كرِب.

وقد علمنا أنّ أسماء الحروف في لسان العرب لم تكن في الأصل أسماء للأصوات المجردة، كما هي في الهندية والإنكليزية، بل كانت أسماء للأشياء وتماثيل لها. ولذلك بقي كثير منها ملفوظةً بأسماء تلك الأشياء، ومكتوبة بهيئات فيها بقايا تماثيل تلك الأشياء، كما أنّ حروف أهل الصين تماثيل كانت حروفهم في الأوائل على هيئاتها.

وقد علمنا طرفاً من معاني أسماء حروفها، مثلاً «ألف» فإنها اسم البقرة وكانت على صورة رأس بقرة، و«الباء» فإنها تسمى بالعبرانية: بيت، أي البيت، «والجيم»، فاسمها بالعبرانية: جيمل، أي الجمل. وهكذا في الأخر.

وهذا أمر ثابت معلوم، لا يخفى على من له معرفة بتاريخ الكتابة العربية. فإنّا نعلم أنّ حروفنا هُذِّبت من العبرانية التي أخذت من حروف العرب القديمة التي أخذ عنهم القبط الكتابة بالتماثيل التي توجد الآن على الأهرام المصرية، ولكنهم غيَّروها وابتدعوا فيها حسب أفكارهم.

ذلك، ثم قد دلّنا القرآن على هذا السرِّ بما قد سمَّى سورةً بحرف بقيت في لسان العرب دالّة على معناه، وهي حرف «ن»، فإنها الحوت، والسورة المسمَّاة بها جاء فيها ذكر يونس عليه السلام ولم يذكر فيها غيره من الأنبياء، وذكره الله تعالى فيها باسم «صاحب الحوت». ففي ذلك إشارة للمتوسِّم إلى وجه التسمية. فإن كانت هذه السورة قد سُمِّيت بحرف «ن» لأجل معنى هذه الحرف، فعسى أن تكون السور الباقية المسماة بالحروف أيضاً قد سُمِّيت حسب معانيها الأولية.

وهذا يحثُّنا على النظر في المعاني التي كانت حروفنا دالَّةً عليها في الخط التمثالي. فلما نظرنا فيها وجدنا ما يؤيد هذا الرأي، فإن حرف «ط» صورتها في العبرانية «ט» ومعناها: الحية، وكانت على صورة حية رفعت أعلاها وجعلت أسفلها كحلقة، ونجد السورة المسماة بـ «طـه» تبتدئ بعد التمهيد بقصة موسى عليه السلام وقلب عصاه حَيَّةً.

ثم سبرنا هذا القياس طرداً وعكساً، فوجدنا أنّ السور الأخر التي سمّاها الله تعالى بأسماء تبتدئ بالطاء أعني ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ الشعراء: ١، و﴿طسٓ﴾ النمل: ١، و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ القصص: ١ كلها تبتدئ بقصة موسى عليه السلام مع ذكر عصاه وانقلابها حية. وكذلك وجدنا أن غير هذه السور الأربع إما لا تذكر قصة موسى وإما تذكرها ـ وهي كثيرة ـ فلا تذكر الحية إلا سورة الأعراف، ولكنها جاءت بقصة موسى عليه السلام تابعةً لقصص السابقين من الأنبياء من نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليه السلام، فلم تكن حرف الطاء أولى بها. فهذه السور كلُّها قد خُصَّت بموسى عليه السلام. ولست

أول من جعل هذه السور مخصوصة بموسى ، فإن بعض العلماء اطلعوا على طرف منه، فقال السخاوى: إن سورة «طه» تسمى سورة الكليم. وسماها الهذلي في الكامل سورة موسى[(١)].

هذا، وأما ﴿الٓمٓ ۝١﴾ فالألف صورتها رأس البقرة، وكانت عندهم دالّة على «الإله الواحد». ولم نجد السور التي تبتدئ أسماؤها بالألف إلا ومن أعظم مطالبها: الإيمان بالله الواحد. ولكن التوحيد أغلب تعليم القرآن، فهذا ليس مما يستدل به. وقصاراه أنه لا يخالف ما اطلعنا عليه. وإني لا أدعي المعرفة بجميع معاني الحروف، ولكن العلم القليل الذي حصل لنا يؤيد ما استدللنا عليه من القرآن. وهذا القدر يكفي لمن أراد مزيد العلم، ووجد لنفسه فرصةً ونشاطاً للخوض في هذه الغمرة، وفوق كل ذي علم عليم. وأما الحكمة في هذه التسمية، فنذكرها في الموقف الثاني.

الموقف الثاني في حكمة هذه التسمية

فاعلم أنّ الإنسان لم يستفرغ إلى الآن ما أودع الله من الفوائد في المخلوقات، فكيف بكلامه الحكيم؟ ولكن نذكر بعضها، والقرآن لا تنقضي عجائبه.

الأولى: هي إيراد الدليل على كون القرآن معجزاً. وبيان ذلك أن المخاطب إما أهل الكتاب وإما الأميون. أما أهل الكتاب فقد غلوا في استنباط الحوادث من حروف التوراة وكان مبلغ علمهم حساب أبجد، فنظروا في أعداد الحروف، وربما ركّبوا جُملاً حسب الأعداد ظنًّا وخرصاً. ولكن العدد الخاصّ يحتمل جملا عديدة، فلا برهان فيه على أمر ما. ولذلك إذا سمعوا هذه الأسماء توهموا أنها خبر بمدة بقاء هذا

(١) انظر الإتقان ١: ٧٤.

الدين، كما روي من خبر مجيء حُيَيّ بن أخطب اليهودي مع نفر من اليهود إلى النبي ﷺ، وسؤاله عما أنزل إليه من هذه الحروف، وتوهمه أنها آجال هذه الأمة. ولكن الأسماء متفاوتة في الأعداد فاشتبه عليهم الأمر، وأقرّوا بذلك. ولعدم رسوخ هذه القاعدة لم يعتمدوا على حجة، فلم يمكنهم الإنكار ورجعوا بالعجز الظاهر(١).

وأما الأمّيون فأخذهم الرعب ووجدوا أمراً عُضالاً، فكان عجزهم أظهر.

ولا أريد بالإعجاز محض هذا القدر بل كونه معجزاً باقياً إلى الأبد. وبيان ذلك أنّ الله تعالى قد أخبر عن هذا النبي وعرَّفهم إياه بخصائص، ومنها الإخبار بالغيب مما لا سبيل إليه بغير وحي من الله تعالى. ولا شك أنّ هذه المعاني للحروف لم يطلعوا عليها، ولذلك قال كثير من السلف: إنها من أسرار الله تعالى، وإنما ظهرت في هذا الزمان. فلا شكّ أن النبي ﷺ لم يكن يسمِّي السور بالمقطعات من قبل نفسه، وإنما أنزلها الله إليه بهذه الأسماء بعلمه، فلا بد أنها من وحي الله تعالى، فصارت من الآيات العامة للناس. ولم تكن الحاجة إلى هذا العلم في زمان البعثة، فإن العرب كانت في غنىً عنه لما عرفوا إعجاز القرآن من جهة بلاغته الباهرة.

والثانية: هي الدلالة على تعلُّم الحكمة، فإنّ ذلك من أعظم الفوائد وأولاها بالحاجة، فإن الغافل البليد لا يزال في عمى عن الحقائق والانتفاع بها. وبيان ذلك أن كثيراً من الناس يقفون على الظواهر وهم مطمئنون به، وآخرين يتدرجون من الظاهر إلى الباطن ومن المشهود إلى الخفي، وبذلك يمتازون عن البهائم. والقرآن كثير التنبيه على الفكر والنظر والتوسم والتدبر، وسيأتيك شواهده في مواضعها. ففي أول كتابه جعل هذا الاسم ليستيقظوا عن سِنة الغفلة والجمود على الظواهر، وبذلك يفتح لهم

(١) انظر الطبري ١: ٢١٧-٢١٨ رقم ٢٤٦ وابن هشام ٢: ١٤٣-١٤٤.

باب العلم والحكمة، وطريق النظر والفكر. وتعليم الحكمة ليس إظهار الحقائق بل إنشاء السؤال وإحساس الإشكال. وعلى هذا الأصل بني تربية الإنسان وإخراج قواه. فما أعطاه الله تعالى مطلوبه بل أعطاه الحاجة والطلب ـ وهذا أكبر نعمة ـ وبذلك فضّله على البهائم القليلة الحاجات العتيدة لها.

والثالثة: هي الدلالة على موضع القرآن بالنسبة إلى الإنسان. وذلك أن هذا الكتاب لم يأت كالتوراة بمحض الأحكام، ولا كالإنجيل بمحض البشارة بملكوت الله والانتظار له، والتجرد عن الترقي في المعاش. بل جاء بنفس ملكوت الله، واستعمال جميع القوى الفطرية، والاشتغال بكل ما يربّيه ويكمله بهذه الحياة التي جعلت سُلّماً للحياة الأخرى الدائمة الباقية. فالقرآن خطاب إلى سائر القوى الفطرية، فجمع الحجّة بالمعارف، والحِكَم بالأعمال. فخاطب عقولهم وقلوبهم وأفكارهم وإحساساتهم، وحثَّهم على استعمال كل ما أودع فيه. فجعل مفتاح هذا الكتاب ما يدل على كونه موضعاً للجهد والتشمير، والنظر والتفكير. وقد صرّح بذلك في مواضع لا تحصى. وبالجملة إن أول كلمته بعد الفاتحة دليل على موضعه ومحله بالنسبة إلى القوى الإنسانية، فهذا الكتاب على غاية التشابه بآيات الفطرة. وقد صرح القرآن بذلك في مواضع كثيرة.

الموقف الثالث في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة: ٢
أي في حكمة الابتداء بمحض الدعوى والتأكيد عليها مع السكوت عن الدليل.

فاعلم أنّا قد بينّا أنّ كون القرآن منزّلاً من الله تعالى كان ظاهراً بيّناً عند المخاطبين، وما كان يمنعهم عن الإيمان به إلا غفلتهم وخلوّهم عن شرط قبول الحق. والثابت الباهر لا يُثبَت، لأنّ الدليل لا يكون أوضح منه، ولكن يُحثّ على النظر فيه، ويُنبّه على شروط النظر، وتُبطَل الشبهات، ويُخوَّف عن نتائج الغفلة ونبذ الحق

الواضح. فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وضع بين أيدهم الحق الباهر، وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ نبّه على غاية ظهوره. وبذلك نبّه على أنّ من أنكر به فلا بدّ أن يتوجّه إلى نفسه، هل فيها مرض؟ فإنه يمنع عن قبول الحق بعد المعرفة، بل ربما يمنع عن نفس المعرفة، كما جاء في القرآن كثيراً.

ثم بعد ذلك نبه بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ أولاً على وصف جامع للقرآن حسبما ذكرنا في المطالع الخمس في الفصل الخامس عشر من أنّ الهدى هو النور والبينة والفرقان والميزان والصراط وينبوع الهداية، فلا يعرف بغيره بل يعرف به غيره. فدلّ بذلك على طريق معرفته. كما إذا أخبرت عن شيء مثلاً أنه لذيذ الطعم، جميل الشكل، لين المسّ، طيب الريح؛ أو فيه رواء أو شفاء = فقد دللت على طريق معرفته بهذه الصفات بالمشاهدة والتجربة، كما ذكره القرآن كثيراً. ونورد بعضها منها في الموقف الرابع.

ثم نبّه ثانياً على ما هو أصل الشرائط لمعرفة الحقائق. وبيان ذلك أنّ المعرفة شرطها إعمال النظر، فإنّ الحق مهما كان من الظهور لا بدَّ من مشاهدته والتوجه إليه. وأشار إلى هذا الأمر في آيات كثيرة، مثلاً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾ آل عمران: ١٣، النور: ٤٤ أيضاً: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ الروم: ٢٨. أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ الرعد: ٣، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣ وأيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧﴾ يونس: ٦٧، الروم: ٢٣.

وهذه الإشارات كثيرة في القرآن، فلم يذكرها هاهنا ولكن نبّه على ما هو أصل ذلك، وهي التقوى، فإنّ إعمال النظر شرطه تصحيح الإرادة، والإرادة لا تصح إلا بالتقوى والرغبة في الخير. فإنّ المستكبر أو الراغب في الشهوات لا يلتفت إلى الحق وإن كان ظاهراً بيّناً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ يونس: ٦.

هذا أمر معلوم ومشهود، فإنّ الغافل والمستكبر إذا مرّ على الحقّ أعرض عنه، وإذا دُعي إليه اشمأزّ منه. وقد جاء ذكرهم في القرآن كثيراً. فمنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ يوسف: ١٠٥. أيضاً: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ المؤمنون: ٦٦ - ٦٧.

والموقف الرابع في بيان أنّ القاعدة التي ذكرنا لمعرفة القرآن بالمشاهدة والتجربة هي التي صرّح بها القرآن.

فاعلم أنّ الأمر الذي استدلنا عليه بكلمة «هدى» ليس إلا ما ذكره القرآن بغاية التصريح مع ما ضمَّ به من التنبيهات على الموانع، وإبطال الشبهات، وغير ذلك مما يقتضيه المقام. فإنا نجد القرآن لا يطلب من الناس للإيمان به غير أن يتدبروه ويتفكروا فيه، ويستمعوا ويفقهوا ويتذكّروا ما يلقى إليهم من فصل الخطاب، وأحسن الحديث، وبينات الهدى، وبوالغ الحجة.

ونرى القرآن ملآن من هذه التصريحات، فلنكتف هاهنا بذكر بعضها. فمنها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ محمد: ٢٤ - ٢٥. أيضاً: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ ص: ٢٩. أيضاً: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ الزمر: ١٧ - ١٨. أيضاً: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ الحديد: ١٧. أيضاً: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ النساء: ٧٨.

أيضاً: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ

ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ المؤمنون: ٦٨ - ٧٤.

وفي هذه الجملة الأخيرة نبّه على أكثر ما كان يمنعهم عن النظر الصحيح والتدبر، ودلّ على جماعها، وهو كراهيتهم للحق. ثم نبّه على سببها، وهو عدم إيمانهم بالآخرة. وذلك يدل على خلوّهم عن التقوى، فإنّ من أحب العدل لا بد أن يؤمن بالجزاء. فعدم الإيمان بالآخرة هو الباعث على الغفلة، والإعراض عن الحق، والانهماك في الشهوات، والخروج عن التقوى.

الموقف الخامس في أنّ الدعوة إلى الحقّ بنفس الحقّ، والحثّ على النظر والتدبر لأقرب وأوضح وأرسخ وأنجح.

وذلك ظاهر بيّن، وشهدت عليه النتائج، لسبق العلماء الراسخين إلى قبوله. ثم إنه تعالى لو خاطبهم بما لم تشهد به عقولهم =

١ - لم تتمّ عليهم الحجة إلا بمعجزة على حدة، وحينئذ كانت تلك المعجزة هي حجة، لا ما خاطبهم به،

٢ - وكان إيمان السابقين خطأ، وإذعاناً لأمر لم يثبت بعد،

٣ - وكان مَن طلب المعجزة للإيمان غيرَ ملوم. ولكنهم خوطبوا بالملامة والزجر على طلبهم إياها وإنكارهم بالحق الصريح. وقد ثبت أن طلبهم لم يكن إلا مكابرةً وجحوداً، فإنهم لم يؤمنوا بعد ظهور المعجزات أيضاً.

وفي ذلك آيات كثيرة، ونكتفي بذكر بعضها. قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ

أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٩ – ١١١.

وكذلك نجد في الإنجيل توبيخاً غليظاً من عيسى عليه السلام على طلب اليهود منه معجزة. متى (١٦: ٤): «جيل شرير فاسق يلتمس آية. ولا تعطى له آية إلا آية يونان (يونس) النبي. ثم تركهم ومضى». وذلك لأن المنكر بالحق الصريح لا يؤمن ولن يؤمن بآية. فأقرب طرق الاحتجاج، وإثبات الحق، والدعوة إلى الربّ أن جعل الله تعالى كتابه ما يذعنون له من غير واسطة، لما فيه من الجلاء والنور والشفاء لما في الصدور. وقد وجد ذلك أصحابُ العقول الراسخة والقلوب السليمة، فآمنوا به، وإلى الآن يجدونه على هذه الصفة.

وأما كون القرآن بنفسه معجزة، فلا يناقض هذا الأصل بل يؤيده. فإن الكلام إذا كان فيه من نور الحق وسطوته ما يبهر العقول ويعجز الثقلين عن الإتيان بمثله كان أعظم في صفة التبيان، وإتمام الحجة، وإدحاض الباطل. فهو نور على نور، وقوة على قوة، مثل كثرة الشهادات الصادقة على أمر واحد.

فاتضح مما قدَّمنا أنّ كونه القرآن منزلاً من عند الله لا يحتاج إلى كونه معجزة، بل كونه كتاب الله ظاهرٌ بيِّن، لما فيه من النور والسكينة والقدس والطهارة، كما في سائر ما أنزل الله من الكتب، ومع ذلك إنه بلغ في هذه الصفات مرتبة الإعجاز. وذلك تأكيد، ونفي لكل ريب عنه. وإلى هذا الأمر يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٣، كما سيجيء في هذه السورة عن قريب.

فإن قيل: هذا لا يُسكت الخصم، قلنا: وهل أسكته شيء من المعجزات ـ كقلب العصا حيةً، والماء دماً، وإكثار القمل والضفادع، وشفاء الأبرص والأكمه وغير ذلك من خوارق العادات، أوَ لم يقولوا: إنه سحر وكيد؟

فأما الدعوة إلى النظر والفكر فهي أولى بالإنصاف وبخطاب الأحرار، ليؤمنوا بما اتضح لهم. وبها قد يسكت الخصم، كما نرى في محاجّة إبراهيم ﷺ بالملك، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ البقرة: ٢٥٨. وآتاه الحجة على قومه فأتمّها عليهم. ولم نجد شيئاً أبلغ في القلوب من القول الحق، فما ظنُّك بما كان معجزةً من جهة اللفظ والمعنى، وبلغ في ذلك الغاية القصوى؟ فالقرآن حجّة، ثم هو معجز في كونه حجةً، فلا حجة مثله.

وجملة الكلام أنّ القرآن دعا الناس إلى الحق وعرّفه لهم بغاية الإيضاح ليعرفوا الحق بذاته ـ لا بالتقليد ـ وليعرفوا القرآن بنفسه لا بشيء آخر. وليس وراء ذلك مرتبة لإيفاء حق النبوة والهداية. وإلى هذه الخصوصية في إعجاز القرآن إشارة في قول النبي ﷺ:

«ما من الأنبياء من نبيّ إلا أعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يومَ القيامة»[1]. قوله ﷺ: «ما مثله آمن عليه البشر» أي على بعضها آمن الناس،. فإنهم لم يؤمنوا على كل آية، ولا كلهم آمنوا، فأراد بالمثل أكبر ما آمنت عليه الأمة المؤمنة. وقوله ﷺ: «وإنما كان الذي أوتيت» فالمراد منه الآية التي تؤمن عليه أكثر أمته. وأما الآيات

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤٩٨١). وكتاب الاعتصام (٧٢٧٤)، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم».

الأخر فإنها وقعت إما لإتمام الحجة على المنكرين أو تأييداً للمؤمنين. وقوله عليه السلام: «أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً، فلأن =

١ - هذه الآية حجة تامة لدلالتها بالذات على مطالب الدعوة،

٢ - وجالبة للعقول الراسخة فتأتي العامة على إثر علمائهم،

٣ - وباقية مستمرة، وليست كبرق خاطف، مثل سائر الآيات، فيؤمن عليها جيل بعد جيل،

٤ - واللاحقون يكونون على نور مثل السابقين،

٥ - بل هذه الآية تزداد حجة وثقة بمرور الزمان لاتفاق العلماء وترداد نظرهم فيها [أولاً] ولشهادة من سبق لمن لحق [ثانياً] ولعجزهم عن الإتيان بمثلها [ثالثاً] ولتجربتهم بكونها فلاحاً للإنسان وسُلّماً لرقيهم في مدارج السعادة مع اختلاف الأحوال وتبدل الأمور [رابعاً] ولبقائها محفوظة عن التغيير إذ لم يمتد حفظ الكتب السابقة إلا مدة يسيرة [خامساً].

تذكـرة

واعلم أن التقوى هي باب الهداية بالقرآن، فمن دخل هذا الباب استعدّ لقبول الهداية من القرآن. فالتقوى جعلها الله تعالى شعاراً للمؤمنين، والنبي يدعو الناس إلى التقوى ويهيجها فيهم، فمن اتقى الله آمن بالتوحيد والمعاد، وفرقهم الله من سائر الناس لرحمته الخاصة، كما قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الأنفال: ٢٩. وهكذا وقع، فإن الذين تركوا الأهل والمال وهاجروا إلى الله ورسوله فهم الذين اتقوا واستعدوا للهداية المتزايدة.

فأول أمر النبي أن ينذر الناس تارةً بالتوحيد، وتارةً بالمعاد لتهيج وتتحقق فيهم التقوى.

=

الموقف السادس في موقع قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ أي في محلّ هذا الوصف الجامع الكامل.

فاعلم أنّ للتقوى اعتباراً عظيماً في الدين، وذلك من وجوه:

الأول: أنها هي النقطة الأولى التي يتوجّه إليها النبي، فهي كالبذر لجميع التعليم الإلهي، وكالقطب الذي تدور حوله كلّية الدين الخالص والطاعة الكاملة.

وبيان ذلك أنّ مبدأ الأعمال أن يحسّ الإنسان بالخير والشر، ويرغب، ويكره. وتظهر هذه القوة باجتنابه ما يبعد عن الخير ويقرب من الشر. ولا يختار الإنسان لنفسه شرًّا إلا لجهله بالعواقب أو لغلبة حبّ العاجلة، فيتعامى عن نتيجتها. فأول التعليم أن يوقظ عن غفلته بالإنذار والتحذير حتى تنبعث فيه قوة النظر في العواقب، وقوة الرغبة في الخير والنفرة عن الشرّ. وبعبارة أخرى يبعث فيه التقوى. وهذا هو أول حياته الروحانية، فإنّ التقوى تبعث التذكر والنظر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ الأعراف: ٢٠١.

ولذلك ترى الأنبياء كان أول دعوتهم إلى الله بالإنذار وتحذير الناس عما كانوا فيه. فمن أوائل التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ المدثر: ١ - ٢. وفي سورة الشعراء

=

فمن آمن بالنبي ودعوته واهتدى زاده الله الهدى وأعطاه التقوى. ثم زاده إياهما حسبما ازداد فيهما، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ محمد: ١٧.

واعلم أن الله تعالى ينزل رحمته على الأفراد وعلى الأمة من حيث المجموع، وذلك بعد الفرقان وجعلها أمة مستقلة. ويكون عند ذلك الفرقان والشعار الخاصّ لهم. فالتقوى هي شعار المؤمنين.

صرّح بذلك في ذكر دعوة الأنبياء، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ الشعراء: ١٠٥ - ١٠٨.

وأعاد مثل ذلك في دعوة هود عليه السلام مرتين، وفي دعوة صالح عليه السلام مرتين، وفي دعوة لوط عليه السلام، وفي دعوة شعيب عليه السلام مرتين، حتى قال تعالى في ما أمر نبينا ﷺ بالدعوة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الشعراء: ٢١٤.

ومثله فيما قصّ عن الدعوة في مواضع أخر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ نوح: ١. وذلك ليعلموا لزوم العواقب ونتائج الأعمال لينظروا فيما يفعلون، وينتبهوا عن الغفلة، ويعلموا أنّ لليوم غداً، وليس للإنسان أن يُترك سُدىً. فالنبي يشتغل بذلك. فمن كان فيه نسمة حية من قوتي النظر والنزوع إلى الخير انتبه واستمع للذكر، ودخل في باب التقوى، واستعدّ لقبول الحق واختار الخير. وذلك أول ظهور التقوى من القوة إلى الفعل، وبذلك تبتدئ الإرادة الصحيحة إلى تصحيح العقائد والأعمال. فالتقوى هي الأصل والبذر، ومنها الابتداء.

والثاني: اعتبارها بما يتفرع منها. وبهذا الاعتبار تهدي إلى التوحيد، والإيمان بالمعاد، وبما أنزل من الشرائع. فإنّ أول ما يتقي المرء هو الشرك، وأول ما يخلع عنه هو عكوفه على هذه العاجلة، وأول ما يبتغيه هو عمله للآخرة والطاعة لربه. فإنّ التقوى لا تلبث مجردةً عن تعلّقها بما ينتج منها.

وبهذا الاعتبار هي جماع الدين كله ونظام أمره، وذلك لكونها أصلَ التوبة والإنابة، وعنصرَ الإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ﴾ المائدة: ٩٣. فكرر التقوى ليدل على كونها أصلاً ومادّةً للإيمان، والعمل الصالح، والإحسان.

وربما يكتفي بذكر الأصل لأن الفروع تلزمه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ النساء: ١٣١. فإذ أمر الله بها وحدها فقد أمر بتمام الإيمان والإسلام. فهي أولى بأن يعبَّر بها عن جميع الأحكام وصفات الخير. فإن ذكر معها الفروع كان تفصيلاً، كما مرّ في باب الكلم.

فهذا اعتبارها من جهة كونها صفةً باطنةً تحت كل خير، ولذلك سمّاها الله تعالى زاداً للمؤمنين، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ البقرة: ١٩٧. فالمؤمن يحيا ويعيش بها في سلوكه إلى ربّه، ولذلك يأمر الله بها بعد الإيمان. فإنّ الإيمان لا يكمل بل لا يصحّ إلا بها، وكذلك الأعمال. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ الحشر: ١٨ وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾ الحج: ٣٧ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال: ٢. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المائدة: ٢٧. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ الحجرات: ١٣.

فالتقوى هي الروح، والحياة، والقوام لسائر الأمور الدينية، فبها يكمل كلّ عمل. وليس هاهنا موضع التفصيل، ولكن نتمّ هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ المؤمنون: ٥٧ - ٦١.

فتأمّلْ لترى التقوى نظامَ كلّ ذلك. فترى خشية الرب، والإيمان بالآيات، والتوحيد، والزكاة مع خوف الآخرة، والمسارعة إلى الخيرات في نظام سلسلة واحدة.

والثالث: اعتبارها من جهة كونها علامةً للمؤمنين، واسماً ولقباً لهم. وهذا كثير في القرآن. ولذلك سماها الله لباساً، حيث قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الأعراف: ٢٦. فالتقوى هي السيما الفارقة بين المؤمن والكافر، فجعلها الله شعاراً للمؤمنين، وربط به ما وعدهم من النصرة والغفران ولذلك يدعوهم باسم «المتقين»، كأمّةٍ خُصَّت من بين سائر الناس كما ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ القمر: ٥٤ - ٥٥. وأيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ الطور: ١٧. وأيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ الحجر: ٤٥، الذاريات: ١٥. وأيضاً: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الشعراء: ٩٠، ق: ٣١. وأيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ الدخان: ٥١ - ٥٢. وأيضاً: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الزخرف: ٣٥. وأيضاً: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الزمر: ٧٣. وأيضاً: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الزمر: ٢٠. وأيضاً: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ ص: ٤٩ - ٥٠. وأيضاً: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ مريم: ٨٥. وأيضاً: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ مريم: ٦٣. وهذا كثير.

فمن جاء ربَّه في هذا اللباس مُعْلِماً بهذا الشعار الروحاني دخل في حزب الله، وأعطاهم الله ما وعدهم من النصر والغلبة والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ الأنفال: ٢٩.

فوعد الله المؤمنين أن يجعلهم أمة خاصة، ويكفّر عنهم ويغفر لهم بفضله. وهكذا وعد الله أهل الكتاب أن يتوب عليهم إذا اتقوا. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧. وهكذا خصّهم لوراثة بيته حيث قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الأنفال: ٣٤.

الموقف السابع في بيان حقيقة التقوى وإزالة شبهة من يتوهم أنّ الدين إذا كان مبنياً على الخوف كان نوعاً من الإكراه وخالياً عن الرغبة إلى الربِّ ومحبة.

فاعلم أنّ الأمر ليس كما توهّم، وقد صرّح القرآن والتوراة والإنجيل بأن الإيمان هو أن نعبد الربَّ بكمال الرغبة، ونُخلِص له المحبّة. في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ البقرة: ١٦٥. وأيضاً: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ آل عمران: ٣١.

وقد بينّا هذا الأمر العظيم في تفسير سورة الفاتحة، فلا حاجة إلى إعادته. ولكن نذكر هاهنا من حقيقة التقوى أنها لا تخالف المحبّة، بل هي عين المحبّة.

فاعلم أنّ الدين يكون بمعرفة الربّ تعالى بصفاته من الجود والرحمة والعلم والحكمة والغنى والقدرة والقدس والعظمة، وكذلك بمعرفة النفس بصفاتها وأحوالها ومآلها ـ الخير والشر. فإذا عرف الإنسان نفسه مائلةً إلى الشهوات الموبقة مع رغبتها في العلوّ والتزكّي لم يزل خائفاً متّقياً، كمن هو قائم على شفا حفرة من النار

تذكـرة

الصبر باب من التقوى

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ يوسف: ٩٠.

والصلاة عون على الصبر، والصبر عون سائر الأعمال وكذلك الصلاة قال تعالى:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ البقرة: ٤٥. أي على الصبر بالصلاة.

وبجانبه سُلَّم ترقى إلى السماء. وكذلك إذا عرف ربّه أحبّه، وسكن إليه، والتصق به، وعلم أن لا سعادة له إلا بالتقرب إليه؛ وحينئذ لا بد أن=

١ -يخالطه كمالُ الخشية عن بُعده وعمّا يُبعد عنه، فلا يزال ملتمساً لرضاه خائفاً عن السيئات.

٢ -ثمّ إحساسُه بكمال إنعامه عليه يُورثه كمالَ الخشوع والإجلال لربه.

٣ -وإحساسُه بقدسه يخوِّفه عن التدنّس بالإثم.

٤ -وإحساسُه بعدله يخوِّفه عن نتائج السيئات.

٥ -وإحساسُه بعلمه يخوفه عن كل سيء مهما خفي. فمن عرف ربّه لا بد أن يرهبه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر: ٢٨.

وأما عدم الرهبة فسببه الغفلة والعمى، وحبّ الباطل والهوى. فمن الرحمة أن بعث الله الرسل لينذروا الناس مما حولهم من أسباب الهلاك، ويوقظوهم عن غفلتهم، ويبشّروهم برحمة من ربّهم.

فالإنذار ليس إلا ليرجعوا عن شَرَكِ الردى إلى سُبل الهدى، ويفرّوا من حبائل العدوّ العنيد إلى الربّ الرحيم الودود. في القرآن ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ الذاريات: ٥٠. فجاء النبيون لينذورا الناس لكي يفرُّوا إلى ربّهم، لا لكي يفرُّوا عنه.

فالتقوى عين المحبة والرغبة إلى رضى الربّ؛ وإنما تنعدم من قلة اليقين بتقديسه وعدله، ومن الغفلة عما يخاف من تبعات الهوى وخطوات الشيطان وعما يجب على العبد من الإحساس بذمته وفرائضه.

وتمام الكشف لهذا المقام يستدعي إطناباً، له مواضع أخر، فاكتفينا هاهنا

بإيجاز القول فيه.

الموقف الثامن في موقع ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

قد سبق في الفصل الثالث عشر أنّ الإيمان بالغيب على كلا التأويلين هو حدّ العقل، وخاصّة الإنسانية. فهاهنا نبيّن هذا الأمر بغاية الإيجاز، فإنّ استيفاء هذا البحث يُفضي إلى إطناب، لا موضع له هاهنا.

فاعلم أنّ الإنسان إنما صار إنساناً بالعقل والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والباقي والزائل، مع الرغبة فيما هو أعلى وأبقى. وبذلك بان فضلُه على سائر الحيوانات التي تشاركه في الإداركات الحسّية ولذائذها والرغبة فيها. فتبين أن هاهنا درجتين: درجة العقل ودرجة الحسّ مع ما لكليهما من الإدراكات والرغبة. وإذ كان فضل الإنسان وكماله في الجانب العقلي نبّه القرآنُ في غير ما آية على حدّ فارق بين العقل والحس، والإنسان والبهائم، وهذه الآية منها.

وبيان ذلك يستدعى أن نشير إلى وجوه الفرق بين العقل والحواسّ. فاعلم أنّ للعقل مزايا كثيرة على الحواسّ، وذلك بأن:

١ - الحسّ ضيّق النطاق، فلا يتعلّق إلا بما هو الحاضر المشهود.

٢ - ولا يبقى إلا يسيراً.

٣ - ويتعلّق بالجزئيات فقط. وأما الكليات، فتطلع عليها بالعقل.

٤ - وحكمه غير مطلق بل محدود بالآثار الطبيعية.

٥ - وما يدرك بعض الحواس لا يدركه الآخر.

٦ - ومجلوب إلى لذة تخصّه، غير فارق بين الخير والشرّ، والبرّ والإثم. والعقل هو الحاكم بهذين، والوازع الكلي.

٧ - والعقل لجمعه وغلبة حكمه حاكم على الحواسّ ومتصرف به، كما يتصرف الصانع بآلاته.

٨ - والعقل هو الجامع الحاكم المعبَّر به عن الذات، فهو تمام الإنسان. والحواسّ قوى شتّى تحته.

٩ - ولا علم بالخارج إلا بالعقل، فإنه الحاكم بأن لكل حادث سبباً ولكل أثر مصدراً.

١٠ -ولا علم بالنفس إلا بالعقل، فإنه الراجع إلى الذات، والحاكم بأنّ لكل إدراك ذاتا مدركة.

فإن تأملت فيما أشرنا إليه تبينت أنّ الحس لا يتعلّق إلا بالحاضر المشهود، الجزئي الزائل عن قريب؛ وأنه لا علم ولا يقين إلا بالعقل. فمن غلبت البهيمية على عقله لا يهمّه إلا هذه العاجلة الزائلة المتغيرة في كل آن. فهؤلاء كالأنعام، أسارى الحس، وعَبيد الهوى. قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الفرقان: ٤٣ - ٤٤ وهذا كثير.

وأما أرباب العقول، فلا يطمئنون إلا إلى الحقّ الباقي، فهم - مع كونهم في هذه الحياة الدنيا المشهود الظاهرة لذائذُها على الحواس - مؤمنون بالحق الظاهرة عليهم آياته، لما أنهم على نور وهدى من ربهم. وقد أكثر القرآن من ذكر أن الهدى إنما يحصل لأرباب العقول، كقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يونس: ١٠٠. وهذا مما لا يحصى.

فبما قال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ في وصف المتقين المهتدين بالقرآن دلّ على أمر يخصّهم، ويتميّزون به من الذين هم كالأنعام لا يبالون إلا بما يتمتعون به في هذه

الحياة، ولا سبيل لهم إلى الإيمان. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ محمد: ١٢. وقال أيضاً في وصفهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ الأعراف: ١٧٩.

فانظر كيف أثبت لهم جانب الحسن ونفى جانب العقل، وضرب الأنعام لهم مثلاً. ثم دلّ على كونهم أضلَّ من الأنعام، لما أنهم أُعطوا من القوى ما يُلقيهم في الهلاك إن لم يسدّدوها، كمن ركب فرساً جَموحاً خليع العذار ولم يزل يركضه. ثم سمّاهم غافلين لشناعة غفلتهم، كمن أخذت النار في متاع بيته وهو يلعب على سطحه. فالبهائم أسلم لكونها واقفة على مدارجها، والإنسان مسوق إلى شرف على جرف، فإما أن يترقّى وإما أن يتردّى. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

ومن هاهنا يتبين موقع هذه الصفة بعد قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾، فإن التقوى هي أصل التنبه والفكر، كما سبق في الموقف السابع. فبيَّن أول وصف المتقين بإيمانهم بالغيب: أي المتقون هم الذين يستعملون عقولهم فيستدلون بالشاهد على الغائب، أو مؤمنون بالحق وهم في حالة الغيب بخلاف الذين لا يعلمون إلا الظاهر من الحياة الدنيا. وبذلك ظهر أنّ تقواهم ليست في شيء من الجهالة، وإنما هي من صحة العقل والعلم والمعرفة،كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر: ٢٨.

الموقف التاسع في موقع ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

فاعلم أنّ القرآن جعل الصلاة والزكاة رأس الخيرات، فكثيراً ما يكتفي بذكرهما عن ذكر سائر الأعمال الصالحة. وهذا يدلّنا على عظيم منزلتهما، وكونهما جماع الحسنات.ويظهر بأدنى التدبر أنّهما كذلك، فإنّ الإنسان له نسبة إلى الربّ تعالى

وأخرى إلى الخلق، فصلاح الإنسان وفلاحه أن يذكر ربّه ويلتصق به بكليته، وأن يواسي المخلوق، ويزيل الشح عن نفسه. فإن فعل ذلك فتحت له أبواب الخيرات كلها. قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة: ١٥٢. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ الحشر: ٩، التغابن: ١٦. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ التوبة: ١١. وقال تعالى في وصف إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ مريم: ٥٥. وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ مريم: ٣١. وهذا كثير. فليس أنّ سائر الشرائع لا حاجة إليها، ولكن هاتين أصلان للجميع. ويشبه ذلك ما جاء في إنجيل متى(٢٢: ٣٥-٤٠):

«وسأله واحد منهم وهو ناموسيٌّ ليجرّبه قائلاً: يا معلّم أية وصية هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع: تحبُّ الربَّ إلهَك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها: تحبُّ قريبَك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كلُّه والأنبياء» أي سنن الأنبياء.

فبيَّن أنّ الالتصاق بالربّ تعالى، والمواساة بالخق هما أكبر الأحكام. ولا يخفى أن الصلاة والزكاة لتحقيق هاتين الحالتين. وأما تفصيل كونهما جامعتين لجميع الخيرات فقد ذكرنا طرفاً منه في تفسير سورة الكوثر لكونها أحقَّ به، فلا نعيده.

الموقف العاشر في موقع قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

فاعلم أنّ هاتين الآيتين إتمام لوصف المتقين الفائزين، وتصريح بوصف جامع منتَج من الإيمان الحاصل بالتقوى، والعقل المجرَّد عن التقليد والهوى. وذلك هو الإيمان الصحيح، لا كإيمان اليهود، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ البقرة: ٩١. فلم يؤمنوا عن تقوى القلب وخشية الربّ، بل عن التقليد وهوى النفس. فأراد بيان الإيمان المنتج من التقوى تفصيلاً وكمالاً، وذلك هو الإيمان بكل ما جاء من الربّ، وأصله الإيقان بالمعاد وهو أصل التقوى. فجعل هذه الآية متضمنةً لأصول المعتقدات بتمام التصريح، وقد جعل ما قبلها متضمنةً لأصول الأعمال، كما مرّ آنفا.

فعلمنا أنّ التقوى كما تهدي إلى كمال العمل والعادات، فكذلك تهدي إلى كمال العلم والاعتقادات. وهذا ظاهر، لأن منشأها الإيقان بالآخرة، والعطش لأحكام الرب، وحقيقتها النظر والفكر في العواقب، كما مرّ.

واعلم أنّ هذه الآية جعلت الإيمان بالقرآن وحده إيماناً بجميع ما أنزل الله، فصار القرآن جماع الرسالات كلها، والإيمان بهذا النبي إيماناً بجميع الرسل. وخلاصة ما ذكرنا أنّ هذه الآية أفادت:

١- الإيمان الصحيح الخالص، فانتفى الريب والتقليد.

٢- والوحدة الجامعة بالدين الإلهي، كما قال تعالى فيما خاطب به الرسل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٢. وعلى هذا قال النبي ﷺ: «الإسلام ملة واحدة»[1]، فانتفى الشقاق والتعصب.

٣- والإيمان المفصَّل الجامع لكل ما يؤمن به.

فهذه ثلاث فوائد، وما أوسعها وأجمعها!

ذلك، وبعض مواقف التدبر تجدها في الفصل التالي.

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ.

(١٧)

ثلاث نظرات في نظم هذه الجملة

قد مر في مقدمة تفسير هذه السورة أنها على غاية المناسبة بالفاتحة، والآن نبيّن أن هذه الجملة أيضاً على غاية المناسبة بها، فابتدئ بها، ثم نرجع إلى ذكر تناسب أجزائها، ثم إلى ذكر ربطها بما بعدها، فابتدئ بها، ثم نرجع إلى ذكر تناسب أجزائها، ثم إلى ذكر ربطها بما بعدها، فعليك بثلاث نظرات:

أما النظرة الأولى فقد بيّنا فيما سبق أنّ الفاتحة في أسلوبها جعلت قسمين: الحمد لله تعالى، والدعاء، لما فيه جميع السعادة والفلاح لعباده. وإنه تعالى بدأ بتعليم الحمد لسبق ربوبيته العامة، ورحمته الواسعة الموجبتين للحمد قبل كل عمل. ثم إنه علّمنا الدعاء الجامع فرعاً على الربوبية والرحمة حسبما مرّ بيانه. وإذ علمت ذلك، فاعلم أن هذه الجملة جاءت مناسبة لكلا القسمين.

أما الأول: فأي نعمة أعظم وأحقّ بالشكر، وأدلّ على كمال الربوبية والرحمة من تنزيله الكتاب إلى الإنسان ليربّيه به ويرقّيه إلى أعلى غاية خلقه، كما وعده به حين أرسله إلى الدنيا؟ ولذلك سمّى الوحي رزقاً ومباركاً، وروحاً، ورحمةً؛ ولذلك جعل هداه أكبر ما يشكرون له. فبالابتداء بهذه الجملة دلّنا على أن كتابه هوأعظم ما به حياة الإنسان وصلاحه وكماله وفلاحه. وبيّن بذلك كمال ربوبيته ورحمته وحكمته وقدوسيته، ليكبّروه، ويشكروه، ويسبّحوا له، ويقدّسوه.

وقد دلّ على ذلك في مواضع تصريحاً وإشارةً. فمنه ما قال تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ البقرة: ١٨٥ وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكهف: ١. فربط إنزال الكتاب بالحمد.

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ

﴿ ٤ ﴾ الرحمن: ١ - ٤. فأشار بالنظم إلى أن تعليمه القرآن متفرّع على أنه الرحمن.

وهكذا دلّ على كون إرسال الرسل والكتاب متفرِّعاً على كونه مالك السماوات والأرض، وقدوساً عزيزاً حكيماً. فقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ الجمعة: ١ - ٢.

ويشبهه قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ الحديد: ١-٩.

وهكذا قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ الأعلى: ١ - ٧. وقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ العلق: ١ - ٥. فانظر في نظم هذه الآيات لتستدل به على ربط الربوبية والرحمة بتنزيل الوحي، وعلى وجوب الشكر لهذه النعمة الكبرى.

فالآن ترى أن قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ على غاية حسن المناسبة بما بدأ به الفاتحة بتعليم الحمد على ربوبيته العامة، ورحمته التامة. ولولا ذلك لم تتم الربوبية والرحمة، والجود والحكمة في حقّ الإنسان، كما جاء في القرآن إخباراً عن قول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ طه: ٥٠. فإذا خلق الإنسان على غاية الاستعداد للعلم والحكمة، والطهارة والتزكي، أنزل إليه كتابه، وبعث فيهم رسله ليتم نعمته عليهم، فيشكروه، وهو الغني عن شكرهم ولكنه

كما قال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ النمل: ٤٠. فله الحمد لما أنعم عليهم، سواء تقبّلوا نعمته أم أعرضوا عنها، فإنه الغني.

وأما الثاني: فالدعاء الجامع الذي علّمنا في الفاتحة هو أن يهدينا الصراط المستقيم الذي هو صراط الذين أنعم عليهم غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين. وتعليم الدعاء يخبر عن وعد الإجابة. فهذه الجملة إجابة لذلك الدعاء، وإنجاز لذلك الوعد. فكأنه قيل لنا: هذا هو الهدى الذي تطلبه، وذلك هو الصراط المستقيم وصراط المنعم عليهم.

وقد جاء في الأخبار ما يؤيد ذلك، فقد رفع إلى النبي ﷺ وعن علي وابن مسعود رضي الله عنه أنّ الصراط المستقيم هو كتاب الله[1]. وأيضاً عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه الإسلام والسنة[2] كما مرّ في تفسير الفاتحة.

فبما صرّح بأن هذا الكتاب المنزّل من الربّ تعالى هُدىً للمتقين، ثم وصف المتقين المهتدين به، بيّن لنا كلا الأمرين: أي كونه الصراط المستقيم، وكونه سنة الذين أنعم عليهم.

وقد مرّ في المقدمة لتفسير هذه السورة أنها جامعة لمطالب الدين، وتفصيل للفاتحة. فإن رجعت نظرك في سعة ما يحتوي «الصراط المستقيم»، وكذلك في سعة كلمة «هدى» تبيّن لك أنّ هذه الجملة خلاصة لما جاء به باقي السورة من تعليم الإيمان والسنة، فقدّمها على طريق براعة الاستهلال.

---

(١) انظر الطبري ١: ١٧١- ١٧٣ رقم ١٧٤ -١٧٧ وتفسير ابن كثير ١: ٢٦.

(٢) الطبري ١: ١٧٤-١٧٥ رقم ١٨٠-١٨٣ وتفسير ابن كثير ١: ٢٦-٢٧.

وأما **النظرة الثانية** وهي في ربط أجزائها. فقد مر طرف منه فيما سبق وفي فصل البلاغة بغاية الإيجاز، فلنذكر هاهنا بعض ما قد بقي أو ما اقتضى بياناً زائداً.

فاعلم[1] أنّ سعادة الإنسان منوطة بصلاح جانبيه: العلمي والعملي، وهما متصلان بواسطة، وهي الحالة الصالحة. وهذه الثلاث تكمل بعضها ببعض. ولا يخفى أنّ العلم يتقدم الحال، والحال يتقدم العمل. ولكن مع ذلك ليس أن العلم يكمل، ثم يبتدئ إصلاح الحالة، ثم يبتدئ إصلاح العمل حتى يستكمل. بل يترقى الإنسان في هذه الثلاث بالتدريج، ويستعين بكلِّها. وذلك بأنّ الربّ تعالى أودعها فطرة الإنسان ممتزجةً، ويزيدها لمن أحسنها حسبما يستعملها. وإذ علمت ذلك فاعلم أنّ الهدى نور يطلع من أفق العقل والعلم، والتقوى حالة تسطع من أفق القلب والإرادة.

واعلم أنّ الأعمال الصالحة كلها ـ من العلمية والعملية ـ تابعة لتلك الحالة الممتزجة بالمعرفة والفكر. قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ الإنسان: ٢ - ٣. فذكر ثلاث مراتب: الحسّ، ثم الفهم، ثم الحالتين التابعتين حسب استعماله ما أعطاه.

وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ الشمس: ٧ - ٨. فقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ يبين جانب عقله وتمييزه بين الفجور والتقوى. وقدّم الفجور لأنّ التقوى إنما تتبع معرفته بالإثم.

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ العلق: ١١ - ١٢. فصرّح بتقديم الهدى على التقوى وبأنّ التقوى أساس لجميع ما يؤمر به، فهي رأس الأعمال.

---

(١) كتب المؤلف في هامش الأصل: «أبهم هذا البيان، فيكتب مرة أخرى».

ومن الظاهر أن الثواب لا يترتب على ما أودع الله الإنسان، وإنما يترتب على إرادته وعمله. فالعلم الذي ينشأ فيه من التقوى هو برّه وصلاحه، وبذلك دخل تحت الأعمال، وبذلك صارت التقوى أول البر وأصل الخيرات العلمية والعملية كلها، وبذلك صارت رأس الحكمة كما مرّ. ونظم قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ دلّ على هذه الحكمة. وقد بينّا سعة معنى الهدى والتقوى في الفصول السابقة.

فانظر الآن كيف بدأ الله بما هو الأساس ـ أعني الهدى والتقوى ـ ومزجهما حسبما مزجهما في الفطرة، وجمع بهما جانبي العلم والعقل. ثم بعد ذلك ذكر الفرع على الترتيب، فذكر الإيمان بالغيب رعايةً لجانب العلم والنظر، ثم ذكر الصلاة والإنفاق رعايةً لجانب العمل. وبتقديم الصلاة على الإنفاق دلّ على كونها أول الأعمال وأوسعها وجوباً. وفي كون الصلاة محضاً بين العبد والربّ تعالى، وكون الإنفاق بين العبد والعبد أيضاً دليل على تقدمها. وقد مرّ أنّ هذين العملين رأس الشرائع كلها.

ثم بعد ذلك ذكر كل ما يؤمن به، والتفت إلى أول الكلام ـ وهو كتاب الله ـ

تذكـرة

واعلم أن التقوى رأس الأعمال كما أن الهدى رأس العلوم، فجمع بينهما، كما قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ العلق: ١١ ـ ١٢.

واعلم أنّ أول أمر النبي الإنذار ليتقوا. وذلك تنبيه العقل وإبطال خلع العذار، وعلى ذلك آيات كثيرة.

واعلم أن الصلاة رأس الأعمال كما أن التقوى رأس الأعمال. واعلم أن التقوى كف، والصلاة رجوع. والتقوى انتهاء، فلها تقدم على العمل. والانتهاء أول ظهور العقل، ولذلك سمي عقلاً وحجراً ونهى.

وضمّ به الإيقان بالآخرة لكونه أصل التقوى كما مرّ.

ثم رجع القول في الهدى الذي أعطاه الربّ، ويعطيه لهؤلاء إنجازاً لما وعد، وإتماماً لما أنعم عليه فطرة.

ثم أخبر عن نتيجة الهدى، وذلك هو الفلاح الذي هو غاية السلوك على الصراط المستقيم، ونهاية التزكية المطلوبة التي يسعى لها العبد، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ الشمس: ٩ كما بينّا في الفصل العاشر من مقدمة تفسير هذه السورة حيث ذكرنا أنّ هذه السورة جامعة لأوصاف هذه البعثة. فإن نظرت فيما ذكرنا هناك رأيت أنّ هذه الجملة في غاية المطابقة بها، فصارت أنموذجاً لتمام السورة.

ومما ذكرنا ترى في نظمها تأسيساً، ثم تفريعاً ـ أي سلسلة الأسباب، ثم عوداً على البدء كحلقة خاتم جعل فصّه ما أودع الله تعالى فطرة الإنسان من جواهر الهدى والتقوى. ومنهما تنبسط دائرة الأعمال التى تحيط بجميع الحسنات حتى تنتهي إلى أصل الهدى والتقوى: وهو الإيمان بما أنزل الله والإيقان باليوم الآخر.

وأما النظرة الثالثة وهي في ربطها بما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية إلى عشرين آية. فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ الآيتان، موقعه موقع ذكر المقابل. وقد جاء ذلك في آخر الفاتحة، فتجد بعد ذكر المنعم علهم ذكر المغضوب عليهم وذكر الضالين، فهكذا هاهنا بعد ذكر المتقين المهتدين بالقرآن ذكر أضدادهم من الكافرين والمنافقين إلى عشرين آية. فقال عزّ من قائل حكيم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ البقرة: ٦ - ٧.

(١٨)

تفسير الكلم

﴿كَفَرُوا﴾ كَفَر، كنصر: ستر. قال لبيد:

في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمامُهَا[١]

ومنه الكافر: للبحر. قال ثَعلَبَةُ بن صُعَير المازني:

فتَذَكَّرا ثَقَلاً رَثِيدًا بعدما ألقت ذُكَاءُ يَمِينَها فِي كافِرِ[٢]

ومنه كفره: جحد بنعمته، فسترها، ضد شكره، كما قال تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ الإنسان: ٣. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ هود: ٦٨ وفي دعاء القنوت: «ونشكرك ولا نكفرك»[٣].

وبالباء: أنكره، ضد آمن به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ البقرة: ٢٥٦.

وعند الإطلاق يراد به إنكار ما ينبغي الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ التغابن: ٢، وهذا كثير.

وربما يراد به كفران النعمة، كما مرّ.

---

(١) في الأصل: «ظلامها»، وهو سهو، وصدر البيت:

يعلو طريقةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ

البيت من معلقته، وهو في وصف بقرة وحشية شبه بها ناقته. انظر ديوانه: ٢٢٠ وشروح المعلقات.

(٢) المفضليات: ١٣٠ واللسان (كفر، رثد، ثقل، ذكا).

(٣) انظر الأذكار النووي: ٥٨.

(ف)[1] اعلم أن هذه المادة قديمة جدًّا فتوجد في غير اللغة السامية، مثلاً: كَوَرْ (cover) في الإنكليسية بمعنى: ستر وغطّى[2]. وفي العربية «كور»: لفَّ. ومنها غَفَرَ: ستر، ومنه المِغْفَر، و«غمر». وأيضاً من كفر: اكفَهَرَّ: اغبرَّ وكَلَحَ.

﴿سَوَآءٌ﴾:

١ - المساواة. قال تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ الأنفال: ٥٨.

٢ - ووسط الشيء. قال تعالى: ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾ الصافات: ٥٥. أيضاً: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢﴾ ص: ٢٢.

٣ - المتوسط بين شيئين. قال تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ آل عمران: ٦٤.

٤ - والمساوي. قال تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ النحل: ٧١.

ولكونه مصدراً في الأصل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والجمع، كما مرّ.

﴿خَتَمَ﴾: طَبَعَ، أي أثّر في الشمع أو الطين أو نحوه للسدِّ، أو العلامة، أو لكليهما. فختم على الكتاب: طبع عليه بالخاتم، وعلى فم الوعاء: طبع عليه بعد ما سدَّه لكيلا يدخل فيه شيء، ولا يخرج منه شيء. وبالتجريد ختم على الشيء: أحكم سده.

فالختم على القلب والسمع يراد به أن لا يدخل فيهما ما كان ليدخل فيهما لولا

---

(١) أي «فائدة».

(٢) انظر التعليق على ذلك في مفردات القرآن للمؤلف: ٣٠٦.

هذا الختم. والختم على فم الإنسان: يراد به أن لا يخرج منه كلام، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ يس: ٦٥.

وجاء الطبع على البصر أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ النحل: ١٠٨. وهذا من التجريد أو التغليب.

﴿سَمْعِهِمْ﴾ لِكَونه مصدراً جاء واحداً.

(١٩)

التأليف ودلالة الوصل والفصل

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية. استأنف الجملة، لكونها وجهاً آخر لبيان تأثير القرآن، متضمِّناً لتسلية النبي وتعليمه الإعراض عن هؤلاء. وكان ما سبق بياناً لتأثير القرآن في المؤمنين. فلما كان الجملة تأكيداً للمعنى السابق من وجه آخر لم تُعطَف على ما سبق، لتكون أوقع لاستقلالها، وليدلّ على القطع بين المؤمنين والكافرين. ولذلك ترى العطف بين هذه والتي بعدها في ذكر المنافقين.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ الجملة بتمامها خبر عن الذين كفروا. والاستفهامية بتأويل المفرد إما مخبر عنه، و﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ خبر عنه، كما في قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ إبراهيم: ٢١، وإما فاعل لـ﴿ سَوَآءٌ ﴾، فإنه بمعنى الصفة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ الحج: ٢٥. وإنما قدَّم الخبرَ لنكارة المخبَر عنه، كما رأيت فيما مرّ من النظائر، وكما ترى في قوله تعالى: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٥.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ جملة مستقلة وقعت بياناً للسابق المفهوم، لزيادة البيان، كما في قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ إبراهيم:

٢١. فقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ يبيّن ما سبق، ولما كان بمعنى ما سبق لم يُعطَف عليه.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية. إنما استأنفه لكونه بياناً لما سبق من ذكر كفرهم، وأنهم غير مؤمنين. فإنّ الكفر لما كان هو الستر والتغطية لا بدّ أن يكون ختماً على القلوب، كما صرّح به في قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ المطففين: ١٤. وسيأتيك مزيد في الفصل التالي والذي بعده.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾ يتعلق بفعل ختم، لكونه الختم أنسب بالسمع، كما أن الغشاوة أنسب بالعين، وهذا ظاهر. ثم قد فسّره القرآن حيث قال تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾ الجاثية: ٢٣. والختم أعمُّ فيستعمل للعين أيضاً، وجاء في القرآن، كما مرّ. ولكن الغشاوة لا تستعمل للسمع، فلا بدّ أن يتعلَّق ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾ بفعل ختم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ عَطْفٌ على السابق، لكونهما من العذاب. فإنّ الختم والغشاوة من عذاب الله، ثم يأخذهم عذاب عظيم في الآخرة، كما بيّنه القرآن في مواضع. وسيأتيك الشواهد في الفصل الحادي والعشرين.

(٢٠)

تأويل الكلم وبعض دلالة النظم

نقتصر في هذا الفصل على تأويل الكلم، وأما تأويل الآيتين جملةً وتفصيلاً، فتجده في الفصول اللاحقة.

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المراد به طائفة مخصوصة، وذلك باقتضاء النص، فإنّ الله تعالى أخبر عن هؤلاء بأنهم لا ينفعهم الإنذار، وأنهم لا يؤمنون، وأنهم ختم الله على قلوبهم. ومعلوم أنّ كثيراً ممن كفر أولاً آمن فيها بعد، فلا بدّ أن المراد

هاهنا غيرهم، ولا اختلاف في هذا القدر من التخصيص.

ثم في نفس الكلمة وموقعها دلالات على أنّ المراد بها قادة المشركين ممن هاجرهم النبي ﷺ. فإنّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالإطلاق من غير قرينة صارفة أو بغير ذكر ما كفروا به يأتي كالاسم الجامع للمشركين، لما أنهم هم الذين كفروا بالله من وجوه كثيرة. وذلك هو كفرهم بالتوحيد والمعاد والرسالة، وكفرانهم بنعم الله، ولا سيّما بما أنزل إليهم. ولذلك إذا استعمله القرآن لغيرهم بيّنه بقرينة، مثلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ البينة: ٦، ومثلاً في ذكر اليهود: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي المشركين ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ البقرة: ٨٩.

وتسمية المشركين بالذين كفروا تجد أيضاً في الشواهد التي سنذكرها في بيان قول ابن عباس رضي الله عنهما. فليس أن أهل الكتاب لم يرتكبوا الكفر، ولكن القرآن لا يذكرهم باسم «الذين كفروا» إلا بضم قرينة.

---

* في الحاشية ورد هذا النص:

تأويـل آخـر:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين كفروا بما جاء به النبي ﷺ وبما كان النبي يدعو إليه، وهو خلاف من آمن به. فهؤلاء لما أنهم كفروا بعدما عرفوا الحق، فسد قلوبهم ولعنهم الله. فإنّ الله بيّن في مواضع مَن هم الذين يطبع على قلوبهم. فهذه الكلمة جامعة لمن هاجرهم النبي ﷺ من مشركي مكة، ويهود المدينة وحولها فإنّ هؤلاء هم الذين وضح لهم الحق وأنكروا به، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فقست قلوبهم. وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن ذلك، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين فيما بعد.

ثم اعلم أنّ الأصل في الكلمات المطلقة إرادة نفس الحقيقة، فذكر المشركين بهذه الكلمة لا يدل بالذات على شركهم أو إنكارهم بأمر خاصّ من التوحيد والمعاد والرسالة، بل على جحودهم المطلق المبني على جهلهم، وانهماكهم في الشهوات، واستكبارهم عن سماع الحق.

ثم اعلم أنّ أصل ذلك كله هو خلوّهم بالكلية عن الاعتقاد بالمعاد، فإن ذلك هو سبب التغافل، وعدم الخشية، والاستكبار. وفي إنكار المعاد إنكار بمعظم صفات الرب تعالى من القدرة والحكمة والعدل والرحمة. وقد بيّن الله في غير ما آية أن الإنكار بالمعاد هو الكفر بالله، كما بيّن كثيراً أن ذلك هو أصل إنكارهم واستكبارهم. وسنرجع إلى بيان ذلك في تأويل ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ٦﴾، فهذا ما دلّ عليه نفس الكلمة.

ثم علاوةً عليه كان في مجرد تسمية هؤلاء بهذه الكلمة دليل على ما كانوا عليه من الجحود المفرط، والإصرار على الباطل. فإنّ الاسم يدلُّ على المسمَّى كما يكون وكما علم من أحواله، سواء كان الاسم قبل التسمية يدلّ على كلّها، أو كان يدلّ على بعضها.

ثم قد وصفهم القرآن في مواضع كثيرة بما ذكرنا من جحودهم وغلوّهم فيه، مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٧١﴾ البقرة: ١٧١ وهذا كثير.

ومما ذكرنا يتبين أنّ النظر هاهنا إلى ثلاثة أمور:

١ - إلى تخصيص الكلمة بطائفة معلومة.

٢ - وإلى إصرارهم على الجحود بعد العلم.

٣ - وإلى كفرهم بلقاء الله وعدم الخشية.

ولما ذكرنا من وجوه الدلالة لم يختلف أهل العلم بالتأويل في أنّ المراد هاهنا هم الذين أصرُّوا على الإنكار بعد معرفة الحق، وإن اختلفوا يسيراً في تعيين المورد. فقد بلغنا ثلاثة أقوال متقاربة:

فالأول: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه وهو: «أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله ﷺ، توبيخاً لهم في جحودهم نبوَّةَ محمد ﷺ وتكذيبهم به، مع علمهم به، ومعرفتهم بأنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة»[(١)].

وإنما ذهب إلى ذلك لأن السورة قد نزلت بالمدينة، ومعظم الخطاب فيها إلى اليهود، ثم فيها ذكر كفرهم بهذا النبي، وتوبيخهم على ذلك. راجع آيات (٨٥-١٠٠).

والقول الثاني: ما روي عنه أيضاً وهو أن المراد به: «من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول»[(٢)]. وهذا مثل القول السابق، وإنما نبّه في القول الثاني على أن قضاء الله على كفرة اليهود بالختم على قلوبهم ليس بأمر جديد، بل قد سبق لهم هذا القضاء إذ عصوا الرب، كما جاء في الذكر الأول ـ وهو سفر الأخبار قبل الزبور، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الأنبياء: ١٠٥. فقد ذكر فيه أن الله تعالى أوعدهم باللعنة إن لم يطيعوه ويسلكوا طريقه، ويعبدوا إلهاً غيره. راجع أخبار الأيام الثاني (٧: ١٩-٢٢).

ويشبهه ما جاء في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي

(١) تفسير الطبري ١: ٢٥١ رقم ٢٩٥.

(٢) المصدر السابق ١: ٢٥٢ رقم ٢٩٧.

إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ
كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ المائدة: ٧٨ - ، ٨٠

فتولِّيهم المشركين أدخلهم في الكفر الصريح حتى صاروا كما أخبر الله عنهم:
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ
نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي المسلمين ﴿ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي بني إسماعيل
﴿ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾
أي بما آتيناهم من الكتاب والحكمة ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ النساء:

تـذكـرة

الآيات التي في أواخر سورة النحل تدل على أن المراد بالذين كفروا هم الذين كفروا بعد الإيمان. فعلى هذا تكون هذه الكلمة جامعةً لكل من كفر بعد وضوح الحق. وهم اليهود، ومن المشركين من وضح له الحق ولكن كفر به لمحض الاستكبار والحسد، ولما استحبَّ هذه الدنيا.وكأن الآيات التي في سورة النحل تفسير لذلك، وهي قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

٥١-٥٥.

وهذا في ذكر كبراء اليهود، إذ اتفقوا بمشركي مكة وحرضوهم على قتال المؤمنين بعد ما هاجروا إلى المدينة ومكنهم الله فيها وآتاهم ملكاً وسلطنةً، وذلك بمحض حسدهم. فإنّ اليهود قد علموا أنّ هذا تصديق ما عندهم من بركة آل إبراهيم، كما هو مبسوط في موضعه. فعند ابن عباس ﷺ مورد الكلمة هم كفرة اليهود ممن عرف صحة هذه البعثة ولكن جحد به حسداً وعتوًّا.

والقول الثالث: ما روي عن الربيع بن أنس، قال «آيتان في قادة الأحزاب... قال: وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٨ - ٢٩. قال فهم الذين قتلوا يوم بدر»[١].

فكما أن صاحب القولين الأولين نظر إلى مكان النزول، والمخاطبين بمعظم خطاب هذه السورة وما جاء فيها من ذكرهم؛ فكذلك صاحب القول الثالث نظر إلى زمان نزولها، واستعمالات القرآن لكلمة «الذين كفروا» إذا كانت مطلقة، وإلى حسن النظم والتقسيم المرعى في هذا المقام، كما سنذكره في الفصل...[٢].

وإنما ذكرنا وجوه استنباطها، لندلّك على طريق السلف في تأويل الكلمات، وتقاربها. فإن شئت جمعت بينهما فتجعله نصًّا على أقحاح المشركين، لجحودهم بعد العلم، وتماديهم في غوايتهم، وخلوِّهم عن خشية الرب، وعدم رجاء لقائه، ولما أنّ القرآن خصّهم بهذا الاسم؛ وتعريضاً إلى كفرة اليهود لما شاركوهم في هذه الصفة.

---

(١) الطبري ١: ٢٥٢ رقم ٢٩٨.

(٢) بياض في الأصل.

ومعظم الخطاب وإن كان في اليهود، فإن في مواضع من السورة ذكراً صريحاً عن الذين هاجرهم النبي ﷺ، بل نصف السورة الآخر في أمر هؤلاء. وصحة هذا الذي ذكرنا تتضح بعد تمام النظر في السورة، والتأمل في حسن النظم والمعاني، وما سنذكر في الفصول الآتية. ثم فيه جمع بين التأويلين.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ أطلق الإنذار، ليكون جامعاً. والموقع يدلّ على أنّ أول النظر هاهنا إلى الإنذار بالقرآن. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾ مريم: ٩٧. أيضاً: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الأعراف: ٢. أيضاً: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ الأنعام: ١٩ وهذا كثير.

فذلك ما ينذرون به، وأما ما ينذرونه فهو يوم القيامة وأهوالها. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ غافر: ١٨. وأيضاً: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ الأنعام: ١٣٠ وهذا أيضاً كثير.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ لإطلاقه صار جامعاً، كما مرّ في أمثاله. ولكن أول النظر هاهنا إلى الإيمان بكل ما جاء من عند الله ولا سيّما هذا القرآن، فإنّ الإيمان به هو الإيمان بكل ما أنزل الله. ثم استعمال القرآن دلّ على هذا المراد، فإنه إذا أطلق كلمة «المؤمنين» أراد بها الذين آمنوا بهذا القرآن. وإذا أراد به غيرهم دلّ عليه بقرينة، كما بيّنا في تسمية المشركين بالذين كفروا. مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ البقرة: ٦٢ الآية. وهذا كثير.

فإن قيل: أليس الكفر ضد الإيمان؟ فهلّا اعتبرتَ في معنى الذين كفروا أنهم

كفروا بما أنزل على محمد ﷺ، كما اعتبرته في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾؟ أو اعتبرت في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ أنهم لا يؤمنون بلقاء الرب، كما اعتبرته في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؟ والكلمتان مطلقتان، فلم خصصتهما؟ ثم لِمَ فرَّقتَ في جهة التخصيص؟

قلنا: الأصل في الكلمات المطلقة إرادة الحقيقة كما مرّ، والكفر هدم، والإيمان بناء، وفي الهدم لا يعتبر هدم الكل. وأما البناء فلا بد فيه من التمام حتى يستحقّ اسم ما بني. وقد بيّن القرآن أنّ اسم الإيمان لا يقع إلا بعد الإيمان بكل ما أنزل الله، فهذا حقيقة الإيمان. وأما حقيقة الكفر فهو الجحود والكفران، وأصل ذلك عدم الخشية وعدم الرجاء بلقاء الرب. فلم نخصصهما من جهة إرادة المفعول بل من جهة إرادة الحقيقة المطلقة. ثم على ما قلنا دلائل من وجوه كثيرة، ونذكر بعضها في الفصل التالي...[1].

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية. لا يخفى أن هذا الختم أمر معنوي، وقد هدى القرآن إلى هذا المراد في غير ما آية. مثلاً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ يس: ٨ - ٩. فهذه الأغلال، وهذا السدّ، وهذه الغشاوة كلها معنوية.

وأيضاً: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ الإسراء: ٤٥. فهذا الحجاب ليس بحجاب جسماني، ولذلك نظائر في القرآن، هذا من المجاز الشائع في الكلام. وإنما يراد به الأسباب التي تسدّهم عن قبول الحق مما يفسد القلوب من القساوة والنفرة عن قبول الحق.

---

(١) بياض في الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ ظاهر العطف يدل على أن هذا الختم والغشاوة من قسم العذاب. ثم بعد ذلك لهم عذاب في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معا. وهذا ما دل عليه العبارة، وسيأتيك على ذلك دلائل آخر في الفصل...[١].

*****

* **فائدة**[٢]:

قد ذكر آنفاً باسم الهدى، ومن وجوه الهدى الطريق، والنبي هو الداعي إليه. ومن حُرم السَّماعَ لا يلتفت إلى نداء من يدعوه، ولكن يمكن أن يلتفت إلى إيمائه وإشارته. فإن كان قد حُرم البصرَ أيضاً لا ينتفع بدعوة من يدعوه إلى الطريق. ويشبهه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ الأعراف: ١٩٨.

ويقرب منه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الكافرين الذين لا إحساس لهم بما تذكرهم به ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾ النمل: ٨٠ - ٨١ أي الأصمّ إذا ولّى مدبراً لا ينفعه النداء، وإدباره هو إدبار قلبه ونفرته، فهو الأعمى حقيقةً، والأعمى إذا أدبرو نفر هو الأصم، فلا يمكن أن يهدى لا بالإشارة ولا بالنداء. ويشبهه قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ البقرة: ١٨.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) وجد هذا النص في ورقة مستقلة بعنوان «فائدة» فوضعناه هنا.

ومفاد هذه الوجوه واحد، وهو أنهم ليسوا بمؤمنين بما أنزل الله، لما أنهم حُرموا أسبابه ـ ومعظمها خشية الرب وعواقب الأعمال ـ فأقبلوا بكليتهم على هذه الدنيا، وانهمكوا في شهواتها، فصرفوا عما وراءها.

(٢١)

في بيان أن هذا الختم والغشاوة من نتائج أعمالهم، وليس أن الله تعالى ختم على قلوبهم من أول الفطرة

اعلم أن الله تعالى جعل أحوالَ القلب أسباباً لأعمالها وإراداتها، وبين في كتابه أنّ القلب يفسد بالسيئات حتى يصير لا ينفعه نصح ولا إنذار، كالمريض الذي لا يرجى برؤه، بل كالذي شرب السمّ فمات فلا يعالجه الطبيب بعد موته. وبذلك حذّرنا عن ارتكاب المآثم، وحثنا على المبادرة بالتوبة، وعلى ترك من لا ينتفع بالذكر. فليس لأحد أن يرتكب المآثم أو يبقى على الكفر ويمنّي نفسه أن يتوب إذا شاء بعد ما قضى نحبه من شهواته. فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فهذا تصريح بأن الطبع مما يصيبهم الله به لأجل ذنوبهم، وأيُّ بيان يكون أشد تصريحاً من هذا؟ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ الأعراف: ١٠٠ - ١٠٢. أي كانوا ينقضون العهد، ويرتكبون الفسق، وكفروا بما جاءهم من البينات والأدلة الواضحة، فبذلك لم يكونوا فيها بعد ليؤمنوا بما كذبوا من قبل. فهذا تصريح بأنّ أفعالهم الشنيعة جلبت عليهم سنّة الله، فطبع على قلوبهم.

ويشبهه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ يونس: ٧٤ أي كانوا معتدين في تكذيبهم برسلهم، فطبع الله على قلوبهم، فلم يمكنهم الإيمان بعد ذلك بما بالغوا في تكذيبه.

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يونس: ٣٣. فهذا تصريح بأن الذين فسقوا حقّ عليهم قضاءُ ربك بأنهم لا يؤمنون.

ويشبه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ يونس: ٩٦ - ٩٧ إلخ.

وقال تعالى في ذكر المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ المنافقون: ٣. أي بعد وضوح الحق والإيمان كفروا، فقست قلوبهم وعميت.

وقال تعالى في ذكر اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ النساء: ١٥٥.

ويشبهه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ البقرة: ٨٨. قد تشبّثوا بأنّ الله تعالى إنما خلق قلوبهم غُلْفاً ولذلك لا تبلغها دعوة النبي، فأبطل الله تعالى تمسُّكهم بهذا العذر وبيّن أن ذلك إنما هو لكفرهم، ولما ذكر من آثار ذلك الكفر، وبيّن أنّ ذلك الطبع من لعنة الله عليهم. وإنما لعنهم لسيئات أعمالهم، كما صرّح به في موضع آخر، فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ المائدة: ١٣. وهذا كثير في القرآن.

ومن هذا الباب ماجاء كثيراً في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١، الأنعام: ١٤٤، القصص: ٥٠، الأحقاف: ١٠، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ المنافقون: ٦، أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ ﴾ الزمر: ٣، أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ غافر: ٢٨ مع نظائر أخر، وسيأتيك منها مزيد.

وبالجملة فإنّ ما ذكره الله هاهنا من الختم والغشاوة إنما هو جزاء ما فعلوا أنفسهم، وما اقتحموه من الكفر والجحود والإعراض عن الحق بعد تبيُّنه.

وهذا تأويل الآيتين قد بيّنه القرآن بنظائر، فمنها قوله تعالى: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ يس: ١ - ١١. فصرّح بأنك مرسل إلى قوم غافلين من قبل، فمنهم من اتبع ما ألقيتَ إليهم من الذكر الحكيم وأحدث فيهم خشيةَ الله. ومنهم من لم يتبعه ولم يخش الرحمن بالغيب، فلا ينتفع بإنذارك. ولقد حقَّ عليهم قول ربك وقضاؤه بالحقّ، فأغفل قلوبهم وأغشاها، فلا يؤمنون.

وهذا الذي ذكرنا من سنّة الله في جعل السيئات سبباً لمنع الهداية وفساد القلوب هو التأويل الظاهر من هاتين الآيتين. وهكذا فسّره السلف من غير اختلاف. روى ابن جرير عن الأعمش «قال: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يُرون أنّ القلب في مثل هذا ـ يعني الكفّ ـ فإذا أذنب العبد ذنباً ضُمَّ منه، وقال بإصبعه الخنصر: هكذا. فإذا أذنب ضُمَّ، وقال بإصبع أخرى. فإذا أذنب ضُمَّ، وقال بإصبع أخرى هكذا، حتى ضَمّ أصابعه كلها، قال: ثم يُطبع عليه بطابع. قال مجاهد: وكانوا يُرونَ أنّ ذلك

الرَّيْنُ»[١].

وأيضاً عن ابن جريج، «قال: قال مجاهد: نُبِّئْتُ أنَّ الذنوب على القلب تَحُفّ به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع. والطبع: الختم»[٢].

لا يخفى أنّ قوله: «أن ذلك الرين» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ المطففين: ١٤.

هذا، وقد مرّ في أوائل السورة أنّ هذا القرآن هدىً للمتقين. فكما ذكر هنالك سنّة الله في الهداية، ورَبَطها بالمتقين، فكذالك ذكر هاهنا سنته في منعها عن الذين لا يتقون، كما مرّ في ما أوردنا آنفاً من أوائل سورة يس.

(٢٢)
في النظم[٣]

في هذه الجملة ربط السبب بالمسبَّب بين الذين كفروا وبين الذين لا يؤمنون ثم بين الذين كفروا وبين ختم الله.

أي كفرهم سبب لعدم إيمانهم بما أنزل. وإنما صار كفرهم سبباً لعدم إيمانهم بما أنه جلب عليهم الختم والغشاوة، وكما جلب عليهم هذا في الدنيا، فكذلك يجلب عليهم العذاب الأليم في الآخرة. وهذه سلسلة الأسباب مثل ما تقدم بين التقوى والهدى، والإيمان والأعمال الصالحة والفلاح، كما مرّ.

---

(١) الطبري ١: ٢٥٨-٢٥٩ رقم ٣٠٠.

(٢) المصدر السابق ١: ٢٥٩ رقم ٣٠٢.

(٣) ورد في حاشية الأصل اليمنى. ولعله تذكرة لفصل النظم الذي لم يكتب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ
كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ
﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ البقرة: ٨
- ١٦.

(٢٣)

تفسير الكلم والتأليف

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي يحاولون أن يخدعوا. قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ النساء: ١٤٢. أي لا يقع أن يخدعوا الله، ولكن ينقلب خداعهم عليهم، وإنما حاولوا أن يخدعوا الله.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ أي بأنهم يخدعون أنفسهم. والشعور إدراك ما يحسّ به، لا تقول: شعرتُ زيداً عالماً. فدلّ على أنّ هذا الأمر كان أقرب إلى أنفسهم، ولكنّهم لشدة جهلهم لا يشعرون.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كانت العرب تكني بداء القلب عن الحقد والهوى. وفي القرآن جاء أيضاً بمعنى الشك. وعلى هذا سمى اليقين بالشفاء.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ فيه تضمين، أي إذا ذهبوا إليهم فخلوا معهم، وحرف «إلى» قرينة هذا التضمين. كما تقول: قام إليه: أي قام ومشى إليه.

﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ الشيطان فعلان من شاط يشيط: هلك. قال الأعشى:

وقد يَشيطُ على أرماحنا البَطَلُ [١]

شاط فلان: ذهب دمُه هَدَراً. أيضاً: عَجِل، وأسرع. وشاط الزيت: احترق. وغضب فلان فاستشاط: أي التهب. والشيطان من أسماء الحية. قال الشاعر [٢]:

تُلاَعِبُ مَثنَى حَضرَمِيٍّ كأنَّه ... تَمَعُّجُ شيطَانٍ بذي خِروعٍ قَفْرِ [٣]

والشرير من الجن، وبين الحية والجنّ مناسبة، لكونهما ناريين طبعاً. ومن هاهنا كل متمرد يسمى شيطاناً. قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ الأنعام: ١١٢.

وعند الجوهري هو فَيعَال من شَطَنَ بمعني بَعُدَ [٤]. وسيبويه مرةً جعله فَعْلاَنَ من شاط، وأخرى فيعالاً من شَطَنَ [٥]. والأول هو الصواب. ويؤيده أنه إذا جُعِلَ عَلَماً لا ينصرف كما قال... [٦].

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يتركهم فيمتدُّون، كما قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

---

(١) صدر البيت:

قَدْ نَخضِبُ الْعَيْرَ فِي مَكْنُونِ فَائله

ديوانه: ٩٩، واللسان (شيط).

(٢) هو طرفة بن العبد، انظر الحيوان للجاحظ ٤: ١٣٣.

(٣) ديوانه: ١٥٨.

(٤) انظر الصحاح (شطن).

(٥) انظر الكتاب ٣: ٢١٧ و٤: ٣٢١.

(٦) يعني المؤلف قول الطفيل الغنوي من قصيدة في ديوانه: ٤٩ وهو شاعر جاهلي من الفحول:

وقد منّتِ الخَذواء مَنّا عليهم ... وشيطانُ إذا يدعوهم ويَثُوّبُ

وشيطان هذا: شيطان بن الحكم بن جاهمة الغنوي. وجاء غير منصرف. قال ابن برّي: «وهذا يدل على أن شيطان فَعْلانُ،ونونه زائدة». انظر اللسان (شطن).

﴿١٨٣﴾ ﴾ الأعراف: ١٨٣، القلم: ٤٥. ونظيره قوله: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ الأنعام: ١١٠. وهذا كثير. قال الجوهري: «مدَّه في غيّه، أي أمهله وطوّل له»[1]. وروى ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: يملي لهم[2]. وأما قول الزمخشري[3] أنّ مدّ له: أمهله، ومدّه: زاده، واستدلاله بقوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠٢ فليس بشيء، فإنّ النزاع في مدّه به. ومعنى الآية أن إخوانهم يجعلونهم يمتدون في الغى، فأي استدلال فيها على ما زعم به؟

﴿يَعْمَهُونَ﴾ من عَمِهَ، كسَمِعَ: مشى على جهل لا يدري أين يذهب. قال رؤبة:

ومهمهٍ أطرافُه في مهمهِ　　　أعمى الهُدَى بالجاهلين العُمَّهِ[4]

أرض عَمهاء: لا أعلام بها. وعَمِه، وعَمِي صنوان في المادّة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ خبر قُدّم لكونه في الأصل مخبراً عنه، كما يظهر من النظائر مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ الرعد: ٤. أيضاً: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ هود: ١٠٥. وأيضاً: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ البقرة: ١٠، المائدة: ٥٢، الأنفال: ٤٩، التوبة: ١٢٥، الحج: ٥٣، النور: ٥٠، الأحزاب: ١٢و٦٠، محمد: ٢٠و٢٩، المدثر: ٣١. وهذا كثير. ولا حاجة إلى القول بأن ﴿وَمِنَ﴾ هاهنا بمعنى البعض، وإن كان المآل واحداً من جهة المعنى.

---

(١) انظر الصحاح (مدد).

(٢) الطبري ١: ٣٠٦-٣٠٧ رقم ٣٦٤.

(٣) انظر الكشاف ١: ١٨٨-١٨٩.

(٤) ديوانه: ١٦٦، واللسان (عمه).

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾ وقع حالاً.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ يتعلّق بفعل ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ٢٠٢﴾ الأعراف: ٢٠٢. ويمكن تعلُّقه بـ﴿يَعْمَهُونَ﴾ كما هو في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢﴾ الحجر: ٧٢ على أحد التأويلين فيه. ولكن الأول هو الأولى، لكثرة مجيء «مدّه» فيه، ولكون المدِّ أقوى للاعتماد لتعديته. وعلى هذا فقوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال، أي وهم يعمهون ويمشون على جهل وعمى.

(٢٤)

بعض وجوه البلاغة في أسلوب هذه الجملة

في تضاعيف هذه الآيات ذكر عشر خلال السوء من أحوال المنافقين، وهي خلوُّهم عن الإيمان، وخداعهم، ومرض قلوبهم، وازدياد المرض، وإفسادهم في الأرض، وإنكارهم عن الإيمان، وكبرهم وسفاهتهم، وإظهار نفاقهم، واستهزاؤهم، واشتراؤهم الضلالة بالهدى. ولم يترك صفةً إلا وبيّن شناعتها، وجعل الترتيب صاعداً فبلغ منتهى القبح، حيث قالوا إنما نحن مستهزئون. جاء بالعطف في ذكر أحوالهم، وبالقطع في ذكر الردِّ. فالعطف يصل ذكر أحوالهم، والقطع تنبيهات مستقلة.

الاستفهام ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ للاستعجاب، والإنكار، والاستكبار.

الإفساد أقوى جانبه: فساد القلب. والسفه أقوى جانبه: خفة العقل. فقال في الأول: ﴿لَا يَشْعُرُونَ ١٢﴾، وفي الثاني: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾. ثم الشعور أدنى العلم، والإصلاح يقتضي زيادة العلم، فعدم الشعور أشنع لمن يدّعي الإصلاح. وفي تسفيه الناس ادّعاء للعلم، فردَّ عليهم ما ادّعوه.

(٢٥)

تأويل الجمل في آيات (٨-١٦)

اعلم أن قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ كان تمويهاً وخداعاً. كان الإيمان بالله وحده واليوم الآخر من أعظم ما أتى به النبي، وأول ما كان يدعو الناس إليه. والقرآن جعل ذلك كالحدّ للمؤمنين مثل لقب المتقين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ التوبة: ٤٤ - ٤٥. وهذا كثير في القرآن. والتقوى يلزم ذلك، وقد مر آنفاً. والإيمان بما أنزل الله يلزم التقوى، كما مرّ مبسوطاً. فلو آمنوا بالله واليوم الآخر اتقوا وآمنوا بما أنزل الله، ولكنهم لم يكونوا صادقين في قولهم. فزعموا أنهم مؤمنون حقًّا وأرادوا أنهم لا يؤمنون بالنبي، وأن لا حاجة لهم إليه، وبذلك أرادوا أن يخادعوا المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ المائدة: ٦١.

والمنافقون كانوا على درجات، فمنهم من اكتفى بالقول بأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر، ومنهم من قال إنه آمن بالله وبالرسول زوراً وكذباً، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ النور: ٤٧.

وقوله تعالى: **﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾** الواو للبيان، أي خداعهم المؤمنين بمنزلة خداعهم الله. وإنما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لبيان حقيقة أعمالهم. فإنهم عرفوا أنّ النبيّ حق، والنبي يبعثه الله ليطاع، ولكنهم زعموا أن المقصود هو التعليم الحق وهو حاصل لهم، سواء آمنوا بالنبي أم لم يؤمنوا. فتمسّكوا بحجة باطلة أرادوا

بها إبطال حكم الله. وهذا كمن احتال للخروج عما أمر الله به، فهو بمنزلة من يخادع الله. والمرء ربما يفعل بجهله ما لا يدري مآل أمره. فالمراد أنهم يخادعون المؤمنين، وشناعة عملهم تبلغ منزلة الذي يخادع الله، وفي الحقيقة إنه قد خدع نفسه، فإنه ورّطها الكفرَ من حيث يخفى عليها أنه كفر.

﴿مَّرَضٌ﴾ كان التحاسد، والتباغض، والارتياب من أظهر خلال اليهود. ثم لما أنشأ الله نبيّه في بني إسمعيل، وأنزل كتابه على محمد ﷺ، وارتفع أمرُه، شقّ عليهم، وهيَّج بغضاءهم. فذلك ما زادهم مرضاً حسب سنته، وإنّ سننَ الله تعالى تنسب إليه. وكثيراً ما ينبّه القرآن على ذلك، وهكذا هاهنا قدم أعمالهم الناشئة من مرض قلوبهم.

ولما كان نفاقهم نتيجة الحقد والارتياب عبّر القرآن عنه بالمرض. وقد مرّ أنّ العرب كانت تسمى الضغن مرضاً والانتقام شفاءً. وأما الريب فقد كثر في القرآن أن اليقين شفاءً، فجعل الشك مرضاً. وهذا من أحسن التعبيرات. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ المدثر: ٣١.

وأما تسمية الضغن مرضاً فمما كثر في كلامهم، وقد جاء في القرآن وفسَّره، حيث قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ محمد: ٢٩ - ٣٠.

﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه دعوة إلى الطاعة لكي تستقر المدنية الطاهرة ويجتمع الناس تحت جناح القسط، فيذهب الفساد من الأرض، فإنه المقصود بعد الإيمان بل هو من الإيمان. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ الحديد: ٢٥. فكان النبي والمؤمنون يدعوهم

إلى السلم؛ وجعل الله السلم في الطاعة، والفساد في البغي. قال تعالى:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي سمعنا وأطعنا ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ محمد: ٢٠ - ٢٣.

أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ البقرة: ٢٠٨. أيضاً: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥.

﴿ **قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾** ﴾ كانت هذه الطائفة تظنّ أنهم أعلم بالمصالح فيُرضُون كلَّ طائفة، ويجتنبون أن يصيبهم سوء، وقد جهلوا أنّ الخير كله بيد الله، وأنّ طاعة الله ورسوله خير لهم. وذلك لأنهم لم يؤمنوا بالرسول إلا في ظاهر القول، كما حكى الله عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من مرض النفاق وقلة الإيمان بالله وبرسوله ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦١ - ٦٤.

وأيضاً: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ المائدة:

٥٢. وقد وقع عليهم هذا القول. فأظهر الله الإسلام وأصبحوا نادمين على صدودهم. وبيّن القرآن قصتهم في غير موضع.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ كانت هذه الطائفة تظن أنّهم عقلاء، لا يليق بهم أن يذعنوا لكل ما يأمرهم النبي به، وأنّ الذين شروا أنفسهم رضوانه هم السفهاء، فلم يكونوا في شيء من الإيمان الصحيح. وقد ذكر الله تعالى في مواضع من القرآن خروجهم عن طاعة الله وطاعة الرسول، لسوء ظنهم بالله وبرسوله مع دخولهم في الإسلام ظاهراً.

وهذه الطائفة قد عرفت النبي وشهدت بالإيمان، فلم يكن كفرهم أشدَّ، ولكن كان أخبث وأفسد. وقد تمكن هذا المرض فيهم لطول مدته. فإنهم آذوا موسى ﷺ، ونكثوا المواثيق مرة بعد مرة وقتلوا الأنبياء، ونبذوا كتاب الله وحرفوه. وهذا الفساد الطويل الراسخ قلما يرجى إزالته. وسيأتيك تفصيل ذلك في هذه السورة وآل عمران والمائدة والأعراف. ومع ذلك لم يمنع الله عنهم الدعوة حتى إنهم لما أبوا إلا التذبذب والتقهقر حقّت ووقعت عليهم نتائج أعمالهم، فرانت على قلوبهم، فعَمُوا وصَمُّوا.

في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الآية، الهدى جامع لما أودع الله فطرتهم، ولما جاء به كتبهم، ولما عرض عليهم هذا القرآن. فنبذوا كل ذلك لطمع ربح، فإن المرء لا يشتري الضلالة لنفسها، فاختاروا الضلالة لنفع. فكانوا كمن يتجر في شيء لا نفع فيه إلا بما يحصل منه من الربح. فبيّن أنهم خسروا في ذلك، فأضاعوا ما كان عندهم، ولم يحصل لهم ما طمعوا فيه.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ جامع لوجوه: أي لم يحصل لهم الربح وقد أضاعوا الهدى، وذلك تمام الخسران؛ وأيضاً إنهم كانوا غير راشدين في استبدال

الضلالة بالهدى؛ وأيضاً إنهم قد كانوا من قبل غاوين، فهكذا الآن جروا على سنّتهم.

(٢٦)

نظرة في نظم هذه الجملة مع ما قبلها

لا يخفى أن هذه الجملة في وصف المنافقين. وقد ذكرنا آنفاً ما كان من سبب إيرادها هاهنا. والآن نوجهك إلى التأمل في نظم الكلام من السورة إلى آية (١٦). فانظر كيف ذكر المتقين المؤمنين العقلاء الصلحاء، ثم الذين كفروا، ثم الذين نافقوا. ولما كان حظ المنكرين المحض إعراضاً أوجز القول فيهم. وأما المنافقون فكانوا يسمعون القرآن، ويخالطون المسلمين، ويخاصمون ويحاجّون، ويظنّون بأنفسهم أنهم على دين وكتاب ونور وهدى من الله، ففصّل القرآن أحوالهم وردّ أقوالهم، وضرب لهم المثل ليصوِّر لهم شأنهم وشأن ما أنزل الله لدعوتهم.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ الآية، واقع كالخاتمة بعد ذكر أوصاف المنافقين، مثل آية: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ البقرة: ٥ بعد ذكر أوصاف المؤمنين، ومثل آية: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ البقرة: ٧ بعد ذكر أوصاف الذين كفروا.

وإنما ضرب لهم مثلين إتماماً لبيان أحوالهم من الخسران والضلالة والشقوة بما جاء به أنبياؤهم، وبما جاء به هذا النبي صلوات الله عليهم أجمعين. فقال عزّ من قائل حكيم:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي
ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

(٢٧)

تفسير الكلم والتأليف

﴿أَضَآءَتْ﴾ النار. لازم مثل ضاءت، كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ النور: ٣٥. وأيضاً متعدٍّ. قال امرؤ القيس:

أَعِنِّي عَلَى بَرقٍ أراهُ وَميضِ يُضِيء حَبياً فِي شَمَاريخَ بِيضِ[١]

﴿الصيِّب﴾ فَيعِل، من صاب المطر: نزل، والسحاب: أمطر. قال الجوهري: «الصيب: السحاب ذو الصّوب. وصاب: أي نزل»[٢]. فالصيِّب: المطر الشديد، وأيضاً السحاب الذي يمطر بالشدة.

﴿السَّمَآءِ﴾ من سما يسمو: علا. وتطلق على هذا السقف الأرزق، والسحاب، والفضاء الأعلى؛ وعند الإضافة على أعلى الشيء.

﴿الصَّوَٰعِقِ﴾ الصعَق: شدة الصوت. حمار صعِق الصوت: أي شديده. الصاعقة: الصحيحة، والبرق النازل بالصيحة. قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الرعد: ١٣.

﴿أظلم﴾ الليل: اشتدَّ سوادُه، والناس: دخلوا في الظلمة. قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ يس: ٣٧.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآية. اعلم أنّ المثل وإن كان من باب التشبيه، فإنه ليس تشبيه شيء بشيء، وإنما هو تصوير قصة. وكلمة التشبيه ربما تدخل

---

(١) ديوانه: ٧٢.

(٢) الصحاح (صوب).

في المثل على ما ليس بالمشبَّه به. ألا ترى هاهنا أنّ «الصيب من السماء» ليس هو المشبَّه به، بل الذين يمشون في ضوء البرق. فهكذا ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ ليس هو المشبَّه به، بل الذين ذهب الله بنورهم، كما ستعرف.

ـ قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ أي هم صمّ بكم عمي. وهذا الحذف أحسن موقعاً في بيان الصفات. وحذف العاطف دلالة على جمع هذه الصفات معاً، كما قال امرؤ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدبرٍ معاً[(١)]

وهذا كثير.

ـ قوله تعالى: ﴿كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ الآية. معناه: كمطر صيب نازل من السماء. وهكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة[(٢)]. وروي عن سفيان: «الصيب، الذي فيه المطر»[(٣)] والتأويلان متقاربان. والأول أحسن معنى، والثاني أقرب حسب الظاهر لكون السحاب أولى بكونه ظرفاً للرعد والبرق. ولكن المطر أولى بكونه ظرفاً للظلمات، فإنّ المطرإذا نزل زاد الجو ظلمة. ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على التأويل الأول معناه: نازل من جهة السماء أو من السحاب، وعلى التأويل الثاني معناه: من قسم السحاب، فتكون

---

(١) عجزه:

كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِن عَلِ

والبيت من معلقته في ديوانه: ١٩، وانظر شروح المعلقات.

(٢) انظر الطبري ١: ٣٣٤-٣٣٥، رقم ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٥.

(٣) المرجع السابق ١: ٣٣٥، رقم ٤١٧.

«من» بيانية لا غير.

(٢٨)
تأويل هذه الجملة وما ضرب فيها من المثلين

اعلم أن الله تعالى ضرب لليهود ولما أنزل من الهداية والنور مَثَلَين. والمثل تصوير الحال. فالأول تصوير حالهم بالكتاب السابقة، والثاني تصوير حالهم بالقرآن. والمقصود بيان شدة ضلالتهم، فإنّ ذهاب الرشد بعد الهداية أشدّ، فصوّر ضلالهم بظلمة بعد الضياء. واليهود قد قست قلوبهم، وحرّفوا كتبهم واختلفوا فيها، وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ البقرة: ٩٣، وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾ البقرة: ٨٨، وقد عموا وصمّوا بعد ما جاءتهم البينة، كما جاء في القرآن مراراً وفي كتب الأنبياء.

فقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلخ تأويله: أن موسى عليه السلام كان كرجل استوقد لرفقته ناراً في الليل، فإنّه جاء بالنور لقومه، وأوضح لهم السبيل، وجاء بتفاصيل الشريعة، فلم يبق لهم عذر. ولكنهم عصوا الله بعد العلم مرّةً بعد مرّة وجيلاً بعد جيل، فسلبهم الله الهداية، واختلفوا في كتبهم فوقعوا في ظلمات كثيفة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ المائدة: ٧٠ - ٧١. وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ المائدة: ١٣.

فقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ إلخ بيان ما وقع عليهم لأجل أعمالهم. فإنّ الله تعالى إنما لعنهم لما نقضوا الميثاق، وعصوه بعد العلم، وأصرُّوا على الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ تعبير آخر للظلمات. فالصم ظلمة السمع، فلا

يصل إليهم كلام الهدى؛ والبكم ظلمة النطق، فلا يهتدون لقول الحق. ألا ترى سفاهتهم في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ البقرة: ٨٨، النساء: ١٥٥ وأن جبريل عدوهم، وقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ البقرة: ٩٣، النساء: ٤٦.

والعمى ظلمة البصر، فلا يرون ما ينظرون من آياته، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ البقرة: ٨٩. وكل ذلك من ظلمة القلب ولكن فصلها، فقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي لا يرعوون عن ضلالهم، ولا يستغفرون ولا يتوبون إلى الله.

ثم في ذكر البكم بيان شدة الصمم، فإنّ الأصم التامّ الصمم لا بدّ أن يكون أبكم. ثم فيه بيان أنهم لا يستجيبون الداعي، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الأنعام: ٣٦.

فذلك تأويل المثل الأول الذي يمثّل شقوتهم بكتبهم وبما جاءت به من الهدى والنور.

وأما المثل الثاني فيمثّل إنكارهم بهذا القرآن. فمثّل لهم حالة المطر في الليل، فاجتمعت الظلمة من الليل، والسحاب المطبق، والقطر التي ملأت الجو. فذلك مثل القرآن لهم، وفيه صاعقة الوعيد، ورعد القول الزاجر، وبرق الهداية الذي لا تحتمله عيونهم العُشْي. ولقبولهم بعض الهداية وإنكارهم أخرى حسداً واستكباراً وعصبيّةً يُشْبِهون من يمشي في الظلمات ونور البرق الخاطف، فيجري ويقف ويخاف ويتحذر، ولا ينفعه الحذر، فإنّ الخطر محيط به.

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ يجعل التمثيل أشد مطابقة لحالهم، فإنّهم كانوا يعرضون عن سمع القرآن. ولم يقل: يضعون أكفّهم على عيونهم، فإنَّ نور البرق يفجؤ، فلا يمكن الحذر منه، وأيضاً منه يعلم الطريق. وهكذا كانوا يرجون هذا

الكتاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ البقرة: ٨٩. فلم يزالوا في شكّ، فلم يطمئنَّ قلوبهم بكلِّ الإعراض. فكانوا يسمعون رجاء أن ينزل ما يوافق أهواءهم، ولكنّ الدين القيِّم لا يراعي أهواء قوم، فإذا سمعوا خلاف مرضاتهم توقفوا. فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾.

وإذا سمعوا وعيداً شديداً سدُّوا آذانهم حذراً. وما أجهل من تحذَّر الخبر ولا الضرر! فإنّه محيط بهم، كمن رأى الأسد منقبضاً على براثنه للوثوب عليه، فأغمض عينيه! فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ أي هو مرسل الصواعق، ومحيط بهم.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ بيان ما يخاف عليهم. فإن لهم بعض النور والهداية ولكنهم لا يقبلونه، فيخاف عليهم أن يُحرَموه بالكلية.

وهذا المثل يصدق على الفريق المذبذبين، فخوَّفهم بأن يجعلهم كالفريق الأول الذين قال تعالى فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨﴾ البقرة: ١٨.

ومما ذكرنا يتبيّن أنّ المثل الأول تصوير حال الذين كفروا كل الكفر، وقست قلوبهم، وتمت ظلمتهم؛ والثاني تصوير حال الذين كانوا مذبذبين. وحرف «أو» للتوزيع، أي منهم هكذا، ومنهم هكذا. فإنّ بعض اليهود قد نبذوا كتابهم فصاروا صُمّاً بُكماً عُمْياً، وفيهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ البقرة: ٧٨. وبعضهم كانوا يتدبرونه، ويجدون فيه بشارة هذا النبي ﷺ، ولكنهم بعد المعرفة لم تطاوعهم قلوبهم أن يؤمنوا به. فخوَّفهم الله أن يجعلهم كالفئة الأولى فيذهب بسمعهم وأبصارهم. وقد وقع على أكثرهم هذا الوعيد، فإنهم بعد ما عرفوا الحق كفروا به. قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ المائدة: ٤١-٤٣ أي لا يؤمنون أبداً.

(٢٩)

نظم هذه الجملة مع ما قبلها ووجه الخطاب فيها

قد تم من أول السورة إلى هاهنا عشرون آية خاطب الله بها النبي ﷺ ليُعلمه أنّ الناس على ثلاث طبقات: المتقون المهتدون بالقرآن فيشتغل بهم، والكافرون المظهرون الكفر المصرّون عليه، والمنافقون المفسدون، فلا يحزن عليهم ولا يضيع وقته بهم. وكما قدّم ذكر الكافرين على المنافقين، فكذلك في هذين المثلين قدّم ذكر المنكرين من اليهود على ذكر المذبذبين منهم. وفي هذه الآيات تعريض بالكفار واليهود قبل صريح الخطاب، وهذا هو الأسلوب الحكيم.

فمن بعد ذلك خاطب الكفار وأوجز فيه، لقلة حجتهم. ثم خاطب اليهود فأطنب فيه، لكثرة لجاجهم وادعائهم بأنهم على دين قديم وسنّة النبيين. فأدحض دعواهم، كما سيأتيك. وإنما قدّم الخطاب بالكفار لعموم الدليل فيه، ولاختصاره، والأعمّ الأخفّ يقدّم، وكما مرّ في أول السورة. فقال عزّ من قائل حكيم يخاطب الكافرين المشركين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن

مِثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١ - ٢٤.

(٣٠)

تفسير الكلم والتأليف

﴿خَلَقَكُمْ﴾ الخلق أصله التقدير، كما قال زهير:

فلأنتَ تَفْري ما خلقتَ وبعـ ـضُ القومِ يخلُق ثمَّ لا يَفري[1]

ثم توسّع إلى إعطاء الوجود.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ اعلم أن «لعلّ» تستعمل في وجوه. ومنها أنها تأتي لبيان النتيجة الممكنة، أي لكي تتقوا.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ الرزق هو العطية والطعام يعطى للخدم والجند، والمصدر من رَزَقه.

﴿أَندَادًا﴾ جمع ندّ، وهو الشبه، والعدل، والكفء.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ عطف على ما فهم من اتباع الرسول، فإنه يهديهم إلى عبادته والتقوى، كما جاء في ذكر دعوة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ نوح: ٢ - ٣. فهذه الثلاث متصلة. ولما تضمن الكلام السابق من الدليل على تنزيل القرآن من الله تعالى ـ كما سنذكره في فصل التدبر ـ فكأنه قيل: اعبدوا ربكم مخلصين له الدين، وآمِنوا بكتابه الذي نزّل على عبده، وإن كنتم في ريب فأتوا بسورة من مثله. حرف «إن» تأتي لمعان، ومنها فرض ما لا يوجد، كما قال

(١) ديوانه: ٦٣ (بشرح الأعلم).

تعالى: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ البقرة: ٩٣، وهكذا هاهنا. أي لستم في ريب في الحقيقة، فإنّ الحق قد تبيّن لكم ولكنكم تكابرون. وهكذا فيما بعد من قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿شُهَدَآءَكُم﴾ الشهداء جمع شهيد. ويطلق على معان معلومة[1]. وهاهنا: الذي هو لسان القوم، وزعيمهم الذي يشهد المشاهد من جانبهم. قال حارث بن حِلِّزة:

وهو الرَّبُّ والشهيدُ على يَو　　مِ الحِيارَيْنِ والبَلاءُ بَلاءُ[2]

وهذا روي عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «يعني أعوانكم على ما أنتم عليه»[3].

﴿وَقُودُهَا﴾ الوقود بالفتح هو الحطب، وبالضم هو المصدر من: وَقدت النار تقِد.

﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي كانوا من قبلكم. وإدخال «مِن» على «قبل» و«بعد» من سنة العربية، كما ترى في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ الروم: ٤.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وقع في موضع المفعول، كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الأعراف: ٥٧. ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ فاطر: ٢٧. وأيضاً: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الأنعام: ٩٩ وله نظائر أخر.

---

(١) وانظر كلمة «الشهيد» في مفردات القرآن للمؤلف.

(٢) انظر شروح المعلقات، واللسان (ريب، حير).

(٣) الطبري ١: ٣٧٦ رقم ٤٩٦.

ويحتمل أن يكون ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ هو المفعول، و﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ حالاً عنه، أي كائناً من الثمرات، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ طه: ٥٣، وإنما قدّمه لتقديم المعرفة على النكرة. وهذا الاحتمال ضعيف، لأنّ إخراج الثمر من الماء أوضح وجاء له النظائر، فلا يصار إلى غيره.

فعلى التأويل الصحيح يكون قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ مفعولاً له، أي لأجل أن يرزقكم، أو حالاً، أي وهي رزق لكم، والمآل واحد. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ النازعات: ٣١ - ٣٣. أي لأجل متاعكم، أو هي متاع لكم، على الحالية. وأيضاً جامعاً للنظيرين: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فهذا نظير كون ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ حالاً، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ يس: ٣٣ - ٣٥ فهذا نظير كونه مفعولاً له.

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي من شكله، كقوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ﴾ ص: ٥٨. وليس المعنى: من رجل مثل محمد ﷺ. وأخطأ من ذهب إلى هذا المعنى خطأ فاحشاً، فقد قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ هود: ١٣. أيضاً: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ الطور: ٣٤. والفرق بين «مثله» و «من مثله» يسير، فإنّ مثل الشيء أشبه بالشيء مما هو من مثله. فالتحدي بسورة واحدة من مثله أهون وأتمّ حجة، فإنهم لم يقدروا على هذا القدر أيضاً.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي هي أعدت للكافرين. وحذف المبتدأ في الصفات يعطي قوة، كما هو مبسوط في موضعه.

(٣١)

بيان تأويل الجمل والدلالة على ما فيها من البلاغة

لا يخفى أن الكلام هاهنا في دعوة المشركين إلى التوحيد، فراعى غاية البلاغة حيث دعاهم ما لا ينكرونه. فإنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الله، ويعبدون الشركاء تقرُّباً إلى الله، كما حكى القرآن عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الزمر: ٣. فبالتدريج بيّن لهم أن عبادتكم لله غير صحيح، لما أنكم بشرككم تعصونه، فقد كفرتم بالله. فدعوتهم إلى عبادة الله هي الدعوة إلى التوحيد، ولكن بالكتابة، ليلزم عليهم ما سلّموه. ففي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وجه الخطاب إلى المشركين:

١ -لما دل عليه قوله: فلا تجعلوا لله أنداداً.

٢ -ولما هو من عادة القرآن يخاطبهم بهذه الكلمة.

٣ -ولما جاء خطاب طويل إلى بني إسرائيل، ففرغ أولاً عن الخطاب إلى المشركين.

٤ -ولما سبق قبل ذلك ذكر الكافرين قبل اليهود. وهكذا فهم الأولون.

﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ من غير الشرك إشراك به. فإنّ من أشرك بالله لم يعبده، بل عصاه وكفر به. وهكذا فسّره ابن عباس رضي الله عنه[1]، ونبيّن ذلك عن قريب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ كلمة جامعة. أي لكي تتقوا جزاء الكفر، كما تفهم مما حكى الله عن قول نوح عليه السلام: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ

---

(١) قال ابن جرير: «أنه ذُكر عنه أنه كان يقول في معنى ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾: وحِّدُوا ربكم» انظر تفسيره ١: ٣٦٢ و٣٦٣.

﴿...﴾ هود: ٢٦، وأيضاً لكي يحصل لكم التقوى، فإن التوحيد يهدي إلى التقوى، كما تفهم مما حكى الله عن قول نوح عليه السلام أيضاً: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ نوح: ٣.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ أي مع أنكم تعلمون وتقرّون بأنكم خلقكم ورزقكم، إنكم تشركون به أنداداً لم يخلقوكم ولم يرزقوكم، فكيف تفعلون ذلك وما عذركم؟

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ادعوا كل من ترجون نصره، كما فسّره ابن عباس رضي الله عنه[1]. وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هو بيان للواقعة. فإنهم كانوا يرجون النصر من دون الله، فطالبهم أن يستمدّوهم. وكانت العرب تظن أنّ لكل شاعر جنّاً يلقي إليه الشعر، وكانوا يعبدون الجن معتقدين بأن لهم قوة وأنهم يتلقّون من السماء. فقال لهم: استمِدُّوا أولياءكم من الجن والإنس، فإن تعجزوا مع ذلك عن الإتيان بسورة من شكل هذا الوحي، فأقِرُّوا بأنّ ما نزل على محمد ليس من إنسان أو جنّ أو إله دون الله. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ الإسراء: ٨٨. وأيضاً فيه دلالة على أن الله تعالى هو منزل هذا الوحي لا غيره، فادعوا غيره إن ظننتم أنه يقدر عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ هود: ١٣ - ١٤.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ كلمة جامعة. أي صادقين في ريبكم، وأيضاً فيما تقولون وتشبّثون به من الأقوال، كما حكى الله تعالى عنهم مثلاً: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ

---

(١) ولفظه في تفسير الآية: «يعني أعوانكم على ما أنتم عليه» الطبري ١: ٣٧٦ رقم ٤٩٦.

﴿ ٢٥ ﴾ المدثر: ٢٥. ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ النحل: ١٠٣. ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ الأنفال: ٣١. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ الفرقان: ٤. ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ الفرقان: ٥ وغير ذلك من شغب ولجاج. فقيل لهم: إن كنتم صادقين في ريبكم وفي أقوالكم، فتعالوا إلى أمر يفصل بين الحق والباطل.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ أيضاً كلمة جامعة، أي إن لم تدعوا شهداءكم للإتيان بسورة من مثله. وهذا احتمال ممكن فإنهم لم يكونوا مجدِّين في شبهتهم لمعرفتهم بأنّ هذا القرآن معجزة لهم. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أي على فرض ريبكم. فإنهم قد عرفوا أنه وحي من الله تعالى، وإنما أنكروا وكذّبوا عناداً وعتوًّا كإنكار آل فرعون، حيث حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٤. أو إن لم تأتوا بسورة مثله لعدم استجابة شهدائكم لكم في ذلك، كما قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ هود: ١٤. ولامنافاة بين الاحتمالين، فإنّ عدم الاستجابة حاصل على الحالين. فإنّ المقصود هو علمهم بعدم الاستجابة، فإن لم يدعوهم علماً منهم بعجز شهدائهم حصل المقصود. وحسب هذين التأويلين يأول قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي ولستم بآتين بسورة من مثل هذا القرآن، أو ولستم بداعين شهداءكم لهذا الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾. لما كان الخطاب بالمشركين الذين جعلوا لله أنداداً ونصبوا لهم أنصاباً وأصناماً ذكر لهم أنّ الكفار وأصنامهم كلهم يُلقون في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الأنبياء: ٩٨ - ٩٩. وليس ذلك لعذاب الأصنام المنحوتة، وإنما هو لإتمام تفضيح المشركين وتقبيح الشرك. فإن شعائر الله تعظَّم، وشعائر الشرك تهان إبطالاً لما جعلوا لها من

التعظيم بالباطل، وتصويراً للحق وتفضيحاً للباطل. ألا ترى كيف فعل موسى عليه السلام بالعجل، ففي سفر الخروج (٣٢: ٢٠): «ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل».

(٣٢)

بعض التدبر في جهة الاستدلال

واعلم أن هذه الآيات جاءت للاستدلال على التوحيد والنبوة صراحة، وعلى المعاد ضمناً، كما ستعرف. وهذه الثلاث هي عيون المطالب التي نزل بها القرآن، والمطلوب إثبات هذا القرآن. فالإيمان المطلوب هو الإيمان بما نزل؛ وهذا عين الإيمان بهذه النبوة.

واعلم [أن] وجه الكلام ليس إلى إثبات الخالق، فإنّ المشركين قد أقرُّوا به. والخطاب بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لا يكون للشاذّ الذي أنكر بالخالق، وقد أكثر القرآن من إبطال الشرك. وأما إثبات الخالق فلم يتركه أيضاً كما يجيء عن قريب، ولكنه قليل لقلة الخصماء فيه، ولأن المنكر بالضروري لا يعبأ به؛ فلا يحتجّ عليه صراحةً وإنما يشار إليه إشارة.

أما وجه الاستدلال على التوحيد، فبأن الله الذي تقرُّون بأنه خلقكم وآباءكم، وخلق الأرض والسماء فأسكنكم في دار وسيع، ورزقكم من فوقكم وتحتكم، فهو الرب الرؤوف الذي لامنازع في ملكه. فإنّ من خلق فله الملك، فهو الرب وأنتم عباده. ثم رزقكم وأنعم عليكم فهوالربُّ لكم وهو المستحق بأن تعبدوه، كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ الأنعام: ١٠٢، فكيف تشركون به من لم يفعل من ذلك شيئاً. وطريق الحجة أن يؤخذ على الخصم بما أقرّ به. ولهذا الاستدلال على التوحيد نظائر كثيرة. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ

مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فاطر: ٣.

أيضاً: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل: ٥٩ - ٦٤.

وهذا النمط كثير في القرآن، وفيما ذكرنا كفاية.

واعلم أن هذا الاستدلال وإن كان مسوقاً لإبطال الشرك، فإنه بالطريق الأولى دليل على الخالق. والقرآن يورد كثيراً من البراهين الدالّة على الخالق المريد الحكيم الرحيم، ولكن يسوقها لإثبات التوحيد. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ المؤمنون: ١١٧. يعني أن آثار قدرته وحكمته براهين على وجوده، ولا برهان على الشركاء. فساق الكلام لإثبات التوحيد، فإنّ الخصومة فيه، ولكن أشار إلى أنّ البرهان على الخالق ثابت بيِّن لا يشك فيه. قال تعالى: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إبراهيم: ١٠. أي هذا بين ظاهر غاية الظهور، ولا برهان على الشريك، والقول بما لا دليل عليه حماقة، ولا سيما إذا كان فيه نقض وهدم لما هو ثابت بالدلائل الواضحة.

وأما الاستدلال على النبوة، فبإثبات كون القرآن منزّلاً من الله تعالى، وهذا ظاهر. ولكن قبل صريح الاستدلال ذكر ما هو أنجح وأقرب، وذلك من وجوه:

الأول: أن ألقى إليهم المطلب الذي جاء به القرآن ولم يمكن لهم أن يدفعوه. فكأنه قيل لهم: إن هذه هي دعوة القرآن، فكيف تنكرون بما يدعوكم إلى الأمر الواضح؟

والثاني: أنهم قد عرفوا كون القرآن معجِزاً ولكن كبر عليهم الإيمان به، لما يسدُّهم من حجابي الشرك وعدم التقوى، لإنكارهم بالبعث، فدعاهم إلى ما يزيل عنهم هذين الحجابين. فدعاهم إلى التوحيد، وذكر أن التوحيد يهديكم للتقوى، والقرآن هدى للمتقين. فإذا وحّدوا الله بالعبادة زال عنهم ما يسدُّهم عن الإيمان بالقرآن والاهتداء به.

والثالث: أن دعاهم إلى التوحيد من طريق يهديهم إلى الإيمان بالنبوة عموماً، وبهذا الكتاب خصوصاً. وبيان ذلك أنَّ في خلق الله تعالى إياهم وآباءهم، وخلقه ما في السماوات والأرض لنفعهم ورزقهم لأوضح دليل على النبوة عموماً. فإن الرب الرؤوف الذي أحياهم أجسادكم وربّاكم برزقٍ من السماء جسمانيٍ، فلا بدّ أنه أحيا قلوبكم بهدى فطري، وأنزل لكم رزقاً من السمآء روحانيًا. وقد سمّى الله تعالى الوحي رزقاً، وشبَّهه بالمطر المبارك في القرآن وكتب الأنبياء. وهذا أصل عامّ يتبيّن لهم منه أن هذا الكتاب الذي جاء بأوضح الهدى وأبلغه إلى نفوسهم لا بدّ أن يكون من ربهم.

فبعد ما مهَّد لهم السبيل، دعاهم صراحةً إلى النظر في نفس هذا الكتاب الذي لم يرتابوا فيه مِن قِبَله ولكن من قِبَل الموانع التي في قلوبهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾. فدعاهم إلى ما يزيل كلَّ شبهة عنهم. فإنّ أصغر سورة منه مطالب بها جميع الإنس والجنّ، وهم أمراء البلاغة وحكّامها على سائر العرب، فعجزُهم من كل الوجوه يبيِّن لهم أنه من ربِّ السماوات والأرض. فهذا ما يتعلق بالتوحيد والنبوة.

وأما المعاد فأثبته في آخر هذا الخطاب. ولذلك اكتفى هاهنا بمحض الإشارة والتمهيد له بذكر الربوبية [أولا][1]، وبإثبات القرآن الذي معظمه في إثبات المعاد [ثانيًا]، وبذكر النار جزاء للشرك والإنكار بالوحي ، وبذكر الجنة ـ كما سيأتي ـ جزاء للإيمان وعمل الصالحات [ثالثاً]. فإن الملك والحكمة والربوبية تبطل إن لم يكن لهم معاد، كما هو مبسوط في موضعه.

(٣٣)

بيان نظم هذه الجملة

مما قدّمنا يتّضح حسن نظم هذه الجملة في نفسها، وفي ربطها بما قبلها. وأما ربطها بما بعدها، فذلك أنّ الكلام في مخاطبة الكفار بإثبات التوحيد والنبوة انجرَّ إلى إيراد الترهيب، فذكر النار. ومن عادة القرآن جمع الترغيب بالترهيب، فالتفت إلى ذكر الجنة حسب عادته. وأودع في هذا الالتفات فوائد مهمة، وسيأتيك ذكرها. فقال عز من قائل:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) في الأصل أرقام فوق «بذكر الربوبية» وغيره مكان «أولاً» وغيره.

(٣٤)

تفسير الكلم والتأليف

﴿وَبَشِّرِ﴾ التبشير: هو الإخبار بالخير، وضده، الإنذار. والاسم منه: البشرى والبشارة. قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ البقرة: ٢١٣. أيضاً: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ النساء: ١٦٥. أيضاً: ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ الروم: ٤٦. وهذا كثير في القرآن وكلام العرب. وأما قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤. فمن باب قوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ الدخان: ٤٩.

﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ إنما سميت «جنة» لما تستر الأرض، من: جنَّ الشيءَ، وجنَّ عليه وأجنَّه: ستره. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ الأنعام: ٧٦. قال امرؤ القيس:

فَلَمّا أجَنَّ الشَّمْسَ عنّي غِيارُها[١]

ومنه: الـمِجَنُّ للترس، والـجُنّة لما يستتر به من السلاح، والجِنُّ والجِنِّي لأنها لا تُرى، والجنين للولد ما دام في البطن. والعرب كانت تسمِّي النخيل «جنَّة»[٢]. قال زهير:

كأنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ مِنَ النّواضِحِ تَسقِي جنَّةً سُحُقا[٣]

---

(١) عجز البيت:

نَزَلْتُ إليهِ قائماً بالحَضِيضِ

ديوانه: ٧٤.

(٢) انظر اللسان (جنن).

(٣) ديوانه: ٣٥.

أي نخيلاً طويلةً. ولذلك جاء: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾. قال عَبيد بن الأبرص:

أو جَدْوَلٌ فِي ظِلاَلِ نَخْلٍ لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ سُكُوبُ(١)

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ النهر: ما يجري فيه الماء: وهو فوق الجدول ودون البحر. وأصله: الشق والفتق، كالبحر. ومنه أنهَرَ: وَسَّع. قال قيس بن خطيم:

ملكتُ بها كفّي فأنهرتُ فتقَها يرى قائمٌ مِن دونها ما وراءَها(٢)

﴿قَالُواْ﴾ القول يستعمل على خمسة أوجه:

١ -قول مسموع.

٢ -وقول بالسرّ. قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ الرعد: ١٠.

٣ -إيماء من غير تكلم. قال تعالى: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ مريم: ٢٦.

٤ -وحديث في النفس من غير كلام مرتب بالحروف، وذاك بإحضار المعنى الذي يحضر قبل الكلام. قال امرؤ القيس:

إذا قلتُ هذا صاحب قد رَضيتُه وقَرَّتْ به العينانِ بُدِّلتُ آخرا(٣)

أي إذا ما تصورت هذا الأمر في نفسي.

---

(١) ديوانه: ١٢.

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي: ١٨٤.

(٣) ديوانه: ٦٩.

٥ –وإشارة عامة سواء كانت بفعل أو بلسان الحال، كما جاء في الحديث: «وقال بيده هكذا»(١).

وكما قيل: «امتلأ الحوضُ وقال: قَطْني»(٢).

﴿البعوضة﴾ البَقَّة. وهي المثل في غاية الضعف والحقارة، وقد ضربها الحكماء مثلاً، فقالوا: وقعت بعوضة على قرن ثور فقالت له: لعلى ثقلت عليك، فأطير عنك؟ فأجابها الثور: ياهذا، ما دريتُ حين وقعتِ، ولن أدري متى طِرتِ!

﴿فَوْقَهَا﴾ أي في الخبث والصغر والحقارة، أو في الحجم والمنزلة. وكلا المعنيين سائغ، كما ستعرف.

﴿الفسق﴾ فسقت الرُّطْبة: إذا خرجت من قشرها. وفسق الرجل: خرج من المعروف إلى المنكر. قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ الكهف: ٥٠. فهو ارتكاب المنكر بجسارة، وقريب من الفجور. قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ الحجرات: ٧. وقال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ البقرة: ١٩٧. وقال تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ الإسراء: ١٦.

(٣٥)
تأليف الكلم

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ﴾ الواو جامعة لمعاني العطف، والالتفات، والاعتراض. ونبيِّنه في الفصل التالي.

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب من أفرغ بيمينه على شماله في الغسل. رقم الحديث: ٢٦٦.

(٢) اللسان (قول).

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي بأنّ لهم. والجارُّ يُحذف كثيراً قبل «أن».

﴿رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾. «رزقا» مفعول ثانٍ، و «من ثمرة» بدل من «منها». أي رزقوا رزقاً من ثمرة الجنة. وبعيد أن يكون «رزقاً» مصدراً، فإن مجيئه اسماً كثير في القرآن، وما جاء مصدراً. وإنما أُخِّر لكونه نكرة. وأيضاً يدل على كونه اسماً رجعُ ضمير المذكر إليه يتلوه من قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾.

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي أتوا بالرزق، و﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ حال من الضمير.

﴿بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ «مثلاً» حال عن الإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الأنعام: ١٥٣. وأيضاً: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ هود: ٧٢.

(٣٦)

نظرة من جهة البلاغة

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية. هذه الجملة ذات وجوه. واستشكل النحويون عطف الإنشاء على الخبر، وهو جائز. ثم هذا الكلام ليس بعطف نحوي، وإنما هو التفات واعتراض، كما ترى في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الى قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ التوبة: ١١١-١١٢. وهذا الالتفات لا يخالف كونه عطفاً معنويًّا، أي جمعاً ووصلاً بما فُهم من السابق من إنذار المشركين. ودلَّ هذا العطف على أنّ السابق وإن كان خطاباً من الله تعالى، ولكنه مما نزل على النبي ﷺ ليبلِّغه من الله تعالى. وإنما خاطبهم من غير واسطة،

١- لأنهم لم يكونوا مؤمنين بالنبوة. فلم يحوِّل ذلك القول إلى النبي، بل خاطبهم بأمر واضح، ليكون أوقع عندهم.

٢- وأيضاً فيه إكرام للمؤمنين، بما لم يجمع بينهم وبين المشركين في خطاب واحد.

٣- ثم يزداد الوعد بالجنة حُسْناً لدى المؤمنين إذا جاء بواسطة النبي، فعاد مكرّراً ومؤكّداً.

ويبيِّن كونَ هذا الكلام التفاتاً واعتراضاً أنَّ بعد ذلك عوداً إلى خطاب المشركين، كما ستعرف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ الآية. جملة مستقلة اقتضاها المحل، فلم تعطف. وفيها دَفْعُ دَخْلٍ ينشأ مما سبق، كما ستعرف. وأيضاً فيه دفعُ الريب عن القرآن من جهة الشبهة على ما فيه من المتشابه.

والدليل على الحق قسمان: قسم لإثباته، وقسم لإزالة الشبهات، ففرغ عن الدليل المثبت فيما مرّ. وسوق الكلام على نهجه المستقيم أعطى هذه الفرصة. فذكر الجانب الثاني من الدليل، فأتمَّه بنوع من اختلاس الفرصة، ليكون أبعد عن صريح الجدال ـ والقرآن يجتنبه كثيراً، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ النحل: ١٢٥. وهذا مبسوط في موضعه.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ واقع للتنبيه وللملاحظة جامعة، فلم يُعطَف كما مرّ في نظائره. والخسران أنَّ الله تعالى هداهم، وأوضح لهم طرق السعادة، ولكنهم أنكروا به ولم ينتفعوا به، فما أكبر خسرانهم!

(٣٧)

تأويل الجمل

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ المراد بالقول هاهنا التذكر وحديث القلب، كما مرّ في عنوان الكلم. وأما ﴿مِن قَبْلُ ۖ﴾ فقد اختلف فيه أهل

التأويل، فذهب قوم إلى أن المراد به ما رزقوا في الدنيا[١]. وقد رووا عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، وعن قتادة ومجاهد: «هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا»[٢]. وبناء على هذا التأويل ذهبوا إلى أن قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ معناه: متشابهاً بما رزقوه في الدنيا من قبل، ورووا ذلك عن قتادة وعكرمة قالا: إن ثمر الجنة «يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب»[٣].

وقال آخرون: المراد منه ما أكلوه في الجنة. قال ابن جرير رحمه الله: «وهذا التأويل مذهب من تأويل الآية. غير أنه يدفع صحته ظاهرُ التلاوة»[٤]. وقال: «محال أن يكون من قيلهم لأول رزق رُزقوه من ثمار الجنة: هذا الذي رُزقنا من قبل، هذا من ثمار الجنة!»[٥].

أقول وبالله التوفيق: إنه لا منافاة بين التأويلين، وظاهر القرآن يدل على ما يجمع بينهما وهو أحسن تأويلاً. فإنهم إذا رُزقوا أول مرة شبَّهوه بما رُزقوه في الدنيا، ثم إذا رُزقوا بعد ذلك شبهوه بما رُزقوه في الجنة. فإن قولهم لا يكون مرة واحدة، بل كلما رزقوا قالوا ذلك. فدلّ ظاهر القرآن على أنّ نعيم الجنة يرتقي كل مرة، فكل رزق ـ مع كونه من نوع الرزق الأول ـ يتزايد حسناً وطيباً. وذلك أمر جدير بالذكر، وبسطُه في عنوان التدبر.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١: ٣٨٥- ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق١: ٣٨٦ رقم ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤. وابن كثير ١: ٦٠-٦١.

(٣) المصدر السابق١: ٣٩١ رقم ٥٣٢، ٥٣٣.

(٤) المصدر السابق ١: ٣٨٦-٣٨٧.

(٥) المصدر السابق ١: ٣٨٧-٣٨٨.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي إنه تعالى لا يبالي بأن يضرب مثلاً أحقر شيء كالبعوضة وما هو أصغر منها كالهباء، كما جاء في القرآن؛ أو أكبر منها بقليل أو كثير كالذباب كما جاء في القرآن. وقد جاء مثل البعوضة في الإنجيل: «أيها القادة العميان الذين يبحثون عن البعوضة ويبلعون الجمل» (متى ٢٣: ٢٤).

فإن المقصود من المثل ليس نفسه، بل إيضاح أمر ما. واليهود كانوا يضلّون على أمثال الإنجيل، وهكذا على أمثال القرآن. فأجاب الله تعالى هاهنا عن اعتراضهم القديم وبيّن أن إنكارهم نتيجة فسقهم، ونقضهم عهود الله، وضلالتهم من الأول.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ هذا وما بعده تفصيل الفاسقين. وهذا الوصف يجمع كل فاسق من المشركين وأهل الكتاب. فإن الله تعالى أخذ عهداً من جميع بني آدم بالتوحيد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣. فهذا عهد عام. وأما أهل الكتاب فقد عاهدهم بالتوحيد والطاعة مرات، وكثر ذكره في القرآن والتوراة.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يثيرون الحرب والفتنة المنجرّة إلى قطع الأرحام، والفساد في الأرض، وقد علموا أنّ صلة الرحم أكبر ما أمر الله به. ويفسره قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ محمد: ٢٢. وقد مرّ أنّ الإنكار بالإسلام وطاعةِ النبي يلزم الفساد في الأرض.

(٣٩)

نظرة من جهة التدبر فيما أشار به إلى حقيقة الجنة

اعلم أنّ هذه الجملة وما قبلها مشتملة على ذكر الجنة والنار. وقد كثر في القرآن ذكرهما إجمالاً وتفصيلاً، فلنذكر هاهنا ما هو المراد منهما، وما هو الحدّ لنا في معرفتهما. فنقول وبالله التوفيق:

إن المسلمين لتفاوت العقول اختلفوا في فهم القرآن. فطائفة أخذوا بالظاهر، ومنهم من غلا فيه فصار حشويًّا محضاً. وطائفة أخذوا بالباطن، ومنهم من غلا فيه وهم الباطنية. وطائفة جمعوا بينهما. فمنهم من زعم أنهم أدركوا البطون وقد اضطربت أقوالهم، ومنهم من سلك مسلك الاحتياط وتوقف على حدّ علمه. وهذا الآخر أسلم طريقاً وأحسن قيلاً. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء: ٨٥. وقال تعالى في وصف المقربين: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ البقرة: ٢٥٥. وقال في وصف القرآن: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ آل عمران: ٧. فبيّن أنّ في القرآن متشابهاً، وذمّ من ابتغى تأويله، وأنّ في قلوبهم زيغاً.

فالمحتاطون يقفون على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهم الذين رسخت أقدامهم في العلم فلم يتجاوزوا حدَّه، وآخرون لا يقفون هناك ويتلون سرداً: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ ويقولون: إن لم يعلم الراسخون أيضاً تأويل المتشابه، فما الفائدة في إنزاله؟ وهذا باطل، فإن للكلام فوائد كثيرة من دون العلم بتأويله.

قد ذم الله تعالى من جحد بآياته وأنكر بالمعاد لجهله بتأويل ما أنزل فيه، حيث

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ ﴾ الأعراف: ٥٠ - ٥٣. فبيّن أنّ كتاب الله جاء مفصّلاً من العالم بالحقائق، فصار هدى ورحمة للمؤمنين، ولكن من أنكر بيوم القيامة ونسيه وما كان ليؤمن به حتى يعلم تأويله صار من أصحاب النار؛ ولكن إذا جاء ذاك اليوم ظهر لهم تأويل ما أخبروا عنه، فحينئذ أقرُّوا بأن ما جاء به الرسل كان حقًّا.

وهكذا ذمّ الله الذين كذّبوا بالقرآن إذ لم يعلموا تأويله، حيث قال: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ يونس: ٣٧ - ٣٩.

فلو لم يكن من دون الإحاطة بالعلم ومن دون ظهور التأويل فائدة لما ذمّهم الله على تكذيبهم ولما سمّاهم ظالمين. وإذاً اعتذروا بأننا أنكرنا لما لم نُحِطْ بعلمه، وقد التبس علينا تأويله. ولكنهم لا يعتذرون بل يُقرّون بجرمهم.

وهذا هو الظاهر عقلاً، فإنّ الله تعالى قد أخبر بغاية الإيضاح أنّ المعاد حقّ ولا بدّ منه، لأنّ الله يرى أعمالنا وهو عادل حكيم. ثم أخبرنا عن صفات الثواب والعقاب بكمال التفصيل، فظهر لنا ما فيه كفاية لنا لأجل الرغبة والرهبة.

وقد بيّن القرآن فيما وصف به المعاد أنّ أمور تلك الدار لها كيفيات تخصّ بها:

تنبت الشجرة في النار، ومع أنها ترمي بشرر كالقصر يغلي فيها الماء والناس فيها أحياء، ومع ذلك بينهم وبين أهل الجنة تحاور. وهكذا ذكر المسيح عليه السلام المعاد، فوصف جهنّم بأنها أتّون نار وأنّ دودها لا تموت، وأنه يكون تحاور بين أصحاب جهنم والمؤمنين، كما سيأتيك. فمن كان في راسه أدنى عقل تبيَّن له أنّ تلك النشأة على صفات تخصّ بها، وأنّ هذه الأوصاف مما لا سبيل هاهنا إلى الإحاطة بعلمه. والجهل بشيء من بعض الوجوه غير مناقض لعلمه من جهة أخرى. وتمام البيان للمتشابه والتأويل سيأتيك إن شاء الله تعالى في تفسير السورة التالية.

وإنما المقصود هاهنا أن أحوال المعاد وكثيراً من أمور أخر لا سبيل لنا إلى العلم بتأويلها في هذه الدار. ولكن الله تعالى كل ما أخبر به عنه فهو محض حقّ وبيان صدق، وتعبير اللذات والآلام الأخروية في غاية المطابقة بما عبّر عنه. فلا نقول إن هناك لا جنة ولا نار، ولا شرب ولا أكل، ولا الحور ولا القصور، بل هي أحق بهذه الأسماء مما يوجد في الدنيا، وأتم وأكمل لشدة إحساسنا بها ودوامها. فكل لذة وألم في الدنيا على اختلاف أنواعهما موجودة هناك مشابهة بما هاهنا. فإن نلتذ ونألم هاهنا بواسطة هذا الجسم الكثيف والحاسة الناقصة، كمن يرى الشيء من وراء الستور ويمسّه من ظاهر القشور.

ثم اللذات والآلام التي توجد هاهنا ليست بصفات لازمة ذاتية لموصوفاتها، فإنه يمكن مثلاً أن تسلب الحرارة من النار، والحلاوة من السكر، والبهجة من الأزهار، والضياء من الشمس. وكذلك يمكن أن لا نألم من الحرق، ولا نلتذ من المأكل والمنكح، فإنها أمور ضُمّت وزُوِّجت بعضها ببعض. وأما آثار الإيمان والكفر، والعلم والجهل، والبر والفجور على النفوس من اللذة والألم، فلازمة أبدية، فإذا تجلت الحقائق تجلت الآثار الحقيقية.

فلا نقول: إن تلك دار المثال، وهذه دار الحقيقة. كلّا بل تلك دار الحقائق وهذه دار التمثيل. فهاهنا ضربت الأمثال وهناك يقع التأويل. وقد أوضح القرآن الحكيم هذه الأمور بإشارات في وصف المعاد، كما ندلّك عليها في مواضعها. والآن إنما نذكر ما يليق بهذه الجملة. فنقول: إن قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ الآية دل على:

١- على كون الجزاء حقيقة للأعمال.

٢- وعلى تجدُّد نعيم الجنة. وهذان جديران بالذكر.

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ الآية دل على:

٣- حكمة ضرب الأمثال.

٤- وعلى علل الضرر بها.

٥- وعلى أن الله تعالى لا يُضِلّ بالقرآن إلا من استحق له بأعماله.

فهذه خمسة أمور مهمة، ونذكرها واحداً بعد واحد.

الأول: كون رزق الجنة مشابهاً لما كان عليه النفس في الدنيا. فدلّنا على أن الثواب والعذاب كليهما حقائق أعمالنا. أما كون العذاب حقيقة السيئات فقد ذكره القرآن كثيراً، ليدل على أن الله تعالى لا يظلم أحداً، بل هم يحصدون ما زرعوه، فلا لوم إلا عليهم. فكثيراً ما صرّح به القرآن كلَّ التصريح، وأحياناً أشار إليه حيث ذكر العذاب مشابهاً بما كانوا عليه، كما بيّنا في مواضعها. وهاهنا إنما نورد بعض الأمثلة:

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الزمر: ٢٤. أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا

مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ التوبة: ٣٤ - ٣٥. أيضاً: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ طه: ١٥. أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ التحريم: ٧. أيضاً: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ النمل: ٩٠. أيضا: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الجاثية: ٢٨. أيضاً: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ يس: ٥٤. وهذا كثير.

فتبين أنّ جهنم ليست إلا كشفاً لما كانوا عليه في الدنيا، فهم الآن من جهة الحقيقة في النار. قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٥٤ - ٥٥. فبيّن أنّ جهنّم محيطة بهم الآن.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ ﴾ النساء: ١٠. فتأويلُه بأنه سمّى ناراً تسميةَ العلّة باسم الأثر خلافُ النص الصريح من غير حاجة.

وقال تعالى في ذكر قوم نوح عليه السلام: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ نوح: ٢٥. فليس أنهم يدخلونها بل قد دخلوها.

وقال تعالى في ذكر مؤمن آل فرعون: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ غافر: ٤٥ - ٤٦. وذلك بأنّ حقائق الأعمال يبتدئ ظهورها بعد الموت، وإنما يتمُّ الإحساس بها بعد القيامة. فمن الحق الصريح ما جاء في صحاح الأخبار أن القبر حفرة من النار، أو روضة من رياض الجنة[1]. فإنما هو جزء منها لا

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٠) في صفة القيامة. ولفظه: «إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

كلُّها.

وقوله تعالى: ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ غافر: ٤٦ يذكِّرني ما يجرِّب كلُّ امرئ في هذه الحياة حين ينام. فإن النفس في حالة النوم عرضة للانفعال لآثار ما جرى عليها في اليقظة، فحسبما يكون شغله في النهار يرى في الليل من الرؤيا الطيبة أو الخبيثة. فهذا نوع من الكشف. ثم بعد الموت انتباه ثان أوضح مما قبله، ثم يتضح بالكمال يوم القيامة.

وأما كونُ الثواب حقيقة الحسنات، فلكونه فضلاً من الله تعالى وإنعاماً مضاعفاً، لم يحتج إلى إكثار ذكره. ولكنه تعالى لم يتركه أيضاً، فقال في ذكر الذي آمن بالمرسلين من أصحاب القرية: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ يس: ٢٥ - ٢٧. وهذا صريح في أنه دخل الجنة ونال من المغفرة والإكرام ما تمنى أن يعلمه قومه. وذلك بأنّ الموت أول كشف عن حقيقة الأعمال وأول ظهور للذات ثمراتها. ولا شك في أنّ في الأعمال الصالحة لذةً يجدها الصالحون في هذه الحياة، فكلّما رُزقوا في الآخرة من اللذات تذكَّروا ما وجدوه في الدنيا من اللّذات التي وجدوها في الإيمان وأقسام الخيرات، لمشابهةٍ تكون بين كل حسنة وثوابها. ولكن هناك يكون الإحساس أوضح وأطيب.

وأما قلة الإحساس بتلك اللذات وبآلام السيئات في هذه الدار، فلكونها دار الغفلة والغرور، واختلاط الحق بالباطل، والظلمة بالنور، وغلبة المحسوس على المعقول، واستيلاء الشهوات الكثيفة على الرغبات العالية. ولكن دارالآخرة كاشفة. قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الزمر: ٦٩ - ٧٠. وقال تعالى فيما يخاطب به الكافر ذلك اليوم: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ ق: ٢٢. فالكافرون في هذه الدار يتضاعف عماهم حتى يبطل حسُّهم بآلام معاصيهم بل صاروا يلتذّون بالآلام، وهذا غاية تشويه الفطرة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ المطففين: ١٤.

وأما المؤمنون فهم يُحسّون إحساساً صحيحاً بلذة الإيمان والأعمال الصالحة، ولكنهم على درجات متفاوتة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ المجادلة: ١١.

١- فمنهم من اطمأن قلبه بالإيمان وانطفأ عطشه إلى الشهوات.

٢- ومنهم من قوي فيه أثر الإيمان، فوجد لذته، فقوي على التطوع؛ فزادات أعماله الحسنة.

٣- ومنهم من ترقّى، فتبتّل إلى ربّه بجميع همّه؛ فهذا صاحب التجريد كأصحاب الصفة والرهبان.

٤- منهم من تمكن في حاله، فقلبه مشغول بربّه وظاهره مشغول بالناس، كأصحاب الإرشاد على سنّة الرسل؛ وذلك كمال الحال.

فإن شئت شبّهت أصحاب هذه الحالات بالوارد على نهر ماء، ولبن، وخمر، وعسل. وتلك الأحوال تتوارد على قلوب المؤمنين، وتتفاوت فيها درجاتهم من جهة غلبة بعضها على بعض.

فهل ترى كيف انفجر من طهارة النفس هذه الأذواق كأنهار صافية، وكيف خرج من شجر الإيمان ثمرات الأعمال الصالحة والأحوال الطيبة على اختلاف لذّاتها؟

وانظر الآن كيف يطابق ذلك ما ضربه الله مثلاً للجنة وأنهارها، والإيمان وأثمارها، حيث قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن

رَبِّهِمْ ﴾ محمد: ١٥. وحيث قال تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾ إبراهيم: ٢٣ - ٢٥.

فمن شرب من تلك الأنهار وذاق من هذه الأثمار في الدنيا فهو الذي يذوقها في الآخرة، فيتمّ له ما يشتهيه من اللذّة العليا التي لا يمكن التلذذ بها في هذه الحياة الدنيا قبل التزكّي التامّ عن كثافة الشهوات. وكذلك لا يمكن الكشف عنها بالتمام في هذه الدار المظلمة. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ السجدة: ١٧.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما بطرق كثيرة أنه قال: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[١]. ولكن الله تعالى وعدهم بها، ورغّبهم إليها، وعرّفها لهم على سبيل التمثيل. فإنّ الآن ليس للناس سبيل وراء التمثيل إلى إدارك ما في الآخرة كما هو هو، ولا سبيل إلى درك تأويلها في الدنيا.

الثاني: كون نعيم الجنة مع الخلود فيه متجدِّداً يشبه التالي السابق، ولكن يكون أطيب مما قبله. وهذا يدل على أنّ الصلحاء يتزايدون نعمة. ولما كانت النعم حقيقتها رضوان الله والقرب منه ـ وهذا لا نهاية له ـ فهم لا يزالون يتقربون من ربهم، فيزدادون تلذّذاً.

وقد جاء في الخبر الصحيح أن منازل أهل الجنة متفاوتة بعضها فوق بعض[٢]، وقدجاء في القرآن ذكر منه. وقد سبق القول في أنهار الجنة.

---

(١) انظر الطبري ١: ٣٩٢ رقم ٥٣٤ و ٥٣٥.

(٢) انظر مثلاً حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة =

ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ ﴾ الإنسان: ٥ - ٦. ثم ذكر بعد ذلك أعمالهم الحسنة حتى قال: ﴿ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ۝١٨ ﴾ الإنسان: ١٧ - ١٨. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ ﴾ المطففين: ٢٥ - ٢٨. فدلنا على تفاوت درجات النعيم ومنازل المقربين.

وجماع هذه الأوصاف قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ السجدة: ١٧. وهذا قول مطلق، فصريح في أنه لا اطلاع لنفس ـ مع تفاوت معارف العلماء ـ على حقيقة ذلك النعيم. وكلُّ ما كُشِفَ لمن كُشِفَ له فهو في جلباب صورة، وله تأويل كما جرّبنا في الرؤيا الصحيحة.

الثالث: قد بيّنّا أنه لما لم تكن سبيل إلى درك حقائق الآخرة، ولم يكن بدّ من الإخبار بها لأجل الترغيب والترهيب، وجب ذكرها بالأمثال. ثم في ضرب الأمثال فوائد آخر:

١ - أدناها أنّها تجعل الخفيَّ جليًّا، والمعقولَ محسوساً، والمطويَّ منشوراً؛ فيأخذ القلوب بمجامعها. ولذلك كثر الأمثال في كلام الأنبياء والحكماء والبلغاء.

٢ - ثم ربما يحتاج إليها لصيانة بعض الحقائق العالية لكي يفهمها من كان أهلاً لها، وتلتبس على من لم يستحقَّها، كما قال المسيح عليه السلام حين سألته تلاميذه: «لماذا تكلِّمهم بالأمثال» - وكان أكثر كلامه مثلاً ـ فقال: «من له سيعطى ويزداد. وأما من

=

(٣٢٥٦)، وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه. من أجل هذا أكلِّمهم بأمثال. لأنهم ينظرون ولا يبصرون، ويسمعون ولا يفهمون. فقد حقّت عليهم نبوة أشعيا: تسمعون ولا تفهمون، وتنظرون ولا تبصرون» (متى ١٣: ١٢-١٤).

فالأمثال هدى للمؤمنين وضلال للمنكرين. ويشبهه ما جاء في القرآن: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٣. وهكذا جعل الله آياته المشهودة في الأرض والسماء، فإنها بينات للعقلاء ومحجوبات عن الغافلين.

٣- ثم في ضرب الأمثال نوع من الرفق، لما فيه خفاء. فلو صرح ببعض الأمور لكان القول أشدَّ وقعاً، فنفروا وسدّو آذانهم، ولم يؤمن من كان فيه رجاء.

٤- ثم في إخفاء الحقائق عن الآثمين حكمة أخرى، وذلك أنهم لو فهموه لم يقبلوه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنفال: ٢١ - ٢٣. وكما قال المسيح عليه السلام: «ولا تطرحوا درركم قُدّام الخنازير» (متى ٧: ٦). فمن الحكمة أن الله تعالى جعل الآثمين غير فاهمين، ويزيد المتقين نوراً ومعرفة، كما مرّ في قول المسيح عليه السلام، وكما جاء في غير موضع من القرآن.

٥- ثم في ذكر سعادة الآخرة وشقاوتها على طريق الأمثال حكمة بالغة من جهة الترغيب والترهيب. وبيان ذلك أن الناس متفاوتون في تعقّل اللذة والألم، فمنهم من لا يمكنه أن يتصور نعيماً أو بؤساً غير هذه اللذّات الحسية، فلو رغبوا فيما لم يتصوروه لم يرفعوا له رأساً ولم يجدوا له إحساساً. ولذلك ترى الأمم من لدن قوم نوح عليه السلام إلى أمة موسى عليه السلام لم يذكر لهم من الأجر والعقاب إلا ما يقع في هذه

الحياة، حتى جاء المسيح ﷺ فلم يزد في ذكر النعيم غير حضن إبراهيم، والوعد بملكوت الله ـ وكانت اليهود تتمنى ما سلبوا من المملكة الدينية التي كانت لهم ـ ولكن ضرب له أمثالاً كثيرةً، وأكثرها تشير إلى أمر يكون في هذه الحياة. وذكر مرةً واحدةً ما يجري على الصالح والشرِّير بعد الموت، فقال (لوقا ١٦: ١٩-٢٦):

«كان إنسان غني يلبس الأرجوان والبزّ يتنعَّم كل يوم مترفِّهاً. وكان مسكين اسمه لعازر مصاباً بالقروح مطروحاً على باب ذاك الغني. يشتهي أن يأكل من الفُتات الساقط من مائدته بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ومات الغني أيضاً ودفن. فرفع عينيه وهو في الهاوية في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال: يا إبراهيم ارحمني وأرسل لعارز ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم: يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر المصائب. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا هوة عظمية قد أُثبِتت، من أراد العبور من هاهنا إليكم لا يقدر ولا الذين هناك يجتازون إلينا».

ويطابقه ما جاء في القرآن من المحاورة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار. والمقصود هاهنا أنّ المسيح ﷺ لم يعبِّر عن النعيم الأخروي إلا بحضن إبراهيم. ولكنه ذكر النار وعذابها، فمال إلى الترهيب أكثر من الترغيب. ولذلك صار أتباعه رهباناً فقراء مات فيهم جانب الفرح، وكان ذلك أصلح بحالهم لضعف مريرتهم. ولكنه إذا ذكر عذاب الآخرة ترقى درجة واحدة.

ثم جاء القرآن بالتمام وكمال البيان. فترقى **أولاً** بأنه لم يذكر إلا ما يقع بعد الموت، فعلَّمهم أن يُصلحوا أعمالهم لالطمع دنياوي بل ليعملوا للآخرة، واقتناء قرب الربِّ ورضوانه. **وثانياً** بأنه كما ذكر العذاب وبيّنه، فكذالك ذكر النعيم وعرّفه. **وثالثاً**

بأنه جاء بكمال التفصيل لكليهما، فلم يترك شيئاً من أنواع اللذة والألم إلا ذكرها. فكشف عن حقيقة غامضة. فإنّ كل ما أودعت النفس من الإحساسات لا بدّ أن يخرج ويتمّ. **ورابعاً** بأنّه كلما ذكر الجنة ذكر النار وبالعكس، فراعى بغاية المساواة جانبي الرغبة والرهبة.

وذكرنا هذه المزايا لاقتضاء المحل. فلنرجع إلى عمود الكلام وهو أنّ الله تعالى إنما ضرب لنا أمثالاً لحقائق الأعمال ليتمّ التبليغ. فلو لم يعرِّفها للناس لم يتأثر لها أوساطهم، لما يكبر عليهم ترك اللذّات لغير لذة، فأكثَرَ من ذكرها وذكر العذاب المفهوم لهم. وأما عقلاء الناس فأشار لهم بإشارات كثيرة حتى صرّح بأنّ ما هنالك لا يدرك كنهه في هذه الحياة. فصرّح لأهل الظواهر، وأشار لأهل الاستنباط، وهذا هو الأنسب. وعلى هذا الأصل جاء أمور في القرآن، فقال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ الفجر: ٥. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾ آل عمران: ١٣، النور: ٤٤. وهذا كثير. فجمع بين أمرين: تصريح وتلويح هذا لأهله وذاك لأهله. وهذا مبسوط في موضعه.

وإنما المقصود هاهنا أن القرآن ضرب للدار الآخرة أمثالاً يتبين منها نعيمها وبؤسها، فالمؤمنون ينتفعون بها، وأما الكافرون فهي عثرة لهم. فتارة يتحيرون منها، فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ وتارة يكذِّبونها لخفاء تأويلها، كما اعترفوا على كون الشجرة في النار وعلى عدد الملائكة. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يونس: ٣٩.

فإن قيل: كيف العلم بأنّ كل ما ذكر من وصف الجنة والنار فهي أمثال، وقد جاء كثيراً على غير سبيل التمثيل مع تفصيل أحوالها؟ قلنا: إن الجنة والنار عبارة عن النعيم والبؤس، والفوز والخسران، وقد عرفت العرب ذلك. قال عدي بن زيد:

أعاذلُ من تُكْتَبْ له النارُ يَلقَهَا ... كِفَاحاً وَمَن يُكتب له الفوز يَسْعدِ[1]

وأما تفصيلهما فاعلم أن العرب مولعون بتفصيل المشبَّه به فكثُر في كلامهم، وهكذا تجد اليونانيين يأتون بتفصيل ما يشبِّهون به. فعلى هذا الأسلوب لما ضرب الله الجنة والنار مثلين فصَّل من أحوالهما ما يجعلهما مصوَّراً منشوراً، لكي يتم أثر المثل من الترغيب والترهيب.

وفي القرآن كثير من الأمثال من غير التصريح بأنها مثل. فسمى التوحيد صراطاً مستقيماً، والقرآن نوراً، والنبيَّ سراجاً منيراً، وغير ذلك.

ثم قد جاء في الكتاب السابقة مثل السعادة والشقاوة الأخروية شبيهاً بما جاء في القرآن، غير أنّ القرآن أكثر له ذكراً، وأوضح بياناً، وأتم تفصيلاً. ففي كتاب أمثال سليمان عليه السلام (٩: ١-٥): «الحكمة بنت بيتها. نحتت أعمدتها السبعة. ذبحت ذبحها مزجت خمرها. ثم رتبت مائدتها. وأرسلت جواريها تنادي على ظهور أعالي المدينة: من هو جاهل فليمل إلى هاهنا، والناقص الفهم قالت له : هلموا كلوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتها».

وقال المسيح عليه السلام (مرقس ٩: ٤٧-٤٨): «وإن أعثرتك عينك فاقلعها. خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح في جهنم النار. حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ». وهذا كثير في الإنجيل.

ثم هذه الأمثال أصحُّ تعبيراً عما حكي عنه، فنصدِّق بها كلَّ التصديق كما قلنا فيما سبق.

---

(١) ديوانه: ١٠٣ وجمهرة أشعار العرب: ٤٩٨.

الرابع: أنّ الله تعالى بيّن هاهنا من وصف القرآن أنه مع كونه هدىً لا يهتدي به الفاسق الناقض العهد، القاطع الرحم، المفسد في الأرض. فدلَّ على جماع أسباب الضلالة، ودلَّ على تفاصيل الفسق. فأوله: الشرك، والثاني: قطع الرحم، والثالث: الفساد في الأرض. فالشرك منبع الباقين. وهذا الوصف للقرآن ولجميع ما أنزل مذكور كثيراً في القرآن وكتب الأنبياء. وإنما نسب الهداية والإضلال إلى نفسه بياناً لسنته الجارية على قاعدة العدل، كما بينّا في تفسير الآية السادسة ومواضع أخر، فلا حاجة إلى تفصيله.

الخامس: أنّ ضلالة العبد وإن كانت من الله ـ فإن كل شيء منه تعالى ـ ولكنها منوطة بأعمال العبد. وليس أنّ الله تعالى قد أضلَّهم من قبل من غير أن يستحقُّوها بأعمالهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الآية في غاية الصراحة بهذا الأمر. وقد بسطنا القول فيه في مواضع، فلا حاجة إلى إطالة القول فيه ههنا. فانظر كيف جمعت هذه الجملة من المطالب المهمة.

(٣٩)

نظم هذه الجملة

اعلم أنّ هذه الجملة بتمامها معترضة وضعت بين الخطابين إلى الناس على سبيل الالتفات إلى المؤمنين بحسب المعنى كما مرّ. والالتفات حُسنه: الدلالة على أمر مهمّ، وقد بينّا ذلك؛ وقد جاء إتماماً ورعايةً لجمع الترغيب بالترهيب، فحسن موقعه من وجوه.

فلما أتم الكلام بذكر جانبي الدعوة والحثِّ من الخوف والطمع عاد إلى الخطاب الأول، وقد أثبت فيه التوحيد والرسالة. ولشدة إنكارهم بالمعاد ذكره عرضاً، وأخّر ذكره. فلما فرغ من الأمرين أثبت المعاد بطريق يدلُّ على كون الإنكار به

كفراً بالله تعالى، وجعل الدليل على المعاد هوالدليل على إثبات الباري تعالى، فقال عز من قائل حكيم:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ البقرة: ٢٨ - ٢٩.

(٤٠)

تفسير الكلم التي في هذه الجملة

﴿أَمْوَٰتًا﴾ جمع مَيْت، مخفف ميِّت. وأصله: مَيْوِت، مثل سيِّد.

﴿اسْتَوَىٰٓ﴾ قام مستقيماً. وصلته بـ(إلى) دلالة على تضمُّنه معنى توجَّهَ.

﴿السَّمَآءِ﴾ من سما يسمو من السمو، وهو العلو. قال امرؤ القيس:

سَمَوتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سُمُوَّ حَبَابِ الماء حالاً على حالِ[1]

ويؤنث، وقد يذكر. قال تعالى: ﴿السَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ المزمل: ١٨ لإرادة النوع على نحو أسماء توحد بالتاء، كالتمر والبقر.

﴿سَوَّى﴾ الشيء: جعله مستقيماً على اعتدال حاله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الحجر: ٢٩، ص: ٧٢. وأيضاً: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ الانفطار: ٧.

---

(١) ديوانه: ٣١.

(٤١)

تأليف الكلم

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام للإنكار والتعجب.

﴿وَكُنتُمْ﴾ وقع حالاً. أي ما أبعد كفركم بالله مع أنكم كنتم أمواتاً، فأحياكم! وهو أمر ظاهر.

﴿سَبْعَ سَمَوَٰتٍ﴾ حال. كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ مريم: ١٧، فهي حال متعاقبة.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ عطف على أول الجملة. أي هو الذي خلق لكم هذه، وهو بكل شيء عليم.

(٤٢)

نظرة من جهة البلاغة

جاء بأسلوب الاستفهام والتعجب، لكون كفرهم بالله في غاية الاستبعاد. وليس سَوق الكلام لإثبات الخالق، فإنهم لم ينكروا به. ولكنه إلزام الكفر عليهم بشركهم وإنكارهم بأمره، وملكه، ورجوعهم إليه. فأثبت التوحيد والمعاد والنبوة على طريق إبطال الكفر.

١- فبدأ الكلام بالإنكار على الكفر بالله مع ظهور أفعاله.

٢- ثم ضمَّ به ما يستنبط منه من إبطال الشك في المعاد. فإن من أحيا أولاً فكيف ينكر إحياؤه ثانياً؟ ومن هو المبدأ لا يسوغ الإنكار بكونه مرجعاً. فلم يذكر هذا الردَّ عليهم مستقلًّا لكيلا ينفروا.

٣- ثم أكَّد ذلك بما ذكر متصلاً به من نعمته عليهم، وضمَّنه ذِكر صفة خلقه

وقدرته.

٤- ثم أكَّد ذلك بما يثبت منه، وهو وصف العلم المطلق؛ فإنّ الخالق لا بد أن يكون عالماً وهذا من البداهة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الملك: ١٤. فأدرج في ذلك دليلاً على المعاد. فإن الذي خلقكم وأنعم عليكم وأحاطت بكم قدرته ويعلم ما تفعلون، فكيف يترككم سدىً ولا يجازيكم؟ فلا بدَّ أنكم ترجعون إليه، فوجب أن تشكروه ولا تكفروا به. فانظر كيف أتى عليهم من ألطف طرق الحجة!

واعلم أنَّ موقع هذه الجملة التي ابتدأت باستفهام التعجب موقع الاستمالة وتليين الكلام لا موقع الزجر، فإنّ مساق البيان ذكر النعم. وعلى ما قلنا يشهد ما حكى الله تعالى عن دعوة نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ نوح: ١٠ - ٢٠.

فهل ترى هذا القول كيف عدَّ النعم، ودعاهم إلى المغفرة، واستفهم فيه مرتين، وعليه طلاوة الاستمالة؟ وقد بدأ الخطاب بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ نوح: ٢ - ٤. وهذا كلام ليِّن الجوانب، ورقيق الحواشي؛ فكذلك هاهنا خاطبهم بلين الخطاب.

(٤٣)

تأويل الجمل

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ جامع لمعنيين: أي كيف تنكرون بالله،

وكيف تجحدون بنعمته؟ ولكونه جامعاً أتبعه ما يوافقه من كلتا الجهتين. فذكر أولاً ما يدل على إثبات الخالق، وثانياً ما يبيّن نعمته العظمى. والجحود بالنعمة يتضمن الشرك، والعصيان لما أنزل من الحكم، أي التوحيد والرسالة.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ جامع لمعنيين: أي لم يكن لكم حياة ولا وجود، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ مريم: ٩. وأيضاً كنتم قد سلبتم الحياة أولاً فصرتم أمواتاً فأحياكم في هذه الدنيا بعد الميتة الأولى، كما قال تعالى حكايةً عن اعتراف الكفار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ غافر: ١١.

ولا شك أنّ الإنسان كان حيًّا قبل هذه الحياة، وقد جاء في القرآن ذكر إخراج ذرية آدم وإشهادهم على ربوبية الله تعالى. فكلمة ﴿أَمْوَاتًا﴾ جامعة صادقة في المعنيين، وللمخاطب أن يأخذها حسبما علم. وإلى كلا التأويلين ذهب بعض السلف.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أي بعد ما خلق الأرض قام متوجِّهاً إلى تسوية السماء. ولما كانت السماء فوق الأرض صور توجُّه الربِّ إلى تسويتها بهذه العبارة. وهذا أسلوب من البيان لتصوير الأمور. وليس المراد منه أن الله تعالى نزل وقعد، ثم قام وصعد، وهذا كثير. قال تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ النحل: ٢٦. أيضاً: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ الحشر: ٢. وإنما المعنى: أن أتى أمر الله، ولكن صور الفعل بتصوير الفاعل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ المائدة: ٦٤. فنبّه على ما أراد ببسط اليد.

(٤٤)

بيان طريق الاستدلال

اعلم أنّ هذه الجملة جامعة للدليل على إثبات الخالق، والمعاد، وإبطال الشرك، وإيجاب الطاعة. فهذه أربعة مطالب.

أما الأول، فبما يعلم الإنسان من حالة نفسه وما يعلم مما حوله وتحته وفوقه، فإلى أي وجه يتوجَّه يرى آثاراً لا بدَّ لها من مؤثّر في غاية القدرة والحكمة. ومن البديهي أنّ لكل أثر حادث مؤثراً يليق به. فأول دليل وأقربه إليه هو نفسه، فإنه يعلم أنه حي عاقل سميع بصير، وأنه لم يكن كذلك من قبل، بل يشاهد أنّ هذه الصفات حصلت له بالتدريج، ويعلم أن الميت لا يعطي الحياة نفسه، فمن أين جاءته هذه الصفات؟ فهذا أول دليل على معطٍ حيٍّ قادرٍ.

ثم يرى الإنسان ماحوله من الآثار، وما تحته من الأرض، وما فوقه من السماء، مع عجائب ما فيها وما بينهما = ويرى كلَّها مسخّرةً مجراةً على قدرٍ معلومٍ، لا شاهد على كونها مريداً، بل هذا الإنسان ـ الحيُّ بعد موته، الميِّتُ بعد حياته ـ هو المريد المتصرف فيما حوله، والأفضل على الجميع. فلا يمكنه أن ينسب حياته وفضيلته إلى أحد من هذه المخلوقات المذلَّلة المسخَّرة له. فهذا دليل ثانٍ على أن لها خالقاً مدبِّراً، فكيف ينكر به مع غاية ظهور أفعاله؟

أما الثاني ـ وهو إثبات المعاد ـ فقد ذكرناه تحت عنوان البلاغة. والآن نذكر له الشواهد من القرآن... (٢).

تذكرة

نذكر في هذا الفصل الشواهد على ما استنبطناه من الدلائل. فمنها قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ لقمان: ١٠ - ١١.

(٢) بياض في الأصل.

وأما الثالث ـ وهو إبطال الشرك ـ فبقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ الآية. وبيانه أن الله الذي أعطاكم الحياة ويسلبها هو الذي خلق كل شيء. فإنّ الذي خلقكم خلق لنفعكم كلَّ ماترون، فلو كان خالق هذه الأشياء غير خالقكم لم تكن هذه الموافقة والمطابقة بين الخلائق. فإن كل شيء مربوط بحبل واحد في غاية التوافق حتى كأنه شيء واحد، وخلق متَّسق. فالظنُّ بتعدد الخالق لا برهان عليه، بل البرهان على خلافه، كما بيّن الله ذلك حيث قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٢٢. فالدليل على الخالق الواحد ظاهر لا شبهة فيه، وفرضُ إلهٍ آخرَ سواه ظاهرُ الفساد، لتلاؤم الخلق وجريانها على غاية الحكمة. ولما ذكر نعمته، أبطلَ الشركَ من جهة كونه كفراناً بالنعمة، كما مرّ.

وأما الرابع ـ وهو تقبيح الفسق ـ فبما يستنبط من دليل المعاد،

١ – فإنه إذا علم كلَّ ما تفعلونه، فلا بدّ من طاعتكم لحكمه.

٢ – وأيضاً عظمُ نعمته عليكم يُوجب عليكم شكرَه، فلا بدّ أن تطيعوه لأداء ماوجب عليكم.

٣ – ولنفعكم فإنه حكيم، ويحكم بالحق والخير، فمن أطاع فلنفسه. وصرّح به القرآن كثيراً.

(٤٥)

نظم هذه الجملة

قد مرّ أنّ هذه الجملة عود إلى الخطاب السابق بعد إيراد الجملة المعترضة. فكأنه قيل: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم، ولا تشركوا به، وكيف تكفرون به وهو الذي أحياكم وأنعم عليكم وإليه رجوعكم؟

وقد ذكرنا أن هذه الجملة تضمنت أربعة مطالب، وآخرها إيجاب الطاعة

عليهم. فهي كالنتيجة بعد الاعتقاد بالله وإنعامه والرجوع إليه، وكالتمهيد لإثبات النبوة. فإنّ من تبيّن له وجوب الطاعة لربِّه لا بد أن يلتمس أحكامه وشرائعه. ثم الإنسان مدني بالطبع ويترقى بالتعليم والتعاون، ولذلك لا بد له من حاكم يجمعهم على قاعدة العدل، فيعيشوا بالسلم ويعين بعضهم بعضا.

فذكر الله تعالى بعد ذلك ما يهدي إلى حكمة الحكومة ولزومها، ويبين شناعة العصيان الذي هو من باب الكفر وجحود النعمة. وأورد قصة آدم هاهنا من طريق قريب، لما ذكر قبلها من خلقه الأرض والسماء، فالتأمت واتسقت بما سبقها من وجوه شتى. فقال عز من قائل حكيم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
(٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا
ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ
عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ
(٣٩)﴾.

(٤٦)

تفسير الكلم

﴿وَإِذْ﴾ كثيراً ما تفتتح القصص في القرآن بكلمة «إذ»، كما سيأتيك لها أمثلة في هذه السورة. وهي كلمة ظرف، ولا بد لها مما تتعلق به، وإذ هو مفهوم يكثر حذفه. فكأنه قيل: واذكر الحديث الذي وقع إذ قال ربك ـ الآية، كما ترى في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ مريم: ١٦. ثم بعده: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ مريم: ٤١ - ٤٢. وأيضاً: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ طه: ٩ - ١٠. وهذا كثير.

وإذ يكون المراد إيراد ما وقع من الأمر في ذلك الظرف، فتكرار «إذ» مع الواو لا يدل على تعدد الظرف، وإنما يدل على الأمر الذي وقع في ذلك الظرف.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع مَلَك. أصله: ملأك، ومعناه: الرسول. وخُصَّ بالروحانيين من رسل الله تعالى. وجمع المَلَك: ملائك وملائكة، مثل أشاعث وأشاعثة. وإنما سموا ملائكة لكونهم رسلاً من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ فاطر: ١ الآية. أيضاً: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ الأنعام: ٦١. وهكذا سُمُّوا في الفارسية «فِرِشْته»، وفي اليونانية: «انجلوس» أي الرسول. قال رجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك:

فَلَسْتَ بإنسيٍّ ولكنَّ ملأكاً　　تحدَّرَ من جَوِّ السَّماء يصوبُ[1]

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٣٣، ٣٥، وانظر الصحاح واللسان (ملك، صوب).

وقال عدي بن زيد:

أبلغِ النعمانَ عنّي ملأكـاً إنه قد طال حبسي وانتظاري[١]

والألوك: الرسالة. أصلها: ألؤوك على أفعول. قال لبيد بن ربيعة:

وغلامٍ أرسلَتْه أمُّـه بألوكٍ فبذلنا ما سألْ[٢]

وألأك: بلغ الرسالة. قال النابغة الذبياني:

ألِكْني يا عُيَينُ إليك قولاً سأهديه إليك، إليك عَنِّي[٣]

﴿خَلِيفَةً﴾ فعيلة، من خلف فلان فلاناً: أي قام بعده بأمره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ الأعراف: ١٤٢. وهذا القائم هو الخليفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يونس: ١٣ - ١٤. وأيضاً في ذكر نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يونس: ٧٣.

قال الحماسي[٤]:

بئس الخلائفُ بعدَنا أولادُ يشكر واللِّقاحُ[٥]

---

(١) ديوانه: ٩٣.

(٢) ديوانه: ١٢٣

(٣) ديوانه: ١٢٦.

(٤) هو سعد بن مالك جد طرفة بن العبد، كما ذكر التبريزي.

(٥) شرح الحماسة للمزوقي: ٥٠٥.

فهذا هو المعنى. واختلفوا في تأويله، كما سيأتيك.

﴿نُسَبِّحُ﴾ نصلّي ونعبد. والأصل: التمدد على الوجه. ومنه السِّباحة للعوم، ومنه سَبَح الفرس في جريه، ومنه السعي والتقلب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ المزمل: ٧. وإنما سميت الصلاة سُبحةً وتسبيحاً لما يمتد المصلي على وجهه في السجدة. ومنه قوله تعالى حكاية عن قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ الصافات: ١٦٥ - ١٦٦. أي قائمون وساجدون.

﴿وَنُقَدِّسُ﴾ من القدس، وهو الطهور. وقدَّسه: جعله طاهراً. وأيضاً ذكر واعترف بكونه ذا تقدس. فالتقديس مثل التحميد.

﴿ءَادَمَ﴾ أصله: أأدم، وهو أفعَلُ من الأُدْمَة وهي السُّمْرَة في الإنسان، والبياض الشديد في الإبل. يقال: بعير آدم وناقة أدماء. وإنما سمى أبو البشر آدم عليه السلام للونه، كما سميت الحواء عليها السلام من الحُوَّة، وهي لون أميل إلى السواد. وهذان الاسمان يوجدان في العبرانية بتغيير يسير. والعربية أحفظ وأقرب إلى الأصل إن لم تكن هي الأصل.

﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾:

١ - ما أعظمَكَ، كما جاء في القرآن كثيراً، مثلاً: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ الصافات: ١٨٠. ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾ القصص: ٦٨. فهذا قريب من الإخبار.

٢ - وربما يجيء للدعاء، كما قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ يونس: ١٠. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ الأعراف: ١٤٣. وبهذا المعنى يقدَّم قبل التوبة.

٣- وأيضا لإنشاء الأمر، كما هو الشائع في المصادر، إذ يقدر الأمر قبله، كما

قال[١]:

فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمُستطَاع[٢]

وكما في القرآن: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ البقرة: ٢٨٥.فربما يجيء «سبحانك» بهذا المعنى. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ الروم: ١٧.

وأيضا يأتي للإنكار مع الاستعجاب. ومنه قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ النور: ١٦. أيضا: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ النحل: ٥٧.

واختص بالإضافة إلى الله تعالى. وإضافته مطردة إلا نادرا. كما قال أمية بن أبي الصلت:

سبحانه ثم سبحاناً يعود له وقبلنا سبَّح الجوديُّ والجُمُد[٣]

وهو أراد الإضافة. وهكذا الأعشى حذف المضاف إليه ولكنه أراد حيث قال:

سبحانَ مِنْ علقمةَ الفاخرِ[٤]

---

(١) القائل هو قطري بن الفجاءة المازني من رؤساء الخوارج، قتل سنة ٧٧هـ.

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١: ٥٠.

(٣) المخصص ١٤: ٨٦.

(٤) صدره:

أقولُ لما جاءني فَخرُه

البيت من قصيدة له يهجو بها علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما. انظر =

﴿أنبأ﴾ أخبر. والنبأ: وما يخبر عنه، كما قال ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ النبأ: ١ - ٢.

﴿إِبْلِيسَ﴾ إفعيل، من أبْلَسَ: انكسر، وحزن، ويئس. قال الراجز[1]:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسا قَالَ: نَعَمْ، أَعْرِفُه! وَأَبْلَسَا[2]

وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ الأنعام: ٤٤.

﴿رَغَدًا﴾ عيشةٌ رغدٌ: واسعة طيبة. أرغد القوم: أخصبوا. قال امرؤ القيس:

بَيْنَما المَرْءُ تَراه نَاعِما يَأمَنُ الأَحْدَاثَ في عيشٍ رَغَدْ[3]

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ هو النفع والانتفاع. ومنه: لكل ما ينتفع به. ومنه: للسلعة. وعلى كل هذه الوجوه جاء في القرآن، مثلاً قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هود: ٣. وأيضا: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ القصص: ٦١. وأيضاً: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ البقرة: ٣٦، الأعراف: ٢٤. وأيضاً: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ يوسف: ١٧. وأيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الأحزاب: ٥٣. وأيضاً: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ﴾ يوسف: ٦٥.

﴿تَابَ﴾ رجع. وصلته بـ«على» لتضمنه معنى رحِمَ.

﴿بآياتنا﴾ قال الجوهري: «الآية: العلامة. والأصل أَوَيَةٌ بالتحريك». وروى

=

ديوانه: ١٧٩.

(١) وهو العجاج.

(٢) انظر اللسان (بلس)، (كرس).

(٣) تفسير الطبري١: ٥١٥.

الجوهري عن أبي عمرو قوله:

«خرج القوم بآياتهم: أي بجماعتهم لم يدعوا وراءهم شيئا. ومعنى الآية من كتاب الله تعالى: جماعة حروف». وأنشد لبُرْج بن مُسْهِر الطائي:

خرجنا من النَّقبين لاحيَّ مثلُنا بآياتنا نُزجي اللِّقاحَ المطافلا»[(١)]

أقول: لا دلالة في البيت على ما زعم، لعله أراد: بأعلامنا وشعارنا.

وقال الجوهري: «آية الرجل شخصه. تقول منه: تآييته على تَفَاعَلْتُه، وتَأَيَّيْتُه على تَفَعَّلْتُه، إذا قصدت آيتَه وتَعَمَّدْتَه. قالت امرأة لابنتها:

الحُصْنُ أَدْنَى لَو تَأَيَّـيْتِـهِ مِن حَثْيِكِ التُّرْبَ عَلى الراكِبِ»[(٢)]

أقول: لا دلالة في البيت على ما زعم، لعلها أرادت: أخذته موضع التوقف. فإنَّ التأيي بمعنى التوقف معلوم. يقال: هذا ليس بمنزل تئيّة: أي تلبث.

(٤٧)

التأليف

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ متعلق بفعل مقدر، والعطف هاهنا على معنى مفهوم مما سبق من ذكر نعم الله. أي اسألهم كيف تكفرون بالله؟ واتل عليهم قصة آدم التي وقعت إذ قال ربك للملائكة. وجملة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ حال.

قوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الألف واللام للدلالة على العهد، أي أسماء

---

(١) الصحاح (أيا).

(٢) المصدر السابق.

الذين قال فيهم الملائكة أنهم يفسدون، كما سنبينه. وأوضح ذلك بما بعده من قوله تعالى: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ و﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إنشاء لإظهار التعظيم لله، والإنكار عما تورطوا فيه من إظهار علمهم واستحقاقهم.

قوله تعالى: ﴿رَغَدًا﴾ أي أكلاً رغداً.

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ظرف لفعل«كُلا»،كما جاء في سورة الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا﴾ جواب للنهي المقدم.

قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال متعاقبة.

(٤٨)

نظرة من جهة البلاغة

لا يخفى أن في قول الملائكة رعاية الأدب من قبل أنهم لم يقولوا: لا تجعل آدم وذريته خلائف في الأرض، بل دبِّر الأمور بالملائكة. ثم لم يذكروا لأنفسهم إلا ما فيه ذكر كمال تذللهم، وطاعتهم، وحمد الرب، وتقديسه.وفيما ذكر من وصف ذرية آدم ووصف الملائكة مقابلة، فإن الإفساد في الأرض هو التعدي لحدود الله، وسفك الدماء تدنيس الأرض. والتسبيح في الأصل هو: السجود وإظهار التخشع، والتقديس، إظهار التنزيه.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مجمل. ثم بعد ما بيَّن عدم اطلاع الملائكة على مزية بني آدم، أعاد ذلك المعنى مفصلا.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴾ الآية فيه ذكر مزية أفضل مما قبل. فالكلام في ذكر النعمة بلغ النهاية.

جاء قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ ﴾ مرتين. فالأولى كان بعد الزلَّة، فذكر عاقبتها؛ والثاني بعد التوبة، فجاء تسليةً وبياناً لحكمة هذا الابتلاء. فإن الله تعالى يفرق به بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يرجعون إلى الجنة والكافرون هم الذين يخسرون. وجاء هذان الخطابان على هذا الترتيب في سورة الأعراف، ولكن قدّم فيها ذكر التوبة لحكمة خاصة نبيّنها هناك، ولكل موضع ترتيب يقتضيه. ونذكر ما يليق بهذا المقام في فصل التأويل.

قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ الآية وعدٌ بالرسالة. فانظر كيف رجع الكلام إلى إثبات النبوة الذي هو عمود هذا البيان، وكيف وصله بقصة الخلافة والوعد الأول، فألزم الطاعة لها على جميع بني آدم.

وهذه الآيات كلها لما كانت مشتملة على قصة لم تعرفها العرب، وكان الخطاب السابق إلى المشركين خاصة، خاطب بها النبي وحده، ولم يُلقها عليهم كما ألقى ما قبلها، ولكن وصلها بما قبلها بمناسبة أمر جامع، وهو ذكر نعم الله على جميع بني آدم. فتدرَّج مما علموا إلى ما لم يعلموا، وأتمَّ الحجة وأكمَلَ البيان.

(٤٩)

تأويل أجزاء الكلام

١ -قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ معناه: واتل عليهم يا محمد قصة آدم التي وقعت، وكذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾. والخطاب عام إلى الناس: اليهود والمشركين.

وروي في تأويل الخليفة قولان:

الأول: أنه الخليفة من الرب تعالى بمعنى النائب الحاكم[(١)]. ويؤيده أن الله تعالى شأنه خلق ما في الأرض جميعا لبني آدم، ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً له، وصار الإنسان حاملاً لأمانة الرب تعالى التي لم تحملها السماوات والأرض. ونرى أن الله تعالى جعل الإنسان حاكماً على الأرض، فلا استبعاد في أنه تعالى جعل خليفته.

والقول الثاني: أنه الخليفة ممن قبله. وقالوا: إن الأرض كانت تعمرها الجن قبل آدم، فعصوا الله، فسلبهم الله الحكومة، وجعل بني آدم خلفاء في الأرض[(٢)]. ويؤيده ما جاء في القرآن من جعل الله الأقوام خلفاء بعد مَن أهلكهم، كما مر. وأن الله تعالى لم يزل ولا يزال حاكماً قاضياً، فهل غاب وذهب حتى يكون أحد خليفة له؟ إنما هو خليفة لمن قبله.

ولكن القرآن لم يخبرنا عن ساكني الأرض وعامريها قبل آدم، ولا التوراة، ولا حديث يوثق به، غير إشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ الحجر: ٢٦ - ٢٧. فلا يبعد أن كان التدبير في أيدي الجن. وقد علمنا أنّ تكوُّنَ الأرض بهذه البرودة حدث بعد كونها ناراً، فيذهب الظن إلى تعاقب خلق النفوس المدبرة حسب ترتيب الأصول. وهذا يسوق الظن إلى أن التدبير نزل من الألطف مادةإلى ما كان دونها حسب ظهور كل مادة على ترتيبها. فحينما خلق الله النار دبّرها بالجنّ، ولما خلق الأرض دبّرها بالإنسان.

ولكن هذه الظنون أولى بالفلسفة وتوهماتها، فلنتركها ولنرجع إلى العمود.

---

(١) وهو قول الحسن البصري، وابن سابط، وابن زيد، وقتادة. انظر الطبري ١:٤٥١ و٤٦٣ و٤٦٤. رقم ٦٠٣ و٦٠٤ و٦٠٨، ٦٠٩ و٦١١.

(٢) وهو قول ابن عباس والربيع بن أنس. انظر الطبري١: ٤٥٠ و٤٥١. رقم ٦٠١ و٦٠٢. وابن كثير ١:٦٨.

فنقول: لا شك أن في كلمة الخليفة معنى القيام بالأمور بعد من كان قبله يقوم بالأمر، كما مر ذكره. ولكن الكلمة ربما تجرد عن بعض معانيه، فإن لم نقل إن الإنسان صار خلفاً لله تعالى، فهلا يمكن أن نقول إنه صار ملكاً على الأرض من عند الله تعالى متصرفاً على الأرض كالحكام الصغار تحت ملك عظيم، يرضى عنهم إن أحسنوا، ويسخط عليهم إن أساؤوا. والقرآن لم يسم آدم ولا الإنسان ولا الأنبياء خليفة الله، فلا ينبغي لنا أن نسمّي أحداً خليفة الله. وبذلك نأخذ مسلكاً وسطاً.

٢ -قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾. روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن المراد أسماء كل شيء، وعن الربيع: أسماء الملائكة، وعن ابن زيد: أسماء ذريته[1]. وظاهر الكلام خلاف الأول، لقوله تعالى: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ودلالة في الكلام على الرأي الثاني. وأما قول ابن زيد فهو الأقرب، لأن الملائكة أخبروا عن بني آدم أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهذا عامة أحوال الناس. ولا شك أن الملائكة لم يقولوا إلا ما علموه، وإن لم نعلم كيف اطلعوا عليه. ولا شك أنهم لم يعلموا إلا قليلاً حسبما أطلعهم الله، كما أقرُّوا بذلك. ثم لما بدا عدم اطلاعهم على أسماء هؤلاء أنبأهم آدم عليه السلام بما لم يطلعوا عليه. وموقع الكلام إتمام الحجة على الملائكة، والحجة تصير إذا أنبأهم بالغة بمن في ذريته من خيار عباد الله. فنجد في الكلام دلالة من وجوه شتى على أن المراد بالأسماء هي أسماء ذرية آدم، وقد أخبر القرآن أن الله أخرجهم وأشهدهم على الربوبية.

٣ -قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي فيما أشرتم إليه وأخبرتم به من

---

١ انظر تفسير الطبري ١: ٤٨٢- ٤٨٥. رقم ٦٤٦، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٩، ٦٦٠

أن بني آدم إنما يفسدون في الأرض، فكيف يستحقون الخلافة؟ والمراد منه ما بينه الله بعد ذلك من أن علمكم لم يحط بما فيهم من الخيرات ـ وفي عدم علمهم بأسمائهم دلالة على عدم علمهم بجميع صفاتهم ـ فإن لم تستطيعوا أن تنبئوا بأسمائهم فلستم بصادقين فيما زعمتم من وصف بني آدم بأنهم يفسدون ولا يصلحون.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾. فهذا قول جامع محيط، أي أعلم ما تعلمون وما لا تعلمون. والمراد من غيب السماوات والأرض: كل ما هو مصون لم يطلعوا عليه. والمراد من ﴿مَا تُبْدُونَ﴾: ما صرحوا به من وصف الإنسان وأنفسهم، ومن ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: ما أشاروا من عدم استحقاق الإنسان الخلافة، واسحقاق الملائكة إياها. وإنما أطلق الكلام ليخفّف وقع الرد عليهم.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ كلام محكم. وجاء تفصيله في موضع آخر، حيث قال تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ ص: ٧٤ - ٧٦. وأيضاً: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ الكهف: ٥٠. فتبين أن استكباره كان من ظنه بأنه خير من آدم. وأما كفره فمن وجوه:

الأول: أنه جحد بنعمة الرب ولم يشكره، حيث لم يعترف بأن الذي خلقه من نار ـ وهي أفضل في زعمه من طين ـ فهو الذي أمره بالسجدة، فكيف يخالف من أنعم عليه.

والثاني: أنه عصى ربه، كما قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ الكهف: ٥٠.

والثالث: أنه خاصم ربه.

وقوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ دل على هذه الوجوه.

٦ ــقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ يدل على أن الشجرة المنهي عنها قد عرَّفها الله لهما، فأشار إليهما. واختلف الناس في تعيينها، فروي عن ابن عباس: هي السنبلة، وأيضاً: هي البر، وأيضاً هي الكرمة[1]. وعن بعض أصحاب النبي ﷺ هي التين[2].

وفي التوراة: «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»[3].

وما أحسن ما قال ابن جرير رحمه الله بعد سرد الروايات: «ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة، فأنَّى يأتي ذلك من أتى؟»[4].

والظاهر أنه لا حاجة بنا إلى معرفة ذلك، ولا معول على ما رووا فيه.

وجاء في القرآن حكاية عن قول إبليس لآدم عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ طه: ١٢٠. فهذا دليل على أنها شجرة الحياة، ولكن إبليس غرَّهم، كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ الأعراف: ٢٢. ولا دليل في ذلك على أن الشجرة كانت شجرة المعرفة، فإن الأقرب أن ظهور

---

(١) انظر الطبري١: ٥١٧- ٥١٩. رقم ٧١٨، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٣٠، ٧٣١.

(٢) المرجع السابق١: ٥٢٠، رقم ٧٤٠.

(٣) التكوين٢: ١٧.

(٤) الطبري ١: ٥٢١.

السوآت كانت لزلتهما. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ البقرة: ٣٥.

٧ - **قوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾**. روي عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره أن المراد به آدم، وحواء ، وإبليس، والحية[1]. وعن ابن زيد قال: «لهما ولذريتهما»[2]. وهذا هو الصحيح، فإن خطاب «اهبطوا» كان لآدم وزوجته، كما جاء في سورة طه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ طه: ١٢٣. وأيضاً حين أعاد هذا الخطاب قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٣٨. والظاهر أن هذا الخطاب لا يليق بإبليس، وإنما جاء بصيغة الجميع للنظر إلى جميع بني آدم. فإن الله تعالى أخرج ذرية آدم حين أشهدهم، فهم كانوا مع آدم، فخاطب آدم وحواء خطاباً يشمل ذريتهما،وقد سبق ذكرهم قبيل ذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ الآية، كما بيناه.

٨ -**قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ ﴾** يدل على أن الله تعالى أوحى إلى آدم عليه السلام كلام التوبة، وهذا هو سنة الله. فإن الإنسان إذا زلَّ مرة يلقي الندامة إليه، فإما يتلقاها فيتوب إلى الله، وإما يتصلب فيصرُّ على الذنب. فالتوبة أولا تأتي من الرب تعالى، فإنه الرحمن. وأوضح هذا الأمر بما أتبعه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وأما هذه الكلمات فقد بينه الله تعالى في موضع آخر، حيث قال حكاية عن توبتهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) الطبري ١: ٥٣٥-٥٣٦. رقم ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٦٠، ٧٦١.

(٢) نفس المصدر ١: ٥٣٦ رقم ٧٦٢.

الأعراف: ٢٣.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ الآية تدل على أن التوبة وقعت بعد ما سبق من القصة، والواو في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تصل هذا القول بما سبقه. فالظاهر أن الهبوط صدر قبل التوبة. ولما كبر على آدم هذا الأمر وفزع إلى التوبة أعاد الأمر بالهبوط مع الوعد بالجنة، ليسليه به.

٩ -قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ الآية. المراد بالهدى ما جاء به الأنبياء من هدى الله. فهذا كلام مشتمل على وعد بإرسال الرسل - كما ذكرنا في تفسير أوائل هذه السورة، وأيضاً يؤيده ما جاء بعد هذه الآية، كما سنذكره - ووعد بالجنة، فإن قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ جاء كثيراً في وصف أهل الجنة. وأيضاً تؤيده الآية التالية، كما سنذكره. وهذه من جوامع الكلم، فإن الخوف يتعلق بالمستقبل، والحزن بما وقع. فلما نفاهما تمت السعادة.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ الآية. هذا في مقابلة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ الآية أي الذين كفروا. وبين هذا الكفر بالعطف أي الذين كذبوا بآياتنا، وهي الهدى الذي وعد به في الآية السابقة. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ جاء في مقابلة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾. فدل التقابل على أن الفريق الأول في الجنة خالدون، والفريق الثاني في خوف وحزن. ولهذا النوع من الدلالة أمثلة في القرآن وكلام العرب.

(٥٠)

ذكر بعض مواقف التدبر

في هذه الجملة مواقف للتدبر، فنذكر بعضها:

الموقف الأول في موقع نفس المكالمة بين الرب تعالى وعباده. فاعلم أن في

إظهار الرب إرادته على الملائكة تنويهاً لشأنهم وابتلاءً لطاعتهم، وإظهاراً لتوبتهم. وهكذا في أمرهم بالسجود ابتلاء لطاعتهم، وتفريق بينهم وبين إبليس الذي كان من الجن. وهذه المكالمة بين الرب تعالى والملائكة تُبيِّنُ ـ

١ - أن الملك إذا أنعم على مقرَّبيه بإظهار إرادته عليه فقد أجاز لهم أن يكلِّموه بما في قلوبهم.

٢- وأيضاً تبيِّن أنّ الربَّ تعالى مع استغنائه عن مشاورة عباده ينعم عليهم بإظهار إرادته عليهم، فكيف يُعذَر مِلكٌ على استبداده بالأمور. ومن هذا الباب ما أمر الله نبيه بأن يشاور أصحابه.

٣- وإثبات الرب تعالى عليهم مزية آدم عليه السلام يُبيُّن أن الرب تعالى يحب أن يبين لعباده أن حكمه يجري على الحكمة والعلم. فلم يقل: إني أفعل ما أريد وليس لكم إلا الطاعة والمحض، ولو قال ذلك كان أحق به، فإن له الملك والربوبية. ولكنه تعالى من غاية فضله وكرمه قال أولا: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، ثم أظهر لهم طرفاً من مزية آدم، ثم لم يجعل تلك المزية إلا من جهة العلم.

٤- وفي ذلك أيضاً بيَّن مزيتهم إنما كان من عطاء الرب، فعلَّم آدم ما لم يعلموه، وبذلك اتضح لهم أن كل ذلك بيد الرب وأنه يفعل ما يشاء بالحكمة، فاعترفوا بذلك.

الموقف الثاني في السجود لغير الله. فاعلم أن هذا السجود لم يكن فيه إشراك بالله، فإنه كان بأمره تعالى. ففي الحقيقة أنهم سجدوا لله، ولم يبق فيه حظ لآدم إلا الاعتراف بفضله عليهم. وإنما صار السجود شركاً بعد أن نهى الله عنه في شريعتنا لإكمال التوحيد، كما حرَّم الخمر لإكمال الطهارة. وبما حرَّم علينا السجود لغيره تعالى ـ وقد كان جائزاً في الشرائع السابقة ـ جعل لنا من الكرامة والحرية والخصوصية للربِّ

ما لم يكن لمن قبلنا.

فإن قيل: إن الشرك من باب الاعتقاد، فمن سجد لغير الله لمحض التعظيم موقناً بأنه ليس بإله لم يكن مشركاً. قلنا: لا نسلم أن الشرك محض الاعتقاد، بل كل تعظيم خصه الله لنفسه لو وجَّهناه إلى غيره كان إشراكاً لذلك الغير فيما جعله الله لنفسه. وهذا كمن أهلّ لغير الله بذبيحة، أو كمن صلى أو صام لغير الله معتقداً بأن ذلك الغير ليس مثل الله.

الموقف الثالث في زمان الأمر بالسجود. فاعلم أنه لا دلالة في الكلام على كون الأمر بالسجود بعد الإنباء بالأسماء. فإن قصة السجود مصدرة بكلمة «إذ»، فهي قصة مستقلة، ومحض ذكرها بعد قصة الإنباء لا يدل على كونها بعدها. فلا يقال: إن الله تعالى بعد ما أظهر مزية آدم عليهم بالعلم أمرهم بالسجود له. وأيضاً لا دلالة فيه على أن الله تعالى أمرهم بالسجود بعد ما خلق آدم. بل الظاهر من آيات أخر أن الله تعالى أمرهم به قبل خلق آدم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ الحجر: ٢٨ - ٣١. وأيضاً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ص: ٧١ - ٧٤. فالظاهر أنه تعالى أمرهم بالسجود قبل خلقة آدم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الأعراف: ١١. فموقعه تعديد النعم، فلا دلالة فيه على التعقيب، ولا بد، فإن الخطاب في «خلقناكم» و «صورناكم» إلى بني آدم، وكان الأمر بالسجدة قبل ذلك. واستعمال «ثم» لغير التعقيب الزماني شائع، كما قال تعالى بعد ذكر العمل

الصالح: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ البلد: ١٧. أي مع ذلك كانوا مؤمنين.

الموقف الرابع في ذكر بعض مهمات الحِكَم المودعة في قصة آدم. فاعلم أن هذه القصة قد تضمنت أبواباً من أصول الدين:

الأول: إن الله تعالى كرَّم الإنسان غاية الإكرام بما أعطاه من العلم ما لم يعطه الملائكة، فما أقبح له أن يجهل! فهذا باب العلم والإيمان.

والثاني: أنه جعله مسجوداً لملائكته المقربين الذين كلَّمهم الرب بإرادته وهم المسبِّحون المقدِّسون لربهم، فما أقبح له أن لا يعبد ربه! وهذا باب الإسلام والعمل والشكر.

والثالث: أن إبليس عدوه من الأول، فكيف لا يحذر منه. وهذا باب التقوى والصبر والتيقظ.

والرابع: أن ذنب آدم كان من الضعف والنسيان، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ النساء: ٢٨، وأيضاً: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه: ١١٥، فتاب إلى ربه. وأما ذنب إبليس فكان من الكبر والحسد، فلم يتب. فليعلم الإنسان ذلك الفرق، فيكثر الرجوع إلى ربه، ويعتصم به، ويرجو رحمته، ويفرّ من الكبر والحسد، فإنهما يمنعان عن التوبة. وهذا باب التوبة والإنابة والطهارة.

والخامس: أن الملائكة مع كونهم مسبحين ومقدسين لله تعالى خضعوا لآدم مع ضعفه، وأبى إبليس لزعمه أنه خير من آدم، فلُعن. وهكذا وقع بفرعون، كما حكى الله عن قوله في موسى: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ الزخرف: ٥٢. فتبين أن الاستكبار عن الخضوع لمن يقيمه الرب فسق ومعصية للرب. وهذا باب الطاعة لأولي الأمر، وجماع السياسة والتمدن، ونفي البغي.

والسادس: ما يفهم من موقع هذه القصة، فسيأتيك في الفصل التالي.

(٥١)

نظم هذه الجملة بما سبق وبما لحق

لا يخفى عليك أن فيما ذكر من قصة آدم تعريضاً باليهود، ودعوةً للناس كافة إلى الإذعان بالنبوة عموماً، وبهذه النبوة خصوصاً. وهذه الآيات مع استقلالها متصلة لما قبلها، ولذلك صدرت بالواو، فقد دلَّ فيما قبلها على أن الإنسان لا ينبغي له أن يكفر بنعم ربه الذي أعطاه الحياة بعد ميتته، وخلق له جميع ما في الأرض، فجعله أفضل ما فيها. وكذلك لا ينبغي له أن ينكر بربه، فإن الإنسان لم يحي نفسه، ثم يأتيه الموت على رغم أنفه، ثم إنه لم يخلق ما ينتفع به من السماء والأرض. فلا محيص له من الإيمان بخالقه، ومن توحيده لاتصال الخلائق في الغاية والمصلحة، ومن شكره لربه على ما أنعم عليه.

ثم في هذه الجملة التالية أكَّد لك المعنى بما قصَّ من أحوال آدم مع ما أودعها من تعليمات الأصول، كما قد مرَّ. فليس أن الرب تعالى كرَّم آدم في الأرض فقط، بل كرَّمه على الملائكة أيضاً، فكما خلق له ما في الأرض جميعاً فكذلك خلق له ما في السماء.

والآن ارجع النظر في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ البقرة: ٢٩، لتفهم منه أنه تعالى سوَّى السماوات السبع لكم، فكل ما فيها أيضاً لأجلكم. فالجملة التالية توضيح وإتمام لما قدَّمه من ذكر النعم. ووضع هاتين الجملتين بحيث يستدل على صحتهما من الفطرة. فإن الإنسان لا يخفى عليه أن جميع ما في الأرض له، فينتفع به ويتصرف فيه؛ ثم يتدرج في العلم والصلاح، فلا تطمئن نفسه بهذه الحياة بل تتوق إلى

قرب الرب ومعرفة ما في السماء وما بعد الموت. وإذ لم يخلق الرب شيئاً عبثاً ولا غفل عن تربية خلقه، هيأ لما خلق أسباباً موصلةً إلى غايته، وهدى الكلَّ لما قدّر له ليبلغه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ الأعلى: ٢ - ٣.

وكذلك بعد ذكر سبعة أطوار خلقة الإنسان التي هي تحت الإنسان، ورقّاه فيها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾ المؤمنون: ١٧. فبيَّن أنه مترقٍّ في هذه الطرائق، ولم يغفل الرب عن تربيته بعد خلقه، كما أنه لم يغفل عنه من أول أمره.

وقد بينا في تفسير الجملة السابقة أنها استدلت على أربعة أمور: الألوهية، والمعاد، والتوحيد، والطاعة، بأمور ظاهرة على الإنسان عموماً؛ وجعلها تمهيداً لإثبات ما بعدها. ففي هذه الجملة التالية أثبت مايتصل بها قبلها من المطالب التي تتلوها من ـ

١ - الإيمان والعلم والمعرفة.

٢ - والإسلام والعمل والشكر.

٣ - والتقوى والصبر والتيقظ.

٤ - والتوبة والإنابة والتطهر.

٥ - والطاعة، ونفي الفساد والبغي.

وأفرغها في قالب قصة، فلم يصرح بها كل التصريح ليكون أبلغ إلى نفوسهم. ثم لما كان معظم هذه المطالب النبوة والطاعة لشرائع الله، بدأ القصة بذكر الخلافة، وختمها بوعد إنزال الهدى ليتبعوه.

ذلك، وأما ما ذكرنا من التعريض إلى اليهود فاعلم أنهم عرفوا النبي وعلموا

أنه هو الذي بشر به موسى عليه السلام، فكانوا ينتظرونه، كما مرّ ذكره؛ ولكنهم استكبروا عن الإذعان له، لزعمهم بأنهم خير منه حسباً ونسباً. فكان مثلهم مثل إبليس الذي أبى عن السجدة لآدم عليه السلام وقال كما حكى الله قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الأعراف: ١٢، ص: ٧٤.

وأيضاً قد وعدهم الله أن ذلك النبي يأتي بكلام من الرب، فمن لا يؤمن به يعذبه الله؛ فأشار بإيراد وعد إيتاء الهدى ووعيد المكذبين إلى ما وعدهم الله بلسان التوراة في حق هذا النبي.

ذلك، والآن قد تمت المقدمة التي ألقى فيها كلاماً مجملاً جامعاً من غير خطاب إلى اليهود. ولكن ذكر فيها ما يكون تمهيداً لخطابهم صراحة. وختمها بذكر الوعد الأول والعهد الآدمي بإنزال هديه إلى ذريته، لأنه تعالى توّاب رؤوف، ورب رحيم. وبيّن أنّ ذلك العهد والخلافة أمر مكتوب مقضي، فمن أبى ونبذ عهد الله يعطيه الله من ذرية آدم من استعدّ له، وعلم الله استعدادهم لحمله.

فالجملة التالية إلى آخر هذا الباب الذي ينتهي عند منتصف هذه السورة تذكر من أحوال اليهود ما يثبت به أنهم لم تبق لهم شَمّةٌ من استحقاقهم لحمل ذلك العهد. فذكر كل ما يبيّن ذلك، ولكن دعاهم أولاً إلى الهدى والاتباع، ثم بيّن بالتفصيل عدم استحقاقهم، وضرورة إنشاء أمة جديدة لحمل عهد الرب. فقال عز من قائل حكيم:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾.

(٥٢)

تفسير الكلم التي في هذه الجملة

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اسم يعقوب عليه السلام. وكثر مخاطبة اليهود في صحفهم بإسرائيل، أي نسل إسرائيل. والكلمة عبرانية مركبة من «إسر»: وهو العبد، و«إيل»: وهو الإله، كما جاء في أسماء أخر. فإسرائيل معناه: عبد الله. والعبرانيون يقولون: هو بطل الله، من الأسر بمعنى القوة. ومن حماقاتهم التي أدخلوها في صحفهم أنه صارع فصرع الله، فسمّي إسرائيل[١]. وكذلك قالوا: إنه ولد آخذا بعقِب أخيه عيسو، فسمِّي يعقوب[٢]. والقرآن يشير إلى كونه مبشَّراً به بعد إسحاق، فسمِّي يعقوب[٣].

﴿فَٱرْهَبُونِ ٤٠﴾ الرهبة: هي الحالة التي تعتري القلب من التعظيم والإجلال من غير نظر إلى مضرّة، ويلزمها الخشوع.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ﴾ يقال: لَبِسَ الثوبَ يَلْبَسُ لُبساً: أي جعله على جسمه، فصار ستراً. ولَبَسَ الأمرَ عليه يَلْبِسُ لَبْساً: أي جعله بعضه على بعض فصار مخلوطاً. ومنه لبسهم بمعنى خلطهم، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ الأنعام: ٦٥. أي يخلطكم شيعاً.

وأما لبس الشيء بالشيء، فيمكن أن يكون من الستر على أصل المعنى: أي لا تستروا الحق بالباطل، ويمكن أن يكون من الخلط: أي لا تخلطوا الحق بالباطل، والمآل واحد. وهكذا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ

(١) انظر: التكوين ٣٢: ٢٨.

(٢) التكوين ٢٥: ٢٦.

(٣) قال تعالى في سورة هود: ٧١: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ٧١﴾.

وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الأنعام: ٨٢. والتبس: اختلط، ولَبَّسَ: خلط، كما قال الفَرَّار السُّلَمي[١]:

وكـتيبـةٍ لبَّسْـتُهـا بِكَتيبـةٍ حتى ... إذا التبستْ نَفَضْتُ لها يَدي[٢]

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ما ينفقونه في سبيل الله، وهو الصدقة، ثم خصت بها كتبه الله في الأمول. وتسميته بالزكاة من زكا يزكو: طهر، كما قال في القرآن: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ﴾ الكهف: ٧٤ أي طاهرة عن الذنب. وأيضاً زكا الزرع: طال ونما. ووجه التسمية: أنها طهارة للنفس والمال، وبركة ونماء له، فجمعت المعنيين. قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ التوبة: ١٠٣. وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ الروم: ٣٩. فنبّه على كلتا الجهتين لتسمية الزكاة باسمها.

﴿وَٱرۡكَعُواْ﴾ الركوع هو الانحناء إلى القدام. ومنه ركع الشيخ: احدودب. وأيضاً: تواضع. وأيضاً: سفل فقراً وبؤساً. كما قال:...[٣]

ويكنى به عن الصلاة، كما في العبرانية تطلق الصلاة على الانحناء والصلاة.

﴿بِٱلۡبِرِّ﴾ أصله إيفاء الحق، فتفرع منه ما يكون إيفاء للحقوق الأصلية من الطاعة للربِّ والأبوين، والمواساة بالناس. ومن هذه الجهة صار بمعنى الإحسان،

---

(١) اسمه حيان بن الحكم. شاعر مخضرم صحابي.

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي: ١٩١.

(٣) لعله يعني قول الأضبط بن قريع السعدي:

ولا تهـينَ الفـير عَلَّك أن ... تركع يوماً والدهرُ قد رفعه

انظر البيان والتبيين ٣: ٣٤١.

واشتمل الخيرات، وصار وصفاً للربِّ تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ الطور: ٢٨.

ثم هو إيفاء للحقوق الناشئة بالاختيار من العهود والأيمان. ومنه: بر باليمين. ومن هذه الجهة صار مضاهياً للعدل. فالبِرّ خلاف الإثم، والعقوق، والغدر، والظلم. وبَرَّةُ: علم له. والبَرّ والبارّ: وصف منه. هو بَرٌّ بوالده: مطيع له. وبَرَّ بالقسم: أوفاه. قال زهير:

ومن يُوفِ لا يُذْمَمْ ومَن يُهْدَ قَلْبُه ... إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ[1]

وقال نابغة بني ذبيان:

إنا اقْتَسَمْنا خُطَّتَيْنَا بيننا ... فَحَمَلتُ بَرّةَ واحتَمَلْتَ فَجارِ[2]

وقال أيضاً في قصة غدر امرئ بحية لدغت أخاه:

فلمّا وقاها الله ضَرْبَةَ فأسِه ... وَلِلبِرِّ عينٌ لا تُغَمِّضُ نَاظِرَهْ[3]

أي للعدل عين.

وجاء في القرآن في وصف يحيى عليه السلام: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ مريم: ١٣ - ١٤. وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢. وأيضاً في وصف الرب تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ الطور: ٢٨. وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ المائدة: ٢. وقال

(١) ديوانه: ١٤ وشروح المعلقات.

(٢) ديوانه: ٥٥، واللسان (برر، فجر).

(٣) ديوانه: ١٥٦.

الأعشى:

عِنـدَهُ الـبِرُّ والتّقـى وأسـا الشَّقِّ وحَمْلٌ لِلمُعضلاتِ الثقال(١)

فظهر مما مر أن للبِرّ وجهين: عامًّا يشتمل جميع الخيرات، وخاصًّا وهو الإيفاء بـالحقوق والواجبـات. وأجمـع وجـوه معنـاه: الإيفـاء بحـق الكبـير، والإحسـان إلى الصغير.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ كبيرة عليه: شاقّة ثقيلة. قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ البقرة: ١٤٣. وأيضاً: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الأنعام: ٣٥.

﴿يَظُنُّونَ﴾ الظن: ما يرى المرء من غير مشاهدة. ولكون غير المشهود ربما لا يوقَن به، تضمن الظن معنى الشك. وبهذا المعنى كثر في كلام العرب والقرآن، كما قال طرفة:

وأَعْلَمُ عِلْماً ليس بالظنِّ أنّه إذا ذَلَّ مَولى المَرْء فهو ذليلُ(٢)

وفي القرآن: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ الجاثية: ٣٢.

ولكن الرأي في غير المشهود ربما يكون يقيناً، ويطلق الظن عليه بالمعنى الأعم من غير تضمنه الشك، كما قال أوس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا(٣)

---

(١) ديوانه: ٤٥، وجمهرة أشعار العرب: ٣٣٣.

(٢) ديوانه: ٨٤، وشرح الحماسة للمرزوقي: ١٤٤١.

(٣) ديوانه: ٥٣، واللسان (لمع).

وقال دريد بن الصِّمَّة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفى مُدَجَّجٍ سراتهمُ في الفارسيِّ المُسرَّدِ[١]

وقال تعالى حكايةً عن قول المؤمنين في القيامة: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ الحاقة: ٢٠. وهكذا هاهنا، أي يرون أنهم ملاقوا ربهم رأياً عامًّا، سواء كان يقيناً أو مع شبهة.

(٥٣)

التأليف

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾، وكذلك: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾. قد يتقدم على الفعل ما يتعدى إليه وما يتعلق به، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة: ٥ وفي قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ الأنعام: ١٥٢، ليدل على الاعتناء به. وربما يزداد الفاء على الفعل ليدل على زيادة الاعتناء كأنه جزاء شرط، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ المدثر: ٣ - ٥. وذكر الضمير بعد الفعل إنما هو لزيادة الإيضاح، والفرق يسير بين ذكر الضمير وحذفه. قال عَديّ بن زيد:

وبالعدل فانطق إن نطقت ولا تلم وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد[٢]

والنحويون يقدرون فعلاً، ويجعلون الفعل المذكور تفسيراً للمقدر، وهذا لحاجتهم إلى عامل. وأما على مذهبي، فلا حاجة إلى هذا التكلّف. وبسطُ المسألة في كتابي المسمّى بـ«النحو الجديد».

---

(١) من الشواهد المشهورة، انظر الأصمعيات: ١٠٧، واللسان (ظنن).

(٢) ديوانه: ١٠٧، وجمهرة أشعار العرب: ٥٠١.

قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾. المضاف إليه لأفعل إذا كان نكرة مفردة كان في مفهوم التمييز، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الأنعام: ١٤. وهكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ٩٦. أيضاً: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ التوبة: ١٠٨. أيضاً: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام: ٩٤ وهذا كثير. وهو الأسلوب في النكرة. قال ربيعة بن مقروم الضبي:

فدعوا: نَزالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ ... وعَلامَ أركبه إذا لم أنزلِ[(١)]

فلو أضيف إلى المعرفة كان المضاف إليه جمعاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ الزخرف: ٨١.

هذا، واعلم أن في الاستعمالين فرقاً لطيفاً، فإن أول كافر مثلاً يستعمل سواء وُجِد كافر غيره أم لم يوجد، وأول الكافرين معناه: إنه أول الذين كفروا.

قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ ذكر النحويون فيه وجهين: النصب بإضمار «أن» بعد واو مع، والجزم بالعطف. وقال ابن جرير رحمه الله في وجه النصب: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ خبر وتسميه النحويون صَرْفاً[(٢)]. ونظير ذلك في المعنى والإعراب قول الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأتِيَ مِثْلَه ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ[(٣)]

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقي: ٦٢.

(٢) كذا في الطبعة الميمنية بمصر ١: ١٩٦. وفي طبعة دار المعارف: «فيكون ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ خبراً معطوفاً عليه، غير جائز أن يعاد عليه ما عمل في قوله: ﴿تَلْبِسُوا۟﴾ من الحرف الجازم. وذلك هو المعنى الذي يسميه النحويون صَرْفاً» ١: ٥٦٩.

(٣) تفسير الطبري ١: ٥٦٩.

وقال رحمه الله: «وإنما معناه: لا تنه عن خلق وأنت تأتي مثله، فكان الأول نهيا، والثاني خبراً، فنصب الخبر إذ عطفه على غير شكله»[١].

ثم ذكر فرق التأويل على الوجهين، وذكر أن ابن عباس ذهب إلى العطف أي لا تكتموا الحق، وأن أبا العالية ذهب إلى كونه خبراً أي أنهم كتموا الحق[٢].

وهكذا ذكر الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ البقرة: ١٨٨. فقال: «والآخر منها (أي الوجه الآخر في الإعراب) النصب على الصرف فيكون معناه حينئذ: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وأنتم تدلون بها إلى الحكام، كما قال الشاعر: لا تنه عن خلق...» وقال رحمه الله: الجزم أحسن، وأن أبيّ بن كعب قرأ: ولا تُدْلوا[٣]، أي قرأ ليفسره.

أقول: المآل واحد، فإن الله تعالى نهاهم عما فعلوه، فالنهي والخبر سواء. فإنهم كما لبسوا الحق بالباطل فكذلك كتموا الحق بعد العلم به، وكلاهما مما ينهى عنه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٧١﴾ آل عمران: ٧١. فلا وجه إلى العدول عن العطف، وجعل الأول نهياً والثاني خبراً. وإنما لم يكرر حرف «لا» ليعلم أن الأمرين واحد، وأن الثاني من الأول بمنزلة البيان. فإنهم لبسوا الحق بالباطل لغرض الكتمان، وقد نُهوا في التوراة عن ذلك، ولكن ظاهر فعلهم كان لبس الحق بالباطل، فنهاهم عنه أولاً، ثم نهاهم عمَّا هو حقيقة أمرهم.

وهكذا الوجه في قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ﴾ البقرة: ١٨٨، فإن ذلك من الأكل

---

(١) المصدر السابق ١: ٥٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر الطبري ٣: ٥٥٢.

بالباطل. وهكذا في قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ الأنفال: ٢٧، فإن الخيانة في الأمانة من الخيانة بالله.

فعلى هذا تكون الواو للتفسير، أي لبسكم الحق بالباطل هو عين كتمان الحق، فنهاهم عنهما، ودلّ على كون الثاني من الأول.

قوله تعالى: **﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾** حال عن الفاعل في ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ حال عن الفاعل في ﴿وَتَنسَوْنَ﴾.

(٥٤)

تأويل الآيات مع تنبيه على وجوه البلاغة

لا يخفى عليك أن هذا خطاب مجمل، وبعده خطاب مفصل. وجعل الأول تمهيداً، فضمّنه كلمات جامعة لما يتلوه من تفاصيل أحوالهم.

ولهجتها لهجة الدعوة والاستمالة، فلم يصرح هاهنا بما سيأتي من شنائعهم، بل اكتفى بالتعريض بها. فإن الأمر والنهي ربما يخاطب بهما من هو مرتكب خلافهما. فكأنه أشير إلى أنكم كفرتم بنعمتي، ونسيتموها، ونقضتم عهدي، ولم ترهبوني، ولم تؤمنوا بما أنزلتُ مصدّقاً لما معكم، وصرتم أول كافر به، واشتريتم بآياتي ثمناً قليلاً، ولم تتقوني، ولبستم الحق بالباطل، وكتمتم الحق بعد العلم به، وهدمتم الصلاة والزكاة، ولم تركعوا مع الراكعين، إلى آخر ما ذكر.

وجعل هذه الإشارات واضحةً بما أتبعها قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، وبما ضمّنها من قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، وأيضاً: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

فهذا ـ كما ستعلم ـ يبيّن أنهم فعلوا ذلك. ولكن هاهنا خفف التشنيع=

١ ـ بما جعل معظم هذا الكلام تعريضاً.

٢ ـ وبما وعد فيه بتوبة الربّ عليهم، حيث قال: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾.

٣ ـ وبما دلّهم على ما يستعينون به في إصلاح أمرهم، وهو الصبر والصلاة.

ويتضح لك بلاغة هذه الجملة بعد النظر التام في الخطاب الثاني، فإنها من أكبر جوامع الكلم. فكلّ ما ذكر بعدها من تفاصيل أحوال اليهود الدالّة على عدم استحقاقهم بحمل أمانته وعهده، ذَكَر إجمالها في هذه الجملة. فهي خلاصة ما بعدها على سبيل تقديم الإجمال على التفصيل.

وقوله تعالى: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ يشير إلى أنكم قد كفرتم بنعمتي، فاذكروها لعلكم تشكرون.

و﴿ نِعْمَتِىَ ﴾ من جوامع الكلم، تدلّ على جميع ما أعطاهم الله من الخلافة، والملك، والنبوة، والميثاق ونعم كثيرة، كما فصّلها في الخطاب الثاني وعدّدها.

وقد ذكرها إجمالاً وتفصيلاً في غير موضع من القرآن. فمنها: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ المائدة: ٢٠. وأيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ إبراهيم: ٦.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أيضاً من جوامع الكلم، فإن لله تعالى عهوداً على الناس عامة، وعلى اليهود خاصة. وهذا العهد من الله تعالى من أعظم النعم، ولذلك ذكر العهد بعد ذكر النعمة. وكأنه قيل لهم: اذكروا النعم الكثيرة التي أنعمتُ بها عليكم، فإن أوفيتم بعهدي عُدنا عليكم بنعم أُتِمّها عليكم. وقد جاء في

الخطاب الثاني ذكر عهود الربّ ببني إسرائيل، فهاهنا قدم الإشارة إليه. ومن أفضل هذه العهود أن الله تعالى عاهدهم أن يؤمنوا بنبي يبعثه الله من إخوتهم، ويعطيه كلامه، فيكمل به الشريعة، ويتوب على من آمن بذلك النبي. وذلك حين أبوا أن يُتِمَّ لهم الشريعة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ أي ارهبوني، أنا الذي أنعمت عليكم، ووعدتكم، وأوعدتكم، وأعطيتكم عهدي. والأمر بالرهبة تذكير لما جعله الله رأس شريعتهم وملاك أمرهم، فإن شريعة يهود بنيت على الترهيب، وذلك لقساوة قلوبهم وقلة خضوعهم. فأعطاهم الله الشريعة حين أرهبهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١﴾ الأعراف: ١٧١. وهكذا جاء في التوراة، وسمّاهم فيها كثيراً «صُلْبَ الرِّقاب». فدعاهم بذلك إلى إيفاء العهد، واستشعار الرهبة، والإجلال لربهم، وعهده. فإن النعم التي أنعم الله بها عليهم كانت مظاهر قدرته القاهرة ورأفته الباهرة، كما كثر ذكرها في كتبهم لا سيما الزبور.

وقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يبين ما أشار إليه فيما قبله من عهد الله بهم. فهذا الأمر تفريع على ما دعاهم إليه من إيفاء العهد.

وقوله تعالى: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يشير إلى ما وعدهم الله من الرحمة إن آمنوا بذلك النبي وبما ينزل عليه. راجع سفر التثنية (١٨: ١٥-١٩).

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ معناه: إن هذا القرآن قد صدَّق ذلك الوعد. فإن آمنتم به أوفى الله بعهده المذكور في التوراة. وأما تصديق ذلك الوعد بالقرآن، فكان من البيِّن الواضح عندهم، فإنه صدّق في محمد ﷺ العلامات التي عرّفها لهم في التوراة. وقد ذكر الله ذلك حيث حكى عن تضرع موسى عليه السلام حين أخذ سبعين

رجلاً لأخذ الميثاق وأخذتهم الرجفة، فقال تعالى مجيباً لدعوة موسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧. وبما عرفوا النبي، عرفوا أن هذا القرآن هو الكتاب الموعود لهم.

ثم نفس ما في القرآن صدّق التوراة لما جاء بالأمور التي جاء بها التوراة، ولكنها لما أدخلوا فيها صارت مما لا يؤمن به عاقل. وجاء القرآن خالصاً من تلك الأباطيل، فدلّ على أنّ أصل التوراة حقّ، وأباطيلها مدخولة، وبذلك صدّق أصلَ التوراة، ونفى التكذيب عنها[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ نهي عن تكذيب ما هو مصدِّق لما معهم. وإذ عوهدوا بالإيمان به، ووُعدوا بالنعم إن أوفوا، فعرض عليهم بالقرآن نعمةً، وعرفوا أنه حقّ ومصدِّق لما معهم؛ فكفرُهم به جحودٌ بالحق وبما معهم وكفران بالنعمة. فصارت كلمة ﴿كَافِرٍ﴾ هاهنا جامعة لمعاني الكفر.

وأما كلمة ﴿أَوَّلَ﴾ فليس المراد به أنه يباح لكم أن تكونوا كافرين به بعد قوم كفروا به أولاً. وهكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ليس المراد به أنه يجوز لكم أن تشتروا بها ثمناً كثيراً، وهذا ظاهر.

والقاعدة أن النهي ربما يتضمن التشنيع لما عليه المخاطب، فيتعلق النهي

(١) وانظر تفسير «مصدقاً لما بين يديه» في مفردات القرآن للمؤلف: ٣١١-٣١٦.

بأصل الفعل، وذكر القيد يشير إلى أنكم بلغتم النهاية في ارتكاب الشناعة، أفلا تشعرون ذلك القبح؟ ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ آل عمران: ١٣٠.

فالمعنى: أنّ القرآن لما جاء مصدّقاً لما معكم كان المرجو منكم أن تكونوا أول قوم آمن به، ولكن الأنصار قد سبقوكم بالإيمان، وأنتم سبقتم بالكفر.

فإن قيل: لم تكن اليهود بأول من كفر، فقد كفرت قريش قبل ذلك. قلنا: إن الخطاب هاهنا إلى قوم اليهود. ألا ترى التصريح في خطابهم بقوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم أمة، والعرب كلها أمة واحدة، أو أمتان إن فرّقتَ بين بني عدنان وبني قحطان، فقريش عدنانيون وأهل يثرب قحطانيون. فأما قريش فإن كفر بعضهم فقد آمن منهم آخرون، فلا يقال: إن قريش أول من كفر، بل هم أول من آمن، فلهم القدم الأولى والحظّ الأوفى. وأما القحطانيون ـ أهل يثرب ـ فهم أيضاً من حيث قومهم تبادروا إلى الإسلام وصاروا أنصاره، وجيرانهم اليهود من حيث القوم تبادروا إلى الخلاف والعداوة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قول جامع لكل ما نقضوا من عهود الله، وجاء بيانها في الخطاب الثاني. وأكبر هذه العهود ثلاثة: القيام بأحكام التوراة، والإيمان بالقرآن المصدِّق لما أنزل عليهم، والشهادة بما عندهم من الكتاب من غير كتمان، كما هو مبسوط في موضعه.

وتعبير نقض العهد بهذه العبارة كثير في القرآن. وهو أوضح في نبذ كتاب الله، فإنه بنفسه عهد من الله، وجامع للعهود كلها. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّـٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا

تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المائدة: ٤٤.

فالمعنى: أن لا تتركوا التوراة وما فيها لأجل نفع قليل مما ترغبون فيه. وهذا متوجه إلى اليهود عموماً يشتمل عامتهم وخاصتهم. أما العامة فلكذبهم في إيمانهم ونبذ أحكام التوراة لشهواتهم. وأما الخاصة فلإنكارهم بما معهم من ذكر هذا النبي، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لما خافوا على رئاستهم ومخالفة أتباعهم، علاوة على حسدهم ببني عمّهم إسماعيل عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾. أيضاً قول جامع، كقوله تعالى قبل ذلك: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾. وبحسب موقعه يدل على ما يفهم من السابق. أي اتقوني أنا الذي أنعمت عليكم، وأوعدتكم على مخالفة التوراة والنبي الموعود. وأيضاً: فإن عذابي لا يُردّ عمن يكفر بنعمتي، وينقض عهدي، ويشتري بآياتي ثمناً قليلاً. وأيضاً لا تخافوا إلا إياي، فدعوا خوف ذهاب رئاستكم، أو مخالفة أتباعكم، أو ذهاب ما تكسبون منهم من الأموال. وأيضاً: فإنهم قد تركوا أحكام التوراة الأصلية بما أقبلوا على ما أدخلوا فيها، فلو اتقوا ربهم لم يشتروا بآياته ثمناً قليلاً.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ الآية، متوجه إلى ما أدخلت اليهود في التوراة من أهوائهم ورواياتهم، فاختلط الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي أدخلوه، كما قال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ البقرة: ٧٩.

وهذا أيضاً من جوامع الكلم. فإنهم بما أدخلوا وأخرجوا وبدّلوا، قد كتموا كثيراً من الأمور الحق الذي لم يرضوا به، كما فعلوا في أمر قربان إبراهيم ومذبحه وقبلته، وبيانه في الباب الثاني من هذه السورة. وبما أثاروا من الشبهات في إنكار هذا

النبي الموعود والقرآن بعد ما عرفوه، لبسوا الحق بالباطل، فكتموه.

فقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يشير إلى ما فعلوه من لبسهم الحق بالباطل، ولذلك لم يكرر كلمة «لا» لكون هذا النهي داخلاً تحت النهي السابق، ولكونه بياناً للسابق، فإنهم لبسوا الحق ليكتموه.

فكلمة ﴿ٱلْحَقَّ﴾ في هذه الآية جامعة لما أنزل الله في التوراة، ولما ظهر عليهم مما جاء به القرآن مصدِّقاً لما معهم من الحق.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أمر متوجه إلى اليهود خاصتهم وعامتهم. وفيه ذكر معظم ما تركوا من الأحكام، وهي: الصلاة، والزكاة، والركوع مع الراكعين. أما الصلاة فهداهم الله إليها من غير تصريح بأنهم أبطلوها، لكيلا يقولوا: إنها لم تكتب عليهم، وذلك إعراضاً عن اللجاج. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ المائدة: ١٥.

ولنذكر هاهنا كيف أبطلوا هذه الأحكام الثلاثة. فأما الصلاة، فإنها لا توجد في الصحف الخمس المنسوبة إلى موسى عليه السلام حتى إن فريقاً منهم قالوا: إن موسى عليه السلام لم يجئ بها، وإنما ابتدعها الناس.

وأما الزكاة المفروضة، فوضعوا سفر اللاويين لأحكام الكهنوت والنذور والقرابين، ولم يذكروا فيه حق الفقراء والمساكين، بل جعلوا كل عشر من المحاصل وفدية كل بكر وكل نذر للكهنوت. ومن أكبر إنكارهم بالزكاة قولهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ المائدة: ٦٤.

والسبب الأقوى لذلك أن مشايخهم صرفوا وجوه الصدقات كلّها إلى أنفسهم، كما صرفوا إلى أنفسهم العبادات، فصاروا أرباباً من دون الله كما بيّن القرآن.

وكثير من أنبيائهم وبّخوهم على ذلك. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس عن الإنفاق في سبيل الله، ولا أنفسهم ينفقونها فيه ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي هذه الأحبار والرهبان ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ التوبة: ٣٤ - ٣٥.

(نذكر بعض ما جاء في الصحف والإنجيل في تشنيعهم)[١] ولكن الله تعالى أزال هذه الشناعات عن ناموسه. فبيّن القرآن أن الصلاة كانت أول ما كتب على اليهود. قال تعالى في أول خطابه إلى موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ طه: ١٤. وأيضاً: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يونس: ٨٧. فهذا أول أساس لجمع شملهم بإقامة الصلاة بالجماعة.

وأما الركوع مع الراكعين، فيتضمن أمرين:

الأول: هو الأمر بالركوع، وقد تركوه، وزعموا أنه لا يجب عليهم إلا أن يسجدوا مرة واحدة في السنة، وأجازوا في ذلك أن يضع الرجل جبينه على جدار أو عمود قائماً. وهذا يبيّن كيف سمّاهم الله تعالى «صُلْب الرِّقاب».

والثاني: هو الأمر بالصلاة مع الجماعة، وذلك تنبيه أئمتهم على المساواة بالناس. فإن أول ما يهدم الصلاة ترك الجماعة. فالكبراء أولاً يأنفون عن الاختلاط

---

(١) هذه التذكرة كتبها المؤلف في المسودة لنفسه.

بعامة الناس، فيصلُّون في بيوتهم، وتسقط عزّة الصلاة. فلا يجتمع في المسجد إلا الفقراء، وواحد من الكبراء للإمامة. ثم بعد ذلك تقل الجماعة، وتنعدم. فالمراد بإقامة الصلاة هو الاجتماع في المساجد. ومن هاهنا ترى كيف أمر الله مريم عليها السلام بلزوم الجماعة، حيث قال تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ آل عمران: ٤٣. فمعنى ﴿ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾: صلّوا مع الذين يصلّون. والعبارة بالركوع عن الصلاة عامة لا خفاء بها، بل «الصلاة» في العبرانية تستعمل للركوع والانحناء أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ الآية، متوجه خاصة إلى أئمة اليهود، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ ﴾. وهكذا روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. وكلمة «البر» ـ كما مرّ في تفسير الكلم ـ تدل على إيفاء الحقوق. فأشارت الآية إلى أنكم تأمرون الناس بأن يبرّوكم وأنتم لا تبرّون مطلقاً، فتأكلون أموال الناس بالباطل، ولا توفون بما عليكم من حقوق الله والفقراء!

وقد بينا آنفاً أنهم أكّدوا كلّ التأكيد على إعطاء الأموال إياهم، وهم منعوها عن سبيل الله، وكذلك أوجبوا طاعتهم على الناس حتى صاروا أرباباً لهم، ولم يطيعوا الرب تعالى. فأضاعوا الصلاة والزكاة كلتيهما، فهدموا الدين كلّه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ حجة عليهم، فإن حقوق الفقراء، وإن أخرجوها من سفر اللاويين ـ وهو كتاب النذور وحقوق الكهنة ـ فإنها باقية في سفر التثنية. (أذكر آيات من التثنية)(١) وقد كانوا يكتمون هذا السفر،

---

(١) هذه تذكرة كتبها المؤلف لنفسه، ولعله أراد أن ينقل هنا الفقرات الآتية من كتاب التثنية ١٤: ٢٩. ١٥: ٧-١١. ٢٤: ١٩-٢١. ٢٦: ١٢-١٣.

لما فيه أمور خلاف رضاهم، وقد جعلوا التوارة مجزّأة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ الأنعام: ٩١. وقد أنكر بعض متأخري النصارى بهذا السفر. والسبب الخفي لذلك أنّ فيه البشارة بنبينا عليه الصلوات.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾. أي استعينوا بالصبر والصلاة على الإتيان بما أمرناكم به، والانتهاء عما نهيناكم عنه، كما تقدم آنفاً.

واعلم أن المراد بهذا الأمر هو التمسك بالصلاة، وأما ذكر الصبر قبلها فلكونه شرطاً وذريعةً إليها، فإن الصلاة لا يمكن التمسك بها إلا بالصبر. فالصبر كجسر عظيم لا بدّ له من أساس شديد. قال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ طه: ١٣٢. وبيّن ذلك في الجملة التالية، فاطلب البيان من تفسيرها.

واعلم أنّ المراد من الاستعانة بالصلاة هو الاستعانة بالرب تعالى، كما هو ظاهر. قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ الأعراف: ١٢٨ أي صلّوا لربكم. وذلك بأنّ الصبر الذي جعله الله تعالى رأس الأمور وأساسها هو الاستقامة بطمأنينة القلب على وعد الله، والاستحقار لما يقاسيه العبد من البلاء والأذى، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ هود: ٤٩. فهذه الصفة هي التي يلتصق بها العبد بربه، ولا يزال قائماً بين يدي مولاه توّاباً أوّاباً. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الرعد: ٢٢. وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ طه: ١٣٠.

فالصبر من هذه الجهة من شرط الصلاة، ولذلك يعبر بالصابر عن المصلي. قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ البقرة: ١٥٣. فنبه على أن

الصابرين هم المصلّون، فجعل الصبر دليلاً على الصلاة، فاكتفى بذكره عنها. وهاهنا جعل الصلاة دليلاً على الصبر، لكونها مشتملة عليه. وسيأتيك ذكره في تأويل الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ لم يقل: إنهما لكبيرتان، وذلك لوجوه:

الأول: أنّ كون الصبر شاقًّا كان ظاهراً، فتركه. كما ترى ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ البقرة: ١٥٣ فترك أن الله مع المصلين، فإن ذلك ظاهر، لما أن الصلاة هي الحضور بين يدي الربِّ، فهي عين المعية.

والوجه الثاني: أنّ الصبر من شرائط الصلاة، فلا يقيم على الصلاة إلا الصابرون كما مرّ. فكأن الحكاية عن كون الصلاة شاقّةً تنبيه على جهة المشقة فيها، وهي كونها متضمنة للصبر، فأغنت عن صريح الحكاية عن الصبر بكونه شاقًّا.

والوجه الثالث: أنّ شدّة الصبر ظاهرة، والأمر بما هو شديد فيه نوع من التنفير، فتركه، وأخذهم بما هو أهون بحسب الظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ إلخ. هذا ذكر ما بني عليه الصلاة والصبر وما يستلزمها. وذلك لا يخفى على من تدبّر في هذه الأمور. ثم قد نبّهنا القرآن عليها، أما بناء الصلاة على الخشوع للرب تعالى، فبيّنه في غير ما آية، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ المؤمنون: ١ - ٢. وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الأنبياء: ٩٠. وكون الخشوع من أكبر أصول الصلاة ظاهر جداً.

وأما بناء الصلاة على الإيمان بلقاء الرب تعالى، فقد نبّه عليه أيضاً في غير ما آية. قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ القيامة: ٣١ - ٣٢. وقال تعالى في أول ما خاطب به موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ طه: ١٤ - ١٦. تأمّل في عجيب نظم هذه الآيات. وكونُ الإيمان بلقاء الربِّ أصلاً عظيماً في الصلاة مبسوط في مواضعه. ومنها ما مرّ في أوائل هذه السورة في عنوان النظم تحت قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ البقرة: ٣.

وأما كون ذلك أصلاً للصبر أيضاً...(١).

وقد مرّ ذكره في الجملة السابقة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ البقرة: ٤٥.

(٥٥)

التدبر فيما تُعلِّمنا هذه الجملة من الحكمة

اعلم أنّ الأمر بالصبر والصلاة أمر بها بني عليه الملة الإبراهيمية، وبه صار إماماً للناس، فدعاهم إلى تلك الجامعة، وأمرنا أيضاً بهما. ولكن صبرنا أعظم وأوسع من صبرهم. وذلك بأن الصبر ربما يكون فعلاً، وينشأ من شرافة النفس وإبائها، ورسوخ القدم في الطاعة، واحتمال عظائم الأمور. وربما يكون انفعالاً واحتمالاً للقهر والظلم، وهذا أدنى الصبر. وقد علمنا أن بني إسرائيل كانوا قليلي الصبر بالمعنى الأول، ولكنهم صبروا على ظلم آل فرعون، فرحم الله عليهم، وبعث منهم رسولاً عظيماً. فكان يأمرهم بالصبر الذي كان رأس مالهم، كما حكى الله تعالى عن ذلك حيث جاء في القرآن: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ

(١) بياض في الأصل.

كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ الأعراف: ١٢٨ - ١٢٩. وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ الأعراف: ١٣٧.

ذلك، وأما أنه تعالى أمرنا بصبر أعظم من صبرهم، فيأتيك بيانه في تفسير أوائل الباب الثاني من هذه السورة.

(٥٦)

بيان النظم

قد تبين مما قدّمنا أن هذه الجملة نبهت اليهود على أمور عظيمة غفلوا عنها وجعلوها نَسْياً منسيًّا. وقد كانت التوراة أمرتهم بها، وأكّدت عليها، فكتموا منها بعضاً ونسوا بعضاً، فما دعاهم القرآن إلا إلى ما أنزل عليهم. فدعاهم هاهنا إليها لدواء أمراضهم العائقة عن الإيمان بهذه البعثة الموعودة لهم لإتمام البركات عليهم. فدعاهم أولاً إلى ثلاثة أمور:

- إلى ذكر نعمه التي أنعم عليهم بها.
- وإلى الإيفاء بعهده.
- وإلى الرهبة لربهم خاصة.

وهذه هي الأصول التي لا يمكنهم الإنكار بها. فجعلها أصولاً، ثم فرّع على هذه الأصول الثلاثة بالترتيب أن يؤمنوا بالقرآن.

أما على الأصل الأول، فمن جهة كون القرآن إتماماً لما أنعم عليهم باطناً وظاهراً، كما وعدهم به. وصدق ذلك الوعد بهذا القرآن، فنهاهم عن الكفر به، لكون ذلك كفراناً عظيماً وخسراناً مبيناً.

وأما على الأصل الثاني، فمن جهة أنّ الإنكار به نقض لعهد الرب واشتراء للثمن القليل عوض آياته.

وأما على الأصل الثالث، فمن جهة أنّ إنكارهم بالقرآن خلو تام عن خشية الربّ، لما فيه اجتراء على الله بنبذ ما معهم من النصوص البينة والعهود الصريحة. وخاطبهم بهاتين الآيتين خطاباً عامًّا.

ثم خص علماءهم وقادتهم، فنهاهم عما ارتكبوه من لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق بعد العلم والمعرفة. وبعد ما ذكر على سبيل التعريض فساداً عامًّا، وفساداً يختص بعلمائهم، ذكر دواءهما بالترتيب.

أما الفساد العامّ، فهو الذي ظهر في صورة الكفران بالنعمة، والنقض لعهد الله، والخلو عن خشيته. فلإزالة هذه الثلاث أمرهم بالصلاة، والزكاة، والركوع مع الراكعين أمراً عامًّا.

أما الصلاة، فأمرهم بها لكونها جماع الذكر والشكر ورأس العهود كلها كما مرّ، فقدّمها.

وأما الزكاة، فلكونها دواء لمرض الشحّ الذي حملهم على نقض العهود واشتراء الثمن القليل بها. وقد غلبهم هذا الداء العضال، كما قال تعالى في ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ آل عمران: ٧٥ - ٧٧.

وأما الركوع مع الراكعين، فليزيل به صلابة رقابهم، ويفتح لهم باب الخضوع

والخشية للرب، فيؤمنوا بهذه البعثة.

ثم بعد ذلك توجه إلى علمائهم فذكر ما يخُصُّهم، وهو أمرهم الناس بالبرّ وتركهم إياه. و«البرّ» كلمة جامعة لإيفاء الحقوق الواجبة، فلم يزد على ذلك غير دعوتهم إلى الفكر فيما يتلون من كتاب الله وعهده. فانظر كيف ذكر الله تعالى في هذا الخطاب المجمل أصول فسادهم وداءها.

ثم لم يقتصر على ذلك، بل دعاهم خاصة إلى ما يسهل عليهم الامتثال لما أمرهم بها، ليدلّهم على طريق السلوك. وبيان ذلك أن اليهود لما تعسر عليهم الإيمان بما أنزل الله تعالى مصدِّقاً لما معهم هداهم إلى ما يستعينون به، وقد غفلوا عنه، وهو الصلاة. وقد دعاهم إليها أولاً من جهة كونها ذكراً وشكراً وأول العهود بعد التوحيد. ثم كرر الأمر بها لكونها عوناً على جميع الصالحات ومبدأ الهدايات، وضمها بالصبر الذي كان رأس مالهم، كما مرّ آنفاً.

ثم اعلم أن الله تعالى جمع لهم بهذا التكرار بابَي الفلاح. وبيان ذلك أن رحمة الرب تعالى بعد الرحمة الأولى التي خلق بها الإنسان وسوّاه وهداه تتوجّه إليه وتزداد لسببين:

الأول: كونهم شاكرين لنعمه وذاكرين باسمه. وجماعه الصلاة والزكاة والخضوع للرب. فمن هذه الجهة دعاهم أولاً، كما مرّ.

والثاني: كونهم صابرين على بلائه، مقاسين لأذى أعدائه. فدعاهم من هذه الجهة ثانياً، ودلّ على أنّ الصلاة مشتملة على الصبر أيضاً ومقرونة به. وقد مرّ بيان هذه الجهة للصلاة في عنوان التأويل. والظاهر أنّ هذين هما أصلان للدعوة. وقد صرح القرآن بذلك، واستعمل هذا الطريق كثيراً.

فتبين مما ذكرنا أن الله تعالى في هذه الجملة دعا اليهود إلى ما فيه الفلاح لهم،

وجعل مفتاح ذلك الصلاة. وقد صرح القرآن في مواضع بأنّ أهل الكتاب إنما فسدوا بإضاعة الصلاة، وأنّ التمسك بالكتاب إنما يتأتى بالمحافظة عليها.

ومنها: قوله تعالى في ذكر اليهود: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ ﴾ مريم: ٥٩، فبيّن أنّ إضاعة الصلاة تجرُّ إلى الغي. وأيضاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الأعراف: ١٧٠، فبيّن أن التمسك بالكتاب رأسه إقامة الصلاة.

وقد وعدهم الله تعالى أن تدوم عليهم نعمته بالصلاة والزكاة والإيمان برسله، وبذلك عاهدهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢ ﴾ المائدة: ١٢.

فهاهنا دعاهم إلى هذه الأمور، وجعل الصلاة رأسها وأساسها.

ثم اعلم أنّ قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ... وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ ﴾ البقرة: ٤٥-٤٦. يتضمن حجّة بالغة، ويلجئهم إما إلى الإيمان والهداية، وإما إلى الإقرار بصريح الكفر؛ فإن لم يكونوا راضين بذلك فلا بد لهم أن يؤمنوا.

وبيان ذلك أنّ الله ذكر هاهنا سلسلة مما يستلزم المتأخّرُ منه المتقدّم، فإن الصلاة يستلزمها الخشوع، بل هي عين الخشوع. والخشوع يستلزمه محض الظن بلقاء الرب والرجوع إليه. فإما أن يقولوا: إنهم لا ظنّ لهم بلقاء الربّ والرجوع إليه، فيقرُّوا بصريح الكفر، وإما أن يُقِرّوا بذلك. فإن فعلوا فلا بد لهم أن يصلُّوا، فإذا صلَّوا جاءهم التوفيق من الربّ للإيمان بما أنزل مصدِّقاً لما معهم.

فبهذا الخطاب حملهم على النظر في قلوبهم: هل فيها ذرة من الإيمان بلقاء الربّ أم هي قد خلت منه بالكلية؟ وقد خلت، ولكنّهم لم يشعروا به، كما بيّن الله ذلك في الخطاب الثاني المفصّل.

ذلك، ثم بعد هذا الخطاب المجمل أخذ في التفصيل، فذكر:

١- كيف نسوا نعمه، ٢- ونقضوا عهوده،

٣- وصلبوا رقابهم، ٤- وجادلوا بالحق الذي عرفوه،

٥- ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وأقبلوا على السحر والعزائم، وغفلوا بالكلية عن بركات ما أنزل لصلاحهم.

وهذا ذكر طويل مشتمل على جمل مستقلّة متّصلة بعضها ببعض، كما ستعرف، فقال عزّ من قائل حكيم:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا
تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ
نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي
ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ
تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ
عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ
بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ
قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم
مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ
كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ

ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

(٥٧)

تفسير الكلم التي في هذه الجملة

﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ﴾ أي لا تقضي عنها ما كان عليها أن تقضيه. قال تعالى: ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ ﴾ لقمان: ٣٣. وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ الأنعام: ١٦٤، والإسراء: ١٥، وفاطر: ١٨، والزمر: ٧.

قال الجوهري: «جزى عني هذا الأمر: أي قضى. ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾. ويقال: جزت عنك شاة. وفي حديث أبي بردة بن نيار: «تَجْزِي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك» أي تقضي. وبنو تميم يقولون: أجزأت عنك شاة

باهمز. وتجازيتَ دَيني على فلان، إذا تقاضيته. والمتجازي: المتقاضي»[١].

﴿شَفَٰعَةٌ﴾...[٢].

﴿عَدْلٌ﴾ العدل: الإنصاف. قال تعالى: ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ النساء: ٥٨. وأيضاً: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ النحل: ٩٠، وهذا كثير.

والعدل: المساوي. قال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ المائدة: ٩٥.

والعدل: الفدية، لما أنها عُدَّت مساويةً للمفدي عنه.

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي قوم فرعون، أو أتباعه. قال النابغة:

مِنْ آلِ ميَّةَ رائِحٌ أو مُغْتدِ عَجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوَّدِ[٣]

وقال أيضاً:

وقفتُ فيها سَراةَ القوم أسألها عن آل نُعمٍ أَمُوناً عَبْرَ أسفارِ[٤]

وهذا كثير في كلام العرب.

وأما الآل بمعنى الأولاد خاصة، فمعنىً مولَّد. غير أن الأولاد والعيال داخلة في الآل. وربما يراد به الأولاد حسب القرينة[٥].

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يحملونكم. يقال: سامه ظلماً وسامه خسفاً. قال عمرو بن

---

(١) الصحاح (جزى).

(٢) بياض في الأصل.

(٣) ديوانه: ٨٩.

(٤) ديوانه: ٢٠٢، وجمهرة أشعار العرب: ٣٠٥. ورواية الديوان: سراة اليومِ.

(٥) انظر أيضاً كلمة «آل» في مفردات القرآن للمؤلف.

كلثوم:

إذا ما الـمَلْكُ سامَ الناس خَسْفاً أبينـا أن نُقِرَّ الخَسْـفَ فينا[١]

﴿بَلَآءٌ﴾ أي اختبار، من بلاه يبلوه: اختبره وجرَّبه. قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الأعراف: ١٦٨. وكذلك ابتلاهن قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ البقرة: ٢٤٩. وإذ يختبر أوصاف المرء بالخير، كما يختبر بالشر، صار البلاء عامًّا لهما.

﴿مُوسَى﴾ في سفر الخروج (٢: ١٠): «ولما كبر الولد جاءت به (أي أم موسى) إلى ابنة فرعون[٢]، فصار لها ابناً. ودعت اسمه موسى، وقالت: إني انتشلتُه من الماء». فأشار إلى وجه التسمية.

وفي الكلدانية: «مو» هو: الماء. وأما سي... [٣].

﴿فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي فرقنا ماء البحر بعضه عن بعض، ولم يغشكم فيتصل فوقكم. قال زهير بن أبي سلمى:

رَعَوا ظِمْأَهُم حتى إذا تمَّ أَورَدُوا غِمـاراً تَفَرّى بالسلاحِ وبالدّمِ[٤]

و«تفرَّى» أصله: تتفرّى، وهو بمعنى تتفرق.

﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ مصدر استعمل اسماً مثل القرآن. والتوراة والقرآن كلاهما

---

(١) انظر شروح المعلقات.

(٢) كذا في التوراة، والصواب: امرأة فرعون، كما في القرآن الكريم.

(٣) بياض في الأصل.

(٤) انظر ديوان زهير: ٢٣، وشروح المعلقات.

سمي بالفرقان =

١ - لاشتمالها على تفاصيل الأحكام.

٢ - ولفرقه[١] بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

٣ - لكونها واضحاً بيّناً[٢].

وسمي يوم بدر فرقاناً لما ظهر فيه الحق.

﴿بَارِئِكُمْ﴾ «البرء» يشبه الخلق، من برأ يبرؤه. ومنه: البرية، وتُرك همزها.

واعلم أن البرء ليس مرادف الخلق إلا على التجوز، فإن الخلق أصله: التقدير، كما مرّ. والبرء: إصلاحه. والتصوير: إتمامه. ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الحشر: ٢٤، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ الأعلى: ٢.

وزعموا أن «البرا» بغير الهمز كلمة أخرى، ومعناها التراب. قال الجوهري: «البرا: التراب. قال الراجز:

بفيك من سارٍ إلى القوم البَرا

والبريّة: الخلق، وأصله الهمز. والجمع: البَرَايا والبَرِيَّاتُ. قال الفراء: إن أخذت البَرِيّةَ من «البرا»، وهو التراب، فأصلها غير الهمز، تقول منه: براه الله يبروه بَرْواً، أي خلقه»[٣].

---

(١) يعني القرآن.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) الصحاح (برا).

وهذا قول مضطرب، فإن «البرا» حينئذ يكون فعلاً من التراب، وجعله بمعنى الخلق تكلّف ظاهر مبني على أن الخلق إنما يكون من التراب، وهذا كما ترى. ثم الفعل من التراب يكون بمعنى جعله تراباً، لا خلقه من التراب. ثم لا دليل في قول الراجز على أنّ «البرا» هو التراب.

والأولى بالصواب أنّ المادة الواحدة اتخذت صورتين: «برأ» مهموزاً، و «برى» ناقصاً يائيًّا، فإنا نجد معناهما في غاية التشابه. تقول: بريت القلم وبريت السهم برياً: لنحتهما، والمبراة: الحديدة التي يبرى بها السهام. فهذا هو أشبه بمعنى الخلق. وهذه المادة موجودة في العبرانية. ففي أول التوراة: «بارا إلوهيم هاشَّمَيِيم» أي خلق الله السماوات.

﴿جَهۡـرَةٗ﴾ علانيةً وعياناً، من جَهَرَ الركيَّة: نقّاها، وكذلك الصوت. وأصله: التحريك بالشدة، كالنفض للثوب. وأظنها من الألفاظ العتيقة، فإنها نجد في لغة غير السامية ما يشبهها لفظاً ومعنىً.

﴿ٱلۡمَنَّ﴾ هذه كلمة مأخوذة من أهل الكتاب، وعرفتها العرب. قال أعشى ميمون:

لو أطعِموا المنَّ والسلوى مكانَهمُ ما أبصرَ الناسُ طُعماً فيهمُ نَجَعَا[1]

وأهل الكتاب لم يهتدوا لاشتقاقها. ففي سفر الخروج (١٦: ١٣-١٥، ٢١): «فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة. وفي الصباح كان سقيط الندى حوالي المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيقٌ كالجليد على الأرض. فلما رأى بنو إسرائيل قال بعضهم لبعض: من هو؟ لأنهم لم

(١) ديوانه: ١٤٥ يصف بني تميم بالكفر لنعمة هوذة بن علي الحنفي.

يعرفوا ما هو. فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا... وكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد على حسب أكله. وإذا حميت الشمس كان يذوب».

وهذا الاشتقاق كما ترى. والأشبه أنه سمي «منًّا»، لما كان منًّا من ربهم. ويؤيده ما جاء في هذا الأصحاح ف ٤١: «ودعا بيت إسرائيل اسمه منًّا، وهو كبَزْرِ الكُزْبُرة، وطعمه كرُقاق العسل».

ويؤيده ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الكَمأَةُ مِنَ المَنّ»[1] أي كلمة «المنّ» يشتمل كل ما مَنَّ الله به مما تخرجه الأرض القفر للناس.

ويؤيده تسمية الطير التي أتتهم «السلوى». ولسان العبرانية أقرب من العربية.

والروايات التي عندنا مأخوذة مما قدّمنا من سفر الخروج. فعن مجاهد: «المنّ صمغة»[2] وعن السدي: «المنّ كان يسقط على شجر الترنجبين».

وعن وهب: «خبز الرُّقاق مثل الذُّرة ومثل النقي»[3]. وهذا لما سبق من قول موسى عليه السلام: «هو الخبز الذي أعطاكم». وقد كثر في الصحف إطلاق الخبز على الطعام.

ولعله أيضاً مأخوذ من قول أهل الكتاب مما فسّروا به المنّ. ففي سفر العدد

---

(١) متفق عليه.

(٢) الطبري ٢: ٩١، رقم ٩٦٦.

(٣) الطبري ٢: ٩٢، ٩٩-١٠٠، رقم ٩٧٢، ٩٩٥.

(١١: ٧-٨): «وأما المن فكان كبزر الكزبرة، ومنظره كمنظر المُقْل. كان الشعب يطوفون ليلتقطوه، ثم يطحنونه بالرحى، أو يدقّونه في الهاون، ويطبخونه في القدور، ويعملونه مَلّاتٍ. وكان طعمه كطعم قطائف بزيت».

والظاهر أن هذا التفسير مما أدخله المتأخرون منهم إذ لم يفهموا معنى الخبز.

وعن قتادة: «كان المن ينزل عليهم مثل الثلج»(١). وهذا لما سبق: «دقيق كالجليد على الأرض».

وعن ابن زيد: «المن عسل كان ينزل لهم من السماء»(٢).

فهذه الأقوال كلها مأخوذة من أهل الكتاب.

﴿ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ اسم طائر يشبه السُّمانَى. الواحد والجمع سواء. عن ابن عباس، وابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: «السلوى طير يشبه السّمانى» (ابن جرير)(٣).

وهذا الاسم أيضاً مأخوذ من أهل الكتاب وعرفته العرب، كما مرّ شاهده في تفسير المنّ. وهو اسم للطير التي أرسلها الله لبني إسرائيل في البرية حين تذمروا. ففي سفر الخروج (١٦: ١-٣ و١١-١٣):

«ثم ارتحلوا من أيليم وأتى كل جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين أيليم وسيناء في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر. فتذمر

---

(١) الطبري ٢: ٩٢ رقم ٩٦٨.

(٢) الطبري ٢: ٩٢ رقم ٩٧٠.

(٣) الطبري ٢: ٩٦ رقم ٩٧٩.

كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية. وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كلَّ هذا الجمهور بالجوع... فكلّم الرب موسى قائلاً. سمعتُ تذمر بني إسرائيل. كلِّمهم قائلاً في العشية: تأكلون لحماً وفي الصباح تشبعون خبزاً. وتعلمون إني أنا الربّ إلهكم. فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطّت المحلة».

﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ لعلها من قريت الماء في الحوض: أي جمعت. والبعير يَقْري العَلَف في شدقه: يجمعه. والقرية لا تختص بالصغيرة، وقد كثر في القرآن إطلاق القرى على المدن الكبار.

﴿سُجَّدًا﴾ أي خافضين رؤوسكم. وأما وضع الجبهة على الأرض، فهو تمام السجود، وهو المراد في الأكثر. قال عمرو بن كلثوم:

إذا بلغَ الفطامَ لنا صبيٌّ　　　تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا(١)

﴿فَبَدَّلَ﴾ بدّل الشيءَ شيئاً: أي جعل الثاني عوضاً للأول، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إبراهيم: ٢٨ أي جعلوا الكفر بدلاً لنعمة الله. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ الفرقان: ٧٠.

وأيضاً: غيّره، كما حكى الله تعالى عن قول المنكرين: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يونس: ١٥.

وأيضاً: أتى بشيء آخر في مكانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ

(١) انظر: شروح المعلقات.

أَمْنًا﴾ النور: ٥٥. وربما يبين هذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ سبأ: ١٦. وايضاً: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ الأعراف: ٩٥. وربما يحذف المبدل منه، كما قال تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ النساء: ٥٦ أي بجلودهم جلوداً غيرها.

﴿رِجْزًا﴾ لغة في الرجس. وأصل المعنى: الاضطراب، والحركة العنيفة، والارتعاش. ولذلك يطلقان على القذر لما تشمزّ منه النفس وتضطرب، وعلى العذاب لإزعاجه الناس.

وقال الجوهري: «الرَّجْسُ بالفتح: الصوت الشديد من الرعد ومن هدير البعير. ورَجَسَتِ السماء تَرْجُسُ إذا رعدت وتمخضت. وارتَجَسَت مثله. وسحابٌ رجّاس وبعيرٌ رَجّاسٌ. قال ابن الأعرابي: يقال هذا راجسٌ حَسَنٌ، أي راعد حسن. ويقال: هم في مَرْجُوسَةٍ من أمرهم، أي في اختلاط. والمِرْجاسُ: حجر يُشدُّ في طرف الحبل ثم يُدْلَى في البئر فيَمْخَضُ الحَمْأَةَ حتى تثور، ثم يستقَى ذلك الماء فتَنْقى البئرُ»(١).

قال تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الأنفال: ١١ أي قذره وأذاه. وأيضاً: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ الأحزاب: ٣٣. وأيضاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ المائدة: ٩٠.

وهكذا جاء الرجز والرجس للعذاب. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ الأعراف: ٧١، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا

(١) الصحاح (رجس).

هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥.

﴿بَقْلِهَا﴾ البقل: كل ما تخرجه الأرض من ناعم النبات. أبقلت الأرض: أنبتت[1].

﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ القثاء فِعّال، وهو الخيار.

﴿وَفُومِهَا﴾ الفوم: هو الثوم. والعرب تبدل الثاء بالفاء وبالعكس، فيقولون: «وقعوا في عَاثُور شر: وعافور شر» ويقولون للأثافي: «أثاثِيّ». وهكذا فسّره عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه[2]. وهكذا جاء في التوراة، كما سنذكره في عنوان التأويل[3]. وهذا ظاهر جداً. فلا ثقة بما روي من أقوال كثيرة فيه من الخبز، والحنطة، والسنبلة، والحب الذي يختبز الناس منه.

﴿أَدْنَىٰ﴾ من الدناءة، وترك الهمز تخفيفاً، أي ما هو أردأ وأخسّ. وليس من «الدنو» بمعنى القرب.

﴿اهْبِطُوا﴾ هبط: سقط. ويطلق على النزول في موضع إقامة، يقال: هبطنا الوادي: أي دخلنا فيه. وكانوا يسكنون في أرض سهل يجري فيه الأنهار، وإذا حفروا بئراً كان الماء قريباً. ومن هاهنا قالوا: هبطنا مصراً، فصار الهبوط مرادفاً للنزول. ولعل

(١) انظر الطبري ٢: ١٣٠.

(٢) انظر الطبري ٢: ١٣٠.

(٣) في سفر العدد (١١: ٤-٦) «واللفيف الذي في وسطهم اشتهى شهوة. فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا: من يطعمنا لحماً. قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثّاء والبطيخ والكرّاث والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسنا. ليس شيء غير أن أعيننا على هذا المن».

ذلك لأن المسافر عند الإقامة ينزل عن مركبه.

وأيضاً لما كانت هذه الأشياء من نبات أرض دميث مطمئنة، حسن هاهنا موقع «اهبطوا».

﴿مِصْرًا﴾ المصر: المدينة. وأما «مصر» من غير انصراف مع جوازه، فملك مصر فرعون. وبهذا المعني لم يجئ في القرآن إلا غير منصرف: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الزخرف: ٥١. أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ يوسف: ٩٩. أيضاً: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يونس: ٨٧. أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ يوسف: ٢١.

ولم يجئ منصرفاً إلا في هذه الآية، فالظاهر أنه بمعنى المدينة.

ومصر فرعون سمي «مصر»، لكونها مسكن مصرايم. في التكوين (١٠: ٦): «وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان».

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي ألصقت بهم، من ضرب الطين اللازب على الجدار. قال نابغة ذبيان:

ولا يحسِبُونَ الخيرَ لا شرَّ بعده ولا يَحسِبُونَ الشرَّ ضربةَ لازِبِ[1]

﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ ضده: العزة، وهي المنعة. أي يقهرهم أعداؤهم. قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ الملك: ١٥. أي خاضعة موطوءة. يقال: دابة ذلول، أي غير صعبة. قال تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ النحل: ٦٩. أي طائعات.

﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ مفعلة من السكون. وتستعمل للعجز وسقوط الهمة وبؤس العيش. ومنها: المسكين، أي الذي سُدَّ عنه طُرق الكسب. ودل على هذا المعنى

(١) ديوانه: ٤٨.

ما جاء في الحديث: «ليس المسكين الذي تَرُدُّه اللقمةُ واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يُفْطَنُ له فيُعطَى»[1]. فالمسكنة: شدة العجز، وسوء العيش.

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾...[2]

﴿هَادُواْ﴾ هادَ يَهُود هُوداً: تاب ورجع. قال تعالى حكاية عن دعاء موسى عليه السلام: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ الأعراف: ١٥٦. وأيضاً هاد: صار يهوديًّا. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ البقرة: ١٣٥. وهكذا تهوَّد. وذلك على طريق العربية، كما يقال: تنصر، من النصرانية.

وزعم الطاعنون في القرآن أنّ هذه الكلمة خطأ، فإنّ اسم اليهود ليس مأخوذاً من مادة «هود»، بل هو للنسبة إلى يهوذا. فنبيِّن اشتقاق هذا الاسم، لتعلم أنّ طعنهم من سوء فهمهم القرآن، وصحفهم.

أما القرآن فاستعماله هذه الكلمة ليس إيجاد لفظ من قِبَله، بل هو حسب لسان العرب. فإنهم جعلوا فعل «هاد يهود» لمن كان يهودياً. وقوله: ﴿هُدۡنَآ﴾ ليس لبيان اشتقاق اسم اليهود، بل جاء في معناه الأصلي. ومع ذلك أشار إلى أصل ذهلت اليهود عنه، كما سيأتيك ذكره.

وأما سوء فهمهم لصحفهم، فستطلع عليه مما نذكره:

فاعلم أن «يهوذا» كان ابناً رابعاً ليعقوب عليه السلام من الاثني عشر ابناً الذين خرج منهم الأسباط الاثنا عشر. وأعطي كلُّهم نصيباً من الأرض في عهد يشوع،

(١) لسان العرب (سكن). والحديث متفق عليه.

(٢) ذكر الناسخ أن في الأصل هنا صفحة كاملة بيضاء.

فوقع في نصيب بني يهوذا من أرشليم إلى أقصى الجنوب. وكان داود ﷺ من هذا السبط، وانحازت مملكة بني إسرائيل كلُّها إليه، فعظم أمر سبط يهوذا. ثم ورث الملك بعده ابنه سليمان ﷺ، وبنى الهيكل في دار ملكه، فزاد ذلك عظمة أخرى لسبط يهوذا وملكهم.

ثم بعد ذلك وقع بينهم اختلاف، فصارت هذه الأمة فرقتين: يهوذا على جانب، وبقية بني إسرائيل على آخر. وخمل ذكر باقي الأسباط، فكثر في صحف اليهود ذكر يهوذا، وإسرائيل. ثم بعدما سباهم الكلدانيون صار «اليهود» اسماً عامًّا لبني إسرائيل. وذلك يدل على عدم فرقهم بين «يهوذا» بالذال المعجمة، و«يهود» بالدال المهملة.

وقد التبس اشتقاق هذا الاسم على اليهود، فإنهم ظنوا أنه من «يهو»: أي الرب تعالى، و«ذا» أي هذا. وسبب هذا الظن أنهم وجدوا أسماء مركبة من «يهو» وكلمة أخرى موصولة به، مثل «يهوياقيم». ولم يفهموا العبارة التي وجدوها في سفر التكوين في سبب التسمية، وهي (٢٩: ٣٥):

«وحبلت أيضاً (أي ليئة، زوجة يعقوب ﷺ) وولدت ابناً وقالت: هذه المرة أحمد الرب. لذلك دعت اسمه يهوذا».

فظنّوا أنّ «يهوذا» يشير إلى «هذه المرة»، و«يهو»[1]. وهذا خطأ، فإن الاسم يشير إلى «أحمد الرب». والعبارة محتملة لهذا التأويل أيضاً. والدليل على صحته أمور:

الأول: أن الإشارة إلى معاني أسماء أبناء يعقوب ﷺ، كما جاءت في ذكر ولادتهم، فهكذا جاءت في دعاء يعقوب ﷺ حين باركهم. مثلاً جاء عند ذكر

---

(١) وانظر: مفردات القرآن للمؤلف: ٣٢٦ (الحاشية).

الولادة في سفر التكوين (٣٠: ١٩-٢٠):

«وحبلت أيضاً ليئة وولدت ابناً سادساً ليعقوب. فقالت ليئة: قد وهبني الله هبة حسنة. الآن يساكنني رجلي لأني ولدت له ستة بنين. فدعت اسمه زبولون».

وجاء في هذا السفر عند ذكر البركة (٤٩: ١٣): «زبولون عند ساحل البحر يسكن». فأشار في كلا الموضعين إلى معنى السكونة.

فهكذا جاء في دعائه ليهوذا في هذا السفر (٤٩: ٨): «يهوذا إياك يحمد إخوتك. يدُكَ على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك».

فتبيّن أنّ وجه التسمية هو الحمد والطاعة، وأن اسم «يهوذا» ليس مركّباً من «يهو» ، و«ذا»، بل هو كلمة واحدة من مادة «هود».

والثاني: أن بعد السبي نجد اسم اليهود يطلق عليهم واسم اليهودي على لسانهم، كما جاء في سفر عزرا، ونحميا، واستير، وإشعيا، وإرميا، ودانيال، والإنجيل حتى اشتهر هذا الاسم. فلو كان الأصل «يهوذا» لسموا باليهوذي بالذال المعجمة[1].

والثالث: أن الأسماء المركبة من «يهو» لا بد أن تتضمن كلمة أخرى تدل على وصف يليق وصله بـ«يهو». وكلمة «ذا» ليست مما يليق بأن يُضمَّ بـ«يهو» في تسمية مخلوق، فإن المعنى يكون: هذا الله. وشناعة هذه التسمية ظاهرة.

والقرآن ربما ينبّه على خطئهم، كما هو مبسوط في موضعه. فنبّه على أن اسم «يهوذا» الذي انتسبوا إليه أصله من مادة «هود». ومن حسن إشارة القرآن أنه نبّه اليهود على معنى اسمهم، ليعلموا أنهم يلزمهم أن يتوبوا إلى ربهم.

---

(١) وانظر: مفردات القرآن للمؤلف: ٣٢٧ (الحاشية).

وما أحسن موقع هذه الكلمة هاهنا! فإنه في ذكر الصلحاء منهم، فلم يذكرهم باسم اليهود، لما اشتهروا بالعصيان ونقض العهود من حيث قومهم، بل ذكرهم بوصف الهود.

﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ جمع نَصْران، مثل نَدَامَى جمع ندمان. وهذا الاسم كان لهم في الأول، وقدماؤهم لم ينكروه، ولكن المتأخرين منهم ظنوه شتماً، وأنكروا هذا الاسم عناداً بأوائلهم.

وبيان ذلك أن أتباع المسيح عليه السلام صاروا فرقتين: فرقةً اتبعوا الخليفة بالحق شمعون[1]، وتسمَّوا باسم النصارى، وكلهم آمنوا بمحمد ﷺ، وهم الذين مدحهم القرآن حيث قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ المائدة: ٨٢. فصرّح بأنّ المراد هم الذين تسمَّوا بهذا الاسم.

وفرقةً اتبعوا بولوس المبتدع، وهم الباقون الآن. وهؤلاء قد زعموا أن النصارى كلمة التحقير، لأنها نسبة إلى «ناصرة» وهي قرية حقيرة عندهم، كما جاء في يوحنا (١: ٤٥-٤٦): «فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع بن يوسف الذي من الناصرة. فقال له نثنائيل: أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح».

وهذا من تكبر هذه الفرقة، فإن «الناصرة» إن كانت مولد عيسى عليه السلام فأي حقارة في النسبة إليها؟ وقد زعموا أن «الناصرة» كانت مولده، كما جاء في أناجيلهم، بل إنه يدعى «ناصريًّا» كما جاء في متى (٢: ٢٣): «وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة. لكي يتمّ ما قيل بالأنبياء بأنه سيُدعى ناصريًّا».

---

(١) وهو الملقب «بطرس».

وزعم الطاعنون أن القرآن لم يعرف هذه التسمية وجعلها من النصرة، لما جاء فيه: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ الصف: ١٤.

وهذا الظن منشؤه الجهل بمعنى الآية، فإنها إنما ذكرت أمراً حقًّا، ولم تذكر وجه التسمية. نعم فيها إشارة إلى أن المسمَّين بالنصارى يجب عليهم نصرُ الحق، لما في اسمهم تذكار لذلك. وأمثال هذه الإشارات توجد في كلام الأنبياء. قال عيسى عليه السلام لشمعون ـ وكان يدعى «صفا» ـ متى (١٦: ١٨): «وأنا أقول لك أيضاً: أنت صفا، وعلى هذا الصفا أبني كنيستي».

﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ ذكر ابن جرير رحمه الله فيه أقوالاً. فعن مجاهد والحسن: أنهم قوم لا دين لهم، وهم بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبيحتهم[١]. وعن ابن زيد: أنهم على دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي[٢]. وعن قتادة: أنّهم قوم يعبدون الملائكة، ويصلّون إلى القبلة، ويقرؤون الزبور[٣]. وعن أبي العالية وسفيان: أنهم قوم من أهل الكتاب[٤].

أقول: لا مناقضة بين هذه الأقوال، فإنهم أولاً كانوا على دين الحق ثم نسوه، فعبدوا الملائكة، وعظّموا النجوم؛ كما أن أولاد إسماعيل عليه السلام كانوا على ملة إبراهيم، ثم وقعوا في الشرك. وهذه الآية تدل على ذلك كما هو ظاهر. وكانوا مولعين بالصلاة، ولذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ ولأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم

(١) انظر الطبري ٢: ١٤٦، رقم ١١٠٠-١١٠٦.

(٢) المرجع السابق ٢: ١٤٧، رقم ١١٠٧.

(٣) المرجع السابق ٢: ١٤٧، رقم ١١٠٩.

(٤) المرجع السابق ٢: ١٤٧، رقم ١١١٠-١١١١.

بهم[١].

وأما وجه التسمية، فلعله من صَبَأَ على القوم: طلع عليهم. وصَبَأَ ناب البعير: طلع حده. وأَصْبَأَ النجم: أي طلع الثريا[٢]. وكان الصابئون أصحاب الرصد والنظر في النجوم، فسمّوا بذلك. والله أعلم.

(٥٨)

بيان تأليف الكلم

(١) قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطف على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ اعتناء بذكر الخاص بعد العام، كما في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾.

(٢) وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى﴾ حذف الظرف لظهوره، أي لا تجزي فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لقمان: ٣٣.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم﴾ أي واذكروا إذ نجيناكم. والعطف للتفصيل بعد الإجمال.

(٤) قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال عن المفعول في ﴿نَجَّيْنَـٰكُم﴾.

(٥) قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بيان سوء العذاب بذكر أكبره. فإنهم كانوا يعذبونهم بأنواع المحن.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الواو للاستئناف. و﴿ذَٰلِكُم﴾ أي ما ذكر من النجاة والعذاب.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١: ١٠٠.

(٢) انظر الصحاح، واللسان (صبأ).

(٧) قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ الواو للبيان.

(٨) قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ فيه حذف، أي قلنا لهم.

(٩) قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ حطة قائمة مقام جملة ـ حسبما نذكره في التأويل ـ فارتفعت، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ النساء: ٨١.

(١٠) قوله تعالى: ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ بحذف المبدل منه، كما مرّ في عنوان الكلم. أي لم يقولوا: حطة، بل بدّلوها قولاً غيرها.

(٥٩)

نظرة من جهة البلاغة

اعلم أن هذه الجملة مشتملة من أساليب البيان على:

١- التأسيس والتفريع.
٢- ثم الرجوع إلى الأساس.
٣- واللف والنشر.
٤- والتفصيل.
٥- والإيجاز.
٦- وحسن اختيار النسبة.
٧- والعدد.
٨- والتقابل.

(١) واعلم أنه تعالى ذكر الأصل، ثم فصّل الفروع. وبيان ذلك أنّه أمرهم أولاً بذكر النعمة وباتقاء لزوم الجزاء، فكأنه قيل لهم: اشكرو لي واتقوني. وهذان أصلان لتعليمهم، كما سنذكره في عنوان التأويل.

ثم فصّل النعم المتتابعة، والنقم اللازمة، وتوبة الرب عليهم مرة بعد مرة. وذلك ليعرفهم أن الربَّ منعم تواب فيشكروه؛ وأنهم غلوا في المعصية وعدم الشكر، وقد أصابهم تبعات الظلم والفسق، ليتقوه.

(٢) واعلم أنه تعالى كما بدأ بذكر الأصل فكذلك ختم به. وذلك ليعلموا أن المطلوب هو الإيمان والعمل الصالح، وبعبارة أخرى: الشكر والتقوى، لا محض التسمية بدين خاص، والجمود على الظاهر؛ وأن الله تعالى لا يعبأ بظواهر الدين. هذا غير ما تظهر لك من وجوه البلاغة في الفصول الآتية لا سيما النظم.

(٣) واعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى ﴾ إلى قوله: ﴿يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ جاء على أسلوب اللف والنشر، كما نذكره في عنوان النظم.

(٤) وهذه الأمور التي ذكرها الله تعالى مبسوطة في سفر الخروج وسفر العدد ببسط وتفصيل مع أمور أخر. فلم يذكر لهم إلا ما عرفوه واعترفوا به.

(٥) ولا يخفى أن المراد بإيراد القصص ليس إلا النصح. فدلَّ بغاية الإيجاز على أحوال اليهود من كفرهم بنعم الله مرة بعد مرة، حتى يتبيّن أنهم لم يكونوا من أول أمرهم جديرين بحمل الشريعة الكاملة، وأن الله تعالى لم يبخل عليهم بل هم أنفسهم تقهقروا.

(٦) واعلم أنه تعالى كل ما ذكر من النعم نسبها إلى ذاته، وكل ما ذكر من النقم لم ينسب منها إلى ذاته إلا واحدة. وهي التي ذكرها في قوله: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ البقرة: ٥٩. وجعل هذه الواحدة بين ذكر ظلمهم وفسقهم، وقيّدها بالتخصيص. وذلك ليعلموا أن الإنعام هو المراد، كما قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ النساء: ٧٩. ولنفي الشرك في الملك بيّن مرةً واحدةً أنّ العذاب ليس إلى بإذنه، كما بيّن مع قوله الذي أوردنا وقال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٧٨. فانظر كيف راعى في كل ما ذكر حسن نسب الأمور.

(٧) واعلم أنه يرى في إيراد هذه الأمور مراعاة مناسبة العدد. فإنا نرى حسب عدد الأسباط اثني عشر أمراً. وذلك:

١ - إنقاذهم من عذاب فرعون. ٢ - إهلاك أعدائهم.

٣- عفوه عنهم بعد ظلمهم. ٤ - إعطاؤهم الكتاب.

٥- التوبة بعد التمحيص.

٦- طغيانهم وصلابة رقابهم وتبعة ذلك، والتوبة.

٧- نعمة التظليل بالغمام. ٨- إنعام المن.

٩- إنعام السلوى.

وجمع هذه الثلاث، لكونها من باب رأفته، ولما ظهر عند كل ذلك ظلمهم وتذمّرهم.

١٠- نعمة السكنى، وعدم شكرهم وفعلهم خلاف ما أمروا.

١١- توفير النعمة، لكيلا يحاربوا من الشح ويتوكلوا على الربّ وفضله.

١٢- قلة صبرهم وغلبة البهيمية عليهم وتبعات ذلك.

(٨) واعلم أنه جمع النعم بالنقم رعاية للشكر والتقوى، وجعلها متتابعة. فجاء الكلام كسلك الجمان المفصل.

(٦٠)

في تأويل الجمل

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ ٤٨﴾ أي اذكروا نعمتي المتوالية، فاشكروني. واتقوا يوم الجزاء فلا تكفروني. فكأنه قيل: اشكروني واتقوني.

تذكرة للتأويل

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ الآية. أي ذلك يوم العدل والفزع الأكبر، فليس أحد يفدي أحداً بنفسه، فإنهم كلهم في شغل، ولا يقبل ذلك أيضاً لأنه يوم العدل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ غافر: ١٧ - ١٨.

[تذكرة أخرى][1]

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ذكر النعمة والفضل.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا ...﴾ الآية. أي اشكروني واخشوني، كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ الأنبياء: ٩٠، فصرح بالنعم، وأشار إلى النقم.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ... وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

تفصيل النعم والنقم وإظهار الآيات عليهما. [وقد] جمع الوجوه، ففيه:

(١) إظهار الآيات، فكذبوها من فساد الفهم.

(٢) وإظهار النعم، فكفروها من فساد القلب.

(٣) وإعطاء الهدى، فأبوا من فساد العقل.

(٤) وإظهار النقم، فلم يخافوا من فساد القلب. فهذا إجمال.

(٥) وظهور صفاتهم، من:

---

(١) هذه التذكرة علّقها في حواشي الصفحات التي أثبت فيها الآيات (٤٧-٦٢) ونقلناها إلى فصل التأويل.

١ - الكفران بالنعمة، ٢- والنسيان، ٣- وسرعة الفساد،
٤- والشرك، ٥- وعدم التقوى،
٦- وقلة المبالاة بالآيات والنعم، ٧- وصلابة الرقاب،
٨- والشح، ٩- وسقوط الهمة،
١٠- وقلة الصبر.

(٦) وظهور صفات الرب، من:

١ - الرحمة، ٢- والقوة، ٣- والهداية،
٤- والعفو، ٥- والتوبة، ٦- والغضب،
٧- والمنة، ٨- والرزق، ٩- والزيادة،
١٠- وحب العدل.

(٧) وغلبة الحق.

(٨) ولزوم العدل.

أما الآيات:

١ - فعجز فرعون، ٢- وفلق البحر، ٣- ثم غرق آل فرعون،
٤- وإعطاء التوراة من بين الدخان والظلمة، ٥- والصاعقة،
٦- والغمام، ٧- والمن، ٨- والسلوى،
٩- والرجز، ١٠- وانفجار العيون.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم...﴾ الآية. أي أزال النقمة عنكم وهي أول النعمة،

فبلاهم بالنقمة ثم بالنعمة اللتين جرتا عليهم، فأحياهم.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ نقمة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ نعمة. أنعم عليكم فأنجاكم، وانتقم من أعدائكم فأغرقهم، فأراهم آية بينة على النعمة والنقمة.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ ﴾ موقع الشكر ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ كفرهم ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ نعمة الدعوة إلى إنجاز الموعود لإبراهيم الطَّيْلاً، فعفا عنكم فأعطاكم أكبر النعم مع عدم الاستحقاق، وكما صرحت به الصحف. وكان عبادة العجل نتيجة لعملهم، فكان نقمة الضلال. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ... ﴾ وهذا العفو أنه تعالى لم يحرمهم إعطاء الكتاب والنبوة.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ فأنجز ما وعد مع عصيانهم. وذلك غاية الكرم، ليشكروا.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم... فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ نعمة التوبة والمغفرة، فلم يهلككم مع استحقاقكم به. فأراهم النعمة والنقمة ليعرفوهما، ويفزعوا إلى التوبة قبل الفوت.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً... ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ طغيانهم فعاملهم بالنقمة، وأحياهم فأراهم آية حسب طلبهم. وجمع لهم النقمة والنعمة ليشكروا.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ نعمة الحياة.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ نعمة الراحة ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ نعمة الرزق. أراهم ثلاث آيات (أي الغمام، والمن، والسلوى) تدل على كون الرب معهم برأفته، ورزقه. وأعطى هذه النعم بعدما ذاقوا التكاليف، ليعرفوا قدر النعم بعد أن

تذمروا وكذبوا بآيات الرب وظلموها.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: وما ضرّونا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ نعمة الرغد والزيادة ﴿...فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا...﴾ نقمة. إعطاء الرب إياهم مسكناً، ووعد بالمزيد لمحض إقرار العبودية، ففسقوا، فأراهم النقمة وأظهر لهم آية أخرى. ثم عفا عنهم، كما جاء في صحفهم.

﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ...﴾ أغاثهم وأظهر آية، وبين أن رزق الله واسع، فلا حاجة إلى الجدال والفساد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ...﴾ قلة الصبر وسقوط الهمة. فاستحقوا ما طلبوا، فضربت عليهم الذلة. وذلك بعد تكرار كفرهم بآيات الله، واجترائهم وسخطهم بالمصلحين المنذرين الآمرين بالقسط.

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ كان قد اشتد خوفهم من الإقامة في مصر، فلا يكادون يدخلون أرضاً ممصرة. ويدل على ذلك إباؤهم عن دخول الأرض المقدسة جبناً وتقبيحهم إياه.

﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية. الكفر بالآيات بتكذيب الأنبياء، وانتهاؤه قتلهم. وبناء ذلك أمران: تفريط، وإفراط. أما التفريط، فعدم امتثالهم بما أمروا. وأما الإفراط، فعملهم خلافاً لما أمروا به. فكذبوا الأنبياء من جهة العصيان، وقتلوهم من جهة العدوان.

وكذلك الذلة والمسكنة أهون من غضب الله. فضربت عليهم الذلة والمسكنة لعصيانهم وتكذيبهم، وباؤوا بغضب من الله لقتلهم الأنبياء واعتدائهم. ويدل على

ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ البقرة: ٨٥.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بما عرف نعمه، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فخاف نقمه. فعاد إلى ما بدأ به من الأصلين. ثم ذكر نتيجتهما وهي: إصلاح العمل. ونتيجة كل ذلك: الأجر من الرب. وتمامه وكماله: إعدام الخوف (أولاً) والحزن (ثانياً). الأول من الإيمان بالله، فإنه الرحمن. والثاني من كون يوم الآخر مذهلاً لما جرى عليهم في الدنيا.

(٦١)

تذكرة للنظم

آية (٤٧): النعم وإعطاء الفضيلة على العالمين من باب واحد. ولكن وضع العام قبل الخاص رعاية الزيادة.

آية (٤٨): ذكر أربعة أمور، وجعل الاثنين الأولين بإزاء الاثنين الآخرين على ترتيب اللفّ والنشر؛ فإن جزاء نفس عن نفس من نوع الفدية، والشفاعة من نوع النصر، كما مرّ بيانه في عنوان التأويل.

وقدم الخاصّ على العامّ، وذلك في موقع النفي يدل على الزيادة، أي ليس له هذا ولا ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب وصديق يفديه بنفسه ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ غافر: ١٨ أي ولا من الأجانب أحد يشفع له. فهكذا هاهنا. ثم رجع، فكأنه قيل: وليس له أن يفدي بمال من عند نفسه فإنه في غاية الفقر، وأيضاً ليس له من الأغيار من ينصره فإنهم أيضاً مثله عاجزون عند الربّ ويشفقون من خشيته. فقدم الخاصّ القريب في كلا الجزئين. كما قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ فهذا ما عنده. وقدم في ذلك الأقرب فالأقرب، والأكرم فالأكرم، لاقتضاء الموقع كما هو

ظاهر ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ المعارج: ١١-١٤.

وهكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ البقرة: ٢٥٤. أي لا مال عنده فيفتدي به، ولا خليل فيفديه بنفسه، ولا مولى فيشفع له. فذكر الأقرب فالأقرب.

واعلم أن القرآن يصرف في نظمه ليحثّنا على التأمل، فنعلم وجوهاً مختلفة من مناسبات الأمور. فذكر هذه الأمور الأربع في موضع آخر على ترتيب متسق من غير اللفّ والنشر. وذلك قوله تعالى في هذه السورة ـ آية ١٢٣: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ فجمع قسمي الفدية، وقسمي النصر.

تفسير

سورة آل عمران

سورة آل عمران

وهي مئتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

في عمود السورة ونسبتها بالسورة السابقة

قد تشابهت هذه السورة والسورة التي قبلها في إثبات هذه النبوة على الناس عموماً وعلى أهل الكتاب خصوصاً. وأيضاً تشابهتا في تكثير الدلائل وبسط الكلام في أصول الدين، فصارتا صنوين، فسمّاهما الله باسم واحد، وكذلك النبي ﷺ جمعهما في وصفهما إذ سمّاهما «الزهراوين»، وفيما مثّلهما بأنهما تأتيان يوم القيامة في صورة غمامتين[1]. وهذا التمثيل حقيقة عند أولي البصائر. ولاشتراكهما في المعاني فصّل في إحداهما ما أجمل في الأخرى، فهما متشابهتان وزوجان كتشابه اليمين واليسار. ومع ذلك لهما وجوه خاصة، ومنها يتبين سبب التقديم والتأخير، فنذكرها إجمالًا:

فالأول: أن سورة البقرة نزلت حين أحس أهل الكتاب بأن الإسلام ينمو ويتزايد، وقد شهدت قلوبهم بصدقه، ولكن كرهوا قبوله حسداً وعصياناً، فاضطربت آراؤهم. فمنهم من سخط بروح القدس، ومنهم من اعتمد على أن دين الله ينحصر في اليهودية والنصرانية فلا يلتفت إلى ما سواهما، ومنهم من خادع المسلمين ليردهم إلى الكفر. فجاءت السورة حسب هذه الأحوال، فألقت إليهم الدلائل في أكثرها بدأً، وذكّرتهم ما اكتسب سلفهم من سخط الله بكفرهم وتقهقرهم. وأوضحت لهم مزايا

---

(١) سبق تخريجه في مقدمة تفسير سورة البقرة.

هذه البعثة في علوّ سندها وإحكامها. فكانت السورة سورة بدر، ودعوة إيمان، وإثبات حق، وجهاد فيه.

وأما سورة آل عمران فإنها نزلت بعد برهة من الزمان بعد أن ظهرت غلبة الإسلام وحجته، فلانت له عرائك أهل الكتاب. فمنهم من أسلم له، ومنهم من صالحه. فكانوا فريقين: فريق أسلم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، وفريق لم يسلم ولكن رضي بإسلام المسلمين على أن يتركوا لهم يهوديتهم ونصرانيتهم، وهم يدَعون للمسلمين إسلامهم، اعتقاداً منهم بأن كل دين حق لأهله، فليسكنوا معاً مطمئنين في الأرض. ففريق أسلم لطمع في نفع، وفريق كفّ عن الشر لخوف من حيف. فلما أصاب المسلمين قرح يوم أحد انقلبت قلوب هذين الفريقين.

أما الفريق الأول، فكرهوا ارتكاب الخطرات وبذل النفوس والأموال لإقامة سلطنة تبين لهم ضعفها، فخافوا منها على أنفسهم أكثر مما طمعوا، فنكصوا عن الطاعة.

وأما الفريق الثاني فلاح لهم رجاء أن يهدموا بناء حكومة صالحوها اضطراراً، فاستكبروا بكثرة العدة والعدد، وجاهروا بالعداوة والحسد. وألقوا الشبهات في قلوب ضعفاء المسلمين ليردوهم عن الإسلام ويفرقوهم كما افترقوا شيعا. وذلك لأنهم لم يعرفوا أن الدين عند الله لا يتعدد ولا يتبعض، فيطاع في بعض أموره ويعصى في أخرى.

وبالجملة كلا الفريقين جهل بحقيقة معنى الإسلام، وهو الدين والطاعة لله وحده في النعمة والبؤس، والتباس الأمور، وغشيان الظلمة على النور. فإن الحق محكم، ولكن ربما يغمض ويخفى، وحينئذ يصير كاللب تحت القشور. فالراسخون لا يتزعزعون، والجاهلون بالحق يقلعون. فكانت واقعة أحد آية متشابهة ظاهرها يوقع

في الشك وباطنها حكمة. فلئن كان يوم بدر فرقاناً بين الحق والباطل، فلقد كان يوم أحد أيضاً فرقاناً بين أهل اليقين الراسخين وأهل الزيغ الناظرين إلى الظاهر.

فنزلت السورة حسب هذه الأحوالِ، فأنزل الله الدلائل فيها على سبيل الردّ، وبنى الحجة على مسلّماتهم. وأوضح ضلالة الارتياب، وخسران الاختلاف، ومغبة التقاعد عن الطاعة.

وكما أن السورة بيَّنت كيد المخالفين لتحذِّر المسلمين، فكذلك نبهت المسلمين على ضعف من زعزعته المصائب، فوعظتهم وعظاً بليغاً، ودعتهم إلى الوحدة.

فكانت هذه السورة سورة أحد، وسورة دعوة إلى الإسلام، ليدخلوا في سلطنة إلهية، ويذعنوا لما يدعوهم الإسلام إليه.

ويؤيد ما ذكرنا من عمود السورتين:

١- أن ذكر الإيمان في الأولى أوضح وأتم، كما أن ذكر الإسلام في الثانية أظهر وأوعب.

٢- وأن النبي ﷺ قرأ في ركعتين من صلاته آية الإيمان من الأولى وآية الإسلام من الثانية، فكأنه جمع بين ملاك أمرهما، ودلّ بذلك على عمودهما.

٣- وأن الأولى ختمت بجملة واضحة جامعة في الإيمان، وهي قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ البقرة: ٢٨٥ الآية. وختم هذه الجملة بذكر الطاعة الكاملة لتعلم أن الإيمان يتبعه الإسلام، فربط سورة البقرة بآل عمران بهذه الأخيرة.

والثاني: أن سورة البقرة كان معظم الخطاب فيها إلى اليهود لكونهم أصلا، فلم يلتفت إلى النصارى إلا عرضاً وخلسة. وأما سورة آل عمران فجعل فيها للنصارى

حظًّا مستقلًّا، وبدأ بكلام يناسب كلتا الطائفتين، ثم زاد توجيهه إلى النصارى.

والثالث: أنه احتج في الأولى بأمور الفطرة وبما يشترك فيه الكفار وأهل الكتاب، وفي الثانية احتج بصفات الرب وبما يختص بأهل الكتاب من مسلماتهم.

والرابع: أن الله تعالى مع تقريع أهل الكتاب في هاتين السورتين، خاطبهم في الأولى صريحا، وفي الثانية لم يخاطبهم بنفسه، ولكن أمر النبي ﷺ أن قل لهم كذا. فكأنه تعالى بعد إتمام الحجة أعرض عنهم، وخاطب نبيه والمسلمين فقط.

ومما ذكرنا من عمود السورتين ومقتضى زمان نزولها وخصائص أساليبها مع اشتراك المطالب، تتبين النسبة التي بينهما، وبذلك تتضح وجوه تقديم الأولى على الثانية. فإن الإيمان هو أساس الإسلام كما أن العلم أساس العمل. واليهود أقدم من النصارى، فأتم الحجة عليهم أولاً. والاستدلال بالفطرة أوضح ظهوراً وأقدم تعليماً وأعمّ شمولاً من الاستدلال بصفات الرب. وكذلك الاستدلال بعهد آدم وإبراهيم عليهما السلام كما جاء في الأولى أقدم من الاستدلال بقصة من بعدهما من الأنبياء كما جاء في الثانية.

فمن زعم أن سور القرآن إنما قدمت وأخرت لمحض طولها وقصرها لعله لم يتأمل في شيء مما ذكرنا من جهات رعاية الترتيب. نعم عند تساوي الأمور ربما يختار تقديم الأطول الأفخم.

فهذا ما يتعلق بعمود السورة ومطالبها جملة وربطها بالسورة السابقة.

وأما نظام السورة في نفسها وتركيب أجزائها بعضها ببعض. فاعلم أن هذه السورة تنقسم إلى نصفين، فالنصف الأول في إثبات الطاعة لله تعالى وإبطال ضلالات أهل الكتاب لاسيما النصارى. والنصف الثاني في تنبيههم على تضليل أهل الكتاب إياهم، وجمع شملهم بالاعتصام بحبل الله، وتثبيتهم على الطاعة، وحثهم على الجهاد،

وتبشيرهم بالغلبة، وتحذيرهم عن التفرق عند المصائب والشدائد، لكي يتم إسلامهم، ويطيعوا الله في اليسر والعسر، فلا يكونوا كأمة موسى عليه السلام خالفوا أمر نبيهم فتاهوا أربعين سنة. فكأن النصف الأول تمهيد، والنصف الثاني مقصود.

ومما ذكرنا يسهل التأمل في ربط الآيات، وهو المطلوب من هذا الفصل. وأما بيان رباط معاني السورة بالتفصيل، فلا يمكن إلا بعد النظر فيها آية آية. ونأخذ عدة آيات جملة جملة، لا لأن هذه الجملات منقطعة بعضها عن بعض، بل ليسهل النظر فيها، وليستريح الناظر إذا فرغ من جملة، ولذلك وضعناها في فصول على حدة.

هذا، والآن نشرع في المطلوب. (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ آل عمران: ١ – ٦.

(٢)

التدبر في نظام آيات ١ –٦

سبق الكلام في تفسير سورة البقرة فيما يتعلق بالآية الأولى التي هي اسم السورة، ونقف على الميم آخذين بقراءة عاصم.

في السورة السابقة بني الكلام على ما أودع فطرة الإنسان من التقوى لكونها نوراً تهدي إلى الصراط المستقيم. وأما في هذه السورة فبدأ الكلام بصفات الله تعالى.

وهذان طريقان مختلفان للاستدلال: الأول من الفرع إلى الأصل، وهو يعم

الناس جميعاً. والثاني من الأصل إلى الفرع، وهو خاص بالذين أقرّوا بالأصل، كما فصلنا في كتاب «حجج القرآن».

ففتح القول هاهنا بكلمة التوحيد لكونها مسلَّمة عند أهل الكتاب، وأتبعها بصفتي الحياة والقيومية المسلَّمتين عندهم، كما مرّ في تفسير آية الكرسي. وهناك أورد هذه الكلمات الطيبات البينات للرد على المشركين والنصارى فيما اعتمدوا على الشفاعة المستقلة التي تجعل الشفيع أحبَّ إليهم من الربِّ فأتبعه بما يناسب ذلك الاستدلال، فكانت آية الإيمان. وكشفنا هناك عن طرف من كنوز المعارف الإيمانية التي تحت صفتي الحياة والقيومية، فلا نعيدها.

وأما هاهنا فوجه الكلام إلى إثبات ضرورة الكتب ووجوب العمل بها، فأتبعه من القول بما يدل عليه بغاية الإيجاز، كما هو أسلوب القرآن، وأولى بالتمهيد.

وأما تفصيله، فإن الإله الذي لا إله إلا هو إله حَيٌّ فلا بد أنه يسمع ويبصر، فيسمع دعواتنا، ويرى أعمالنا، فيجيب الدعوة، ويجازي على الأعمال؛ فلزم العباد أن يفعلوا ما يرضيه، فلزمهم أن يطلبوا معرفة الأعمال الصالحة والفاسدة، لكي يطيعوه و يسعدوا. وإذ إنه إله واحد، وجب أن لا نشرك في طاعته أحدا. فاستدل بصفة الرب على ضرورة طلب الهداية.

وقد استدل عليه في القرآن من طريق الفطرة أيضا، وذلك بأن الله تعالى ألهم النفوس بأن لها برًّا وإثماً. وهذا الإلهام يحثها إلى طلب معرفتها كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ الشمس: ٧ – ٨. فلا بدّ أن يعطيهم مطلوبهم، ويسدّ حاجتهم التي خلقها فيهم، لكيلا يكون خلقها عبثاً، لأنه حكيم. فكل ما أودع الفطرة من الحاجة أعطى ما يسدها كما قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ إبراهيم: ٣٤ وقال أخص منه: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ طه: ٥٠ ومرَّ تفصيل ذلك في

تفسير سورة البقرة وغيرها.

ولما كان معظم الاحتجاج في هذه السورة مع أهل الكتاب اكتفى بالاستدلال بصفات الله التي لم يشكوا فيها. وأوضح صفات الرب أنه حيٌّ، فإن الميت لا يساوينا، فكيف نعبده؟ وفي ذلك ردّ ظاهر على المشركين، فإنهم أبوا إلا عبادة الأوثان. وفي ذلك أيضاً ردّ على النصارى، فإنهم يقرّون بأنّ المسيح عليه السلام مات، وفوض روحه إلى ربه.

وصفة القيومية تدل دلالة بينة على إعطائه الهداية إيانا. وتفصيلها: أن إلهنا الواحد كما هو الخالق ومعطي الحياة، فكذلك هو مقوّم لخلقه، كما فصّل في آية الكرسي. فإذ هيأ لنا ما نقوم به في معيشتنا فكيف لا يعطينا ما به أصل قوامنا في هيئتنا الاجتماعية التي خلقنا لها. وذلك الأصل هو إقامة القسط ورفع الفساد بأحكام عادلة حكيمة مطهرة رافعة للنفوس إلى كمالها الفطري. ومن دون ذلك يكون أحسنُ ما أودع فطرتنا عبثاً.

فبعد ذكر هاتين الصفتين على سبيل التمهيد بين أنه نزّل عليك الكتاب بالحق والحكمة، لكيلا تذهب الفطرة عبثاً. ولأنه إله واحد، لا يوجد تناقض في كتبه، فإن الفروع تختلف، والأصول تتحد. وربما يؤتى إلى مقصد واحد من جهات مختلفة، فكذلك كتاب الله يصدِّق بعضه بعضا كما قال المسيح عليه السلام: «لم أجئ لأنقض التوراة بل لأتمها». فالكتاب كله يؤول إلى مركز واحد، وهو الإيمان والعمل الصالح. وفي ذلك إثبات أن الإيمان بالجميع لازم، فإن كله كتاب واحد، فمن أنكر ببعض منه فقد كفر بكله.

ثم استدل على تنزيل القرآن بسنة الله، فإنها جرت على إنزال الكتب لهداية الخلق. وإذ اختلفوا أظهر هداه بكتاب جديد، فأنزل التوراة أي الأحكام، وأنزل

الإنجيل أي البشارة. ولكنهم اختلفوا، وبدّلوا، وغشيتهم ظلمات متكاثفة في الإيمان والأعمال. فاقتضت الحكمة أن يبين لهم الطريق بنور بازغ لا يغادر ظلمة، فأنزل هذا الكتاب الفارق بين الحق والباطل فوجب الإذعان له لوجوه:

الأول: أنه نُزِّل لإتمام المصلحة.

والثاني: أنه يتضمن الحجة.

والثالث: أنه مشتمل على العدل.

والرابع: أنه يحتوي على أصول الدين التي لا اختلاف فيها، فصدّق الكتب السابقة.

وهذه الوجوه مفهومة من كلمة «الحق». ولهذا استعمل كلمة «نزّل» لما فيها من المبالغة، ولا دلالة فيها على إنزال القرآن نجماً نجماً. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الأنعام: ٣٧ وأيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ الفرقان: ٣٢.

فالكتاب الذي أنزل بكمال الاهتمام، وظهور الحجة، وتمام المصلحة= لا بد أنّ الكفر به يكون مجلبةً للعذاب الشديد. فإن الله تعالى «عزيز»، فلا يرام عصيانه، وتهان آياته، فلزم الانتقام.

وأكد على ذلك بصفة علمه، فإنه أحاط بكل ما في السماء والأرض، فإنه الخالق والقيوم، فلا يسوغ لأحد إباحة أدنى حدوده، ولا الفرار من علمه.

ثم أوضح أنه عالم بجزيئات أموركم، بأنه خلقكم بحكمته كيف شاء، فهو مع عزته «حكيم». فهل ترون كيف يراكم في ظلمات الرحم، ويتصرف بكم في دقائق بنيتكم، فهل أنتم مفلتون من علمه و بطشه، أو ترجون الخير أو النصر من إله سواه؟

فلعزته فلتخافوا من عصيانه، وهو يرى كل ما تعملون.

ثم أوضح طرفاً آخر من صفة «العزة»، وهو القدرة الكاملة في الخلق والتصرف، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ الزخرف: ٩. وقال تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ النساء: ١٥٨ وهذا كثير. فبعد ذكر تصرفه وصنعه نبه على كونه عزيزاً قديراً صانعاً حكيماً.

وكما جعل ذكر صفة التفرد بالألوهية مع صفتي الحياة والقيومية تمهيداً لإثبات ضرورة إنزال الكتاب، وتجديده عند وقوع الاختلاف فيه، ووجوب الطاعة له؛ فكذلك جعل ذكر صفتي العزة والحكمة تمهيداً لإيجاب الإذعان التام لجميع ما في كتابه. فلا بد أن نجتنب الارتياب فيما تضمن من المتشابهات، ونردّها إلى المحكمات. وذلك لكيلا نضل بعد الهداية، وتزلّ قدم بعد ثبوتها؛ فإن الإسلام هو الطاعة التامة. ومن هذه الجهة يعبر عن الإيمان بالإسلام، فإنه إسلام القلب والعقل لما تبين له من الحق.

(٣)

النظر إلى شذرات هذا السلك من جهة مناسبتها بعمود الكلام

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إن ذلك لأشدّ كلمة على النصارى، فإنهم يقرّون بها، وصرح الإنجيل بأن لا نجاة إلا بكلمة التوحيد، وهم يدّعون بألوهية المسيح. ولا يمكنهم رفع التناقض، فيقولون بالحلول أو الاتحاد، وذلك يبطل التثليث، فإنهم يعتقدون بأقانيم مستقلة.

وإذا ألجأتهم قالوا: إنه من الأسرار. فإن سألتهم: من أين أخذتم هذا السرّ؟ لم

يسندوه إلى حواريٍّ، وقالوا: إن الحواريين كانوا غير فاهمين. فإن سألتهم: وأنتم أيضاً لم تفهموه، فكيف تعتقدون به؟ فحينئذ تراهم يتكلمون كالمجانين و﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ الأحزاب:١٩.

﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ أعرَفُ الصفات عند اليهود، وبهذا الاسم كثر القسم في صحف الأنبياء، واستعملوه في مواقع إقرار علمه وقدرته وغيرته، فذلك أبلغ في إنذارهم عن الكفر بآياته. وأما إبطال ألوهية المسيح بهذه الصفة فظاهر، فإن المسيح عليه السلام بإقرار النصاري مات ودفن.

﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ كثر في كتب الأنبياء وصف الرب بكونه قيّوماً للمخلوق، وأن السماء والأرض كل شيء قائم بقدرته. وهذه أوضح ما نعتقد للرب، وبه يبطل الشرك. والنصارى يؤمنون بالتوراة فإن ذكَّرتهم بهذه الصفة، وسألتهم كيف تقولون بألوهية من أكل وشرب وجاع وعطش، فلم يكن مستغنياً بنفسه في إقامة بنيته، ثم تزعمون أنه بكى، وضاق صدره عند الشدائد، وصرخ على الصليب = فكيف يكون قيّوماً للسماء والأرض؟ لم يجيبوا إلا بسفسطة لا وجود لها عند العقل.

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الآية. «الكتاب» اسم جامع، أي نزّل عليك من كتابه بالحق مصدّقاً لما قبله من الكتاب، فهذا إجمال. ثم فصّل، فسمّى مهمات الكتاب بأسمائها الخاصة، فقال: أنزل التوراة أي كتاب الأحكام، والإنجيل أي كتاب البشارة، وأنزل الفرقان أي كتاب الفصل الواضح. فليس هاهنا تكرار، إنما هو إجمال وتفصيل. والفرقان كالقرآن لم يستعمل على سبيل التسمية إلا لهذا الكتاب، والتبس الأمر على بعض المفسرين، لأنهم لم يفرِّقوا بين استعمال الكلمة على سبيل التسمية،

وعلى سبيل الخبر أو الوصف. راجع «أساليب»[١].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مع ما مرّ من تأويله[٢]، فيه أيضاً إثبات تنزيله بالحق من وجوه:

الأول: أن كتبكم قد دخل فيها من التناقص والمحال وسوء الأقوال ما كفى لتكذيب الناس إياها جملة، ولكن القرآن جاء بتلك المطالب خالصة عن شوائب البطلان، فصار مصدِّقاً لها. ولو لم يكن في إنزاله غير هذه الحكمة لكفى.

والثاني: أن التوراة والإنجيل كلاهما اشتمل على الهدى، وصدَّق الثاني الأول، ومع ذلك أحلّ الإنجيل بعض ما حرّمته التوراة، ومع ذلك انتم تصدِّقون بهما. فكذلك كون القرآن ناسخاً لبعض أحكام التوراة لا يقدح في تصديقه إياها، ولا يخالف كونه منزَّلاً بالحق.

والثالث: أنه قد أقر الكليم والمسيح بأنه قد بقي من هدى الله كثير وأبهم أمور، والنبي الموعود يأتي ويعلمكم جميع أمور الهداية ويبين لكم ما لم تفهموه. وقد اشتمل القرآن على هدايات لم يأت بها التوراة والإنجيل، وبيَّن مبهماتهما، فصار بذلك مصدَّقاً لوعدهما ومنزّلاً بالوعد الحق.

الرابع: أن أصل معتقدكم هو ألوهية المسيح، وأقوالكم فيها على غاية التناقض والالتباس، فلا يزال أمركم غمة عليكم، والقرآن نزل بالقول الفيصل والحق الصريح كما قال ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ آل عمران: ٦٢ الآية، فصار برفع الإبهام المفضي إلى

---

(١) يعني كتابه «أساليب القرآن». وهو مطبوع عن مسودة ناقصة، وليس فيه هذا البحث، ولكن انظر: التكميل في أصول التأويل: ٢٥٢.

(٢) وانظر أيضاً: مفردات القرآن للمؤلف: ٣١١.

الشك مصدقا لأصل الحقيقة ومنزّلاً بالحق المبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، لم تزل الدوائر تدور على اليهود وشهدت به كتب أنبيائهم، ففي ذلك لهم تذكير وإنذار و دعوة إلى طاعة الله والإسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ الآية. في ذلك إبطال لألوهية المسيح، فإنه أقر بأنه لا يعلم متى تأتي الساعة. والنصارى يعتقدون أنه علم الله تعالى. وهذا خبط صريح وتناقض بين.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ﴾ الآية. في ذلك أيضاً إبطال صريح لألوهية المسيح، فإنه صُوِّر في الرحم، وجرى عليه تصرف الرب كيف شاء. فهو كسائر المخلوقين في هذه الصفة، ولكن النصارى لا يبالون بالتناقض ومخالفة الحق الصريح.

ذلك، والآن نرجع إلى تفسير الآيات اللاحقة.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ آل عمران: ٧ – ١١.

(٤)

التدبر في نظام آيات ٧-١١

الكلام متصل بما قبله أي لا إله إلا ذلك الإله الموصوف بالعزة والحكمة، فأتبعه بما يتصل به كما رأيت في أول السورة أتبع قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ بما

يتصل به، فهكذا هاهنا.

وبيان الاتصال أن ذلك الإله الذي لا إله غيره متصف بالعزة والقدرة والتصرف في جميع ما في السموات والأرض بكمال الحكمة، فإن الحي القيوم على الإطلاق لا يكون إلا الذي أحاط علمه بكل صغير وكبير، وبلغت حكمته في كل دقيق وجليل.

وكما اقتضى وصف الحياة والقيومية أن نزل الكتاب لهداية عباده، ليرفعهم به في مدارج السعادة، ويكشف لهم به ما لم يعلموا، فيخرجهم من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور = فكذلك اقتضى وصف العزة والحكمة أن يكون كتابه مشتملاً على كمال الحكمة وعلوّ العزة، لا سيما هذا الكتاب الذي هو متمّ كتبه والفرقان العظيم، عندما وقعوا في الاختلاف الشديد والشقاق البعيد، فأعظِمْ بمنزلته عزًّا وحكمةً، فإنه تنزيل من الإله العزيز الحكيم.

وقد كثر وصف القرآن بالحكمة حتى سمّاه حكيماً. وأما وصفه بالعزة فقد صرح به أيضاً، قال تعالى: ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ فصلت: ٤١ - ٤٢ ولم يقل من حكيم عزيز للاجتناب عن تكرار ما استبان مما قدم من وصف كتابه بالعزة والمنعة.

وبالجملة كما يستدلّ من كون الربِّ حيًّا قيّوماً على إنزال الكتب للهداية عموما، فكذلك من عزته وحكمته يستدل على اتصاف كتبه بهما، لا سيما هذا القرآن المتمم لجميعها.

ثم له عزة أخرى من جهة علوِّ الحكمة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ الزخرف: ٤. ثم له عزة الطهارة كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ عبس: ١٣ – ١٤.

وضرب الله مثلاً لكمال عزته حيث قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشر: ٢١.

فحصل لنا من النظر في عزة كتاب الله وعلو حكمته أن نذعن له، و نترك الخصام واللجاج بالباطل لإدحاض الحق المبين، وأن لا نطمع في بلوغ كنهه والإحاطة بتأويله. ألا ترى أن عقولنا لا تحيط بخلق الله، فكيف بكلماته! فإنها أقدم من الخلق، فإنه تعالى لم يخلق شيئا إلا وتقدمت كلمته، فإنها توسطت بين الإرادة والخلق. وكُتُب الله عبارة عن كلماته، فما أجلَّ عزتها وأدقَّ حكمتها! فكيف يقدر مخلوق على الإتيان بمثلها أو الإحاطة بكنهها؟ فإنها إنما أنزلت لنهتدي بها، لا لنستفرغ كنزها. ألا تراك تستضيء بالشمس، ولا تستنفد ضياءها! و تستقي بالبحار ولا تستفرغ ماءها! فكتاب الله نور في طيه أنوار، وبحر في بطنه بحار.

ألم تر إلى الذين توغلوا في العقليات وتطلعوا نهايات العلوم زاغ أكثرهم عن الجادة إما بتفريط أو بإفراط. إما شكُّوا في كل شيء، فجعلوا الحق باطلاً فوقفوا حيارى. وإما اعتمدوا على القياسات المشتبهة فجعلوا الباطل حقًّا وتفرقوا فِرَقاً.

والصراط المستقيم أن نميِّز بين العلم والوهم، واليقين والظن، وأن نعرف حدهما فلا نخلط بينهما. وذلك هو طريق الراسخين في العلم الذين تبيَّن لهم الحق، فأخذوا به، وقاموا عليه، فلا تزعزعهم زخارف الأوهام ونكباء الشكوك.

ولما أنهم أحسّوا بعزّ الحقّ المحكم تمسكوا به شاكرين لرحمة الله العزيز الحكيم. فهم على صحيح الفطرة، واعتدال الأمر، ورسوخ القدم، واطمئنان القلب. فأولئك هم أولو الألباب المتوسِّلون إلى الحق بأقوى الأسباب.

فإنّ اللبّ أودع ذوقاً فارقاً بين الحق والباطل، وإحساساً مناسباً لما أنزل الله من

رحمته. ولولا هذا اللبّ لما وُجِد سبيل إلى الربّ. فالفرقان الذي أنزله الله لا ينتفع به إلا من كان في قلبه فرقان بين الحق المحكم والوهم المبهم. فهؤلاء الراسخون في العلم، الفارقون بين اليقين والظن، الشاكرون لرحمة الهداية، الخائفون مزلّات الظنون، العارفون بعزة كلمات الله، يتمسكون بمحكمات كتابه، ويفوضون إلى علمه تأويل ما تشابه من آياته، ويدعون الله أن يعصمهم من الزيغ، ويزيدهم فيما وهبهم من الهداية واليقين. ولا يستفزهم وساوس المضلّين لاطمئنانهم بفصل الأمور لما وعدهم الله ولما شهد به العقل، فإنهم قد علموا أن الله تعالى جعل هذه الحياة ابتلاءً للعقول، وإنشاءً لقوى الفطرة، وجعل لسعينا معاداً، ولزرعنا حصاداً، ولإبراز البواطن ميعاداً. فلا جرم أن يبقى في الدنيا أمور مشتبهة وقضايا لم تُفصل حتى يأتي يوم لا ريب فيه كاشف لكل ريب قبله، حين ترجع الفروع إلى أصولها، وترد الجملة إلى تفصيلها، وتصير الدنيا إلى تأويلها.

وأما أهل الزيغ الذين لم يرسخوا في العلم، فيتركون المحكمات ويتبعون المتشابهات، إما لإثارة الشكوك في قلوب الذين آمنوا ليضلّوهم، وإما ليطلعوا على تأويلها. وبذلك يزداد زيغهم، فيقعون في تكذيب المحكمات، ويكفرون بآيات الله، إما مقرين بتكذيبهم كالملاحدة، وإما مدعين بأنهم يصدِّقون بكتاب الله، وفي الحقيقة إنهم آمنوا بما أولوه إليه من الضلال كالنصارى والباطنيين.

ولما كان باعث الزيغ والشكوك حبهم للدنيا واستغناؤهم بها، فأعرضوا عن الرب، ولم يطلبوا الهداية منه، كما فعل الراسخون في العلم = أنذرهم بأن هذه لن تغني عنهم يوم تظهر حقائق الأمور، ويجمعون للحساب، ويلقون في النار.

ثم ضرب لهم مثل آل فرعون ومن قبلهم، فإنهم كذّبوا بآيات الله تعالى لاستكبارهم بمتاع الدنيا، وحبهم له، فأهلكوا.

هذا سرد الكلام في تفسير آيات (٧-١١) والآن نفصل شذرات هذا السمط لتصميم النظر إليها.

(٥)

شرح بعض أمور مهمة مما يتعلق بالآيات السابقة ولا بد من ذكرها

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ الآية. في أول هذه الآية تفخيم الرحمة، وإيجاب التصديق، وتخويف المنكر والمتعمق. أي ذلك الإله الحيّ القيّوم العزيز العليم الحكيم هو الذي أنزل هذا الكتاب، فوجب الإذعان له شكراً لعظم النعمة، ويخاف من الإنكار به لكمال عزته، ولا يطمع في استفراغ معانيه لسعة علمه و علو حكمته.

ثم في الآية هداية عظيمة إلى طريق فهم الكتاب، لما ميّز بين المحكم والمتشابه؛ فدلّنا على معظم ضلالة النصارى الذين ضلّوا بوقوعهم في المتشابه كما سيأتيك بيانه، فوقانا عن سوء عاقبتهم وعما يتمسكون به عند المجادلة وإنكار المحكمات.

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ لا بد من تعيين مفاهيم المحكم، والمتشابه، والتأويل. فاعلم أنّ الآيات المتضمنة على الأمور التي تقرّ في القلوب، وتشهد بها العقول، وتواترت بها الكتب المقدسة = سمّاها الله محكمة، لكونها راسخة لا تزعزعها شبهة. ثم وصفها بأنها أم الكتاب. ١- لأن سائر الكتاب يُرجع ويؤوّل إليها، فهي الأقطاب التي عليها مدار الأمور، وهي الفاصلة عند الالتباس. ٢- ثم هي التي تتخذ أصولاً، فتستنتج منها فروع، ويعتمد على هذه الفروع كما يعتمد على أصولها.

والمتشابهات هاهنا آيات لا يخفى ما أريد منها حسب حاجتنا. وأما الإحاطة بتمام حقيقة المحكي عنه فلا سبيل إليه، لنقص علمنا به كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ

يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ يونس: ٣٩، ولا حاجة تمسُّ، كالتعمق في صفات الله وأفعاله، مثل خلق عيسى، ونفخ الروح في آدم، وكل ما ذكر من نعيم الآخرة وبؤسه. فإن القدر المحتاج إليه والمقصود منه مفهومٌ اطمأنت به القلوب، وما وراء ذلك لا بد أن يختلف فيه لخفائه. فمن تعمَّق فيه وقع في الشقاق والشكوك، و تعرَّض لما يلزمه المعاند.

والتأويل هاهنا: حقيقة الأمر، و صورة المحكي عنه كما هي تتجلى عند المشاهدة؛ كما كان تأويل الشمس والقمر والنجوم في رؤيا يوسف أباه وأمه وإخوته كما جاء في القرآن: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ يوسف: ١٠٠.

فالمتشابه معلوم من وجه، ومجهول من وجه. وهذا الوجه المجهول أيضاً مصدَّق به حسبما هو في الواقع، وهو تأويله، وعلى كل حال ليس بمخالف للمحكم.

وهاهنا قضايا ينبغي التنبيه عليها:

الأول: أن أسلوب هذا الكلام لا يدل على الحصر. فلا يفهم منه إلا ذكر المتقابلين لا النقيضين، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ فاطر: ٢٧. فإن في الكتاب آيات ليست بأم الكتاب و لا بالتي يمنع النظر في تأويلها، مثل قصص القرآن، وأمثاله، وبراهينه العجيبية، وإشاراته اللطيفة، وأحكامها الجامعة. ففي كل ذلك مجال للنظر والتأمل واختلاف آراء المجتهدين، ولا بأس به.

والثاني: أن كون الكتاب محكماً ومتشابهاً حسبما ورد هاهنا ليس من جهة اللسان، إنما هو من جهة المعنى؛ فإن القرآن كله من جهة اللسان عربي مبين. والذين اختلفوا في تأويل ألفاظه إلى معانيها إنما اختلفوا إما من تقصير النظر، أو لتعصبهم لعقيدة غير صحيحة، أو لعدم اطلاعهم على لسان أنزل فيه القرآن. فكل ما يلتبس من

هذه الجهة لا بد من النظر فيه حسب أصول اللسان العربي وأصول التأويل الممهدة، وليس هو من المتشابه الذي لا يجوز التعمق فيه.

والثالث: أن المتشابهات معلومة، مميَّزة من المحكمات. فإن كل ما كان حكايةً عن غيب لم تصل إليه أيدي المشاهدة، وأخبرنا الله عنها بقدر حاجتنا، فتأويله محجوب بقدر ما احتجب عنا المحكي عنه. والمقصود أن كلام الله أوثق ما يعتمد عليه ولا لبس عليه فيما يتعلق بحاجتنا، والتدبر فيه يكشف عن غوامض الحكمة إلى ما شاء الله. وليس الأمر كما زعم بعض المتكلمين أن المحكمات والمتشابهات غير متعينة. وأنّ الاعتماد لا يمكن على دلالة الألفاظ. فإن القضية الأولى باطلة، والثانية مبهمة تؤيس عن كتاب الله الذي أنزله هدىً ونوراً وحجةً ورحمةً وأصلاً يرجع إليه، وحكماً يصدع بالأمر الواضح.

والرابع: أن للمحكم والمتشابه معاني أخر غير ما أريد هاهنا. فالمحكم من الكلام أيضاً: ما كان واضحاً جامعاً موجزاً، ويقابله المفصَّل، كما قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ هود: ١. ففي أوائل كل أمر أنزل الله قولاً محكماً يرسخ في الفهم ويخفّ على اللسان والقلب، ثم فصّله إما بآيات أخر أو بالسنّة.

وكذلك المتشابه أيضاً له معنى آخر، وهو: ما يشبه بعضه بعضاً. وبهذا المعنى القرآن كله متشابه كما قال تعالى: ﴿...كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ الزمر: ٢٣. وهذه المعاني كلها معروفة، راجع «مفردات»[١].

---

(١) يعني كتابه «مفردات القرآن». وكان «المحكم والمتشابه» من الكلمات التي أراد تفسيرها في المفردات، ولكن لم يتمكن. انظر: مقدمة تحقيق المفردات: ٥٧.

والخامس: أن آيات الأنفس والآفاق أيضاً تشتمل على المحكمات والمتشابهات. والذين لهم قدم راسخة في العلم مطمئنون بمحكماتها، ومعترفون بقصور أفهامهم في متشابهاتها.

ومن هذا التمهيد يتبين لك حسن موقع نزول هذه الآية العظيمة بعد أحد. فإن يوم بدر كان فرقاناً بين الحقّ والباطل، فاطمأنت النفوس بعدل الله وبرّه، لما أزال الباطل وأظهر الحق، فكانت هذه الواقعة آية محكمة. وأما يوم أحد فكان فيه حسب ظاهر الأمر غلبة الباطل على الحق، فالتبس الأمر، وظنّ المشركون أنّ الحرب سِجال، ولا دلالة فيها على الحق. فلما جاءت الوقائع مقتضيةً لكشف الأمر، واستعدت له النفوس، واشتدّت حاجتها إليه = أنزل الله تعالى هذا الوحي شفاءً لصدور المؤمنين. والحمد لله.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ آل عمران: ٧ الآية. الزيغ: هو الميل، فتضمّن مفهومين: العوج والسقوط، فإن القائم إذا مال قارب السقوط فصار ضدًّا للرسوخ.

والزيغ من صفات أهل الكتاب. أما اليهود فانحرفوا عن الحق من أول أمرهم، كما شهد به تاريخهم وأحوالهم مثلاً قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ الصف: ٥. وزيغهم أشنع، لأنهم كانوا يعصون نبيهم، وهو فيهم. ولذلك اشتدّ عليهم الغضب، وكثر به التصريح في القرآن، وفي كتب أنبيائهم أكثر. ثم هم الذين سنُّوا للنصارى اتباع المتشابهات، ومهّدوا الطريق إلى اعتقاد ألوهية المسيح؛ لما خاضوا في مسألة كلمة الله، والسكينة؛ وأدخلوا في الدين ظنون الفلاسفة. راجع

«مف»[١].

وأما النصارى فانحرفوا عن الحق بعد ذهاب المسيح ﷺ، فاتبعوا ديانة الوثنيين حتى خرجوا عن الدين كلّه. فكان زيغهم أبعد، وذلك أفضى بهم إلى السقوط الكلي والكفر الجلي. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة: ٧٢ إلى قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ المائدة: ٧٧. وأيضاً: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ مريم: ٨٨ - ٩١.

ولما كان زيغ اليهود من جهة العمل، وزيغ النصارى من جهة العقائد، اختلف طريقهم في خلاف الحقّ المحكم الثابت، واتباع المتشابهات. أما اليهود فهمّوا بالفتنة وإثارة الشكوك في القرآن مع علمهم بكونه حقًّا. وأما النصارى فكما ضلّوا في دينهم باتباع متشابهات الإنجيل والتوراة، فكذلك جعلوا يتمسكون بمتشابهات القرآن، فصُرِفوا عن قبول محكماته.

وجملة الكلام أنّ زيغ القلب واتباع المتشابهات حالة مشتركة بين اليهود والنصارى. وابتغاء الفتنة أولى باليهود، كما أنّ ابتغاء التأويل أولى بالنصارى. وإذ كانت هذه الأحوال توجد أيضاً في زائغي كل أمة أرسل القول عامًّا.

لا بدّ هاهنا من ذكر أسوأ ما أوقع فيه اتباع المتشابهات، ليتضح ما أشرنا إليه فيما

---

(١) يعني كتابه «مفردات القرآن» و«كلمة الله» و«السكينة» من الألفاظ التي أراد تفسيرها في المفردات. انظر مقدمة التحقيق: ٥٧.

قدّمنا من ضلالة النصارى. فاعلم أنّ القرآن صدّق الإنجيل في أنّ عيسى كلمة الله. ومعناه ظاهر، فإن الكلمة تعبّر بها عن أمر الله وحكمه. ولما كان خلق عيسى خلاف عادة خلق الآدميين سمّاه بذلك لدلالة خلقه صراحةً على أنّ كلَّ شيء يكون بأمر الله كأنه قيل: لم يأت عيسى من أب، ولكنه من أمر الله. ولا لبس ولا تشابه في هذا القدر.

وقد بيّن القرآن هذا الأمر حيث قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ آل عمران: ٥٩ أي جعل آدم حيًّا ناطقاً بكلمة «كُنْ». وهذا هو المراد بنفخ الروح فيه، فهكذا أمر عيسى.

والنصارى لما عيّرهم الوثنيون بأنكم تعبدون رجلاً مصلوباً، ونحن نعبد آلهةً سماويةً لا يموتون، تقلقلوا تحت هذا الطعن، وبنوا عقيدة مثل عقيدة هؤلاء الطاعنين، فزعموا أنّ المسيح عليه السلام إنما هو ابن الله وليس بمخلوق. وتمسّكوا بأوهام فلاسفة اليونان والمجوس والهنود ومتأخري اليهود الذين تكلموا في وسائط بين الخالق والخلق، وجعلوها ذوات مستقلّة، وسمّوها كلمة الله وحكمته. فأنزلت النصارى هذه العقيدة على أحوال المسيح عليه السلام، واضطرب أمرهم زماناً حتى تشجّعوا، واعتقدوا بأنه كفؤ للربّ ومن جوهره ومعه من الأزل، وبه خلق كل شيء. وكتبوا ما يؤيد هذه العقيدة في أول إنجيل يوحنا زوراً وكذبا.

وهذا حديث طويل، إنما أشرتُ إليه. وتفصيله يوجد في «المفردات»[1].

ثم مثل ذلك ـ وإن كان أهون منه ـ وقع في المسلمين، فخاضوا في حقيقة كلام الله: هل هو قديم أو حادث أو مخلوق؟ ولا شك أنّ هذه المسألة لا سبيل إلى معرفتها، فإن كلام الرب لا يشبه كلامنا، ولا اتصافه بالتكلم كاتصافنا به. فهذا البحث يجرُّ إلى

---

(١) يعني: مفردات القرآن. ولم نجد في مسودته هذا البحث.

الخوض في صفات الربِّ تعالى، فنقول على الله ما لا نعلم، وقد حذَّر القرآن عنه كثيراً.

وأحسن المذاهب فيه أن نؤمن بما نزَّل الله، ولا نتجاوزه. فنقوم مقامنا، ولا نتعدى طورنا، كما حكى القرآن من قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ الصافات: ١٦٤، وهذا هو الرسوخ في العلم.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مما مرّ آنفا يتضح أنّ هاهنا وقفاً. وإليه ذهب جمهور أهل السنة، ومن المعتزلة أبو علي الجبائي وهو المروي عن ابن عباس وعائشة وعلي ﷺ ـ كما جاء في نهج البلاغة ـ والحسن ومالك بن أنس والكسائي والفراء.

وذهبت الشيعة وبعض المتكلمين إلى الوصل، لما زعموا أن التأويل هو المعنى، ولا بد من العلم به لئلا يكون تنزيله عبثاً. وأيضاً زعم الشيعة أنّ الأئمة يعلمون كل شيء، فهمّوا بتحريف القرآن، ولكنه يأباه موقع الكلام.

وقد زال إشكال المتكلمين بما ذكرنا من التأويل الصحيح. وأما الشيعة الذين زعموا بأن الأئمة عالمون بكل شيء، فليسوا بآئبين عن قراءتهم ما داموا على تلك العقيدة، فنتركهم وقراءتهم. والله يهدي من أناب، وما يذَّكَّر إلا أولو الألباب.

(٦)
في بقية المسائل التي تتعلق بالمحكم والمتشابه والتأويل

.......[١]

*****

---

(١) هنا في الأصل بياض بقدر صفحتين كما ذكر الناسخ رحمه الله.

تذكرة[1]:

أقسام المتشابهات:...

(٢) قدر ما ينتهي إليه علمنا وما يحول إلى علم أحد.

(٣) وجوب التصديق بالكلام وتحويل تفصيله وكيفيته إلى علم الله.

(للفصل السادس)[2]

بحث مستقل لا بد منه في هذا المقام:

الكلام المتشابه ما هو ذو مجاز وله تأويل كما كان لرؤيا يوسف عليه السلام تأويل غير ما ظهر. ولكن التأويل تصوير معنى واحد دل عليه الكلام المتشابه إجمالاً. مثلاً سجود الشمس والقمر والنجوم ليوسف عليه السلام دل على كمال عزه وإكرامه من الله تعالى. وربما يخفى المراد، ولكن الكلام المتشابه الذي له تأويل لا يخفى. فهل يجب التصديق حسب ظاهره أو بأنه صادق لصدق تأويله، فهذا سؤال.

*****

هذه الآيات الإحدى عشرة كالتمهيد الجامع لدلائل التوحيد ولزوم الطاعة، ولكف المسلمين عن شبهات تلقى إليهم ولتعليمهم دعاء الراسخين. ولما كان المقصود الأصلي تعليم المسلمين لم يبدأ الكلام بالرد على الكفار صراحة فخاطب النبي ولم يلتفت إليهم كما هو أسلوب عام في أوائل الكلام ولما كان المقصود إسماعهم ذكر ما فيه تقريع شديد وإفحام بالغ فموقع هذه الجملة موقع التمهيد قبل الرد

(١) هذه التذكرة وردت في هامش الأصل.

(٢) هذه التذكرة أيضاً وردت في هامش الأصل في بداية الفصل الرابع.

الصريح[١].

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ آل عمران: ١٢-١٨.

(٧)

التدبر في نظام آيات ١٢-١٨

من هاهنا يبتدئ الأمر من الله تعالى لنبيه أن يخاطب الذين كفروا بالله وكذّبوا بآياته. والكلام متصل بما قبله، فإنّ هؤلاء المخاطبين قد ذكرهم الله فيما مرّ آنفاً بأنّ أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم من الله شيئاً، لا في القيامة ولا في الدنيا، كما شهد به أحوال الأمم السابقة من الذين كفروا بالله وكذّبوا الرسل. فبعد ذكرهم وإحضارهم جاء ما يخاطبون به، وهو:

---

(١) هذه الفقرة كانت في آخر الفصل الرابع، وكتب المؤلف ملحوظة هناك أن تنقل إلى آخر الفصل الخامس، يعني قبل المجموعة الثانية من الآيات. فلما زاد فصلاً سادساً وإن لم يتمكن من كتابته وضعنا الفقرة هنا.

إنكم قد اغتررتم بأموالكم وأولادكم، فمُنِعتم عن قبول الحقّ لحبّها، واعتمدتم على عدّتكم وعددكم، فجادلتم في الحقّ، وغرّتكم بعضُ الغلبة، ولكن الغلبة في العاقبة للحقّ، فعن قريب تغلبون. ثم يتم غلبة الحق في الآخرة حين تحشرون إلى جهنم.

وقد تبيّن لكم الحقّ في بدر، حين رأى الكفار آية ظاهرة ومشاهدة بيّنة، إذ التقت الكفار وهم زهاء ألف، والمسلمون وهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً. ثم رأى الكفار أنّ المسلمين بعد الالتقاء صاروا ألفين، فمن كان له بصيرة أيقن بأنّ الله تعالى هو الناصر، ولا غناء في الأسباب الظاهرة. ولكن عامة الناس ليسوا بأولي الأبصار لما زُيّن لهم حبُّ الشهوات. وما أكبر حماقتهم! فإنّ ما يحبّونه مع قلة غنائه لأدون مما أعدَّ الله للمتقين من النعيم المقيم ورضوانه العظيم.

وذلك حقّ ظاهر، فإن الله تعالى بصير بأحوال عباده فكيف يجعل المحسن والمسيء منهم سواءً مع تباعد أحوالهم؛ فريق لم يتّق السيئة واختار زخارف الدنيا، وفريق اتقى واختار الآخرة، فشهد بالإيمان، وتاب مما سبق منه، واستعاذ بالربِّ من النار. وهم الذين صبروا في الشدائد، ووفوا بما عاهدوا بإيمانهم، فقنتوا لله ولرسوله، وأنفقوا في سبيل الربِّ، ولم يستقرَّ بهم القرار لإيمانهم بالقيامة وجزاء الأعمال، فيستغفرون بالأسحار.

وذلك لما أيقنوا بأنّ الله لا إله غيره، فله الحكم، فإن سخط بهم لم ينفعهم شيء. وأنه بصير بأعمال العباد، ويجازيهم بالقسط. ولذلك لا يرضى في الدنيا إلا بما هو القسط، ويعين عليه، ولكنه مع القدرة التامة يجري أموره على الحكمة اللطيفة. وأكّد الله على صحة هذه العقيدة بشهادته وشهادة الملائكة وأولي العلم فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ الآية.

فخلاصة هذا الكلام أنّ الله تعالى هو الربُّ وحده، وهو قائم بالقسط. وهذه الصفة توجب أن يغلب القسط ويتبع ويعتصم به ويصبر عليه وإن اشتبه في الدنيا مجاري أموره.

هذا، وإن رجعت النظر في هذه الآيات (١-١٨) رأيت كيف ذكر صفات الربِّ من التوحيد، والحياة، والقيومية، والعزة، وإحاطة العلم، والتصرف؛ وجمع العزة بالحكمة والقسط. واستدلَّ بها، وكشف عنها تدريجاً، وكرّر بعضها لكونها أصلاً أو ذا وجوه، فتأمّلْ في هذه الصفات ومواقعها ورباطها تهد إلى حكم جمّة.

ذكر التوحيد أولاً لكونه أصلاً، ثم جاء بتفصيلها حتى انتهى إلى ذكر القسط، وهو طرف عظيم من صفات الربِّ تعالى، وجعله صنواً للتوحيد. وأشار إليه في أول السورة بذكر صفة القيوم، كما أشرنا إليه هناك، وسيأتيك بيانه في الفصل التاسع.

(٨)

شذرات هذا السمط في بعض المهمات

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ الآية. في ذكر هذه الواقعة حجة بالغة على أهل الكتاب خصوصاً، وعلى جميع الكفار عموماً.

أما على اليهود فقد كان يوم بدر أشبه شيء بما وقع لهم حين سألوا الله أن يبعث لهم ملكاً بعد أن صاروا مغلوبين، وقهرهم الكفار، وسلبوهم قبلتهم: تابوتهم، وفيه سكينتهم؛ فخرج بهم أول ملوكهم طالوت بعِدّة أصحاب بدر ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ ﴾ وهو يومئذ من قواد طالوت ﴿ جَالُوتَ ﴾ وهو أقوى رجال الكفار.

وأما على النصارى فقد أخبر يوحنا في مكاشفاته أنّ النبي الموعود المنتظَر يحارب بالحق، ومعه جند الملائكة. فوقعت هذه البشارة يوم بدر، حين رأوا الملائكة

رأيَ العين. وفي هذه البشارة أمور أخر لا تنطبق إلا على خاتم النبيين.

وأما عموم الحجة فقد رأوا الملائكة، وعلموا أنّ الحق والنصرة مع النبي، وأنّ العدة والعدد لم يغن من الله شيئا، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك لحبِّ الدنيا، فلم يكونوا أولي الأبصار مع ما رأوا بعيونهم كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج: ٤٦، كدأب آل فرعون وأمثالهم شهدوا بيِّناتٍ ولم يؤمنوا.

﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ ﴾ قرأ نافع على سبيل التفسير «ترونهم»، ليبين أنّ الفعل للمخاطبين، وهم الذين كفروا. يعني: أيها الكفار أنتم صرتم ترون المسلمين ضِعْفَي أنفسكم. فبيّن نافع بهذا التفسير أنّ الكفار هم الذين رأوا المسلمين مثليهم. وليس أنّ المسلمين رأوا الكفار مثلي أنفسهم، فإن ذلك جُعِلَ آيةً للكفار، وأُكِّد بأنهم رأوه عياناً. فلو رأى ذلك المسلمون لم يكن للكفار آية فيه، والخطاب إليهم.

واعلم أن هذه الرؤية بيان حالتهم بعد ما دخلوا في القتال. فإن نشر هذا الكلام المطويّ تحت الإيجاز أنّ فئة مسلمة كانت تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت، وهؤلاء كانوا يرون الفئة الأولى ضعفيهم. فإن الله تعالى لم يُرِهم الملائكة إلا بعد الدخول في القتال، فلو رأوهم قبل ذلك لم يعلموا أنهم الملائكة، ولم يقاتلوا، فلم يقع ما أراد الله من إظهار الحق وإتمام الحجة بما أراهم من نصرته المؤمنين بالملائكة.

وقد قضى هذا الأمر، فأجرى الأمور حسب حكمته وقضائه من ظهور الحق وغلبته بمحض نصرته، وهجوم الحق على المنكرين وهم في غفلاتهم. و ذلك من سنة الله. وقد بيّن ذلك في ذكر هذه الواقعة في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن

﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال: ٤٢ فهذا بيان ما رأى الفريقان حين الالتقاء. فأول الأمر أطمع الكفار في الغلبة، وبعد قليل غلب عليهم الحق، وهجم بغتة.

وهكذا وقع بفرعون حين تبع بني إسرائيل بجنوده. وهكذا وقع بعاد حين: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ الأحقاف: ٢٤. وهكذا تأتي الساعة بغتة. وإن في ذلك ابتلاء الذين آمنوا بالحق الغائب، ولم يلتفتوا إلى المشهود الفاني. وذلك هو البصيرة وتمام العقل وابتلاؤه.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية. الشهوات هي المشتهيات، وما زُيِّنت هي فقط، بل زُيِّن لهم حبّها أيضاً فلا يقلعون عنها. ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي عامة الناس، وهم الذين خلوا عن صفة التقوى، فيتهافتون على الشهوات.

ووضعُ الآية بين ذكر أولي الأبصار والذين اتقوا دلّ على أنهم فاقدو البصيرة والتقوى. والبصيرة أقدم من التقوى، لتقدم العلم على الإرادة والأخلاق.

وفي سرد الشهوات راعى الترتيب، فقدَّم ما كان أقدم وأشهى وأغلى. فالأهل أحبُّ من المال، والذهب أغلى النقود، و الخيل أنفس المتاع زينة بين الناس وفخرا وبأسا، والأنعام أول المرافق قبل التمدن. ثم الحرث حين سكنوا في القرى.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة لنفاستها من السومة وهي العلامة.

(القنطار) المال الكثير...[1].

﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ كقولهم: ليل أليل، وظل ظليل.

---

(١) بياض في الأصل.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ الآية. بدل من ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ وكذلك ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآية بدل منه. وفي سرد صفات المتقين راعى الترتيب...[1].

﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ لأن أول همهم طلب المغفرة. والسحر أحسن وقت للدعاء، وأبعد عن الرياء، وأجمع للتفكر في خلق السماوات والأرض، الدالّة على الحكمة، ومن ثم على العدل والجزاء، كما جاء في آخر هذه السورة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ آل عمران: ١٩٠ - ١٩١. وكان النبي ﷺ يقرؤها عند هبوبه للتهجد.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ حال من الضمير في ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي إن الله تعالى تفرد بالألوهية، فله الحكم والتصرف، وهو يجريهما على القسط. ولما أدرج الله تعالى القسط في الشهادة بالتوحيد دلّ على عظم محلّه، فنبّه على أمر عظيم من معرفتنا بالرب تعالى.

وذكر أولي العلم لأن الناس ربما رأوا غلبة الجور في الدنيا، فاشتبه عليهم هذه الصفة؛ ولكن أولو العلم تبيّن لهم من غير شك أنّ الألوهية المطلقة يلزمها القيام بالقسط، فإن الأمور لو جرت جوراً، ولم يعلمه الله، أو أراد غير القسط، أو تركه، أو عجز عن إقامته = لما كان إلهاً حقًّا حيًّا قيّوماً عزيزاً حكيماً. وفي الإيمان بحكمته الكاملة شفاء عما يوقع في الشبهة من غلبة الباطل أحياناً.

لا يخفى أنّ في أسلوب هذه الآية تفخيماً عظيماً للتوحيد والقسط، فإنه تعالى شهد عليهما بنفسه، وضمّ به شهادة الملائكة، ثم أتبعه بشهادة أولي العلم. فأما التوحيد

(١) بياض في الأصل.

فهو أصل الأمر ولا حاجة إلى بيان عظمته هاهنا، وأما القسط فنذكر هاهنا بعض وجوه مما يقتضيه المقام، والله الموفق.

(٩)
القسط صنو للتوحيد في مفهوم الإيمان

اعلم أن الإيمان بصفة القسط من أعلى أركان الإيمان، وذلك لوجوه:

الأول: أن أصل الإيمان هو الأمن، فلا بد للإيمان من اليقين الراسخ بوجود الله تعالى، ولا سبيل إليه إلا بالاعتماد على بداهة العقول، ولا يمكن ذلك إلا بعد أن نؤمن بكون العقل ميزان قسط في فطرته، ولا ثبوت لذلك إلا بعد اليقين بأنّ فاطرها قوَّمها وسوَّاها. وبناء ذلك على أن نؤمن بكونه ذا قسط كامل محبًّا للقسط. فذلك ضرورة عقلية، فلا ثبوت لحقيقة عند العقول إلا بعد الاطمئنان بكون فاطرها حقًّا صدقاً، لنعلم أن أفعاله حق وصدق.

وفي ذلك أيضاً ضرورة أخلاقية، فإنه تعالى جعل البرَّ فطرةً، وأودع القلوب قبوله وإكرامه، ولا يمكن أن نحبّ البرّ وننفيه عن الربّ، فكيف نطمئن بصحة هذا الحبّ وصوابه إن لم نطمئن بأنَّ الفاطر لم يخدعنا ولم يظلمنا؟ أم كيف نرضيه بالبرّ إن لم نؤمن بأنه يحبّ البرّ؟ أم كيف نحمده بالصفات الحميدة إن لم نطمئن بصحة فطرتنا في حبِّ هذه الصفات؟

الثاني: أن أصل الإيمان محبة الرب، فإنا نؤمن بإله نحبّه، ونرجوه، ونطلب رضاه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بعد اليقين بأنه لا جور في فعله، فينعم على من أطاعه، ولا يسخط إلا من استحقه؛ والقلوب لا تطمئن بربّ ظالم، ولا تحبه كل المحبة.

الثالث: أن وجوب الإيمان علينا واقتناءه بالتفكر في آلائه مبني على وجوب الشكر، والشكر لا يجب إلا بعد أن نؤمن بأنه حقّ للمنعم ومقتضى إنعامه. ولذلك

جعل الشرك ظلماً، والإيمان شكراً، كما بيّنه القرآن. وهكذا استحقاق جميع الحقوق مبني على وجوب العدل. فذلك ضرورة شرعية. فلا شريعة إلا والقسط أساسها.

والرابع: أن الإيمان ثمرته الطاعة، وثمرة الطاعة رضوان الله. وبعبارة أخرى الإيمان يثمر الإسلام. وقد ربط الله الآثار بمقدماتها، وهدانا إلى هذه الروابط بطرق مختلفة، وكل هذه بخلقه وأمره. ونعتمد على ما وعدنا من آثار الأعمال، فنطيعه مطمئنين بوعده. فلولا الإيمان بأنه لا يخلف وعده تهدَّم أصل الأعمال، وآل الأمر إما إلى الاعتماد على الشفعاء وحبِّهم أكثر من حبِّ الله كالنصارى، فإنّ تمام رجائهم في المسيح، فعبدوه، واتخذوه إلهاً؛ أو إلى يأس محض وتفويض إلى قضاء جائر لا يفرِّق بين المحسن والمسيء كاليهود، فإنهم لم يرضوا بما قضى الله لكبرهم وحسدهم. فلا بد من الإيقان بأن الله تعالى قائم بالقسط، فحكمه عدل، ووعده صدق، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ الأنعام: ١١٥.

والخامس: أن الإيمان بالجزاء جزء من الإيمان الواجب، وبناء ذلك على الإيمان بقسط الربّ. والإيمان بالربّ لا يصحّ بمجرّد الإقرار بوجوده، ولكنه الإيمان به بصفاته، فمن لم يؤمن بقسطه هدم أصل الإيمان بالجزاء.

ويتضح لك من النظر في هذه الوجوه الخمس أنّ الإيمان بالقسط من أكبر أركان الإيمان، وعليه بناء مهمات العقائد والأخلاق والشرائع. هذا.

والسادس: أن الإسلام دين السلم، والسلم لا يكون إلا بالوحدة، والوحدة لا تكون إلا بالقسط، فإنه الصراط المستقيم في الأعمال.

ولما كان هذا الوجه تمهيداً لما يتلو من الآيات في دعوة الناس كافة إلى دين الله وضعنا تفصيل هذا الوجه في تفسير الآيات الآتية على سبيل التقدمة. فهذه الآية كواسطة العقد جامعة للإيمان والإسلام.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ
أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ
وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ
﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٨ – ٢٥.

(١٠)

مقدمة لشرح نظام آيات ١٨ –٢٥ في ذكر موقع القسط في الدين

إن الله تعالى واحد لا شريك له، فنحن كلنا عباده، فلا يكون الحكم إلا لله وحده. وذلك هو الدين، فإن الدين في اللغة هو: الطاعة، وكذلك الإسلام. فالإسلام لله وحده هو الدين، وأن الله تعالى واحد، ولا تبديل لسنته، فلا بد أن يكون جميع أحكامه حسب سنته. فإن بدّل حكماً وشرع شريعةً خاصّةً علمنا أنّ ذلك لاختلاف أحوالنا. ولا خلاف في الدين، فإن شريعته هي طريقة لطاعته، فلا يكون لأحد أن يشرع من قبل نفسه من غير إذن الربّ. قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ﴾ الشورى: ١٣ أي هذه الوحدة في الدين وعدم الافتراق صعب على المشركين، فإنهم جعلوا الطاعة لآلهة مختلفة. فالافتراق

باب من الشرك، وتبرأ منه الإسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ الأنعام: ١٥٩. وبهذا المعنى جاء الخبر الصحيح: «من شَذَّ شَذَّ في النار»[١]، فهذا أصل.

والأصل الآخر أن الإسلام منوط بالسلم، كالإيمان بالأمن. ولا يقوم السلم إلا بالقسط، فالقسط هو قوام المعاشرة، بل قامت به السماوات والأرض. فهو السرّ الإلهي والمحور الخفي الذي يدور عليه جميع الكون. قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ الرحمن: ٥ - ٩. فجعل القسط نظام كل شيء. ويعلم من هذا أن القسط لا بد أن يكون سنّةَ من هو قيُّوم السماوات والأرض.

ثم قد صرح الله تعالى بذلك، وجعله صنواً للتوحيد. ويشبه ذلك ما جاء في الإنجيل حيث قال المسيح ما معناه: أن أعظم الأحكام أن تخلص حبَّك لله، وتحبَّ لجارك ما تحب لنفسك، وأنّ سائر الأحكام منوطة بهما[٢]. فجعل القسط شريعةً تاليةً لشريعة التوحيد. والقرآن رفعه أعلى من ذلك فبيَّن بأنه من صفات الربِّ التالية للتوحيد، وأنه سنته الجارية في ملكوت السماوات والأرض.

ولما كان القسط بهذه المنزلة صار أشد على الشيطان، فلم يشتغل بشيء كما اشتغل بجلب الناس إلى الشرك والبغي. ثم كان البغي أول عثرته فكان أولى به. فوقع الجمهور فيهما حتى ملئت الأرض شركاً وجوراً، بل الشرك من الجور، كما مرّ آنفاً في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩١).

(٢) انظر: متى ٢٢: ٣٦-٣٩، مرقس ١٢: ٣٠-٣١.

الوجه الثالث.

وبناءً على هذين الأصلين وجب لإتمام تعليم التوحيد دعوتهم إلى الوحدة، ليتحقق إيمانهم وإسلامهم، ويبطل البغي والفساد من الأرض، ويصيروا كنفس واحدة، ويزول عنهم حيلة الشيطان ومخيلة الشرك، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٨.

وجملة الكلام أن الإسلام، والسلم، والقسط والوحدة من باب واحد. وأن الشرك، والبغي، والتفرق، والفساد من باب واحد. ونرجع إلى هذا البحث مرة أخرى عند الشروع في النصف الثاني من السورة.

(١١)

التدبر في نظام آيات ١٨-٢٥

هذه الجملة من الآيات متصلة بما قبلها في أن صفات الله دلَّت على وجوب الإيمان بكتبه، وأن لا خلاف بينهن في العقائد، فلزم اتحادنا في الإيمان. وكذلك دلَّت صفاته تعالى على وجوب الإسلام، وتوحيده، وإخلاصه لله الواحد. وهذا يتبع الأول، فوجب علينا أن لا ندين إلا لله، ولا نختلف في الدين، حتى تكون أمةً الأنبياء أمةً واحدةً، والكفار أمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ المؤمنون: ٥١ - ٥٣. فأمم الأنبياء إنما هم مختلفون بحسب ظواهر الأحكام. وأما بحسب أصل الدين فهم متحدون، وكلهم مسلمون، كما صرح به القرآن.

فعلى هذا الأصل دعاهم القرآن إلى الدين الواحد، وهو الإسلام. وأما

الاعتراض بأن الاختلاف بين أهل الكتاب قد وقع، فصاروا اليهود والنصارى، ثم تفرقوا شعياً متفرقة، فأنزل الكتب المختلفة ليختلفوا، ثم جعلهم شِيَعاً لاختلافهم في تأويلها، فعُلِمَ أنّ هذا الاختلاف هو من الله تعالى؛ ولا محيص منه، وإن آمنوا بهذا القرآن. فأجابهم بأن اختلافهم نشأ من البغي والكفر بآيات الله. وهذا أمر بيِّن، فلا حاجة إلى إطالة المحاجّة، فادعُهم إلى قول فصل، فإنما عليك البلاغ، والله حسيبهم.

ثم بيَّن أنّ بغيهم هذا حملهم على قتل الأنبياء والآمرين بالقسط، فكيف يأمرهم الله بذلك؟ فتبيّن أن لا حجة لهم.

ثم بيَّن أصل دائهم من جهة الاعتقاد، وهو أنهم زعموا أنهم لا يمسّهم العذاب إلا أياماً قليلةً، فأعرضوا عن العمل بكتاب الله، وركبوا أهواءهم. وخوَّفهم بيوم الحساب.

ثم بيّن أصل هذا الداء من جهة الخلق، وهو حسدهم على الملك الذي أعطاه الله أولاد إسماعيل. ووجَّه هذا الخطاب إلى أهل الكتاب خاصة.

واعلم أنّ في هذه الآيات دفعاً لشبهاتهم، وإبطالاً لمتمسَّكاتهم، وذلك لوجوه:

الأول: أنهم يزعمون بكونهم على دين حق. وإبطاله بأن الدين واحد، فلا بدّ لهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء.

والثاني: أنهم لم يؤمنوا بأنبيائهم أيضاً لما قتلوا بعضهم، وقتلُهم الآمرين بالقسط دليل على أنهم غالون في جورهم. فظهر أنهم مخالفون لدين الله اعتقاداً وخلقاً. وقصة قتلهم الأنبياء مصرَّحة في كتبهم، كما مرّ في تفسير سورة البقرة.

والثالث: أنهم لم يؤمنوا بأول أنبيائهم موسى لما أنهم رفضوا أحكام التوراة. وذلك إشارة إلى إعراضهم عن التوراة حين جاؤوا إلى النبي للحكم في قضية زنى،

فحكم بالرجم حسبما جاء في التوراة، فلم يقبلوا. فتبيَّن أنهم ليسوا في شيء من الدين، وبطل تمسكهم بدين الأنبياء.

(١٢)

النظر في شذرات هذا السمط

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ دلّ موقعُ الكلام على أنّ الاختلافَ في الدين بعد العلم بغياً ونبذاً لكتاب الله الداعي إلى الوحدة كفرٌ بآيات الله. وبيَّن ذلك بما يؤول إليه الاختلاف من قتل الصلحاء، وحبط الأعمال، وعدم نفع الشفعاء، فلا ناصر لهم يوم القيامة.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ في الاستفهام دلالة على الدعوة، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ المائدة: ٩١، وعلى ظهور الحجة، وعدم الحاجة إلى إطالة الكلام، وعلى إتمام البلاغ، كأنه قال الله تعالى لنبيه: قل لهم ذلك فقط، فقد تمَّ بلاغك. فإن قبلوا فقد اهتدوا، وإلا فقد أبلغت رسالتك، وأمرهم محوَّل إلى الله.

ويؤيد هذه الوجوه ما يتبعه من الكلام. ويشبهه ما جاء في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي أدبروا، وأعرضوا، وأنكروا. وليس أصله «تتولوا»، كما زعم بعضهم، لأنه لو كان عطفا على ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ لكان توليتم، ولأن الحذف غير الأصل، ولأن نظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ البقرة: ١٣٧.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ غاية التأكيد في بيان بغيهم. وفيه إشارة إلى أن الحق يدخل تحته جميع الناس حتى النبيين، وقد جاء في القرآن مراراً مثل ذلك. وفيه تنويه منزلة الحق

والعدل، ولا بدّ، فإن الحق والقسط من صفات الربّ.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ دلّ على سبب القتل، وأكّد ما قدّم من ذكر بغيهم، فعُلِم أنّ البغي هو المخالف للإسلام.

﴿ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إشارة إلى أنّ ما عندهم ليس كل الكتاب، فإنكارهم بما وراءه كفر بكتاب الله.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ الآية. كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ فعلى هذا قال: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ آل عمران: ٢٤ أي هذا ليس من وعد الله، إنما هو من مفترياتهم.

(١٣)
النظر في آيات (١-٢٥) جملة

اعلم أن القرآن ذكر في غضون هذه الآيات أموراً من أسباب كفر أهل الكتاب. وهي: زيغُهم، وحبُّهم متاع الدنيا، وبغيهم، وغرورهم بالدين، وإنكارهم بعدل الله. فدل على فساد عقولهم وقلوبهم بوجوه، وعلى غاية هذا الفساد بالجمع بين المتقابلين. فهم المتوغلون في المتشابهات، ثم يتهالكون على حطام الدنيا، وهم المهتّكون حمى الله ثم يرجون مغفرته. فتبيّن أنهم فسدوا غاية الفساد، وتولّوا عن الدين بالكلية المهتّكون، فاقتضت الحكمة والقسط أن يعطي الله أمانته لقوم آخرين، ويتم نعمته على شعبة أخرى من ذرية إبراهيم التي باركها ووعده بها.

وهذا إجمال ما فصّل في سورة البقرة من أسباب كفرهم وعدَّها حتى ختم بقوله: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ البقرة: ٩٣ أي إنكم

لستم في شيء من الإيمان.

واعلم أنّ هذه الآيات كشفت عن سوء أحوالهم بالتدريج حتى انتهت إلى أصل دائهم، وهو حسدهم ببني إسماعيل بما أعطاهم الله من الملك والنبوة. وإذ كانوا يخفون ذلك اقتضت البلاغة أن لا يصرح بما أخفوه، فصرف الخطاب عنهم تكرُّماً وإعراضاً. وألقى إلى النبي ﷺ كلمات جامعة كما سيأتيك بيانه.

فمن أول السورة إلى هاهنا تمهيد في ذكر أصول الدين من الإيمان والإسلام. وابتدأ الكلام بخطاب النبي إلى آية (١١)، ثم ألقى إليه ما يخاطب به المخالفين ويلقي إليهم من القول إلى آية (٢٠). ثم دلّ على خروجهم من الدين بالكلية وتوفية ما كسبوا من السيئات من غير ظلم عليهم، وذلك إلى آية (٢٥).

ثم يبتدئ تمهيد آخر لذكر اصطفاء الله هذه الأمة لدينه. وبناء الكلام هاهنا أيضاً على صفات الله، ثم على سنته فيما مضى من اصطفائه المتوكلين عليه الطائعين له، كما سيأتيك بيانه إن شاء الله تعالى.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ
وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ
وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ
تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ
ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ
نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(١٤)

التدبر في نظام آيات ٢٦-٣٢

قبل أن يذكر سنة الله في أنه تعالى يصطفي من يشاء من عباده حسب حكمته واستعدادهم، قدّم قولاً يذكر بناء هذه السنة من صفات الله، ويذكر صفات المصطفين من التوكل عليه، وتبرِّيهم عن الكفار، واتباعهم النبي وإطاعتهم إياه. فذكر صفات الله على أسلوب الدعاء، وهذا الدعاء قد جمع:

١ -إقراراً بتفرد الله بالملك والإعطاء ،

٢ -وتعريضاً إلى أن الحسد للمعطى له معارضة وعناد للمعطي،

٣ -وتلويحاً بالسؤال لعطاياه،

٤ -وتمهيداً لما يأتي من ذكر اصطفائه الذين توكلوا عليه وتبتلوا إليه،

٥ -واستدلالاً بصفاته وسنته على هذه الأمور.

فجمعت الآيتان (٢٦-٢٧) مدحاً وذمًّا وسؤالاً واستدلالاً لِـمِّيًّا وإنِّيًّا. وإنيته ما نرى في العالم من جريان سنة الله من العطاء والسلب. وأيضاً فيه لمحة إلى ما وقع على أهل الكتاب. وفي تحويل كل ذلك إلى مشيئته إقرار بأن لا دافع لقدرته، ولا مانع لفضله، فيعطي من يشاء، ويرزق بغير حساب.

ثم ذكر ما يلزم هذا الإقرار من توكلهم عليه، وتبريهم من أعدائه. ويلزم ذلك أن يتحدوا، ويستغنوا عن غيرهم، فيكونوا حزب الله.

وحذَّرهم الله نفسه، فإنه لا مردَّ لمشيئته، و مشيئته تجري على الحكمة والحق. وإليه يصيرون فيحاسبهم. وموقع هذا التحذير أن بعضاً من المؤمنين لم يطلعوا على شدة نفاق اليهود، فكانوا يتفاوضون إليهم بالحديث، فيطلعون على أمور المسلمين.

وكذلك علقت ببعض المسلمين حبال عهودهم، فيضمرون لهم بعض المودة، فحذَّرهم الله تعالى. ثم حذَّرهم بأنه تعالى عالم بضمائركم ولإحاطة علمه وكمال عدله يأتيكم بيوم تجد فيه كلُّ نفس حاضراً ما عملت من خير أو سوء. والتحذير بعد التحذير لكونه رؤوفاً بعباده، كما قال النابغة[1]:

ومن النصيحة كثرة الإنذار

فاكتفى بمجرد ذكر الصفة، لمبادرة فهمهم إلى المراد.

ثم ذكر ما يجمع الأمرين، ويتحققان به، وهو اتباع النبي، فإنه جامع للتوكل على الله، والتبرِّي من أعدائه، وليس بشيء زائد عليهما، إنما هو تحقيقهما.

وخاطبهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ لما أوجب الله على أهل الكتاب محبته فوق كل شيء، وصرَّح بأن الإيمان هو هذه المحبة، كما سيأتيك بيانه، ثم أسخطوه بعصيانهم، فوعَدَهم محبَّته إياهم على اتباع هذا النبي. فدعاهم هاهنا إلى إيفاء ذلك الوعد بأن الله تعالى أتاكم برحمته الموعودة، فإن كنتم في شيء من الإيمان فاغتنموا هذه الفرصة كما جاء في سورة البقرة: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إلى آيات بعدها.

وكما جاء في سورة الأعراف بعد ذكر عصيانهم واستغفار موسى عليه السلام لهم: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

(١) ديوانه: ١٦٨. وصدره:

مَن مبلغٌ عمرو بن هند آيةً

وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧ إلى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الأعراف: ١٥٨.

فعلى هذا دعاهم الله إلى ذلك الوعد حتى قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ آل عمران: ٣٢ فبيَّن أنَّ التولّي عن اتباع هذا النبي كفر، وبُعدٌ عن محبة الله.

فهذه الجملة (آيات ٢٦-٣٢) انتهت مثل الجملة السابقة إلى أن لادين إلا الإسلام، وهو اتباع هذا النبي لأنه مصدِّق لما معهم. فمن تولّى فلا نصيب له في محبة الله، ولا بد أن يصطفي لأمانته ودينه أمة أُخرى، كما هو سنته.

(١٥)

النظر في شذرات هذا السمط

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية. فيه إشارة إلى ما يأتي من إعطائه الملك لهذه الأمة، وإلى ما أعطى بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون وآله. فأعطى، ونزع، وأعزَّ، وأذلَّ.

وقال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي كل شيء، ولكن لم يذكر إلا الخير لأنه موقع الدعاء. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ آل عمران: ٢٦ بيان الأصل بعد الفرع.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ الآية. قدم الليل لأنه أخف في التلفظ، كما هو معلوم عند علماء العربية. وكذلك الأمر في تقديم الحي على الميت. في إدخال الليل في النهار بيان كونه خالقاً ومالكاً ومتصرفاً على النور والظلمة والنيِّرات والسماء والأرض. وفي إخراج الحي من الميت بيان مثل ذلك فيما له الحياة.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾ بيان الغاية والنتيجة لما ذكر من تصرفه في الخلق، فأخَّر ذكر الرزق.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ جامع لثلاثة معان:

الأول: أنه لا حساب عليه، فيرزق كيف يشاء، كما قال: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ ص: ٣٩.

والثاني: أنّ عطاءه لا يُحصى لكثرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ الزمر: ١٠.

والثالث: أنه يرزق من حيث لا يُدرى، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: ٣ وكل ذلك يؤول إلى لزوم التوكل عليه، كما ذكر بعد ذلك.

﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ فيه وعيد شديد وتصريح بيِّن بأن الذي اتخذ الكافرين وليًّا من دون المؤمنين فلا نصيب له في الدين وولاية الله.

قوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بجعلهم أقرب من المؤمنين ولمضرتهم. فلا منع فيه عن موالاة الكفار لنفع المؤمنين، وفيما لا يضرُّهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ الممتحنة: ٨. فهذا ليس بحقيقة من الموالاة وإن سمَّوه بها. إنما هو من باب البرِّ والقسط، وفيها سعة عظيمة. فالمداراة بالكفار إما يكون لمصلحة المسلمين، أو لرعاية البرِّ والقسط، وهذا تمام المسألة. وأما هاهنا، فذكر ما يكون للمصلحة وكف شرِّهم، كما بيِّن بالاستثناء الآتي.

﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ التقاة والتقية والتقوى كلها مصادر. اتّقى تقاةً، مثل اتّخم تُخَمة واتّأد تُؤَدة. ومن قرأ «تقية» فإنما أراد التفسير وليست هي بقراءة.

والمراد من هذا الاستثناء بعض المداراة التي تعطى للكفار. والمفهوم من المستثنى إنما هو الرخصة، كما قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ المائدة: ٣ فالأجر للصبور. وعلى هذين الأمرين يدل قوله تعالى

بعده: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾. وهذا كما قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ البقرة: ١٩٢.

تفسير سورة آل عمران

(مسودة أخرى أقدم من السابقة)

.................[1].

الأول: أن الله العزيز الحكيم أنزل القرآن بالعزة والحكمة، فوجب الإذعان له. ويخاف إنكاره، ولا يطمع في استفراغ معانيه لعلو حكمته، ولا يجترأ عليه بإدحاض حقِّه بسوء الفهم.

الثاني: أنه متضمن لقسمين من الأمور: قسم ظهر، وأحسَّ القلب ببرده، واتفقت الكتب المنزلة فيه؛ كالتوحيد والمعاد والبرّ والإثم، فالقلوب تعرف أصولها فطرة، وتعرف تفصيلها من الشريعة. وقسم ظهر إجماله، وخفي تفصيله، فتبين معناه، وإن لم يتبين تأويله. وذلك كل ما لم تدركه التجربة حتى تعلم كيف يكون، مثل مسائل تتعلق بصفات الله أو بأمور المعاد.

الثالث: أنّ القسم الأول أصول ظاهرة محكمة، فرجع إليها، ويقاس عليها، وتستنبط منها النتائج. والآيات المتضمنة لها سميت «محكمةً»، لأنها لا مدخل فيه للاختلاف، ولا تصرف عن ظاهرها، وسميت «أم الكتاب» لأن الأمور المشتبهة ترجع إليها، فهي الفاصلة. وأيضاً تخرج منها مسائل لكونها أصولاً ظاهرةً.

والقسم الثاني ذو طرفين: طرف ظاهر، فيؤمن به لظهوره وطرف باطن لا تدركه العقول، فيرجع إلى علم الله، فلا يخاض فيه، ويسمّى «متشابهاً» لما يتشابه على الناس تأويله، فيختلفون فيما يتصورون منه وما يحملون عليه.

الرابع: أن الناس من جهة نسبتهم إلى كتاب الله صنفان: صنف راسخون في

---

(١) وضعنا النقاط للدلالة على وجود خرم في أول هذه المسودة. والكلام الآتي متعلق بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾ آل عمران: ٦.

العلم، فهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله من المحكم والمتشابه، لما تبيَّن لهم المعلوم من المجهول، وتميَّز لهم اليقين من الشك. وصنف لم ترسخ قدمهم في العلم، فظنوا أنهم يعلمون ما لم يعلموه، فزاغت قلوبهم، فتركوا المحكم، واتبعوا المتشابه.

الخامس: ...[١] نبه على أمور بذكر صفة الخلق، فكذلك بذكر صفة الحكمة نبّه على أمور أخر:

الأول: وجوب الجزاء ليخافوا.

والثاني: لزوم الإمهال، ليتوبوا. فبيَّن أنّ عزّته لا تلزم أخذهم بالفور، وبذلك رفع شبهة المستعجلين.

والثالث: أن الخالق الحكيم متم للإنسان أسباب هدايته، كما أتم خلقه، كما قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ طه: ٥٠.

ولما كان تمام التربية بابتلاء الإنسان، فيسعى، ويترقى - فإن ذلك مقتضي قيوميته وحكمته - بيّن هذه الجهة من حكمته فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾.

«الكتاب»: اسم جنس لكل ما أنزل الله مف[٢]. فمما أنزل من الكتاب آيات **«محكمات»**، أي راسخات لا يزعزعها عن معانيها تحريف، لوضاحتها في البيان، ولثبوتها عند العقول كالتوحيد وصفات الرب من كمال العلم والقدرة والرحمة، والحكمة وكالأخلاق والأعمال خيرها وشرها، والمعروف والمنكر كقوله تعالى:

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) يعني مفردات القرآن، انظر ص ٢٣٣.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ النحل: ٩٠.

﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي الغاية والعمود لكل كتاب أنزله الله، فلا مخالفة بين الكتب في هذه الآيات.

﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ أي آيات أُخر غير محكمات لتشابه في تأويلها، ولكن المحكمات هي الأمهات، فلا تأويل إلى ما يخالفها ويناقضها. والمتشابهات مفهومة حسب ظاهر المعنى وإجمالها. وأما تصوير تأويلها بالكمال، فلا سبيل إليه، ولا حاجة تمسه، كالتدقيق في صفات الله وحقيقة أفعاله، أو كحقيقة خلق عيسى عليه السلام، أو نفخ الروح في آدم عليه السلام، أو كل ما ذكر من صفات أمور الآخرة من النعيم والبؤس. فإن القدر المحتاج إليه من كل ذلك معلوم اطمأنت به العقول، وما زاد على ذلك فصار مظنة الاختلاف للناس، ومنشأ الشكوك والأوهام، ومتمسك المعاندين والطاعنين.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ ﴾ أي ميل. وهو يتضمن معنى العوج وعدم الثبات، فإن الشيء القائم إذا مال سقط.

﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾ أي من الكتاب.

﴿ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ﴾ أي ربما يتوغلون فيه ليثيروا الشكوك كالمجادلين من اليهود والنصارى، وكالباطنيين الذين ألقوا على الناس الشبهات، وغرّوهم بأن عندهم ما يشفي ظنونهم، ثم غرّوهم بتمويهاتهم وضلالاتهم، ومنعوهم عن إظهارها لكيلا يبطلها أهل العلم. وربما يطمعون في تأويله لجهلهم بحدود علمهم ومبلغهم، فلا يدرون من العقل حده ومنتهاه، وهذا هو الجهل العظيم. فلم يثبتوا على حدّه، ولم يتمسكوا كل التمسك بما أحكمت من الآيات وفضلّت العقول، وزلّت بهم الأقدام. وتورطت بهم في الأوهام حتى وقعوا في الإلحاد

والكفر والضلالة والشكوك، فضلّوا، وأضلّوا كالنصارى والفلاسفة الذين حاولوا التكلم في صفات الله وأمور الآخرة. وأخذت نفحة منهم بالمتكلمين رحمهم الله.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ أي لا يعلم تأويل متشابه الكتاب إلا الله تعالى. وقال فريق: إن الراسخين أيضاً يعلمون تأويله. والأول مروي عن ابن عباس وعائشة وعلي ﷺ كما جاء في نهج البلاغة، والحسن ومالك بن أنس والكسائي والفراء، ومن المعتزلة عن أبي علي الجبائي. وهو قول جمهور أهل السنة. والقول الثاني رأي بعض المتكلمين والشيعة. وهو خلاف ظاهر الكتاب، فإنّ الله ذمّ المتبع للمتشابهات والمبتغي لتأويله، وصرّح بأن اتباع المتشابهات يأتي من الزيغ وابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وقد علمنا أن المتبعين للمتشابهات ضلّوا واختلفوا وجادلوا في الحق. فمعنى الآية أن الراسخين علموا إجمالاً ما هو المراد من المتشابهات، وفوضوا تفصيلها إلى الله، فإنهم لم يجدوا فيها خلافاً لمحكمات الآيات، ولرسوخهم في العلم لم يلتفتوا إلى الأوهام والظنون ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ النجم: ٢٨.

ولكن لا ينتبه لذلك إلا أهل القلوب السليمة، فإنهم يقدرون العلم الراسخ حق قدره، فيفرّون عما يزيغ، فيدعون ربهم أن يجنبهم عن الشكوك فبيّن الله رسوخهم في الإيمان وإقرارهم ودعاءهم بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ ويتسلّون عند إلقاء الناس الشبهات ووقوعهم في الاختلاف بأنّ الله هو يقضي بينهم يوم القيامة، فيحوّلون الفصلَ إليه، ولا يجادلون، كما جاء في القرآن كثيراً، ومنه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ الشورى: ١٠. فهكذا هاهنا يقولون.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لاريب في القيامة عقلاً، فإن الله لا بد

أن يحكم بين عباده ويحق الحق؛ ونقلاً، لما تواتر فيه الوحي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ فإنه وعد الفصل فلا بد أن يأتي ويحكم بينهم ولا مخلص منه.

وأسلوب الالتفات في الآيتين يدل على أنهم لا يجادلون أهل الزيغ، بل يفرّون إلى الله، ويسألونه الهداية. ولم يقل: إنهم «يقولون»، فأسلوب الحذف دل على سرعة رجوعهم إلى الله فزعا.

ثم بعد ذكر أبواب الضلالة وأربابها، ذكر أسبابها من الغرور بالأموال والأولاد وحبها وقلة غنائها فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾ إذ لم تغن في الدنيا، فكيف تغني في الآخرة؟

وبعد ذلك ضرب لهم مثلاً مما علموا من فصل الله في الدنيا، ليؤمنوا بفصله التامّ في القيامة. وحينئذ يبطل كل قوة اعتمدوا عليها في الدنيا وكذبوا بآياته ونذره.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ﴾ قوم ﴿فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١﴾.

هذه الآيات الإحدى عشر كالتمهيد الجامع ١- لدلائل التوحيد، ٢- والطاعة لحكمه، ٣- ولتسلية النبي على إنكارهم، ٤- ولكفّ المسلمين عن الشبهات، ٥- ولتعليمهم دعاء الراسخين في العلم، ٦- ولإنذار المكذبين. فهذا كلام عامّ. فبعد ذلك التمهيد التفت إلى أحوال الحاضرين، فحسن الخطاب إليهم بها يذكّرهم ما رأوا. والربط بين السابق واللاحق ظاهر فإنَّ كليهما في ذكر قلة غناء متاع الدنيا، فقال:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من الذين غرَّتهم عُدَّتهم وعددهم، وكان لهم بعض

الغلبة، فظنّوا أنهم يغلبون، فاعتنى بعاقبة الأمور وهو غلبة الحق، فقال: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ مع عدتكم وعديدكم ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بأجمعكم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ كما وقع بآل فرعون من عذاب الدنيا والآخرة وقلة غناء المال والأولاد.

وضرب على ذلك مثلاً من أحوالهم فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي دليل بيّن ومعجزة ظاهرة كما سنبينه بعد الآية (١٣) ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ إشارة إلى غلبة المسلمين ببدر فإنهم كانوا ثلاث مئة وثلثة عشر رجلاً والكفار زهاء ألف ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ قرأ نافع: «ترونهم» ليفسِّر أن الفعل للمخاطب، يعني: أيها الكفار، أنتم كنتم ترون المسلمين مثلى فئة الكافرين. فإن الآية تعلم ما يخاطب به النبي الكفار. ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي مشاهدة بينة.

والمعلوم أنهم أقل منهم، وإنما كثّر الله المسلمين بالملائكة، فكانت الكفار يرون المسلمين ألفين أي ستة أضعاف ما كانوا، فأخذهم الرعب الشديد، ولم يروا ذلك قبل القتال وإلا لم يقاتلوا. وحين جاءت الملائكة نزلت السكينة على قلوب المسلمين، فلم يرعبوا. وأما قبل نزول الملائكة فقد رأوا الكفار قليلاً لكيلا يرعبوا، كما جاء في سورة الأنفال قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ الأنفال: ٤٣ - ٤٤ أي إذ التقيتم في أول الأمر ثم رأى الكفار المسلمين ألفين رأي العين من غير لبس وحجاب. فأول الأمر أطمع الكفار غلبةً، وآخره قطع رجاءهم. وهكذا وقع بفرعون حين تبع بجنوده بني إسرائيل. وهكذا وقع بعاد إذ قالوا: هذا عارض ممطرنا.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ على قلة غناء أسباب الدنيا، فيصبرون في سبيل الله، ويكفّون عن الميل إلى زينة الدنيا التي تثبِّط

عن الصبر، وتمنع عن الإنفاق، وتبعد عن ذكر الله والآخرة، فيتقلب في المعاصي ولا يستغفر.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ ﴾ الأموال المجتمعة. ﴿ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ ﴾ المعلَمة فإنهم كانوا يسوِّمون جيادها. ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ فإن ذلك كان جُلّ أموالهم ﴿وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ ﴾ أي متاع الدنيا الذي غرّكم وجعلتم تظنون أنكم على أحسن حال من المسلمين مع كفركم وجماحكم. فإن الله تعالى يدبِّر الأمور ويجريها على الحكمة والقسط، فلا تغرَّنكم الأحوال الظاهرة وتُلهينّكم عن التفكر فيها هوالحق والدين الصحيح المقبول عند الله، وهو عدم اختلافهم ودخولهم في سلم وطاعة واحدة، فإن القسط لا يمكن إذا اختلفت الشرائع. وكان النبي يدعوهم إلى هذا الإسلام، وهم يخالفونه لوجوه، ولم يترك القرآن لهم حجة. ومعظم الأسباب أن الإنسان لا يطيع أحداً وإن كان لا بد منه فيطيع من كان أقرب إليه من سواه، ثم يرضون لغيرهم ما رضوا به لأنفسهم، فيطمئنون تحت حكام مختلفة، هذا من جهة المطيعين. وأما المطاعون فيأخذون طبقة من الناس تحت حكمهم ليكونوا رؤساء. وإذ لا يتم لهم أن يرأسوا الجميع، ولا يحبون أن يطيعوا غيرهم، يطمئنون بالاختلاف، ويزعمون أن ذلك هو حكم الله ورضاه، ويقولون: إن لكل أمة ديناً، وينكرون باتحاد جميع الناس تحت سلطة إلهية، ويحتجون بالاختلاف الموجود في نفس دين الله. فبيَّن الله أن الله تعالى أنزل دينا واحداً، ولكن اختلفوا لبغيهم.

﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ فبعلمه بهم وقسطه

يجازي المتقين، ويرضى عنهم، ثم هم يدعون ويستغفرون ويخافون عذابه كما ذكر: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ نصب على التفسير أي أعني الصابرين على إيمانهم، والصادقين فيه، والخاشعين لربهم طاعة، والمنفقين تحقيقاً لصدقهم، والمستغفرين بالأسحار لغلبة إيمانهم بالجزاء، فإذا انتبهوا من النوم لم يهمَّهم متاع الدنيا، ولا يطول نومهم لخشيتهم وإيمانم بالعدل. فإيمانهم بالله إيمان بعدله وجزائه، فإذا آمنوا خافوا وسعوا لفعل الخير.

وصرَّح بوجوب القسط بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾. نبّه على أن التوحيد أمر شهد به الله والنفوس الزكية وأولو العلم. ويلزم الألوهية المطلقة القيام بالقسط، فإن أراد غير القسط أو تركه لم يكن حكيماً، وإن عجز عنه لم يكن عزيزاً، فلم يكن إلهاً حقًّا. وإذ هو قائم بالقسط لا بد لعباده أن يسلموا للقسط ويقوموا به، وذلك هو الإسلام والانقياد لربهم، فنبَّه على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

الدين في اللغة هو الإطاعة فلا دين لمن لا يطيع، وكذلك الإسلام هو الإطاعة. وقد مرّ آنفا لزوم القسط والعمل الصالح للإيمان. وأيضاً اشتق الإيمان والإسلام من الأمن والسلم، فلا بغي ولا اختلاف في دين الله ولا في هداه وكتابه، وإنما نزل كتبه لإزالة الاختلاف.

وهذه الأمور بينة، ولكن أهل الكتاب من اليهود والنصارى اختلفوا اختلافاً شديداً، فرفع هذه الشبهة بقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ فصرح بأن الله تعالى أعطاهم الكتاب، وعلّمهم طريق الخير، ولكن بغوا واختلفوا، فكان ذلك كفراً بآياته. والله تعالى لا يتركهم غير مجازين وإذا جاء حسابه يبطشهم بطرفة عين، كما فعل

بالأقوام المكذبة كما قال...[1] فبيّن بذلك أنهم ليسوا على دين كما زعموا، بل لا بد من إيمانهم بجميع الكتب والإطاعة لها. فحجتهم بكونهم على دين الله داحضة، كما صرح بقوله: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

١- فهذا جواب عام لشبهتهم.

٢- ثم بيّن أنهم لم يؤمنوا بالأنبياء أيضاً فكيف يحتجون بأنهم أتباع الأنبياء فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي كانوا يقتلون الأنبياء. وحذف «كان» قبل المضارع كثير في كلام العرب وفي القرآن: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ البقرة: ١٠٢ أي كانت الشيطان تتلو. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٣- ثم إنهم لا يتبعون موسى عليه السلام وكتابه أيضاً إذ رفضوا أحكامه كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ إشارة إلى إعراضهم عن التوراة حين زنى منهم اثنان، فحكم النبي بما جاء في التوراة من الرجم فلم يقتلوا. فظهر أنهم إنما يتبعون أهواءهم وإنما غرّهم ما افتروا من كونهم أحبّاء الله، فدلّ على أصل دائهم وجهلهم بالله تعالى وقسطه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لكمال عدل الله ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ كما قال في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا

(١) بياض في الأصل.

مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

ففي غضون هذه الآيات: (١-٢٤) ذكر من أسباب كفر اليهود ١- زيغهم ٢- وحبهم متاع الدنيا ٣- وبغيهم وغرورهم بقسط الله، فدلّ على فساد قلوبهم وعقولهم بوجوه، وعلى غاية هذا الفساد بالجمع بين الضدين. فهم المتوغلون في المتشابهات، ثم المتهالكون على حطام الدنيا، والمتهتكون حمى الله، ثم الراجون مغفرته. فكأنما فسرّ ما جاء في التوراة من ذكر حمقهم، وكونهم صلب الرقاب. فتبين أنهم فسدوا غاية الفساد، وتولوا عن الله، فلزم أن يعطي الله النبوة والملك لقوم آخرين ويسلبهم أمانته. وهذا إجمال ما فصّل في سورة البقرة من أسباب كفرهم وعدّدها حتي ختم بقوله: ﴿ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾. أي أنتم لستم في شيء من الإيمان.

واعلم أن القرآن ذكر إلى هاهنا ما ظهر وبان من أحوالهم، فبعد ذلك عمد إلى ذكر أصل دائهم الخفي، وهو حسدهم لبني إسماعيل بما أعطاهم الله من الملك والنبوة. وإذ كانوا يخفون ذلك اقتضت البلاغة أن لا يصرح بما أخفوه تكرماً وإعراضاً عنهم، فصرف القول عن ذكرهم وألقى إلى النبي كلمات جامعة فيها: ١- إقرار بتفرد الله بالملك والإعطاء، ٢- وتعريض بأن الحسد بالمعطى له معارضة بالمعطى. ٣- وتلويح بالسؤال لعطاياه والتوكل عليه. ٤- وتمهيد لما يأتي ذكره من اصطفاء الله من توكل عليه وأسلم لربه. ٥- واستدلال بصفاته وسننه على هذه الأمور. فجمع المدح، والذم، والدعاء، والدليل، فقال: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ**

﴿حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ هذا مثل ضرب للمسلمين واليهود. فأعطى ونزع، وأعزَّ وأذلَّ، فإن الملك والقدرة له، وذلك من سنته. وهكذا يأتي بالنور والظلمة ويخرج الحياة من الموت والموت من الحياة. وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ جامع لثلاثة معان:

١- أي لا حساب عليه، فيرزق كيف يشاء كما قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ ص: ٣٩.

٢- وأيضاً لا يعدّ ولا يحصى من كثرة الخير كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ الزمر: ١٠.

٣- وأيضاً إنه يرزق من حيث لا يدرى كما قال: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: ٣ فهدى بهذه الآية إلى أن يتوكل المسلمون عليه، ولا يتخذوا أولياء إلا إياه، ويتبرؤوا عمن أسخطوه ولا يخافوهم كما قال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بخلاف المؤمنين بما يجلب المضرة عليهم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ في هذا الكلام سطوة ليخافوا ربهم ويتبرؤوا من أعداء الله وأعدائهم، وذلك بأنه قد كان في المؤمنين من لم يطلع على حقد اليهود، فكان يتفاوض بهم في الحديث، فيطلعون على أمورنا. وكذلك قد علقت ببعض المسلمين حبال عهودهم، فيضمرون لهم بعض المودة. فهؤلاء نبههم، وكذلك نبه اليهود على ما أخفوا من الحقد والحسد، فأتى بخطاب عام جامع يطابق أحوالهم التي اشتركت وإن اختلفت أسبابها، فقال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فإنه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن شاء أخذكم به ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ محضراً ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي بينها وبين السوء المحضر ﴿أَمَدًۢا﴾ زماناً وبعداً ﴿بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ أي هذا التحذير من

رأفته، فإنه أمهل، وقدَّم التحذير، ولا يُظهر ما أخفوه بالفور. ثم خاطبهم مرة أخرى خطاباً عامًّا. أما المؤمنين فلأنهم لما آمنوا وجب عليهم اتباع نبيهم، فهداهم إلى ما يتم به سعادتهم. وأما أهل الكتاب فلأنهم ادعوا أنهم أحبَّاء الله، فألزمهم ما يلزم محبة الله من اتباع رسوله الذي بشر به موسى عليه السلام أنه يكملهم ويدخلهم في رحمته الموعودة، كما جاء في التوراة والإنجيل، كما صرح به في سورة الأعراف: (١٥٥-١٥٦)، فقال قولاً جامعاً بليغاً: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي إن أعرضوا عن اتباع الرسول فقد كفروا وحرموا محبة الله. فسكت عن الجزاء، واكتفي بذكر الدليل عن ذكر المدلول عليه، كما هو أسلوب عام، فقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ وهاهنا تمام البلاغ. أي إن تولوا فما عليكم إلا البلاغ، والله يكفيك لشرهم كما قال في سورة البقرة: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ وكما مرّ في آية (١٩).

وبعد ذلك عمد إلى أصل الأمر وهو استخلافه عباده المؤمنين الصادقين القانتين المستغفرين، راجع آيات (١٥-١٧). فيصطفي من عباده من يشاء حسب حكمته وإجراء قسطه، ويسلب نعمته من لم يقبلها، فيستخلف لها من اتبع الرسول، كما جاء في سورة هود: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ ﴾ هود: ٥٧.

ففي الآيات الآتية ضرب الله أمثالاً لذكر بركات التوكل على الله، والانقطاع إليه، واصطفائه المسلمين لربِّهم، ورزقه إياهم بغير حساب، كما مهد لهذه الأمور في آيتي (٢٥ و٢٦). وقدَّم هذا الكلام الآتي للاحتجاج على النصارى، وقد تضمن الاحتجاج على اليهود أيضاً فقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ من بين خلقه، فكرَّمه على الملائكة بمحض مشيئته الحكيمة، فله الملك والعطاء، ثم اجتباه مرة أخرى حين

استغفر وأناب ﴿ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يستجيب دعوة من ينيب إليه ﴿ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ بما في صدورهم ١- من الخشية لله ٢- وبما علموا من الخيرات ٣- وبما يكون من المصالح والحكمة لاصطفائهم.

هذا بيان مجمل لاصطفائه تعالى من توكَّل عليه وأناب إليه. ثم فصَّل قصتهم بما يبين هذه الأمور، فقال: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ أي عن خدمتي وكسب معيشتي ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ أي هذا معلوم، وإنما قالته توطئة لما تقول بعده: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ ﴾ أي الذكر الذي ظننته نذراً لك لا يساوي هذه التي وضعتها، فإن تقبلتها كان من كمال فضلك. ولا أرى في قولها تقديماً لما حقه التأخير.

﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أي بطيب النفس مع كونها أنثى، وبزيادة قبول دعائها في حفظ ذريتها وتكفلها، وزيادة إنعام النبوة العظيمة لذريتها، وإنعام الطهارة لها ولابنها، وتكفيلها نبيًا، وغير ذلك مما بيَّن بقوله عز من قائل: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ ﴾ أي كانت دائمة الصلاة ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ ﴾ أي رزقاً للروح والجسم فإن الله تعالى سمّى الهداية والوحي رزقاً ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ فحوَّلت إلى مشيئته وفضله ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾. راجع تفسير آيتي (٢٦-٢٧).

فلما وجد زكريا عليه السلام عندها رحمة الله، وانتبه بفضله الذي يأتي من غير حساب دعا ربه، كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ أي بمحض فضلك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ ﴾ فلم يسأل إلا طيبة ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ وإنما ناداه ملك واحد، ولكن جاء بصيغة الجمع، فإن المراد أن الله تعالى أجابه بواسطة

الملائكة، ولذلك خاطب زكريا عليه السلام ربه في كلامه كما سيجيء.

﴿ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ انظر كيف كان صلاته مناجاة ومكالمة. وكان يأمرنا نبيُّنا بقول يناسب المحل. فالصلاة الجامدة كما يصلي أكثر الناس ليست كصلاة الأنبياء والصحابة، ولذلك قد أمر النبيُّ بالدعاء بعد التشهد والصلاة على النبي، لندعو الله ونرفع إليه حاجاتنا في الصلاة، وأما تطويل الأدعية بعد الصلاة، فخلافُ السنة ووضعُ الشيء في غير محله.

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي عيسى عليه السلام، فإنه خلق بمحض كلمة الله وأمره، والكلمة هي الأمر. (مف[1] عنوان عيسى عليه السلام). وإنما نكّر لأنَّ لله كلمات لا تُعدُّ، وعيسى واحد منها. فأبطل معظم ضلالة النصارى، فإنهم زعموا أن المسيح عليه السلام هو الكلمة، وبنوا على ذلك ألوهيته. وزيادة البيان في تفسير سورة الكهف حيث قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ ومن هذه السورة في تفسير آية ٨٥.

﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾. فهذا مثل ثان لرحمة الله الخاصة بالمتوكلين الصابرين. ووصف يحيى عليه السلام بصفات عالية من كونه سيِّداً ومتعففاً عن لذات الدنيا، كما جاء في الإنجيل من سيادته أنه عمَّد عيسى عليه السلام، وزَجَر الملك عن فعله القبيح.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ إنما استبعد لما أنه سمع من الملَك ﴿ قَالَ ﴾ الملَك المبشِّر ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ لأعلم أن هذه البشارة منك ﴿ قَالَ ﴾ الملَكُ مجيباً من جانب الله ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا

---

(١) يشير إلى كتابه مفردات القرآن، ولم يكمله، وليس فيه هذا العنوان. والكتاب مطبوع.

﴿تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي لا يمكن لك التكلم بالناس، ولكن يمكنك المناجاة والدعاء. وإنما حذف ذلك لما دلَّ عليه بها أمره، فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

وفي ذلك آية، فإنَّ سكوته لو كان من مسِّ الشياطين أو مرض لم يقدر على الكلام أصلاً، ولكان ذكر الله وتسبيحه أصعب عليه. ثم ذكرُ الله وتسبيحُه يذهب بمسِّ الشياطين. وكذلك عدم قدرته على كلام دون كلام لا يكون من مرض. وأيضاً فيه آية لمشابهته لصفة يحيى إذ كان منقطعاً عن أمور الدنيا بالكلية.

ثم في هذين المثلين مثال لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإن إبراهيم جعل إسماعيل عليه السلام ١- نذراً لله ٢- وأعطاه الله إياه بعدما كبر ٣- وسمع دعاءه لذريته الطيبة ٤- ورزقهم في واد غير ذي زرع. وكل ذلك لتمسكه بالله، وإقامة الصلاة، والصبر العظيم. فباركه بركة عظيمة، وبارك بذريته جميع الأرض (مف عنون إسماعيل)[1].

هذا، ثم ضرب مثلاً ثالثاً لبركة القانتين فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جاء بصيغة الجمع لما مرّ في تفسير آية ٣٩. وإنما بشّرها جبرئيل عليه السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي في المسجد. ومن هاهنا ظهرت فضيلة الجماعة وترتب البركات عليها.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ﴾ أي ذلك ﴿إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أي أزلامهم للقرعة. وهذه جائزة لأنها لم تكن للميسر، وإنما كانت لرفع

---

(١) يشير إلى كتابه مفردات القرآن، وليس فيه هذا العنوان، لكونه ناقصاً كما سبق.

النزاع عند تساوي الحقوق كما بيّن فقال: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وإنما وقع النزاع لتنافسهم لأمر حسن. ويلمح من هاهنا أن مريم عليها السلام كانت منذ وُلدت تلوح عليها مخايل السعادة والعظمة والطهارة.

والجملة معترضة، وإنما جاء بها ١- تعليماً بأن القرآن تضمن طرفاً من قصتها خلت عنه الأناجيل المتعارفة. ٢- وتنبيهاً على أن ما جاءنا إنما جاء بوحي الله وخاطب به النبي ٣- ليطيّب نفسه بمزيد العلم ٤- وليعلم أن ذلك ليس مما يحاج به أهل الكتاب. إن المحاجة إنما تكون بأمر مسلَّم عند الخصم ولكن ٥- يعلمون بذلك أن النبي لا يحتاج إلى ما عندهم. ٦- ويعلن بأن كتابه هذا مهيمن على الكتب السابقة ليخفض من كبرهم. فتضمنت هذه الجملة المعترضة فوائد، ثم هي كالخاتمة لما سبق من القصة، فإن بين ما مرَّ وبين ما يأتي برهة من الزمان، فعاد إلى إتمام ذكر مريم عليها السلام وجعله مثلاً رابعاً فقال:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ كرر هذا للربط بعد الفصل، ولأن ما يتلو قد وقع بعد مدة، فكأنه قصة أخرى وبركة مستقلة بنفسها. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ لفائدة مجيء النكرة راجع تفسير آية (٣٩). ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ المسيح لقبه واللقب يذكر قبل الاسم. وفي شريعة اليهود كان النبي والملك يُمسَح رأسه بدهن خاص يمسحه نبي قبله، كما مسح سموئلُ النبي داودَ عليهما السلام حين جعله نبيًّا. ويطلق هذا اللقب على الملك الذي لم يكن نبيًّا، كما سمّى داود عليه السلام طالوت الملك مسيحاً حتى إن داريوس الفارسي أيضاً سُمِّيَ مسيحاً. وإنما خُصَّ عيسى بهذا اللقب لأنه كان مسيحاً خَلْقاً، فكان يقطر راسه دهناً كما جاء

في صحيح البخاري[1]. ولذلك حين انبعث عيسى مبشراً بملكوت الله الذي يأتي بعده، وذهب إلى يحيى عليه السلام لم يمسحه يحيى، بل اكتفى بالمعمودية أي غطسه بالماء. وإنما فعل ذلك مع كونه نبيًّا من يوم خُلق لما قال ليحيى عليه السلام: لا بدَّ أن اتبع شريعة الله. فعمَّده يحيى، وحينئذ نزل عليه روح النبوة، كما جاء في الإنجيل.

وإنما قال: ﴿ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ خلافاً للنصارى الذين زعموا أنه ابن الله، وقال: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ لأن الناس كانوا يهابونه ألا ترى لم يمكن قط لليهود التطاول عليه مع زجره البليغ لمشايخهم. وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ لما أنه عليه السلام لم يتنازل إلى أمور الدنيا فكان دائم التوجه إلى الله. وسرد هذه الصفات الحسنة ليمتن على مريم عليها السلام بكمال البشارة، ولذلك زاده ثناء فقال: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾. في الأناجيل المتعارفة أنه توفى قبل الاكتهال. والقرآن مهيمن على كتبهم التي بدلوها ومع ذلك تجد في الإنجيل ما يدل على اكتهاله يوحنا ٨: ٥٧. «فقال له اليهود ليس لك خمسون سنة بعد. أفرأيت إبراهيم». فهذا كلام لايخاطب به إلا من قارب الخمسين. هذا، ووصفه بالصلاح كما وصف يحيى لأن الصلاح جماع الخيرات، ولأنه يدل على أنه كان حريا بهذه الإنعامات.

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ ﴾ إنما استبعدت لما ذكرنا آنفا في قصة يحيى عليه السلام. ﴿قَالَ﴾ جبرئيل عليه السلام ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن ﴾ فهذه كلمة كن هي كلمة الله التي سمى به عيسي ﴿فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ ثم زاد في ذكر إنعامه عليه فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة التي جمعت ما كتب الله على عباده من

(١) صحيح البخاري (٣٤٤٠).

الشرائع (مف عنوان «كتاب»)[1]. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النصائح البليغة في محاسن الأخلاق التي تجعلهم أذكياء فاهمين بشارته التي ضرب لها أمثالاً في الإنجيل. فإن الإنجيل معناه بشرى، وهي أصل نبوة عيسى، وإليه أشار بقوله في وصفه ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ الصف: ٦. وفسر كلمتي الكتاب والحكمة فقال: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ أي الشرائع والحكمة[2] ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهكذا أعلن المسيح عليه السلام، فمنع حواريه عن دعوة غير بني إسرائيل، كما جاء في الإنجيل، لأن الأمم الوثنيين لم يفهموا حكمته. وهكذا وقع، فإنهم جعلوه إلهاً لمعجزاته الظاهرة، ولضلالتهم عن تأويل كلماته الحكيمة.

وبيّن ما جاء به من الرسالة، فقال حكاية عنه عليه السلام: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ أي ضعيف البصر فاشتمل الأعمى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي آية على رسالتي من الله، فإني أفعل كل ذلك بإذنه. وأخرجوا عن الأناجيل هذا التصريح «بإذن الله»، وزعموا أنه كان يفعل ذلك بقدرته، و هو متبرئ من الادعاء لخلق شيء، فإن الله تعالى خالق كل شيء. وقد جعل الله له هذه الآيات ليدل على كونه مخلوقاً بمحض كلمته، وعلى كونه آيةً على الساعة، فإن الله تعالى يحيي الموتى، ويعلم ما فعلوا وما ادخروا.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي إن كنتم مؤمنين بالله وبرسالتي منه. فهذه

---

(١) انظر مفردات القرآن: ٢٣٣.

(٢) انظر مفردات القرآن: ١٧٢.

آية كافية. ثم زاد دليلاً على كونه من الرسل فقال تعالى حكاية عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ أي جئت مصدِّقاً. عطف الحال على ما يشبهها.

والاستدلال بالتصديق بوجهين[١]: الأول أن الأنبياء لا يبطلون الشرائع السابقة بل يزيدون فيها ما يساعدها ويتمها. والثاني إنهم يصدقون بوجودهم ما بشّر به الأنبياء فصدّقوا أحكامها وأخبارها معا. وإنما قدم هذا القول رفعا لشبهة من يتوهم أنه ينسخ التوراة لما يحل لهم بعض ما حرم كما سيجيء وهكذا في الإنجيل، فقال إني لم أجيء لأنسخ التوراة ولكني أشيدها ولا تقوم الساعة حتى يصدق كلها يعني ما فيها من الوعد والوعيد. ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ أي قبلي. ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ من للبيان. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تنكير آية للتفخيم، وليس للوحدة. وإنما كرر هذه الجملة على أسلوب العود على البدء (لفوائده: اس)[٢] وذكّرهم بذلك تسبيباً لوجوب إطاعته من جهة خوف الله الذي أرسله كما يتبين مما يتلو: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ أي صراط التوحيد الموصل إلى الرب الذي أرسل الأنبياء للدعوة إليه. فذلك من جهة الاعتقاد هو الإيمان، ومن جهة السلوك هو الإسلام. وهذه الجملة موجودة إلى الآن في إنجيلهم، ولكنهم تركوا المحكم، ووقعوا في المتشابه، فضلُّوا ضلالاً بعيداً. وقوله الصريح حجة قاطعة على النصارى كما مرّ تحت آية (٦٢).

هذا، ثم عمداً إلى إتمام القصة بإجمال يكفي للاستدلال فقال: ﴿ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ

---

(١) انظر تفسير «مصدقاً لما بين يديه» في مفردات القرآن.

(٢) يعني كتابه: «أساليب القرآن».

عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ فظهر أن النبي يدعو الذين أرسل إليهم فلما تولوا منه تركهم وتوجه إلى شرذمة مسلمة، فيتوجه نصرُ الله إليهم، فهم يستخلفون ويغلبون، كما جاء في سورة الصف مما يشبه هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ الصف: ١٤ وذلك بيان انتهاء أمر النبي، فإنه إذا أحس الكفر المحض ممن أرسل إليهم أعرض عنهم وهاجر منهم، واستخلف طائفة المؤمنين. وهكذا وقع بالمسيح، فيأتي نصر الله تعالى إلى حزبه، فيظهرون على أعدائهم. فهذا مثل خامس لاصطفاء الله حزبه، وأنصاره الذين شهدوا بالحق، واتبعوا الرسول، وأسلموا. ألا ترى كيف أكدوا على إسلامهم وشهادتهم بالحق؟ فبيّن الله نصره لعباده المسلمين في تمام القصة فقال: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

«المكر»: استعمال الأسباب الخفية للضرر، وجهة مذمته أنه يدل على ضعف العدو، وإذ كثر ذلك في الناس غلب عليه الذم، فيُظن أنَّ كلَّ مكرٍ سيئٌ، والأمر خلاف ذلك. فإن الأسباب الخفيفة للضرر أيضاً تستعمل للمجازاة بمن مكر، فإن جازى الماكر بانتقام صريح اتهمه بالظلم والعدوان. وكذلك تستعمل لتنبيه العدو المحتال على ظهور حيلته، فيخزى، ويعلم أن خصمه قد غلبه حكمةً وتدبيراً، فيخاف ويرجع عن المكر السيئ، ولا يلوم إلا نفسه المحتالة. فردُّ الكيد بطريق خفي مثله أقربُ مجازاةً، وأشدُّ تخويفاً، ولا ذمَّ عليه؛ بل خلافه مظنة للذم. فالمكر ليس كله سيئاً، كما بيّن القرآن هذا الفرق حيث قال: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ فاطر: ٤٣. وهكذا أشار هاهنا حيث قال: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

هذا، وأما تفصيل مكرهم بالمسيح عليه السلام، فجاء في أناجيلهم على تبديلها أن اليهود استأجروا يهودا المنافق الذي دخل في الحواريين ليدُلّهم على المسيح بعلامة التقبيل ليأخذوه. فلما جاءت اليهود بالشُّرَط يهمُّون أخذ المسيح دخل يهودا المنافق على المسيح وأصحابه، وقبَّل يدَ المسيح. وحينئذ ازدحمت اليهود والشرَط بالعصي والسيوف، والحواريون في البيت وكان ذلك في السّيل. وبقية القصة موضع الاختلاف بين المسيحيين. فزعمت طائفة أن الشرط أخذوا المسيح، وضربوه، واستهزؤوا به، وتفلوا على وجهه. واتفق المسيحيون بعد مرور الزمان على ذلك. وقالت طائفة من سلفهم إن الشرط إنما أخذوا ذلك المنافق، وهذا هو الذي صدَّقه القرآن، وعليه إيمان المسلمين الذين يطهِّرون المسيح عن كل مذلة، ويقولون: إن الله تعالى رفع المسيح، وردّ كيد أعدائه في نحورهم، وجعل المنافق مأخوذاً معذَّباً مُخْزىً في الدنيا والآخرة. وجاء القرآن فرقاناً بين الحق والباطل، مصرِّحاً بأمر المسيح، كما جاء في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ فهذا هو مكر الله بأعداء المسيح عليه السلام، أرادوا السوء به، فحفظ الله عبده، وعظَّمه، وأخزى أعداءه كما قال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

«التوفِّي» هو: الأخذ بالتمام والقبض، وهذه كلمة معلومة في كلام العرب اشتقاقاً واستعمالاً. وليس معناها الإماتة، لا في القرآن، ولا في كلام العرب (مف)[١].

وسوق الكلام إلى ذكر النعم على عيسى عليه السلام وأتباعه كما مرّ قبل ذلك من ذكر نعمه بأوليائه. فجملة القصة أنه لما ظهر الكفر الصريح من اليهود أعرض المسيح عليه السلام عنهم، وتوجَّه إلى أتباعه القليلين، وأخذ منهم الميثاق بالجهاد ونصرة الدين، وبلغ مكر أعدائه منتهاه، فهمُّوا بقتله، وحان له أن يهاجر اليهود كما هو سنة الأنبياء. طيّب الله نفس المسيح عليه السلام ببشارة غلبة الحق على الباطل فقال له: إني أقبضك منهم، وأرفعك إلي، وأطهّرك من سوء المعاشرة بهم فإنهم رجس، ثم أجعل أتباعك غالبين على المنكرين بك؛ وسمّاهم كافرين لأن الله تعالى صرح بكفر المنكرين بالأنبياء.

فإن تدبرت فيما مرّ من أمور هذه القصة وما قبلها من أمثال ضربها الله تبين لك أن ذلك موضع ذكر النعم، فلا سبيل إلى القول بأن الله يخبره أنه يميته ويجعل لأعدائه غلبة عليه. فما محل ذكر الإماتة؟ ثم ليس ذلك من معنى اللفظ.

هذا، وأرى أن ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ هم الذين يعدون من أتباعه وينتسبون إليه، لأن هاهنا مقابلة بين المتبعين له والكافرين به، ولأنه لو جعل الغلبة للمتبعين بالحق فقط لكان بعض التضييق في البشارة وهي موقع الرحب في النعم الدنياوية، كما ترى في بشارة إبراهيم حيث جاء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ البقرة: ١٢٦ فخصَّ إبراهيم عليه السلام دعاءه بمن آمن منهم، ولكن الله جعله عامًّا وحوّل جزاءكفرهم إلى القيامة.

---

(١) يشير إلى كتابه مفردات القرآن، ولم نجد فيه هذه الكلمة.

وكذلك هاهنا جعل للنصارى غلبة خاصة بمقابلة اليهود، فكملت البشارة، وتم الخطاب بالمسيح. ولكيلا يغرَّ النصارى أنهم تكفيهم هذه البشارة خاطبهم خطاباً عامًّا يشملهم واليهود أيضاً. فإن الاختلاف كما اشتد بين فريقي اليهود والنصارى، فكذلك اشتد وكثر وطال بين فرق النصارى. وقد كثر في القرآن ذكر اختلاف أهل الكتاب وتحويل فصله إلى الله، ولم يجعلهم الله إلا فريقين الكفار والمؤمنين، فهكذا هاهنا. وإذ ليس هاهنا ذكر غير أهل الكتاب لا أرى اشتماله على جميع الناس، فأنذر الكافرين من المختلفين بعذاب الدنيا والآخرة. وهكذا وقع، فأما اليهود فتعذيبهم معلوم، وأما النصارى فاشتد بأسهم بينهم واقتتلوا بما لا مزيد عليه وجاء في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ المائدة: ١٤. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ المائدة: ١٨ وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾ البقرة: ٢٥٣. وذلك بأن الاختلاف بعد مجيء البينات والهدى من الله شنيع جدًّا فذمة أهل الكتاب أكبر، وعذابهم أشد، كما صرّح به التوراة والقرآن.

فسياق هذا الكلام أنه لا ينبغي الاختلاف لأهل الكتاب، ولا بد لهم من الطاعة والإسلام لحكم الله، ودون ذلك كفر بالكتاب فإن الأنبياء كلهم من الله، ولذلك أطلق قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي من لم يؤمن إيماناً حقاً، ولم يعمل بكتاب الله وكفر به، و لم يؤمن بعيسى عليه السلام وبمحمد ﷺ بشر به موسى وعيسى عليهما السلام بالتصريح = لا بد أن يعذبهم الله في الدنيا والآخرة، والله تعالى لا يحب الظالمين. ومن أعطى الميثاق بالطاعة وحمل أمانة الله ثم كفر بعد ذلك فظلمه صريح، فلا يغتر بما أنعم الله على الصادقين منهم، كما صرح به القرآن كثيراً.

هذا، وبعد بيان القصة أخبر الله النبي ﷺ بأن ذلك من آيات الله المنزلة عليك، وهي ذكرٌ، أي أخبار؛ وحكيمٌ، أي فيه حكم جمة وما يطمئن به القلب ولا يخالف العقائد الصحيحة. فجاء القرآن فرقاناً يوضح ما اختلف فيه اليهود والنصارى واعتقدوا بشنائع تخالف سنة الله وقسطه. وبعد أن احتج عليهم بسنة الله في عباده من اصطفائه الصالحين ونصره إياهم دفع استدلال النصارى على ألوهية المسيح بكونه كلمة الله فقال:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ قوله تعالى: ﴿كُن﴾ هو كلمته وأمره وروح منه، فإن حقيقة الروح هي أمر الله، وقوله: ﴿كُن﴾ هو النفخ كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الحجر: ٢٩، ص: ٧٢، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ النساء: ١٧١.

مزمور (١٤٧: ١٥-١٩): «يرسل كلمته في الأرض، سريعاً جداً يجري قوله الذي يعطي الثلج... يرسل كلمته فيذيبها. يخبر يعقوب بكلمته وإسرائيل بفرائضه».

فقول الله وكلمته وأمره ووحيه عبارة عن أمر واحد، فلا مزية في هذا الأمر لعيسى على آدم ؑ، بل آدم ؑ لم يولد و لم يكن ابنا لأحد، فهل يجعلونه معبوداً.

والعجب من النصارى أنهم يجدون في كتابهم أن آدم كان ابن الله (لوقا ٣٨:٣) وأن الملائكة أبناء الله (تكوين ٦: ٢و٤). وأن يعقوب ولد الله وبكره (.....)، وأن اليهود كلهم أبناء الله (مزمور ٨٢: وتثنية ١:١٤)، وكذلك النصارى (يوحنا ١: ١١- وتثنية ١٨ :٢٣). فكيف بعد ذلك غرتهم هذه الكلمة، وخفي عليهم الحق الصريح؟

وهاهنا بلغت الحجة غايتها، فأمر الله نبيه أن يصفح عن المجادلة بعد ذلك فقال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي لا يخالجك شك لما يدَّعون في خبر

عيسى عليه السلام، فإن ما أوحينا إليك هو القصص الحق، فلا تلتفت إلى أقوالهم الكاذبة في هذه القصة، فإنهم يذكرون فيها أباطيل وليس عندهم متمسك وبرهان. وإنما خاطب النبي وأنه غير ممتر لأن الأمة تؤمر كثيراً بالخطاب إلى نبيها. (راجع أس)[1]. وهذا كما أمره بالكف عن المراء في قصة أصحاب الكهف فقال عز من قائل: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ الكهف: ٢٢ فإن المراء في النقول لا ينقطع، فأمره بالمباهلة، فقال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي في خبر عيسى عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ أي بعد ما جاءك وبلّغته ولم يؤمنوا به فطالِبْهم بالمباهلة، وقد علم الله أنهم غير مباهلين، ولكن طالِبْهم بها لكي يرجعوا إلى أنفسهم ويعلموا أن النبي لا يجادلهم بالباطل وأنه في غاية الجد. وإنما لم يقبلوا المباهلة لأنهم كانوا مختلفين في خبر عيسى ولم يكونوا على ثقة من أحواله ولا من أقواله لاختلاف الأناجيل وعدم السند المتصل، فلم يأمنوا الكذب فيما عندهم، فكيف يلعنون على الكاذبين؟ وإنما طالبهم بالمباهلة جماعةً ليتضح الأمر للناس، ولأن دعاء الجماعة أعظم عند الله. فطالبهم أن يجتمعوا على جانب ويجتمع النبي مع أتباعه على جانب. وإنما ضم بالمباهلين نساءهم وأبناءهم لكونه أشد فإن المرء يخاف من اللعنة على أحبائه.

وفي الآية محذوفات لا يحسن إظهارها حسب أسلوب كلام العرب، أي ندع نحن أبناءنا وأنتم أبناءكم، ونحضر نحن أنفسنا وأنتم أنفسكم، ثم نبتهل نحن وأنتم إلخ (أس)[2].

(١) يعني كتابه «أساليب القرآن»، انظر ص ١٦٠ من رسائله في علوم القرآن.

(٢) يعني كتابه «أساليب القرآن».

ولغاية التوضيح لموضع الخلاف بين الفريقين صرح بما يباهل عليه النبي فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢﴾ فيه تعريض إلى أن ما يقولون في أمر عيسى عليه السلام يخالف التوحيد وعزة الله وحكمته، فإنهم زعموا بالحلول وبإهانة المسيح وموتِه موتَ الملعونين (مف)[1] تحت «عيسى عليه السلام».

وإذ كانت المباهلة غاية ما يمكن لفصل المخاصمة وطلب المصالحة، فإن تولوا عنها فلا شك أنهم لا يريدون إصلاحاً بل إفساداً كما قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ أي إن تولوا عن فصل الخصام بالمباهلة فاعلم أنهم لا يريدون الإصلاح بل هم المفسدون، فحوَّلَهم إلى علم الله المستلزمِ المجازاةَ. وهاهنا تم الاحتجاج على النصارى خاصة.

ثم استدل على اليهود والنصارى معا بأمر مسلم عندهم، وهو التوحيد، فإن التوراة والإنجيل جاءا به صراحة. ولنذكر من الإنجيل نبذاً. ففي لوقا (٤:٤): «فأجابه يسوع وقال اذهب يا شيطان إنه مكتوب (أي في التوراة) للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد».

وفي مرقس (١٢: ١٩): «فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد».

وفي يوحنا (١٧: ٣): «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته».

وفي متى (١٩: ١٧): «لماذا تدعوني صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله».

---

(١) يعني كتابه «مفردات القرآن»، ولم نجد في مسودته هذا المبحث.

فهذه آيات محكمات، ولكنهم وقعوا في المتشابهات وما بدّلوه، فحاجَّهم بما لا بدّ لهم من التسليم له، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ «سواء» أي وسط وكلمة إنصاف لا جور فيها إلى جانب، كما قال تعالى: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ ص: ٢٢ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي إن لم يعبدوا الله وحده واتخذوا سواه ربًّا، فلا إسلام لهم لمجرد القول بالتوحيد، فليسوا من دين إبراهيم في شيء، فإنه كان مسلماً حنيفاً موحداً. وبذلك قطعهم عن إبراهيم، وهم كانوا يتمسكون به، ويؤمنون بأن إبراهيم هو السند، وقربه هو النجاة، والملك والبركة له، كما جاء في التوراة والإنجيل...[1] فقالوا إن دين إبراهيم هو السواء، فمن كان على دينه فهو على الحق. فأزال احتجاجهم بإبراهيم عليه السلام أيضاً، فقال:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي كيف تقولون إنكم على دين إبراهيم، وليس في أيديكم إلا هذه كتبكم التي أُنزلت بعد إبراهيم، فلم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكنه كان حنيفاً مسلماً. وعندنا أكثر بقايا سنته ومسجده وحجه ومناسكه، ثم قد علّمنا الله بدينه، واجتبانا لردّ

---

(١) بياض في الأصل.

الحنيفية إلى أصلها. فانظروا من هو أولى بالحنيفية والتوحيد والإسلام لله وحده.

وقد اجتهدت اليهود في إنكار أمور ظاهرة، وألقوا شبهات على المسلمين بزخرف القول، وادعوا أن إبراهيم كان على دينهم، مع أن كتبهم شاهدة على أن مناسكهم وشرائعهم لا تعلق لها بإبراهيم، ولكن كانوا يكتمون ما جاء في كتبهم في أمر الكعبة والحج، ويكتمون الحق أيضاً بتبديل بعض ما أنزل الله في أمر إسماعيل عليه السلام، مع أن كذبهم باد مكشوف. (مف)[1] تحت «الكعبة» و«إسماعيل». وراجع تفسير سورة البقرة تحت آيات (١٥٨-١٦٢).

وكذلك كانوا يكتمون ما جاء في كتبهم من ذكر محمد ﷺ حسداً لأولاد إسماعيل وبغياً ونفرةً عن أن يدينوا بدين غير دينهم، فحذَّر المسلمين عن مكرهم، ووبَّخ أهلَ الكتاب على كفرهم بآيات الله مما نزل عليهم ومما نزل على هذه الأمة فقال:
**﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ
بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾**.

وصرَّح بأن ذلك من حسدهم في سورة البقرة حيث قال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ البقرة: ١٠٩ فذكر كفرَهم بآيات الله، ولبسَ الحق بالباطل، وكتمانَ ما جاء في كتبهم. ثم ذكر غاية مكرهم بارتكاب النفاق وبغيهم على الله بإنكار ما فضل الله به على المسلمين، فقال: **﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ**

(١) يعني: انظر كتابه «مفردات القرآن» تحت الكلمتين. ولم نجدهما في مسودته.

ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ قالوا ذلك إظهاراً بأنهم شديدو التمسك بدينهم كما ذكره الله مع ابطاله حيث قال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ البقرة: ٩١. أي ليس ذلك من شدة الإيمان، بل لعدم الإيمان. وهاهنا رد ذلك بكليةِ أن الهدى الحق هو هدى الله، فكلُّ ما أنزل وجب اتباعه. ونظم هاتين الجملتين كقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ ﴾ البقرة: ١٢٠. فبعد هذا الجواب الكلي ـ وهو الأصل الراسخ ـ أتبعَ ذلك بقول يبين علة إنكارهم الفاسدة، فأخرجه مخرج الاستفهام فقال: ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ﴾ أي هل ذلك لأن يوتى أحد من الهدى والدين مثل ما أوتيتم؟ وهذا القول جامع لوجوه من المعاني:

الأول: أنه هل تنكرونه لمحض أنه أنزل على غيركم؟ وبطلانه ظاهر، فإنه تعالى أنزل من قبل، فكذلك أنزل الآن. وتصريحه قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ الآية الأنعام: ٩١.

والثاني: أنه هل لا تتبعون هذا النبي لأنه لا يتبع دينكم؟ وفساد ذلك ظاهر، فإن الدين لله. فالوجه الأول يوجب الإقرار، والثاني يوجب الاتباع.

هذا، **والثالث**: أنه هل تنكرون لأن الله أنعم علينا، كما أنعم عليكم، فهل هذا إلا للحسد؟

والرابع: أن إنكاركم بأن يؤتى أحد بمثل ما أوتيتم سخطٌ بإنعام الله على عباده.

وكل هذه الوجوه تفهم بالتدريج، وكلها مطوي تحت قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى

ٱللَّهِ﴾.

وبعد هذا الجواب عمد إلى جواب أشدَّ، وهو أن الله تعالى لم يؤت المسلمين مثل ما آتاكم فقط، بل جعلهم غالبين عليكم بالحجة؛ فإن موقع الكلام بعد «أو» دل على الترقي في أمرين: جهة الإنكارِ، وجهة فساده. فجاء بقول جامع لوجوه من المعاني:

الأول: أنه هل تنكرون بأن فضَّلهم بالحجة، فإذن أقررتم بالحسد، فبئست الخلة! كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ النساء: ٥٤.

والثاني: أنه هل تبغون على الله، كما قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ البقرة: ٩٠ أي كسبوا غضباً لكفرهم بما أنزل الله، وفوق ذلك غضباً لبغيهم على الله بأن سخطوا على إفضاله.

والثالث: أنه هل تنكرون لسخطكم بأنكم غُلِبتم بالحجة؟ فما أبعدكم عن الإنصاف والتمادي في الغي.

والرابع: أنكم تفرون من أن تحاجُّوا، وهذا الفرار نفسه يُتِمُّ عليكم الحجة. ونظير هذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ﴾ التوبة: ٤٩. هذا، وأما وجه كونهم محجوجين...[1].

---

(١) بياض في الأصل. في حاشية الأصل تعليق على قوله تعالى: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾: يحاجوكم بأن الله تعالى أعطاهم شريعة أكمل من شريعتكم فاحتملوها، فلم يبق عذر، لعجزكم عن حمل شريعته، و لا مانع لإعطائه. ولما كان هذا الطرف من الجواب مشتملاً على فضيلة هذا القوم صرح ذلك بالقول الثاني، وهو: أن الفضل بيده، وهو واسع الإنعام عليم بصفات عباده.

فبيَّن في هذه الآيات من سوء أحوالهم وقبح مآلهم أموراً:

الأول: أنهم يريدون إضلال المسلمين، ولكنهم يُضلون به أنفسهم، ولا يعلمون ما يفعلون.

والثاني: أنهم يكفرون بآيات الله التي أنزلت في كتبهم والتي أنزلت على المؤمنين، وهم شاهدون لما يفعلون.

والثالث: أنهم يلبسون الحق بالباطل مع علمهم بما هو الحق وبما يعلمون بقبحه من عملهم.

والرابع: ارتكابهم النفاق الصريح، والردة، ونقض العهد بعد الميثاق مع الله حين آمنوا.

والخامس: عصيانهم بالله وترك الطاعة له بأنهم لا يدينون بهداه.

والسادس: حسدهم لمن اختصه الله برحمته، وكان ذلك أصل دائهم وغاية قبحهم. وانجرَّ إلى مفسدة عظيمة، وهي إنكار القسط والجرأة على الله. فظنوا أن لا يراعي القسط بالأميين، وذلك من تسويلات النفس إذا غلبتها الخيانة، فحينئذ تتمسك بأضعف عذر، ولا تبالي بعهود الله. فصرح بذلك فقال: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ آل عمران: ٧٥ - ٧٧.

﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾، أي إلزام ومؤاخذة، فقال: بلى، عليهم مؤاخذة،

فإن الوفاء بالعهد من التقوى، فمن اتقى أحبه الله. فحذف جواب الشرط، واستغنى بذكر الدليل عن ذكر المدلول.

﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ﴾: لا نصيب لهم. (مف)[1].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ أي كلام الرحمة ونظر اللطف. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يغفر لهم، فلا نجاة لهم من عذاب مترتب على رجس السيئات.

وبعد ذكر خيانتهم في أمور الدنيا وكذبهم على الله في إجراء أحكام الكتاب ذكر خيانة أعظم من ذلك، وهي كذبهم بنص الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ آل عمران: ٧٨.

هذا ينطبق على اليهود والنصارى معاً فإنهم أدخلوا في كتبهم ما ليس منها وقالوا: إن جميعه من الله، ثم تمسكوا بهذه المدخولات أشد مما تمسكوا بأصل الكتاب، فأبطلوا معظم تعليمه وهو التوحيد، فوقعوا في أكبر الضلالات، حتى انجرَّ أمرهم إلى الكفر الظاهر. فبيَّن الله أنه بعيد جداً عن هدى الله وطريق الأنبياء، فكيف يزعمون أن ذلك من تعليمهم، فقال:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ «الحكم» معناه القضاء والفصل، وله ثلاثة وجوه:

---

(١) يشير إلى كتابه «مفردات القرآن»، ولم نجد في مسودته هذه الكلمة.

١- القضاء المحض. ومنه: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ الأنبياء: ٧٨ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ المائدة: ٥٠.

٢- ثم قوة القضاء والبصيرة بالحق. ومنه: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الأنبياء: ٧٤ وأيضاً: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ مريم: ١٢ - ١٣.

٣- ثم الأمر والإمارة. ومنه: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ غافر: ١٢ وأيضاً: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ القصص: ٧٠ وأيضاً: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ الرعد: ٤١.

وهاهنا يليق الوجه الثاني والثالث. فبيّن بالبرهان العقلي أن النبي بعد أن آتاه الكتاب والحكم والنبوة ليس من شأنه أن يأمركم بأن تتخذوا دون الله أرباباً، وهو الشرك الصريح والكفر البواح، كما قال في سورة التوبة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ الأحبار: علماء اليهود. والرهبان: أتقياء النصارى ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ التوبة: ٣١ - ٣٢.

فبعد البرهان العقلي على براءة الأنبياء عن الأمر بما تدينوا به أورد برهانا نقليًّا على ذلك من التوراة فقال: **﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾**.

﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي الميثاق في أمر النبيين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الأعراف: ١٦٩.

و**﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾** أي صدّق ما جاء من صفاته كما قال الحماسي:

فوارسَ صدَّقتْ فيهم ظنوني[1]

وكما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ البقرة: ١٠١. والتصديق أيضاً: الإيمان، وهذا لا ينافي التكميل في الشرائع. راجع: «كتاب أصول الشرائع» و«كتاب الناسخ والمنسوخ»[2].

فكما أخذ الله منهم ميثاقاً لاتباع الأحكام وكما أخذ منهم ميثاقاً أن لا يزيدوا ولا ينقصوا ولا يبدلوا ولا يكتموا ما في كتبهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ آل عمران: ١٨٧، فكذلك أخذ ميثاقهم أن يتبعوا النبيين والرسل الذين صدَّقوا ما عندهم بكلا المعنيين، ولا سيما هذا النبي الذي آمن بجميع الكتب الإلهية، ووجدوا علاماته الخاصة في التوراة والإنجيل، وقد أخذ الله منهم ميثاقاً غليظاً على اتباعه. وتجد تفصيله في تفسير سورة الأعراف. والظاهر أن من تولى بعد ذلك الميثاق فقد فسق أي عصى وحنث كما قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ الكهف: ٥٠ وقال تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ الإسراء: ١٦.

وإنما أخذ الله ميثاقهم في هذا الأمر لئلا يمنعهم كتابهم عن قبول الشريعة المتممة التي جعلها الله كمال الفطرة، ولِيحققوا إخلاص الدين لله باتباع ما يرسل إليهم على يد أي رسول من عباده. وهذا من أهم أمور الإيمان، فبيَّن الله تعالى لهم أن

---

(١) صدره:

فدتْ نفسي وما ملكت يميني

والبيت لأبي الغُول الطُّهَوي في شرح المرزوقي: ٣٩. وانظر «مصدقاً لما بين يديه» في «مفردات القرآن» للمؤلف: ٣١١.

(٢) في المسوّدات فصول من الكتابين، ستطبع قريباً.

الإنكار بهذا النبي ليس فسقاً محضاً، بل هو كفر بالله؛ فليسوا في شيء من الدين، فإن الدين هو الطاعة وهو الإسلام كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمران: ١٩. فاختار أسلوب الاستعجاب والاستبعاد والزجر على ما ارتكبوا من الكفر الصريح أعاذنا الله منه، فقال:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ كلام جامع لوجوه:

الأول: أنهم كيف لا يسلمون لطاعة الله، وهم محشورون إليه، ومجزيون، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ العلق: ٦ - ٨.

والثاني: أن لا أمر في السماوات والأرض إلا له، فكيف يبغون عصيانه وأنّى لهم ذلك؟ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ آل عمران: ١٠٩.

والثالث: أن الدين هو الطاعة، فدين الله أن يطيعوه، وهو الإسلام. ودان له من في السموات والأرض إما طوعاً فصار من المرضيين، وإما كرهاً وذلك بأن عصاه في الدنيا إذ أعطاه الله اختياراً ليبتليه ولكنه لا بد أن يأتيه مذعناً حين يرجع إليه، فإذاً لا دين إلا الإسلام، فكيف يبتغون ديناً غير الإسلام، فلا دين لهم.

ولا يخفى أن هذه الآية مما يبين عظيم مفهوم الإسلام حيث وسِعَ الملائكةَ وجميعَ من في السماوات والأرض. وبعد إبطال دعواهم بدينهم بيّن ما هو الإسلام ومَن أهلُه، ليفرِّق بين المسلمين الفائزين، والكافرين الخاسرين، فقال: **﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾**.

﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي في المآل، فنعمَّ عاقبةَ الأمور في الدنيا والآخرة.

وبعد ما أوضح أسباب كفرهم ونفاقهم وحنقهم وإصرارهم على الخلاف، بيّن للمسلمين أن لا رجاء في إيمانهم، لكيلا يتأسفوا عليهم، ويتركوهم، ولا يضيِّعوا أوقاتهم. والقرآن كثيراً ما يأمر المؤمنين بالإعراض عن المصرين الفاسقين، فقال:

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا﴾ أي هدايتهم مستبعد من جهة القوم، وأما أفراد القوم فذكرهم بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية، فإن حالة القوم ربما تخالف حالة بعض الأفراد:

﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ الآية تشير إلى ما ذكر من ميثاقهم في آية (٨٠).

﴿تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد كفرهم بما آمنوا وشهدوا به وبما عرفوا من بينات هذا القرآن. ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي أصلحوا بعد ما أفسدوا من وجوه مختلفة لمجادلتهم وابتغائهم إضلال المسلمين وإلقائهم الشكوك في هذه البعثة مع علمهم بالحق، فإن كل ذلك من إفسادهم، كما مرّ آنفا: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ آل عمران: ٦٣ فإن تابوا، أي رجعوا من هذه الأعمال، وأصلحوا بإظهار الحق والإقرار به كما جاء في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى

ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ وإنما تحقُّ اللعنة على من أصرَّ ومات على كفره، كما قال تعالى: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ آل عمران: ٩١.

قوله تعالى: ﴿لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي ما أظهروا للنبي والمسلمين من توبتهم بالإنفاق وإعانة المسلمين ونصرتهم، وهكذا لا تقبل توبتهم بعد الموت ولوافتدوا بما في الأرض جميعا. فإن المطلوب هو الإسلام التام، وهم كانوا يرضون بالقول وببعض ما أنفقوا، مع نفاقهم، وذلك غير مقبول، كما صرح بقوله ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ الآية آل عمران: ٩٢، فذلك حال توبتهم عند المسلمين. وأما عند الله فهي أيضاً غير ،مقبولة فإن الله يتوب على من تاب بصميم القلب، لا بالرشوة وإنفاق مالا يضَنُّ به. فوجب اقتناء البر بإنفاق المحبوب... (هاهنا نبين معنى «البِر» وكونه مرادة للطاعة الكاملة والإسلام والإيمان كما جاء في قوله: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ البقرة: ١٧٧ الآية. ونبين سنة «الفدية» كماجاء في التوراة، وأن بناء دين اليهود على الفدية).

وهذه الآيات (٨٦-٩٢) تبين أن الهداية من الله لا تأتي المصرِّين الظالمين، بل تنزل اللعنة من الله والملائكة والصلحاء من الناس، فمن ينصرهم! فوجب أن يفدوا أنفسهم بأعمالهم، فإن الفدية لا تقبل يوم القيامة، فلا شفاعة ولا فدية، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ البقرة: ٤٧ - ٤٨.

تذكرة
(نفصل أجزاء هذه الجملة ونعدُّ الآيات)

جعل الذكر والشكر دعامة للشريعة التي بها نستقيم على عهدنا ونزكي بها

نفوسنا، كما تعلم مما ذكر في هذه الجملة إن تأملت فيها. فألزمنا الصبر والصلاة، فإن الصبر محافظة على ذكر ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ البقرة: ١٥٦. والصلاةُ جلبٌ للذكر الأعم، وهي صورة الذكر والشكر وتجديد الميثاق وصوته، وتركها نقض العهد. والحج تجديد لعهد إبراهيم الذي ترك غلمانه على الصفا، وسعى مع بكره إسماعيل إلى المروة ليقرِّبه[1] فبارك الله نسله، ووعد أن يبارك جميع الأرض به. وحرفت اليهود ما أنزل إليهم، وبدلوا قصة إبراهيم ليكتموا الحق. فالحج تذكار إسلام إبراهيم وإسماعيل كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ الصافات: ١٠٣. فهو أصل التوحيد الخالص، جامع للذكر والشكر.

(١) انظر كتاب «الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح» للمؤلف.

تفسير

سورة الحج

تفسير سورة الحج

(ثمان وسبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

شرح رباط آياتها هكذا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ... نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [١-٢٥] ذكر المجادلين في الله. وبالآية الأخيرة تخلَّص إلى كشف هذه الفرقة، وأنهم هم الذين يصدون عن المسجد الحرام.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ... وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [٢٦-٤١] الاستدلال من تاريخ أمر المسجد الحرام على أنه للمؤمنين. وبيان حكمة الحج وضرورة استخلاص المسجد وإذن الجهاد له، ووعد النصر.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ... لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [٤٢-٥٧] إنذار المكذبين والمعترضين ورفع شبهاتهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا ... إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [٥٨-٦٠] وعد أجر المهاجرين وحكمة بناء على العدل.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ ... إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [٦١-٦٦] بيان الحكمة العامة في غلبة الحق على الباطل، وأن الحق هو قوام العالم، وأن الله يعاملهم بالرأفة.

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا ... عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [٦٧-٧٠] جواب المنكرين من اليهود.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [٧١-٧٦] جواب المنكرين من عبدة الأوثان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [٧٧-٧٨] أمر بعبادة الرب الواحد، وفعل الخير، وجهاد في الله، وأن الله جعلهم شهداء على جميع الناس، وأن الله مولاهم ونصيرهم.

هذه السورة تبتدئ بذكر الساعة وتوعدهم بها. وتخلط ذكر المجادلين في الله وآياته بذكر الساعة. والمجادلة لم تكن إلا في أمر الكعبة والتوحيد. فإن تأملت اتضح لك أن الحج مثال يوم البعث، وإظهار أن الملك لله الواحد. وتفصيل ذلك في «المقدمة على الأمثال»[1].

وقبل هذا اليوم بعشرين سنة أو تزيد، صليتُ صلاة الأضحى في المسجد الجامع ببلدة لاهور. فلما قام الإمام للخطبة صوّر لي يوم الساعة، فجعلت أبكي كأني في موقف الحشر. وكثيراً ما أذكر يوم الحشر عند صلاة العيدين. ولعلك وجدت مثل ما وقع لي، فإني شاهد لك. وفي تلك الأيام لا علم لي بحقيقة الحج، فلم يكن هذا إلا مما أودع فيه.

ومشابهة الحج ليوم القيامة أمر بيِّن، وتفطن بها العلماء، وإنما لم يذكروها في هذه السورة لقلة اعتنائهم بالنظام.

(١) سمّاها في تفسير سورة التحريم «كتاب الأمثال الإلهية»، ولم نقف عليه. أما تسميته بالمقدمة هنا، فإنه كان يعدّ جميع مؤلفاته في علوم القرآن أجزاء من مقدمة تفسيره.

(١)

الفصل الأول في عمود السورة، وموقع نزولها، وأسلوبها، ومطالبها إجمالاً

اعلم أن عمود هذه السورة بيان حكمة الحج وجلالة محله في الدين، لنعلم ما يجب علينا فيه من الاعتقاد والعمل، والنزوع إليه، والمحافظة عليه، والغضب له من جهة البصيرة والحكمة.

وإنما أنزلت هذه السورة على حين شدة الحاجة إلى معرفة ما ذكرنا، والتعصب له، والتشمير لإقامته. ولقد مر في القسط الأول من تفسير سورة البقرة محل البيت وحجه، وكونه مركزاً للدين الإلهي. واستخلاصه أكبر همة النبي العربي. فنحولك إلى ذلك المقام لتعلم موقع نزولها.

فأما أسلوب السورة فهي تخاطب الصادِّين عن الحج، المدنِّسين بيت الله المقدس، المبطلين مقصده، القابضين على أمانة كريمة خانوا فيها وجادلوا الذين هم أولى وأحقّ بها، خطاباً مشحوناً بالزواجر الدامغة والحجج البالغة.

فكان من المطالب المهمة للسورة (١) ذكر حقيقة الحج (٢) وجواب المجادلين، (٣) وإبطال ولايتهم (٤) وإثبات ولاية المؤمنين، (٥) والبشارة بنصرهم. (٦) ثم ذكر ما يجب عليهم ليعتصموا به، فتبقى لهم هذه النعمة العظمى.

هذا قول مجمل ينفع ذوي البصائر ويهديهم ويكفيهم للتدبر. فأما تفصيله، فنذكره في الفصول الآتية.

(٢)

الفصل الثاني في بيان سمت خطاب السورة

فاعلم أن هذه البعثة من أول يومها صادفت قوماً لُدًّا من كفار قريش، لاسيما أبا لهب وأتباعه من ولاة البيت. فلم يقصروا في مجادلة الحق الذي أنزله الله إليهم إنعاماً عليهم، ولكن الحق لم يزل يسمو أمره وينمو بذره على رغم أنوف المجادلين. فحينئذ اشتد حنقهم، وكبر شرّهم، وازدحمت شياطينهم من كل جانب. فوافقت بهم شياطين أهل الكتاب فشجعوا قريشاً على الكفر بالله ورسوله، والصدّ عن سبيله، وقالوا: إن المشركين أحق بالبيت وعلى الرشد فيما أخرجوا المؤمنين من مكة وحرموهم جوار بيت الله وطوافه، مع علمهم بأن المشركين هم الظالمون المبطلون الخائنون.

وما كان عند المشركين حجة إلا اتباع كبرائهم وشياطينهم مع ظهور شناعة أعمالهم.

وأما أهل الكتاب فقالوا: إن هذا النبي خلاف ما عندنا من الشرائع، وهو يدعي نسخها، وإن قريشاً على دين قديم معروف، مع علمهم بكذب ما يفترون. وإنما فعلوا هذا إرضاءً لقريش وحسداً للمؤمنين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ النساء: ٥١.

فوضعت السورة هذه الطائفة المجادلة بين عينيها وأجابتهم حسب أقوالهم الباطلة. أما قريشاً فبطلب البرهان والسند لما كانوا يفعلون، وإظهار شناعة كفرهم وشركهم وخيانتهم في مقصد البيت وظلمهم فيما صدوا المؤمنين عن عبادة الله الواحد. وأما المفسدين من أهل الكتاب فبأن هذا النبي لم يأت إلا بالحق الصريح ولم

ينسخ في أمر البيت ومناسكه شيئاً من الشرائع الأولى إلا ما بدّله المبتدعون وزادوا فيها، وأن علماءكم يشهدون بهذا الأمر ويعلمونه.

هذا، وإنما يتضح لك ما ذكرنا بعد أن تنظر في تفسير آيات السورة كما سيأتيك.

اعلم أن الآيات متصلة، ولكن لتسهيل النظر والتأمل نقسمها جُملاً، فمن أول السورة إلى آية ٢٥ جملة واحدة. ثم فيها جمل خاصة نشير إليها.

فالسورة تخاطب (١-٢) بذكر أهوال القيامة كلَّ خصم مجادل في الله. وهم ثلاث فرق:

(١) فأولهم عامة المشركين الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ وهم أكثرهم، وداؤهم أن غلبت عليهم لذات الدنيا، فأنكروا القيامة، واتبعوا أئمة الكفر ﴿ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾، فلا يقطعون حبال مودتهم. فأنذرهم بحتم الساعة والعذاب (٣-٧).

(٢) وثانيهم قادتهم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٨-١٠) فهم الشياطين المردة الذين يضلون الناس من غير علم وكتاب، لحبِّ الرياسة الدنياوية. فخوَّفهم أن لهم الخزي في الدنيا، وفي الآخرة عذاب الحريق.

(٣) وثالثهم من يعبد الله واقفاً على طرف من العبودية، غير داخل فيها ولا مطمئن بها. فإذا أصابته مصيبة انفلت إلى أئمة الكفر وما جعله لله تعالى من شركاء ﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ الحج: ١٣ فأعلن له أن كل أمر بيد الله، ومن لا ينصره الله فليس له نصير. فإن شاء فليمدد سبباً إلى السماء. وهذا مثل لغاية الجهد، كما قال زهير:

ولو نال أسبابَ السماء بسُلَّمِ[١]

وقال الأعشى:

ورُقِّيتَ أسبابَ السماء بسُلَّمِ[٢]

(وتفسير تلك الآية في الحرف الثاني)[٣].

فهذا ذكرهم (١١-١٥). وختم القول بآية واحدة (١٦).

ثم أخذ أسلوباً آخر أوسع محتوياً كل فرقة من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين، فإن الخصام بينهم. ثم وسع القول حتى اتسع السماء والأرض. فإن الإسلام وسع كل شيء، كما علمت في سورة آل عمران (٨٢).

فقال: إن هاهنا بينكم خصاماً، والله تعالى يفصله يوم القيامة. فذكر أنهم فريقان: الساجدون لله، والكافرون به فلهم العذاب والهوان، وللمؤمنين الكرامة والسرور. فصوَّر الإهانة والعذاب في ثيابهم، وغلِّهم، وضربهم بمقامع، وردّهم في دار الخزي كلما أرادوا الخروج. وصور الكرامة والسرور كحلي الذهب واللولوء،

---

(١) من معلقته، وصدر البيت:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَه

انظر جمهرة أشعار العرب ١: ٢٩٧.

(٢) ديوانه: ١٧٣. وصدر البيت وصلته:

لئن كنتَ في جُبٍّ ثمانين قامـةً ورُقِّيت أسبابَ السمـاء بسُلّمِ
لَيَسْتدرجْنكَ القولُ حتـى تهرَّه وتعلمَ أنّـي عنك لستُ بملجَمِ
وتشرقَ بالقول الذي قد أذعتَه كما شرقتْ صدرُ اتضاةِ من الدم

(٣) يعني «فصل ب». ويبدو أن المؤلف رحمه الله كتب أولاً فصولاً في تفسير السورة مرقمة بحروف الأبجد. وستأتي قطعة من فصل (ز) في حواشي الفصل السادس.

ولباس الحرير، والجنة ذات الأنهار. وذكر من سمات هذه الفرقة المؤمنة أنهم في الدنيا هدوا ﴿إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾.

فهذه آيات (١٧-٢٤) ليس فيها إلا ذكر خصام وجدال من فرق الكافرين وتخويفهم بيوم الفصل، وما ادخر لهم من العذاب على سبيل العموم من غير تعيين أمر المخاصمة. فبآية (٢٥) تخلَّص إلى كشف ما مهّد له من منع كفار مكة عن عبادة الله وصدِّهم المسلمين عن المسجد الحرام، وهم أهل الكتاب وكفار قريش رأس المخاصمين. فذكرهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾.

فبآية (٢٥) بلغ التمهيد غايته، وانكشف ما هو المراد من الفرق الثلاث، وما هو المراد من المجادلة، وأن الله يعذب عذاباً أليماً كلَّ من أراد إلحاداً في داره.

فتأمل كيف سمّاهم الله المجادلين، وجعلهم أعداء الحق. فإن السورة سورة الحرب. وإذ كانت الحرب مكروهة، مبعدة عن أهل التقوى، لا يُفزع إليها إلا لحفظ الخيرات، وإقامة سنن الهدى، وقمع الضلالة، وبعدما نفد كل تدبير= ذكر أسباب القتال، وبيّن من الأمور العظام في آيات (٢٦-٤١).

(٣)

فاعلم أولاً: أن المسجد الحرام هو البيت الذي أسكن الله إبراهيم عليه السلام عنده لخدمته، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ آل عمران: ٩٦ - ٩٧ واليهود كتموا هذا الأمر حسداً وبغياً، والتوراة شاهدة على كذبهم. فهذا هو تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ الحج: ٢٦ وتسميته

بالبيت العتيق، والبيتُ المقدسُ بيت حديث.

وثانياً: أنّ مقاصد البيت ثلاثة: اجتماع الناس لعبادة ربّ واحد، وكفّ الناس عن قرابين الأوثان. فإن أغلب الناس في النشأة الجسمانية مولعون بحب الشعائر الظاهرة. فبيّن أن الغاية ليست إلا تقوى الله (٣٢) و(٣٧). فالشرك غالب على طبائع الناس إلا المخلصين وهم قليل. ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يوسف: ١٠٦ (وبسط القول في مقدمة فيها أن اتخاذ الأوثان أمر فطري). فجعل لهم شعائر ظاهرة ومناسك قامت مقام قرابينهم ونسكهم للأوثان. وفي آية (٣٤) وجّه الكلام إلى اليهود الذين زعموا أنّ مناسكهم تبطل هذه المناسك وسيأتيك جوابهم.

والمقصد الثاني بعد إقامة التوحيد وإبطال الأوثان هو: إطعام الفقراء. فلم يفرّق بين ركني التقوى، وهما: حبّ الله، وحبّ عباده. فصار الحج جمعاً بين الصلاة والزكاة، والدعاء والمواساة.

والمقصد الثالث: اجتماعهم إلى مركزهم فطرة وملّة، فإن الله تعالى جعل آدم خليفةً في الأرض، فبعد ما انتشروا في عمارة هذه الأرض لزم جمعهم على مركز واحد؛ لكيلا ينقطع بعضهم عن بعض. فوجب الحجُّ إليها كما جاء في آيات التوراة والقرآن. واختار لذلك أرضاً وسطاً، لا شرقية ولا غربية، ولا الشمال ولا الجنوب، بين البر والجزيرة. وعمرها بأمّةٍ بارك عليها بين أمتين: أولاد يافث، وحام (خلقة ط[1]: ٢٥-٢٧).

«وقال (نوح): اللعنة على كنعان (وهم أولاد حام كما ذكر في سفر الخلق ط: ١٨) يكون عبيداً لعبيد لإخوانهم. وقال: بارك الله ساماً، ويكون كنعان عبيدهم.

---

(١) يعني: الأصحاح التاسع من سفر التكوين.

ويزيد الله يافث ويسكنون في ظل سام ويكون كنعان عبيده». وبسط الكلام في غير هذا الموضع.

فبارك الدنيا بالأرض المقدسة، وجعل الكعبة أولَ بيت والموضعَ الوسط، وجعل بيت يروشلم كالفرع. فأسكن إبراهيم وولده الأكبر وذريته عند بيته الأول، وولده الثاني عند بيته الثاني. فحمى هذا أصل البركات ومنبع التوحيد والسلام، ونفى عنه الزائغين وأهلك الملحدين فيه، كما أغرق فرعون لما منع بني إسرائيل عن حجهم إلى هذه الأرض المقدسة.

وثالثاً: ذكر ما فيه الجواب عن حجة الذين زعمو أنّ بيت القرابين هو مسجد يروشلم، وعن حجة المشركين الذين زعموا أنهم يتبعون سنة إبراهيم، بأن إلهكم واحد فله أسلموا جميعاً (٣٤) كما مرَّ في سورة الأنبياء بعد ذكر سبعة عشر نبيًّا: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ ﴾ الأنبياء: ٩٢ - ٩٣. فوبّخهم بتقطّع أمرهم، كما قال في الشورى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ الشورى: ١٣.

هذا، ثم نرجع إلى هذا الأمر إذا وصلنا آية (٥٢) التي هي معركة الآراء في هذه السورة. فقد جعل الله منسكاً لكل أمة من أمم الأنبياء، فلا يمنع حجُّ البيت المقدس عن حجِّ هذا المسجد الذي هو أول بيت وضع للناس. وبيّنَ نزاعهم، وثبّتَ النبي ﷺ في آية (٦٧) حيث قال: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧ ﴾. وهكذا قال حين بدّل القبلة: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٤٢ ﴾ البقرة: ١٤٢.

ثم أشار في هذا الجواب إلى أمر عظيم وحجة دامغة، وهو أن منسكهم كان محض ذبح الحيوان مع ذكر الله؛ فأما منسك هذه الأمة، فأصل الأمر فيه التزكية والتقوى من الصلاة والإنفاق والصبر في سبيل الله. وأما الذبح فيه فغير مقصود بالذات، بل المقصود إطعام البائس الفقير.

فتأمل في آيات (٢٦-٢٨) و(٣٤-٣٧) وانظر كيف بشّر هذه الأمةَ بشارتين بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ وذكر بينهما من خصالهم: الإيمان، والصبر، والصلاة، والإنفاق.

ثم انظر كيف بدأ وختم هذه جملة ست آيات، لتعلم أن المقصد هو الصلاة، كما مرَّ في سورة إبراهيم أنّ مقصد استعمار هذا الوادي كان عبادة الله الواحد، ثم الإنفاق والتعاون في الخيرات أمراً ونهياً، وهو مقصد الاجتماع.

ولهذا المقصد سنَّ الله خطبة الحج، فكان إبراهيم عليه السلام أول خطباء الحج كما قال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا..﴾ الحج: ٢٧ وكما بينته في تفسير سورة البلد. وهذه السنّة بقيت في أيام الجاهلية حتى جاء الإسلام.

فدعوى اليهود بأن هذه الشريعة لا ينبغي أن تنسخ ما عندهم باطلة، فإن الشرائع مترقية حتى تكمل، فإنها صراط مستقيم إلى الله تعالى، فشأو الخلف لابد أن يسبق شأو السلف وإلا لم يكن مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ البقرة: ١٠٦. فما نسوا من كتبهم جاء الله بمثله في القرآن، وما نسخه منها فإنما جاء بخير منها. وقد أخبر المسيح عليه السلام عن علو مرتبة هذه الأمة. فبما ذكر الله تعالى من محاسن هذه المناسك بطل إنكار النسخ.

وبعد الجواب عن حجتهم وَعَدَ النصر للمؤمنين، فلم يأمر بالحرب، ولكن قال (٣٨): ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾. وذكر الذين صدُّوا عن الحجّ

وتطهير البيت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾.

فأما اليهود فخانوا الله لما أعطاهم كتاباً وبشارةً لهذا النبي، فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ووصلوا بالمشركين. وأما قريش فكانوا سدنة بيت الله وأولياءه، فوافقوا المشركين، ومنعوا المؤمنين عن الصلاة بل صدُّوهم عن الحج.

ففي وعد النصر (٣٨-٤١) ذكر حكمة هذا القتال من إبقاء مواضع العبادة، وتمكين الدين في الأرض، والإصلاح، ورفع الفساد، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ وهكذا في آخر السورة اجتنب كلمة الحرب بل قال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ﴾.

(٤)

بعد بيان هذه المصالح والدلائل للإخلاص، وبيان وعد النصر وبشارة المؤمنين، جاء بآيات (٤٢-٥٧) في وعيد المكذبين، ودفع شبهة المنكرين.

فأوعد المكذبين وأهل مكة في آيات (٤٢-٤٨) أي بعد إتمام الحجة: إن كذبوك فقد مضت سنة الأولين، وكذلك سنة الله في عذابهم. وإن استعجلوا بالعذاب جهالةً فالله لا يخلف وعده، ولكنه من رحمته وحكمته لا يعجِّل.

ثم جاء بآيات (٤٩-٥٧) في دفع شبهة المعترضين من اليهود والمشركين بعد إثبات الحق بدليله اللِّمِّي، كما مرّ بك في (٣). وهذا لما تمسكوا بكتابهم وحكم الله، وقالوا: إنّ الكعبة خلاف دين الله الذي أنزل علينا. فأجاب بأنّ هذا البيت ليس إلا على وفق آيات الله التي أُنزلت من قبل، ولكن الشياطين كتموه. فلما جاء الحق آمن به أولو العلم، وكفر به الذين في قلوبهم مرض وقست قلوبهم. وليس الكافرون على

بصيرة، فهم ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ الحج: ٥٥. والله يحكم بينهم، فيثاب المؤمنون، ويعذَّب المكذبون.

هذا إجماله. فأما بيانه فيستدعى تفصيلاً، فإن هذا المقام أشكل على الناس لـمّا لم يلتمسوا التفسير من القرآن، ولم يكن لهم علم بالكتب السابقة، واستهوتهم غوائل الدجّالين. فنفصّل بحوله تعالى كلمات هذه الآيات في فصول آتية.

(٥)

المراد من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾[٥١]

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ يخبر عن الذين يعترضون على القرآن، وكان الاعتراض من الكفار ومن اليهود. قال (سبأ: ٥-٦): ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ سبأ: ٥ - ٦ فذكر المعترض والمؤمن به. وهؤلاء المعترضون هم قادة المشركين والذين كفروا من أهل الكتاب. وقد بدأ السورة بذكرهم كما علمت، فكانوا يجادلون الأنبياء بغير علم ولا هدى ونص صريح ثابت.

وذكرهم الله تعالى في مقابلة الأنبياء في سور عديدة. فمنها ما جاء مفصّلاً في سورة هود حيث قال: (١٨-٢٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ هود: ١٨ - ٢٤.

(٦)

إن جلّ اعتراض اليهود في الكعبة كان أنه يخالف ما نزل إليهم. والجواب أن الله أنزل في كتابكم هجرة إبراهيم إلى بكّة، وأنه بنى هناك بيتاً للصلاة والحجّ، وكان ذلك أول بيت لله تعالى، ولكن الشياطين منكم بدّلوه.

وإن قلتم: لم جَعَل حجَّنا إلى يروشلم، ثم ينسخها؟ فالجواب أنّ الله جعل منسكاً لكل أمة ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع، وهذا التبديل نفسه ابتلاء كما صرح في سورة البقرة في أمر تبديل القبلة. فقوله هناك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ البقرة: ١٤٣ مثل قوله هاهنا: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ فجعل نسخ ما كان في الشريعة السابقة ابتلاءً، ليهتدي به المؤمن الذي أوتي علم الكتاب، ويُضلَّ به القاسيةُ قلوبُهم.

وقد علمنا أن الأشرار لا يزالون يُضلّون الناس، ويُعادون الأنبياء، فيصدّون الناس عن الحق الظاهر، ويُلقون الشبهات عليهم؛ لكي يلتبس الحق بالباطل. وهذا مما ذكره القرآن كثيراً، وسمّاهم شياطين الإنس والجن، فكل شبهة وبدعة دخلت في الدين من هولاء. فبيّن في ردّ شبهتم، فقال: إن الشياطين يُلقون زخرفَ القول على

سبيل الإضلال في أمور يتمنّاها النبيُّ من هداية الناس ودعوتهم إلى ربهم، والشياطين يصدُّون عنها، فيُلْقون إليهم من الشبهة. ثم بعد النبي يزيِّنون لهم ذلك فيأخذونها[١].

ومثل ذلك ما أجاب في سورة الأنعام إذا اعترضوا في أحكام الذبائح فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ أي صدقاً في ما أخبر، وعدلاً فيما أمر. فما كان خلافه في الخبر أو يشهد بكونه ظلماً لا يكون إلا مما ألقته الشياطين ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ فبيّن أن الشياطين يزخرفون الأقوال، ويضلّون الناس، ويُدخلون في الدين وشرائعه من البدع والأهواء؛ وأن الذين لهم علم لا يغترّون بذلك، ويعرفون الحق إذا جاء بإبطال ما ألقاه الشيطان. فهكذا أجاب هاهنا.

والحاصل أنّ ما كان عندكم خلافَ ما أُنزل في القرآن شاهداً بكونه غير الصدق والعدل، فلا يكون من الله، بل مما أوحاه إليكم الشياطين؛ فإنهم مولعون بعداوة الأنبياء وهدايتهم، وإنّ الله تعالى يبطله. فهذا القرآن ينسخ ما ألقاه الشياطين ويحكم آيات الله المنزلة في الكتب السابقة.

---

(١) (ز) قد رأيت في (ج) أن هذه الطائفة المضلة هم أعداء الأنبياء والشياطين الذين يوحون بعضهم إلى بعض زخرفَ القول غرورا، وأن هذا مع كل نبي. وكذلك رأيت أن هذه الأقوال الباطلة هي التي عبَّر عنها القرآن بوحي الشيطان وسعيهم ومكرهم وجدالهم في الله. ثم رأيت في (هـ) أن ما تمسكوا به في إنكار آيات الله سمّاه القرآن الأماني والأهواء ومظنة الاختلافات. ثم رأيت في (د) أن اليهود كانوا رأس المضلين.

ولما كانت الكتب السابقة مخلوطةً، فيها كلامُ الله وكلامُ الكَتَبَة، صار ذلك ثلمةً وخللاً لدخول الشيطان، فاختلفوا، واختلف كتبهم، وكانت مثل كتب التفسير عندنا فيها الصحيح والسقيم.

ولذلك قال يرمياه النبي (٨: ٨-١٠): «كيف تقولون: نحن حكماء، وشريعة الرب معنا؟ حقًّا إنه إلى الكذب حرَّفها قلمُ الكَتَبة الكاذبة. الحكماء خزايا حيارى مدركون. ألا قد نبذوا كلام الرب، فأي حكمة لهم؟ لذلك أعطي نساءهم لأجانب وحقولهم لمن يرثها، لأنهم من الصغير إلى الكبير مولعون بالحرص، من النبي إلى الكاهن يعمل بالكذب».

ولذلك لم يُكتب مع القرآن أقوال النبي ﷺ، ووَعَد اللهُ أن يجمعه ويبيِّنه ويحفظه، فأنجز الوعد، وبقي القرآن محفوظاً من غير القرآن. والكتب السابقة صارت مخلوطة، وجاء القرآن يُبيِّن بعض اختلافاته ويُصدِّق ما كان فيه من كتب الله، ويَنسخُ بعضَ ما ألقى الشيطان.

(٧)

المراد من لفظ الشيطان في الآية

اعلم أنّ المراد من الشيطان: كل من ألقى الباطل في الحق من الجن والإنس. كما ترى في سورة الأنعام لما اعترضوا على ما أحلّ الله لهم من الطيبات حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾. وكذلك منها في آيات (١٢٢-١٢٤): ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟

يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا ﴾ هؤلاء سماهم الشياطين ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ الأنعام: ١٢٣.

وهكذا في هذه سورة الحج سمّى قادة المجادلين شياطين: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾﴾.

فقد تخلص لنا من هذه الآيات أمور:

١- ما من نبي إلا له عدو.

٢- سمّاهم الله الشياطين.

٣- يُوحون بعضهم إلى بعض زُخرفَ القول غروراً.

٤- تصغي إليه أفئدة الذي لا يؤمنون بالآخرة.

وقد كثر في القرآن ذكر اليهود بأنهم كانوا يضلّون المسلمين بأقوال ينسبونها إلى كتب الله، وهي أهواؤهم وظنونهم، وكانوا يكتمون كل ما يؤيد هذه البعثة.

في آل عمران: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

وأيضاً فيها: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

وفيها: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وفي النساء: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن

تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وفيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾.

(٨)

المراد من النسخ في قوله تعالى:

﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾

اعلم أن القرآن إما ينسخ ما جاء في الكتب السابقة من الله تعالى، وإما ينسخ ما زادوا فيها وخلطوا بها من الأباطيل، كما فعلت قريش بوصايا إبراهيم عليه السلام، واليهود بوصايا موسى عليه السلام وأنبيائهم.

أما الأول فدفع اعتراضهم مراراً، وتفصيله في تفسير سورة البقرة وآل عمران.

وأما الثاني فأجاب عن شبهتهم عليه في سورة المائدة، والأنعام، والنحل، والشورى. وأوضحُ الآيات هذه (٥٢-٥٥) من الحج. وبيّن أنه ليس لكم سبيل خروج من اختلافكم إلا بهذا الكتاب المفصّل أوتأتيكم القيامة.

ومثل ذلك ما جاء في (١٤-١٥) من الشورى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي وحي الله ووصيته ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي وعد الفصل الكامل يوم القيامة ﴿ لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ أي من كتابهم الذي اختلفوا وخلطوا فيه ﴿ فَلِذَٰلِكَ ﴾ أي لما شرع لكم من الدين كما مرّ في الآية السابقة ﴿ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي أهواء كل فرقة من

المشركين من العرب وأهل الكتاب ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۢ ﴾ أي بقدر ما أنزل الله من كتابه، لا ما ضممتهم به من الأهواء ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ أي بعد إتمام الحجة لا نبغي الخصام، فيوم القيامة يفصل بيننا.

ومثل ذلك ما جاء في سورة هود (١٠٩-١١٢): ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي كلاً من المشركين واليهود ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أي بهذا الذي أنزل إليك ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾ أي في الخصام ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾.

ومثل ذلك في (١٢٤-١٢٥) من النحل: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

وهكذا في هذه سورة الحج (٦٧-٦٩) ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي من أمم الأنبياء ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أي من البدع والأهواء والاختلاف. فهو يجازيهم ويفصل بينكم ولا حاجة لنا إلى الغلو في الخصام ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

وآيات كثيرة في القرآن تخبرنا بأن أهل الكتاب اختلفوا اختلافاً شديداً. والتاريخ ملآن منه حتى أكلوا بعضهم بعضاً بعد النبي، ولو آمنوا به لما فعلوه.

وكذلك أخبرهم القرآن مراراً بأن دواء اختلافكم أن تؤمنوا بالقرآن، فإنه

يفصل أكثر اختلافاتكم كما قال (النمل ٧٦): ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ النمل: ٧٦. فأمثال هذه الآيات تهديهم إلى النجاة من أباطيل خلطوها بكتابهم إما روايةً أو كتابةً، ولهجوا بها. فالقرآن جاء بنسخ هذه البدع، وهذا غير ما نَسَخَ مما أنزل من قبل.

(٩)

إنّ لكل نبي عدوًّا شياطين الإنس والجنّ، وذلك لأن الله تعالى يبعث الأنبياء لإقامة سنن الهدى وإزالة سبل الردى. ومع ذلك جعل الإنسان مختاراً، فيبتليه ربُّه كما جرت سنّته تعالى بأن يبرز من القوة إلى الفعل كل ما استكنَّ. فلهذا ترى العالم معركة الخير والشر، ولو أكرههم على الخير لما كان شرّ. ولكن حكمته البالغة تُخرج الخير من الشرِّ نفسه. وهذا ليس موضع بسط القول فيه.

ثم قد رأينا أن الشرَّ يبلغ أقصى غايته عند ظهور الخير. فترى اليهود أشدَّهم عدواناً حين ظهر المسيح عليه السلام، وترى فرعون أظلم الناس حين أرسل الله نبيَّه موسى عليه السلام. وكذلك قصّة كلِّ نبي، وقد أخبرنا القرآن بذلك. فحرب آدم والشيطان تعود في عهد كل نبي بل عند عمل كل خير عظيم. فالقوى الشريرة مولعة بالأنبياء، فإذا تمنّى نبيٌّ أمراً أو قضى حكماً تألّبت الشياطين بإلقاء الموانع والوساوس، فإن ذلك قصارى أمرهم. ولا سلطان لهم على الذين آمنوا. وقد سبق الشاهد على ذلك في «الحرف الرابع»[1]. وعلى ذلك ضُرب مثل في الإنجيل من البذر، والأرض الطيبة والخبيثة، وطيور تلتقط البزر، وبيّن أن البذر كلام الله، والطيور عبارة عن الشيطان. وكذلك جاء في صحيح البخاري.

---

(١) يعني في فصل (د). وانظر التنبيه السابق في حاشية الفصل الثاني.

(١٠)[1]

إن قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ ﴾ الحج: ٥٢ وإن كان بيان أمر عام، ولكن هاهنا وجّه القولَ إلى [كتب] الأنبياء السابقين في أمر إلقاء الشيطان. فإن هذه الآية في ذكر ما ينسخ منها بهذا القرآن مما ألقاه الشيطان في الأحكام السابقة. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الحج: ٥٤ يتعلق بما جاء من الحق في هذا القرآن.

فهذا تأويل القرآن حسب القرآن، فتمسَّكْ به، وعضَّ عليه بالنواجذ، ولا تلتفت إلى ما ألقى الشياطين الدجّالون في الروايات، وأضلُّوا بها كثيراً من ضعفاء العقول.

ولدفع هذه الشبهات يكفي لنا شهادة الله ورسوله في القرآن الصادق المصدوق. وذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ ﴾ فانظر كيف أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يعلن بأنه لا يتبع إلا ما أوحي إليه من ربّه. فصار هذا شهادة من الله ورسوله.

ويشبه ذلك ما جاء في سورة يونس: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن

(١) في هامش الأصل: يوضح معنى الإلقاء والمجرمين، وإحقاق الحق بكلماته قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ ﴾ أي يبطل ﴿ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢ ﴾ يونس: ٨٠ - ٨٢.

تِلْقَآيِ نَفْسِىٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ يونس: ١٥.

ومثل هذا قوله تعالى الصريح: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ النجم: ٣-٤.

(١١)

فإذا تبيّنتَ معنى (٥٢) ظهر لك من (٥٣-٥٤) أن الله تعالى ذكر هاهنا أربع فرق:

(١) المنافقين، بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

(٢) واليهود المجاهرين بالخلاف، بقوله: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

(٣) والمشركين، بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

(٤) والمؤمنين من أهل الكتاب، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

ثم جمع هؤلاء الأربع وقسمهم طائفتين: مؤمنة، بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾، وكافرة بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، الآية.

وهذا النشر والجمع مثل ما مرّ عليك في آيات (١-٢٥). ومثل ذلك في سورة هود (١٧-٢٤).

(١٢)

بعد ذكر دواعي الحرب وإقامة الحجة عليها، ذَكَرَ ضرورة الهجرة وأجر المهاجرين من الرزق الحسن والنصر (٥٨-٦٠). ثم بيّن أن ذلك من سنة الله تعالى، لأنه تعالى هو الحق العلي، فيُحِقّ الحقَّ ويُبطل الباطل. فتدبيره يأتي بالليل والنهار،

والمطر بعد القحط، وبيده ملك السماء والأرض. ثم هو الرؤوف بالناس، فإنه سخر لهم البر والبحر، فيرزقهم منهما، ويحملهم فيهما. فأحياهم لكي يبتليهم، ثم يميتهم، ثم يحييهم ليجازيهم، كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك: ٢.

ولكن الإنسان أكثرهم كفور (٦١-٦٦). فبيّن عدله ورحمته كليًا، ليعلم الإنسان أن ليس له إلا أن يعبده، ولا يكفره بالشرك.

(١٣)

فبعد بيان الحكمة العامة وجّه القولَ خصوصاً في أمر الكعبة ومناسك الحج، ودَفَعَ شبهة المنكرين من اليهود على أصل التوحيد (٦٧-٧٠)، وأبطل جهالة المشركين عن ذلك الأصل الممهَّد، وضرب مثلاً لبطلان الشرك، وبيّن أن الله تعالى هو الحاكم المطلق.

ثم أسس على التوحيد تفرُّدَه بالحكم وإرسال الرسل لِتُعلِّمهم فرائض العدل والرحمة، وأبطَلَ الشفعاء من جهة علمه تعالى ومصير الأمور إليه. (٧١-٧٦). انظر كتابنا «حجج القرآن»[1].

(١٤)

ثم أتى بالخاتمة الجامعة، وبيّن عمود السورة من الأمر بالصلاة والتوحيد ـ وذلك أصل الحج ـ ومن الجهاد وفرضه عليهم؛ لأن الله تعالى اجتباهم خلفاءَ لملة إبراهيم، وشهداءَ لشريعته. وأمرهم بالاعتصام بالله، فإنه هو مولاهم ونصيرهم (٧٧-٧٨). فهاتان الآيتان جامعتان لما فرض عليهم، ولما وعد لهم من الفوز والنصر.

---

(١) وقد طبع قريباً.

تفسير

سورة الذاريات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤﴾.

(١)

في عمود السورة، واتصالها بما قبلها، ونظمها في نفسها إجمالاً

اعلم أن هذه هي السورة الثانية من جملة السور السبع[1] التي تثبت الرسالة والقرآن العظيم من جهة كونه خبراً عن الجزاء، ونذيراً لمن أشرك بالله وكذّب برسله وما أنزل معهم. فعمود هذه السور كلها أمر واحد، لكن من جهات مختلفة، كما مرّ بيانها في تفسير السورة السابقة. وإنما نذكر هاهنا من جهات ذلك العمود ما يخص بهذه السورة، وما يبين الفرق بين هذه والتي قبلها.

فاعلم أن في السابقة إثبات البعث وإبطال شبهتهم فيه، وفي هذه السورة إثبات الجزاء، فبدأ السابقة بقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ ق: ١ - ٣.

ثم أتبع ذلك استدلالا على البعث وأشار إلى عاقبة المكذبين، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ ق: ١٢ - ١٤.

---

(١) أي سورة ق، والذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والرحمن، والواقعة.

ولم يفصل قصصهم بل اكتفى بالإشارة إليها، وبذكر الدلائل الفطرية الواضحة على البعث. وختم السورة بأمر النبي بالصبر والصلاة والتذكير، وجعل آخرها قوله: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ق: ٤٤ - ٤٥.

وأما هذه السورة فلما جعل عمودها جهة الدينونة والجزاء بدأها بالشهادات عليها، وصرح بها حيث قال تعالى بعد إيراد الشهادة: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾.

وهذا الوعد والدينونة كلاهما يعم الرحمة والنقمة فإن الوعد قد جاء بكليهما، وكذلك لفظ الدين عامّ، فإنه إيفاء كل ذي حق حقه.

وبحسب هذا العموم جاء ما بعد ذلك فإن الله تعالى ذكر فيها من القصص ما فيه جهتان، كما ستعلم، وكما قال: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾، فـ«ما توعدون» يعم الجهتين. وبعد ذلك قال: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾. وهذا الحديث هو البشرى بإحياء قوم وإماتة قوم ، كما صرح بذلك في سورة الحجر حيث قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾.

ولكن لما جعل في هذه السورة الإنذار غالباً ذكَرَ وقائع إهلاك الأمم، ولكن في كلها عذاب ورحمة، كما ستعلم. وإنما لم يذكر جانب الرحمة بالتصريح في هذه القصص، لما نبّه عليها، وعقد عليها سوراً أخر حيث ذكر نجاة المؤمنين في كل هذه القصص.

ولذلك بعد إيراد الوقائع المنذرة أشار إلى أصل ذلك، وهو أنه تعالى وحده خالق كل شيء بقوة وحكمة، فجعل الخلق زوجين لإتمام الفائدة، فلم يخلُق عبثاً، ولا

ترك خلقه سُدىً، فلا بد من الأجل لإتمام الغاية، ولابد من النقمة لأجل الرحمة، فدعا إلى التوحيد على وجه خاصّ يدل على الجزاء والدينونة.

وسيأتيك تفاصيل الأمور في مواضعها إن شاء الله تعالى.

(٢)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١-١٤)

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ أي الرياح الذاريات، فإن «الذرو» هو نثر الغبار والرماد والأوراق، وذلك من الوصف المعلوم للرياح. قال أعشى بكر بن وائل:

فجرى بالغلام شِبهَ حريقٍ ... في يَبيسٍ تذروهُ ريحُ الشَّمالِ[1]

فاكتفى به عن تسمية الموصوف كما هو شائع في كلام العرب وكثير في القرآن.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ عطف الصفات بالفاء دليل على ترتيب في الصفات، وذلك يدل على أنها صفات شيء واحد، بل ربما يعطف بالواو مع كون القسم بشيء واحد، كما ترى في أول سورة المرسلات. فالقول بأن هذه الصفات لأشياء مختلفة يخالف النظائر وكلام العرب مثلا: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾.

وقال ابن زَيّابَة:

يا لهفَ زيّابةَ لِلحارث الصّـ ... ـابحِ فالغانمِ فالآئبِ[2]

ثم لا حاجة إلى جعل هذه الصفات لأشياء متعددة، فإنها كلها مناسبة

(١) جمهرة أشعار العرب: ٣٤٣.

(٢) حماسة أبي تمام ١: ٩٢..

بالموصوف الواحد كما سترى.

و«الوقر»: الثقل والحمل، وهاهنا مطلق فيعم كل ما تحمله الريح، وسيأتيك بيانه. فيجوز أن يراد به السحاب لثقله، كما قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ الرعد: ١٢. ومن وصف الرياح حملُ السحاب كما جاء في القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ الأعراف: ٥٧.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾: قسّم الأمر: ميّزه، وفرق بين وجوهه. وكذلك قَسَم الأمر، وفي الأول مبالغة مثل كسّر وكَسَر. قال المرّار بن المنقذ يصف الحمار الذي ينظر مواقع العشب:

ظلَّ في أعلى يفاعٍ جاذلاً ... يَقسِمُ الأمر كقَسْمِ المؤتمِرْ[1]

والرياح بتصاريفها تفرق بين قوم وقوم، فتكون رحمة لهذا، ونقمة لذاك، كما سيأتيك بيانه. ونسبة الأفعال الإرادية إلى غير ذوي العقول شائع جدًّا في كلام الناس والقرآن العظيم.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ ﴿تُوعَدُونَ﴾ من الوعد، أي ما وعدكم الله على لسان رسله، وأقام عليه دلائل بينة. وقد كثر في القرآن أن القيامة والبعث والجزاء حسب الأعمال الحسنة والسيئة كلُّ ذلك وعدٌ من الله تعالى، مثلا: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يونس: ٤ الآية، أيضاً: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ النحل: ٣٨، أيضاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ الأنبياء: ١٠٤، أيضاً: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ

(١) المفضليات: ٨٦ (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة).

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ الكهف: ٢١، وهذا كثير.

ثم يشمل هذا الوعد أيضاً ما وعد الله المؤمنين من النصرة، والكافرين من الخذلان في هذه الحياة. وقد جاء ذكر ذلك في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ النور: ٥٥ الآية. وهذا أيضاً كثير.

فقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ بظاهره يعمّ كل ما وُعِدوا، ولكن موقعه يخصه بما وُعِدوا من البعث، كما جاء فيما ذكرنا من الآيات، وكما يفسره ما يتبعه من ذكر وقوع الدين.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾ أي الدينونة والجزاء، وذلك داخل في «ما توعدون»، فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام أو الجزء على الكل. وذلك يكون لبيان الاعتناء بالمعطوف وهو ظاهر هاهنا، فإن الدين أي الجزاء هو المقصود من البعث بعد الموت، كما صرح بذلك في كثير من المواضع.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾ السماء يطلق على معان، ومنها السحاب كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ هود: ٤٤، وهو المراد هاهنا، وذلك لوجوه:

الأول: أن القسم السابق هو بالرياح، والمناسبة بين الرياح والسحاب أظهر، وقد ذكرا معا في مواضع.

والثاني: أن المناسبة بين المقسم عليه والمقسم به تقتضي ذلك كما سيأتيك بيانه في موضعه.

والثالث: أن الوصف بـ«ذات الحبك» يدل عليه دلالة واضحة. وبيانه أن

الحبك هو العقد كما قال أبو دواد:

كأنّ الغضونَ من الفَهدتين إلى طرف الزَّورِ حَبْكُ العُقَدْ[١]

ومنه الإدماج والإحكام في النسج، ومنه «الحباك» وجمعه «الحبك» للطرائق والأسرّة التي توجد في الثوب المحكم النسج وغيره. قال زهير بن أبي سلمى يصف ماء مرت عليه الريح فأنشأت فيه غضونا:

مكلّلٍ بأصول النبتِ تنسُجه ريحٌ خريقٌ لضاحي مائه حبكُ[٢]

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ «الحبك تكسُّر كل شيء كالرملة إذا مرت عليها الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرت به الريح»[٣]. وفي حديث الدجال: «إن شعره حبك حبك»[٤]. والسحاب يوصف بذلك، فإن الحبك فيه تجعد قطعاته مثل الموج المزبد المتراكم أو كسبائب القطن. قال امرؤ القيس يصف القصور الشامخات المكللة بالسحب:

تُلاعِبُ أولادَ الوعول رِباعُها دوينَ السماء في رؤوس المجادل
مكلّلةً حمراءَ ذاتَ أسِرّةٍ لها حُبُكٌ كأنها من وصائل[٥]

أي مكللة بسحب حمراء ذات طرائق. وهذا وصف سحاب الشتاء من جهة

---

(١) لسان العرب (فهد).

(٢) ديوانه: ٤٦ (بشرح الأعلم).

(٣) لسان العرب (حبك)، ومعاني القرآن للفراء ٣: ٨٣.

(٤) لفظ الحديث في مسند أحمد: «إن رأس الدجال من ورائه حبك حبك» ٤: ٢٠، وفي موضع آخر: «إن رأسه من بعده حبك حبك» ٥:٣٧٢ (المكتب الإسلامي، بيروت).

(٥) ديوانه: ٩٦.

لونه وقطعاته. قالت الخنساء تصف السحاب الشتوي:

حينَ الريـــاحُ بلائـلٌ ... نُكْبٌ هوائجُها صواردْ
يَنفِين عن لِيطِ السما ... ء ظلائلاً والماءُ جامِـدْ
مِزَقاً تُطَرِّدها الريـا ... حُ كأنها خِرَقٌ طرائدْ[1]

وما قيل من أن المراد به السماء التي فيها النجوم إما لإحكامها أو لكونها مجدّرة بالكواكب فلا يصح، فإن الحبك هاهنا ليس بالمصدر، إنما هو جمع بمعنى الخطوط والتكسر والغضون، فلا يكون وصفاً لهذا السقف المكوكب لا من جهة إحكامه ولا من جهة نجومه.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ أي في أمر وقوع الدين، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ النبأ: ١ - ٤. وموقع الجملة تشنيع قولهم، وليست بجواب للقسم، فإنه قد سبق بعد القسم السابق، فأغنى عن ذكره. وجملة التشنيع ربما تأتي بعد القسم، وجواب القسم يفهم ولا يذكر، مثلا قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ ق: ١ - ٢، أيضاً: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ البروج: ١ - ٤ وهذا كثير.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ هذه جملة مستقلة، وليست بصفة لقول مختلف. والمعنى أنه يصرف عن الإيقان بالدينونة من أصيب في بصيرته، فإن «الأفك» هو قلب الشيء ظهراً لبطن. ومنه «الإفك» للكذب، و«المأفوك» لفاقد البصيرة. وأنشد الليث:

---

(١) ديوان الخنساء: ٣٨ (بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

مالي أراك عاجزاً أفيكا[(١)]

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ خرص النخل والكرم: خمن ما عليه من الثمر. خرص في الحديث: قال ما لم يعلم. أي القائلون في أمر القيامة أقوالا مختلفة بمحض الظن، كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ ﴾ النمل: ٦٦، وكما ذكر قولهم في القيامة: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الجاثية: ٣٢.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ في غمرة: أي غفلة شديدة كما يقال: في غطاء وعماية. وكل ذلك مستعمل في كلامهم. ﴿سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ خبر بعد خبر. وفائدته بيان عدم انفكاك الغفلة حتى إنهم لا يشعرون بما ينبغي أن يشعروا به. وهذا ذكر حالتهم التي كانت أصل دائهم المذكور، أي هم منغمسون في الغفلة والشهوات، ولذلك لا يذكرون العاقبة. ومفاد الجملة التشنيع لشكهم الناشئ من كمال الجسارة، وعدم المبالاة بالآخرة وبما جاء به المنذرون من ربهم، وذلك يظهر من سؤالهم الآتي.

﴿ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ هذا السؤال يتضمن الإنكار، والاستعجال، والاستهزاء. وكل ذلك من غاية العصيان كما جاء في سورة القيامة: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ ولذلك أجابهم حسب سؤالهم.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ نصب ﴿ يَوْمَ ﴾ على الظرفية، أي يومُ الدين يقع يومَ هم يفتنون، واليوم بمعنى الوقت كما قال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ المدثر: ٩، أي وقتئذ. وقيل موضعه الرفع، إنما نصب لإضافته إلى غير المتمكن. وهذا وإن كان جائزا من جهة الإعراب ولكن لا يليق هاهنا، فإن السؤال المتقدم إنما هو عن موقع يوم الدين، لا عن نفس ذلك اليوم. نعم يمكن أن يكون الجواب حسبما فهم من

(١) اللسان (أفك).

سؤالهم، كأنهم قالوا: أيان هذا الدين؟ فقيل: إنه يقع يوم كذا.

«فتنه»: امتحنه قال تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾ طه: ٤٠. ومنه: الفتنة: لكل ما يختبر به عقل الإنسان وعزمه من لذة أو ألم. ومنه «فتنته المرأة»: دلّهته، والشيطان: أغواه. وفتنت الذهب: أدخلته في النار لتنظر ما جودته. ومنه: دينار مفتون. ورق فتين: أي فضة محرقة. ويقال للحَرّة: فتين كأن حجارتها محرقة. وكل ذلك وجوه لمعنى واحد.

فقوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ ١٣﴾ يلمح أولاً إلى معنى الإحراق، وثانياً إلى أن هذه النار مما فتنتم به في الدنيا من شهواتها وزخارفها التي أنستكم يوم الدين، فصرتم في غمرتها ساهين، كما يبين ما بعده. ولما كان سؤالهم على سبيل المكابرة والاستهزاء أجابهم بما يليق به.

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي ما فتنكم في الدنيا من شهواتها، فهي الآن ظهرت عليكم بحقيقتها، وكنتم هناك في غمرة الغفلة فلم تحسوا بذوقها، فالآن فذوقوها. وموقع الجملة التفات. وليس هاهنا حذف، بل لكي يجعل الغيب مشهوداً خاطبهم، فكأن يوم الدين قد حضر، وكأنهم قد عرضوا على النار، فخوطبوا بهذا القول.

(٣)

بيان وجه الاستشهاد بالرياح والسماء على الدينونة

قد تبين مما ذكرنا أنّ قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ٤﴾ إشهاد بالرياح. وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ٧﴾ إشهاد بالسماء الشتوية التي تكثر فيها الرعود الصاعقة. وكونها أظهرَ في الإنذار والتخويف يبين شناعة استمرارهم في غفلة وغرور، واختلاف وظنون، كما جاء في قصة عاد: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾ الأحقاف: ٢٤، فلم ينتبهوا عن غفلتهم، وقد جاءهم العذاب، ورأوا آياته في السماء

المقطّعةِ السحبِ ذات الحبك.

واعلم أنّ كلا الإشهادين في الحقيقة إشهادٌ بآيات الله الظاهرة وأوامره الجارية، فتأتي بريح فتحمل السحاب الثقال فتسوقه إلى الأرض الجرُز، وتحمل السفن الموقرة، وتجري بها إلى المنافع. وربما تعصف فتذرو الرمالَ، وتنقلب حاصباً فتمطر الحجارة، وربما تنقلب صرصراً، فتأتي بالبرد والصواعق، وربما تصير طوفاناً، فتأتي بالمطر الشديد، وتهيج البحر. وفي كلّ ذلك تقسيم الأمور، فإنّ من عجائب قدرة الله تعالى وحكمته وتسخيره الرياح أنّها ربما تنفع بشدتها، وربما تُهلك بلينتها، كما سترى في قصة فرعون. بل الأمر الواحد يشتمل نعمةً للمؤمنين ونقمةً على الكافرين، مفرِّقاً بين الرحمة والعذاب، ومقسِّماً لأمر الرب كفعل ذوي العقول.

ويشبه ذلك ما جاء في مزمور ١٤٧ ف (١٥-١٨).

«يرسل كلمته في الأرض سريعاً جدًّا يجري قوله. الذي يغطّي الثلج كالصوف، ويذرى الصقيع كالرماد، ويلقي جمده كفتات، قدام برده من يقف. يرسل كلمته فيذيبها. يهبّ بريحه فتسيل المياه».

فسمّى الريح كلمة الربّ وقوله، وهذا من ألطف العبارة، فإن في العبرانية لفظة واحدة مشتركة بين الكلام والريح.

ومن أجمع الآيات فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ البقرة: ١٦٤، أي آيات على التوحيد والقدرة والربوبية والرحمة والحكمة والعدل.

وبالجملة ففي تصريف الرياح والسحب لنفعها العام وضررهما المخصوص

حسب مشيئته دلالةٌ على

١- أنّ أمور الخلق لا تجري باطلاً وعبثاً، ونبّه على ذلك بتقسيم الرياح وتفريقها في جريانها بين البرّ والفاجر؛

٢- وأيضاً على إحاطة أمره، فإنّ كل شيء ـ حتى هذه الرياح التي لا ترى أنها تعقل شيئاً ـ يجري بأمر الله تعالى حسب حكمته وعدله كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الفتح: ٤، ٧؛

٣- وعلى غلبة حزبه.

ففيه بشارة وإنذار، كما صرح بذلك في سورة «والصافات» التي أقسم في أولها بجنوده الموكلة فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾. وفي كل ذلك دلالة واضحة على الدينونة.

وسيأتيك مزيد بيان لدلالة الرياح والسماء في تفسير قصص الأمم التي أهلكت بالرياح والصواعق.

(٤)

نظم هذه الآيات بعضها ببعض وبما بعدها

لما كان الإشهاد بالرياح جامعاً للرحمة والنقمة ـ كما مرّ وكما ذكرنا في تفسير سورة المرسلات ـ والقرآن قد أكثر من ذكر جانب النفع فيها، وربما ينبه على ما فيها من العذاب تنبيهاً على كونها مسخّرةً بأمر الربّ الحكيم = أتبعه قولاً يعمّ الرحمة والنقمة، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾.

ولما كان الإشهاد بالسماء ذات الحبك غالباً فيه جانبُ الإنذار، بل صورة هذه السماء هي صورة الزجر الشديد والإنذار = أتبعه ذكر المستهزئين المستعجلين

وعذابهم. ثم لما كان هذا ذكراً لأحد جانبَي الوعد والدينونة حسُنَ أن يذكر الجانب الثاني. وأيضاً من أسلوب القرآن ضم الترغيب بالترهيب وبيان الضد بالضد، وقد ذكر العصاة وبعض أوصافهم، فحسُنَ بعد هؤلاء ذكرُ أضدادهم بأوصافهم تعريضاً بأنّ هؤلاء المستهزئين ليسوا كذلك، كما صرح به في مواضع من القرآن، فقال عز من قائل حكيم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾.

(٥)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١٥-١٩)

﴿ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ صفة جامعة فارقة، كما مرّ بيانها في تفسير سورة البقرة. وموقعها هاهنا يشير إلى اتصافهم بضد ما ذكر في الجملة السابقة من أوصاف المنكرين.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ عبارة عن الفوز والسرور، أي دائمون في النعمة.

﴿ ءَاخِذِينَ ﴾ حال، وهو أحسن لما فيه دلالة على استمرار الإنعام، فلم يقل إنهم أخذوا ما آتاهم؛ ليعلم أنّ ما أعطوا يبقى معهم، لأن الجملة السابقة قد دلّت على الاستمرار، فالمعنى: أنهم دائمون في جنات وعيون وعطايا من ربهم.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ ﴾ وصف وضع في محل الدليل، وبذلك أيضاً دلّ على أن المنكرين على خلاف هذه الأوصاف، كما جاء في القرآن كثيراً. وموقع الجملة شبيه بالالتفات، فيشبه ما مرّ من قوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾، كأنّ يوم القيامة قد حضر، فيوصفون بما عملوا في الدنيا.

﴿ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ عام، وأظهر في الصلاة والزكاة، لكونهما أولى وأهم، ولما

صرح بكونهما علامة فارقة، ولما بيّن ذلك بها أتبع من أوصافهم من قلة الهجوع والجود.

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ الهجوع هو النوم، أي مشتغلون في الليل بالصلاة والذكر، كما قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ السجدة: ١٦، وكما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ المزمل: ١ - ٢. والجملة لم تعطف لأنها بيان لما ذكر من كونهم محسنين.

وفي تأليف الجملة وجوه كلها راجع إلى معنى واحد، أي إنهم كانوا قليلا هجوعهم، أو ما يهجعون فيه من الليل، أو كانوا يهجعون قليلا من الليل. وأما أنهم كانوا قليلين وأنهم لا يهجعون من الليل ـ كما ذكره الرازي ـ فبعيد جداً.

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ ﴾ السحر قبيل الإسفار، وهو أولى الأوقات بالاستغفار، كما جاء في وصف المتقين: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٧، وجاء تصريح ذلك في صحيح الخبر[١]. وقد بيّنا سبب ذلك في تفسير سورة آل عمران.

وذهب الحسن إلى جعل الواو دليلاً على اتصال الوصفين فإنه قال: «مدّوا في الصلاة ونشطوا حتى كان الاستغفار بسحر»[٢]. وليس ذلك بظاهر المعنى، ولكنه

---

(١) يشير المؤلف إلى ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟». انظر صحيح البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل؛ وصحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل مثنى مثنى.

(٢) تفسير الطبري ٢٦: ١٢٢-١٢٣.

إشارة غير بعيدة، والله أعلم.

﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩﴾ موقعه بعد (السائل) يدل على معناه: أي من لا يسأل الناس مع فقره. وعن قتادة: هو المسكين الذي لا يسأل[1]. وعن الزهري: هو المتعفف[2]. لعلهما نظرا إلى قوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ البقرة: ٢٧٣.

(٦)

نظم هذه الآيات ودلالتها وموقعها بما قبلها وبما بعدها

جمع بين الكافرين والمؤمنين على سبيل التقابل، ومن الإيجاز أن دلّ بما ذكر على ما لم يذكر. فإذ وصف المنكرين بأنهم في غمرة الغفلة علمنا أن المتقين على بصيرة ويقين من لقاء ربهم. ونبه على ذلك بما سمّاهم المتقين، فإن التقوى هي أصل البصيرة كما هو مبسوط في موضعه. وكذلك إذ وصف المتقين بالإحسان والصلاة والزكاة علمنا أن المنكرين أشحّاء قاسية القلوب، كما ذكر وصفهم في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤﴾ المدثر: ٤٣ - ٤٤.

وهذه الجملة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨﴾ جاءت معترضةً بعد إيراد دلالة على الجزاء، فبدأ بتشنيع أمر المنكرين، ثم أتبعه ذكر مقابله؛ فبذلك أعقب الدليل الترهيب والترغيب.

ثم بعد ذلك أخذ مرة أخرى في إثبات الجزاء، فإنه عمود الكلام. فلذلك

---

(١) المرجع السابق ٢٦: ١٢٥.

(٢) المرجع السابق.

وصل بالواو، وأراد أن ينبه على أن ما سبق من القسم، ففيه دلائل وآيات، فقال عز من قائل حكيم:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(٧)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٠-٢٣)

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الجملة معطوفة على ما فهم من الأقسام السابقة، كأنه قيل: إن في تصريف الرياح والسحاب لآيات على المعاد، وهكذا في الأرض وفي أنفسكم.

وقوله: ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ هذا من نمط قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ البقرة: ٢، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ق: ٣٧، وأيضاً: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ق: ٨، وأيضاً: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِۚ ﴾ هود: ١٠٣، وأيضاً: ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الجاثية: ٥. وهذا كثير جداً، أي إنما هي آية لمن ينتفع بها، كما يقال: «قد أسفر الصبح لذي عينين»، فأمثال ذلك فيها نوعان من الفوائد:

الأول: أنّ الدلائل ليس فيها الإكراه، فيكون نافعاً لكل الناس، فإن لم ينتفع بها الكافرون فإنما هو من قِبَلهم، ولا نقص في ظهور الدلائل.

والثاني: التنبيه على الشرط المناسب للانتفاع، ويجب التدبر في هذه المناسبات، فلنذكر ما يليق بهذا المقام.

فاعلم أن قيد «الموقنين» يدل على أن الآيات إنما ينتفع بها من يستدلّ بها. وذلك بأن الاستدلال مبني على الإيقان بأمرين:

١ - الأول: بما يبنى عليه الدليل من المقدمات المسلّمة، أو الأوليات.

٢ - والثاني: بلزوم الإنتاج.

فالذين لا يوقنون قسمان: إما هم أهل السفسطة الذين قد أنكروا بالأصول الأولية، فكيف بالأدلة. وإما هم المقلدون والفجار، فهولاء ربما لا ينكرون بالأوليات، ولكن ينكرون بما يلزمها ويستنتج منها، وذلك بمحض المكابرة. والقرآن كثيراً ما يبيّن هذا التناقض منهم بمثل قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ الأنعام: ٩٥، ويونس: ٣٤، وفاطر: ٣، وغافر: ٦٢ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ المؤمنون: ٨٩.

وبالجملة فنبه على أول شرط لما يكتسبه الإنسان من العلم بطريق الاستدلال. فمن خلا عنه فهو كالبهائم، بل أضلّ منها، وخرج ممن يخاطب. وقد أشار فيما بعد إلى ما هو أصل اليقين، كما سيأتيك عن قريب.

هذا، ولم يذكر ﴿لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ مفعولاً به ليعمّ كلّ ما يوقن به. وأوله وأساسه التوحيد، ثم القيامة، ثم الرسالة.

وليس المراد به الإيقان بمحض المشهود، فإن ذلك ما يستوي فيه المؤمن والكافر، بل الإنسان والبهائم. فالمراد به الإيقان بالاستدلال بالآيات، وذلك هو كمال رسوخ العقل، كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ البقرة: ٣. ومع العموم يدل موقع الكلام على أن أول النظر هاهنا إلى الإيقان بالمعاد، وربما جاء به التصريح كما في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ البقرة: ٤.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ استفهام استنكار، فإن آيات النفس أعظم الآيات وأقربها وأبينها.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ جامع لما لا يحصى من الآيات على التوحيد والربوبية والحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ يوسف: ١٠٥. وقد أكثر القرآن من ذكر هذه الآيات إجمالاً وتفصيلاً، فلا حاجة إلى ذكرها هاهنا، وسيأتيك بعضها في هذه السورة. ومقتضى المقام أن يراد بها ما يدل على المعاد. وكل آية من آيات الربوبية والقدرة والحكمة والرحمة تدل على المعاد، كما هو مذكور في موضعه.

واعلم أنّ نظم الكلام هاهنا جاء على أسلوب خاص من الإيجاز، وهو الاكتفاء بما ذكر في أحد القرينين عن ذكره في الآخر. فذكرُ الآيات مع الأرض أغنى عن ذكرها مع السماء، وهكذا ذكر الرزق والموعود مع السماء أغنى عن ذكرهما مع الأرض. وقد جاء في غير هذا الموضع التصريح بكون الآيات في السماء، وهكذا جاء التصريح كثيراً بكون الرزق في الأرض. وأما كون ما يوعدون في الأرض فكما قال تعالى في أمر القيامة: ﴿ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ الأعراف: ١٨٧، فكأنهما قد أثقلتا بحملها، وكأنهما منتظران أمر الرب بوضعها.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ هذا القسم يتضمن الدليل على المعاد وذلك ظاهر مما ذكر من آيات الأرض والسماء. ثم أشهَدَ بربّهما، ولولا ذلك لما جاء بفاء التعقيب، فهذه الجملة في غاية الاتصال بما قبلها. ثم في كلمة «الرب» إشارة إلى الاستدلال، وهو أنّ كل آية في الأرض والسماء والنفس إنما هي آيات على الربوبية، ودلائل المعاد كلّها مبنية عليها. وسيأتيك بعض البيان لذلك في الفصل الثاني.

﴿ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ المقسم عليه هاهنا هو المقسم عليه في أول السورة، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ ﴾، وقد مرّ أيضاً ذكر «ما توعدون» آنفاً فاكتفي هاهنا بالضمير، كأنه قيل: فوربِّ السماء والأرض إن بعثكم وجزاءكم حق لا ريب فيه.

﴿ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ نصب ﴿ مِّثۡلَ ﴾ على كونه حالاً عن الضمير في

﴿إِنَّهُ﴾، وعاملُها حسب اصطلاحهم شبه الفعل أي «لحق»، كقولك زيد حسن ضاحكاً. أي ما توعدون من البعث والرجوع إلى ربكم والجزاء حسب أعمالكم فهو حقّ لا مجال فيه للشك، وحاله يشبه حال نطقكم.

ولا خلاف في هذا التأويل بين السلف، ولكنهم اختلفوا في محلّه، فمن الذين ينصبونه من يظنه مرفوعاً في المحل، ولكنه ينصبه لإضافته إلى غير المتمكن مثل «يومئذ». وأما حمزة والكسائي وأبو بكر فقرؤوه بالرفع[1]. وكل ذلك راجع إلى معنى واحد. وموقع هذا التمثيل الاستدلال بطريق الأولى، كما سيأتيك بيانه في الفصل التاسع إن شاء الله تعالى.

(٨)

جملة الكلام في بيان وجه الاستدلال بهذه الآيات على وقوع الدينونة

اعلم أن هذه الآيات الأربع جامعة لكل ما في الأرض والسماء والنفس من الشواهد، وذلك بأن الله تعالى جعل في أنفسنا وفي الأرض والسماء وما بينهما من عظائم الخلق وعجائب الصنع وتقدير بعضها لبعض، وتيسيرها لمصالحها، وتدبيرها لمصالح أخرى = ما فيه دلائل واضحة على التوحيد والربوبية من جهة اتصاف الرب تعالى بكمال الملك والقدرة والعلم والحكمة والعدل و الرحمة، وفي كل ذلك دلالة على الدينونة.

فأول الاستدلال إنما هو على صفات الرب تعالى الدالة على التوحيد، ثم يستدل به على الدينونة. كما بيّنها القرآن في مواضع، وقد ذكرناها في «كتاب الحجج».

فأشار بهذه الجملة إلى دلائل الربوبية عامة وإلى دلائل الدينونة خاصة. ونبه

---

(١) انظر البحر المحيط ٩: ٥٥٢.

على ذلك بقوله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الذاريات: ٢٢، فإن الرب الذي يرزقكم من السماء والأرض لم يخلقكم عبثاً، ولن يترككم سدى، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ المؤمنون: ١١٥.

ثم بيّن ذلك بما أتبعه من قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الذاريات: ٢٣، فاستدل على الدينونة بكونه رب السماء والأرض. وهما مشتملان على ما لا تحصى من الآيات في الآفاق والأنفس الدالّة على الربوبية وعلى الدينونة.

وهذا الذي ذكرنا جاء بأوضح بيان في موضع آخر، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ أي المعاد، كما بينه فيما بعد، فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾، أي في كونه ربًّا شهيداً على كلّ شيء دليل كافٍ على المعاد، كما بينه فيما بعد، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ فصلت: ٥٤. إحاطته بالعلم والقدرة والملك والتدبير والحكمة والرحمة تستلزم الجزاء.

وهذا جملة الكلام في وجه الاستدلال، وهذه الأدلة مفصلة في مواضعها من القرآن، فلا نشتغل هاهنا بتفصيلها، ولكن نبين ببعض البسط ما يخص بهذا المقام من الاستدلال على المعاد، فنقول وبالله التوفيق.

(٩)

بيان الاستدلال على المعاد بالنطق الإنساني

لا يخفى أن المفهوم من قوله تعالى: ﴿ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ مع ما قبله: أن بعثكم وجزاءكم حق أي واقع ولا ريب فيه، مثل ما أنكم تنطقون، فلا تشكّون فيه. وهذا القدر في غاية الظهور من الكلام. ثم في هذا التمثيل من الحكمة ما يحتاج إلى التدبر، وقد نبه على ذلك بما اختار مثال النطق، فلم يقل: مثل ما أنكم تنظرون، أو

تسمعون، أو تأكلون، أو تشربون، أو غير ذلك من الأفعال الظاهرة. فإذا تفكرت في حكمة اختيار هذا المثال هُديت إلى أمرين عظيمين:

الأول: هو كون النطق أولى باليقين من سائر أطوار النفس.

والثاني: كونه متضمناً لما يستدل به على المعاد، كما سيأتيك بيانه عن قريب.

وستجد في كلا الأمرين من بوالغ الحكمة ما يربّي العقول ويشفي الصدور.

أما الأمر الأول، وهو كون النطق أولى باليقين، فمن ثلاث جهات:

الأولى: أن النطق أقرب إلى النفس من سائر أطوارها، وذلك بأن النفس تنتبه على كل شيء بوساطة الفكر، وأما الفكر فليس بينه وبين النفس واسطة. والفكر هو النطق الحقيقي، ولذلك سمى العقل نفسا ناطقة، والنطق المسموع إنما هو ظهور ذلك النطق الحقيقي. فعلم النفس بنطقها الحقيقي هو أبده البديهيات وأولى باليقين.

والثانية: أن النطق أرسخ في النفس وذلك بأنه داخل فطرة الإنسان وخاصته، ولذلك عرفوا الإنسان بالحي الناطق. وقد عرفت العرب ذلك، قال المرقش الأكبر:

هل بالدِّيار أن تجيب صَمَمْ ... لو كان حيًّا ناطقاً كلَّمْ[1]

والثالثة: أنه ليس في أطوار النفس ما يساوي النطق في كثرة الشهادات المتواطئة. ولا يخفى أن تطابق الشهادات على شيء أمر زائد على كونه بديهيًّا أو فطريًّا، واليقين إنما يتم بكثرة الشهادات.

فإذا نظرت إلى النطق من هذه الجهة وجدته أوفر نصيباً من غيره، وذلك بأن الناطق أولاً يفكر وهو النطق الحقيقي، ثم يرى فكره يجري على لسانه مطابقا لما فكّر،

(١) المفضليات: ٢٣٧.

ثم يسمع بأذنه ما نطق به لسانه، فيجدهما مطابقتين، ثم يسمع الجواب من المخاطب مناسباً لما تكلم به.

ثم هذه الشهادات تتكثّر بأن في كل كلمة بل كل حرف شهادةً على هذه المطابقات، فلا شيء كالنطق دليلا على وجود النفس. ومن هاهنا حسُنَ اختيارُ فعلية النطق، فلم يقل: «مثل نطقكم» بل قال تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وتبين مما قدمنا أن اليقين بكل شيء فرع على اليقين بالنطق، فهو أصل اليقينيات والاستدلالات.

وأما الأمر الثاني وهو كون هذا المثال متضمنا للدليل على المعاد، فلا يخفى أن التمثيل ربما يكون محض دعوى كما تجد كثيراً في كلام الشعراء، وربما يكون دليلا. وذلك إذا علم من نفس الكلام أو العقل أن بين المثل وبين ما ضرب له المثل أمراً جامعاً يستلزم اشتراكهما في الحكم، كما تقول في مسكر إنه حرام مثل الخمر، فإنك بهذا التمثيل قد دللت على علة الحرمة، وهذا الجامع يسمى مناط الحكم. ثم إذا كان مناط الحكم فيما ضرب له المثل أقوى مما هو في المثل كان إثبات الحكم في الأول بطريق الأولى، ويسمى قياس الأولى، كما ترى في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ النور: ٣٥ الآية.

فعلى هذا تمثيل النطق هاهنا ليس دعوى محضا ولكنه دليل استدل به على ثبوت المعاد، فإنك إذا تأملت نظم الكلام اتضح لك وجوه من الاشتراك والمماثلة بين النطق الإنساني وقضية المعاد. والآن نذكر هذه الوجوه، وبالله التوفيق:

الوجه الأول: ما يدل عليه نفس القسم هاهنا، فإن القسم هو الإشهاد كما

بيناه في «كتاب الإمعان»[(١)]. فالإشهاد بكونه تعالى ربَّ السماء والأرض ـ وقد سبق أنهما ملآنتان من آيات الربوبية الدالة على المعاد ـ إشهاد بهما وبآيات فيهما، فهي تشهد بأنكم مربوبون ومجازَون، وهذا النطق منها واضح لأولي النهى، كما قال تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فصلت: ٢١، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الإسراء: ٤٤. فكأنه قيل: كما أنكم تنطقون، فكذلك هذه تنطق بأن المعاد إلى الرب تعالى حق لا شك فيه.

والوجه الثاني يدل عليه التدبر في أمر النطق، فإن الله تعالى جعل الإنسان قادراً على أن يأتي به أحسن وأبين. وذلك من كماله وأكبر نعم الرب، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ الرحمن: ٣ - ٤.

فإذا تأمل الإنسان في هذه القدرة منه لم يمكنه الإنكار بأن الرب تعالى قادر على إيجاد الخلق بعد فنائه؛ فإن الخلق منه تعالى إنما هو بمجرد نطقه، فإن الرب تعالى يخلق ما يشاء بكلمة منه من غير احتياج إلى مادة وآلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ النحل: ٤٠.

وإذ ليس الخلق إلا كلمة منه، وقد خلق السماء والأرض بكلمة منه، وإذا شاء أعاده بكلمة، بل هو على إعادته مرة أخرى أقدر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الروم: ٢٧. وإذا كان ذلك كذلك فهو على إعادة الإنسان أقدر، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي يعيدهم بعد إماتتهم، فإن سياق الكلام في إثبات المعاد. وقد صرح بذلك في مواضع أخر. فإن نفس خلق السماوات والأرض دليل على قدرته على إعادة

(١) انظر: إمعان في أقسام القرآن: ٦٩-٨٧.

الإنسان، وقد صرح بذلك في آيات أوردت في إثبات المعاد بناء على محض كمال صفة الخلق والعلم كما تجد فيما أتبعه هاهنا، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يس: ٨١ - ٨٣. وهكذا قال تعالى في المعاد: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ القمر: ٤٩ - ٥٠.

وبالجملة ففي ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لكم شهادة بينة على أن الرب تعالى أكبر قدرة على بعثكم منكم على إعادة ما نطقتم به. ثم هو أهون عليه لما أنكم في نطقكم محتاجون إلى أسباب جعلها الله لكم، وربما لا تقدرون على بعضها فتعجزون عنه، وربما تنسون ما نطقتم به فلا تقدرون على إعادته كلا أو بعضا. وأما الرب تعالى فقدرته على النشأة الآخرة كقدرته على الأولى.

وقد صرح ما ذكرنا في مواضع مثلاً: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ القيامة: ٣ - ٤، و أيضاً: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الواقعة: ٦٢، و أيضاً: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ يس: ٧٨ - ٧٩، وهذا كثير. وهذا الاستدلال لإثبات المعاد على من أنكره لمحض الاستبعاد، فجوابهم إبطال ذلك.

والوجه الثالث: أن النطق يرجع إلى الناطق وإلا لكان أصم والأصم لابد أن يكون أخرس. وإذ كان أمر النطق هكذا فالخلق منه تعالى أكبر وأعظم مثلاً من نطق الإنسان كما مرّ، فلابد من رجوع الخلق إلى الخالق. وذلك لكمال ملكه، فإن الخلق قائم بأمره ولا يخرج عن ملكه وقدرته وعلمه. وإلى ذلك إشارة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ يس: ٨١ - ٨٣. وعلى هذا فكيف يمكن أن يخلق الرب تعالى ولا يرجع إليه كله؟ أينطق الرب ولا يسمع، ويخلق ولا يرى، أو يأتي بالخلق من العدم ثم يفوت من قبضته، أو يدبره ثم لا يملك منه شيئا؟

وهذا الاستدلال لإفحام من يستبعد المعاد من جهة رجوع المعدوم كما جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ ق: ٣ - ٤، وأيضاً: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ المؤمنون: ٨٢ - ٨٩ . فانظر كيف أكد على كون الخلق في ملكه بأن كله له، وأنه ربه، وأن ملكوته بيده، وأنه مجيره وحفيظه.

وهذا الاستدلال بالملك على إعادتهم كثير، ولا حاجة إلى الاستقصاء.

والوجه الرابع: وهو الاستدلال بصفة الربوبية ومماثلتها بالنطق مع زيادة العدل، وهو أصل الاستدلال. وقد جاء في القرآن كثيراً على وجوه. والعدل داخل في الربوبية، فإن السماء والأرض قيامهما بالعدل كما قال: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾ المؤمنون: ٧١ . فبعد ذكر السماء والأرض وآياتهما استدل بالربوبية على المعاد وذكر مثل النطق، فكأنه قيل: إن كل ما تفعلون وتعملون فبدايته من تدبر ونطق نفسي منكم، وبهذا تمتازون من أشياء غير ذات نفس ناطقة.

ثم الرب تعالى حكيم عادل، فكل ما ترون في السماوات والأرض من عجائب الصنع والتقدير فهو دليل على تدبير وأمر من حكيم مدبر آمر ناه، وذلك يدل

دلالة ظاهرة على تقدير وغاية وحكمة ورحمة. فذلك دليل على أنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولا بدّ من إيفاء كل ذي عمل حقه ليفرق بين المحسن والمسيء.

وقد صرح بذلك في كثير من المواضع، مثلاً قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ المؤمنون: ١١٥، وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ القلم: ٣٥ - ٣٦، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ يونس: ٤، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ ص: ٢٧ - ٢٨.

وهذا النمط كثير في القرآن، وعلى وجوه، أصلها أن الحكمة والرحمة والعدل كل ذلك يستلزم المعاد. وبالجملة فكأنه قيل: كما تنطقون عن فكر ومقصود، فكذلك خلق السماء والأرض والنفوس إنما هو عن غاية يؤول إليها، بل هذا أثبت وأظهر لكون الرب متصفا بكمال الحكمة والعدل.

ومما ذكرنا تبين أن كل هذه الأدلة فيها الاستدلال بطريق الأولى. هذا، ولا يحيط بمعاني كلامه إلا هو.

(١٠)

بيان نظم هذه الآيات في نفسها وبالسابق واللاحق

مما تقدم يتبين ما في هذا القول الجامع من رعاية حسن الترتيب وذكر الأقرب فالأقرب. ففي قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ذكر الأرض، ثم النفس، ثم السماء ؛ فالنفس متوسطة بينهما ولها جانبان إليهما. ونبه على ما في هذه الثلاث من الآيات. ثم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ترقّى إلى الدليل الجامع الأصلي، وهو الاستدلال بالربوبية.

ثم بقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أكد ذلك بتمثيل مأخوذ من صفة النفس التي هي مرآة ما في السماء والأرض، فأشار به إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. وكذلك ضرب المثل بالنطق، وهو أصل اليقين والاستدلال، فوجّهك إلى قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

فهذا نظم هذه الآيات في نفسها، وأما بالسابق واللاحق فقد مرّ أن هذه الجملة أعني ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ معطوفة على ما بدأ به السورة من الدلائل. فمن أول السورة إلى آخر هذه الجملة استدلال بأمور الفطرة، فأشهد بالرياح والسحاب والأرض والسماء والنفس، ثم أتبعها ذكر الحوادث.

ونظير هذا النمط ترى في سورة الشمس كما بيناه هنالك. وذلك حسب ما تجد كثيراً في أسلوب القرآن من تشييد ما في الفطرة بما في الوقائع التاريخية.

فعلى هذا حسن أن يذكر من القصص المشهورة ما يمثل لهم أمثلة الدينونة الواقعة لينذرهم بها، وليكون ذلك آية ودليلا على الدينونة الكبرى كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ هود: ١٠٢ - ١٠٣.

هذا، ثم لرعاية حسن مواقع الكلام اختار من الوقائع ما يناسب ويمثل بالخصوص ما أقسم به في أول السورة من الريح والسحاب، ليكون القسم من براعة الاستهلال، كما ستعرف بعد تمام هذه القصص، فقال عز من قائل حكيم:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ

﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

(١١)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٤-٣٧)

قد مر ذكر القصة في سورة هود، ولكن نبين هاهنا بعض ما يخص بهذا المقام.

﴿ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يدل على أن إكرام الضيف بالبشاشة والترحيب أول ما يجب على المضيف، وعلى أن إبراهيم كان كريماً سمحاً.

﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ هذا كلام إبراهيم ﷺ في نفسه، فإنهم كانوا في زي الصلحاء، وهم في ذلك الزمان شرذمة قليلة، وكانوا من أصحاب إبراهيم ورجاله.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ يدل على حسن خلق إبراهيم وكرمه، فإن الكريم يخفي عن ضيفه الاهتمام لضيافته لكيلا يثقل عليه. وهذا أبعد من المنّ، وأدخل في باب إسرار العطاء.

﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي بعد ما قرب الطعام إليهم لم يأكلوه، فدعاهم إليه بالرفق.

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ «أوجس» أحسّ في نفسه، ويستعمل خاصة للخوف.
﴿ خِيفَةً ﴾: أي خوفاً يسيراً، وذلك بأنهم أصروا على الامتناع من الأكل، فعظموا في نفسه إجلالا، وازدادت النكارة، كما جاء في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ هود: ٧٠.

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ أي جهراً حتى سمعت سارة عليها السلام، فإنها كانت قريبة كما جاء في سورة هود: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ هود: ٧١. ولما كانت البشارة إليها عرضاً لم تنسب إلى الملائكة، فإنهم لم يتكلّموها أولا.

﴿عَلِيمٖ ٢٨﴾ يدل على أن البشارة بالولد لا تتم إن لم تكن البشارة بصلاحه، واكتفى بالعلم لكونه منبعاً لصفات الخير والصلاح.

﴿فَأَقۡبَلَتِ﴾ بعد ما سمعت البشارة، توجهت وأقدمت على إظهار ما في قلبها من التعجب، كما يبينه ما بعده.

﴿فِي صَرَّةٖ﴾ أي تقبض واستنكار. من صرّ الفرسُ أذنيه: نصبهما. وهذا لما سمعت من الأمر العجيب.

﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ أي ضربت جبهتها بيد باسطة، وهو تصوير لاستعجاب النساء واستنكارهن كما جاء في سورة هود: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ هود: ٧٢.

﴿حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ أي حصباء، ويقال لها ﴿سِجِّيلٖ﴾ معرب من (سنك كل) كما جاء في ذكر هذه القصة في سورة هود: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ هود: ٨٢، فبيّن هاهنا معنى ﴿سِجِّيلٖ﴾، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ صفة للحجارة، أو حال. أما معنى المسوّمة فقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ آل عمران: ١٢٥: «معلمين، ويكون مرسلين من قولك: سوّم فيها الخيل أي أرسلها»(١).

(١) انظر اللسان (سوم).

قال أبو زيد: «الخيل المسومة: المرسلة وعليها ركبانها، وهو من قولك: سومت فلاناً إذا خليته، وسوّمه أي وما يريد»[(١)].

فإن كان من العلامة فمعنى ﴿مُسَوَّمَةً﴾ متاحة مقدرة، كأن على كل منها كتابة من الرب فلا تصيب إلا من كتبت له. وإن كان من التخلية فإنها معدّة عند الرب للمسرفين. ويناسب ذلك ما جاء في سورة هود: ﴿مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾، ومآل التأولين واحد.

﴿لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الإسراف هو التجاوز عن الحد وهو لفظ يعم كل ذنب صغير أو كبير كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ الزمر: ٥٣، والعام يتعين حسب القرينة. فهاهنا أريد به على طريق الكناية ما كان قوم لوط يرتكبون من المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا... الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ الذاريات: ٣٥-٣٧ هذا ليس من قول الملائكة، وإنما هو من قول الله تعالى إخباراً عما فعل بهم، فإن الملائكة إنما أخرجوا لوطاً والذين آمنوا معه بعد ذهابهم من عند إبراهيم عليه السلام. وقد دل على أنه من كلام الله تعالى بقوله «فيها»، كما سنذكره.

﴿فِيهَا﴾ لم يذكر المرجع وهو أرض قوم لوط وقريتهم المؤتفكة. والأرض من الأسماء التي يرجع إليها الضمير من غير ذكرها لدلالة القرينة. والقرينة أنه من كلام الله تعالى، فهو متصل بما سبق من قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وقد جاء بالقصة بياناً لآيات الأرض. وقد ذكرنا فيما سبق أن العرب كانوا قد تبين لهم آيات هذه القرى، وقد صرح بذلك فيما أتبعه من قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ

(١) المرجع السابق.

ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الذاريات: ٣٧، يعني الآية على الدينونة.

﴿ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ لم يكن هناك إلا بيت واحد من المسلمين، وهو بيت لوط عليه السلام، وفيه من هو مؤمن، وقد أخرجهم الله ونجاهم. ولكن امرأة لوط لم تكن من هؤلاء المؤمنين، وإنما كانت داخلة في جماعتهم بحسب الظاهر، فلذلك اختار اسم «المسلمين» في ذكر البيت.

(١٢)

نظم هذه القصة بما قبلها وبما بعدها

في الجملة السابقة ذكر أن في الأرض آيات للموقنين، ولا يخفى أن في الأرض آيات على رحمة الرب بما يرزق به العباد. وأيضاً فيها آيات على نقمة الرب بما ترك فيها من آثار عذابه المجرمين. وكذلك ذكر فيما سبق أن في السماء رزقكم وما توعدون. ففي هذه قصة إبراهيم عليه السلام المشتملة على قصة لوط عليه السلام مثل لهم الرحمة والبشارة والنقمة والإنذار، فهذه القصة منظومة في سلك ما سبق من قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ودل على ذلك بما ختم به هذه الجملة فقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾، وبما وصل هذه الجملة بما سبق بقوله: ﴿فِيهَآ﴾ كما قدمنا في الفصل السابق، وبما اختار من أسلوب العطف فيما ألحق بها من القصص الأخر فقال: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ الآية، فدل على أن في قصة إبراهيم وضيفه وما أنزل على قوم لوط لآية لكم.

ثم هذه القصة تمثيل لما بدأ به السورة كما سيأتيك بيانه، وكذلك ما بعدها من القصص، فأتبعها أمثالها، فقال عز من قائل حكيم:

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

(١٣)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٣٨-٤٦)

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ أي كذلك في قصة موسى عليه السلام ووقائعه بفرعون آية على انتقام الله تعالى من المجرمين ونصرته للمؤمنين كما جاء في سورة الشعراء: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾.

﴿ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي بقوة وغلبة ظاهرة. وكلمة «سلطان» جامعة لما أعطاه الله تعالى من الآيات الواضحة على رسالته، ولما أعطاه بها من الغلبة والظفر والهيبة. وهكذا وصفه بـ﴿مُّبِينٍ﴾ يوافق معناها الجامع.

ويبين ما ذكرنا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ القصص: ٣٥-٣٦ الآية، وأيضاً: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ الشعراء: ١٥ - ١٦، وبعد ذلك: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الشعراء: ٣٠ - ٣١.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي أعرض إنكاراً واستكباراً. فالركن هاهنا هو المنكب، والباء للتعدية كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ الإسراء: ٨٣.

ويشبه هذا المعنى قوله تعالى في قصة فرعون وقومه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ النمل: ١٣ - ١٤، فلم

يكن إنكارهم من شك، فإن الآية كانت مبصرة، ولكنهم استكبروا وجحدوا بها ظلماً وعلواً.

﴿مُلِيمٌ ۝٤٠﴾ «ألام»: جاء بما يلام عليه، أي هاهنا ظهر خسرانه وصار بحيث يلومه كل من علم به.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ أي الريح التي لا تأتي بمطر ونفع. وهذا كما سميت الرياح «لواقح» إذا درّت بالمطر كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ الحجر: ٢٢، والمراد به الريح الباردة كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فصلت: ١٦، وسيأتيك بيان ذلك.

﴿كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ أي البالي المنكسر من الحبل والعظم والشجر. فإن الرميم يطلق على كل ذلك إذا صار واهناً واهياً. والريح الشديدة تكسر وتزعزع وتدكّ، والصرصر لبردها ويبسها تذهب بالقوة والنضارة والحياة.

ويشبه ذلك قوله تعالى في ذكر عاد: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ القمر: ١٩ - ٢٠.

﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣﴾ وعدهم نبيهم صالح عليه السلام بعد ما عقروا الناقة أن العذاب ليأخذهم بعد ثلاثة أيام، كما جاء في سورة هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾.

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ «العتو» هو العصيان والاستكبار، والصلة بـ«عن» تدل على تضمنه معنى الاستكبار والاستنكاف.

﴿ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ القراءة بالألف هي الحجة، ويؤيدها ما جاء من ذكرهم في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هود: ٦٧، ومن قرأ بغير الألف فأراد التفسير، لما أنهم صعقوا لشدة الصيحة، كما يبينه ما بعد ذلك.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤﴾ جامع لوجوه من المعاني:

الأول: أنه كان عياناً وجهراً لم يشكّوا فيه، كما جاء في قصتهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ المؤمنون: ٤١، ونظير الجملة بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ البقرة: ٥٠، وهذا كثير.

والثاني: كون عذابهم سريعاً بغتةً فلم يمهلوا، كما قال تعالى في ذكرهم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾ القمر: ٣١.

والثالث: أنهم بقوا حيارى لا يهتدون لحيلة، ويبيّن ذلك ما يتلوه.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي لما سمعوا الصاعقة من السماء أخذهم الخوف والرعدة الشديدة، فألقوا على الأرض، كما جاء من ذكرهم في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ الأعراف: ٧٨، ٩١، أي أخذتهم الرعدة فلصقوا بالأرض.

﴿مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾ مدافعين عن أنفسهم، كما قال امرؤ القيس:

فأنشب أظفارَه في النَّسا فقلتُ هُبلتَ ألا تَنتصِرْ[1]

وهذا بيان لما اشتمل عليه ما قبله من نفي استطاعتهم على قيام.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ دل بالعطف على المعنى المفهوم في هذه القصص، وقد صرح به في قصة فرعون حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ الذاريات: ٤٠، فالمعنى: إنا أخذنا هذه الأمم، وكذلك أخذنا قوم نوح من قبل.

(١) ديوانه: ١٦١.

ويؤيد ذلك نظائره، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾، إلى أن قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾، إلى أن قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ العنكبوت: ٤٠.

ويشبهه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ النجم: ٥٠ - ٥٢، أي أهلك قوم نوح عليه السلام. فهكذا هاهنا، ولا فرق بين «أخذ» «وأهلك». والأصل في أمثاله ما يدل عليه القرينة.

(١٤)
بيان وجه أخص مما ذكرنا لنظم جملة هذه القصص بما بدأ السورة من القسم

واعلم أن ذكر قوم لوط، وفرعون، وعاد، وقوم نوح جاء في مواضع من القرآن، وأجمَلَ في موضع ما فصّله في موضع آخر حذراً عن محض التكرار، واختياراً للإيجاز، واكتفاء بما يكفى للعظة والعبرة. وربما يلمع إلماعاً كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ البروج: ١٧ - ١٩، وهكذا ترى في الزبور تلميحات إلى الوقائع المعلومة. فمن مرّ عليها من غير تأمل خفي عليه وجوه نظامها. وليس هذا موضع تفصيلها ولكن نورد هاهنا ما يستبين به من هذه السورة براعة استهلالها وحسن مواقع أمثالها.

فاعلم أن انتقام الله تعالى من هذه الأمم ونصره المؤمنين عليهم كان بتصاريف الرياح، أو بالصاعقة، أو بكلتيهما، كما سيأتيك بيانه في الفصول الآتية. فعلى هذا بدأ السورة بشواهد الرياح والسماء ذات الحبك، وقد مرّ أن المراد بها سماء الشتاء التي تأتي بالبرد والصواعق الهائلة.

(١٥)
بيان أن قوم لوط عليه السلام أهلكو بالريح الذارية

اعلم أن الله تعالى أرسل على قوم لوط ريحاً ذارية، فاشتدت وانقلبت حاصباً، فأمطرت عليهم حجارة من طين، وبلغت من شدتها إلى أن أفكت مساكنهم، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ العنكبوت: ٤٠، وكما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ هود: ٨٢ أي هبّت الزعازع، فهدمت بيوتهم وعروشهم وعظمتهم بالحصى و الرمال، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ النجم: ٥٣ - ٥٤.

في لسان العرب: «المؤتفكات: الرياح التي تقلب الأرض، أي تجعل بطنها ظهراً كالذي يحرث الأرض، وإذا جاء سيل عظيم فغطت الأرض بما ترك عليها من الطين والرمال، فهي أيضاً مؤتفكة، أو جرت ريح فغطتها قليلاً فهي مؤتفكة» (لسان العرب اختصاراً).

تـنـبـيـه:

يرى في بادئ النظر أن التوراة تخالف القرآن فيما أمطر على قوم لوط عليه السلام، وفي الحقيقة لا مخالفة بينهما إلا من سوء الترجمة، فإنه قد أخطأ مترجمو التوراة في فهم ما أمطر على قوم لوط فجعلوه ناراً وكبريتاً. فأما النار، فليس المراد بها إلا الصاعقة.

وبيان ذلك أن التوراة كثيراً ما تعبر عن الصاعقة بالنار. وهذا يظهر مما جاء في التوراة من ذكر آيات موسى عليه السلام التي وقعت على فرعون، فقد جاء في سفر الخروج (٩: ٢٣):

«وأرسل الله عليهم الرعد والبرد، و النار تسعى على الأرض».

والقرآن ذكر هذه الآية فقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ الأعراف: ١٣٣، فعبر عن هذه الأمور الثلاثة بكلمة جامعة، وهي ﴿ ٱلطُّوفَانَ ﴾، كما سنبينه في قصة نوح عليه السلام.

ومما يؤيد ذلك أن التوراة لم تذكر في قصة هذه آية موسى أن النار أحرقت شيئاً، مع أنها ذكرت البرد و الرعد سبع مرات. وصرحت مرة بأنها كانت مطرا حيث جاء: «وحين رأى فرعون أن المطر والبرد والرعد سكن عصى مرة أخرى»[١].

وقد ذكرت ما كان من ضرر المطر.حيث جاء: «كانت الشعير في سنابلها والكتان في طلعها»[٢]. ولم تذكر من ضرر النار شيئا.

ويشبه ذلك ما جاء في مزمور (١٤٨ : ٨): «النار والبرد والصقيع والغمام والصرصر متمين كلمته».

فالظاهر أن المراد من النار هو البرق والصاعقة.

وأما ما ذكرت التوراة في قصة قرية لوط من أن إبراهيم عليه السلام رأى من بعيد ارتفاع الدخان، فليس إلا ما رآه من ارتفاع الغبار الأسود من بعيد.

هذا، وأما الكبريت كما جاء في سفر التكوين (١٩: ٢٤) «وأمطر الملك على سدوم وعمورة كبريتا ونارا»، فليس المراد به إلا الحجارة.

وبيان ذلك أن الكلمة التي ترجموها «كبريتا» هي الحصباء. ودخل من هذا الباب غلط في لسان الإنكليز في معنى «برم إسطون»[٣] (الحجر المحروق) فظنوا أنه

(١) الخروج ٩: ٣٤.

(٢) الخروج ٩: ٣١.

(٣) BRIM STONE.

الكبريت، ولكن التوراة شاهدة على أن المراد به الحصباء. فإنك ترى في سفر أيوب (١٨: ١٥) حيث يذكر موت الأشرار: «يسكن في بيته من ليس له (أي الأجنبي الذي ليس من أهله) يذرّ على مربضه كبريت». أي ينضد على قبره جنادل كما هو العادة، ولا معنى لذرور الكبريت على مرقده.

فقد تبين مما ذكرنا أن الله تعالى أرسل على قوم لوط ريحاً ذارية شديدة فغطتهم ومساكنهم، وإن صح ما في نسخة التوراة فأنزل عليهم الصاعقة أيضاً.

(١٦)
إنّ فرعون وقومه أغرقوا بالريح الشرقية

اعلم أنه قد كثر ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون في التوراة والقرآن إجمالاً وتفصيلاً، ولم يستوعب كل الاستيعاب في سورة، بل ربما اكتفي بمحض التلميح لشهرتها ومعرفة الناس بها. وهي مفصلة في التوراة، وفيها التصريح بعمل الريح العجيب في هذه الواقعة، فاكتفى في القرآن ببعض الإشارة إليه.

وبيان ذلك أنه جاء في سفر الخروج (١٤: ٢١) «ومدّ موسى يده على البحر وأذهب الله البحر بريح شديدة من المشرق طول الليلة وجعل البحر يبساً وانفلق الماء» ثم أهدأ الريح في الصبح. فحين اشتدت الريح حملت الماء الغمر إلى المغرب في خليج سويز [السويس] وترك أرض الخليج الشرقي خليج عقبة يبساً، وحين جرت يسراً رجعت بالماء في محله فغشي الذين اتبعوا طريق موسى في البحر.

وجاء تصديق ذلك في القرآن، ففي سورة الدخان: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكناً، فإن الرهو هو السكون، وسكون البحر يكون بسكون الريح ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وفي سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ طه: ٧٧ - ٧٨.

وفي سفر الخروج فيما حمد به موسى عليه السلام ربه (١٥: ١٠) «أنت أرسلت ريحك، فغشيهم البحر». وفي سفر التثنية (١١: ٤) «والتي عملها بجيش مصر بخيلهم ومراكبهم حيث أطاف مياه بحر سوف على وجوههم حين سعوا وراءكم فأبادهم الرب إلى هذا اليوم».

وجملة القول أن الله تعالى نجى موسى عليه السلام وقومه بالريح الشديدة وأهلك فرعون وجنوده بالريح اللينة، وذلك من أعاجيب تصاريفها.

تنبيــه:

قد اختلف أهل الكتاب في موضع عبور بني إسرائيل، وأكثرهم على أنهم عبروا خليج سويز، ولكن الصحيح أنهم عبروا خليج عقبة. وكذلك وهم بعض المتكلمين في زماننا أن الله تعالى نجّى موسى عليه السلام بالجزر وأغرق فرعون بالمدّ[1]، وأبطلنا هذين الوهمين ببعض البسط في غير هذا الموضع.

(١٧)

إنّ عاداً أهلكوا بالصرصر والصاعقة وثمود أهلكوا بالصاعقة فقط

مما جاء في القرآن من ذكر عاد لا يخفى على المتوسم أن الصرصر التي أهلكوا بها كانت مصحوبة بالسماء الشاتية التي تأتي بالصاعقة، فإنه كما صرح بأنهم أهلكوا بالريح، فكذلك تجد التصريح بأن جاءهم سحاب خالٍ وصاعقة. ففي سورة

(١) يشير إلى السير سيد أحمد خان الذي ذهب إلى هذا التفسير.

الأحقاف: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾.

ولا شك أن هذا كان في الشتاء حين تهبّ الشمال بالصرصر في أيام النحس والمسغبة كما جاء في سورة القمر: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾، وكما جاء في حم السجدة: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾.

ولا يخفى أن هبوب الصرصر والأيام النحس من أحوال الشتاء، قالت ليلى الأخيلية:

ولا تأخذُ الكُومُ الجِلادُ سلاحَها ... لِتوبةَ في نَحْسِ الشتاءِ الصَّنابرِ[(١)]

وقال الفرزدق:

بعثتُ له دهماءَ ليست بلِقحةٍ ... تَدِرُّ إذا ما هبَّ نحساً عقيمُها[(٢)]

فهذه الريح الشتوية كثيراً ما تأتي بالسحب المقطعة الحمر ذات الحبك، وبالبرد والصواعق كما جاء ذكرها في كلام العرب، وقد سبق بعضه في الفصل الثاني.

ثم ترى التصريح بالصاعقة في عذاب عاد كما جاء في حم السجدة: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾، وهذا لا يغادر شبهة في أن أرسل عليهم صاعقة.

فقد تبين مما ذكرنا أن الله تعالى أرسل عليهم سحاباً خالياً وريحاً شديدةً تحمل الوقر الثقيل وصاعقة هائلة. وإنما أكثر ذكر الريح لأن عملها كان أشدّ فيهم،

---

(١) التعازي والمراثي للمبرد: ٣٧، والأغاني ١١: ٢١٤.

(٢) الحماسة: ٢: ٣٣٧، وديوان الفرزدق ٢: ٢٥٤، والقافية في المطبوعة: «شمالها»، والصواب ما أثبتنا.

فحملتهم وألقتهم صرعى على الأرض. وكذلك تبين أن الصاعقة من آثار السماء الشتوية، فعلمنا استدلالاً من الأثر على المؤثر بأن ثمود أرسل عليهم السماء ذات الحبك التي أنزلت عليهم الصاعقة الهائلة والصيحة الصاخة كما أرسل على عاد عارضاً ذا صاعقة.

وإذ كان هلاك ثمود بمحض الصاعقة، كما جاء في سورة القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾، اكتفى بذكر الصاعقة ولم يذكر السحاب وهي تدل عليه التزاماً. وهذا كما أكثر ذكر الريح في قصة عاد وإنما ذكر السحاب مرة واحدة، والقرآن كثيراً ما يترك تفاصيل القصص لأسباب قدمناها في أول الفصل الرابع عشر.

(١٨)

إن قوم نوح عليه السلام أهلكوا بالريح الشديدة

لم يذكر في هذه السورة من قصة نوح وقومه غير إشارة إلى أنهم اخذوا مثل هذه الأمم، ولكن النظر فيما ذكر منها في التوراة والقرآن يدل تصريحاً وإشارةً على أنهم أهلكوا بالريح الشديدة.

وذلك بأنه جاء في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾. ولا شك أن الطوفان مصدر بمعنى الدوران يستعمله العرب لما يطوف من الريح الشديدة. قال الراعي يصف الناقة:

تُمسي إذا العِيسُ أدركنا نكائثها خرقاءَ يعتادها الطوفانُ والزُّؤُدُ[١]

---

(١) لسان العرب (نكث)، وديوان الراعي: ٦١.

وهكذا تجد أسماءها في ألسنة أخر، مثلاً في الفارسية تسمى «گِرْدْباد» (الريح المدورة)، وفي الإنكليزية «سائكلون» (الدوارة)، وفي الهندية «بَگُولَا» (دائرة الريح). وكان المصريون يزعمون بإله للريح الشديدة يسمونه «طائفون».

ومن خاصة هذه الريح شدة المطر وفوران الماء من البحر، وقد شاهدنا ذلك من طوفان جاء من مشرق بحر الهند إلى مغربه، وحينئذ كنتُ في مدينة كراچي[1]، فأنزل مطراً شديداً، وقذف السفن على الجبال، وفعل ما فعل.

ويطابق ذلك ما جاء في تصوير طوفان نوح عليه السلام في القرآن والتوراة. قال تعالى في سورة القمر: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ القمر: ١١ - ١٢.

وفي سفر التكوين (٧: ١١): «...في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء».

وفي سورة هود: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هود: ٤٢. ومن ركب البحر علم أن الأمواج كالجبال لا تنشأ إلا بريح شديدة. وفي ذكر الأثر دلالة على المؤثر، وقد صرح القرآن في غير ما آية بها بين نشأة الأمواج والريح من الملازمة كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يونس: ٢٢.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ الآية دلالة على الريح، كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾

(١) مدينة كراتشي الواقعة الآن في باكستان.

الشورى: ٣٢ - ٣٣، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ الروم: ٤٦.

وهذا القدر يبين أن الله تعالى أرسل على قوم نوح ريحاً شديدةً دوارةً معصرةً أنزلت مطراً شديداً، وهيجت الماء من بحور حول أرضهم، وأنشأت الأمواج العظيمة، وأجرت سفينة نوح إلى جبل الجودي، ثم سكنت.

تـنـبـيــه:

في سفر التكوين (٨: ١): «...وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه. وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فأقلع المطر». ويتبادر من ذلك أن الله سكّن الطوفان بريح أخرى لينة، ولكن الأقرب أن المراد به مجرد أمر الرب، كما جاء في سورة هود: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ هود: ٤٤.

وذلك لما في العبرانية من كلمة مشتركة بين الريح والأمر والكلمة، فجاء القرآن بصحيح الخبر، وإنه ربما يأتي بما يُصلح ما أدخلوه في كتاب الله من التحريف والتبديل، كما هو مبسوط في موضعه.

(١٩)

نظرة في ترتيب هذه القصص ونظمها بالمقسم به وبما بعده من ذكر الآيات

قد تبين مما سبق ربط هذه القصص إجمالاً بما أقسم به في أول السورة، وبقي النظر في ترتيبها على سبيل التفصيل. ولما كان قصص القرآن مشتملة على وجوه من العبر والدلائل جاءت على ترتيبات مختلفة حسبما يليق بمواضعها. فهاهنا نكتفي بما يبين نظمها المرعيّ في هذا الموضع.

فاعلم أن قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام واضحة في جمع البشارة

والإنذار، وهكذا أمر الرياح فإنها مبشرات عموماً، وأحياناً تكون منذرة. فجعل قصة إبراهيم عليه السلام تمهيداً لما ذكر بعدها من النذر.

ثم كانت العرب تمرّ كثيراً على قرية لوط، وترى آثار ما أمطر عليهم، فكانوا أقرب إلى ذكرها.

ثم هي مطابقة لما هو مقدم في المقسم به، وهو قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾، فإن الله تعالى أهلكهم بريح ذرت عليهم الرمال والحصباء، وحملت منها وقراً ثقيلاً حتى غطّتهم ومساكنهم.

ثم هذه القصة منظومة في سلك ما تقدم آنفاً من قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾، كما مر في الفصل الحادي عشر، فقدّمها لهذه الوجوه الأربعة.

وأما قصة موسى عليه السلام، فهي أكثر القصص ذكراً في القرآن و أبقى أثراً في الكتاب. ثم هي مطابقة لما هو التالي في المقسَم به، وهو قوله تعالى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾ حسبما سبق من تأويله. ثم صدّر هذه القصة والتي قبلها بأسماء الأنبياء، وكانتا أولى بالتبشير، فضمّها بمثلها.

ثم ذكر ما فيه الإنذار، فذكر قصة عاد وثمود باسميهما. وكان عذابهما من آيات السماء ذات الحبك، كما علمت، فذكرهما بعد الأوليين. وحسب ذلك جاء القسم بالسماء بعد القسم بالرياح. وقدّم عاداً لِتقدُّمها، زمانا ولِكون قصتها جامعةً للريح والسماء، فكانت أولى بها قبلها.

وأما قصة نوح عليه السلام فقد جعلها الله آيةً باقيةً لرحمته على جميع الأمم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝١٢﴾ الحاقة: ١١ - ١٢. وقد علمت في الفصل السابق ما كان فيها من ظهور آيات الأرض والسماء والريح والسحاب والفلك والماء، فكانت جامعة لآيات الله في الأنفس والآفاق.

فكانت مناسبة بما بدأ به السورة من القسم بالريح وبما ختم به الدلائل من جوامع الكلم في آيات الأرض والنفس والسماء، فحسن موقعها بعد ذكر الآيات الخاصة تمثيلاً جامعاً لما قدَّم من الدلائل.

وأيضاً كان قوم عاد وثمود خلائف بعد قوم نوح، فوصل بينهما كما تجد ذلك حيث يذكرهم على ترتيب الزمان. وأشبه الآيات بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ النجم: ٥٠ - ٥٢، واكتفى بمجرد الإلماع إليها لشهرة أمرها وبعد عهدها، واشتراك جميع الأمم فيها، فذكرها إتماماً واستطراداً.

ثم رعايةً للإيجاز المرعي فيما سبق، دلَّ على كونها مستقلةً بقطعها عن نسق ما تقدم بتغير الأسلوب، فلم يقل: «وفي نوح»، كما قال فيما تقدم: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾، ﴿وَفِى عَادٍ﴾، ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾، وكذلك لم يأت بها في نسق حديث ضيف إبراهيم.

(٢٠)

نظم هذه الجملة بما بعدها

لا يخفى أن أهم مطالب الدعوة الأولى ثلاثة أصول: التوحيد، والدينونة، والرسالة. ولِـما بين هذه الثلاثةِ من الاتحاد والاتصال ربما تُذكر معاً، وربما يتخلص من بعضها إلى بعض.

وقد سبق في أوائل الفصل الثامن أن دلائل الدينونة والرسالة متفرعة على التوحيد وراجعة إليه، فعلى هذا بعد ذكر الأدلة على الدينونة أتمّها بالاستدلال على التوحيد، ولكن لم يقطعها، بل وصلها، وتخلص منها إليها، وضمّنها المطلب الثالث، وهو ذكر الرسالة، فقال عز من قائل حكيم خبير:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن

كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

(٢١)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٤٧-٥١)

﴿وَالسَّمَاءَ ...﴾ الآية. عطف على ما سبق من دلائل الوقائع، فإن الدلائل الفطرية شهادة أخرى.

﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة. أَيَّده: قوّاه، كما قال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾﴾ النازعات: ٢٧ - ٢٨. والسماء مظهر القوة العظيمة والحكمة الباهرة، كما فصّل في غير ما آية.

﴿لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي ذو سعة في الاقتدار، فلا نهاية لقدرته، كما هو ظاهر على كل من نظر في السماء وبنائها وسعتها وإحاطتها ورفعتها.

﴿فَرَشْنَاهَا ...﴾ الآية. أي جعلها فرشاً موطأً لنا كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ البقرة: ٢٢، وأيضاً: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾﴾ النبأ: ٦، وأيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الملك: ١٥.

﴿خَلَقْنَا﴾ موقع الآية نبه على أن بناء السماء وفرش الأرض داخل في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا﴾ أي كما أنه بنى السماء، وفرش الأرض، وأخرج من هذين الزوجين منافع لعباده = فكذلك من كل شيء خلق الزوجين، لعلكم تذكرون المعاد، وتعترفون بكونه ربًّا واحداً فوق الخلق كله مدبراً قديراً رحيماً حكيماً. وسيأتيك بيان ذلك في الفصل التالي.

﴿زَوْجَيْنِ﴾ في معنى الزوج وجهان:

الأول: كون أحدهما تماماً للآخر يصلح هذا لذاك حتى يأتيا بنتيجة من بينهما كما قال تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ الأنبياء: ٩٠.

والثاني: كون أحدهما قسماً متقابلاً للآخر كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ طه: ٥٣، ومثله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ ق: ٧.

﴿مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ﴿مِّنْهُ﴾ أي من عنده، وليست صلة للنذير، فإنه لا يقال: أنذره منه، بل أنذره إياه، كما جاء في القرآن كثيراً.

وهذا القول لم يكرَّر لمحض التأكيد، بل لِكلٍّ تأويلٌ على حدته حسب محله. فإنّ محل الأول الترغيب، فتأويله أنه تعالى من رحمته أرسل إليكم نذيراً لينذركم عواقب الغفلة والركون إلى الموبقات، لكي تفرّوا منها إلى ربكم الرحيم التواب.

والثاني محله الترهيب، فتأويله أن الشرك إثم عظيم، ولا عذر لكم، فإنه أرسل إليكم نذيراً مبيناً من عنده.

(٢٢)

الاستدلال بخلق الزوجين من كل شيء على التوحيد وما يلزمه من الإيمان بالرسالة والمعاد

اعلم أن الدليل على الله الواحد واضح على العقول فطرةً، ولذلك ترى أكثر الملل مذعنة به، لما أن هذا الخلق المشهود بعجائبه وعظمه وسعته كله شاهد عليه، ولكنهم ذاهلون عن النظر الصحيح فيه. فمع الإيمان بالله كأنهم لم يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ يوسف: ١٠٦. فالقرآن كثيراً ما يدعو إلى الخالق بوجوه تنفي الشرك، وتستأصل جرثومه، وينبه على ما يلزم التوحيد من الإيمان بالمعاد والرسالة.

وقد أكثر القرآن من هذا النمط إجمالاً وتفصيلاً. وليس هذا موضع البسط فلنكتف هاهنا بقدر الحاجة، فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أن الاستدلال هاهنا بخلق الزوجين من كل شيء على وجهين حسب معنيين للزوج.

أما الوجه الأول: فإن الخلق مع سعته واختلافه في الطبائع شاهد على ربٍّ واحدٍ مدبرٍ قاهرٍ عليه، فإنه لو كان في كل خلقٍ ربٌّ يدبّره لم يكن بين طبائع أفراده تواطؤ على نتيجة ليست عائدة إليها. فإنك ترى أفرادها مسخرة لنفع أبعدها. زعم الملحدون أن كل موجود نشأ وتمّ وترقّى لقوى مستترة فيه، فأبرز أعضاء لما يصلح لشؤونه ويقضي حاجاته. فهذا مع سخافته لا يكشف عن أمر خارج عن نفس الشيء، وهو مناسبته لما هو في غاية البعد عن علمه وحاجاته. فمناسبة زوج لزوج تستدعي خالقاً خارجاً عنهما عالماً بمصالحهما، لكي يجعل أحد الزوجين موافقاً للآخر.

ولا يخفى أن هذا العالم بأسره شيء واحد، وفيه أمور غير تامة تقتضي لتمامها زوجاً يتمّ به، وتتمّ به مصلحة كليهما، وهي الدار الآخرة. فهذا الاستدلال يتضمن أمرين عظيمين:

الأول: إثبات خالق قادر حكيم جعل الخلق بعضه تماماً وزوجاً لآخر، وأصلح هذا لذلك حتى ينتجا منافع لعباده.

والثاني: إثبات معاد ودار أخرى لهذه الدار المشهودة. وهذا الاستدلال مبسوط بعض البسط في تفسير سورة الشمس، فراجعه.

أما الوجه الثاني: فإنكم ترون الخلق مختلف الأنواع يخالف بعضُها بعضاً مع اتحادها في الأصل وما حولها من الأسباب العامة. فهذا يدل على رب مدبر يربي هذه الأنواع كلها على نهجها، فلابد أنه واحد فوق كل ذلك، ويسوسها مع تصادمها

وتشاكسها بحيث لا يتعدى بعضها على بعض، فلا خبط ولا شطط.

وهذا كما يدل على تفرده بالقدرة والتصرف والعلم والحكمة، فكذلك يدل على جعل الكل حسبما يليق له، فلابد أنه لا يجعل المحسن كالمسيء ولا الطائع كالعاصي. وهذا برهان واضح على صحة المعاد. وقد فصل ذلك في مواضع من القرآن، فاكتفينا هاهنا بإيجاز القول.

وهذا الاستدلال بخلق الزوجين بكلا الوجهين كما يدل على خالق واحد مدبر لما خلق، فكذلك يدل على رب رؤوف ودود أحاط الكلَّ علماً ورحمةً. فجميع الخلق من السماء إلى الأرض مسخَّر مقهور تحت قدرته، ومجرى إلى المنافع لعباده.

وإذ أحاطت قدرته ورحمته فهو الملجأ والمستعان وحده، وبيده الخير كله، وبإذنه يقع الضرّ لمن خالف أمره والتمس الخير من غيره، كما صرح به القرآن كثيراً. ومنه قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ فاطر: ٢ - ٣، أي فأنّى تصرفون عنه، وهو الملجأ والمولى، وترون نعمه السابغة ورحمته الواسعة.

ومن كمال رحمته أنه يبعث الرسل ليحذروا الناس عن سيئات أعمال الذين يحيدون عن سبيل الخير ويؤفكون عن المولى الحق، فوظيفة الرسل أن ينذروا الناس ليفرّوا إلى مولاهم؛ ويبيّنُ[1] لهم ما أطلّ عليهم من العقاب.

فمن استكبر عن الإصغاء إلى رسله الناصحين لهم بقول واضح وبرهان مبين، فقد أورد نفسه الهلاك، فلا لوم إلا عليه. وذلك بأنه أبق عن مولاه، ثم لم يسمع

(١) «يبين» معطوف على «يبعث».

لداعيه، وأنكر بما يقع عليه من نتائج أعماله السيئة، فذلك ثلاثة أمور. وهذه الآيات ناظرة إليها وداعية إلى التوحيد بوجه يتضمن الدعوة إلى الرسالة والإيمان بالمعاد، ويبيّن أنهما من لوازم الإيمان بالله الواحد الرحيم القادر الحكيم.

(٢٣)

نظم هذه الجملة في نفسها، وبما سبق وبما لحق

اتضح مما سبق أن حاصل هذه الآيات الدعوة بآيات الفطرة إلى أن الله تعالى هو ربكم الذي آواكم ورزقكم، وقد تبيّن لكم النذر والأمثال ممن عصوه ولم يسمعوا رسله، فإن سلكتم طريق هؤلاء يخاف عليكم بعض ما وقع على تلك الأمم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فصلت: ١٣. وأيضاً تبيّن أنه لا ربّ ولا مجير سواه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ المؤمنون: ٨٨. وقد تبين لكم من كل شيء آثار رحمته وقدرته وإحاطة علمه وحكمته، ففروا إليه، واسمعوا لمن أرسله إليكم داعياً إليه وإلى جميع الخيرات؛ ليغفر لكم، فإنه واسع المغفرة.

وترى مثل هذه الدعوة في رسالة نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ نوح: ١ - ٤.

وهذا من باب جمع الترغيب بالترهيب، وترى رعاية ذلك في قصص القرآن كثيراً، مثلاً قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ الحجر: ٤٩ - ٥١، فهكذا هاهنا أورد قصص الأمم لا لمحض الإنذار، بل لكي يتوبوا إلى الرب الرحيم.

ثم بعد ما فرغ من التنبيه على الدلائل الواضحة من كل باب ومن الدعوة إلى

الرب تعالى الواحد ـ وهو الأصل من المطالب الثلاث ـ عطف إلى تسلية النبي المتضمنة لمطالب مهمة، وهذا كثير في القرآن. وربما تراه في أواخر السورة، كما مرّ ذلك في تفسير السورة السابقة مع بعض الشواهد.

فعلى هذا الأصل ختم السورة بالتسلية على أسلوب جامع لمطالب مهمة كما سيأتيك ذكره. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

(٢٤)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٥٢-٦٠)

﴿كَذَٰلِكَ ...﴾ الآية. دلّ بالاستئناف على الشروع في خطاب آخر، وأشار بذلك إلى ما سبق من إنكار الأمم بالرسل. فكأنه قيل: كما أن هؤلاء المذكورين السابقين كذبوا، فكذلك كل أمة قبل قومك المنكرين كذبوا برسلهم، فلا تحزن عليهم، ولا يضق صدرك من تأخر غلبة الحق، فتستعجل بالفتح.

﴿قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ قد مر فيما سبق من ذكر قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾، فهكذا كان قول كل أمة مكذبة. وقد جاء في القرآن أن كفار العرب قالوا مثل ذلك لنبيهم، فهذا يشير إلى قولهم.

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ الاستفهام للاستنكار، و﴿بَلْ﴾ للإضراب ليذكر ما هو الحقيقة. كأنه قيل: ما أبعد قولهم! فهل تواصوا به؟ فالخلف يتبع السلف

تقليداً، فلا يُعملون عقولهم؟ ثم أضرب عنه فقال: بل ذلك لعتوّهم وطغيانهم.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي أعرض عنهم وأمهلهم. والأمر بذلك لا يكون للإعراض الكلي، بل للإمهال لتسكن شدتهم، وللصفح عن سيّء قولهم تكرماً وتوكيلاً لأمرهم إلى ربهم، كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٦، وكما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ الرعد: ٤٠. وللكف عن الإلحاح الذي هو من شنشنة الأنبياء، كما ترى في أمثال قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ الكهف: ٦، ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ فاطر: ٨.

ولهذه الوجوه يقرن هذا الأمر=

١- بالتهديد للمنكرين.

٢- وبوعد النصر للمؤمنين.

٣- وتسلية النبي بأنه بريء الذمة بعد إتمام الحجة والبلاغ المبين، فلا يلح على المنكرين.

٤- وبأمر النبي بالتوكل والصلاة والرضى بما جعل الله للكفار من المهلة. فإن الله تعالى هو الوكيل، ويعطي الهداية لمن يشاء حسب علمه بأحوال عباده، ولا يعجل بالعذاب بل يمهل لكي يتوب بعضهم: فعلى النبي والمؤمنين أن يصبروا، ويصفحوا، وينتظروا غلبة الحق والفرقان.

وعلى ما ذكرنا شواهد كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ

هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾ المزمل: ١٠ - ١٣، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٩، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ الصافات: ١٧١ - ١٧٩.

وسورة الشعراء كلها تبين طرفاً من هذا التأويل، وهو أن الله تعالى لا يعجل بالأخذ، وأن أكثر المنكرين لا يؤمنون، فعلى النبي أن لا يحزن لتبطؤ الفصل. فذكر فيها قصص الأمم، ورجّع بعد كل قصة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي مع الإعراض عن هؤلاء لا تترك التذكير العام، كما بيّن حكمة ذلك فيما بعد.

﴿ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ هي عامة، ولكن غالب النظر هاهنا إلى التذكير بالمعاد كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ إبراهيم: ٥. وجاء كثيراً بعد دلائل البعث مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ الزمر: ٢١، وق: ٣٧، أو كقوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ ق: ٨.

﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ لكون الوقف على المتين، لا يظهر إعرابه، فلا يكون موضعاً لاختلاف القراءة فيه. وإنما اختلفوا في فهم إعرابه، فمنهم من يظنه جرًّا عل أنه وصف للقوة. فإن القوة في الأصل هي طاقة الحبل، والحبل يوصف بالمتين عموماً فجاء وصفاً للقوة. وإنما لم يؤنث لكونه فعيلاً كما ترى في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ

قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الأعراف: ٥٦.

ومنهم من يظنه رفعاً على أنه وصف لذي القوة، ولكن المتين لا يوجد في صفات الرب تعالى، فلابد أن يكون بتقدير فاعله أي المتين قوته. فلا اختلاف بين الإعرابين من جهة التأويل.

﴿ذَنُوبًا﴾ الذنوب: الدلو الملأى، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة. ومنها للحظ والنصيب قال أبو ذؤيب:

لَعَمْرُكَ والمنايا غالباتٌ لِكلِّ بني أبٍ منها ذَنوبُ[1]

وقال علقمة بن عَبْدة يمدح حارثاً:

وفي كلِّ قومٍ قد خبطتَ بنعمةٍ فحُقَّ لِشأسٍ مِنْ نَداكَ ذَنوبُ[2]

والمراد هاهنا ـ والله أعلم ـ أن لهؤلاء الظالمين حظًّا محدوداً من المدة يتمتعون فيها حتى تملأ هذه المدة من جهة الربّ مما قدر لهم من الرزق والتمتع، ومن جهتهم مما يعملون من سيئات أعمالهم، فيحق عليهم العذاب. وما أحسن كلمة «ذنوب» دلالةً على هذا المعنى!

ويبين هذا التأويل ما بعد ذلك، وعليه شواهد كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ الكهف: ٥٨، أي لهم زمان موقت. فالمراد بالذَّنوب هو الزمان الذي أعطي لهم، فإذا امتلأ بما قدر لهم من التمتع، وعملوا ما هم عاملون فيه

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١: ١٠٤.

(٢) المفضليات: ٣٩٦.

= كان ذلك ذَنوبهم، أي حظّهم من الزمان والمهلة.

(٢٥)

تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

لما كانت هذه الآيات الثلاث مشتملة على مطالب مهمة من بيان غاية خلقنا ولزوم المعاد منها، وبشارة للمؤمنين، وإنذار للمنكرين، كما سنذكرها في هذا الفصل مع أمور آخر؛ وكان نظمها متضمّناً للاستدلال على المعاد، وإزالة شبهة تعترى المنكرين لعدم أخذهم بالفور، وبذلك يتبين اتصالها بما سبق ولحق من الأمر بالإعراض والانتظار = احتجنا إلى بيانها ببعض البسط، فنقول بعون الله وتوفيقه:

اعلم أن سياق هذه الآيات بيان حكمة الإعراض عن هؤلاء المنكرين الطاغين، وإمهالهم لمدة، كما صرح بذلك في مواضع ؛ وقد سبق بعض الشواهد عليه، فموقعها موقع الدليل لما سبق من قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾، إلى قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾.

وتفصيل هذا الاستدلال أن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس لاستخدامهم كما يستخدم السادة خدامهم، ليجعلوا لهم الأرزاق ويكونوا لهم قوة وشوكة، فإنه تعالى هو المتكفل برزق عباده. وبالجملة فإنه تعالى لم يخلقهم ليستخدمهم، ومع ذلك لم يخلقهم عبثاً أو لهواً، فلابد أنه تعالى خلقهم لكي يسعدوا ويتنعموا برحمته. فمن تأمل ذلك تبين له أن سعادته في أن يعبد ربه، لأنه لم يأمرهم إلا بما فيه نفعهم وكمالهم، ولذلك قد خلقوا. وذلك بأن غاية الخلق إكمال وجوده فإن الخيرات مكنونة، فبالخلق تظهر وتخرج من القوة إلى الفعل، فتوجد خيرات أخر، حتى يرتقي الخلق إلى كمال رفعته وسعادته كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ

وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر: ١٠.

وإذ كان ذلك كذلك فلابد من أمرين:

الأول: أنه تعالى لا يستعجل بعذابهم، إذن لأبطل ما بقي في الخلق من الخيرات كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ النحل: ٦١، فلذلك يمهلهم حتى يرجع من كان فيه أدنى استعداد، أو يتمّ عليهم حجة.

والأمر الثاني: أنهم إذا لم ينتهوا عن السيئات وتمت عليهم حجة الرب، فلابد من إهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ الكهف: ٥٩.

وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ جامع لوجهين:

الأول: أنّ هؤلاء ليسوا مثل الخدم لسادتهم ذريعةً لكسب الأرزاق وسبباً للقوة والشوكة حتى إذا خرجوا عن الخدمة دخل الضرر في منافعهم أو الخلل في ملكهم، فإن الله تعالى لا ضعف في ملكه.

والثاني أنه تعالى إذا أمهلهم لمدة فليسوا خارجين عن بطشه فإنه محيط بهم، فإذا شاء أخذهم، فلذلك جعل للمنكرين مهلة ومدة، كما بيّن ذلك فيما وصل من قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا ...﴾ الذاريات: ٥٩.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ الذاريات: ٥٦، إلى قوله: ﴿ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ كما يدل في جانب المنكرين على أمرين: إمهالهم لمدة، وإهلاكهم بعدها كما مرّ آنفاً؛ فهكذا يدل في جانب النبي الكريم على أمرين: على محض الدعوة حسب أمر ربه، وعلى جعل باقي أوقاته مشغولاً بالصلاة والتضرع وذكر الله وحمده

وتسبيحه، فإنّ كليهما عبادة.

ويدل على ذلك نظير هذه الآيات، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ طه: ١٣٢.

ففي كلا الموضعين دلّ على نفي الاستخدام و وجوب العبادة. وقد جاء الأمر بالصلاة والتبتل إلى الرب وتوكيل أمر المنكرين إليه في مواضع كثيرة، فهكذا هاهنا دل على أن كلنا عباد الله، والأمور تجري حسب مشيئته وحكمته.

هذا، ومما ذكرنا اتضح أن هذه الآيات اشتملت على حكم عظيمة، ولنذكرها الآن:

(١) حكمة الخلق وغايته، وهي العبادة لله وحده.

(٢) الفرق بين العبادة والخدمة، وذلك يبين حقيقة الربوبية.

(٣) ضرورة الإمهال من جهة حكمة الخلق ورحمة الرب.

(٤) لزوم الدينونة وغلبة الحق من جهة حكمة الخلق وعدل الرب.

(٥) عدم التمني لفصل الأمر بالفور، بل الرضى بما يجرى الله من الأمور حسب حكمته وعدله ورحمته.

(٦) كون الصلاة وذكر الله رأس العبادات لتضمنها الخضوع والتوكل.

وعمود هذه الآيات المعاد، فإن كون الخلق لغاية يدل على أن العباد يُسألون ويُجزون. ثم ذلك أيضاً يدل على أنهم لا يبقون إلا لمدة حسب مقتضى الحكمة، وهذا يدل على غلبة الحق وأن الباطل إنما هو لوقت. وقد صرح بذلك في مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَارْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي هو أعلى من أن يتلهى بشيء من هذا العالم الأسفل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الأنبياء: ١١ - ٢٠.

فبيّن أنه تعالى إنما أهلك الأمم الظالمة، واستخلف بعدها أمةً أخرى، لأنه لم يخلقهم لهواً، فيتلهى ناظراً إلى ما يفعلون لا يدينهم، ولكنه يريد الحق فيقذفه على الباطل. وكلُّ شيء ما سوى الله باطل، وإنما وجوده من قبل ارتدائه جلباب الحق بعبوديته لله الحق، حتى الملائكة المقربون باقون لدوام عبوديتهم، فإنهم يصلون الليل والنهار، فإنّ بها استحقاق الوجود، فمن تخلى عنها جلب على نفسه الهلاك والعذاب.

وكل ذلك يدل على كبريائه وحكمته وعدله ورحمته. وفي ذلك إنذار شديد للظالمين الطاغين وبشرى للمحسنين.

(٢٦)
نظرة في نظم الآيات الخاتمة
وفيما تضمنت من المطالب المهمة

وقد تبين مما سبق أن هذه الآيات التسع جاءت على وجه التسلية، ولكنها اشتملت من المطالب المهمة على أمور:

(١) على تعليم المداراة والصفح عما يقول الظالمون.

(٢) وعلى تعليم الصبر والانتظار لغلبة الحق.

(٣) وعلى اتصاف الرب تعالى بالحكمة والرحمة والعدل.

(٤) وعلى حكمة الإمهال.

(٥) وعلى تدبيره الأمور حسب الآجال.

(٦) وعلى ذكر غاية الخلق وكماله.

(٧) وعلى بيان حقيقة الربوبية والعبودية.

(٨) وعلى لزوم المعاد.

وجعل نظم هذه المطالب في غاية الاتساق والاعتناق بها رتّبها ترتيباً يستدل ببعضها على بعض، ويستخلص من السابق إلى اللاحق، حتى بلغ الكلام إلى عمود السورة، وهو الإنذار والتخويف، لكي يتوبوا إلى ربهم.

هذا آخر ما تيسّر لنا ذكره من تفسير هذه السورة، والحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله الأمين محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ
لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ
بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ
مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ
مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ
فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ
فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

(١)

نظام السورة وموقع آياتها

هذه السورة آخر السور العشر التي نزلت في تطهير المؤمنين وتزكيتهم كما

وعد الله، وهي خاتمة سور الأحكام الشرعية. وتفصيل هذا البحث في أول سورة الحديد. وهي صنو لسورة الطلاق التي قبلها، فانظر في تأويلها.

وختم هذه العشرة الكاملة بهذه السورة التي تؤكد الاحتساب الشديد على أنفسهم وأهليهم، وختم هذه السورة بما صرّح بأن في دين الله العزيز ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ النجم: ٣٨، و﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ البقرة: ٤٨، ١٢٣ كما أشار في آية: ٧: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾، أي ليس هناك عذر لمعتذر، فإن الجزاء بالعدل والعلم وحسب الأعمال كما جاء كثيراً في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ النجم: ٣٩، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ النمل: ٩٠ ـ وتفصيل ذلك في الفصل السابع ـ فوجبت علينا شدة الاحتساب.

وإنما بدأ الكلام بالنبي، وبأمر يظنونه هيّناً بل من الحسنات، فكم من الناس حرّموا على أنفسهم طيباتٍ أُحِلّت لهم ظنًّا بأنهم يحسنون، ويُرضون به ربهم، فكشف لنا عن حقيقة هذا الدين القيم الفطري. وهذا هو النور الكامل الموعود في كلام عيسى عليه السلام حسب رواية إنجيل يوحنا، ولذلك ترى ذكر النور في مثل هذا المقام، وبسط الكلام في تفسير سورة النور والحديد. ثم ضم بذلك ما كان فيما بين النبي وأهل بيته لتعلم أن المداهنة لو جازت في الدين لجاز بالرسول وأهل بيته (١-٥).

فبعد هذا التمهيد خاطب المؤمنين كافةً بالتحذير الشديد لأنفسهم وأهليهم أسوةً بالنبي (٦-٧). ثم سلّاهم بأن الله يحذركم ليكفر عنكم سيئاتكم، ويجمعكم بنبيّكم، فعليكم أن تشمروا له. وبشّر بأن الله قد قضى أن يكرم نبيه يوم القيامة بكرامة أهل بيته المطهرة وأصحابه الكرام البررة. ولقد وجدت العرب في قلوبهم أن إهانة مولى المرء مثل إهانته، كما قال طرفة صاحب المعلقة:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذلّ مولى المرء فهو ذليل[١]

فلما أراد الله أن يكرم النبي أكد في تطهير أصحابه، كما وعد في وصف النبي مراراً: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ آل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢.

وكان أكبر من ذلك تطهير أهل بيته، فشدّد عليهم. ولو عاملهم بالمداهنة يوشك أن يُفرَّقوا عن النبي. فأفضَلَ الله على النبي بأن بشّره بنفي الخزيان عنه وعن خاصته وبطانته. وبهذه البشارة علّمهم بأنه تعالى لم يرد من التشدد عليهم حرجاً، بل تطهيرَهم وإتمامَ نعمته عليهم، فقال في أصحابه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ المائدة: ٦. وكذلك أخبر في أهل بيته، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ الأحزاب: ٣٣، فسكن قلوبهم.

وهكذا في هذه السورة بشر النبيّ بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ التحريم: ٨، وذلك بعد أن أمرهم بالتشدد في الاحتساب، ووعدهم المغفرة [الآية: ٦].

ثم وسع ذمة النبي باحتساب المؤمنين ومجاهدة الكفار والمنافقين، وأمره بالغلظة عليهم قبل لقائهم بملائكة غلاظ شداد [الآية: ٩].

ثم ضرب أربعة أمثال على أصل المسألة، وهي استقلال الإنسان بذمته لكي يشمر في الدين ويقطع الرجاء عن الأماني الباطلة. وأزاح عذر الغافلين المغترين بآبائهم الكرام كالعرب واليهود. وبقية الكلام في الفصل السابع.

---

(١) ديوان طرفة: ٨٤.

(٢)
بيان كون الاحتساب من سنة الله

التشديد ليس من خصائص هذه البعثة، ولكنها كشفت عنه كل الكشف، وعلّمنا القرآن أنه من سنة الله وحكمته وعدله. فإنا نتلو في القرآن عتاب الله على آدم ونوح و داود وعيسى ومحمد عليهم الصلوات كما نتلو مجادلتهم وشكواهم في قصة إبراهيم وأيوب ويونس وموسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. وتعالى الله أن يجترئ عليه العبد الخاضع، ولكني أردت أن تفهم حسن موقع التشديد، فإنه من كمال عناية المولى بتربية عبده، وهذا هو أصل نقمات الله، فقد قال: ﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ الأعراف: ٩٤. وبسط الكلام في سورة عبس والأعراف. نعم يجادل العبد مولاه ويشكو إليه توكلاً عليه ورجاءً منه.

(٣)
عمود السورة هو الاحتساب والتشمير له

فلا يخفى أن عمود السورة استقلالُ الإنسان بأمانته، والتوبةُ النصوحُ، والذمةُ الدينيةُ، وحسمُ أدواء الضلالة؛ ليتطهر من كان له أهلاً، كما قال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال: ٤٢. فبيّن أن على أفراد المؤمنين ذمةً لأنفسهم وأهليهم، فحذّرهم عن المداهنة، وخوّفهم بأن ملائكة العذاب ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ التحريم: ٦ ، فليس لكم إلا أن تتوبوا إلى الله خالصين، ناصحي الجيب له، غير خائفين فيه لومة لائم؛ لكيلا تخزوا يوم القيامة، ولتُغفَروا، وتُعطَوا نوراً كاملاً.

وكما أوجب هذا النصحَ والتشميرَ على المؤمنين بأنفسهم وأهليهم، فكذلك أمر النبيَّ بمجاهدة الكفّار والمنافقين، والغلظة عليهم، لعلهم يتوبون في الدنيا وإلا

فمأواهم جهنم. ولا يغنيهم قرابة الأنبياء، ولا إيمانهم مع الارتياب، كما بيّن في سورة الحديد، وهي أول هذه العشرة من سور التطهير. فأوجب الغلظة والتخاشن في أمر الدين كما قال يحيى بن زكريا عليهما السلام في صفة هذا النبي: «الذي رَفْشُه بيده، وسُينقّي بَيْدَرَه، ويجمع قمحَه إلى المخزن. وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ» (متى ٣: ١٢)، وكما تجد الخبر عنه في مكاشفات يحيى أن ذلك النبي «يرعاهم بعصاً من حديد». وتفصيله في تفسير سورة الفيل.

ولكي تعلم أن الغلظة من واجبات الدين والسياسة الروحانية، انظر سيرة عيسى عليه السلام وموسى عليه السلام وأبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه كما ذكرناها في كتابنا «ملكوت الله»[1]. وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ القلم: ٩.

وهذا الاحتساب من مهمات الدين، فإن الله تعالى مع سعة رحمته غني عن العالمين، ويجري أمره على العدل الكامل. ولا يخفى على البصير أن التخاشن ليس من الفظاظة وقساوة القلب، بل هو عين الرحمة. ألا ترى كيف نفى الله عن النبي خلّة الفظاظة حيث قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ آل عمران: ١٥٩. وبعض البيان تحت قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ التحريم: ٩ في (١٤).

(٤)

في أن دين الفطرة هو الاعتدال بين الفسق والرهبانية

الأمر الثاني في الاحتساب هو شدة التزام الاستقامة على الاعتدال، فإن كثيراً من الأمم غفلوا عنه. وقد بيّنه الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن، كما قال تعالى:

---

(١) اسمه: «في ملكوت الله»، وقد طبع سنة ١٣٩١هـ عن مسودته الناقصة، ولم نجد فيه هذا المبحث.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ المائدة: ٨٧ – ٨٨ فسمّى تحريم الطيبات اعتداء. وكذلك بين لنا النبي الكريم ﷺ أن دين الفطرة والصراط المستقيم هو الاعتدال.

وقد وضع السورة بحيث أن تكشف لك الاعتناء الشديد به. فبدأ الكلام بما يردّك عن جانب الرهبانية، لتعلم أن تحريم الحلال وإحلال الحرام سواء، وكلاهما الاعتداء والزيغ، بيد أن الفسق من الشهوة والتمرد، والرهبانية من الجهل. والدين أبعد شيء عن الجهل، فإنه يؤدي إلى الشرك. والرهبة المحمودة تنشأ من العلم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر: ٢٨، أي الخشية المحمودة. وبيانه في أول «الم ذلك الكتاب»[١].

وقد عرّفنا الله تعالى أهلَ النار، فقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٩. وقد جاءت هذه الآية في ذكر المشركين، فعلمت أن الغفلة والجهل داعية الشرك. وقد مدح الله المؤمنين كثيراً بالعقل والعلم والحكمة، وكذلك النبي ﷺ. والحكمة والعلم يهديك إلى سواء الصراط، ويحميك عن جانبي الفسوق والرهبانية. فكلاهما سبيل جائر.

وقد جاء في القرآن آيات أخر للتحذير عن الرهبانية، فقال تعالى لنبيه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ الأعراف: ٣٢، وقال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ الحديد: ٢٧.

---

(١) انظر. تفسير سورة البقرة.

(٥)

الفرق بين الفسق والرهبانية

بعد ما علمت أن الاعتدال هو كمال الدين، وأن الفسوق كالرهبانية، لك أن تعلم الفرق بينهما. فاعلم أن الفسوق أكبر شناعة ويخالف العبودية أصلاً، وهو التمرد والتشيطن، وممقوت من بدء أمره. وأما الرهبانية فهي قد تكون وسيلة للتربية، كما أن الطبيب يُداوِي السقيم بالاحتماء، ولذلك يرخص بها في حالات خاصة. والرجل الصالح ربما يجد في نفسه مرضاً فيحتمي، وإنما الجهل أن يراها حسنة ومرضاة للرب فذلك تشويه خلقته، وتعويج فطرة الله التي فطر الناس عليها. وعند ذلك تورث أمراضاً خبيثةً، ويجب المنع الشديد عنها.

والصالحون من عباد الله والأنبياء ربما يوهمك حالهم أنهم يظنونها أحسن وأكمل من خصائل الفطرة، والأمر ليس كذلك، بل يفعلون ذلك لكي يزيلوا مرضاً عن أنفسهم أو يسنّوا سنّةً لأمة مريضة، فيصلحوا الحال صحيح ويقربوا إلى الفطرة، كما ترى في سيرة يحيى عليه السلام وعيسى عليه السلام في بعض الأمور. فإنهما جاءا لتسوية طريق الفطرة، وتمهيداً للبعثة الخاتمة. وقد نفي عنه تشريع الرهبانية كما مر في آخر (٤). فكل ما ترى من رغبة النبي إلى بعض ما يشبه بالرهبانية فما كان إلا من جهة التقوى مع الوثوق بكون الطيبات حلالاً، وإنما خفي عليه بعض صفات الشيء وظنّ فيه ضرراً، فلذلك كشف الله عليه حقيقة الأمر الملتبس، وفرض عليه تحلّة العهد الذي عاهد به، كما ستعلم.

(٦)
في أن نزول القرآن حسب أحسن المواقع

قد بيّنا في كتاب «شأن النزول»[١] أن القرآن يراعي أحسن المواقع للكلام، لكي يتقبله القلوب الصالحة وتنتفع به، كفعل الوابل بعد الجدب، والشبع بعد السغب، والفكاهة بعد العتب، حسب جريان سنة الله في ملكه من الفيضان على الاستعداد، فترى الفرج بعد الحرج، واليسر بعد العسر. فهكذا لم تنزل هذه سورة الاحتساب إلا حين جاء قدر الله بحال يصلح له.

وقد بيّنا أيضاً في ذلك الكتاب أن الروايات اختلفت وتلونت «كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغُولُ»[٢]، لما توهموا قياسات السلف في مصداق الآيات أخباراً منهم. ثم دخلت فيه دساسات الملحدين، فباضت، و أفرخت. وليس هذا موضع تفصيل البحث عنه، فقد فرغنا منه.

فذكروا في شأن نزول آيات هذه السورة ما يلقي الغطاء على معنى الكلام، ويخلط بالنور الظلام. فوجب علينا أن نكشف هذه الغمة، والله الهادي إلى سبل الحكمة.

---

(١) وصلت إلينا مسودة ناقصة منه، وسيصدر قريباً.

(٢) من قصيدة بانت سعاد، وصدره:

فما تدوم على حال تكون بها

انظر: شرح ديوان كعب بن زهير: ٨.

(٧)

في شأن نزول السورة حسب الكليات

فاعلم ـ هداك الله وإياي ـ أن الناس كما أنهم وقعوا في الشرك من جهلهم، فكذلك زعموا أنّ للقرابة محلًّا عند الله تعالى. وكان ذلك من أسوأ حماقات الناس، وهلكت به أمم لا سيما اليهود، لغرورهم بآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وكونهم من أمة فضَّلهم الله بالنبوة والنصر والملك. وهذا مع الحماقة دناءة للعبد وكفر بنعمة ربه. فإن علو همته لا يرضى له أن يكون بئس الخلف، وحساسة الشكر تردعه عن الافتخار بنعم منحه الله تعالى فضلاً من غير استحقاق. والافتخار بالنسب والأصل خاصة الشيطان، وبها هلك ويهلك أتباعه.

فاقتضت رحمة الله تعالى أن يبلو اليهود بالعقوبات المذلة المهينة، لعلهم يذَّكرون ويطَّهرون. فأسروا وقتلوا، ولم تزل الدوائر تدور عليهم، ووبختهم أنبياؤهم كثيراً، ولكنهم لم ينتفعوا به إلا قليلاً.

ونكتفي هاهنا بما جاء في أول ذكر تعليم يحيى عليه السلام قال لهم: «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أباً، لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر»[1].

وقد أخبر القرآن كثيراً باستقلال الإنسان بنفسه في حمل أمانته، كما قال في سورة لقمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ

(١) إنجيل متى ٣: ٧-١١.

﴿٣٣﴾ لقمان: ٣٣.

وأشار إلى هذا الأصل في قصص ابن نوح وامرأة لوط، وابن آزر وامرأة فرعون. فتبين لذوي البصيرة أن يوم الجزاء لا تغني عن المرء أواصره.

فهاهنا أراد الله أن يصرح بهذا الأصل كل الصراحة، ويبين للمنافقين والكفار من العرب واليهود، وهما أولاد إبراهيم، أن لا رجاء لكم إلا أن تعملوا الصالحات. وهكذا أراد أن ينبه المؤمنين لما يلزم هذا الأصل من شدة النصح لأهليهم والغلظة عليهم في الاحتساب. وهكذا أراد أن يحذرنا عن الإفراط في الاحتساب، لكيلا نحرم الطيبات ونشوه فطرتنا.

فهذه الأمور الثلاثة شعب لأصل واحد. فانتظر الوحي واقعة مناسبة لهذا التعليم الكامل أصلاً وفرعاً حتى جاءت المقادير بأمر هين حسب الظاهر، ولكن الله تعالى جعله سبباً لجلب القلوب إلى معرفة حقائق عظيمة، كما قالت العرب:

تهيج كبيراتِ الأمور صغارُها[1]

ألا ترى كيف أخذ الله أمر الأعمى، فنبه النبي ﷺ على أمر عظيم؟ أو كيف عاتب موسى وهارون عليهما السلام على نسيان ذكر الله حين ضرب الحجر للماء؟ (انظر العدد ٢: ١١- ١٢و٢٣-٢٤)، أو كيف عاتب سليمان عليه السلام على أدنى غفلة؟ ولا يأخذ العامة بأكبر الكبائر.

وفي ذلك حكم جمة وبصائر لذوي الحجى. وبسط الكلام في هذا البحث

---

(١) لعله يشير إلى قول شبيب بن البرصاء ـ وينسب إلى غيره ـ من كلمة في الحماسة (١: ٥٦١):

وإنّي لترّاك الضغينة قد بدا ... ثراها من المولى فلا أستثيرها

مخافة أن تجنـي علـيّ وإنما ... يهيج كبيرات الأمور صغيرها

تحت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ فاطر: ٤٥، وتحت قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ عبس: ١.

والمقصود هاهنا أن تعلم أن الوحي ينتظر الموقع المناسب، دقّ أوجلّ، لكيلا يذهب القول منسيًّا، ولكي يصغى إليه كل الإصغاء. فإذا جاء الموقع المنتظر لم يكتف بذكر ما يتعلق لمحض الواقعة، بل عمد إلى أصل الأمر وفرعه، ووصل بحسن النظام أموراً متباعدةً حسب الظاهر. ولذلك وجب التدبر في كتاب الله.

(٨)

شأن نزول الآيتين (١-٢) حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي ست

من ضعف النساء وشدة إحساسهن أنهن ربما يكرهن بعض الأطعمة. فقد عافت بعض أمهات المؤمنين عن بعض الطيبات، ولا بأس أن يكون عسلاً كما روي، وبعض أقسام العسل كريه الرائحة ومر الطعم. وكان النبي ﷺ يحب العسل، ولكن إذ علم من بعض أزواجه الكراهة تركه، لما كان على أقصى غاية الإيثار. ثم كان أشد الناس رأفة بالضعفاء لا سيما الأيتام والنساء، كما مر بيانه في أول سورة النساء. ولما أنه كان يحب الطيب ويكره النتن طبعاً، ولكونها من دلالات الحلال والحرام في دين الفطرة، فكفّ عن ذلك الطعام ابتغاء لمرضاة زوجه المطهرة ووجوه أخر كما ذكرناها. وعلم بذلك أصحابه فكفّوا عنه أسوة بالنبي ﷺ. ففرض على جميعهم تحلّة أيمانهم التي كانت عهدهم بتركه، وجلّى شبهة نقض اليمين: بأن «الله مولاكم»، فليس عليكم ذمة إلا منه، وهو يأمركم بالتحلة؛ وأنه لا يأمركم بالسوء والضرر، فهو «العليم الحكيم».

وأدمج الله تعالى في هذا البيان فوائد:

(١) منها أن ابتغاء مرضاة الأزواج من السير المحمودة حتى يجرّ إلى ضرر ديني، كما ترى في سورة لقمان أن الله تعالى وصّى بالإحسان إلى الأبوين، ومع ذلك منع الطاعة في المعصية. فهكذا هاهنا لم ينهنا إلا عما جرّ إلى ضرر.

(٢) ومنها أن تحلة اليمين واجبة إن كانت خلاف دين الله. لأن العهد لا يكون إلا بتراضي الطرفين، فلا نذر في المعصية[١] كما صرح به النبي ﷺ.

(٣) ومنها ما ذكرنا من إبطال الرهبانية في الفصل الأول والرابع.

(٤) ومنها أنا علمنا عناية الرب بهذه الأمة، وإكمال دينه بهذه البعثة، فلا يترك أهون شيء حسب الظاهر، لتعلم أن ما هو هيّن في عيوننا فهو بحسب نتائجه عظيم.

(٥) ومنها أن أحكام الشريعة مبنية على العلم والحكمة.

(٦) ومنها أن التحليل والتحريم لا يكون إلا من الله تعالى. وشنع البدعة فيه، كما صرح به حيث قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ النحل: ١١٦.

ولم يحرم النبي ﷺ، ولكن عمل النبي ﷺ والصحابة أسوة للخلائف، ولذلك كف النبي ﷺ عن صلاة التهجد بالجماعة. وبسط القول تحت قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التوبة: ٣١، وفي سورة الأنعام. فهناك تعلم أن البدعة شعبة من الشرك والكفر.

فهذه معالي الأمور. أما التفحص لخصوصية الشيء الذي تركه النبي ﷺ فليس إلا من السفاسف التي لا ينبغي التعرض لها. وقد ترك الله ذكرها فما لنا ولها!

---

(١) أخرجه النسائي (٣٨٤٨).

فهذا هو شأن النزول للآيتين الأوليين. وأما ما بعدهما فواقعة أخرى. والآن نذكر شأنها.

(٩)
شأن نزول الآيات (٣-٥) حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي سبع

فاعلم أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ التحريم: ٣-٥ على طريق ذكر أمر مماثل، كما يجيء كثيراً بعد كلمة «إذ». فبعد ما ذكر من خلقه العظيم ابتغاء مرضاة أزواجه، ذكر جعل النبي ﷺ إياهن مواضعَ سرّه.

١- وهذا من أعظم فرائض المحبة بين المرء وأهله. فمن أغلق باب أسراره دون زوجه فقد حطّ منزلتها، ولم يرد من هذا الامتزاج الفطري إلا ما كان بين العجماوات.

٢- ثم تحت ذلك بيّن الله تعالى ما يجب عليهن من المحافظة على السرّ، كما صرح به بقوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ النساء: ٣٤. وانظر كيف رفع منزلة حفظ الغيب بما ذكر أنه من صفاته تعالى. ومنه اسمه الستّار.

٣- وأيضاً علّمنا الرفق في الملام، لا سيما بأزواجنا، لما ذكر إعراضه عن بعض الخبر لكيلا يشقّ عليها ويوحشها.

٤- وإذ إن المحبة بين الضّرّتين من أحسن خلق النساء، علّمنا أنه كان بين أزواج النبي أنس ونصح، لا سيما بين أمي المؤمنين حفصة وعائشة - كرّمهما الله - لكمال عقلهما وطهارة خِيمهما. والحبُّ لا يدع السرّ مكتوماً، فباحت به إحداهما إلى الأخرى. فوبّخهما الله تعالى على هذه الزلّة، ولعمرك هي أحسن من أكثر الحسنات منشأ.

ألا ترى استغفار نوح عليه السلام لابنه، وإبراهيم عليه السلام لأبيه كان من الزلة، ولكنه من الرأفة المحمودة. فهذا مما يشبه للرهبانية، لما نشأت عن خلق حسن.

فكما أمر الله تعالى بتحلّة ما تُرِكَ تشدداً، كذلك أمر بتحريم ما أُحِلَّ مسامحةً. وبذلك علمنا محل هذا الدين في حاقِّ العدل بجمع اللين والشدة و وضعهما مواضعهما.

(٥) ثم ذكر إنابتهما كما سنبينها في فصل على حدة تحت قوله تعالى: ﴿صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ التحريم: ٤. وما أحسن الرجوع بعد الحمية وطعم مرارة التبرم بالحبيب، وهي التوبة الصادقة. وتفصيل هذا تحت آيات: (١٣٢-١٣٥) من آل عمران حيث مدح الله التائبين، وهناك تعلم رفيع منزلة التوبة.

ثم من فرائض الزوجين المؤانسة. وقد اتفقت الروايات فيما يعاضد هذه الإشارة التي تلوح لنا من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ﴾ التحريم: ٤. فإن المعلوم من خلق النبي ﷺ أنه كان يشارك أزواجه في أعمال البيت، كما أنه كان يشارك أصحابه في حفر الأرض وصنع الآجر ومثل ذلك.

فلما أظهر النبي ﷺ بعض السخط على إفشاء السر بينهما، وقلل الاستئناس بهما، كبُر ذلك عليهما، وهيّج فيهما الحمية والغيرة. وهذه قلّما تفارق أهل الشرف والعزة، مع أنها في بعض الأحيان خطأ. فأعرضتا عن النبي ﷺ بعض الإعراض، كما يقع بين المرء وزوجه، وحسبتا أنه ليس في شيء من الدين.

ولعلك تعلم ما كان لشرفاء العرب من الإباء والاستقلال، فكانوا أبعد الناس خضوعاً حتى صارت هذه الشيمة كالفطرة لهم. ومنها نبعت أكثر محاسنهم.

فوعظهما الله، وأوضح لهما أن ولاية النبي بكما ومصيره إليكما (فإن المولى هو الذي يصار إليه) ليس إلا رأفة منه بكما. فإنّ له شغلاً شاغلاً وحبلاً جاذباً إلى الله

وروح القدس و صلحاء المؤمنين، ثم هو محفوف بالملائكة، فلن يعدم الاستئناس.

(٦) وبيَّن لهما أن الإعراض عن النبي في المعروف إعراض عن أمر الله، ولابد لكم من التوبة إلى الله.

(٧) ثم بالآية (٥) رفع الحجاب وكشف الغطاء عما كان بهما من ظن الكرم الديني والتقوى. فبيّن لهما أن الله اصطفى لنبيه أهل بيته وطهّرهن بالأخلاق الحسنة بفضله وحكمته، كما قال: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ النور: ٢٦، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ الأحزاب: ٣٣. فليس لهن أن يفتخرن بحسناتهن، فإن ذلك النور من قرب النبي ﷺ. فلو فارق الله بكن عن النبي واصطفى له أزواجا أخر عسى أن يجعلهن خيراً منكن في الأخلاق المطهرة، ليعلمن ينبوع هذا الفخر الديني، فيخشعن، وتلين قلوبهن، وقد لانت من قبل. فإن الحمية كانت من الحياء والغيرة والمحبة كما يكون بين الزوجين. فإن هناك الاستغناء ظاهراً، وباطنه التحنان، وهكذا كان الأمر، كما بينا في الفصل الثاني عشر.

وكان ربط القصة باثنتين من الأزواج، ولكن الله تعالى في هذه الآية الزاجرة جاء بصيغة الجمع إنباءً بعموم الأمر، وتخفيفاً لوقع التوبيخ.

فحصل لنا من هذه الواقعة أيضاً فوائد جمة بها صلاح البيت من حسن السلوك بالأزواج مع الاحتساب، ليكون لنا طريق معتدل في تدبير المنزل، وهو أساس التمدن؛ فإن فساد البيت والمساءة بين المرء وزوجه يجر إلى فساد الملك وهدم الصلاح. ومن هاهنا أهمية هذا الطرف من الشرائع.

والآن نذكر شأن نزول السورة من هذه الجهة، والله الهادي إلى الرشاد.

(١٠)

أمر كلي في شأن نزول الآيات (١-٥) وكونه من المهمات

من المعلوم عندنا معشر المسلمين أن الإسلام جاء بين شدة اليهود ولين النصرانية، فهذا الأصل الكلي يهديك إلى فهم درجة الاعتدال في أكثر جزئيات شريعتنا. وهاهنا نقتصر على ما يتعلق بهذه القصة.

فاعلم أن شريعة اليهود وسائر أحكامها كانت ثقيلة على النساء ومخففة لكفَّتها في ميزان المعاشرة. وسنة النصارى وقعت على أقصى طرف اللينة، كما بينا في كتابنا «الناسخ والمنسوخ»[١]. وربما تكون نتيجة طرفي السبيل واحدة، فقد جعل الله الصلاح في الاعتدال والقصد.

وأما العرب فكان أمرهم التنازع في هذه الحقوق، فكانت الرجال والنساء تأخذ كل فرقة منهما بأكثر ما استطاع. ولما أن العرب كانت تحسب اضطهاد الضعفاء خلاف الكرم والحمية التي سيطت من دمهم فكان ذلك جبراً لضعف النساء. فاضطربوا حالاً، وكانت الغلبة بينهم سجالاً، كما لا يخفي على الممارس بتاريخ أيام الجاهلية. قال امرؤ القيس فيهن:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مغلَّبِ[٢]

فسمى النساء مغلَّبةً، وفي هذا إشارة إلى نزاع وخصام.

وهكذا كان حال قريش في مكة، فإنهم كانوا على أحسن سجايا العرب، وكانت منزلة النساء عندهم بين بين مع اضطرابها كما ذكرنا. فلما تلبثوا في يثرب،

---

(١) منه مسودة ناقصة عند الدائرة الحميدية.

(٢) ديوانه: ٤٤.

وفيهم النصارى واليهود، ودخل في الإسلام كثير من المتنصرين، وخالطت نساؤهم نساء المسلمين = تقلب الأمر، كما روى ابن عباس عن عمر بن الخطاب في هذه القصة أنه قال:

«كنا معشر قريش تملك رجالنا نساءنا، فقدمنا المدينة، فوجدنا نساءهم تملك رجالهم. فاختلطت نساؤنا بنسائهم فذئرن على أزواجهن»[(١)].

فوجب الآن أن يبين الله تعالى مالهن وعليهن. فجاء قدر الله بحال يصلح لتعليم هذا الطرف المهم من شرائع تدبير المنزل. فنزلت سورة النساء بأكثر سننها مما يتعلق بالمواريث والنكاح والقول الفيصل في درجة النساء. ولذلك بعض ما يتعلق بهن نزل في سورة البقرة. فأعطى النساء حقوقا مستقلة ليتمسكن بها عند الاختلاف، ويقضى بها لهن وعليهن، ولا يبقى الهضم ولا الخصام. وهذه هي العمدة والمصلحة الكبرى لوضع تفاصيل الشرائع.

وقد هلك النصارى لإجمال شريعتهم، فضلّوا ضلالاً بعيداً. لأن إجمال الشرع إنما يصلح عند صلاح الحال. فأما إذا فسدت الأخلاق فلابد من التفصيل في شريعة باقية على اختلاف الأحوال.

ثم سورة النور في الوسط وسورتا النساء والأحزاب على الجانبين.

ثم في هذه السورة التي قدر الله نزولها لواقعة خاصة بيّن لنا ما يجب علينا من الذمة في أهلينا، وجَمَعَ شدةَ الاحتساب مع حسن السلوك بهن، كما مر بعض القول

(١) الحديث في صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، ولفظه: «وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار». انظر فتح الباري ٩: ٢٧٨.

عليه في الفصول السابقة.

فلم يترك لنا طريقاً ملتبساً في أمر النساء، كما ترى في النصارى لا يدرون هل هم قوامون على النساء أم هن حاكمات على الرجال؟ وبسط القول في سورة النساء تحت قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ النساء: ٣٤ - ٣٥.

وإذ هذه السورة مع التي قبلها آخر سور الأحكام، وسورة البقرة أولها، ثم سورة النور في الوسط، وسورتا النساء والأحزاب على الجانبين = تبين لنا كيف كان اعتناء القرآن بحقوق النساء وصلاح أمرهن. وذلك من خصائص هذا الدين الكامل المتم.

والأمر العظيم الذي صرح به في سورة النساء وهذه السورة وغيرها من القرآن هو أن مدار الشرائع على أنّا أبعاض نفس واحدة، فإن أصلحنا أمرنا صرنا كما كنا نفساً واحدةً. فحكومة الرجال على النساء ليست من الاضطهاد، بل خدمة بعض لبعض كأعضاء شخص واحد. وبسط الكلام تحت قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ النساء: ١.

وإذ قد فرغنا عن التفصيل في تفسير سورة النساء كفاك هذا القدر هاهنا.

(١١)
في إيضاح معنى قوله تعالى: ﴿صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ من جهة اللغة

في جميع الألسنة، ولا سيما في لغة العرب، ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كلي، والذهول عن هذه الخصوصيات مبعد عن فهم اللسان. مثلاً «الميل» معنى كلي، ثم تحته: الزيغ، والجور، والارعواء، والحيادة، والتنحي، والانحراف كلها للميل عن الشيء. والفيء، والتوبة، والالتفات، والصغو كلها للميل إلى الشيء. فمن خبط

بينهما ضلّ وأضلّ.

فلا يخفي على العالم بلسان العرب أن قوله تعالى: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التحريم: ٤ معناه: أنابت قلوبكما، ومالت إلى الله ورسوله. فإن الصغو هو الميل إلى الشيء، لا عن الشيء.

منه صاغية الرجل: لأتباعه، وصَغْوه معك: أي ميله.

وأصغيت إلى فلان: أي ملت بسمعك نحوه. ومنه الحديث: «ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا»[١] أي أمال صفحة عنقه إليه[٢].

وقالوا: الصبي أعلم بمُصغَى خدِّه: أي هو أعلم إلى من يلجأ أو حيث ينفعه. ومنه صغت الشمس والنجوم: أي مالت إلى الأرض.

وفي حديث الهرة: «كان يصغي لها الإناءَ»[٣] أي يُميله ليسهل عليها الشرب.

ومن ذلك [الصِّغْو][٤] لجوف الإناء لما يجتمع فيه المشروب.

أنشد ابن برِّي شاهداً على الإصغاء بالسمع لشاعر:

ترى السفيهَ به عن كلِّ مكرمة ... زيغٌ و فيه إلى التسفيه إصغاءُ[٥]

---

(١) من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الفتن (ذكر الدجال) وانظر المسند ٢: ١٦٦.

(٢) لسان العرب (صغو).

(٣) الحديث بهذا اللفظ وشرحه في النهاية ٣: ٣٣ (تحقيق الزاوي والطناحي، الحلبي ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) وأخرجه مالك وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه كلهم في الطهارة، واللفظ عندهم «فأصغى لها الإناء».

(٤) تكملة من اللسان.

(٥) لسان العرب (صغو) وفيه «التشبيه» بدل «التسفيه»، و«فِيَّ» بدل «فيه». والمؤلف رحمه الله أخذه من لسان العرب، فصححه كما صحح مصحح الطبعة الحديثة، انظر حاشيته.

وقال ذو الرمة يصف الناقة:

تُصغي إذا شدَّها بالكُورِ جانحةً حتى إذا ما استوَى في غَرْزِها تَثِبُ[1]

وقال الأعشى في صغو العين يصف ناقة:

ترى عينها صغواءَ في جنب مُؤْقِها تـراقِبُ كفّي والقطيعَ المحرَّما[2]

وقال النَّمِر بن تَوْلَب في إصغاء الإناء بمعنى الإفراغ:

وإنّ ابنَ أختِ القوم مُصغىً إناؤه إذا لم يزاحِمْ خالَه بأبٍ جَلْدِ[3]

نقلت كل ذلك عن «لسان العرب» مع بعض التصريح لرفع شبهة أو توهم. وفي هذا كفاية لمن حبب إليه الحق، فلا يصغي إلى ما دسته الوضاعون في الآثار وحرفوا المعنى بعد ما أعجزهم الله عن تحريف كلماته. وقد همّوا به، فقد ذكر أبو السعود رحمه الله في تفسيره أنه قرئ: «زاغت»[4] أي قرأه من لا يعبأ به[5]. فهل ترى كيف سعيهم في أن يبدلوا معنى «صغا» إلى «زاغ»! ولكن الله تعالى يمكث الحق ويذهب بالباطل.

(١٢)

في إيضاح أسلوب الآية: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التحريم: ٤

بعد ما علمت معنى كلمة ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ نُوجِّهك إلى أسلوب هـذه الآيـة

---

(١) ديوانه ذي الرمة ١: ١٣٦.

(٢) ديوان الأعشى: ٤٨.

(٣) لسان العرب (صغو).

(٤) تفسير أبي السعود ٥: ٣٥١.

(٥) بل نقلت عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر تفسير الطبري ٢٣: ٩٣.

ليكشف لك ربط أجزائها.

فاعلم أن العرب عادتهم حذف ما يستغنى عنه، لولوعهم بتهذيب كلامهم عن الفضول. وهذا باب عظيم من البلاغة. فنقتصر هاهنا على ما يكون بين «إن» الشرط و«قد» التحقيق.

ونورد أولاً الأمثلة ليظهر لك ما نشير إليه من المحذوف. قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الأنفال: ١٩. وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فاطر: ٤. وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ التوبة: ٤٠. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ الأنفال: ٣٨. وقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الأنعام: ٨٩.

وأما في كلام العرب فقال مرداس بن حصين، وهو جاهلي:

فإن نُرزأهُمُ فلقد تَركنا ... كِفاءَهُمُ لدى الدُّبُرِ المُضاعِ[1]

فإن تأملت في هذه الأمثلة علمت أن الجملة بعد «قد» تذكر أمراً يسهل به ما ذُكر بعد «إن»، كأنّ تقدير الكلام أنه إن يكن كذا وكذا، فلا بأس أو لا إشكال أو الأمر هين، فإنه قد وقع كذا وكذا.

فالتأويل الواضح للآية أنه إن تتوبا إلى الله بابتغاء مرضاة النبي، كما هو يبتغي مرضاتكم، فهذا هو المرجوّ منكم، فإن قلوبكما راغبة إليه. ولا أدري أي حاجة حمل الناس على العدول عن معنى اللفظ وفحوى الكلام، غير أن عوّلوا على بعض الرواية المكذوبة على ابن عباس ﷺ، وحاشاه عن ذلك.

---

(١) النوادر في اللغة لأبي زيد: ١٤٩.

(١٣)

كشف المكنون في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ و﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾

المراد بالتوبة هي التوبة الكاملة التي لا يبقي معها محل للخلاف. فهي التي تكون بعد الصغو. وبهذه التوبة يصير الزوجان نفساً واحدةً، وكذلك العبد يفنى في العبودية، فيكون مولاه سمعه وبصره وفؤاده. وقد جاء كثيراً في الكتب السابقة مثل الابن والمرأة للأمّة الطائعة. وتجد شرح ذلك في كتابنا «الأمثال الإلهية»[1].

وقد ضلّت بهذه الأمثال اليهود والنصارى، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. والقرآن يتجنب عن مثل ذلك الكلام، ولكنه ربما يأتي بإشارة لطيفة، لكي تخفى على العامة، فلا يفتنوا بها (ارجع إلى تفسير سورة الطلاق).

فبعد ما أمر أزواج النبي بالتوبة الكاملة، أمر العباد عموماً بها، وسمّاها «نصوحاً»، أي خالصاً. ووعدهم النور والقربة مجتمعين بالنبي كما كانوا معه في الدنيا ومع أهليهم، كما صرح بذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الطور: ٢١، وفي قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾﴾ الانشقاق: ٧ - ٩. فذلك اجتماعهم بأهلهم.

ثم أخبر باجتماع الصلحاء بينهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ الفجر: ٢٧ - ٣٠. ثم بشر بقرب حضرته، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ الواقعة: ١٠ - ١١. وقوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الفجر: ٢٨، وقوله: ﴿جَنَّتِي﴾ الفجر: ٣٠ يلمحان إلى هذا. وفي القرآن

(١) لم نقف عليه.

وكتب الأنبياء أخبر عنه كثيراً إشارةً وتصريحاً. ولولا هذا القرب لتسعّرت الجنة لعباده. ألا ترى كيف أخبرنا عن أصحاب النار، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ المطففين: ١٥.

فإن تبين لك معنى التوبة والرجوع في الدنيا والآخرة، وعلمت أن العبد يأوي إلى مولاه، ويتطهر عن سواه، وحينئذ تقرّ عينه، وتلذّ نفسه، ويرغد عيشه، وتكمل غبطته، ثم علمت أن المرأة إذا خانت مولاها كيف يحمى غضبه وتتلظى غيرته = فحينئذ يوشك أن تفهم موقع هذا المثل الذي ورد كثيراً في كتب الأنبياء، ويتمهد لك الطريق إلى فهم رباط آيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ التحريم: ٩ إلى آخر السورة، كما نذكره الآن.

(١٤)

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بحيث يتضح ربطها بالسورة

فاعلم أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ التحريم: ٩ إلى آخر الآية يتضمن أشد التبليغ، ليتوب منهم من فيه أدنى الاستعداد. وهذه الآية قد جاءت في سورة التوبة بعينها. وبعدها: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ التوبة: ٧٤. فترى أن الغلظة لأجل أن يتوب منهم من يتوب، ثم يبقى من حقت عليه كلمة العذاب. والكلام على أن الغلظة لأجل التوبة تجده مبسوطاً في سورة التوبة.

فلم تكن هذه الغلظة إلا لتخليص الخير من الشر، وذلك ربما يكون بالغلظة،

كما أنه يكون باللين. وقد ضرب الله لهما مثلاً حيث قال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ فهذا مثل استعمال اللين ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يضرب بعضه ببعض فينكسر الباطل، كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء: ١٨ وهذا مثل استعمال الغلظة ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ الرعد: ١٧، ففي هذا التخليص تنقطع علائق القرابة وأسبابها، ويفصل المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه. وذلك هو التطهير، كما قال تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ آل عمران: ٥٥.

(١٥)

شرح الأمثال الأربعة

فضرب الله على هذا التطهير، وانقطاع ما بينهم من علائق الدنيا، ووصلهم بمولاهم وخُلَّص عباده أربعة أمثال على طريق تبين لك منه تفاصيل هذا الأصل، وهي أمور:

الأول: أن قرابة البارّ لا تغني عن الفاجر شيئاً في الآخرة.

والثاني: أن الصلحاء أنفسهم يتبرؤون من أقرباء السوء، ويهاجرون إلى الله ورسوله، كما سألت امرأة فرعون حيث قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ التحريم: ١١، فصرمت حبال قومها وأهلها، وسألت بيتاً عند مولاها. فكذلك يصرم العبد حبال الظالمين، ويهاجر إلى الله، وهذا طهارته و فرقانه وخاتمة أعماله. وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام كما أخبرنا الله تعالى عنه مراراً وجعل لنا فيه أسوة. وقد مرّ البيان في سورة الممتحنة.

والثالث: أن الله تعالى يطهر الصلحاء في الدنيا، ويستجيب دعاءهم. فترى

كيف نجّى امرأة فرعون عنه. وهكذا قصة نوح وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وجميع الأنبياء عليهم السلام، حتى أن جعلها الله تعالى من سننه. وصرح بذلك في القرآن مراراً، مثلاً حيث قال: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ العنكبوت: ١ - ٣.

ولا شك أن الله يعلم الظاهر والباطن، ولكن المراد أن يجعل حالهم مشهوداً مكشوفاً على المسلمين، فيتبرؤوا عنهم كما أمرهم الله.

وهكذا قال: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ آل عمران: ١٧٩ أي إن الله لا يطلعكم على سرائر القلوب، ولكنه يبرز عليكم أفعال المنافقين بعصيانهم الرسول، فاجتهِدوا في طاعة الرسول وحقِّقوا بذلك إيمانكم، فتميّزوا وتستحِقّوا أجر المتبعين، كما صرح بعدها ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ آل عمران: ١٧٩. وتفصيل البحث في تفسير سورة الحديد وسورة الكافرون وغيرهما.

وحاصل الأمر أن النبي لا يذهب قبل الفتح والفرقان والفصل الواضح بين المؤمنين والكافرين والمنافقين. ولذلك وجبت الغلظة ليتم النور، ويكمل أمر الدين، ويخلف أمة تقوم بأعباء الأمانة الدينية، ليكونوا حزب الله وشهداءه على الناس، كما ترى موسى وعيسى وسائر النبيين عليهم السلام خاطبوا الناس بأغلظ الكلام في آخر وقتهم.

والرابع: أن الأمة المؤمنة إذا تخلصت لربها، وسدت مواقع المخافة عليها (فإن ذلك معنى الفرج، كما قال لبيد في معلقته:

فغدت كلا الفرجين تحسَبُ أنها مولى المخافة خلفُها و أمامُها[١]

وهذا كثير. وبسط الكلام فيه في تفسير سورة الأنبياء، فحينئذ يتنزل عليها الملائكة بالروح، والسكينة، ورزق حسن من الله، وبالنصر والغلبة على الأعداء، كما وقع بمريم بنت عمران عليها الصلوات. ومر التفصيل في تفسير سورة المجادلة تحت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾. وهناك بينا أن هذا الحزب لابد أن يغلب ويظهر على الناس. وتجد هذا البحث في تفسير عدة سور مثل آل عمران والأنبياء، والنور، والصف، وقل يا أيها الكافرون، والنصر، وغيرها.

فبهذه الأمثلة الأربعة أشار إلى خذلان الكفار، وغلبة الأبرار. وختم بذكر القنوت والإنابة إلى الله. فتمت حصة سور الأحكام حسب ترتيب القرآن، وحسب ترتيب وقائع البعثة، وحسب ترتيب سنة الله في الخلق. فإن آخر الأمور أنه إليه المصير، فهو المولى وهو النصير، كما تجد البيان في سورة الإخلاص وغيرها. ذلك فحوى الأمثلة بالإجمال، فأما تفصيلها فنذكره الآن.

(١٦)

في ربط الأمثال الأربعة وتطبيقها

فاعلم أن المثل الأول والثاني في الكفار. وإنما قدمهما لربطهما بما سبق من ذكر المنافقين، وليختم السورة بالقنوت لمصلحة بيّناها. ولما ضرب أمثال النساء للعباد

(١) ديوانه: ٢٢٢ وجمهرة أشعار العرب: ٣٦٧.

عامةً راعى أموراً تصلح بأحوالهم وأحوالهن، وهي الأمانة بإيفاء العهد، وبحفظ السر، والتبتل من الأجانب والطهارة، والتصديق بكلمات الله وكتبه، والقنوت.

ولم يُذكر من خيانة امرأة نوح شيء في الكتب السابقة، ولا في القرآن. ولذلك قال سعيد بن جبير: «وأما امرأة نوح فلا علم لي بها»[١]. وأما امرأة لوط فاتفقت الصحف السابقة وهذا القرآن على أنها التفتت فلم تقم على العهد، واستخفّت بأمر مولاها.

وما روي عن ابن عباس، قال: «كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما. فكانت امرأة نوح عليه السلام تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها. وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوطا أحد أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء»[٢]، وفي رواية عنه: «أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون»[٣] = فهذا كله من استنباطه الحسن، ولم يرو فيه عن النبي ﷺ شيئاً. وعندي أيضاً أنهما لم تطيعا، واسخفّتا بهما.

ومن أكبر صفات المرأة والعباد أن يطيعوا مولاهم ويقيموا على عهد الإطاعة، كما صرح في الأحزاب، فذكر صفات النساء والرجال سواء.

فعلمنا الله تعالى بهذه الأمثال ما ينبغي لنا من الطاعة الصادقة والعبودية الكاملة مع المحبة والطوع وبذل النفس والمال كما يحسن بين المرء وزوجه مثلاً ناقصاً، ولله المثل الأعلى. ودون ذلك خيانة ومرض. وأما البحث عما روي عن ابن عباس من

---

(١) تفسير الطبري ٢٨: ١٠٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

حالهما فتجد في الفصل التالي.

والمثل الثالث والرابع في المؤمنين. فأما المثل الثالث فقد بين الله تعالى فيه التبتل والرغبوت إلى المولى الحق. تدبر قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ التحريم: ١١. فلنا في كلمة «عندك» قرة عين جلّت عن البيان.

وأما المثل الرابع فصرح بكمال النعمة، كما بينا في الفصل السابق. فمريم عليها السلام مثل المؤمنين في إتمام النعم والنصر والغلبة، لا سيما الأنصار. ومحمد عليه الصلوات كلمة الله، فإن الأرواح الطيبات كلم الله. وبيانه في سورة فاطر تحت آية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ فاطر: ١٠.

وهذا الاسم اشتهر لعيسى عليه السلام، ولكن خاتم الأنبياء جامع أوصافهم. وقد جاء في مكاشفات يوحنا في بشارة هذا النبي الكريم أنه سمي «أمينا» و«كلمة الله»، كما بيناه مصرحاً في تفسير سورة الفيل في الفصل السابع منه.

(١٧)

ربط الأمثال بقصة السورة وبشأن نزولها الخاص

قد بينا ربط هذه الأمثال بالعباد كافة. فأما ربطها بأول السورة وقصتها، فقد علمت أن السورة تعتني بشدة الاحتساب، فتبدأ بما هو أمر هيّن بل حسن من وجه، وتردع عنه، لتعلم غامضة الشريعة وتجتنب ما يجري إليه الأمر السهل ويصير حجاباً مستوراً، ثم يكثف فينقلب سوراً وحجراً محجوراً.

وفي هذه سور التطهير علّمنا الله تعالى أن نقطع حبال المودة عن أقربائنا في ذات الله، ونحافظ على سره. وفي ذلك بلاء عظيم وامتحان شديد، كما مرّ في سورة الممتحنة.

وإظهار السرّ إلى غير أهله خيانة كبيرة، فإنّ بناء الصلاح على ذلك. ولا يخفي عليك أن الأمير مع أصحابه كالمرء مع زوجه، لابدّ أن يطلعهم على الأسرار ويشاورهم، حتى إن الله تعالى أمر النبي ﷺ بذلك. وقد كان للنبي ﷺ أصحاب السرّ وهم خاصته مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وبعد هذا الطراز الأول كثير من أصحابه بل عامة المسلمين كانوا يعلمون كثيراً مما لا ينبغي إظهاره على الكفار. ولعمرك هذه المسارّة عقدة وثيقة للمحبة حتى إن كثيراً من الأمم اتخذوها سبباً لإنشاء فرقة وإبقائهم من السلف إلى الخلف في الأمم الوثنية، ومنهم «الفرامسيون»[1]. فإن لم يحافظوا على السرّ أضاعوا أمرهم وهدموا بنيانهم ولذلك قال النبي ﷺ: «المستشار مؤتمن»[2].

وكذلك منع الله المسلمين عن إظهار خبر ذي خطر إلا على أولي الأمر منهم حيث قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ النساء: ٨٣.

فإذا كان الأمر هكذا، وكان حفظ السر من أعظم خلال أمة، وجاء القدر بواقعة مناسبة أخبر الله عن منزلته.

وإذ قد بدأ السورة بفرض تحلّة يمين نشأت من ظن بعض الورع، وكذلك بالنهي عن مسارّة جاءت من الصفاء، بيّنَ لنا في آخر السورة كيف أفضت هذه المداهنة إلى الكفر والحرمان في حق امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام، فإنهما لم تحافظا على سرهما.

---

(١) يعني: الماسونية.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٣٠) والترمذي (٢٣٦٩) وابن ماجه (٣٧٤٥).

فكان في المثلين السابقين إنباء وتنبيه وعبرة لجميع الأمة، ولأزواج النبي ﷺ، لكي يكملوا في القنوت والأمانة، ويكونوا جديرين بالنبي وإلا يُفرَّقوا عنه، فيُحْجَبوا عن الربّ.

ثم جاء بالمثلين للقانتين الواصلين حسبما مر في الآية الثامنة ليعلموا رفيع منزلة الطاعة الكاملة، ويكونوا بالنبي كالنفس للروح، فيدخلوا معه باطن السور والنور والسرور كما ذكر في سورة الحديد.

وهذا هو المراد من التزكية التي وعدها الله النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ آل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢. فإن التزكية لهي الغاية القصوى من الكتاب والحكمة، وبها تكميل الشريعة و إتمام الدين.

هذا، والله تعالى أعلم بما أراد، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

تفسير

سورة القيامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣
بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧
وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ
١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ
لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩ كَلَّا بَلۡ
تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن
يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ
رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ
فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ
فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾.

(١)

بيان عمود السورة وربطها بالتي قبلها

اعلم أن عمود هذه السورة إبطال ظن المنكرين بالقيامة والجزاء. وكان منشأ إنكارهم حب هذه العاجلة الفانية. فإن حب الشيء يبعد عن استماع ذكر خلافه. ثم استكبارهم عن الطاعة وتقوى الله لما غرّهم أهلُهم ومالُهم، كما ذكر الله تعالى هذين الأمرين بقوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١﴾، وبقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾ القيامة: ٣١ - ٣٣، وهذا تصوير من استغنى بأهله وماله.

وتشبثوا في إنكارهم بشبهة عامة ذكرها القرآن بحكاية أقوالهم مرارا مثلاً: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١﴾ النازعات: ١١، أو: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾

المؤمنون: ٣٦، فأجابهم الله حسب حالهم بما يزيل عنهم الشبهة ويوقظهم عن الغفلة. فجمع في السورة من الزواجر والدلائل ما فيه بلاغ مبين.

ولما كانت السورة السابقة قد صرَّحت بحالهم من الاستكبار والإنكار وذكَّرتهم بتهويل شديد، قَلَّلَ في هذه السورة من ذلك التصريح وخاطبهم بالدلائل. فكما أن الصناع ينفخ في الحديد أولاً فيجعله ناراً ثم يطرق عليه، فهكذا ربما يفعل بالكلام إذا صادف قوماً خصيماً مستكبراً. فهذه السورة مع لوافح الغضب في أسلوبها ليست بصراحة السورة السابقة كقوله تعالى فيها: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ المدثر: ١١ - ٥١، فترى فرقاً واضحاً بين هذا التصريح وما تجد في سورة نحن فيها الآن.

(٢)
بيان أسلوب الكلام في هذه السورة

ومع ذلك تجد في أسلوب السورة بقايا الغضب، لما ترى فيها من ذكر عتوّ الإنسان واجترائه، ولما ترى فيها من التقريع والتخضيع في جوابها وخطابها، ولما ترى كثرة الردع والاستفهام في آياتها. فالسورة من جهة الأسلوب غير منقطعة بل متصلة بالسابقة كما بيناه في الفصل الأول. ألا ترى قول الإنسان: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ على غاية العتوّ والاجتراء. فإنه بعد إتمام الحجة لا يستطيع الإنكار بها، ولكن لمحض غيابها ولما أمهله الله رحمةً يقول مستهزئاً مستكبراً مستعجلاً: أيان ذلك اليوم؟ فاستحق التقريع والتخضيع في الجواب. فما أخبر عن وقتها، ولكنه صوّرَ له حاله في

ذلك اليوم.

وعلى هذا الأسلوب ما جاء مراراً في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ الذاريات: ١٢ - ١٤. فهكذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ جواب يليق بإنكارهم. أي إنه اليوم مستبعِد، مستعجِل، مستكبِر، ويقول: أيان يوم القيامة؟ ولكنه حين رأى ذلك اليوم يقول: أين المفر؟

ومثل ذلك تصوير حاله في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾.

ومثل سؤاله استكباراً إعراضه عن الحق، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾. فأتبع هذا قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾. مطابقاً لحاله على سبيل الحسرة، كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾ يس: ٣٠. فإن كلمة «أولى» تستعمل للحسرة كما أن «ويلا» للمقت والزجر. قالت الخنساء:

هممت بنفسي كل الهموم فأولى لنفسي أولى لها[1]

وإنما التفت من الغيبة إلى الخطاب لتكون أشد. فلو قال: «أولى له فأولى» لم يبلغ هذا المبلغ. وإنما أجرى الكلام إلى آخر السورة على الاستفهام لمثل ذلك السبب، فالسورة من أولها إلى آخرها ردع وتوبيخ.

---

(١) ديوان الخنساء: ١٢١.

(٣)
الكلام جارٍ على معنى متصل
وإنما أكثَرَ القطعَ الظاهرَ والالتفاتَ للدلالة على السخط

لا نرى الحاجة إلى تفصيل مواقع الردع والاستفهام في هذه السورة، ولكن نشير إلى أمر مهم، وذلك: أن الخطاب إذا كان على سبيل السخط ترى فيه كثرة الفصل، كأن المتكلم يقف عن القول ويكظم غيظه، ثم يأخذ في أسلوب آخر، ويختم الكلام بكلمة الردع، كما ترى الالتفات كثيراً في كلامهم بمثل قول الشاعر(١):

فدع ذا، وسَلِّ الهمِّ عنك بجَسْرةٍ

ولك أن تقايس هذه السورة بسور العلق، والتكاثر، والهمزة، فإنهن متشابهات في هذا الأسلوب كتشابههن في إظهار السخط. ولكي تفهم هذا الأسلوب ومواقع الردع والسؤال، نوردها عليك بطريق موجز:

«أيحسب الإنسان أن لا نشر ولا جزاء؟ بل من الفجور يقول: أيان ذلك؟ فإذا جاء لا مفر. كلّا، لا ملجأ له، وإلى الله المستقر. بل الإنسان مع البصيرة يتعامى. كلّا، بل يحب الدنيا ويترك الآخرة. كلّا، ما غناء الدنيا عنه إذا بلغت التراقي، وسيق إلى ربه».

فترى كثرة الالتفات والقطع الظاهر، ولكن الكلام جارٍ على معنى متصل، وما ذلك إلا لإظهار السخط وشناعة أحوالهم.

ومن الالتفات آية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ إلى كلمة ﴿بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) وهو امرؤ القيس. انظر: ديوانه: ٦٣ وعجز البيت:

ذمولٍ إذا صام النهارُ وهَجَّرا

وستَرد على تفسيرها.

(٤)

بيان وجه الاحتجاج في هذه السورة

قد علمت مما قدمناه أن السورة بنيت على الزجر والتخضيع، ولذلك يخفى وجه الاحتجاج على غير الممارس ببلاغة العرب، فإنه ينظر في الكلام من جهة الإخبار والاستدلال. فأردنا أن نكشف عن وجه الحجة بتجريد الكلام عن بوارقه، فتحتمله الأبصار الضعيفة أيضاً. فنقول إن وجه الكلام تحت قناع البلاغة هكذا:

«كذَّب الإنسان بالقيامة، وتولّى عن الذكر، وحسِبَ أنه يُترك سدىً ولا يُجزى، وقد أُنذر بها، فيسأل مستهزئاً: أيان يوم القيامة؟ فليعلم أنه لن يُترك سُدىً بل إنه يُحْيَى ثم يُجزَى. نجمع عظامه، ونسوِّي بنانه. وإنما هو في سكرة العمى، فيفتح بصره عند الواقعة، فيُقِرُّ بها إذا شهدت عليه نفسها. بل قد شهدت نفسُه اللوامة، فهو بصيرة على نفسه، ولكن محبة هذه العاجلة أذهلته عن الآخرة، فينبغي أن يُتركَ ملياً كي يَفهم. ألا يذكر الموت وفراق هذه العاجلة الذاهبة والرجوع إلى ربه، فيصدِّق ويصلِّي؟ أم لا يذكر خلقته، فيؤمن بأن المبدع قادر على إحيائه مرة أخرى؟».

ولكن أين هذا من النظم البليغ الباهر!

والذي يتدبر القرآن يرى تحت قوارعه حججه الدامغة، كما قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الزمر: ٢٣.

وسينكشف لك وجه الحجة بعد النظر في مجموعها وفهم تأويلها.

والآن نلتفت إلى أجزاء السورة وشرح كلماتها بحول الله تعالى. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

(٥)

تفسير قوله تعالى: (لا أقسم)

في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ لا منفصلة، أي: باطلٌ ما يحسَب الإنسان. والقول بزيادة «لا» سخيف جدًّا، وبأنها متصلة سقيم، لضعف المعنى ولتصريح القرآن بخلافه حيث جاء: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ الواقعة: ٧٥-٧٦. (انظر تفسير هذه الآية).

وانفصال «لا» قبل القسم كانفصال «كلا» قبله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢﴾ المدثر: ٣٢. وتكرارها كتكرارها،كما قال: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ التكاثر: ٣-٤.

وهذا الأسلوب شائع في كلامهم إذا أرادوا شدة الإنكار لظن سابق، لأنّ في تقديم «لا» دلالةً على أنّ الكلام جوابٌ وردٌّ لما قيل من قبل، وعلى أن الإنكار به لا يحتمل مُكْثاً. فإن القسم عادته الابتداء، وإنما قُدِّمت عليه كلمةُ الإنكار لشدة الاعتناء به. والقسم على الأكثر تأكيداً لإثبات، فإذا كان الإنكار، ينبغي أن يصدر الكلام بالنفي. ولذلك قالوا: لا والله. وإن قيل: والله لا، كان ضعيفاً.

فعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ النساء: ٦٥.

ومنه قول النابغة الذبياني:

فلا لَعَمْرُ الذي مسَّحتُ كعبتَه ... وما هُريقَ على الأنصاب من جَسَدِ

والمؤمن العائذاتِ الطيرَ تمسحها ... رُكبانُ مكةَ بين الغِيل والسَّعَدِ

ما قلتُ مِن سَيِّئ مما أُتيتَ به   إذاً فلا رَفَعَتْ سَوطى إليّ يدي[١]

وأيضاً قوله:

فلا عَمْرُ الذي أُثني عليه   وما رَفَعَ الحجيجَ إلى إلال

لَما أغفلتُ شكرَك فانتصِحْني   وكيفَ ومِنْ عطائك جُلُّ مالي[٢]

وقول امرئ القيس:

لا وأبيكِ ابنةَ العامريِّ   لا يدّعي القومُ أنّي أفِرّ[٣]

وفي هذه الشواهد من القرآن وكلام العرب كان القسم على الإنكار المحض، فجيء بذكر ما يتعلق به الإنكار.

وأما إذا كان القسم على إثبات وإنكار معاً كما وقع هاهنا أتبع كلاماً يناسب هذا الموقع.

فربما يذكر في الجواب الإثبات والإنكار معاً، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ هذا ذكر الإثبات ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ هذا ذكر الإنكار ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الحاقة: ٣٨-٤٣ أعاد الإثبات كما ثنّى الإنكار.

وربما يحذف كلاهما، ويؤتى بما يدلُّ على المقسَم عليه، أو يعتمد على ظهوره من موقع الكلام، كما ترى في قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ

---

(١) ديوانه: ٢٥.

(٢) المصدر السابق: ١٥١. إلال: جبل عن يمين الإمام بعرفة.

(٣) ديوانه: ١٥٤.

وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ ص: ١ - ٢ فكذلك هاهنا أيضاً لم يصرِّح كلَّ تصريح بالمقسم عليه، لما دلَّ عليه ما يتلوه، ولما يُفهم من نفس المقسَم به، ولما يفهم من الردع والتوبيخ، كما مرَّ بك ذكره في الفصل الرابع، ولما مهد له في السورة السابقة، كما بيناه في الفصل الأول.

(٦)

معنى «معاذير» و«فاقرة»

أما باقي ألفاظ السورة فمعروف، ولكن ربما يسأل عن كلمتين: معاذير وفاقرة.

أما المعاذير: فاسم جمع للمعذرة، وأصلها معاذر. في أمثالهم: «المعاذر مكاذب». ثم زيدت الياء كما ترى في المناكير. وهذا المعنى أقرب إلى ظاهر الموقع مما قالوا: إنه جمع مِعذار للستر بلغة اليمن. ويتضح لك هذا من تفسير الآية.

أما الفاقرة، فهي من أسماء الداهية، كأنها تكسر فقرات الظهر، وهكذا القارعة. وأسماء الداهية تستعمل للقيامة وإنها لكبراها.

(٧)

بيان المقسَم عليه ووجه القسم بالقيامة

القسم بالقيامة من التأنيب الشديد، كأنه قال: سوف تعلمون ذلك اليوم. فأخرج الكلام مخرج التهويل. ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ البروج: ٢. ويدلك على موقع سخطه قوله تعالى بعده: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ البروج: ٤. وهذا الأسلوب أبلغ في خطاب المستعجلين، كما قال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ الواقعة: ١ - ٢.

فهذه الأقسام من إشهاد الشيء بنفسه على نفسه لشدة الظهور، فإن القسم من الله تعالى بآياته الدالَّة يراد به الإشهاد والاستدلال، كما بيَّنَّا في كتاب «الإمعان في أقسام

القرآن».

ثم هذا الأسلوب أنفع لهم، لكي يتعلموا الصبر ويغتنموا المهلة. ولذلك كثر في القرآن الأمرُ بإمهالهم والإعراض عنهم. فإن أمراض النفس كأدواء الجسم، تُعالَج بأضدادها، كما ترى في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ٧﴾ المعارج: ١ - ٧. فلم يجب للسائل، بل أمر النبيَّ بالصبر.

وربما يُتبعُ التهويلَ حُجّةً، كما ترى في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥﴾ فهذا تهويل وزجر وتنبيه، ثم أتبع ذلك حجة فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ٦﴾ إلى قوله ﴿أَلْفَافًا ١٦﴾ النبأ: ١-١٦ احتجاجاً بآياته الدالَّة على القيامة.

فكذلك في هذه السورة، بعد القسم بالقيامة على سبيل التهويل، أشهَدَ بدليل هو من أقرب الأدلة. ولنذكره الآن.

(٨)
بيان وجه القسم بالنفس اللوامة

فاعلم أنَّ القسم بالنفس اللوامة إشهادٌ على النفس بصفتها التي فُطرت عليها. فإن النفس تحس بأنها تحت ذمة، وعليها حاكم يحاسبها؛ وإلا لماذا تلوم نفسها على بعض ما فعلت؟

وفي ذلك دلالة ظاهرة على الحساب والجزاء، لما أن فيها من فطرتها وازعاً ورادعاً لا يزال ينصحها وينهرها حتى تصير مطمئنة ومنقادة، فتدخل في حزب الله راضية مرضية.

فمع هذا الحس البديهي الذي سمّاه الله تعالى «بصيرةً» بقوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ كيف يشك في يوم الجزاء، إلا أنه ينكر بأن الله قادر على إحيائه. وهذا إثم كبير، مع أنه حمق شديد. وذلك الظن السيئ الباطل حمله على إثم أكبر منه، وهو فجوره وسوء أدبه بين يدي خالقه، فيسأل عنه، ويستهزئ به، ويبدي ما استكنَّ في نفسه من مرض الشك.

(٩)

وجه الجمع بين القيامة والنفس اللوامة

إن في الجمع بين القيامة والنفس اللوامة أيضاً دلالةً على نسبةٍ بينهما عند من يتدبر. فاعلم أن القيامة لوامة النفس الكلية، فإن العالم شخص واحد لمجاري أحواله على موافقة بعضها ببعض. وكما أنّ في كل إنسان لوامةً على أفعاله السابقة، فكذلك للعالم نفس لوامة على ما جرى فيه، كأن فيه قوة إصلاحه، ولولا ذلك لفسد.

ولذلك ترى الكون بعد الفساد، والرجوع بعد الحيادة عن السبيل. فكم مرة كادت الأجرام تتصادم أو تخرج عن النظام، ثم كأنّ صارفاً أعادها على الصراط. وهذا بحث طويل الذيل. وأهل العلم لا يرتابون في أن في العالم مصلحاً ومرمماً. وفي توالي الليل والنهار، والحر بعد القر، والمطر بعد القحط، آيات على ذلك.

وهكذا في جهة الأخلاق بِرٌّ وفجور، و قسط وجور، وعلم وجهالة، وعمارة وخراب. وستجد بعض البسط في تفسير سورة الأعلى.

وجملة القول هاهنا أن القيامة لوامة النفس الكلية، فتريها ما فعلت، وقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ عبارة عنه. كما أن اللوامة مثال قيامة فيك، فتريك حقيقة أعمالك، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ عبارة عنه، وهكذا كل نبي نفس لوامة لقومه. وخاتم الأنبياء لسعة بعثته هو النفس اللوامة لجميع بني

آدم، وهو مثل القيامة ودينونة العالم.

(١٠)

جمع القسمين وقع حسب ربط ما بعدهما

وكما جمع في الإشهاد بين القيامة والنفس اللوامة، فكذلك جمع في ما بعدهما بين صفة القيامة أي وقائعها وصفة النفس اللوامة أي البصيرة. وأكد على ثبوت البصيرة بأن الإنسان مع تشبثه بالمعاذير وتسكينه اللوامةَ بها لا يستطيع أن يُسكتها. فإنها لا تزال تلومه، إلا أن تصير عمياء صماء بما ران على قلبه، وحينئذ يصدق عليه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ البقرة: ٧.

وعن هذه الجماعة الصمِّ العُمْي أمر الله النبي بالصفح والإعراض، كما قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ النجم: ٢٩ - ٣٠. فهاهنا أيضاً أمره بالإعراض عنهم كما ستعلم في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

(١١)

بيان خسف القمر وجمع الشمس والقمر

قد مرّ بك بعض تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾. وقد بينا وجه الكلام في الفصل الثالث، فالآن نتوجه إلى مضمون هذه الكلمات.

فاعلم أن الله تعالى صور بهذه الآيات هيئة القيامة حين تتجلى لهم فيبرق بصرهم، وشدة الفزع توقظهم عن رقدة الغفلات. أما كيف يخسف القمر أم كيف يجمع بالشمس؟ فاعلم أن أمور القيامة ليست من الأحوال الجارية فتطابق بينهما إلا على سبيل العبرة؛ فإن الخوض فيها لا يزيد شيئاً في التخويف الذي هو المطلوب

الأهم من ذكرها، بل خفاء الكيفية أعظم تهويلا من بعض الوجوه لمن أيقن بها.

وأما المنكرون الشاكُّون، فيكفي لنا في جوابهم أن نقرِّب أحوالها إلى فهمهم بما علموا من مجاري الفطرة، غيرَ مقرِّين بأنها هي، بل إنها غير مستبعدة عما صح عندهم. فيقال لهم: إنكم لا تشكُّون في أن حرارة الأجسام تنقص آناً فآناً إذا كان ما حولها أبرد منها. وكذلك زعمتم أن الأجسام تدرجت من الحرارة الشديدة والهوائية إلى السيلان ثم البرودة والجمود، وقد حققتم أنّ كثيراً من الأجرام انجذب إلى الشمس وألقي فيها. فإن صح عندكم هذه الأمور فيوشك أن ينجذب القمر وكذلك أرضنا إليها، والشمس يومئذ قليلة الحرارة فتدنو، والإنسان حي، ويبرق البصر بنورها. ويخسف القمر أولاً بذهاب نوره لقرب الأرض من الشمس، كما روي عن قتادة عن الحسن: «خَسَفَ القمرُ: ذهب نوره»[1]، ثم يقع فيها ـ وهو المعنى الأصلي للخسف كما جاء غير مرة في القرآن، مثلاً في قصة قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ القصص: ٨١ ـ وذلك لخروجه عن مداره.

وهذا يقع عند اقتراب الساعة. فإن الآن كما ترى صنع الله تعالى أتقن كل شيء، فتجري الأجرام في أفلاكها حتى يتم أمرها وتكمل مصالحها، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يس: ٣٧ ـ ٤٠.

أي لنا آية على انتهاء هذا النظام في ذهاب النهار وجريان الشمس حسب مستقرها من الله تعالى وتقديره، وكذلك في تقلب القمر الذي ينمو ثم يهزل. ومع

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٩: ١١٣.

تقاربهما بعد التباعد، لا تقدر الشمس أن تدرك القمر، ولا الأرض أن تفر من الشمس، فلا يدرك نهار الشمس ليل الأرض، بل كل من الأجرام يسبحون في مدارهم. ففي ذلك آية لمن علم بتصرف الله في خلقه على فناء العالم وأن إلى الله الرجعى.

فإذا رُميَ بالقمر في الشمس، وخُسِفَ به، وقد رأوا دنوَّ الشمس، خافوا أن تلقى هذه الأرض فيها، وفزعوا، ولا مفزع، فقالوا: أين المفرّ؟

هذا، والآن نرجع إلى شرح ما بعد هذه الآيات بحوله تعالى.

(١٢)

تفسير قوله تعالى

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾

الإنسان على نفسه بصيرة (مبالغة ذو بصيرة)، وإذا كان الأمر هكذا فالأولى أن يُحَثَّ ويُنبَّه، ثم يُمهَلَ، لكي يُعمِلَ فكرَه بعد ما سكن إنكاره ونفرته، ولذلك يا أيها النبي لا تُلْقِ عليه تمامَ القرآن جملةً، فإنَّ جديد الكلام أشدُّ تأثيراً، وفي تنزيل القرآن جملةً لا يمكنك إلا تكرارُ كلام واحد. ثم في مكث التنزيل مصالح أخر كما بيّنه، وهذا التفات إلى النبي.

ثم هاهنا التفات إلى الإنسان فقيل له: مع أنك بصيرة عليك، إنما تنكر بالحق لكونك مشغولاً بالعاجلة وتاركاً نظرك في العاقبة. ولما كان ذلك من جهة غفلة الإنسان ورغبته في العاجلة المشهودة، نبّهه عن الغفلة بتصوير الآخرة يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه.

وهاهنا جمع الترغيب والترهيب، وأما في ما سبق من التصوير فلم يذكر إلا ما فيه الترهيب. وذلك لما صدر الكلام بذكر إنكاره، فلما فرغ منه ذكر حالة الإنسان،

وسكن سورة الكلام قليلاً.

ثم هاهنا رجوع إلى حالة الدنيا، فذكر تصوير الموت، ثم رجع إلى ذكر حبه العاجلة واستغنائه بما أنعم به عليه.

وكذلك رجع إلى ما بدأ به السورة من الإنكار والجواب، ولكن هاهنا ذكر الحجة، وذلك بكونه مخلوقاً مربوباً، فلا يترك سدىً.

ولما كان في الأول ذكر إنكاره واستهزائه لم يجب إلا بما يليق به. وأما في آخر السورة فكان قد تقدم ذكر شغله وسبب غفلته، فنبّهه على الدليل وجعله مقابلاً لحاله.

(١٣)

تفسير قوله تعالى

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أن في أول النبوة كان نزول الوحي موجزاً ونزراً لقلة استعدادهم ولتنفرهم، ومن الحكمة: الرفق والتلطف، فكانوا يُمهَلون ويُصفَح عنهم ريثما يهدأ جماحهم ويسكن جأشهم. والنبي ﷺ ربما يضيق صدره إذا فتر الوحي لهجوم المخاصمة عليه، وكان نزول القرآن له تسكيناً وتثبيتاً، فكان حاله بين الخصام والقرآن كحال الشجر الممطور في حر الهواجر ولفح الحرور. وزد على ذلك حرصه الشديد على إيمان الناس وتكميل الشريعة وقد قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ الفرقان: ٣٢. فلهذه الوجوه التي أشرنا إليها، كان النبي عليه الصلاة يتشوق عند ما يُوحى إليه، حتى إنه كان يقرؤه بلسانه لكي يعيه ولا ينسى، فيتلقى وراء ذلك، ليكون به أشدَّ يداً، وأكثر مدداً في إبطال الباطل وإثبات الحق.

وقد أظهر الله تعالى عليه مصالح المهلة والتدريج في الأمور الإلهية في كثير من الآيات، كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ طه: ١١٤ - ١١٥. فبيّنَ في هذا أن الإنسان قليل العزم، فلا يحتمل جملة الشريعة إذا حملها دفعة واحدة. فلا تعجل بأن يُقضى إليك القرآن بتمامه، بل خذ ما أُعطيتَ منها، واعلم أن لها بقية من تخفيف أو تكميل، واستزد علماً من ربك. فبيّن مصلحةَ التدرج مجملاً من جهة ضعف الإنسان.

وأما قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾، فقد بيّن فيه مصلحة التدرج من جهة استعداد الإنسان للتربية. فإن الله تعالى أودعه بصيرةً وتمييزاً وشوقاً إلى العلو، فيسمو إليه حالاً فحالاً، ولكن تنازعه زخارف الدنيا وشهواته العاجلة. وهذا حب العاجل أيضاً مودع فيه، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء: ٣٧، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ المعارج: ١٩ - ٢٢. وهذا لكي يبتليه ويخلص النضار من الخبث. ففي الإنسان حب العاجل وشوق المعالي كلاهما مفطور، وبذلك اجتهاده، ومنه التربية، لينمو بذر الفطرة بقوته المودعة فيه. ولذلك نهى عن الإكراه في الدين.

فبعد ما بيّن الله تعالى أن في الإنسان لوّامةً وعلماً للدين وبصيرةً، علّم النبيَّ كيف يربيهم فقال: لا ينبغي لك أن تعجل بالقرآن، فإن التدرج أمر مقضيٌّ عندنا، وعليه يجرى أمر التربية، والمربِّي الحق هو الله تعالى، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ القصص: ٥٦. ومثلها آيات كثيرة. فعليك أن تتلو عليهم ما يوحى إليك. وسَلّى النبيَّ ﷺ بأن علينا جمع القرآن بعد هذا النزول المتفرق، ثم علينا قراءته حسب نظامه، ثم علينا بيانه بإضافة الآيات المبينة.

ثم بيّن أن عدم انتفاعهم بهذا القرآن ليس من جهة مكثه وتدريجه، بل إنه لهو التدبير؛ ولكنهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، فهم عبيد المحسوسات و عَمُون عن

الغيب. فإن الإنسان على نفسه بصيرة، ولكنه يتعامى و يتغافل كفراً؛ فإن الله تعالى هداه السبيل، ونصب له الدليل. فكأنه قيل: لا تعجل بأن تُلقي عليهم النصائح جملةً، بل تذكِّرهم، وتصفح عنهم، فينتفع به من صَلَح له، ولا تحرص على تلقي القرآن جملةً مجموعاً مرتَّباً كما يطلبون منك، فإنَّ ذلك أقلُّ نفعاً من التدريج والإمهال.

ويقرب من هذا ما بيّن الله من حالهم حيث قال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ فأجاب الله بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ المدثر: ٤٩ - ٥٥. فأوضح أن داءهم الذهول عن الآخرة.

ويشبه ذلك أيضاً ما جاء في سورة الأعلى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي نيسرك للتدبير الصحيح، فلا تقع في معضلة، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ طه: ٢ - ٣ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ الأعلى: ٦ - ١٧. انظر إلى الالتفات هاهنا فإنه كالالتفات في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ القيامة: ٢٠ - ٢١.

ويشبهه أيضاً ما جاء في سورة الدهر، فأشهد الإنسان على نفسه بما يعلم بالبداهة من أنه لم يكن ثم جعله الربُّ سميعاً وبصيراً، وأراه سبيل الخير والشر، وجعله مختاراً، فصار إمّا شاكراً وإمّا كفوراً. ثم صوّر حال كلا الفريقين، فأوجز في ذكر الكفور، وأطنب في ذكر الشكور، ثم التفت إليه فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ الإنسان: ٢٢. ثم التفت إلى النبي فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ

يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾ الإنسان: ٢٣ - ٢٧.

أي: إنك لست في شيء من الذمة، إنا نحن نزّلنا عليك القرآن نجماً نجماً، ولربك الحكم، فاصبر له، ولا تلتفت إلى ما يطلب منك ذلك الكفور من أن تأتي بالقرآن جملةً، أو تنزل عليهم ملكاً، أو صحفاً من السماء منشَّرة، وغير ذلك؛ فاصبر، وانتظر تدبير الله. فأمره بالصفح والرجوع إلى الصلاة كما جاء كثيراً، ثم بيّن أن مرضهم محبة هذه العاجلة والإعراض عن الآخرة. ثم صرّح بأنك بريء الذمة، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾﴾ الإنسان: ٢٩.

فلا يخفى أن نظم المعاني في هذه الآيات يشبه نظم المعاني في ما نحن في تفسيره.

(١٤)
زيادة التوضيح لنظم الكلام

قد أشكل هذا الالتفات على المفسرين لما خفي عليهم رباط الكلام، حتى إنّ القفّال رحمه الله زعم إنه مما يقال للكفار يوم القيامة[1]. والباقون لم يبعدوا عن بعض فحواه، ولكنهم جعلوه كلاماً مستأنفاً غير مربوط بمضمون السورة، وظنُّوا أن النبي اعتراه العجل، فكلّمه جبريل ناهياً عن العجَل. نعم، إن نزول القرآن كنزول الغيث ينتظر تهيُّئاً وانبعاثاً لكي يطابق الحال. وقد وقع عند إلقاء هذا الكلام أن النبي كان عاجلاً لتلقي الوحي، حرصاً عليه، لشدة حرصه على إنذار قومه، كما قد ذكرته في أول فصل (١٣). ولكن كان هذا دأبه، وكثر في القرآن تسليته بأمثال هذه الكلمات.

---

(١) تفسير الرازي ٣٠: ٢٢٣.

ولما كان هذا الشوق لوجوه كثيرة جاءت التسلية على وجوه كما ذكرته آنفاً. وظنوا أن العجلة المذكورة في هذه السورة كانت من خوفه الضياع والنقصان على القرآن. فنقول: نعم، هكذا الأمر، ولكن فيه غوراً يستدعى تفصيلاً.

فاعلم أن النبي ﷺ بعد ما أوحي إليه كان يحسب أن حِملاً باهضاً قد أُلقي عليه، فإن نسي منه شيئاً كان مسؤولاً عنه. ومع ذلك إنه كان يشتاق إلى زيادة الوحي، لعل قومه ينتفع به، فجاءت التسلية حسب هذين الأمرين مع رعاية وجه الكلام في هذه السورة. فكأنه قيل له: لم تجتهد هكذا في تلقّي الوحي؟ أما حفظه وجمعه فعلينا، وأما هداية قومك فهم منهمكون في محبة العاجلة، فكثير القول و قليله سواء عليهم. وقد أراهم الحقَّ بما جعل في نفوسهم من البصيرة.

فهذا كلام أُجمل فيه ما فُصِّل في سورة الأعلى وسورة الدهر، وهو الإعراض عنهم. وفُصِّل فيه ما تُرِكَ مجملاً في تينك السورتين، وهو حفظ القرآن. والآن نبينه بعون الله تعالى فإنه من مهمات المسائل.

(١٥)

في حفظ القرآن وجمعه في عهد النبي بوحي من الله وأن الإمامية موافقون بنا في ذلك

اعلم أن الله تعالى وعد حفظ القرآن مراراً إجمالاً وتفصيلاً، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فصلت: ٤١ - ٤٢، أي إنه مصون عن الزيادة. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ الحجر: ٩. وهذا قول في غاية الصراحة بنفي النقصان والتغير، مع الدلالة على نفي الزيادة أيضاً؛ فإن كل واحد من هذه الثلاث يخالف حفظ الكلام، وهذا أمر ظاهر.

وأما ما اشتهر من أن الإمامية يقولون بذهاب بعض القرآن فخلاف تصريح

علمائهم كالسيد المرتضى، وشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، وأبي على الطبرسي صاحب مجمع البيان، ومحمد بن علي بن بابويه القمي الذي قال: «اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه هو ما بين الدفتين وما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك. ومن نسب إلينا أنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب»(١).

وأما رواياتهم فمثل رواياتنا لا يعتمد عليها لضعفها. قال السيد المرتضى: «إن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته»(٢).

وللسيد المرتضى دلائل أخر تركناها. فإنا بسطنا الكلام في كتابنا «تاريخ القرآن»(٣). وإنما نذكر هاهنا ما يختص بهذه السورة.

فلا يخفى عليك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ يحتوي على ثلاثة أمور:

الأول: أن القرآن يجمع في عهد النبي ﷺ ويقرأ عليه بنسق واحد. فإنه لو أنجز هذا الوعد بعد عهد النبي لم يأمره باتباعه، وذلك قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

والثاني: أن النبي مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية التي تكون بعد الجمع، وليس للنبي أن يُلقى عليه شيء من الوحي ولا يبلِّغه الأمةَ، عقلاً، ولِما أمره

(١) الاعتقادات لابن بابويه القمي، طبع إيران، سنة ١٢٢٤هـ.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ١: ٥ طبع إيران سنة ١٢٨٤هـ.

(٣) هو من مؤلفاته التي لم يتيسر له إتمامها.

الله تعالى في قوله: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ المائدة: ٦٧. وقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ عامٌّ ولا يخصُّه العقل، فكل ما أنزل إلى الرسول من أمر الرسالة لابد أن يبلغه الأمة، ونظم القرآن وصورته منه، فكيف يترك تبليغه وهو مما أنزل إليه. فلا شك في أن النبي ﷺ علَّم الأمةَ قراءةَ السورة بنسَق آياتها.

والثالث: أن بعد هذا الجمع والترتيب بيَّن الله ما شاء بيانه من التعميم، والتخصيص، والتكميل، والتخفيف.

وقد علمنا وقوع هذه الأمور الثلاث. فإنّ النبي ﷺ كان يقرأ عليهم سورة القرآن كاملة، وهذا لا يكون إلا بعد أن قرئ عليه بنسق خاص فأخذوها منه، وكان يأمرهم بوضع الآيات بمحلها اللائق بها. ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مُبيِّنة ضمَّها بالقرآن.

فترى هذه المبيِّنات ربما وُضعت بجنب ما تبينه، وحيناً في آخر السورة إن كانت متعلقة بعمودها. وترى في أكثر هذه الآيات تصريحاً بأنها بيان من الله تعالى، كقوله عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٨٧. ثم عرض عليه جبريل الأمين عرضةً أخيرةً بعد تمام القرآن، كما جاء في الخبر الصحيح المتفق عليه[1]. فأتاه القرآن بتمامه مرتَّبَ السُّور، فكان مواقع السور فيه مثل مواقع الآيات مما أُلقي عليه، وعلَّم الأمةَ كما تلقَّى من الروح الأمين. فليكفنا هذا القدر هاهنا.

(١) من حديث فاطمة رضي الله عنها. أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ؛ ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ.

(١٦)

تفسير قوله تعالى

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾، تصوير لحالتي المصدقين والمكذبين. فوجوه يومئذ باسمة سروراً لما ينتظرون من رحمة الله، ووجوه (يومئذ) كالحة لما يخافون عذابه، كما قال في سورة عبس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

وكما بيَّنَ أمرين للمكذبين: من البسور وسوء الظن، فكذلك بين للمصدقين أمرين: نضرة الوجوه والاستبشار بثواب الله. والثاني كالسبب للأول، فإن السرور والحزن يظهران في لون الوجه، كما قال متمم بن نويرة:

ولوعةُ حُزنٍ تَترك الوجهَ أسفعا[1]

وهذا كثير.

فالنظر في الآية هو نظر من ينتظر من ربه رحمةً، ويرجو منه نعمةً. ولا يغرّنّك كلمةُ «إلى»، فإنها ربما لا تكون للجهة المكانية لا سيما إذا استعملت بالنسبة إلى الرب تعالى. ألا ترى استعمالها في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ النور: ٣١، وقوله تعالى:

---

(١) صدره:

فقلت لها: طول الأسى إذ سألتني

المفضليات: ٢٦٨، وجمهرة أشعار العرب: ٧٥٣.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ الذاريات: ٥٠، وقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ المزمل: ٨، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ الشرح: ٨.

ثم إن المؤمن يعظِّم ربَّه فيجعل له المكان في السماء، وهو مصيب في ذلك من وجه، فإن الله تعالى محيط بكل شيء. فربما يدعوه ويرفع نظره إلى السماء مناجياً له ومتوجهاً إليه، وشتّان بين هذا النظر والرؤية. انظر كيف جاء في زبور (١٢٣):

«إليك رفعت عيني يا ساكناً في السماوات. هو ذا، كما أن عيون العبيد نحو أيدي سادتهم وكما أن عيني الأَمَة نحو يد سيدتها، هكذا عيوننا نحو الرب إلهنا حتى يترحم علينا، ارحمنا، يا رب ارحمنا».

وأما تمسك الإمام أبي الحسن الأشعري بهذه الآية، فكان رحمه الله مبتلىً بالمعتزلة، فكان يجادلهم على طريقهم ويفحمهم.

ألا ترى كيف اضطرهم إلى القول بأن «إلى» هو واحد «آلاء»، وضعفه ظاهر. ولكن الحق الأبلج أن الاستدلال على رؤية الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾، والجواب بأن «إلى» واحد «آلاء»، كلاهما من الوهم والجهل بلغة العرب وشؤون الكلام. فالآلاء ليست بمعنى النعم كما بيَّنّاه في كتاب «مفردات القرآن»[1]. ثم مع الإيمان بالتنزيه، ما لنا وللخوض في ذات الله. أليس ذلك من علامات ذهاب الدين؟ فأحذِّرك عنه. وتفصيل المسألة في كتاب عيون العقائد[2].

---

(١) ص ١٢٥.

(٢) انظر فصل «الرؤية» في كتاب «القائد إلى عيون العقائد»: ١٠٥.

(١٧)

الإشارة من مجيء «يُفْعَل» مجهولاً

في قوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ مجيء «يفعل» بصيغة المجهول يشير إلى أن العذاب إنما يُخاف من جهة أنفسنا، كما أن النعم تُنتظر من الله.

وصرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ الشورى: ٣٠. وعلى هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فلم ينسب الغضب إلى نفسه كما نسب الإنعام في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

وهذا للتنبيه على رحمته العامة، ولكن إذا أراد عموم عدله ونفاذ سنته نَسَبَ كل ما يقع إلى ذاته المقدسة.

والأصل في ذلك أن المعبود محبوب عند كل عابد، إلا من كان في أسفل درجات الإنسانية، فلا يرجون منه إلا الحسنى، ويدعونه بأسماء تدل على الرحمة. وشرح ذلك في تفسير آية: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾.

وإذا قابلت هذه الآية بالتي سبقتها في صفة المؤمنين، بدا لك أن المؤمنين منتظرون قربةً من الله، والمكذبين قد يئسوا من رضوانه وعلموا بأنهم مبعدون، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥﴾ المطففين: ١٥.

(١٨)

تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ وقراءة الفاصلة بالوقف وحذف الياء

في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ الضمير للنفس، كما جاء في سورة

الواقعة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ الواقعة: ٨٣. و إنما لم يذكرها لعلمهم بها وتعودهم بهذا الحذف، كما قال حاتم الطائي:

أماويَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حشرجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ[1]

وهذا الحذف من مثل ما جاء في القرآن: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ فاطر: ٤٥.

ثم في الآية أمر آخر من جهة القراءة، وذلك أنه لا خلاف بين العلماء في أن النبي ﷺ كان يقف على آخر الآيات، أي يقطعها. فإن الفواصل إنما جاءت متشابهةً لأمر صوتي، وأما وصل المعنى وفصله فأمر آخر، كما ترى في الأشعار و الأسجاع.

وقد علمنا من كلام العرب أنهم ربما يحذفون الياء من آخر الكلمة لا سيما الساكنة، كما ترى في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الكافرون: ٦، وأصله «ديني». وذلك كثير في القرآن في الفواصل.

وجاء في غير المقاطع أيضاً في أشعار العرب. قالت الخنساء:

وتعذَّرتْ أُفُقُ البلا د فما بها وَشَلٌ لمائِحْ
تُذري السوافِ على السَّوا مِ وأجدَبَتْ سُبُلُ المسارِحْ[2]

(١) ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره: ١٩٩.

(٢) أنيس الجلساء في ملخص شرح ديوان الخنساء ص: ١٤، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، سنة ١٨٩٥م.

في الأصل «المانح» مكان «المائح». السوافي جمع السافيا: الغبار. والضمير في «تذري» لأفق البلاد، وتأنيثها لتأنيث المضاف إليه. والسوافي للغبار. جاء في شعر مالك بن ريب التميمي:

بأنكما خلفتماني بقفرة تُهيل عليَّ الريحُ فيها السوافيا

جمهرة أشعار العرب ص: ٧٦٣. وأما السوافي للريح فجاء أيضاً، وحينئذ السوافي في حالة الرفع (من إفادات المؤلف رحمه الله).

فحذفت الياء من آخر «السوافي»، و هو في حالة النصب مثل التراقي. وقالت الخنساء:

فيا عين بكّي لامرئ طار ذكره   له تَبْكِ عينُ الراكضاتِ السوابحُ(١)

حذفت ياء «تبكي». وأنشد سيبويه في كتابه:

فَطِرْتُ بمُنْصُلى في يَعْمَلاتٍ   دوامي الأيدِ يخبِطْنَ السَّريحا(٢)

فحذفت الياء من آخر «الأيدي».

وإذ قد شاع في كلامهم حذف الياء الساكنة، و الياء في «التراقي» على تقدير الوقف ساكنة، فلا يبعد أن تحذف الياء، ثم تسكن القاف، كما رأيت في مثل: ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ الكافرون: ٦، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧﴾ الزمر: ١٧، ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨﴾ ص: ٨.

(١٩)

تفسير قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧﴾

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧﴾ حكاية عن شدة الأمر حين لا يلتفت إلى الذي قال، كأنّ هذا القول بنفسه أذهل عن ذكر القائل، وكأنَّ كلهم شريك في هذا القول، فالمجهول هاهنا أبلغ. و«من» قبل النكرة تجيء لشدة الطلب، أو عند غلبة اليأس. قال طرفة:

إذا القومُ قالوا مَنْ فتىً؟ خِلْتُ أنَّني   عُنِيتُ، فلم أكسَلْ ولم أتبَلَّدِ(٣)

وقالت الخنساء:

---

(١) أنيس الجلساء: ٢٠.

(٢) كتاب سيبويه الجزء الثاني ص: ٢٩١، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣١٧هـ.

(٣) شرح القصائد السبع لابن الأنباري: ١٨٣.

يُعطي الجزيلَ ولا يَلحَى الخليلَ ولا   يَغْبَى السبيلَ إذا ما قيل مَنْ هادِ[١]

في البيتين سؤال عند شدة الحاجة، ولكنَّ في الثاني طرفاً من اليأس. وربما ينتهي اليأس إلى الإنكار، كما هو العادة في الاستفهام في جميع الألسنة المشهورة. ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾ القصص: ٧١.

والاستفهام للإنكار شائع، ولكني أردت الاستشهاد على مجيء النكرة بعد «مَنْ»، وكشف معناها في هذا التركيب الخاص، فإن الآية محتملة لوجهين ولكن المآل واحد. الأول: أنه إذا جاءت سكرة الموت، وحشرجت النفس، وقالت العواد اضطراباً، كما أن الغريق يتشبث بالحشيش: ألا راقٍ فيداويه؟

والثاني: أنهم قالوا: قد حُمَّ الأمرُ، وانقطع العمر، فأيُّ راقٍ يشفيه؟ وهذا لشدة يأسهم. وحينئذ أيقن المحتضر أنهم أسلموه، وودّعوه، وعلِمَ أنه الفراق. والعرب قد نطقت بهذا المعنى. قالت الخنساء:

لكنْ سهامُ المنايا مَنْ يُصِبْن له   لم يَشفِه طِبُّ ذي طِبٍّ ولا راقِ[٢]

وقال عدي بن زيد:

أو تكن وجهةٌ فتلك سبيلُ   النَّاسِ لا تمنع الحتوفَ الرَّواقي[٣]

فوضعتُ المعنيين بين يديك، فخُذْ بأيهما شئت، ولا حرج إذا كان المآل واحداً. وأما أنا فأرى الوجه الثاني أحسن لقربه من نظام الكلام، كما علمت، وستعلم.

---

(١) أنيس الجلساء ص: ٢٧. وفيه: «ولا يلحى الجليل»، ولكن الصواب عند المؤلف: «الخليل».

(٢) المصدر السابق ص: ١٠٢.

(٣) ديوان عدي: ٤٥٤.

(٢٠)

تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾

معنى ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ أن لا يقدر المرء على المشي، ويكون هذا من شدة الضعف. فإنه إذا مات تبين أن قد التفت ساقاه بعد أن كان جوّالاً، كما قال دريد بن الصمة:

فإن يـكُ عبـدُ الله خـلَّى مكانـه ... فما كان وقَّافـاً ولا طائـشَ اليـدِ

كميشُ الإزار خارجٌ نصفُ ساقـه ... صبورٌ على الضرَّاء طلّاعُ أنجُدِ[1]

وتصوير الضعف بالتفاف الساق أمر ظاهر، وجاء في كتب الأنبياء. فمعنى الكلام أنه بعد ما يئس منه الطبيب، وودّعه القريب، وخانه أطوع أعضائه، فكيف يكون مآله، وهو مَسوقٌ إلى ربه قليل الأزر كثير الوزر؟

و«الساق» بمعنى شدة الأمر قول من لا يعرف من علم اللسان غير اسمه، فلا يميز بين دلالة المجموع ودلالة الأجزاء. الكشف عن الساق إنما يدل بمجموعه على الجد والتشمير، والكشف هو الكشف، والساق هي الساق.

ووهم الرواة في ما رووا عن ابن عباس ﷺ: أنه آخر أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة[2]. فإنه لو صح فهو بيان الواقعة، وليس بتفسير للساق.

---

(١) من قصيدة له في رثاء أخيه عبد الله. انظر الأصمعيات: ١٠٨، وجمهرة أشعار العرب: ٦٠١، وشرح الحماسة للمرزوقي: ٨١٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٩: ١٩٦.

(٢١)

بيان ربط قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾

بعد ما علمت المراد من التفاف الساق بالساق، تبيَّن لك حسن موقع المساق، فإنه يخبرك عن شناعة غفلته عن التهيؤ لذلك المساق، وقد انتهى انهماكه في الدنيا إلى ما ترى من انقطاع سعيه ويبس ساقه، فكيف يكون مسيره إلى ربه؟

وهذا الكلام ينبهك إلى ما يتلوه كاشفاً عن عُدْمه وسوء فقره. فإنه لو عمل صالحاً وكان صدَّق وصلَّى لَرُفِعَ بهما، فكانتا له مثل جناحين. قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ فاطر: ١٠.

وهذا التأويل الذي هو ظاهر بنفسه أيضاً مناسب لما جاء بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾. فهذا يقابل حاله حين ذهب عنه التمطِّي، وصار مُلقىً على نعشه، ملفوفاً في كفنه. وقد ذكر بأسلوب المقابلة حالة سَوق الإنسان إلى ربه ومسيره في سفره الذي يشقُّ على الأنفس في سورة الانشقاق، فانظر هناك تجد مزيد بيان لهذا التأويل.

(٢٢)

موقع الصلاة في الدين

لا نرى الحاجة إلى شرح ما بقي من الآيات، فإنِّي أرجو أنَّك الآن على طريقٍ جَدَدٍ، غير أنا نشير إلى أهمية الصلاة إشارةً، وبسطنا الكلام عليه في كتاب «أصول الشرائع»[1].

---

(١) هو من أهم كتبه، قصد فيه إلى ذكر أصول الشرائع وعلاقتها بالإيمان وأصل العبودية والتقرب إلى الله، ولكن لم يتيسر له إتمامه.

فاعلم أن الصلاة والزكاة أول الشريعة، وبهما يتحقق الإيمان. وفي القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك. وهكذا قال المسيح عليه السلام مصرِّحاً حين سئل عن أول الشرائع.

ومن قال إن مجرد الإيمان يكفي، فبئس ما فهم من الإيمان! أين الإيمان المجرد عن العمل؟ انظر تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ المدثر: ٤٠ - ٤٨، تجد هناك ما يكشف عن رفيع منزلة الصلاة.

وكذلك انظر تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ الزخرف: ٣٦، وقوله تعالى: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ مريم: ٥٩، وآيات أخر. فقد أتبع تركَ الصلاةِ الغيَّ، والتكذيبَ، والحرمانَ من الشفاعة.

وبيّن لنا الله تعالى أن الصلاة تشقُّ إلا على المؤمنين حقًّا حيث قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ البقرة: ٤٥ - ٤٦.

هذا، وتجد بعض البسط في تفسير سورة الفاتحة والبقرة وغيرهما.

(٢٣)

ربط السورة بالتي بعدها

قد علمت ربط هذه السورة بالتي قبلها مما مرّ في الفصل الأول، وعلمت أن الكلام يجري من غاية الشدة والتصريح إلى حد وسط، ويبين الدليل، ويرفع الشبهة، مع بقية التوبيخ والزجر. ولكن السورتين تخاطبان المنكرين. ثم في سورة الدهر ترى

الالتفات إلى المؤمنين، كأن الخطيب قد فرغ من الكافرين، فأعرض عنهم.

مع أن عمود هذه السور الثلاث واحد، فوجَّه الكلام فيهن من الشدة إلى اللين، ومن الزجر والنهر إلى الإعراض والإمهال، لكي يتفكروا و يرجعوا إلى أنفسهم.

هذا، ويتضح لك نظام هذه السور بعضها ببعض كل الاتضاح بعد ما رأيت تفسير كلهن.

ذلك، والله تعالى أعلم، وعلمه أحكم.

تفسير

سورة المرسلات

تفسير سورة المرسلات

وهي خمسون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤
فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ
مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

(١)

جملة الكلام في عمود السورة ونظمها بالسابقة

اعلم أن عمود هذه السورة مثل أخواتها التي وضعت في أواخر القرآن هي أصول الدعوة الأولى، وهي ثلاثة أمور: الإنذار بيوم القيامة، والخشوع لله تعالى، والإحسان إلى الخلق.

والأول أصل للإيمان بالقرآن، فإن أول تجلّيه كونه إنباءً بالعدل والجزاء والإنذار بيوم عظيم. والثاني أصل للصلاة والتوحيد. والثالث أصل للشرائع كلها. وهذه الأمور مبسوطة في موضعها.

فبحسب ذلك صرف الكلام في هذه السور على أنحاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ الإسراء: ٤١. فعلى هذا بيّن من هذا العمود العام بعض الجوانب في بعضها، وبعضها في الأخرى. ويخاطبهم فيها من جهتي الفكر والحس، وجانبي العقل والقلب. ولذلك يجمع الأدلة بالترغيب والترهيب على أنحاء شتى، كما هو مقتضى البلاغة.

وعلى هذا كما ذكر جانب المعاد والقرآن والصلاة في السورة السابقة ذكر ذلك في هذه أيضاً، ولكن ما جعله هناك مجملاً جعله هاهنا مفصلاً.

ففي السابقة أوجز الاستدلال على المعاد، فبسط في هذه. وهناك في تصوير المعاد بسط جانب الترغيب، فهاهنا بسط جانب الترهيب. وذلك رعايةً لإلحاق الإنذار بالتبشير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الأنعام: ٤٨، والكهف: ٥٦.

وهذه جملة الكلام، ويتضح ما ذكرنا من النظر في السورتين والتدبر في نظمها.

(٢)

مقدمة في مواقع ترجيعها بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

اعلم أن هذه السورة من ذوات الترجيع، فإنك ترى فيها آية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ قد جاءت عشر مرات. وقد سبق في تفسير سورة الرحمن ما يتعلق بهذا الأسلوب، فلا نعيده، غير أمر واحد، وهو أن من حسن الترجيع مناسبته بما قبله من الذكر. ولذلك لابد أن يكون جامعاً لوجوه من المعاني. فعلى هذا تجد هذه الآية مناسبة بما قبلها بوجه تخص بموقعها، لما فيها من الوجوه الكثير، وذلك من جهة أسلوبها، ومن جهة كلماتها الثلاث. فنذكر هاهنا ما تشمل من الوجوه:

(ألف): أما أسلوبها فيحتمل الإنشاء والإخبار. والإخبار إما لبيان ثبوت الويل، كما جاء في كثير من الآيات مثلاً: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ البقرة: ٧٩، أو لبيان قولهم في ذلك اليوم، كما جاء في القرآن: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ الصافات: ٢٠. أيضاً: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يس: ٥٢. وتكرار الويل يدل على كثرة أسبابه على تأويل الثبوت، وعلى كثرة مواقعه على تأويل

تكلمهم بها، كما بيّن ذلك حيث جاء: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ الفرقان: ١٣ - ١٤. فهذا جامع لكثرة أسباب الويل وكثرة التكلم به.

(ب): أما كلمة «ويل» فهي تجمع كلّ ما يكون سبباً للويل مما يصيبهم من الحزن والحسرة والفزع وما أعدّ لهم من العقاب. وربما يصرح بما يكون سبباً للويل، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ إبراهيم: ٢. أيضاً: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ البقرة: ٧٩. أيضاً: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الذاريات: ٦٠. وبالجملة فكلمة الويل ليست مختصة بأمر خاص، وقد سبق ما يبيّن كثرتها لكثرة أسبابها.

(ج): أما كلمة «يومئذ»، فهي إشارة إلى كل ما سبق ذكره. فإن معناها: يوم يكون كذا، فيصرف معناها حسب موقعها.

(د): أما اسم «المكذبين»، فهو جامع للتكذيب بالبعث وآيات التوحيد، وذلك هو الأصل ؛ وأيضاً للتكذيب بالرسول وكتاب الله، وذلك تفصيل للأصل. وقد صرح القرآن بهذه الوجوه كلها، وبيّن أيضاً أنّ المكذِّب بالأصل لابدّ أن يكذّب بما ينطوي على تفاصيله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ الإسراء: ٤٥ - ٤٦. فبيّن أنهم إذ كذّبوا بلقاء الله وتوحيده ثَقُلَ عليهم سمعُ ما يدعوهم إليهما. وهذا مبسوط في موضعه.

وعلى هذا فآية الويل تُلمع بحسب الظاهر إلى المكذّبين بيوم القيامة، ولكن خاتمة السورة تكشف عن وجهها الآخر، وهو التكذيب بهذا القرآن. ولا فرق بينهما في حقيقة الأمر غير الإجمال والتفصيل.

فلما كان في آية الترجيع هذه الوجوه من المعاني لابد أن يكون تأويلها حسب موقعها.

هذا، وأما وجوه تأويلها حسب كل موقع، فادّخرناها لمواقعها.

(٣)

تفسير الكلم وتأويل بعض الجمل في آيات (١-١٥)

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ أرسل الشيء: ضد أمسكه. والرياح إذا سكنت فكأنها مُمْسَكة، فإذا جرت فكأنّها أُرْسِلَتْ. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ الحجر: ٢٢.

و«العرف»: ناصية الفرس، كما هو معروف. قال امرؤ القيس:

نَمُشُّ بأعرافِ الجيادِ أَكُفَّنا إذا نحنُ قُمنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ[1]

فهاهنا شبّه الرياحَ بالأفراس، وشبّه إسكانها وإجراءها بأخذ ناصية الفرس وإرسالها. ودلّ بذلك على أنها تجري بأمر ربها، فهو مالكها ومصرّفها. قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ هود: ٥٦.

إرسال الريح يكون للنفع والضرر كليهما، وقد جاء في القرآن. وليس في محض الإرسال دلالة على الشدة، فلذلك عطف عليه «العاصفات» بالفاء.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾ أي بعد الإرسال تشتدُّ، وهذا يكون كثيراً للضرر. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يونس: ٢٢.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ نَشَره: بَسَطَه، وبثَّه، وأثارَه، وأنبتَه. وهذه معانٍ متقاربة.

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٥٤.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ التكوير: ١٠. وأيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ الشورى: ٢٨. وأيضاً: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧﴾ الفرقان: ٤٧. فالناشرات هاهنا: الرياح، لجمعها وجوهاً من النشر؛ فإنها تثير السحاب، وتبسط في السماء، وتنشر رحمة الرب، وتنبت النبات. ولا يخفى أن هذا وصف مستقل غير متعاقب للعصف، فعطفه بالواو.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ أي الرياح تفرّق وتميّز، فتأتي بالمطر مرةً وتذهب بالسحب أخرى، وتنفع قوماً وتضرّ قوماً، كما بيّنّا ذلك في تفسير سورة الذاريات تحت قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾. وإذ يكون هذا الفرق بعد فعل النشر، عَطَفه بالفاء.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ قد ذكر القرآن كثيراً أنّ في تصريف الرياح آيةً وذكراً، فلأجل السببية نسب إليها الفعل. وهذا كثير، مثلاً نسب فعل الإضلال إلى الأصنام في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إبراهيم: ٣٥ - ٣٦. فبعد ذكر تصاريف الرياح نبّه على كونها مما يُذكِّر قدرة الرب وحكمه بالحق.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ أي هذا إلقاء الذكر من الله تعالى بسبب تصريفه الرياح إنما هو ليكون عذراً وحجةً على الغافلين، وإنذاراً للمتذكّرين. وكلمة «أو» للتوزيع.

ويشبه ذلك ما ذكر الله تعالى عن قول المصلحين من عباده: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٦٤﴾ الأعراف: ١٦٤. أي معذرةً منّا في حقّ من لا يتعظ، ونافعةً في حقّ من يتقي.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ يعمّ كلّ ما وُعِدوا من مجيء القيامة والبعث، والفصل والجزاء كما صرح به في النظائر. وكل ذلك أمر واحد فذكرها مجملاً.

﴿طُمِسَتۡ﴾ طَمَسَ الشيءَ: محاه وغطّى على آثاره، مثلاً: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ النساء: ٤٧. أيضاً: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ يونس: ٨٨.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ النبأ: ١٩. أيضاً: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ الانفطار: ١. فالمعنى: أن السماء التي ترونها الآن محكمةٌ لا فرجة فيها ولا فطور، كما جاء: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ ق: ٦، أيضاً: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ الملك: ٣ ، فهذه السماء مع إحكام خلقها تنفرج ذلك اليوم بأمر خالقه.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾ نَسَفَه: كَسَره، وفرّقه، ودقّه، ونَفَضَه. ومنه «المنساف» لآلة تُكسَر بها الحنطة وتُنْفَض من العصف. قال تعالى إخباراً عن قول موسى عليه السلام: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧﴾ طه: ٩٧، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦﴾ طه: ١٠٥ - ١٠٦.

﴿أُقِّتَتۡ﴾ مبدل من «وقتت» كـ«أجوه» من وجوه. والتوقيت: تعيين الوقت. والمعنى: أقت لهم الوقت. وهذا الأسلوب كثير، كما تقول: ابغني خادماً وأرسِلْني فرساً. أي ابغِ لي خادماً وأرسِلْ إليّ فرساً.

أي إذا جعَلَ للرسل وقتاً معيّناً فيُسْألون عن أمتهم، ويُقْضَى عليهم بشهاداتهم، كما صرح به القرآن في مواضع.

﴿أُجِّلَتۡ﴾ أجّلَ له: ضرب له أجلاً وزماناً معيّناً، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ الأنعام: ١٢٨. فتأويل «أجلت» إمّا كما ذكرنا في ﴿أُقِّتَتۡ﴾، أو أُجلت الآجال. ولا فرق بين التأويلين من جهة المفهوم.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي عظيم. فإن هذا الاستفهام ربما يأتي لمحض التفخيم،

فيستغني عن الجواب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ الحاقة: ١ - ٤.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ قد مرّت وجوه هذه الآية، فسنذكر ما يناسب هذا الموقع. وأما هاهنا فاعلم أنها ليست بجزاء لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ إلى آخره. فان نظائرها مستقلّة مع اتصال معنوي، ولأن الجزاء في نظائر هذا الشرط يكون مصدَّراً بالفاء، إلا أن يكون جملة فعلية أو ظرفية، مثلاً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾﴾ المدثر: ٨ - ٩. وأيضاً: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ الطور: ٩ - ١١؛ ولأنك تجد الجزاء محذوفاً في نظير هذا الشرط مثلا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ الانشقاق: ١ - ٦. فحذف الجزاء لكونه مفهوماً من سياق الكلام.

(٤)

بيان وجه الاستشهاد بالرياح، ونظم هذه الآيات وموقعها

قد بيّنا في كتاب «الإمعان» أن هذه الأقسام شهادات وآيات دالّة على المقسَم عليه. فأشهد الرياح المرسلات العاصفات، والناشرات السحب والنباتات والدوابّ، والفارقات بين آثارها، فأرض ممطورة وأرض غير ممطورة، وقوم مصاب بالنفع وقوم بالضرر من المطر والإعصار، والصاعقة والبرد. وذلك يدل على تصريف الرب تعالى إياها حسب مشيئته، فإنه مع ما جعلها بشرى بين يدي رحمته، ربما يهلك بها أمة ظالمة، وربما ينجي بها أمة صالحة، وربما يمسكها، وربما يرسلها.

وقد بينا ذلك في تفسير سورة الذاريات، وصرح القرآن بهذه الأمور في غير موضع، فلا حاجة هاهنا إلى إيراد الآيات الشاهدة.

فعلى هذا الأصل استدل على يوم الدين بما يظهر من دينونة الرب تعالى في الدنيا من تصريف الرياح للرحمة والنقمة والمنافع والمضار، فدلت على ربوبيته وقدرته وحكمته وتدبيره. فظهر أنه ينعم على عباده ويعذبهم، وليس بغافل عنهم، فلابد أن يدينهم يوما حسب أعمالهم. وهذا هو أصل الاستدلال على الدينونة.

ثم لما كانوا من شدة غفلتهم ينكرون بيوم الدين من جهتين: من جهة كونه عجيباً، ومن جهة تأخره فإنه قد وُعِدوا به ولمّا يأتهم، فبحسب هاتين الشبهتين أجرى الكلام هاهنا.

فأما الشبهة الأولى، فأزاحها بأن ذكر من أمر يوم القيامة ما هو مشابه لفعل الرياح. فإنها تطمس على الأعلام وآثار الديار، وتفرج السحب. وربما تشتدّ، فتخرق البيوت، وتذهب بالسقوف. وربما تهدم القصور المشيدة، وتحطم وتنسف أجزاءها. فمن يعتبر بتصاريف الريح لا يستبعد أن يأتي أمر الله فيطمس النجوم ويفرج السماء وينسف الجبال. فجعل الله أفعال الرياح آية على ذلك.

وأما الشبهة الثانية، وهي معظم ما يتمسكون به، وقد أجاب عنه كثيراً وبوجوه، مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ فاطر: ٤٥.

وأما هاهنا، فذكر أنه يوم الفصل، فمن رحمته أن أمهلهم برهةً، وأكثر لهم من النصيحة والعبرة، لِيُتمّ الحجةَ على الغافل، ولينجّي من ينتفع النذر. فإنه إذا جاء يوم الفصل لا يُقبل من المجرمين الغافلين توبة، ولا يُسمع منهم عذر، ولا تبقى لهم حيلة تنجيهم من الانتقام والبطش الشديد والعدل التام، كما صرح به فيما يأتي من بعد. فعظّم أولاً أمرَ هذا يوم الفصل والحساب، ثم نبّه على شناعة أمر من يُكذّب بمجيئه،

إذ لا يخافون ما هو آتٍ وإن أُخِّر إلى أجل مسمّى.

فموقعُ آية (١٥): ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ بعد ذكر يوم الفصل ويوم الجزاء موقعُ كلامٍ جامعٍ يشمل كلَّ ما يقع عليهم في ذلك اليوم. وقد ذكر بعد ذلك أسباب الويل ووجوهه، كما سيأتيك. فبعد كل ترجيع يتضح طرف خاص من معناه الجامع.

هذا، وبعد ما استدل عليهم بأمور الفطرة العامة، عمد إلى الاستدلال بالوقائع الماضية والآثار الدالة وسنن الله الجارية عليهم، كما هو كثير في القرآن. فقال عز من قائل حكيم:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾.

(٥)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (١٦-٢٨)

﴿مَّهِينٍ﴾ المهنة: عدم الاعتناء. مهنت الإبل: خليتها عن الصدر. ومنه الابتذال والتحقير. امتهنت الشيء: ابتذلته، والرجل: أضعفته. ومنه الماهن: الخادم. ومنه المهنة: الخدمة. ومَهَنَه: خدَمَه. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ القلم: ١٠، أي من هو مبتذل النفس. أيضاً إخباراً عن قول فرعون حين استخف موسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ الزخرف: ٥٢.

﴿قَرَارٍ﴾ القرار: هو السكون، وأيضاً موضع القرار. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩﴾ غافر: ٣٩، أي دار السكون. وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ النمل: ٦١، أي موضع القرار. أيضاً: ﴿يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٢٩﴾

إبراهيم: ٢٩. ومنه «القرار» للمستقر المطمئن من الأرض. قال تعالى: ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٠.

﴿ مَّكِينٍ ﴾: مطمئن. ويوصف به الموضع، فيدلّ أنه خالٍ عن القلق والتزعزع، كما هو هاهنا. وربما يوصف به ذوو العقول، فيدلّ على كونهم ذوي الثقة والاعتماد، وذوي الرسوخ في المرتبة، كما قال تعالى: ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ التكوير: ٢٠ - ٢١، وكما أخبر عن قول ملك مصر ليوسف ﷺ: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ يوسف: ٥٤.

﴿ قَدَرٍ ﴾ قدر الشيء: مبلغه ومقداره. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ القمر: ٤٩. أيضاً: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ الحجر: ٢١. وكذلك المعنى بسكون الدال. قال تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق: ٣. وأيضاً: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٨.

﴿ مَّعْلُومٍ ﴾: معين، وقد مر الشاهد آنفاً؛ فإن ما لم يتعين فقد أبهم ولم يعلم.

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ من القدر بمعنى التقدير. وقد مر الشاهد آنفاً. وأيضاً من القدرة، وهذا كثير. وهاهنا كلا الوجهين سائغ، والخلق يدل عليهما. ولكل نظائر في القرآن.

﴿ كِفَاتًا ﴾ من كَفَتَه: ضمّه وجمَعَه. وفي الحديث: «اكفتوا صبيانكم بالليل»[1] ومنه كَفَتَه عن وجهه: صرفه. ومنه الكِفْت بالكسر: للقدر الصغيرة. والفِعال بمعنى ما يُفعَل به كالزمام. ولذلك صار في قوة الفاعل، فصحَّ وقوع المفعول بعده.

﴿ رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ أي جبالاً راسياتِ الأصول، عالياتِ الفروع. ولدلالة

(١) أخرجه البخاري من حديث جابر بن عبد الله في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم... إلخ.

الصفة على الموصوف استغنى عن ذكره، كما هو شائع في العربية، وكثير في القرآن.

﴿فُرَاتًا﴾ الفرات هو الماء التام الحلاوة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ الفرقان: ٥٣، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فاطر: ١٢. ومنه سُمِّيَ نهر الكوفة فُراتاً.

(٦)

تفسير الآيات السابقة، ووجوه دلالتها على المعاد، ونظامها

لا يخفى أن في هذه الجملة ثلاث ترجيعات بعد ثلاثة خطابات، كلها مصدرة باستفهام إقراري. فإنهم خوطبوا بما علموه. ثم بكل من هذه الخطابات دل على المعاد بوجه خاص. فدل أولاً بالآثار الباقية في الأرض، وثانياً بخلق الإنسان وتصويره في بطون أمهاتهم، وثالثاً بما جعل الأرض لهم مثل الأرحام.

وتفصيل هذا الإجمال أن الخطاب الأول يذكّرهم ما هو المشهود حولهم من آثار المجرمين. فإنهم قد علموا أن الله تعالى أهلك بعض الأمم مثل عاد وقوم لوط بالريح. ولما قدم الاستشهاد بالريح وبذلك أنذرهم بما تبيّن لهم من آثار العذاب على المكذبين المجرمين من أهل القرى المهلكة حولهم، فاكتفى بقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ - إلى قوله - ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ عن ذكر الآثار الدالة على جزائهم.

وقد فصل في القرآن هذا التأويل في مواضع، مثلاً قوله تعالى في قصة عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الأحقاف: ٢٤-٢٧.

فبالخطاب الأول كأنه قيل لهم: لقد أهلكنا المجرمين الأولين، وهذه سنتنا

الجارية، فأهلكت أمم مجرمة بعضها بعد بعض، وقد علمتموه وسمعتموه، فهكذا تكون في الآخرة. وبذلك دلّ على وقوع يوم الفصل، فأغنى عن ذكره، وأتبعه قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ المرسلات: ١٩ تنبيهاً على ما يفعل بالمجرمين. فإن «الويل» جامع لكل ما يقع عليهم من العذاب.

وموقع الآية هاهنا يدل على كون التكذيب بيوم الفصل جرماً عظيماً، فإنه كفر بعدل الرب وقدرته ورحمته. ثم هو منبع لكل إثم وشرك واستكبار عن الإيمان بآيات الله وكتبه ورسله. وقد صرح بهذه الأمور كلها في غير موضع.

والخطاب الثاني تعقيب ما في الأرض ما في أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الذاريات: ٢٠ - ٢١. وبما ذكر في هذا الخطاب نبّههم على أن الله الذي قدر جزئيات خلقكم كيف يترك ما هو الكلي وأهم؟ وأيضاً دلّ على أنه تعالى إذ قدر على خلقكم وتصويركم أولاً فهو أشدّ قدرةً على بعثكم مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ مريم: ٦٦ - ٦٧. ومن كلا الوجهين دل على وقوع يوم الفصل فأغنى عن ذكره.

ثم أتبعه قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ تنبيهاً على تحتم الويل لهؤلاء الذين كذبوا بالقدر أو القدرة، فإذا بُعِثوا ظهر ويلُهم إذا شاهدوا ما كذبوا به، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ الصافات: ١٩ - ٢١.

والخطاب الثالث يضم المثل بالمثل. فإن الأرض كما هي تشتمل على الآثار الدالة على المعاد، كما مرّ فيما ذكرنا من قصة عاد، وذلك في غاية الظهور، وقد جاء في القرآن كثيراً، فكذلك هي مشابهة للأرحام بل هي أولى منها في الصفات المشتركة

بينها. وقد دل على ذلك أيضاً بقوله: ﴿كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ المرسلات: ٢٥ - ٢٦، فهذا أجمع.

وبيان هذا الإجمال أن الله تعالى بما جعل في الأرض من الجبال، وجعلها راسيةً، فجعل بها الأرض قراراً مكيناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ النحل: ١٥، ثم جعلها شامخات، فحفظ بها السحب، وخزن فيها الماء، وفجر منها ينابيع، وقد صرح القرآن بهذه الأمور؛ وبالجملة فأجرى للإنسان من رؤوسها ولصابها وعروقها ماءً فراتاً، فبذلك جعل له الأرض كالرحم الذي هو القرار المكين له، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ المرسلات: ٢١، ويُسقى فيه من عروق يجري منها إليه غذاؤه، ولكن الأرض أجمع وأتمّ في هذه الأمور كلها، فهي كالرحم لجميعهم. ثم إذا مات الإنسان ودفن فيها فكأنه وضع في رحم أمه التي ولدته، كما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ طه: ٥٥. والإخراج مرة أخرى ليست بأكثر عجباً من الأول، فكيف يكذبون به؟

فلو اعتبروا بأمر الأرض ومحياهم ومماتهم فيها لم يمكنهم الإنكار بالبعث، بل علموا أنهم إذا ولدوا فكأنهم حملوا، وإذا ماتوا فقد وضعوا.ثم من جهة أخرى، إذا ماتوا فقد حبلت بهم الأرض، فلابد من يوم مخاضها ووضعها ما ثقلت به، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ الزلزلة: ١ - ٢.

وحقيقة هذا الكلام هي الاستدلال على المعاد من جهة الربوبية والإحاطة بهم أحياءً وأمواتاً.

هذا، وإذ دل على يوم الفصل استغنى عن ذكره. ثم أتبعه قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾، فدل بموقعه على تحتم الويل لمن كذّب بالربوبية والإحاطة. فإذا حُشروا جميعاً إلى ربهم تبيّن ويلُهم بما كذّبوا، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم

مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ يس: ٥١ - ٥٢.

هذا، ومن أسلوب البلاغة جعل الغائب حاضراً مشهوداً. فبعد ما ذكر من الدلائل على يوم الفصل، خاطبهم بكلام يناسب مشهده، كأن ذلك اليوم قد حضر، وكأنهم قد حُشِروا إلى ربهم، وقد صاروا ينظرون ما كانوا يكذّبون به. فقال عز من قائل حكيم:

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

(٧)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات (٢٩-٤٠)

﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي ظل من الدخان، فإن الدخان إذا علا من نارٍ عظيمةٍ شديدةِ اللهب انشعب كالشعلة، واسبطرّ كالظُلّة. وسيأتيك تأويل ذلك.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ الآية. أي خالٍ من برد الظل، كما بيّنه بقوله: ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ الواقعة: ٤٣ - ٤٤. وموقعُ النفي إزالةُ ما يوهم من لفظ الظل.

﴿إِنَّهَا﴾ أي اللهب التي وراء ذلك الظل.

﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ القراءة المشهورة الباقية الجارية على الألسن إنما هي بسكون

الصاد، فلا يُلتفت إلى ما نُسِبَ إلى ابن عباس ﷺ من أن المراد به أعناق الإبل على أنه جمع «القَصَرة» بمعنى أصل العنق [١]. ثم الفاصلة التالية لا تواتيه. ثم أصل العنق موضع، وليس بعضو مستقل فَتُشبَّهَ به الشرر.

وكذلك لا يلتفت إلى قول من زعم أنه جمع «قَصْرة» لأصول الشجر العظام[٢]، فإن التشبيه التالي لا يواتيه. ثم هما كلمتان غريبتان عن لسان القرآن ولا قرينة معهما.

وأما لفظ «القصر» فقد جاء في القرآن غير مرة. فالتأويل الظاهر هو الصحيح، وهو الذي روي عن ابن مسعود ﷺ[٣].

وعلى هذا فالتشبيه إنما هو في عظم الشرر، وعلوّ مكانه، ولونه. فإن القصور تبنى على المواضع العالية وترى من البعد لامعة مخالفة للون ما تحتها. وليس المراد بالتشبيه عظم القصر كما هو، بل حسبما يتراءى من البعد. فإن العرب استعملوه مشبّهاً ومشبّهاً به بحسبما ذكرنا، كما قال عمرو بن كلثوم:

وأعرضت اليمامةُ واشمخَرَّتْ　　　كأسيافٍ بأيدي مُصْلِتينا[٤]

ولذلك كانوا يشبهون الناقة بالقصر والجسر، وهذا كثير، فلا حاجة إلى الشواهد. والتشبيه بجمالة صفر بعد ذلك يبين ما ذكرنا.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾ الضمير راجع إلى «الشرر» بحسب اللفظ. فإن الشرر

(١) انظر الطبري ٢٩: ١٤٧.

(٢) المرجع السابق ٢٩: ١٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٤: ٤٦٠-٥٦١.

(٤) انظر شروح المعلقات.

اسم الصنف، فيستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والكثير. والمراد هاهنا الكثير، كما دل عليه تشبيهه بالجمالة. والجمالة هي جماعة الإبل الذكورة[1]. وهذا التشبيه يصور لون الشرر وعظمه معا، وإنما وصف بالصفرة لكونه يرى وراء الدخان.

(٨)

لامعة من قوله تعالى: ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ [٣٠]

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾، يصور جهنم مقبلة إليهم بشعب دخانها مثل ذوات العقول. وقد جاء في القرآن تصويرها هكذا، مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ الفرقان: ١١ - ١٢.

وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ ق: ٣٠. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ المعارج: ١٥ - ١٧.

والظاهر من «ثلاث شعب» شدة وهجان النار فقط. ثم للتدبر مجال في التأويل، وذلك أن أصل الكفر ثلاث خصال: الذهول عن الخالق، وعدم المواساة بالمخلوق، والإنكار بيوم الدين، كما هو مبسوط في موضعه. فنكتفي ببعض الشواهد.

مثلاً ما جاء في ذكر سؤال أهل الجنة أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ المدثر: ٤٢ - ٤٦. والمراد بالخوض هاهنا هو تكذيب القرآن، وكان أصل ذلك إخباره عن يوم الدين.

---

(١) انظر لسان العرب (جمل).

أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل: ٥ - ١٠. فبحسب هذه الثلاث من خصالهم تخرج ثلاث شعب من جهنم وتقبل إليهم وتطل عليهم كالظلة. والله تعالى أعلم.

وقد ذكر عن ابن عمرو ما يقرب من ذلك. روي عن أبي عبد الله الجدلي قال:

«أتيت بيت المقدس، فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس. فقال عبادة: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، ويقول الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ المرسلات: ٣٨ - ٣٩، اليوم لا ينجو مني جبار عنيد ولا شيطان مريد. فقال عبد الله بن عمرو: فإنا نحدث يومئذ أنها تخرج عنق من النار فتنطلق حتى إذا كانت بين ظهراني الناس نادت: أيها الناس! إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه، لا يغيبهم عني وزر، ولا تخفيهم عني خافية: الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وكل جبار عنيد، وكل شيطان مريد. فتنطوي عليهم، فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة» (أخرجه ابن أبي حاتم)(١).

أقول: لعل ما ذكر من ثلاث فرق أخذه من قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ ق: ٢٤ - ٢٦. والتأمل فيه يبين الصفات التي ذكرنا. أي عدم المواساة بالمخلوق، والإنكار بالآخرة، والذهول عن الرب تعالى، فإن الشرك من ذلك الباب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٤٦١.

(٩)

النظر في مجموع هذه الآيات ونظمها ومواقع ترجيعها

(١) قد سبق أن هذا الخطاب جاء على أسلوب يجعل الغائب مشهوداً، وإنه أعظم تأثيراً في القلوب. ولما كان المقصود ذلك التأثير صوّره بحسبما يملأ الحاسة، وبذلك صوّر لهم الويل الذي يكون لهم. فرجّع بآية الويل، ودلّ موقعها على مفهومها الخاص بهذا الموضع، وهو أن لهم ويلاً عظيماً من شدة العذاب العتيد لهم.

(٢) ثم بعد تصوير المحسوس من شدة ذلك اليوم، ذكر ما هو المدرك بقلوبهم، وهو فوات الاستعتاب والاعتذار. وهذا مزيد على شدة ما رأوه. فرجّع بآية الويل، ودلّ موقعها على مفهومها الخاص بهذا الموضع، وهو أنه لا يبقى لهم في ذلك اليوم غير الويل المحض والحسرة وانقطاع الرجاء من كل عذر.

(٣) ثم بعد ذكر هذه الترهيبات خاطبهم على سبيل التبكيت والإفحام والجواب لإنكارهم في الدنيا. وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ﴾ الطور: ١٤ - ١٥.

وفي هذا الخطاب ذكر سعته لجمعه الأولين والآخرين. وخاطبهم مرة أخرى بأسلوب يقيم الغائب بين أيدي المخاطبين، ويبين فوات كل حيلة، وهذه سعته المعنوية. وكما ذكر فيما سبق فوات الاعتذار، ذكر هاهنا فوات كل كيد وتدبير وقوة، وبذلك أشار إلى كونهم مغترين بحيلهم وتدابيرهم، فكأنه قيل لهم: هلا تستعملون تلك المكايد!

ثم بعد ذلك رجع بآية الويل فدل موقعها على مفهومها الخاص بهذا الموضع، وهو أنه لا يكون لهم يومئذ حيلة ولا كيد، بل يكون لهم ويل وصغار وخزي وشنار.

هذا، ولما كان من سنة القرآن وأسلوبه الخاص جمع الترغيب بالترهيب،

ورعاية التوسط بين الشدة واللين، رجع بعد الأربعين من الآيات المنذرة إلى ذكر الآيات المبشرة. فقال عز من قائل حكيم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

(١٠)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (٤١-٥٠)

﴿ فِى ظِلَـٰلٍ ﴾ إلخ أي بين ذلك، كما جاء كثيراً مثلاً: ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ الواقعة: ٢٧ - ٣٤. والمراد به ذكر ما هم محفوفون به، كما قال بُرْج بن مُسْهِر الطائي:

فَبِتْنا بينَ ذاك وبينَ مِسْكٍ فيا عجباً لِعيشٍ لو يدومُ[1]

﴿ هَنِيٓـًٔۢا ﴾ حال من المفعول المفهوم من الفعل المتقدم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾ النساء: ٤. ولو كان مصدراً جعلناه مفعولاً مطلقاً. ووقوعُ الحال عن ذي حالٍ مفهومٍ سائغٌ، مثلاً قولهم: «راشداً مهديّاً» للمسافر.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ «إذا» كثيراً ما تجيء للاستقبال. وقد جاء في القرآن أن الناس إذا حُشِروا دُعُوا للسجود لربهم، فالذين لم يسجدوا لله في الدنيا لم يستطيعوه ذلك

---

(١) الحماسة ٢: ٣٥ (تحقيق عسيلان).

اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ القلم: ٤٢ - ٤٣.

وعلى هذا يكون التأويل أنهم لا يركعون يوم الفصل، وهكذا روي عن ابن عباس(١).

وأيضاً كلمة «إذا» تكون لبيان العادة. وعلى هذا يكون التأويل أنهم لا يركعون في الدنيا، وحينئذ يفهم من آية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ المرسلات: ٤٩ أنهم إذ لم يركعوا في الدنيا لا يستطيعونه يوم الفصل. وحينئذ يتضح جرمهم، وهذا سبب ويلهم. فمآل التأويلين واحد.

﴿بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد هذا الحديث الذي يذكّرهم المعاد، ويدعوهم إلى ربهم بأوضح القول وأبلغ الحجة، كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ الجاثية: ٦ أي بعد حديث الله وما أوضح لهم من الآيات. وهذا أوفق بقوله: «فبأى حديث». أي أيّ حديث يكون أوضح وأبلغ في النفوس، فيؤمنوا به، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث؟

وأما القول بأن المراد به: بعد ذلك اليوم، فاحتمال ضعيف. فإنهم لابد يؤمنون في ذلك اليوم، كما هو ظاهر وكما قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ الواقعة: ١ - ٢. ولو كان ذلك هو المراد لقيل: فلأي نفع بعده يؤمنون.

فإن استدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ الأعراف: ١٨٥ أي بعد مجيء أجلهم قلنا: إن هاهنا ذكر «الأجل» صريح ومتصل، فيسوغ رجع الضمير إليه حسب الظاهر، ولكنه غير لازم. فإن سياق الكلام

---

(١) انظر الطبري ٢٩: ١٥٠.

إلى تشنيع المكذبين بكتاب الله وآياته ورسله، كما يظهر من النظر في الآيات السابقة.

وهكذا فهم السلف. قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الكتاب»[1].

وهكذا قال آخرون من المفسرين[2]. فلا استدلال بما استدلّ به من النظير.

(١١)

تأويل الآيات السابقة ونظمها

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ تصوير للغائب، كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ المرسلات: ٣٠.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤﴾ محتمل للتأويلين:

الأول: أن يكون متصلاً بالخطاب المتقدم، كما قال تعالى بعد ذكر نعيم الآخرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ الإنسان: ٢٢. وأيضاً: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ الزخرف: ٧٢.

والثاني: أن يكون التفاتاً وخطاباً عاماً، ولذلك نظائر كثيرة. والحمل على النظائر أقرب.

وموقع آية الويل هاهنا المقابلة، أي حين يجزي المحسنون بالنعيم كان العذاب

---

(١) الطبري ٩: ٩٣.

(٢) قال ابن كثير: أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟ كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ ٤: ٤٦٢.

للمجرمين، فويل لهم من نفس العذاب ومن حسرتهم على ما فاز به المؤمنون، إذ لم يكونوا مثلهم، فأصابهم غمٌّ على غمٍّ.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ التفات إلى الكافرين، وجامع لوجوه من البلاغة:

١- فيه مقابلة بما ذكر من نعيم المؤمنين وتهنئتهم.

٢- وفيه تهديد من عذاب قريب.

٣- وفيه تشنيع لغرورهم بالمتاع القليل، كمن قضي عليه بعقاب شديد، وأُمهِلَ قليلاً ليتمتع نهاراً أو ليلةً بما يشتهي من الطعام والشراب، فلا يهنأ له، ويكون له شجاً وغصة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ دل على يوم الجزاء، أي الآن كلوا وتمتعوا قليلاً، فقد قضي عليكم بأنكم مجرمون. فلابد من يوم مسألة وجزاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ إبراهيم: ٣٠. فحسن موقع آية الويل هاهنا. ومفادها بيان تحتم الويل وشدته من الوجوه التي ذكرنا آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بيان لقوله: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ على كلا التأويلين، لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فإن من لم يركع لله في الدنيا فقد ارتكب جرماً عظيماً. فإن أول الفرائض الخشوع لله تعالى، وأكبر الكبائر الاستكبار منه، وذلك لازم التكذيب، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ القيامة: ٣١ - ٣٥.

وأما على التأويل الثاني فبأنكم مجرمون الآن، ثم ذكر أن جرمهم يتبين يوم القيامة إذا دُعوا إلى الركوع وعجزوا عنه. ومفاد آية الويل هاهنا بيان كون الويل نتيجةً لعدم ركوعهم على كلا التأويلين.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ خاتمة جامعة لكل ما حدّثهم به من: (١) الدلائل، (٢) والترغيب، (٣) والترهيب. وأسلوب الاستفهام ينبِّه:

١- على علو منزلة هذا الحديث الكامل في التبليغ.

٢- وعلى قلة الرجاء بإيمانهم.

٣- وعلى شناعة تكذيبهم به.

وموقع الآية يدل على التوديع بعد إتمام الحجة.

ولهذا الأسلوب نظائر، مثلاً قوله تعالى في آخر سورة الطارق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾، وقوله تعالى في آخر سورة الزخرف ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾. فهكذا هاهنا ختم الكلام بما معناه أنهم إذ لم يؤمنوا بهذا الحديث فلا يؤمنون بحديث آخر، فلتسكت وتمهلهم قليلا.

وبهذه الخاتمة قد أوضح طرفاً آخر من تأويل المكذبين، وهو أنهم هم الذين يكذبون بما أنزل الله من الحديث. فدلّ على أن أصل تكذيبهم بالقرآن إنما هو تكذيبهم بيوم الدين وعدم صلاتهم وخشوعهم للرب. وهذا قد صرح به القرآن في مواضع، وقد مر بعض الشواهد في الفصل الثاني.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره في تفسير هذه السورة. والحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين.

تفسير

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

جملة القول في عمود السورة وموقعها وربطها بما قبلها

لا يخفى أن هذه السورة من النُّذُر. وكان الإنذار أهم مطالب أول الدعوة، ومع ذلك تتنوع وجوه البيان. ففي هذه السورة بني الكلام على كف النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم. ومن هاهنا يعطف وجه المقال (١) إلى تشنيع هؤلاء المصرين، (٢) وإلى ذكر الدلائل على شناعة استغنائهم، (٣) وإلى ذكر مآل أمرهم.

وعلى طريق المقابلة ذكر الذين هم خلاف هؤلاء، لأن الشيء يتبين بضده، وليجمع الترهيب بالترغيب، ولكي يبيّن للنبي أن الاشتغال بالمؤمنين أقدم وأولى.

وقد ختم السورة السابقة بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾، فبين في هذه السورة أنك غير مأمور بالإلحاح على الذين لا يخشون. و لما علم الله أن النبي عليه الصلاة لغاية رأفته لا يكاد يملك نفسه عن الإلحاح أكثر في القرآن من النهي عنه على طرق شتى. ولما أن القرآن ينتظر الوقائع المناسبة لتعليم الأمور، فأخذ واقعة الأعمى سبباً لصرف النبي ﷺ عن الإصرار الذي لا يليق بشأنه. فأخرج الكلام مخرج التنبيه والعتاب بحسب الظاهر. والمقصود مما جاء في القرآن من الأمر بالإعراض عن المنكرين هو زجرهم وتشنيع أمرهم. وذلك أسلوب من إتمام الدعوة.

ولا خفاء على ما ذكرنا من تأويل هذه السورة عند المتوسم البصير. ولكن زلّ فيه القلم من بعض المفسرين ـ عفا الله عنهم ـ كما سيأتيك بيانه في الفصول الآتية. فلنقدم قولاً وجيزاً في عظيم خلق الأنبياء، والوجه الصحيح لما يخاطَبون به على أسلوب العتاب.

(٢)

في عظيم خلق الأنبياء وعصمتهم وموقع العتاب بهم

قد علمنا بصريح العقل والنقل أن الله تعالى يصطفي للرسالة أكرم الناس وأتقاهم كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ الأنعام: ١٢٤. وقال في نبينا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾﴾ القلم: ٤. اذكر الخبر الذي جاء في الصحيحين عن وزن النبي ﷺ بكفة وجميع الناس بكفة حتى إذا رجحهم أعطى الرسالة[1].

ثم بعد اصطفائهم يصرفهم الله كيف يشاء، فيأمرهم وينهاهم، ويعلّمهم ما لم يعلموا. فكأنهم بين إصبعيه، ويمشون بين يديه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ الطور: ٤٨، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾ الجن: ٢٧-٢٨. فهذا بيان لنظره الخاص إلى رسله، وأنه تعالى يعصم رسوله عن كل زيغ، و يتداركه قبل أن يقع فيه. فإذا جرى في سمت خطر لا يمهله إلا ريثما يُتِمّ فرضَ نبوته ويُفْرِغ سَجْلَ قوته حسب سنة الله وحكمته في خلقه. فإنه يبتلي عباده، ويخرج ما في سرِّهم.

وعلى هذا فإذا رأى بين يدي رسوله معثرةً نبّهه، وربما نهاه بجهير الصوت وأسلوب العتاب إذا وجده يذهب غارزاً رأسه، لكي ينتبه، ولكي يعلم فظاعة المنهي عنه، ولكي يتذكر أن لولا الله لَعَثَر؛ فيشكر ربه، ويتذلل أمامه، ويزداد قرباً منه والتصاقاً به، كرضيعٍ تُخوِّفه أمُّه فيلتصق بلَبانها.

---

(١) كأن المؤلف كتب هذا تذكرة لنفسه، ليثبت الحديث بعد مراجعته. وهو يشير إلى حديث شق الصدر، وقد ورد في الصحيحين، ولكن ليس فيه ذكر وزن النبي ﷺ. ولفظ الحديث: «... فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة، واجعل ألفاً من أمته في كفة... لو أن أمته وُزنت به لمال بهم». قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني ولم يسق المتن. وإسناد أحمد حسن». انظر مجمع الزوائد ٨: ٤٠٧.

فتبين مما ذكرنا أن الأنبياء بين حُسْنيين. فإن الله تعالى نقّاهم عن أوضار الهوى، فلا يعمدون إلا إلى مرضاة الله، إلا أنهم ربما يُفْرِطون في جانب، فيردُّهم ربُّهم إلى حاقِّ الجادة. وذلك لأن النبي كالأصل لأمته، كأنهم شُقُّوا من نبعه، وجُبِلوا على طبعه، وهم مأمورون باقتفاء آثاره واقتباس أنواره؛ فأدنى إفراط منه إزاغة لجميع الأمة.

وأما سبب إفراطهم فلا يخفى أنهم لا يعلمون من سرائر الناس نهايةَ غورها، فلا يقطعون الرجاء من إصلاحهم. فيجاهدون بهم كطبيبٍ آسٍ وحميمٍ مُواسٍ، حتى يتبين لهم أنهم أعداء الله. فحينئذ يتبرؤون منهم، كما أخبر الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ التوبة: ١١٤.

وكذلك ربما يقع أن النبي قد قطع الرجاء لما ظهر عليه من تمردهم، ومع ذلك فيهم مطمع كما وقع ليونس عليه السلام. وذلك بأن الله تعالى وحده عليم بما تُكِنُّ الصدور، فربما يأمرهم بالإعراض والاستغناء، وربما يُثَبِّتُهم على المجاهدة بهم.

وجملة الكلام أن الله تعالى يصرف نبيه كيف يشاء، فتارةً يمنعه عن رحمةٍ وَضَعها غير موضعها، وأخرى يُثبِّته على الصبر واحتمال الأذى. والعتاب على الأول دليل على كمال رحمته، وعلى الثاني دليل على كمال غيرته في جنب الله. وهو في كلتا الحالتين بريء عن هوى النفس و الزيغ الباطل.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

(٣)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في آيات: (١-١٠)

﴿عَبَسَ﴾: كَلَحَ لكراهية أمر. ويبيّنه: ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أعرض.

﴿أَن جَآءَهُ﴾ أي لأن جاءه، وهذا ذكر سبب العبوس؛ فإن سبب الكراهية في ذلك الوقت كان مجيئه، لا نفسه، كما ستعلم.

﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ اتفقوا على أنه ابن أم مكتوم. عبر عنه بهذا الوصف للدلالة على ضعفه واحتياجه وعدم اطلاعه على ما كان فيه النبي ﷺ من الشغل، وما كان مقتضى الحال.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ مفعول (ما يدريك) محذوف، وأقيم مقامه: (لعله يزكى) لدلالته عليه بالمقابلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ الشورى: ١٧. أي ما يدريك أن الساعة بعيد، فلعلها قريب. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ الأحزاب: ٦٣.

فتأويل الآية: كيف العلم بك أنه لم يجئ لما يسرُّك من التزكّي أو التذكّر، حتى استحييت من الكفار أن يقولوا: إنما يتبعه العميان وضعفاء الناس لسفاهة عقولهم، أو لما يطمعون من محمد لرحمته بهم، أو كيف نتبعه حتى نكون معه؛ كما جاء في القرآن كثيراً في ذكر أقوالهم.

وهذا صريح في أن النبي ﷺ لم يعلم من الأعمى أنه جاء للتزكي أو التذكر، وإنما كان سبب الكراهية محض مجيئه الذي كان مظنّة لما ذكرنا. وأما ما روي أنه سأل

النبي ﷺ أن يعلّمه القرآن، فتولّى عنه، فغير ثابت من طريق الرواية[1]، فكيف والقرآن صريح في خلافه. وسيأتيك بيانه.

قوله: ﴿يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ أي يتطهر من صحبة النبي ودعائه، فتقبل توبته، ويصلح باله.

﴿يَذَّكَّرُ﴾ أي ينتفع بما يسمع من القرآن وعظة النبي.

﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي عن التزكي والتذكر والإنابة والخشية، كما دلّ عليه ما قبله وبعده بالمقابلة، فاكتفى به.

﴿تَصَدَّىٰ﴾ أصله تتصدد، من الصدد وهو القبالة. يقال داري بصدد داره. تصدّى: أي تعرّض، وهو ضد تولّى.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي ليس عليك بأس أو حرج أو لوم من عدم طلبه للتطهر.

﴿يَسْعَىٰ﴾ أريد به المجيء بالشوق على سبيل الكناية. وليس المراد به الإسراع بالقدم لدلالة الموقع، وكما يبينه قوله: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾. وهذا مثل ما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الجمعة: ٩.

﴿يَخْشَىٰ﴾ جامع عام لإطلاقه. وفيه النظر إلى يوم القيامة لما مر في السورة السابقة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾.

﴿تَلَهَّىٰ﴾ أي تتلهى. تلهى عنه: اشتغل عنه. من قولهم: ألهاني عنه ذلك: أي شغلني عنه، فما اعتنيت به.

---

(١) قال ابن كثير في هذه الرواية: «فيه غرابة ونكارة وقد تكلم في إسناده» انظر: تفسيره ٤٥ : ٤٧٢.

قال عُتبة بن بُجَير:

لحافي لحافُ الضيف والبيتُ بيتُه ولم يُلْهِني عنه غَزالٌ مُقَنّعُ(١)

(٤)

موقع هذه الآيات وتصوير قصتها

موقع هذه الآيات منعُ النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالمصرِّين على الكفر، وحثُّه على التزام المؤمنين. وبيان ذلك أن الله تعالى أمره بتقديم الدعوة لرؤساء قومه الذين كانوا ذوى الرئاسة الدينية، وبالإعراض عنهم إذا تبين إصرارهم على الكفر؛ وبالتزام من تبعه من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ الشعراء: ٢١٤ - ٢١٩.

فاشتغل النبي ﷺ بدعوتهم، وقد رأى منهم شدة الأنفة والكبرياء. وكان عليه السلام من شدة رحمته يصبر على ذلك، ويرجو أن ينتفعوا بوعظه. فكان كلما زادوا جماحاً زاد إلحاحاً، رحمةً بهم وشفقةً عليهم، وإيفاءً بفريضة الرسالة العظمى الخاتمة المتممة، ورجاءَ أن يعزَّ الإسلام بإيمان الأقوياء ذوى البأس والنجدة ـ وقد صدق ظنه بإيمان أبي بكر وعمر وحمزة وآخرين من السابقين الأولين ـ وخوفاً من أن يكون قد قصَّر في الجهاد والصبر فيما فُرض عليه.

ولكن لما كان في ذلك بعضُ شغلٍ عن الذين هم أحقُّ بعنايته، وتنزُّلٌ عن سموِّ محلِّه، فإن الله تعالى لم يأمره بالخضوع، بل أرسله بالعز الشامخ والشرف الباذخ، فكان الله تعالى كثيراً ما يصرفه عن الأسف لهم والإلحاح عليهم إلى الاشتغال

---

(١) الحماسة ٢: ٢٤٧ (طبعة عسيلان).

بالصالحين، كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ الكهف: ٦. وكما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ أي أهل العدة والعدد، كما قال تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ الكهف: ٤٦ فإن القوة لله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ الكهف: ٢٨ - ٢٩. وكما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ الذاريات: ٥٤. أي لا لوم عليك إن لم يؤمنوا، فإنك قد أوفيت بما كان يجب عليك. ومثله كثير.

ومما ذكرنا يتبين أنّ الله تعالى كلّما وجد نبيّه قد غلا في هذا المنهج أوحى إليه بعض ما يصرف عنانه إلى التوسط، حتى وقعت هذه قصة عبد الله بن أم مكتوم، والوحي ينتظر الوقائع المناسبة، فجعلها الله سبباً لزجر الأغنياء ومدح الفقراء وتطييب المنكسري القلوب بأبلغ ما يكون من أساليب الكلام. فأنزل على نبيه ما كان غايةً في التنبيه على إفراط في الدعوة، والزجر للمصرِّين على كفرهم.

وصورة الواقعة: أنه لما جاء إليه ابن أم مكتوم خاف النبي ﷺ أن يقولوا إنما يتبعك العميان والضعفاء لما تُعينهم وتسحَرُ عقولهم، أفتريد أن تخلطنا بهم؟ كلّا، لن نتبعك أبداً إلا أن تطرد هؤلاء، فإنهم ليسوا بأكفائنا.

وقد صرحوا بذلك كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ البقرة: ١٣، وكما فصل ذلك حيث قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ

أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾﴾ الأنعام: ٥١ - ٥٤.

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٧.

ومما يخاف من مجيء عبد الله بن أم مكتوم في ذلك المجلس أن يذِلّ أصحابه في عيون المنكرين. فإن النبي ﷺ لسعة جوده ورأفته بالناس كان يحُفُّه الضعفاءُ، والنبيُّ ﷺ من شدة غيرته وحيائه لم يكن ليرضى بما يطعنون في أصحابه الذين آمنوا ابتغاءً لوجه ربهم، لا لطمع دنياوي. فلما وقع هذا الأمر حان أن يبيّن الله لنبيّه أن قد بلغ من الغلو في الدعوة ما لا ينبغي له، وأخرج الكلام مخرج العتاب حسب الظاهر، ولكنه في الحقيقة زجر للكافرين، وثناء على النبي ﷺ، وتطييب لقلوب المؤمنين.

والنبي في هذا الخطاب مَثَلُه مَثَلُ راعٍ صالحٍ خرج في طلب خروف سمين شريد، حتى ذهل ساعةً عن قطيعته الصالحة التي تتبع أثره وتسمع نداءه. فإن لم يكن هذا الشريد أجدر برأفته من سائر الغنم، فالذنب له لا للراعي الشفوق. فإنْ خاطَبه مالك الغنم يعاتبه: مالكَ قد ضربتَ الصفح عن القطيعة الصالحة، وتتهالك على خروف غير طائل، دعه يأكله الذئب، فإنه أولى به! = عَلِمَ كل ذي عقل أن هذا العتاب، وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً إلى الراعي، ولكنه في الحقيقة سخطٌ بالخروف الأحمق، ومدحٌ للقطيعة الصالحة، ودليلٌ على شدّة رأفة الراعي وغلوِّه في طاعة مالكه.

وهذا المعنى مع ظهوره، ودلالة باقي الكلام عليه، قد التبس على بعض

المفسرين، فتوهم أوهاماً تخالفها نفس هذه الآيات. والآن نبيّن ذلك بتوفيق الله تعالى.

(٥)

إزاحة باطل توهموه في القصة وفي وجه العتاب

روي عن مجاهد قال: «كان النبي ﷺ مستخلياً بصنديد من صناديد قريش، وهو يدعوه إلى الله، وهو يرجو أن يُسلم، إذ أقبل عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى. فلما رآه النبي ﷺ كره مجيئه، وقال في نفسه: يقول هذا القرشي: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعَبَسَ، فنزل الوحي: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ إلى آخر الآية»[1].

فهذا تأويل مجاهد هو الظاهر من القرآن، كما قدّمناه في الفصل السابق.

ولكن آخرين توهموا في القصة أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ، وسأله الرشد والتعليم، فأعرض عنه، فعاتب الله النبي ﷺ. ونسبوا هذا القول إلى المشاهير من السلف. فمنهم من يروي عن عائشة رضي الله عنها أن ابن أم مكتوم قال للنبي ﷺ: أرشدني؛ وعنده رجل من عظماء المشركين.

ومنهم من يروي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان في مجلس من وجوه قريش، منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة.

ومنهم من يروي عن ابن عباس أنه كان يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا الجهل بن هشام، فجاءه ابن أم مكتوم يستقرئه آيةً من القرآن، وقال: عَلِّمني مما علّمك الله، فأعرض عنه، وعبس في وجهه، وتولّى، وكره كلامه.

ومنهم من يروي عن الضحاك أن النبي ﷺ لقي رجلاً من أشراف قريش،

(١) انظر قول مجاهد والروايات الآتية في الدر المنثور ٨: ٤١٦-٤١٨ (ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م).

فأتاه ابن أم مكتوم، فجعل يسأله عن أشياء من أمر الإسلام.

ومنهم من يروي عن عائشة رضي الله عنها أنه أتى النبي ﷺ وعنده عتبة وشيبة.

ومنهم من يروى عن أبي مالك أنه كان يتصدى لأمية بن خلف.

ومنهم من يروي عن أنس ﷺ أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي ابن خلف فأعرض عنه.

ولا يخفى أن هذه الروايات كلها تنتهي إلى الذين لم يكن واحد منهم شهد الواقعة، فلو صحّت لم يكن إلا استنباطاً، لا خبراً. والظاهر من اختلاف هذه الروايات أنها ظنون وأوهام ناشئة مما توهموا من التأويل، فوضعوا له قصة وخبراً افتراء على من أسندوها إليه، فكيف يوثق بها وأسانيدها ضعيفة جدًّا؟ والقرآن ظاهر الدلالة على كذبها، وذلك بوجوه:

الأول: أن الآية لا تقول إنه ﷺ عبس من الأعمى أو عبس في وجهه كما قيل. وهل يُحِسُّ الأعمى بالتعبُّس؟ إنما تعبَّس على مجيئه الذي كان مما يُطلِق ألسنة هؤلاء المفحمين فيجدون للمقال مجالاً، ولم يكن لهم أن ينبسوا بكلمة حين كان يقرعهم بالدلائل الواضحة على التوحيد والمعاد وترك الأنداد، كما جاء في السورة، وهي الأمور التي كان يدعو إليها حين نزول السورة.

والثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ٤﴾ عبس: ٣ - ٤ صريح في أنه عليه الصلاة لم يعلم أن الأعمى جاء إليه لِيُطَهِّر قلبه أو ينوِّرَ عقله بالذكر. فإن النبي ﷺ لو علم بذلك لالتفت إليه بالبشاشة. فكأنه قيل له: لقد ضِقْتَ ذرعاً بأن جاءك بما تكرهه؛ وما يُدريك ذاك؟ لعله جاء بما تقِرُّ به عينُك.

وبالجملة فالقرآن يأبى أن يكون النبي ﷺ قد علم بأنَّ الأعمى جاء لأمر ديني

من التزكي أو التذكر، ثم عبس له.

والثالث: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ صريح في أن النبي ﷺ كان قد غلا في أمر الدعوة كأنه قيل له: ليس عليك حرج لأجل أنهم لا يتزكّون حتى لا تزال بهم إلى أن يؤمنوا فيتزكّوا. ولذلك نظائر كثيرة، مثلاً قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ الغاشية: ٢٢. وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ الذاريات: ٥٤. وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢﴾ النحل: ٨٢.

وأسلوب هذا القول ظاهر في التخفيف عن النبي ما تحمَّل من المجاهدة بالمنكرين، وذلك بمعزل بعيد عن حقيقة العتاب الذي يُخشى لو أعرض النبي استحقاراً لمؤمن ضعيف كما توهّموا. وهذا الكلام بعد قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ يبين أن تصدّيه كان من ولوعه بالدعوة، لا لاستكبار في نفسه من الضعفاء.

والرابع: أن ما بعد هذه الآيات، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ صريح في تعليم الاستغناء عن الذين استغنوا عن ذكر الله، وفي منع النبي ﷺ عن التنازل إلى هذا القدر من الالتفات إليهم. وهكذا ما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ يُبيِّن أن هذا التلهي والتشاغل لم يكن مما ينبغي لقدر نبيه الكريم وكتابه العزيز، كما سيأتيك بيانه.

والخامس: أنه ليس هاهنا موقع للعتاب الحقيقي على تسليم ما رووه من أن الأعمى كلّم النبي ﷺ يستقرئه القرآن، أو يسأله الرشد، أو عن أشياء من أمر الإسلام، كما يتبين مما نذكره في الفصل الآتي.

وبالجملة إذا نظرت في نفس هذه الآيات وما قبلها وما بعدها تبيّن لك أن الكلام ليس إلا لتعليم النبي ﷺ الاستغناءَ والترفُّعَ حسبما يليق بعزته وعزة دعوته.

وأسلوب العتاب هاهنا أبلغ ما يكون في منعه عن الإفراط في أداء فريضة الدعوة، وفي تطييب نفسه ونفوس الضعفاء من المؤمنين، وفي زجر الأغنياء من المنكرين، كما سيتضح كل الاتضاح من النظر فيما يتلو من باقي السورة.

(٦)

إزاحة باطل أكبر مما سبق

بعد ما تبين التأويل الصحيح الصريح لم تبق حاجة إلى ذكر ما بُني على محض التوهم. لكن أردنا أن نريك شناعة ما يجرُّ إليه الاعتماد على الروايات الباطلة، لتكون على حذرك منها. فاعلم أن الإمام الرازي رحمه الله قد تفطّن بأن هاهنا لم يكن موقع للعتاب، فاجتهَدَ للجواب، فقال ما خلاصته[١]:

كيف عاتب اللهُ رسولَه على ما صدر منه، فإن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر.

١ - فإنه وإن كان أعمى ولكن كان يسمع مخاطبة النبي أولئك الكفار. فعرف شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم. فكان إقدامه على قطع كلام النبي وإلقاء غرضه في البين إيذاءً للنبي ﷺ، وذلك معصية.

٢- ثم إنّ الأهمَّ مقدَّم. وهو كان قد أسلم، وتعلَّم ما كان يحتاج إليه. أما أولئك الكفار فيكون إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم، فأقدم ابن أم مكتوم على ما يكون سبباً لقطع الخير العظيم.

٣- ثم إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) انظر التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي ٣١: ٥٤- ٥٥ (الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ الحجرات: ٤ فنهاهم عن مجرد النداء في غير وقته. فهذا نداء ابن أم مكتوم الذي كان كالصارف عن أعظم مهمات النبي أولى بأن يكون ذنباً.

٤- ثم من الظاهر أن النبي كان مأذوناً بتأديب أصحابه، وكان يزجرهم عن أشياء، فكيف عاتبه الله على ما كان مأذوناً فيه؟

قال رحمه الله: «فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الإشكالات». ثم قال رحمه الله ما خلاصته: إن الجواب من وجهين:

الأول: أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء فلهذا السبب حصلت المعاتبة. أقول: وهذا الوجه سليم من القبح، ولكنه ضعيف؛ فإن الله تعالى أعلم بالسرائر ولا يعاتب إلا للنهى، فهل نهى النبي عن تأديب أصحابه، كما ذكر في السؤال، وهو مأذون فيه؟

قال: (والثاني) «لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول ﷺ من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، وهو أن قلبه قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم. وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه، وعدم قرابته، وقلة شرفه. (رحم الله الرازي، كانت أم مكتوم خالة خديجة رضي الله عنها، وناهيك به شرفاً وقرابةً لابنه) فوقعت المعاتبة لا على التأديب بل لأجل هذه الداعية»[1].

أقول: وهذا الوجه في غاية الشناعة. أيتنفر النبي ﷺ عن الأعمى لعماه، بل هو أولى بالرحمة والأسى. لعمرك هذا بعيد عن مؤمن، فكيف بنبي؟ فانظر كيف اهتدى الرازي رحمه الله أولا لما هو الحق الصريح، وهو أن هناك لا وجه للعتاب على

(١) التفسير الكبير ٣١: ٥٥.

النبي ﷺ، ولكن اعتماده على الروايات الضعيفة أورده هذا المورد الشنيع. فلئن نزه جانبَ الربِّ تعالى عن العتاب في غير محله، فقد دنَّس جانبَ رسوله بما نسب إليه ما أقلُّه لا يُظَنُّ بخلقه العظيم.

وبالجملة فالقرآن، وموقع الكلام، وأحوال النبي = كلها يبطل ما توهموا من التأويل وذكروا من الروايات الباطلة الضعيفة.

(٧)

نظم هذه الآيات بما يتبعها

لما كان موقع هذه الآيات تنبيه النبي على علو منصبه، لكيلا يتنازل إلى الإلحاح على الذين أظهروا الاستغناء، حتى يشتغل عن الذين يبتغون وجه ربهم = أكد هذا الأمر ببيان علو ما أنزل إليه، ليعلم أن الاستغناء عن هؤلاء هو الأنسب. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

(٨)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (١١-٢٢)

﴿كَلَّآ﴾ تأكيد لما تقدم من الإنكار على غلو النبي في الدعوة، ومن تعليمه الاستغناء. كأنه قيل: لا يليق بك أن تلح عليهم بهذا الإلحاح، كما يبينه ما بعده.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ الضمير راجع إلى ما تقدم من كلمة «الذكرى». والمراد بها القرآن وآياته وتلاوته. وإنما اختار الضمير المؤنث لرعاية ما سبق من كلمة «الذكرى» وما لحق من كلمة «التذكرة». والجملة موقعها ذكر الدليل لما دلَّ عليه كلمة «كلّا» من

تعليم الاستغناء.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ أي ذَكَرَ ما تلوتُ عليهم من الذكر. واختار الضمير المذكر لما يتبادر إليه الفهم من المراد به، وهو القرآن. وموقع الجملة بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾﴾. أي القرآن محض البلاغ والتذكرة، وليس في شيء من الإكراه والإلحاح كما جاء كثيراً في القرآن.

وفي هذه الجملة إيجاز واكتفاء بما دلَّت عليه بالمقابلة. أي فمن شاء ذكره ومن شاء لم يذكره. وربما يصرح به، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ الكهف: ٢٩.

﴿صُحُفٖ﴾ الصحف جمع صحيفة وهي الورقة المكتوبة، كما سميت «صحيفة المتلمس»[١] و«صحيفة الجور»[٢]. ولعل الكلمة مقلوبة من «الصفيحة»: لكل عريض كصفيحة الحجر، والسيف، والعنق. وبصيغة الجمع ربما يراد بها الكتاب لاشتماله على الأوراق، كما في قوله تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾﴾ البينة: ٢.

قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ﴾ أي هو في صحف. وموقع الجملة بيان أوصاف ما تقدم. وحذف المسند إليه في ذكر الأوصاف التابعة هو الأسلوب المعروف. وقد جاء في القرآن كثيراً، وذكرنا الشواهد فلا نعيده هاهنا.

وهذه الأوصاف صريح الدلالة على ما ذكرنا من التأويل من أن منزلة القرآن أرفع جدًّا من أن تعرضه على هؤلاء بهذا الإلحاح. فهذه الجمل تأكيد لما دلّ عليه ما سبق من الاستغناء. وموقعها ذكر الدليل على لزوم الاستغناء، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّوۡاْ

---

(١) انظر لسان العرب (صحف).

(٢) هي الصحيفة الظالمة التي كتبها قريش لمقاطعة بني هاشم.

﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ التغابن: ٦.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ كلمة جامعة لمعنى العلو والمنزلة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ الزخرف: ٤. وأيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ ق: ١. وهذان الوجهان بيان جانب من صفة ﴿مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ هذه الصفة أيضاً تُبيِّن جانباً من صفة التكريم. أي لا تصل إليه أيدي الشياطين والسفلة من الأرواح، كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ الواقعة: ٧٨ - ٧٩، وكما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ البروج: ٢١ - ٢٢. ويشبهه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ فصلت: ٤١.

﴿سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ هي جمع «سافر»: للكاتب والقارئ، من السفر: للكتابة والقراءة. وهذه الكلمة باقية في العبرانية. وأصل معناها: «الخَمْشُ». ومنه: الكتابة. فإن الكتابة كانت أولاً بالخمش بقلم الحديد. ثم توسع للبيان والقراءة. في العبرانية: ספר (سفر): الخمش، والقراءة. סֹפֵר (سافر): كاتب، فقيه، إمام، قائد. فصح ما قال قتادة: هم القراء[1]. روى ابن جريج عن ابن عباس: «السفرة بالنبطية: القراء»[2]. ويوجد في العربية أيضاً بمعنى الخمش، كما قال رؤبة:

تسفير موسى الصلع الجلام[3]

وهكذا بقي في العربية مادة (كتب) في أصل معناها كما مرّ.

﴿كِرَامٍ﴾ أي جديرين باحتمال هذه الأمانة، فلا يُتَّهمون فيها لشرافتهم.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠:٣٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤: ٤٧٢.

(٣) ديوانه: ١٤٤.

﴿ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ جمع البارّ: للمطيع والموفي بذمته. فهذا تأكيد تحفُّظهم هذه الأمانة، كما تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٣ وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ التكوير: ١٩ - ٢١.

ومفاد هذه الجمل بيان رفيع منزلة هذا القرآن، ليتبين أنه لرفعة منزلته وقدسه ليس مما يُعرض بهذا الإلحاح على هؤلاء. وهذه الآيات تتضمن أمراً عظيماً من وصفه، وهو: أنه مكتوب عند الله، ومقروء، ومحفوظ من كل ريب وشوب.

واعلم أن المراد من الرفع والتطهير والصحيفة أمور الملأ الأعلى، وقد فهمنا المفاد كما بينا. وأما تأويلها وتعيينها وتصويرها، فكما يليق بذلك المكان الأعلى.

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ (الإنسان) كثيراً ما يراد به الأكثر منهم، وهم الكفار. فإما أن يكون اللام للعهد، وإما أن يكون الحكم على النوع حسب أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٤. ومثله كثير.

﴿ قُتِلَ ﴾ منقول عن الحقيقة، فإنما يراد به إظهار السخط. و﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ بيان سبب هذا السخط والإنكار على مسلكه.

﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ استفهام تحقير، وتمهيد لما بعده من ذكر حالة الإنسان.

﴿ نُّطْفَةٍ ﴾ ماء قليل ترشح، كما قال أبو صَعْتَرة البَولاني:

فما نطفةٌ من حَبِّ مُزْنٍ تقاذفت به ... جَنبتا الجوديِّ والليلُ دامسُ[1]

وكما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ السجدة: ٨.

---

(١) الحماسة ٢: ٣٨ (طبعة عسيلان).

ففي نفس هذه الكلم إبطال ما استبعدوه من البعث. فإن أول الخلقة جمع من مواضع شتى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الواقعة: ٦٢.

﴿فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي قدّر أعضاءه وقواه كما شاء. ومفاده بيان عجزه، وكمال تصرف ربه فيه، كما قال تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ الانفطار: ٨. وفيه أيضاً بيان نعمة الرب عليه، لما جعله بهذا التقدير أحسن خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ غافر: ٦٤، والتغابن: ٣. وتفصيله في تفسير سورة والتين.

﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ اللام فيه للعهد. أي السبيل الذي يسلك فيه باستعمال ما قدر فيه من الأعضاء والقوى، فهداه لاستعمالها، وهيأ له الأسباب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ الأعلى: ٢ - ٣. وكما قال تعالى ذكراً عن قول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ طه: ٥٠.

وإذ علمنا من القرآن والفطرة أن الله تعالى هدى الإنسان، وبيّن له الخير والشر، ولم يكرهه من قبل لهذا ولا لذاك، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي سبيل الخير لدلالة المحل ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ الإنسان: ٢-٣. وكما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ الشمس: ٧ - ١٠.

= وقد علمنا من القرآن وصحيح الخبر وصريح العقل أن التيسير يأتي من الربِّ تعالى حسبما يختار الإنسان لنفسه من سبيلي الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل: ٥ - ١٠ = فالتأويل: أن الله تعالى بعد ما خلق الإنسان وألهمه الخير والشر، لم يُكرهه، بل يسَّر له ما اختار لنفسه، فجعل أعضاءه وقواه والأسباب

طوع إرادته. وهذا من أكبر النعم، كما هو مبسوط في موضعه.

﴿فَأَقْبَرَهُۥ ٢١﴾ قَبَره: دفنه، وأقبره: جعل له قبراً.

﴿أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ نشره: بسطه وبثَّه. والإفعال للمبالغة، أي أقامه سويًّا بعد ما كان مقبوراً خامداً.

(٩)

نظم هذه الجملة في نفسها وبالسابق واللاحق

بعد ما بيّن علوَّ منزلة هذا القرآن وترفُّعه عن المتدنسين، أكّد شناعةَ استغناء الإنسان عن هذه النعمة العظمى، بذكر كمال عجزه بجنب كمال قدرة الرب تعالى عليه. وهكذا بيّن شدة شناعة كفرانه، بذكر كمال نعمة ربه. ولما تضمّن هذا البيانُ وجوبَ الإيمانِ بقدرته والشكرِ لنعمه، أتبعه قوله: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ١٧﴾. أي ما أكبر تكذيبه وكفرانه هذا!

واعلم أن قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ ٢١﴾ جامع لبدء حالة الإنسان، ووسطها، وآخرها. فأما بدؤها فإنه مخلوق من ماء قليل ترشح بتقدير الرب الحكيم من أطراف الجسم ـ وهذا مفهوم من كلمة «نطفة» كما مرّ ـ ثم جرى عليه تصرف الرب، فهذا بدؤها.

وأما وسطها فإنه لا يقدر على شيء مما يريد في تقلباته إلا بتيسير الرب تعالى. وفي هاتين الحالتين ظهور قدرة الرب ونعمته عليه. وأما آخرها فإنه أماته وأقبره. وفيها ظهور كمال عجز الإنسان وكونه بالكلية تحت قدرة ربه.

ثم بعد ذكر هذه الأحوال الدالة على الربوبية والقدرة، تبيّن لزومُ البعث للجزاء الذي هو مقتضى ما سبق من دلائل كونه مصنوعاً وميسّراً في تقلباته في هذا

المعاش. وذكر من أحوال الإنسان ما يكون بعد هذه الحياة والمات من النشور إلى ربه.

والآن فتأمل كيف دلّ على عجز الإنسان وفقره إلى ربه من أول أمره إلى يوم نشره، فما أبعد حاله عن الاستغناء والإعراض عما أنزل إليه ربه من الذكر، وهو أحسنُ ما يُسِّر له وأُنعِمَ به عليه، مع أنه مخلوق ومتصرَّف فيه راجع إلى مولاه القادر الحكيم!

فبعد ما ذكر هذه الدلائل التي في نفسه، أعقَبها مثلَها مما يرى فوقه وتحته وحوله من الدلائل على كونه عبداً مربوباً مرزوقاً، لِيبيِّنَ شناعة عصيانه وفجوره كلّ البيان. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾ عبس: ٢٣ - ٣٢.

(١٠)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (٢٣-٣٢)

﴿كَلَّا﴾ زجر على استغنائه وعصيانه كما يبينه ما بعد ذلك.

﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ أي هو مستمر في عصيانه إلى الآن.

﴿مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣)﴾ عامٌّ لما ألهمه فطرةً من الشكر لربه والمواساة بالخلق، ولما أنزل إليه بواسطة الرسل من الأوامر والنواهي.

﴿أَنَّا﴾ موقع الجملات التالية موقع البدل من الطعام. أي فلينظر إلى هذه الأمور.

﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥)﴾ أي أنزلنا ماء كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا (١٤)﴾ النبأ: ١٤.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)﴾ بيان جامع لأربعة معان:

١- لما تفتح الأرض أفواهها فتشرب الماء، فتعيه.

٢- ولما جعل الله في الأرض من الأنهار والبحور. ويؤيده نَهَره: فَتَقَه، وبَحَره: شَقَّه.

٣- ولما تنشق الأرض بالنبات فيخرج منها أزواج شتى.

٤- ولما يشقُّها الحراثون.

وكل هذه المعاني مناسبة هاهنا، فأتى بكلمة جامعة.

﴿وَقَضْبًا (٢٨)﴾ القضب: نبات يؤكل ناعماً خَضِراً، ولذلك تسمى الرَّطْبَةُ قَضْباً ـ وهو بالفارسية «أَسْپِسْتْ» ـ من قَضَبَه: قطعه بصوت مشابه بتلفظ حروف «قضب». ويشبهه لفظ «المضغ». والقضب جامع لكل ما يؤكل رَطْباً.

﴿وَحَدَائِقَ﴾ جمع حديقة: للروضة المحاطة. وتطلق على الأشجار أيضاً كالنخل والشجر.

﴿غُلْبًا (٣٠)﴾ جمع أغلب، لغليظ العنق. ووصف الحدائق بالغلب إما على كون المراد بالحدائق: الأشجار كما ذكرنا، وإما على وصف الشيء بوصف متعلقه، كما هو الأسلوب الشائع في العربية، أي غلب الأشجار. والأول هو الظاهر، لأن سائر ما ذكر كلها من النبات، ولأن الفعل المتقدم هو «أنبتنا».

﴿وَأَبًّا (٣١)﴾ الأب: العشب والمرعى، من أبَّ يَؤُبُّ أَبًّا وأبابًا وأَبَابةً: نشأ وطلع. وهي مادة قديمة جرى فيها تصرف اللسان، فتجدها في صور متشابهة، مثلاً: أَمَّ وهَمَّ، وهَبَّ وتَأَهَّبَ. فأَبَّ صورة أخرى لِهَبَّ. ولذلك نظائر، مثلاً: هَزَّ وأَزَّ، وأَرَاقَ وهَرَاقَ. قال الأعشى:

أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ لِيذهَبا[١]

أي هَبَّ وَهَمَّ.

وإنّما سمّى المرعى «أبًّا» لنشئه أولا بعد المطر. ومنه: إبّان النبات: لأول خروجه. ثم توسع، فقيل: إبّان الشباب، لمناسبة ظاهرة. ثم إبّان كل شيء: أول وقته. يقال: كل الفواكه في إبانها[٢].

ف١: وتوهم الجوهري وغيره، فجعل الإبّان فِعّالا من مادة «أبن»[٣] ولا مناسبة بينهما. فإن أَبَنَه بشيء: اتهمه به، من الأُبْنَة: وهي العقدة في العود. وإنما هو فِعْلان من «أبّ»[٤] لما يدل عليه المناسبة بينهما، ولما تجد هذه المادة بهذا المعنى في العبرانية وهي أخت العربية אבב (أب ب) אֵב (أب): الخضرة والثمرة. אָבִיב (أبيب): السنبلة الخضراء، وأول شهورهم ـ وهو الربيع ـ لظهور النبات فيه أولا.

ف٢: ومما ذكرنا تبين أن هذه المادة مما عرفته العرب. وإنما قلّ استعمالها في أشعارهم لخفة مرادفاتها. ولكن إذا أريد استعمال كلمة جامعة وحسن موقعها لم تترك، بل تكون أحسن من غيرها. وحسنُ موقعها هاهنا غير خفي، ويأتيك زيادة البيان في الفصل التالي.

هذا، فلا يصح ما يروى من أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اعترفا بجهلهما

(١) صدر البيت:

صرَمتُ ولم أصرِمكُمُ وكصارم

ديوانه: ١٥١، واللسان (أبب، كشح).

(٢) انظر لسان العرب (أبن).

(٣) انظر الصحاح واللسان (أبن)

(٤) إليه ذهب الراغب في مفرداته، والزمخشري في أساس البلاغة (أبب).

به. أول هذين الخبرين منقطع، والثاني مضطرب. واليقين بضعفهما من وجوه:

الأول: أن هذه السورة مكية، والصحابة أهمُّ شغلهم تلاوةُ القرآن، فكيف لم يسألوا النبي ﷺ عن معنى كلمة مع طول مدة الصحبة، وكيف لم يعلِّمهم النبي ﷺ إياها؟ هل كان القرآن مذهولاً عنه حتى إذا توفي النبي ﷺ فقرؤوه اطلعوا على عدم علمهم بهذه الكلمة، وانتبهوا، فاعترفوا بجهلهم بها.

والثاني: أنا نجد القرآن أسهل وأبين لساناً من عامة أشعارهم وخطباتهم، وكانت قريش حُكّاماً على الشعراء في عكاظ، وكان أبو بكر ﷺ من رؤسائهم وخطبائهم، و كان عمر ﷺ لسان قريش وسفيرهم، فلا بدّ أن يكونا أعلمهم بصروف الكلام. وقد علمنا كثيراً من انتقاد عمر ﷺ ما يدل على علو محله في علم اللسان العربي.

والثالث: أن القرآن إنما أنزل بلسانهم عربيًّا مبيناً ليدعى به الناس، ويعقلوه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ إبراهيم: ٤. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الزخرف: ٣.

والرابع: أن الوضاعين لم يذكروا ذلك إلا عن أكبر الصحابة وأعلمهم، ونعلم بشدة حنق مبغضيهم واهتمامهم بالطعن فيهما.

﴿مَّتَٰعًا﴾ المتاع مصدر، ثم اسم لما يتمتع به. ومنه للسلعة. والمتاع يتضمن قلة المدة، فربما يؤكد بالتصريح بها، وربما يكتفى بما يفهم منه، كما قال تعالى: ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ يونس: ٧٠ أي تمتع لمدة قليلة. والشواهد على ما ذكرنا كثيرة.

و قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ سائغ أن يكون مصدراً، كما في قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هود: ٣. وعلى هذا تأويله: لأجل أن نمتعكم بها؛

وأن يكون حالاً. أي وهذه متاعاً لكم. ومآل التأويلين واحد. والأول أدل على الربوبية والإنعام، لصراحة دلالته على إرادة الربِّ أن يمتعهم.

(١١)
نظرة في نظم ما ذكر من أسباب الطعام والمتاع

نوجهك إلى أمثال هذه الآيات في ثلاث سور سابقة، فإن هذه السور الأربع متشابهات في مطالبها. ولكل موقع أسلوب جديد من الإيجاز والتفصيل والترتيب، فإن الكلام ذو أفانين. ونذكر هاهنا ما يليق بهذا المقام.

فاعلم أن في هذه الآيات تقديم الأقدم فالأقدم، واختيار التفصيل والاستقصاء مع الإيجاز. وبيان ذلك أنه تعالى ذكر أولاً ما يُسقى كثيراً وهو سريع الإخراج برزقه. فلولا صبُّ الماء الكثير من السماء لم يحصل للإنسان ما هو أكبر قوام عيشه. وذلك ثلاثة أصناف: حب، وثمر، وما يؤكل رطباً من الخضراوات والبقول. فقدم الحبَّ لكونها أكبر الطعام، وأجمع لما يعيش به الإنسان، وأعظم الغلات المدخرة. ثم ذكر العنب وهو رأس الأثمار، ثم هو مما يُدّخر زبيباً، ويُشرَب نبيذاً طيباً. وقد عرفت العرب ذلك، فقال أعشى قيس:

فأروَى الزروعَ وأعنابَها   على سعةٍ ماؤُها إذ قُسِمْ[1]

فذكر الزروع ثم العنب، وذكر سقيهما إتماماً لما يجمعهما من لزوم الاهتمام لهما.

ثم ذكر القضب، وهو جامع لكل ما يؤكل رطباً، كما قال تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥﴾ النبأ: ١٥. فأكمل هذا النوع الكثير السقي السريع النفع.

---

(١) ديوان الأعشى: ٩٣.

وذكر ثانياً ما هو بطيء الإخراج بأكله، ويسقيه السماء. وذلك قسم الأشجار كلها. فقدّم الزيتون لكونه مباركاً ولكونه أخصّ الغلات، كما سنذكر. ثم ذكر النخل وهو للعرب قوام ولذة معاً، فهو حَبُّهم وعِنَبهم. ثم أكمل هذا النوع بما يستوفي أشجار الثمر الغلاظ الجذوع.

ويشبه ما ذكرنا ما جاء في التوراة، فإنها تذكر من غلات الأرض: الحب، والعنب، والزيتون (تثنية ص: ٢٤ ف ١٩-٢١). أيضاً (ص: ٢٨ ف ٣٨-٤٠). وإنما ترك النخل لأن أرض الشام لم تكن بأجود منابتها. فأما العرب فالتمر هو جُلّ غلّاتهم. ولذلك ربما تذكر مع الزرع، كما في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾﴾ الشعراء: ١٤٧ - ١٤٨. أيضاً: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾﴾ ق: ٩ - ١٠. أيضا: ﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾ الرعد: ٤. فهذان القسمان استوفيا جُلَّ ما يزرعه الإنسان ويغرسه.

فبعد ذلك ذكر ثالثاً ما يستوفي الباقي من نبات الأرض. فأتى بكلمتين جامعتين، وهما: الفاكهة والأب. الأولى للإنسان، والثانية للأنعام، كما صرّح ذلك بقوله: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾. فترى في هذا النظم أسلوب الاستدراك بما يستوفي الباقي.

وهذا كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ الحاقة: ٣٨ - ٣٩، وكقوله تعالى بعد ذكر أسماء الرسل: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ النساء: ١٦٤، وكقوله تعالى بعد ذكر حاملات الأثقال من الخيل والبغال والحمير: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ النحل: ٨.

(١٢)

نظم هذه الجملة بالسابق واللاحق

لا يخفى أن خلاصة هذا الذكر أن الله تعالى رَزَقَنا ورَزَقَ أنعامنا، فكلُّنا عيال عليه. وأنعامُنا مذلَّلة تحت أيدينا، مع أنها تأكل مثلنا من رزق الله، فما أشنَعَ بنا أن نعصي الرب تعالى!

هذا، ونظير هذا الذكر قد مر في السورة السابقة، فلا نعيد ما قدمنا هناك. ولكن نذكر هاهنا بقدر ما يبين ربط هذه الجملة بالسابقة واللاحقة.

فاعلم أن السابقة تذكر شناعة استغنائه من جهة كفره وإنكاره، وهذه تذكر شناعة استغنائه من جهة فجوره وعصيانه. و في كلتا الجملتين دلالة واضحة على الربوبية وعلى البعث. وكل ذلك يهدي إلى الإيمان بالجزاء.

وأيضاً ما ذكر من أمر طعامه ومتاعه مثل جامع لهذه الحياة والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يونس: ٢٣ - ٢٤. فلما كان ذلك كذلك أتبع هذا الذكر ذكر يوم الجزاء. وأيضاً من أسلوب القرآن أن يأتي بالترغيب والترهيب مع الدلائل، فقال عز من قائل حكيم:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

(١٣)

تفسير الكلم والجمل في آيات (٣٣-٤٢)

﴿الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ صخَّ سمعَه: أصمَّه. وسميت القيامة «صاخّة» لصيحتها الأولى، وهولها المذهل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الحج: ٢. ولذلك يقال للداهية العظيمة: «لا ينادى وليدها». فالصاخّة جامعة لمعنيين. وصراحة دلالتها على المعنى الأول أغنت عن بيان زائد. و أما المعنى الثاني فبيّنه بما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ عبس: ٣٧.

﴿يَفِرُّ﴾ إنما هو كناية عن هول ذلك اليوم، فيذهل بعضهم عن بعض، كما بيّنه بما بعده.

﴿مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ مضيئة. من «أسفر الصبح»، وذلك كناية عن أول ظهور المسرّة. ويفسِّره ما بعده.

﴿ضَاحِكَةٌ﴾ إنما هي كناية عن المسرة، كما يفسّرها ما بعدها. والضحك هاهنا هو البشاشة بما وجدوا من الأمن وقرب الحسنى.

﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ بما أيقنوا من النعيم العتيد لهم.

﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ جاء بمقابلة «مسفرة»، وكنى به عن الذلة و الغم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ يونس: ٢٦، وكما قال امرؤ القيس:

عليه القتامُ سيءَ الظنِّ والبالِ[١]

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ أي يعلوها السواد. و«القترة» أشد من «الغبرة». أي تغشاها غبرة، ثم تعلوها سواد. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ جاء بمقابلة ما سبق من قوله تعالى: ﴿مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾. وهذان كما جاء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ آل عمران: ١٠٦.

﴿الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ المنكرون لآيات الله، الجاحدون بنعمه، والآثمون العصاة لأوامره. فهاتان الكلمتان جامعتان لما فصّل فيها سبق من ذكر كفر الإنسان وفجوره واستغنائه.

(١٤)

نظرة فيما دلّ عليه نظمُ السورة من الحكمة في ذكر خلال الخير والشر

القرآن لا يترك مراعاة الحكمة في نظم ما يذكر من الأمور، فاعلم أن السورة ذكر خلال الخير والشر على سبيل المقابلة.

أما الأولى، فالتزكّي، والتذكر، والخشية. و أما الثانية، فالاستغناء، والكفر، والفجور. والترتيب في الأولى نازل، لأن الصالحين يجرُون إلى غاية. فالغاية أول شيء في نظرهم. والترتيب في الثانية صاعد، لأن الفاسقين لا يعلمون إلى ما يجرُون إليه. فذلك سبب الاختلاف بين الترتيبين.

---

(١) صدر البيت:

فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلُها

ديوانه: ٣٢.

وأما بيان ما ذكرنا من رعاية الترتيب، فلا يخفى أن الخشية أصل الفلاح، وهي الباعثة على التذكر. والتذكر يهدى إلى التزكي وهو المقصود. وكذلك الاستغناء أصل الفساد، وهو الباعث على الكفر بالحق الواضح، والكفر يهدى إلى الفجور. وعلى ما ذكرنا من ترتيب هذه الصفات شواهد جمة في القرآن، وقد مرّ في مواضع فلا نعيده. ومن يمارس يطلع.

(١٥)

نظرة في نظم جملات السورة بتمامها

قد تبين مما تقدم أن أول السورة في تشنيع المستغنين الكافرين الفاجرين على سبيل التعريض، لينتبهوا. وهذا إلى عشر آيات. فأتبع هذه الجملة ذكر علو منزلة هذه التذكرة المكرمة المرفوعة المطهرة بأيدي الملائكة الكرام. وقد أنزلها الله لعباده فضلاً عليهم، فلا تليق بالمعرضين عنها، الكارهين سماعها. وهذا إلى ست عشرة آية.

ثم أتبعها جملتين، وذكر فيهما من نعمه وقدرته ما يوضح مهانة الإنسان وضعفه وفقره إلى ربه، لتتضح شناعة كفره وفجوره. أما الجملة الأولى فتذكر النعم التي في نفس وجوده. وهي إلى اثنتين وعشرين آية.

وأما الجملة الثانية فتذكر النعم التي تحفّه، وبها بقاؤه. وهي إلى اثنتين وثلاثين آية.

وبدأ الأولى بقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، وبدأ الثانية بقوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾، أي ما أشدَّ الكفر ممن هو نفسُه شهادةٌ على عبوديته وفقره ورجوعه إلى دار الجزاء والحساب؛ وما أشنع طول عصيان من لا يطول عيشه إلا برزق من ربه متوالٍ، وهو يرى ذلك عياناً! فذكر الكفر والفجور معاً، كما يذكر الإيمان وعمل الصالحات حسب ترتيب عقلي. فإن الأعمال تابعة للعقائد والأخلاق، كما قال تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ الماعون: ١ - ٢.
وهذا كثير في القرآن.

هذا، وخلاصة معنى الجملتين: أن الإنسان يرى في نفسه نعم خالقه القادر، ثم يستغني عنه، وينكر بأن يحسابه، فيبعثه، فما أكفره! أهو كافر بقدرته أم بنعمته ؟ أفيريد أن يُنْعَمَ عليه ويُترَكَ سُدىً؟ ثم يرى فيما حوله نعمَ ربِّه الرازق ثم يعصيه، فما أفجره!

وإلى هذين الطرفين من فساد حالهم يشير ما جاء في آخر هذه السورة من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم بعدما بيّنَ فقر الإنسان وجريان نعمة الرب وقدرته عليه، حان أن يذكر فقره بعد هذه الحياة، يوم يذهب عنه كلُّ ما كان سبباً لغفلته واستغنائه وكفره وفجوره. وذكر ذلك إلى سبع وثلاثين آية. فألحق ذكر القيامة بما مهّدَ لها من الدلائل، وهكذا ألحق ذكر البعث بما كان دليلاً عليه في الجملة الأولى.

فكما جاء بعد ذكر خلقة الإنسان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾، فهكذا بعد ذكر رزقه جاء قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ فإن الإنسان إذا تذكر خلقته تبيّن له قدرةُ خالقه على نشره، وإذا تذكّر إدرارَ رزقه عليه تبيّن له لزومُ الحساب ووقوفه بين يدي مولاه ومربِّيه.

ويشبه هذا الأسلوب ما جاء في سورة المرسلات من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي المكذبين بالبعث ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي بالجزاء. ولذلك نظائر أخر.

ثم بعد ذكر غاية فقر الإنسان، وشناعة استغنائه وكفره وفجوره، ختم السورة بذكر مآل الفرقتين: الخاشية المتزكية، والكفرة الفجرة، كما بدأ السورة بذكرهما. وذلك إلى اثنتين وأربعين آية، وهي تمام السورة.

فانظر كيف جعل سياق هذه السورة لذكر شناعة استغناء الإنسان مع كمال فقره واحتياجه إلى ما يسَّر له الربُّ من نعمه السوابغ، لا سيما هذه التذكرة التي هي أعظم ما رزقه به. وأخرج جملة هذا البيان مخرج التنبيه لنبيه على أن لا يُلِحَّ على هؤلاء المستغنين، ويشتغل بالذين هم أحِقَّاء بهذه النعمة العظمى.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره في هذا المقام. والحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾.

(١)

في عمود السورة

اعلم أن عمود هذه السورة هو إنذار قريش ورئيسها الأشقى بما كذبوا الرسول في أمور التوحيد، والمؤاساة، والجزاء. وإنما لم يصرح بهذه الأمور بل اكتفى بذكر طغيانهم واجترائهم في جنب الله:

١ - لما ذكرها في السورة السابقة والتالية.

٢- و لما جاء مراراً في القرآن.

٣- ولما دلّت عليها شهادات هذه السورة، كما ستعرفها.

فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾﴾، وإن لم يصرح بأي أمور كذّبوا ولكنها معلومة؛ فإنّ ثمود كذّبت صالحاً فيما دعاهم إليه من الإيمان بالجزاء، والتوحيد، والمؤاساة.

ولأن السورة اعتنت بالإنذار، فجاءت به واضحاً صريحاً، ولم تخلطه بما زاد عليه، ليجمع همتهم إليه خاصة، فيسكن به جماحهم، ويلين عريكتهم. ولذلك صرح بأمر واحد جامع لجسارتهم وخسارتهم.

فقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ يبين أن رسولهم خوّفهم بالعذاب إن طغوا ومسُّوا الناقة بسوء إظهاراً لطغواهم واستكبارهم. فضرب الله تعالى مثلاً لقريش، وقدّم لهم قولاً يحذّرهم عمّا هم فاعلون برسولهم، لعلهم ينتبهون. ولما قلنا تفصيل في: (٧) و (٨).

(٢)

في ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

ذكر في السورة السابقة أصحاب الميمنة، و[أصحاب] المشأمة الذين بدّلوا نعمة الله وأبطلوا مقصد أمانته وفرائض بيته من المؤاساة، فشقوا به أكبر شقوة لطغيانهم. فضرب لهم مثلاً في هذه السورة من قصة أشقى الناس الذي جلب عليهم الهلاك، لما اجترأ في جنب الله. فقريش أولاً هدموا مقصد بيته الحرام، وثانياً سيهمّون برسوله المكرم مثل ثمود، فيشقون به كما شقوا بكعبته.

ثم بعد هذا الإنذار العظيم رجع إلى أمر المؤاساة، وبيّن حال المعطي الأتقى والبخيل الأشقى. ومآل أمرهما في السورة التالية، كما ستعرف في تفسيرها.

(٣)

نظم السورة وربط أجزائها إجمالاً

وإن تأملت نظم هذه الآيات المنذرة رأيت أن السورة خمس عشرة آية كلها شواهد على الجزاء. فالعشر الأولى شهادات عامة من دلائل الفطرة، والخمس الباقية شهادة تاريخية مسلمة.

وهذا أسلوب عامّ في القرآن: يجمع الله تعالى آيات الفطرة مع آيات الوقائع في الأمم الخالية، سواء كان على أسلوب القسم أو غير القسم. فإن القسم ليس إلا ذكر الآية، كما بيناه في كتاب «أقسام القرآن».

ومن نظائر شهادة آيات الفطرة على نهج القسم ثم شهادة التاريخ ما جاء في أول سورة الفجر. فأشهد الله تعالى بالفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر. ثم أشهد بما وقع على الذين طغوا في البلاد من عاد وثمود وفرعون.

وهكذا ما جاء في سورة «والذاريات» من شهادة آيات الفطرة، ثم ذكر شهادات التاريخ مما وقع على قوم لوط وفرعون وعاد وثمود وقوم نوح.

وهذا النظم على نهج الآية بغير أسلوب القسم ترى في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي على الجزاء والعدل وقدرته تعالى ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ أي هذه الأنباء ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي إن لم يسمعوا ذلك فهل إنهم لم يروا ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ أي الفرق والفصل بين الحق والباطل ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨)﴾ السجدة: ٢٦ - ٢٨.

فذكر هاهنا الجزاء أولاً من الوقائع التاريخية، ثم ذكر الآية على البعث والربوبية من وقائع الفطرة.

وهكذا في سورة القمر ذكر آية إهلاكه الأمم بعد آية الفطرة على لزوم الجزاء، فقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾ القمر: ١ - ٥. وهكذا في سور أخر، كما فصلنا وجوه الإشهاد في تلك السور.

وأما وجه الإشهاد بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض فنذكر أولاً عموم هذا الأسلوب، ثم نبيّن وجه الإشهاد.

(٤)

عموم أسلوب الإشهاد بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض

فاعلم أنه ليس من شيء إلا فيه آيات على طرف من صفاته تعالى، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء: ٤٤، أي يدل على صفاته العليا. ولكنه تعالى يذكر آياته العظيمة الجليلة العامة، فإن القلوب والعقول لا يمكنها الغفلة عنها إلا إذا عميت وصمّت. فيذكر كبار خلقه من الشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض. ثم ربما يذكر ما دونها أيضاً لنعلم أن آياتها غير محصورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ آل عمران: ١٩٠ - ١٩١. أي يستدلّون بما يرون من آثار الحكمة فيها على كونها غير باطل ذاهب إلى غير أجل وعدل وحكمة، فيؤمنون بحكمته فيسبحونه، وبالجزاء فيستغفرونه، كما دلّ عليه قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ آل عمران: ١٩١ فهذا استدلال على الحكمة والجزاء.

ثم ربما يستدل بما أودع العالم من آية الرحمة العامة على كونه ربًّا واحداً، كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ أي إلهكم واحد ورحمن. ثم قال مستدلًّا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾. فبعد هذا الاستدلال نبّه على شناعة من يشرك بالله مع ظهور آيات كثيرة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ البقرة: ١٦٣ - ١٦٥.

والقرآن مفعم من أمثال هذا النمط العالي. والنظر فيها لا يترك ريباً في أنها حجج على التوحيد وغيره من صفات الكمال. ومنها يثبت القيامة.

ثم صرح القرآن بكونها حجة بالغة وآيات دالّة، كما قال تعالى بعد الاستدلال على التوحيد من النجوم والقمر والشمس: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الأنعام: ٨٣. أو كما ذكر محاجّة إبراهيم وتبكيته الملكَ الكافرَ مستدلًّا بتسخير الله تعالى الشمس. وجعل ذلك من أجلى البديهيات حتى قال بعد ذكر خلقة الأرض والسماء مستدلًّا على التوحيد والجزاء: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فصلت: ١٣ أي هذا أبلغ الحجج، فإن لم يؤمنوا بها، فلا يبقى إلا أن ينتظر لهم عذاب كعذاب عاد وثمود. وأمثال ذلك كثيرة.

فتبيّن لنا من القرآن أن لنا في الشمس والقمر، والليل والنهار، والأرض والسماء، لآيات على التوحيد والرحمة والعدل والجزاء والبعث. وقد ذكرنا من الشواهد ما فيه كفاية، ونزيد في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

(٥)

شهادات فطرية ظاهرة وباطنة على المعاد وسوء الطاغين

لا حاجة إلى ذكر دلالة الشمس والقمر وغيرهما على أمور قد ذكرناها فيما مرّ ولكن نوجّهك إلى جهة خاصة، وهي ما نجد من استعمال أسلوب المقابلة ههنا. فإن الله تعالى في هذه الشهادات ذكر المتقابلين والزوجين، وفي ذلك لنا آية عظيمة كما صرّح به القرآن، فقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي إنه الخالق الحكيم المصلح الأزواج بعضها لبعض، والقاهر على كلها ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ فإنه ربكم وإلهكم، فإليه مصيركم ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ الذاريات: ٤٩ - ٥١ أي هو ربكم وحده.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ الليل: ١ - ٤، ثم ذكر جزاء سعيهم المختلف. فساق هذا الكلام بحيث ينبهنا على ما أودع في خلقه من التقابل الذي جعله سبباً للسعي والجهد وتربية النفس التي تكسب الشرف بالمجاهدة بين المتضادين. وبسط الكلام في تفسير «والتين». وهاهنا إنما نذكر ما يتعلق بهذه السورة خاصة.

فاعلم أن الله تعالى خلق كل شيء كاملاً مستقلاً من جهة، وناقصاً محتاجاً من جهة أخرى، وجعل الحسن والحكمة في جمعهما. ثم إنه تعالى جعل أموراً متقابلة تحت قوى متنازعة، فوكل قوى الحياة والموت والكون والفساد أعمالَـها بحيث إنها تُوهِم أنّ في العالم تخاصُمَ أرباب. وبهذا ضلّت المجوس، والوثنيون أضلُّ منهم. ولكن التفكر في مصالح أخرجها الله تعالى من بين تنازع الأزواج وتعانقها يهدينا إلى أنّ على العالم ربًّا واحداً قاهراً. ولولاه لفسدت السماوات والأرض بين تصادم المتضادين، كما قال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي الله الواحد ﴿لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء: ٢٢، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ المؤمنون: ٩١.

فأخرج الله تعالى المصالح من زوجين، وضرب بعضهما ببعض، حتى يُتِمّا أمراً فوقهما. فإنّ الشر المحض في خلقه محال، كما أن الكمال المطلق لله تعالى، وهو الخير المحض. فالمتضادان هما المتعاونان. فإن الله تعالى ركّب خَلْقَه، فجعله شخصاً واحداً ذا يمين ويسار، وليل ونهار، وأرض وسماء، وظل و حرور، وحزن وسرور، وبر وفجور.

وبعبارة أخرى أنه تعالى زوّج بعضَ خلقه ببعض، فزوّج العلل بالمعلولات، والطبائع بالإرادات، فقدّر وهدى، والقوى بالآلات، والأجساد بالنفوس، والأعمال بالجزاء، والدنيا بالآخرة، كما قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ

﴿ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يس: ٣٦. فدل على سعة نفاذ هذه السنّة، وأنها شاهدة على عظمة الرب ورحمته، فتَحْمِلُنا على تسبيحه.

فمن قصر النظر على أحد الزوجين جهل بحسن خلق الله. ومن رأى الدنيا وغفل عن المعاد رآها عقيماً شوهاء، وارتاب في صفة خالقها الحكيم، فأنكر بالرب الرحيم، ولم تطمئن نفسه بما يرى في العالم من الظلم والفجور. وبعض الكلام في تفسير سور أخر من المحكمات القصار، فليكفنا هذا ههنا.

والآن انظر في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ تبين تأويلها. وهو أنه تعالى كما جعل العالم الجسماني ذا طرفين: ضياء وظلمة وعلو وسفل، وجعل في كل طرف مصلحة، وفي جمع الطرفين مصالح أخر من تربية الإنسان، فإنه طحا الأرض وذلّلها فأنبت منها متاعاً وبُلغةً، وغشّى الليل فجعلها سُباتاً وسَكَناً = فكذلك في عالم النفس جعل الليل والنهار والأرض والسماء، وجعل فلاحها في هذا التدبير.

ثم منه نعرف حكمه القاهر، وحكمته البالغة، ورحمته السابغة، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ الفرقان: ٦١ - ٦٢. أي أراد أن يذّكّر أنّ للعالم خالقاً وربًّا ومدبّراً، وأراد أن يشكره على ما أجرى الأمور على نهج الرحمة.

وهكذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾ الرعد: ٢ - ٥.

وعلمنا بسياق هذه الآيات وأمثالها أن كل ذلك لتربية النفوس وتزكيتها، فهي اللّبُّ في تلك القشور، والجوهر في هذه الصخور.

وبما ذكر حالة العالم ثم حالة النفس بإزائها، دلّنا على أن الله تعالى خلق العالم

الظاهر مضيئاً ومظلماً وعالياً وسافلاً، فجعله مرآة للنفس ليتأكد لها ما ألهمت، فتكون لها آيتان: ظاهرة وباطنة.

فانظر كيف ذكر الله تعالى آيته في الآفاق، ثم ذكر آيته في الأنفس مطابقةً لما في الخارج على أنه هو الخالق الحكيم المدبر. فهدانا إلى التوحيد والمعاد، كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت: ٥٣.

ثم دلّ على المعاد أولاً بما ذكر من حالة النفس وإلهامها، فأي معنى للفجور والتقوى إن لم يكن جزاء؟ فإن الفجور هو القبيح المخالف لفطرتها، والعصيان لبارئها؛ والتقوى هي طهارة النفس، وخشيتها لربها. وهذا الإلهام هو إلهام العبودية والذمة التي تدل على المعاد، كما تجد بيانها في تفسير سورة القيامة. فشهد هذا بنفسه أيضاً على الربّ الـمُجازي حسب أعمالنا. فهذه شهادات بأمور الفطرة.

وكانت شهادة النفس بديهية، ولكن ربما يذهل عنها الغافلون المنهمكون في عالم الحس، فبدأ بشهادة الآفاق، فأشهد بالشمس والقمر والنهار والليل والأرض. ثم تخلّص تدريجاً إلى عالم العقل. وبعد هاتين جاء بشهادة تاريخية مسلّمة عند المخاطبين، فهي القسم الآخر من شهادات جامعة لآياته في الآفاق والأنفس. ونتكلم عليها الآن.

(٦)

شهادة تاريخية مسلمة على المعاد

فاعلم أن الله تعالى استشهد عليهم بما علموه يقيناً من أحوال الأمم. وذلك بأن قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ الشمس: ١١ إلى آخر القصة لم يقع على سمع أهل مكة كما يقع على أسماعنا. فإن ثمود كانت من العرب البائدة، وقد سكنت العرب في مساكنهم، واشتهر فيهم ذكرهم، وضربوا بهم الأمثال، كما سنذكر. وجاء في القرآن:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ﴾ العنكبوت: ٣٨. ومثله: ﴿ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النمل: ٥١-٥٢. ومثله: ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٥.

وأما ذكر العرب إياهم، فقال أبو زبيد الطائي:

مِنْ رجالٍ كانوا جمالاً نجوماً ... فهمُ اليومَ صَحْبُ آلِ ثمودِ[1]

وكانت ثمود من بقايا عاد. ولذلك ترى بعضهم ربما يجعلهما قوماً واحداً، كما ستمرّ على بيت لزهير بن أبي سلمى.

وكانوا قوماً أقوياء، ولذلك قالت الخنساء[2]:

ولاقاه من الأيام يومٌ ... كما مِن قبلُ لم يخلُدْ قُدارُ

وقُدار هو أحمر ثمود، عاقر الناقة، وكان شديداً جبّاراً طاغية، رئيسهم وإمامهم، كما كان قبله قَيل بن عمرو في عاد. قال الأفوه الأودي، وهو جاهلي قديم، يذم أشرار قومه، يشبّههم بقَيل وقدار رئيسي عاد وثمود:

فينا معاشرُ لم يبنُوا لقومهم ... وإن بنى قومُهم ما أفسدوا عادوا

لا يرشُدون ولن يَرْعَوا لمرشدهم ... والجهلُ منهم معاً و الغيُّ ميعادُ

أضحَوا كقَيلِ بن عمروٍ في عشيرته ... إذ أُهلِكَتْ بالذي سدّى لها عادُ

---

(١) جمهرة أشعار العرب: ٧٣٧.

(٢) أخت زهير بن أبي سلمى ترثي أخاها. انظر: شرح شعر زهير: ٢٧١.

أو بعـدَه كقـدارٍ حـين تابعـه   على الغوايةِ أقوامٌ فقد بادو[1]

وشهادات الوقائع أوقع في بعض القلوب، لما يرون عياناً آثارها، ويسمعون بالتواتر كيف دمّر الله المفسدين الغاوين. وتخضع لذلك قلوبهم، فإنهم مطبوعون على أن يسخطوا بالأشرار، وإنما يخفى على النفس سوء عملها لشهواتها وحبًّا لها، ولذلك يتعظون بأحوال غيرهم.

وإنما سمينا هذه الشهادات جامعةً لما أنها تذكر ما عامل به النفوسَ ربُّها حسب أعمالها. كأنه تعالى زجرها، وكلّمها جهراً، وكان إلهامه إياها وحياً خفياً. ثم أبقى آثار زجره للخلف، يمرّون على بيوتهم الخاوية، فيتبين لهم كيف فعل بهم. فهذه آيات في الآفاق والأنفس معاً.

(٧)

خصوصية ذكر قصة ثمود وأشقاها

قد مرّ في الفصل الثاني أن موضوع هذه السورة إنذار قريش عموماً وأبي لهب خصوصاً. أما مناسبة قريش بثمود فإن قريشاً كانوا قادة العرب لشرافة منصبهم ورجاحة عقولهم، وهكذا كانت ثمود، وهم بقايا عاد. وضربت العرب بهم مثلاً، لما تركوا آثار عمارتهم ومصانعهم حتى أن تهدم أمرهم لفساد أخلاقهم.

وفي القرآن إشارات إلى ما ذكرنا، قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ العنكبوت: ٣٨.وذكرنا في تفسير سورة «والفجر» طرفاً من تقدمهم في التمدن، ومما جاء من ذكرهم في كلام العرب.

---

(١) أمالي القالي ٢: ٢٢٤، وشعراء النصرانية: ٧١.

وأما مناسبة أبي لهب بأحمر ثمود وأشقى العرب، فإنه كان رئيس قومه، فأوردهم الهلاك، وقاد بهم إلى البوار. وهكذا شقي أبو لهب برئاسته، فإن ولاية بيت الله انحازت إليه كلها بعد أبي طالب، وكان شريكه في حياته. فأبطل مقصد البيت من التوحيد والمؤاساة، فدعَّ اليتيم ولم يُطعم المسكين، وأبطل ذكر الله والصلاة. فصار قدوة الفجار الطاغين المستكبرين.

ثم خاصم النبيَّ ﷺ لما علم أنه يسخط ببدعته ويصيح على شناعته. فخاف على إمارته، وأيقَنَ أن هذا النبي لا يتركه حتى يزيل سلطانه ويسلبه ولايته، وجَمَعَ منكري قريش على عداوته. وبعض البيان في تفسير سورة الماعون وسورة أبي لهب.

فضرب الله مثلاً من ثمود وقُدارها لقريش وأبي لهبها. فإنهما تشابها خَلْقاً وخُلُقاً واسماً ورَسْماً. فخوّفهم بما يستحقون من العذاب كأمثالهم من أهل القرى المهلكة. وكثر في القرآن تخويف أهل مكة بهم.

ولولا (١) بركة النبي ﷺ وإيمان طائفة منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فإن النبي أمان أمته حتى يتبرأ عنهم، كما بيناه في تفسير سورة الكافرون ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنفال: ٣٣ فإن استغفار طائفة من الأمة يدرأ العذاب عن الأمة، كما تعلم من قصة مجادلة إبراهيم عليه السلام حتى إنهم يتبرؤون = ولولا (٢) بركة بيت الله الحرام و (٣) إجابة دعاء إبراهيم في هذا البلد الأمين = لقد حقت كلمة العذاب على قريش. ولكن الله تعالى جعل للمؤمنين فرقاناً مبيناً بعد الهجرة وخروج الصالحين من أهل مكة، فطهّر البلد من الطاغين المفسدين في الأرض، ولم يهتك حرمة البيت. ولله الحمد أولاً وآخراً.

وتفصيل بعض هذه الأمور في تفسير سورة الفيل و الكافرون.

(٨)

إشارة غامضة من جهة كونها خبراً عن الغيب

كانت طغوى ثمود أنهم لم يقنعوا بتكذيب رسولهم وتسفيهه، بل اجترؤوا على عقر ناقة الله وقتل نبيهم بعدها غِرّةً، كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ النمل: ٤٩ - ٥١.

وجاء في مكر قريش برسولهم: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأنفال: ٣٠.

= فتشابه أمرهما. وقد علم الله تعالى من قريش أنهم مريدون بنبيهم، كما أرادت ثمود بصالح عليه السلام. وإنما عقروا الناقة أولاً لينظروا عاقبته، فإن لم يأخذهم عذاب، كما أخبرهم صالح، قتلوه. فعلم الله ما في صدورهم، فأخذهم قبل أن يركبوا أمراً أشنعَ مما ارتكبوه، فبادرهم عذاب الله، وحال بينهم وبين ما كانوا يمكرون.

ولم يذكر هاهنا تمام قصة ثمود، وإنما أشار إليها، كما ترى في القرآن كثيراً يشار إلى قصة، ليذّكّروا، كقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ البروج: ١٧ - ٢٠. فمن يتذكر قصة ثمود بتمامها يرى فيها تعريضاً إلى ما ذكرنا من أمر قريش.

وهذا من قسم تقديم قول محكم يكشف عن أمر مكنون عند وقوع الأمر وإتيان تأويله. ولا حاجة إلى التفصيل في أول الأمر، بل يكفي ذكر بعض الأمارات، حتى إذا وقع الأمر علم المؤمنون والكافرون معاً أن وعد الله كان حقًّا.

وصرّح بهذا الأصل في الصحف الأولى والقرآن في النذر والبشارات.

(٩)

إشارة أخرى في حق هذه الأمة

ليس من مقصد هذا الكتاب الخوض في الكنايات المكنونة، ولكن لا بأس بأن نذكر ما يبيّن عاقبة الطغوي، ومنتهى النفس إن لم تُردّ عن الهوى؛ فإنّ هذه الأمة وإن لم تهلك كل الهلاك، فربما كاد. وما العلم إلا الانتفاع بما عُلّمنا، والاعتبار بأمثال ضُربت في كتاب الله تعالى من القوم الأولين.

فاعلم أن أمة يهود كان من أكبر سيئاتهم قتلهم الأنبياء والصلحاء، كما جاء في صحف أنبياء بني إسرائيل والقرآن كثيراً. جاء في سورة البقرة: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي قتل النبيين كان لشدة عصيانهم وعدوانهم.

وأيضاً في سورة البقرة: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي لعنوا بالضلال لكفرهم واستكبارهم الذي بعثهم على التكذيب وقتل الرسل.

ثم جاء في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾. فهاهنا بيّن بالتصريح أن قتل الصلحاء الذين يأمرون الناس بالقسط أمر عظيم عند الله، وليس كقتل أحد الناس، فذكره بعد قتل الأنبياء، والوجه ظاهر. فإن علة كبر هذا الإثم هو العصيان لحكم الله، كما مر آنفا.

والمقت لا يعمّ أمةً إلا إذا دخل أكثرهم، وقعد عن منعه الآخرون. فإنّ إقامة القسط والغضب له واجب على عامة الأمة. ولذلك ترى السخط على القاعدين عن القتال. وصرّح بهذا الأمر حين أمر الأمة بالطاعة الخالصة لله ولرسوله، فأنزل تعالى في سورة الأنفال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الواو للبيان، فإن الرسول لا يدعو إلا إلى طاعة الله ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ أي يعلم ما بطن في سره قبل شعور المرء به ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي تحاسبون لما تسرون ولما تعلنون لعلمه تعالى بجميع أعمالكم ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ ﴾ أي الذين عصوا النبي. فإن الباقين مأخوذون بإفراغ جهدهم في منع ذلك والقيام بغاية النصح للنبي، كما أشار إلى ذلك فيما بعد ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

فبيّن هاهنا أن الأمة تعذب بما فعل به بعضهم، ولم يمنعهم عنه الباقون فتركوا الحق مخذولاً.

وهكذا كان أمر ثمود إذ انبعث أشقاها. وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا ﴾ ينسب هذا الفعل إلى جميع الأمة مع أنه فعل لا يحتمل شركة جميعهم إلا بالمعنى الذي أشرنا إليه.

والوجه ظاهر عند العقل. فإن الإثم صفة القلب، والأعمال الظاهرة من آثاره وشهاداته، فالمستحسن والراضي بالإثم كالذي ارتكبه.

ولذلك ينسب إلى اليهود أعمال آبائهم. وكذلك يعذّب الأبناء بفعل الآباء. وفيه سرٌّ آخر تجده ببعض البيان له في تفسير سورة نوح، فإنه من المهمات.

(١٠)

سنة الله تعالى في مؤاخذة الأمم

ثم اعلم أن الله تعالى يعفو كثيراً عن الناس، ويؤخرهم؛ لكي يتوب من شاء، ويحقّ على الآخرين كلمة العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ النحل: ٦١. فكان الله يعذب اليهود، ولكنه لم يسلبهم أعظم نعمه ولم يقطع الحبل عنهم إلا بعد أن امتلأت كأسهم بقتل عيسى عليه السلام، حسب زعمهم، على إثر يحيى عليه السلام. فكان دماً ثالثاً، كما سيجيء في الفصل الثاني عشر.

وقد علمت في القرآن كثيراً أن الله تعالى برحمته يمسك بالنتائج السيئة عن الناس حسب سنته الحكيمة، حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

وقد علمت في الفصل (٩) محل قتل الأنبياء والآمرين بالقسط. فالآن نوجهك إلى ما وقع، وينبغي أن يقع على الناس، بذكر وقائع منوطة به من تاريخ أمة خلت، وهذه الأمة. وفي هذا قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ الأحزاب: ٦٢. أي لهذه سُنّةِ أخذِ المفسدين الطاغين.

(١١)

مثل ناقة الله في هذه الأمة

فاعلم أنه كما كان في يهود مثلُ طغوى ثمود، لهمِّهم بقتل عيسى عليه السلام، وكان مَثَلَ ناقةِ الله لكونه آيةً بنفسه، كما جاء في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾، فدمّر الله عليهم، وسَلَبهم نعمة النبوة = فكذلك في أمتنا مَثَلُ ناقة

الله عليُّ بن أبي طالب، وسُلبت الأمة الخلافةَ لقتله. فكان بعده ملوك، إلا قليلاً منهم، يرثون الملك كوراثة الأموال.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا، وسمّاهم «عَضوضاً»[(١)]. وكذلك روي أنه قال لعلي ﷺ: «قم يا أبا تراب، ألا أخبرك بأشقى الناس: أحمر ثمود عاقر الناقة، والذي يضربك على هذا (يعني قرنه) فيخضب هذه منها (يعني لحيته)»[(٢)].

(١٢)

مثل عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم

فإن قلت: إن عثمان ﷺ قُتل صبرا، واشرأبّت الفتنة بعده، وقُتل عمر ﷺ قبلها وكان أول الوهن في الإسلام، وقتل الحسين ﷺ أسوأ قتلة وأشنعها، فلم لا تشبههم بعيسى ﵇؟

قلت: أما عمر ﷺ، فلم تقتله هذه الأمة. ولذلك سُرَّ عمر ﷺ حين أخبر أن قاتله نصراني. ولكن رضي به جمع من الأشرار، فكان أول دم، ولم يؤخذ به من كان راضياً به. فمثله مثل زكريا ﵇ الذي قُتل بين المذبح والمسجد، فقد قُتل عمر ﷺ في المسجد وهو في الصلاة. فلا تعجب مما قال له كعب الأحبار أنه يجد صفته وحليته في التوراة وأنه قد فني أجله. وصفة عمر ﷺ كثير في التوراة، وتجد طرفاً منها في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ الفتح: ٢٩.

وأما عثمان ﷺ، فمثله مثل يحيى ﵇ الذي قُتل فى السجن. فكان دم علي ﷺ دماً ثالثاً كدم عيسى ﵇. فأفعم لهم كأس الشقاء، ففاضت بالدماء.

---

(١) انظر مجمع الزوائد للهيثمي ٥: ٣٤٢،

(٢) مجمع الزوائد ٩: ١٣٦.

وأما قتل الحسين ﷺ فهو المصيبة الكبرى على الإسلام وفَتٌّ شديدٌ في العضد، أو كقرح يَدمى إلى الأبد، فما ذلك إلا من أسوأ نتائج تلك الشقوة، كما قال زهير يمثل نتائج الحرب بأحمر ثمود:

فَتُنْتَجْ لكم غِلْمانَ أشأمَ كلُّهم　　كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ[1]

وإنما سمّاه «أحمر عاد» حسب ما ذكرنا[2] فكانت واقعة الطَّفّ رضاع ذلك الشقاء وفطامه. وكان من غلمانه المشائيم وقائع استباحت دماء المسلمين وأموالهم بغير حق، كما قد حذّر النبي ﷺ في خطبة الوداع: «يا أيها الناس إنما المؤمنون إخوة. ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلّغتُ، اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفّاراً يضربُ بعضكم رقاب بعض»[3].

وقد أخبر الله عن كون القتال من عذاب الله. جاء في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

فبعد قتل علي ﷺ قد لَبَسَهم الله شِيَعاً، وتقاتلت شيعة عثمان وشيعة علي رضي الله عنهما، وأذاق الله بعضهم بأس بعض. ولم تطفأ هذه النار، وكل ما وقع على المسلمين من البلاء فلم يكن إلا من أيدي هاتين الشيعتين وأنواعها. وقد برّأ النبيَّ ﷺ

(١) شرح القصائد السبع الطوال: ٢٦٩.

(٢) يعني قوله في الفصل السادس إن ثمود من بقايا عاد. انظر اللسان (ثمد، حمر). وغيره يعدّ ذلك من أغلاط زهير.

(٣) انظر صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً...».

عنهم، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام: ١٥٩.

وكذلك أخبر الله تعالى عن كون الاقتتال من عذابه، حيث قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي مما أنزل عليهم ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المائدة: ١٤.

وهذا البحث يتعلق بتفسير سورة الحجرات، فليكفنا هاهنا ما ذكرنا منه.

(١٣)

النظر الثاني في ربط السورة بالتي قبلها وبعدها

إنما فصل في هذه السورة عقبى الشقاوة بياناً لقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾، وترك الفلاح مجملاً في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، فتجد تفصيلها في السورة التالية.

ولما ذكر الله تعالى في السورة السابقة أن مقصد البيت هو الإيمان، والصبر والمرحمة، والتواصي بهما، وأن الميمنة والفوز للذين عملوا بها، والمشأمة للذين كفروا. ففي هذه السورة ضرب لأهل مكة مثلاً على المشأمة والشقوة من ثمود وأشقاها.

فالسورة متصلة بما قبلها وما بعدها، وموقعها موقع سورة «الماعون»، كما ستعلم. ومع ذلك مستقلة بنفسها، فإنها حوت بيان التكذيب والطغوى. فإن قصرت نظرك عليها حذرت عن هذه الخلة المشؤومة. ولكنك إن ضممت هذه السورة بما قبلها وما بعدها اطلعت على أصل هذا الداء وجرثوم هذا الشقاء. وذلك قساوة القلب. فإنها أصل الجهل والشح والطغوى، كما فصّلنا في تفسير السورة السابقة.

(١٤)

تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

كما أن الله تعالى جعل القرآن كتاباً مصدِّقاً ومتمِّماً للصحف الأولى، فكذلك جعله مهيمناً عليها وقاضياً فيما اختلفوا فيه، كما قال تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي قبله ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي الصحف الأولى ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ما بدلوا من حكم الله الذي نزل إليهم ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ المائدة: ٤٨. أي غير تارك لقولهم ما جاءك من الحق الصريح. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ النمل: ٧٦.

فترى القرآن ربما يرُدُّ وينفي أمراً يكبر علينا أن يتفوَّه به أحد ولكن قد زعمت به اليهود وأدخلته في كتبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ق: ٣٨. فهذا تصديق ما جاء في التوراة. ثم قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ ق: ٣٨. فهذا ردٌّ ونفيٌ لما كتبوا في التوراة أن الله استراح في اليوم السابع من جميع عمله[1]. ولذلك أمثلة كثيرة. فأسلوب القرآن أن يدخل في نظمه ما يردُّ زَعْماً أو يسُدّ وهماً.

فإن تبين لك هذا الأمر فاعلم أن من سوء ظن الناس بالله تعالى أنه ربما يندم على ما فعل من رحمة أو نقمة، كما ترى ذلك فيما أدخلت اليهود في التوراة. ففي الأصحاح السادس من التكوين:

---

(١) انظر التكوين ٢: ٢.

«فحزن الربُّ أنه عمل الإنسانَ في الأرض وتأسّفَ في قلبه»[١].

وكذلك بعد الطوفان:

«وقال الربُّ في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأنّ تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كلّ حي كما فعلت»[٢].

والقرآن يعلمنا أن الله تعالى يفعل ما يريد بالحكمة والرحمة. فإن أهلك قوماً واستخلف آخرَ لم يفعل إلا على حسب الحكمة والقدرة. لا خوف هناك ولا طمع، ولا تقصير ولا شطط. وباطلٌ ما زعمت الجهلاء. فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ من هذا النمط.

وكثر في القرآن مثل هذه الأمور، الواضحةِ عندنا ببركة القرآن؛ المشتبهةِ عند غيرنا لكونهم في غطاء عن نوره البازغ. فالحمد لله تعالى على ما هدانا إلى صراطه المستقيم، وأعطانا من الذكر الحكيم.

---

(١) التكوين: ٦.

(٢) التكوين ٨: ٢١.

تفسير

سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

(١)

جملة الكلام في عمود السورة ومضمونها ونظمها

يرى في بادي النظر أن عمود السورة هو إثبات الدين، أي الدينونة والقضاء على الإنسان حسب أعمالهم. فبدأ السورة بالقسم على سبيل الاستشهاد. وقد بيّنا في كتاب «الإمعان»[(١)] أن هذه الأقسام نوع خاص من القسم، ويراد به الاستشهاد على ما أقسم عليه، وليست في شيء من التعظيم للمقسَم به، فإنما هي شهادات لا غير.

فعلى هذا الأصل استشهد بأربع شهادات مشيرة إلى وقائع الدينونة في الدنيا، ليتذكّروا أنّ الله تعالى ليس بغافل عما يعمل عباده، فإنه لم يزل يدينهم بالقسط، ويحكم عليهم بالحق. وأبطل بذلك الشبهةَ في وقوع الدينونة يوم القيامة. وهذا النوع من الاستدلال كثير في القرآن، مثلاً:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ الذاريات: ١ - ٦.

أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ الانفطار: ٦ - ٩. فاستشهد بأفعاله على

---

(١) يعني: كتابه «إمعان في أقسام القرآن»، وهو مطبوع.

كونه ديّاناً.

فهكذا هاهنا استدل بوقائع الدينونة على وقوع الدين. ثم ختم الكلام بالدليل اللِّمِّي، وهو الاستدلال بوصف الرب تعالى. وهذا أقوى الدلائل مع غفلة الناس عنه. فاختار فيه أسلوب الاستفهام ليدل على كون الإنكار به في غاية الاستبعاد، كما ترى ذلك في قوله تعالى:

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ القلم: ٣٥ - ٣٦. وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ البقرة: ٢٨. وقوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إبراهيم: ١٠.

وهذا كثير في القرآن. فكذلك هاهنا أورد البرهان اللِّمِّي على أسلوب الاستفهام.

ومما ذكر من الشهادات دلّ أيضاً على طرف خاص من الدينونة، وهو إثبات هذه البعثة. وقد كثر في القرآن الاستدلال على النبوة بكونها من أكبر مظاهر الدينونة، ورحمة الرب، وحكمه بالعدل؛ فإنه لم يقض على العباد إلا بعد إرسال الرسل، وكذلك في القيامة يقضي عليهم بشهادة رسلهم.

فبعثة الرسول دينونة في الدنيا وقيامة صغرى. فإنه عند ذلك فريق ينجو، وفريق يهلك، وينقطع عذرهم عند الدينونة الكبرى، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ النساء: ١٦٥. وهذا مبسوط في موضعه.

فعلى هذا الأصل استدل بالوقائع الماضية على كلا الأمرين. أعني أن الدين لابد واقع، وأن هذه البعثة جاءت حسب سنة الله تعالى وجريانها بالعدل، وحسب قضائه فيما تقدم من حكمة الحكيم العادل.

ذلك إجمال القول في العمود الذي أقسم عليه. ويتضح لك ما ذكرنا مما يتلو إلى آخر الفصول.

(٢)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (١-٣)

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ انظر الفصل التالي.

﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ قوّم الشيء: جعله مستقيماً. قوّمتُ الرمحَ فاستقام. ومن هاهنا يراد به جعلُ الشيء مناسباً لغايته، فهذا تقويم معنوي، فهو مثل التسوية، وكل خلق تسوية. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ الأعلى: ٢. فلم يخلق الله تعالى خلقاً إلا لغاية، فجعل خلقه مناسباً لتلك الغاية. فعلى هذا إذ خصّ الإنسان بأحسن تقويم كان المراد منه: خلقه مناسباً لأحسن غاية. وذلك بأن سوّاه على تركيب صالح لأن ينفخ فيه روحه.

﴿رَدَدْنَاهُ﴾ الردّ يأتي على وجوه. ومنها الإعادة إلى الحالة الأولى، كما قال تعالى: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ البقرة: ١٠٩. أي يُصيِّرونكم بعد إيمانكم كفاراً مرة أخرى. وهذا قريب من أصل المعنى، وهو كما قال تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝١٤٩﴾ آل عمران: ١٤٩.

﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ «أسفل» إما هو حال عن ضمير المفعول في ﴿رَدَدْنَاهُ﴾، أو ظرف، وعلى هذا يكون المعنى: إنا صيّرناه مرة أخرى في مقام أسفل، كما ترى في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الأنفال: ٤٢ أي بمقام أسفل. ولا فرق بين التأويلين من جهة المعنى.

وأما التأليف، فزعموا أنه على الإضافة[١]، ولكنه يخالف العربية؛ فإن إضافة «أفعل» إذا كانت إلى نكرة فلابد أن يكون المضاف إليه مفرداً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ البقرة: ٤١. فالظاهر أن «سافلين» حال مستقل سواء كان «أسفل» ظرفاً أو حالاً، ولذلك جاء نكرة مع كونه جمعاً. وهذا أقرب أيضاً من جهة التأويل، فإن موقع هذا الحال يدل على أن الإنسان نفسه اختار السفل. فكأنه قيل: ثم رددنا الإنسان إلى مقام أسفل، والحال أنهم كانوا ذاهبين بأنفسهم إلى الأسفل.

وأما مجيء الجمع بعد إفراد الضمير في قوله تعالى: «رددناه» فلأن المراد بالإنسان نوعه، فجاء بالجمع رعايةً للمعنى، وهذا كثير. ومنه قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ عبس: ٣٢ بعد قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ عبس: ٢٤، وقوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ العاديات: ٩ - ١١.

وسنرجع إلى بيان تأويل ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ في الفصل الحادي عشر.

(إلا) أولوها إلى وجهين: الاستثناء المتصل، أو الاستدراك. والثاني هو الظاهر، لما أردفها بالجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٤، وكما في قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ الحجر: ١٧ - ١٨. وسيأتيك بيان الفرق بين التأويلين في الفصل الحادي عشر.

﴿مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ من «منّ»: إذا قطع. قال لبيد:

---

(١) انظر الطبري ٣٠: ١٥٨.

غُبْسٌ كواسبُ لا يُمَنُّ طعامُها[(١)]

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ أي دائم، كما قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ الواقعة: ٣٣. وأيضاً: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ هود: ١٠٨.

وليس من المنة، فإنه لا نظير لذلك المعنى في القرآن. وكيف تُنفى المنّة، فإنّ كل أجر من الله فضل ومنّة منه.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ كذّب بالشيء: ضد صدّق به. وقد جاء في القرآن كثيراً، مثلاً: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ الماعون: ١، و﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ الانفطار: ٩، و﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المؤمنون: ٣٣.

أما كذّبه به، فجاء أيضاً. قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ الفرقان: ١٩، أي فيما تقولون.

وفي كل ذلك نسب التكذيب إلى الرجال. وأما هاهنا فنسب إلى غير ذوي العقول.

١ - فإما أن يكون من قبيل نسبة الشهادة والنطق إلى الأشياء، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الجاثية: ٢٩. وعلى هذا كان المعنى: فأي شيء بعد هذه الشهادات يشهد بأنك كاذب في قولك بوقوع الدين.

٢ - وإما أن يكون التكذيب بمعنى: الحمل على التكذيب، كما ذهب إليه

---

(١) صدر البيت:

لِـمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تنازعَ شِلْوَه

انظر ديوان لبيد: ٣٠٨، وشرح القصائد السبع الطوال: ٥٥٦. وشروح المعلقات.

الزمخشري[١]. ولم أجد لهذا المعنى شاهداً في القرآن، ولا في كلام العرب. ولو ثبت لكان تأويلاً واضحاً.

٣- وإما أن يكون بمعنى إلقاء الأماني والظنون، كما قال أُفنون، وهو جاهلي:

ولا خيرَ فيما كذّب المرءُ نفسَه وتَقْوالِه للشيء يا ليتَ ذاليا[٢]

أي لا خير فيما يحدِّث المرءُ نفسَه من الأماني والآمال الكاذبة.

وقال عَبيد بن الأبرص:

والمرءُ ما عاش في تكذيب طولُ الحياة له تعذيبُ[٣]

أي ما عاش في محض الأماني غير فائز بها يتمناه، فطول الحياة عذاب عليه.

فهذه ثلاثة معان للتكذيب إذا كان متعدّياً. وأما بيان ما يكون التأويل هاهنا فسيأتيك في الفصل الثاني عشر إن شاء الله تعالى.

﴿بِٱلدِّينِ ٧﴾ الدين هو الجزاء والدينونة. من قولهم: «دِنَّاهم كما دانوا»[٤]،

---

(١) هذا سهو من المؤلف رحمه الله. وإنما ذهب إلى هذا المعنى وصرح به أبو جعفر النحاس وغيره. انظر إعراب القرآن للنحاس ٣: ٧٣٦، وانظر مفردات القرآن للمؤلف: ٢٦٨ (حاشية المحقق).

(٢) المفضليات: ٢٦١.

(٣) ديوان عَبيد: ١٥ وجمهرة أشعار العرب: ٤٦٤.

(٤) قال الفِنْد الزِّمّاني:

فلمّا صرّح الشرُّ فأمسَى وهو عُريانُ

ولم يبقَ سوى العُدْوا نِ دِنّاهم كما دانوا

انظر حماسة أبي تمام ١: ٦٠.

وقولهم: «كما تَدين تُدانُ»[1]. وقد جاء في القرآن كثيراً، وقد مرَّ آنفا بعض الشواهد.

(٣)

تعيين المراد بما أقسم به من المواضع

لا يخفى عليك أنّ المقسَم به إنما يُنظَر إليه من جهة كونه دليلاً وشاهداً وآيةً على ما أُقسِمَ عليه. وقد مرّ أن المقسَم عليه هو أمر الدينونة، فلا بدّ من اشتراك هذه الأسماء في هذه الجهة. وستعلم في الفصول التالية ما وقع من الدينونة في هذه المواضع.

١- وذلك يدل على أنّ المراد بالتين والزيتون موضعان، ليس إلا.

٢- وأيضاً قَرَنَ التين والزيتون بطور سينين والبلد الأمين، فدلّ بالنظم على كونهما اسمين لموضعين.

٣- وأيضاً لا يخفى عليك أنه كان من عادة العرب التذكُّر برؤية الديار وآثارها، وكثر ذلك في كلامهم جدًّا. فذكرُ المواضع للتنبيه على ما وقع فيها هو أقرب إلى أذهانهم وأوقع في نفوسهم. وعلى هذا كَثُر في القرآن التذكيرُ بذكر البلاد، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ هود: ١٠٠.

٤- وأيضاً في التوراة ما يطابق هذا التأويل. وسيأتيك بيانه في الفصل التاسع.

وعلى هذا لا نُغيِّر معنى التين والزيتون، وإنما نأخذ بعض وجوه معنى واحد، حسب سنة الكلام، كما ستعرف. وبذلك يرفع الاختلاف من بين قولين لعكرمة ﷺ

---

(١) قال خويلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغسّاني:

يا حارِ أيقِنْ أنّ ملْكَكَ زائلٌ واعلَمْ بأنّ كما تَدين تُدانُ

حيث قال مرة: «تينكم وزيتونكم»[١]، ومرة: «هما جبلان»[٢].

هذا، والآن نذكر ما هو المراد بهذه الأسماء.

فأما «التين» فالمراد به موضع خاص عرفته العرب بهذا الاسم، لكونه منبت التين[٣]. والعرب يسمون الموضع باسم ما ينبت فيه كالغضى[٤]، والشجرة[٥]، والنخلة[٦]. وليس ذلك خروجاً عن أصل معنى الكلمة، وإنما هو استعمالها في بعض وجوهها بطريق تسمية الظرف بالمظروف. قال النابغة الذبياني من بني غطفان:

وهَبَّتِ الريحُ مِنْ تِلْقاء ذي أُرُلٍ ... تُزْجي مع الليل مِنْ صُرَّادها صِرَما

صُهْبَ الظلالِ أَتَين التينَ عن عُرُضٍ ... يُزْجِين غيماً قليلاً ماؤه شَبِما[٧]

أراد بالتين جبلاً في الشمال، قال الأولون: هو بين حُلْوان وهَمَذان[٨]. وأما خلافهم من أبي حنيفة الدينوري مستدلًّا بأنّ ذلك الموضع بعيد من بلاد غطفان، فلا يلتفت إليه. فإن الشعراء ربما يذكرون ما بعد عن بلادهم جدًّا.

---

(١) الطبري ٣٠: ١٥٣.

(٢) المرجع السابق ٣٠: ١٥٤.

(٣) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٥٣٢.

(٤) قال ياقوت: «الغضى أرض في ديار بني كلاب كانت بها وقعة لهم، والغضى: واد بنجد. قال مالك بن الريب:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا

لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى ... مزار و لكن الغضى ليس دانيا

(٥) الشجرة: اسم قرية بفلسطين. انظر معجم البلدان ٣: ٣٢٥.

(٦) النخل والنخيل، والنخلة، والنخيلة: أسماء لعدة مواضع.

(٧) ديوان النابغة: ٦٣، وانظر اللسان (أرل، صرم، تين).

(٨) انظر معاني القرآن للفراء ٣: ٢٧٦، ومعجم البلدان ٢: ٦٩، واللسان (تين).

وهذا النابغة نفسه ذكر كابل[١]، وسدّ يأجوج[٢]، وتدمر[٣]، فهل هذه في بلاد بلاد غطفان؟ وجبل التين على قول الأولين ليس بهذا البعد، فإنما هو على جانب من العراق. وهم يذكرون الفرات، ودجلة، وخابور، والخورنق، والسدير.

ولعل أبا حنيفة أخطأ معنى قوله: «أتين التين»، وظن أن النابغة أراد به الإتيان إلى بلاده. وإنما هو أراد المرور، فإنه يصف الريح الباردة الشمالية التي تزجي السحب الصهب القليلة الماء التي مرت بجانب جبل التين، فازدادت به برودةً. والعرب تذكر كثيراً هبوب الريح الباردة من جانب الشمال.

وهكذا يذكرون «الجودي» بالبرودة. قال أبو صَعْتَرة البَوْلاني، وهو جاهلي:

فما نُطْفَةٌ من حَبِّ مُزْنٍ تقاذفتْ … به جنبتا الجـوديِّ والليلُ دامسُ

فلمّـا أقرَّتْه اللِّصَـابُ تنفَّسَتْ … شَمالٌ لأعلى مائـه فهو قارسُ[٤]

فلا شك أن النابغة أراد بالتين جبلاً في الشمال، ولعله هو الجودي أو قريب

---

(١) وهو قوله من قصيدة:

قعوداً له غسّانُ يرجُون أوبَه … وتُرْكٌ ورهطُ الأعجمين وكابُلُ

انظر ديوانه: ١٢٢.

(٢) لم يذكره النابغة، وإنما ذكره امرؤ القيس في قوله:

وسدَّ بحيث ترقَى الشمسُ سدًّا … ليأجـوجٍ ومأجـوجَ الجبـالا

انظر ديوانه: ٤٥٠.

(٣) وذلك قوله من قصيدة:

وخَيِّسِ الجِنَّ إنّي قد أذِنْتُ لهم … يبنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

انظر ديوانه: ٢١.

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي: ١٢٨١.

منه.

وكما أخطأ الدينوري في بيت النابغة، فكذلك أخطأ صاحب معجم البلدان في بيت أبي صعترة، فقال: إنه أراد بالجودي موضعاً في اليمن[١]، فظن أن الشاعر لا يذكر إلا بلاده. وقد مرّ آنفاً أن ذلك ظن باطل، ولم يُثبِتْ أحد أن الجودي جبل في اليمن. وإنما الجودي هو الذي ذكرنا.

ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية، فقال: إن المراد به «مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي»[٢]. وعن عكرمة «والتين والزيتون قال هما جبلان»[٣]. وعلى هذا يتبين أن التين إما هو الجودي أو قريب منه.

وفي التوراة أن بني آدم تفرقوا بعد نوح عليه السلام[٤]. والقرآن يدل على كونه قريباً من الجودي، فيستدل بذلك على أن التين كان مسكن آدم وذريته. ويؤيده أيضاً ما جاء في التوراة من أن آدم عليه السلام كان يخصف عليه من ورق التين[٥].

هذا، وأما «الزيتون» فأيضاً أطلق اسمه على منبته حسب سنة العربية كما مرّ آنفاً. ولا يخفى أنّ المراد: جبل الزيتون الذي كثر ذكر تضرعات المسيح عليه السلام. لوقا (٢١ : ٣٧):

«وكان في النهار يعلِّم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل الذي يدعى

---

(١) قول المصنف: «في اليمن» سهو، وإنما قال ياقوت: «والجودي أيضاً جبل بأجا أحد جبلي طيء، وإياه أراد أبو صعترة». وذلك لأن الشاعر طائي.

(٢) تفسير الطبري ٣٠: ١٥٤.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر سفر التكوين ٩: ٧، ١٩ و١٠: ٣٢.

(٥) التكوين ٣: ٧.

جبل الزيتون».

وسيأتيك تفصيل ذلك في الفصل السادس. ويوافق ذلك أقوال السلف منّا، فقد روي عن ابن عباس ﷺ، وعن كعب: أن الزيتون بيت المقدس. وعن قتادة: أنه الجبل الذي عليه بيت المقدس[١].

وأما «طور سينين» فمعروف، ولكن صورة الكلمة تستدعي بياناً. فاعلم أن القرآن ذكره في موضع آخر باسم (طور سيناء)[٢]. فمرةً أتى بها على التأنيث، ومرةً على جمع السلامة. فدلّ على أن التأنيث إنما هو لكونه وصفاً للجمع، كما تقول: جمعاء وأجمعون. وفي التوراة جاء «سيناء» و«سينيم». وفي العبرانية «يم» علامة الجمع. وقال بعض علماء أهل الكتاب: إن «سينيم» اسم أرض الصين، بدليل أنه اسم أرض بعيدة عن فلسطين. وهذا الدليل كما ترى.

وأما «البلد الأمين» فلا حاجة إلى بيانه. وإنما لم يقل «مكة»، ليكون أوضح في الدلالة على وجه الاستشهاد، كما سيأتيك ذكره في الفصل الثامن إن شاء الله تعالى.

(٤)
الأصل الكلي في وجوه الاستشهاد بهذه البقاع الأربع

قد مرَّ أن المقسَم به في الاستشهاد لا يُنظَر إليه إلا من جهة ما يكون آيةً وشهادةً على المقسَم عليه. وقد علمت مجملاً أن المقسَم عليه في هذه السورة هو أمر الدينونة. فالآن ننظر إلى هذه البقاع من هذه الجهة، لا غير.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٥٣-١٥٤.

(٢) قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ المؤمنون: ٢٠.

واعلم أنّ الشيء الواحد ربما يستشهد به من وجوه كثيرة، فلا حاجة إلى حصر الوجوه. وقد جاء في القرآن الاستشهاد بشيء واحد من جهات شتى، مثلاً استشهد بالمطر من جهة على الربوبية، ومن جهة أخرى على البعث بعد الموت. وربما يصرح بكثرة الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ ﴾ يونس: ٦٧، فجعل فيها آياتٍ لا آيةً واحدةً.

وكذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ ﴾ آل عمران: ١٩٠، وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢٠ - ٢١.

وهذا كثير وظاهر، ومع ذلك إذا أقسم بشيء على أمر، فعند ذلك لا يؤخذ من جهات المقسَم به إلا ما كان شاهداً على المقسَم عليه.

وبعد ما تبينت هذا الأصل فاعلم أن هذه البقاع الأربع مواضع لظهور الدينونة الدالّة على أن الربّ تعالى يدين الإنسان بالرحمة والعدل، حسب أعماله. فهذا هو الأصل الكلي في النظر في وجوه الاستشهاد بهذه البقاع. وأما تفصيل ذلك فنذكره في الفصول الآتية.

(٥)

وجه الاستشهاد على الدينونة بالتين

اعلم أن «التين» هو أول موضع لظهور الدينونة على الإنسان. وذلك بأن آدم عليه السلام لما نسي عهد الربّ، وسمع لقول حاسده، وقعت عليه وعلى زوجه الدينونة، فأُهبطا بعد الرفعة، وسُلبا لباس الجنة، كما قال تعالى: ﴿ وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ الأعراف: ٢٢، وطه: ١٢١. وجعل الله تعالى ذلك الأمر تذكاراً وموعظةً لنسله، فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾

الأعراف: ٢٧. وقد صرّح في التوراة بأن الشجرة التي خصفا عليهما من ورقها كانت شجرة التين[1]. ثم عند ذلك تابا إلى الربّ. وتاب الربُّ عليهما، ووَعَد بإنزال هُداه وأجر مَن تبعه من ذريته، فأعطاه عهداً ثانياً. فواقعة التين جمعت السلب والعطاء. الأول لنسيانه العهد الأول، والثاني لإنابته إلى الربّ.

وكذلك وقعت الدينونة على نسله في عهد نوح عليه السلام عند جبل التين، فأُهلِكَ الظالمون، وبُورِك الباقون، كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ هود: ٤٤.

ثم بعد ذكر دعاء نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ هود: ٤٨.

أي جعلنا السلام والبركات لك وللمؤمنين معك، وأما الآخرون فلهم أيضاً متاع من الدنيا قليل ثم عذاب أليم.

فصار التين آيةً وتذكرةً لما وقع على الإنسان من الدينونة وقضاء الربّ تعالى. وذكرُها باسم «التين» بدل «السعير» أحسنُ، لما هو أوضح دلالةً على واقعة هي أقدم وأوسع من واقعة الطوفان. ثم في هذا الاسم دلالة أخرى، وسيأتيك ذكرها.

(٦)

وجه الاستشهاد على الدينونة بالزيتون

اعلم أن «الزيتون» قد وقعت عليه الدينونة العظمى من سلب الأمانة والناموس من اليهود، وإعطائها لدوحة أخرى من شجرة إبراهيم عليه السلام، إذ وقع ما

---

(١) انظر سفر التكوين ٣: ٧.

وقع في آخر عهد المسيح عليه السلام في ليلةٍ سَهِرَها على جبل الزيتون، وقد ناجى الربَّ إلى السحر، ويئس من قومه، فحزن غاية الحزن، لما علم أن اليهود يهُمُّون بقتله. وبذلك يُلعنون ويُسلبون الأمانة، فتعطَى لأمّةٍ جديرة بها، كما صرح به المسيح عليه السلام حيث قال:

«أما قرأتم قطُّ في الكتب. الحجرُ الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية. من قِبَل الربِّ كان هذا وهو عجيب في أعيننا»[1].

قوله: «الحجر» إلى قوله: «في أعيننا» منقول من مزمور: (١١٨: ٢٢-٢٣). ثم فسّر المسيح عليه السلام ذلك، فقال: «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزَع منكم ويُعطَى لأمة تعمل أثماره. ومَنْ سَقَطَ على هذا الحجر يترضَّض ومن سقط هو عليه يَسْحَقُه»[2].

فهذا نزعُ ملكوت الله وقع على جبل الزيتون. ويتبين ما ذكرنا مما جاء في الأناجيل. ففي الإنجيل المنحول إلى لوقا: (٢٢: ٣٩-٥٢):

«وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه أيضاً تلاميذه. ولما صار إلى المكان قال لهم: صلّوا لكيلا تدخلوا في الفتنة (أي الفتنة العظمى التي تأخذ اليهود عن قريب فيلعنون بها، كما جاء في القرآن ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ المائدة: ٧١. فلما بلغوا المنتهى حقت عليهم كلمة اللعنة والطرد) وانفصل عنهم نحو رَمْيَةِ حجر وجثا على ركبتيه وصلّى. قائلاً: يا ربِّ إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك.

---

(١) إنجيل متى ٢١: ٤٢.

(٢) إنجيل متى ٢١: ٤٣-٤٤.

وظهر ملكٌ من السماء يُقوِّيه. وإذ كان في جهادٍ كان يصلي بأشدِّ لجاجةٍ وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض. ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن. فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلُّوا لئلا تدخلوا في تجربة.

وبينما هو يتكلم إذا جَمْعٌ والذي يدعى يهوذا واحداً من الاثني عشر يتقدمهم فدنا من يسوع ليقبله. فقال له يسوع: يا يهوذا أ بقبلة تُسلِّم ابن الإنسان؟ فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا: يا ربِّ أنضرب بالسيف؟ وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. فأجاب يسوع وقال: دَعُوا إلى هذا، ولَمَسَ أذنه وأبرأها.

ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقُوّاد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه: كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعصي».

ولهذه الواقعة العظيمة ذكر في «مرقس» و«متى»، وفي البعض ما لم يذكر في الآخر. فنجمع لك ما يتم به أطراف هذه القصة، ولا تَمَلَّنَّ إطناب الكلام، فإنّ الواقعة مهمة جدًّا. ففي مرقس (١٤: ٣٣-٤١):

«ثم أخذ معه بطرس (أي شمعون الصفا) ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب. فقال لهم: نفسي حزينة جدًّا حتى الموت. امكثوا هاهنا واسهروا. ثم تقدم قليلا وخرّ على الأرض وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعةُ إن أمكن. وقال: يا أبا الأب كلُّ شيء مستطاع لك فأجِزْ عنّي هذه الكأس. ولكن ليكن لا مشيئتي بل مشيئتك. ثم جاء ووجدهم نياماً فقال لبطرس: يا سمعان أنت نائم. أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلُّوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف. ومضى أيضاً وصلى قائلاً ذلك الكلام بعينه. ثم رجع ووجدهم أيضاً نياماً إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه (أي على توبيخه إياهم). ثم جاء ثالثةً وقال لهم: ناموا الآن واستريحوا (أي قد حُمَّ الأمر ووقعت على اليهود سيئات ما

كسبوا وأنا لم آلُ جهداً في دعائي لهم، كما بينه فقال:) يكفي. قد أتت الساعة».

والباقي يشبه ما قد مرّ. وفي متى (٢٦: ٣٦-٤٥) ما يشبه ذلك غير أن فيه:

«ثم تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلي ...» فصرح بالسجود. وفي لوقا اكتفى بذكر الركوع فقط. وأما في يوحنا فلم يذكر صلاة المسيح عليه السلام، ولكن ذكر في هذا الموقع من كلامه عليه السلام ما لم يذكره غيره، مع زيادات من الكذب. فنذكر منه ما يدل على كون هذا الكلام عند تلك الحادثة، وعلى الطرف الآخر من قضاء الله على قوم اليهود، وهو طرف الرحمة من الدينونة، وادخرها الرب لمن يؤمنون في الآخر حين تلين قلوبهم كما كثر ذكره في التوراة. وصرح به القرآن في سورة الأعراف، وهو قوله تعالى:

﴿ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧.

ففي يوحنا (١٢: ٢٣-٣٦):

«وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة ليرتفع ابن الإنسان. الحقّ الحقّ أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وبقيت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير. من يحب نفسه يضيعها ومن يهين نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية. إن كان أحد يخدمني فليتبعني. وحيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي. وإن

كان أحد يخدمني يكرمه الرب. الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول...».

(كان اضطرابه لأمرين: شقوة اليهود به، وإهانته بأيديهم. والأول قد علم أنه لابد واقع، والثاني كان لأمرين: خوف ذلة الحق أمام الباطل، وخوف فتنة الناس بذلك، كما جاء في القرآن في ذكر دعاء المؤمنين عند خوف غلبة الباطل: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ يونس: ٨٥ - ٨٦. أيضاً: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المتحنة: ٤ - ٥ كما يبين ذلك ما يتلو فقال:)

«أيها الربّ نجّني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة. أيها الربُّ مَجِّدْ اسمك. فجاء صوت من السماء مجّدتُ وأُمجِّدُ أيضاً. فالجمع الذي كان واقفاً وسمع قال: قد حدث رعد. وآخرون قالوا: قد كلّمه ملاك. أجاب يسوع وقال: ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم. (أي يرفعني ربي ولا تصل إليّ أيدي الظالمين، لكي تُحفظوا عن الفتنة) الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً».

(المراد بالعالم هاهنا اليهود. والمراد بطرح رئيسهم طرح أتباعه معه. وقوله: «خارجاً» أي عن منصب حمل الشريعة، فإنهم هناك طردوا عن القيام أمام الربّ) وأنا إن ارتفعت عن الأرض أَجذِب إليّ الجمع قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزمعاً أن يموت (هذه زيادة من الرواة وهي باطلة. فإن المسيح إنما قال: «إن ارتفعت» ولم يقل: إن متّ. وكذلك في سائر أقواله).

«فأجابه الجمع: نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان. من هو هذا ابن الإنسان. فقال لهم يسوع: النور معكم زماناً قليلاً بعدُ. (هذا يشير إلى ذهاب كتاب الله من عندهم بعد زمان

حتى جاء ذاك النور مع النبي الذي بشر به المسيح عليه السلام. وإلى هذا يشير ما جاء فيما مرّ آنفاً من سورة الأعراف، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ الأعراف: ١٥٧ فارجع إليه) فسيروا مادام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب. مادام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور. تكلم يسوع بهذا ثم مضى واختفى عنهم».

هذا أصح وجه للقصة، ولم يذكره غير يوحنا. وهو صريح في أن المسيح غاب عن الناس ولم تقع عليه أيدي اليهود. وأرى أنّ اختفاءه كان آخر القصة. ولكن اختلطت الروايات، وقدّموا وأخّروا من غير علم.

أيضاً: (١٦: ٥-١٣): «وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي. لكن لأني قلتُ لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي وأما على بر فلأني ذاهب إلى ربى ولا ترونني أيضاً وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين».

(أي يفحم اليهود بثلاثة أمور: عدم إيمانهم بالمسيح الذي جاء مصدِّقاً للتوراة، وطهارته وبراءته منهم، وخذلانهم الذي عبر عنه بقوله: «الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً» كما مرّ تأويله آنفاً).

«إن لي أموراً كثيرةً أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبر كم بأمور آتية».

(أيضاً ١٦: ٢٠-٢١): «الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون

والعالم يفرح. أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح لأنه قد وُلد إنسانٌ في العالم».

فمثَّل زمان غيبته بزمان المخاض، وزمانَ ظهور النبي الموعود بزمان الولادة.

أيضاً (١٦ : ٣٢): «هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الرب معي».

بعد ذلك ذكر كلامه بالرب، ثم ذكر قصة هجوم الكهنة عليه، ودلالة يهودا، مشابهاً لما في الأناجيل الأخر. ولا شك هذه زيادة غير صحيحة بعد ما قال: «إنه مضى واختفى عنهم».

ومما ذكرنا يتبين للمتأمل ما وقع من الدينونة العظمى على بقعة الزيتون. طُرِدَ قوم، ودُعِيَ قوم، ثم يُدعى التائبون من الأول. فكان اختلاط الرحمة والنقمة، والنور والظلمة. وعند ذلك تسكب العبرات، وتصعد الزفرات. وترى المسيح عليه السلام هناك كالشمع في آخر ذوبانه وشدة وهجانه، أفرغ جهده لقومه. ثم غمّه اليأس، ثم سكّنه الرجاء، فاضطرب تحت عواصف الهموم كالبحر المتلاطم.

ثم في الزيتون إلماع إلى دينونة أخرى مع نوح عليه السلام، وسيأتيك ذكرها.

(٧)

وجه الاستشهاد على الدينونة بطور سينين

وأما طور سينين، فلا يخفى أن الله تعالى أعطى عليه الأمانةَ أمةً ضعيفةً قد صبرت على ظلم أعداء الله، فأنجاها من أيديهم بيد قوية، ورفع أمرها، ودان عدوَّها، ثم أعطاها ناموساً ذا بأس شديد على الظالمين الكافرين. فكان هذا العطاء العظيم

رحمةً على الضعفاء، وانتقاماً من الأقوياء. وكان أيضاً أجراً للعابدين، وجزاءً للكافرين.

وهذا يتبين لك مما جاء في القرآن والصحف الأولى، ففي القرآن في ذكر فرعون وقومه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الزخرف: ٥٤ - ٥٦.

وأيضاً: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٧.

وأيضاً: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ القصص: ٤ - ٦.

وأما الصحف فقد صرحت بأن الله تعالى رحم على بني إسرائيل ليدين به الكفار وليتمَّ به ما وعد آباءهم الصالحين من البركة والنعمة. ففي سفر التثنية (٧: ٧- ١٠):

«ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الربُّ بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل من محبة الرب إياكم وحفظه القَسَم الذي أقسم لآبائكم، أخرجكم الربُّ بيد شديدة وفداكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر. فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل. والمجازي الذي يبغضونه بوجوههم ليهلكهم لا يمهل من يبغضه. بوجهه يجازيه».

وأيضاً (٩: ٥-٧): « ليس لأجل بِرِّك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الربُّ إلهك من أمامك ولكي يفي بالكلام الذي أقسَمَ الربُّ عليه لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فاعلم أنه ليس لأجل بِرِّك يعطيك الربُّ إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة. اذكر لا تنس كيف أسخطتَ الربَّ إلهك في البرية. من اليوم الذي خرجتَ فيه من أرض مصر حتى أتيتم إلى هذا المكان كنتم تقاومون الربَّ».

ثم ذكر اتخاذهم العجل، حين ذهب عنهم موسى، وصعد إلى طور سيناء لأخذ لَوْحَي العهد.

فمما ذكرنا يتبين أن الله تعالى دعا موسى عليه السلام إلى الطور لأجل إتمام النعمة على ذرية الصالحين ليمكِّن لهم في الأرض، ليكونوا شهداء لله بالدين الحق، وليُهلك بهم المفسدين الكافرين. فكان ذلك دينونةَ رحمة ونقمة، وثواب وعذاب، ليعلموا أنه هو العزيز الرحيم الديَّان الحكيم.

(٨)
وجه الاستشهاد على الدينونة بهذا البلد الأمين

اعلم أن الدينونة التي وقعت في مكة كانت أوسع رحمةً للناس، وباقيةً إلى القيامة. وبيان ذلك أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه السلام بكلماته فأتمَّها، وبعهده فوفَّى، حتى قرَّب في آخر عمره بكره الوحيد البارَّ السعيد إسماعيل عليه السلام، فحينئذ باركه الربُّ، وبشَّره بإسحاق عليه السلام، وأعطاه عهدين في ذريته منهما.

فأما عهده في إسحاق عليه السلام، فأتمَّه حين دعا موسى عليه السلام إلى الطور وأعطاه الكتاب المبين. ثم استمرَّ على علات اليهود حتى امتلأت كأسهم حين همُّوا بقتل آخر أنبيائهم، فنزعه عنهم كما مرّ. وكان فيه دينونة مختصة بطائفة من بني آدم، وإلى زمان.

وأما عهده في إسماعيل عليه السلام، فادَّخره ليتمَّ به النعمة للصالحين والنقمة للجاحدين من الناس أجمعين. فجعله تمام الدينونة التشريعية حتى تأتي الدينونة الآخرة يوم القيامة يوم الفصل التام. ولابد للإتمام والإكمال أن يأتي في الآخر، ولكنه موعود ومنتظر من أول الأمر. وإلى هذا يشير كثير مما جاء في الصحف الأولى والقرآن، مثلاً:

«الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية. مِنْ قِبَل الربِّ كان هذا وهو عجيب في أعيننا... ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه»(١).

وقد ضرب المسيح عليه السلام أمثالاً كثيرةً لهذه الدينونة المنتظرة، وسمّاها «ملكوت الله»(٢)، وصرّح بأن أهلها هم الآخرون الأولون. فقال في مثل الأكّارين كما جاء في متى (٢٠: ١٦): «هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين». وكذلك صرّح بأن إتمام الحق والنور يكون عند ذاك، كما مرّ آنفاً.

وإذ كان الأمر كذلك، جعل مركز هذا العهد بلداً أميناً محفوظاً عن الأعداء، واختار له خير أمة ليكونوا شهداء الله على جميع أهل الأرض، وبعث فيه نبيًّا على كافة الناس، وأتمَّ به الشرائع والحكمة، لكيلا يبقى للناس حجة بعد ذلك عند دينونة في القيامة. وبيّن القرآن هذه الأمور في مواضع، فمنها قوله تعالى:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ

---

(١) إنجيل متى ٢١: ٤٢ و٤٤.

(٢) انظر إنجيل متى ٢١: ٤٣.

وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ البقرة: ١٢٤ - ١٢٩.

فأتمّ الله عهدَه بإبراهيم عليه السلام، وجعله إماماً للناس بما عهد إليه وإلى إسماعيل عليه السلام سدانةَ بيته، وجعله مثابةً للناس وأمناً. واستجاب دعاءه، فبعث فيه رسولاً. وكلُّ ذلك لما وجده كاملاً في العبودية. وفي التوراة أن الله وعده بأن يبارك به الأمم[1]. فوقع جميع هذه الأمور، وبقي هذا البلد مأموناً من عهد إبراهيم عليه السلام. والمخاطبون قد علموا ذلك، وقد شهدوا كيف أهلك الله أصحابَ الفيل حين راموا كيداً خلاف هذا البلد.

هذا، وأما مركز عهده في ذرية إسحاق عليه السلام فدارت عليه وعلى أهله الدوائر. وصرّح بذلك في الصحف كثيراً، وتجد ذكره في تفسير سورة الفيل. ولا يخفى ذلك على من نظر في الصحف الأولى. ومما ذكرنا تبين ما للدينونة التي وقعت في هذا البلد من السعة والحسنى، والحمد لله في الآخرة والأولى.

وجملة ما أوردنا في هذه الفصول أن الله تعالى ذكر هذه المواضع لكونها مشاهد لدينونة الإنسان في الدنيا وجزائه إياهم حسب أعمالهم، ليبين لهم أن ربَّهم لم يخلقهم

---

(١) انظر التكوين ٢٢: ١٧-١٨.

سدىً، ولم يغفل عن أحوالهم. فأنزل إليهم الكتاب والذكرى، وأكثر لهم من النذر والبشرى، فهيأ لهم ما يهتدون به حسب ما أودع فطرتهم من الاستعداد للرقي إلى مدارج الكمال. وجعل ذلك دليلاً على وقوع الدين في الآخرة، كما قدَّمنا ذكره في الفصل الأول.

(٩)

نظير ذلك في التوراة وتحقيق مقام «سعير»

قد جاء في التوراة ما هو في غاية المشابهة بأوائل هذه السورة. ونذكره لما فيه تصريح ببعض ما ذكرنا. سفر التثنية (٣٣: ١-٤):

«وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجلُ الله بني إسرائيل قبل موته فقال: جاء الربُّ من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم. فأحب الشعب (بعد ذكر ذلك التفت فخاطب الرب قائلاً:) جميع قديسيه في يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك. بناموس أوصانا موسى ميراثاً لجماعة يعقوب».

وبعد ذلك دعا لقومه بالبركة، وكان ذلك آخر كلامه. ولا يخفى على المتدبر أن في تقديم هذه الجمل قبل البركة إشعاراً بأنّ الله تعالى لم يزل يعطي البركة للذين أطاعوه ويتجلى لهم بمراحمه. فكذلك يبارك هذا الشعب إذا أطاعوه وتقبلوا ما أنزل إليهم من أحكام الرب ووصاياه.

وإذا تبين لك هذا استبان لك ما في هذا الكلام من المشابهة بما ذكرنا من التأويل، ومن أن المراد بهذه الأسماء هي مشاهد ظهور الربِّ بأفعاله سواء كانت هذه المواضع الأربع مطابقة بالأربع التي في هذه السورة كل المطابقة أو بعضها. والتأمل يهدي إلى المطابقة التامة. فإن المطابقة بين الثلاثة من هذه الأربع ظاهرة جدًّا. فإنه لا

يخفى أن «سيناء» اسم آخر لطور سينين، و«فاران» اسم لجبال مكة باتفاق أهل العلم منا. وفي التوراة شواهد على ذلك، كما هو مبسوط في تفسير سورة الصافات. و«ربوات القدس» عبارة عن جبال القدس التي كثر ذكرها في الأناجيل بجبل الزيتون. فلم يبق إلا بيان المطابقة بين «التين» و«سعير». ونذكر لك ما يؤيد ذلك. والله أعلم.

قد مرّ في الفصل الثالث أن «التين» هو أول مسكن بني آدم وهو الجودي أو قريب منه. فالآن نقول إنّ «سعير» حسبما جاء في صحف اليهود اسم لجبال «أدوم» التي نهي بنو إسرائيل عن تملكها، وهي بلاد فسيحة الأرجاء، كثيرة الملوك والقبائل[1]. ويزعمون بأن «أدوم» سمّي به عيص بن إسحاق، وأن معناه: الحمرة[2]، وأنه كان أحمر قويًّا شديدَ البطش، وأدوم وبنو أدوم هم أولاده سكان سعير[3].

وأما موضعه فالتبس عليهم مثل كثير من مواضع البلاد كما اعترف به علماؤهم، وذلك بأنهم جمعوا الروايات المتناقضة. فمع ظهور أنهم يجعلونه في جنوب الشام، تراهم يذكرون أيضاً ما يدل على كونه في الشمال والمشرق من بلادهم. ففي سفر العدد (٣٤: ٧):

«وهذا يكون لكم تَخْمُ الشمال. من البحر الكبير (أي بحر الروم) تَرْسُمون لكم إلى جبل هور».

وجبل هور في طرف أَدُومَ، كما جاء في سفر العدد (٣٣: ٣٧): «ونزلوا في

(١) انظر سفر التكوين ٣٦: ٩-١٩.

(٢) انظر التكوين ٢٥: ٣٠.

(٣) التكوين ٣٦: ٨.

جبل هور في طرف أرض أدوم».

ويتبين من هذا أن الخط الذي يمر من البحر الكبير إلى الشرق يبلغ أرض أدوم على جانب الشمال والشرق من أرض بني إسرائيل. وذلك يطابق ما ذكرنا من موضع التين. ويؤيد ذلك أمور:

الأول: أنهم يذكرون أن أدوم مأخذه «الأدمة» وذلك هو المأخذ لاسم آدم عليه السلام. فالأقرب أن أدوم سمي بهذا الاسم لما كان مسكن بني آدم.

والثاني: أنهم يذكرون أن أدوم هو اسم آخر لـ«سعير» [و«سعير»] في العبرانية هو الطوفان. فالأقرب أن الجودي سمي بـ«سعير»، وكان عنده مسكن بني آدم إلى أن تفرقوا بعد ما كثر أولاد نوح عليه السلام.

الثالث: أنا لا نجد في صحفهم أمراً عظيماً وقع على موضع يزعمون أنه المراد باسم «سعير». فالأقرب ما ذكرنا من مطابقة «التين» بـ«سعير» و«أدوم». ذلك، والله أعلم.

(١٠)

نظرة في النظيرين من القرآن والتوراة
من جهة النظم والبيان

بعد ظهور المطابقة بين النظيرين، لعلك تسأل عن وجه الاختلاف بينهما في ترتيب هذه الأسماء. فاعلم أنه كثر في القرآن والتوراة ذكر الأمور أنفسها على أنحاء من الترتيب، ولكل وجه صحيح. والآن ندلُّك على وجه الترتيب هاهنا حسبما يظهر. والله تعالى أعلم.

أما القرآن فروعي فيه ترتيب الزمان والمكان، وجمع المثل بالمثل. وذلك بأن قدَّم الدينونة الآدمية لتقدمها زماناً. ثم أردفها الدينونة المسيحية، لما بين آدم والمسيح

عليه السلام من المماثلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ آل عمران: ٥٩.

وأيضاً شجرة التين جُعلت تذكرةً للسلب والعطاء، فإنها تتعرّى زماناً، ثم تلبس وتثمر. فصارت آيةً لما وقع على آدم وذريته، كما مرّ في الفصل الرابع. وكذلك المسيح عليه السلام ضرب شجرة التين في غير أوان ثمرها مثلاً لذهابه وشقوة أمته به. وهذا يظهر للمتدبر مما جاء في متى: (٢١: ١٨-١٩)، ومرقس: (١١: ١١-١٩)، ولوقا: (١٣: ٦-٩). ثم جعلها مثلاً، وهي مورقة، لمجيئه وسعادة قومه، كما هو مصرّح به في متى: (٣٤: ٣٢و٣٣)، ومرقس: (١٣: ٢٨-٢٩)، ولوقا: (٢١: ٢٩-٣١).

ثم ذكر الدينونة الموسوية، وأردفها الدينونة المحمدية، لما بين موسى ومحمد عليهما الصلوات من المماثلة، كما هو ظاهر. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ المزمل: ١٥ وكما جاء في البشارة المشهورة لنبينا صلى الله عليه وسلم في سفر التثنية: (١٨: ١٨-١٩):

«أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه».

فانظر كيف راعى الترتيب الزماني بين آدم عليه السلام وموسى عليه السلام، وأردفهما بمثليهما، فجعل النظم كالجمان المفصل.

ثم انظر كيف جعل هذه البقاع مع رعاية المناسبة المعنوية مرتّبةً حسب المكان. فإن «التين» أقصاها في الشمال والمشرق، ثم «جبل الزيتون» في الشام، ثم «الطور» في المغرب والجنوب، ثم «مكة» في أقصى الجنوب. وهكذا كان مسير إبراهيم عليه السلام في هجرته من أور الكلدانيين إلى كنعان ومصر، حتى انتهى إلى مكة.

وقد مرّ في الفصل الرابع أن موضع التين هو الذي وقعت عنده الدينونة في

عهد نوح ﷺ، وكذلك مكة موضع عهد الربّ بإبراهيم ﷺ الذي دعا أن يجعلها الربُّ بلداً أميناً. وذكرها هاهنا بهذا الاسم يلمع إلى ذلك. فصارت الآية جامعةً لما أظهر الربُّ من الدينونة في عهد آدم ونوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ آل عمران: ٣٣ فخصّ هؤلاء بالذكر.

ولا يخفى ما في جمع التين بالزيتون، وطور سينين بالبلد الأمين أيضاً من المناسبة الظاهرة جمعاً وفرقاً. وأيضاً في قران التين بالزيتون مناسبة أخرى لطيفة، وذلك بأنّ في الزيتون أيضاً إلماعاً إلى بركات نوح ﷺ. وبيان ذلك أن نوح ﷺ بشّر بنشف المياه بالزيتون، كما جاء في سفر التكوين: (٨: ١٠-١١):

«فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتونة خضراء في فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلّت عن الأرض».

ومما ذكر تبين ما في هذا الترتيب من المناسبة من وجوه كثيرة.

وأما التوراة فالمخاطبون بها البسطاء، فبالغ في التصريح فقال: «جاء الرب»[١]، وفي التصوير فقال: «أشرق وتلألأ»[٢]. فعلى هذا الأصل ذكر الأقرب فالأقرب. فقدّم طور سيناء، ثم تقدّمَ خطوةً فذكر سعير ـ موضع دينونة أمة نوح ﷺ ـ ثم رجع فذكر من كان مثل موسى ﷺ وكان ظهوره من فاران، وقد بشّرَهم به

(١) انظر سفر التثنية ٣٣: ٢.

(٢) المرجع السابق.

وعرَّفه لهم كل التعريف[١]. ثم مثل الأول تقدّم خطوةً فذكر من كان قبله آتياً من ربوات القدس.

وإذ كانوا «صلب الرقاب» راعى جانب التخويف، فذكر التين باسم «سعير» دلالة على موضع الطوفان. وكذلك ختم الذكر بقوله: «وعن يمينه نار شريعة لهم»[٢].

فراعى في هذا الكلام أيضاً وجه البلاغة حسب مقتضى الحال. ولكل حال مقال، وتختلف الصور مع اتحاد المعنى. والله تعالى أعلم، وعلمه أحكم.

(١١)

في تأويل المقسَم عليه وهو قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ... غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

قد سبق فيما مرّ أن المقسَم عليه هو أمر الدينونة. وقد أقسم عليها في سور أخر، وجعلها أكبر مطالبها. فلا نذكر هاهنا إلا ما نحتاج إلى ذكره في هذه السورة.

فاعلم أن الله تعالى جعل الرحمة أصل كل ما يفعل بعباده، فأعطى الإنسان أولاً أحسن تقويم. وهذه العطية تلزمها الدينونة كما وقعت، ولكنه تعالى مهّد له منها سبيلاً إلى رحمته هي أكبر وأتم. فالرحمة كما هي أصل الدينونة وبذرها، فكذلك هي فرعها وثمرها.

وعلى هذا الأصل ذكر في المقسَم عليه ثلاث مراتب الإنسان: أولها ووسطها وآخرها. وأخبر عن عموم حاله من حيث نوعه، وجعل واقعةَ آدم عليه السلام مرآةً لذلك.

---

(١) انظر سفر التثنية ٣٣: ٢-٣.

(٢) سفر التثنية ٣٣: ٢.

وبيان هذا الإجمال أن الله تعالى خلق الإنسان في غاية الحسن من الخلقة على طريق مستقيم من الفطرة، حرًّا كاملاً، مُلهَماً بالخير والشر، مختاراً في الإرادة والفعل، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ الشمس: ٧ - ٨ لكي يكبح جانب الفجور من نفسه ويختار جانب التقوى، فيطيع ربه بعد الحرية. وذلك أرفع منزلةً مِن طاعة مَنْ فُطِرَ عليها وسُخِّرَ لها. فذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ التين: ٤.

فكون الإنسان في أحسن تقويم هو وضعه بين المتقابلين المتضادين من الميل إلى الخير والشر مع العلم بهما، والاختيار بينهما. وجعل حبّ الخير أصل فطرته. وذلك بأن تربية القوى وإبرازها وإكمالها منوط بالجهد والكدح. ولا بد للاختيار من هذه المشقة ليخلص النُّضار من الخبث، وهو المراد من التزكية والابتلاء. ولولا هذا الجهد والكدُّ لما ترقَّى الإنسان إلى ذروة الكمال الذي أودع الله فطرته، وجعله بذلك أحسن خلقه علماً وعملاً وحكمةً وزكاةً.

وإذ منَّ عليه ربُّه بالاختيار عامَلَه معاملة الأحرار، فأخذ منه عهداً للطاعة، وبذلك صار موقعاً للدينونة. فلما نسي العهد لقلة عزمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ طه: ١١٥ تصدّى للدينونة. فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥﴾ التين: ٥.

ولكنه تعالى إذ فتح له غرفةَ إلهام الفجور والتقوى تداركه بوحي التوبة، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ البقرة: ٣٧. فنهض الإنسان بعد هبوطه أحسن مما كان، فاجتباه ربه، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ طه: ١٢١ - ١٢٢ وهذه دينونة ثانية.

وكما أن الأولى لم تكن مختصةً بآدم عليه السلام بل عمَّتْ ذريته، فكذلك جعل هذه

الثانية عامّةً. فإنّ كلَّ من تاب بعد الزلّة تاب الله عليه ويهديه، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ البقرة: ٣٨.

فكما عَرَضَ وحيَ التوبة على آدم عليه السلام فكذلك يَعرضه على ذريته بواسطة الأنبياء. فمن تلقاه كان على سنة آدم عليه السلام، وأوتي ما سُلِبَ بل ما هو خير وأبقى. فذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ التين: ٦.

فهذه ثلاث مراتب في أحوال الإنسان. ويشبه هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ ظلوماً من جهة العمل، فاجترأ على أمر عظيم، فظلم نفسه، وأوردها مهالك؛ وجهولاً من جهة العلم، فتجاسر على أمر لو تبينه وعلم كنهه لأشفق منه. ولكن لولا هما لما ترقّى، فإن كل فوز في المخاطرة، كما ذكر نتيجة ذلك فقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ الأحزاب: ٧٢-٧٣.

فكان احتمال الإنسان الأمانة لكمال استعداده، وكان ظلمه وجهله لما انطوى هذا الاستعداد على الزلّة والعقَبات والنهوض، فيتوب الله على من انتعش بعد العثرة مثل آدم، فيفوز بالاجتباء.

ومما ذكر تبين أن هذه الآيات الثلاث جامعةٌ لتمام قصة الإنسان ودينونته من أول خلقه إلى نهاية مبلغه، وناظرةٌ إلى حالة آدم عليه السلام وهبوطه مع ذريته.

وعلى هذا يفهم من: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ حالتهم حين أُرجعوا إلى هذه الدار الدنيا. وحينئذ حرف «إلا» للاستدراك، أي: ولكن المؤمنين يترقّون بعد الهبوط، فيفوزون بأجر دائم.

وأما من فهم من ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ حالة الكفار فقط جعل الاستثناء متصلاً. أي بعد خلق الإنسان في أحسن تقويم رددناهم أسفل سافلين، غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فهؤلاء لم يُرَدُّوا من الحالة الأولى.

ولا يخفى أن هذا التأويل الأخير ضيق وبعيد، لكونه غير مطابق لعموم خلق الإنسان، ولا ناظر إلى قصة آدم عليه السلام وهبوطه مع ذريته. فإنّ الرد حينئذ يكون مخصوصاً بالكفار.

وأما التأويل الأول فهو أوسع و أتم. ويؤيده ما ذكرنا من نظيره، فإن قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ ﴾ غير مختص بالكفار. ثم فرّق بين الكافرين والمؤمنين.

واعلم أن كلا هذين التأويلين محتمل على فرض التأليف الإضافي في ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾. ولكن إن جعلت ﴿ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ حالاً وهو أحسن كان ﴿ أَسْفَلَ ﴾ عامًّا، مشيراً إلى قصة آدم وهبوطه مع ذريته، سواء جعلته ظرفاً أو حالاً. وعلى هذا، الاستثناء منه.

وأما ﴿ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ ففيه وجهان: الأول أن تجعله أيضاً عامًّا، فإن الله تعالى لم يردَّهم إلى أسفل إلا بأن اختار الإنسان سُفْلاً لنفسه. وعلى هذا تكون حرف «إلا» للاستدراك. أي لكن المؤمنين بعد أن كانوا سافلين حين أُهبِطوا نهضوا وتابوا، فلهم أجر دائم. وهذا تأويل حسن راجح كما هو ظاهر.

والوجه الثاني أن تخرج المؤمنين من ﴿ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً، أي المؤمنون مع الهبوط لم يكونوا سافلين. ولكنهم عرجوا من السفل إلى العلو. وأما الكافرون فبقُوا فيها رُدُّوا إليه، بل ازدادوا سُفْلاً.

(١٢)

في تأويل قوله تعالى:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

ذهبوا في تأويله إلى قولين:

الأول: فأي شيء يكذبك أيها الإنسان بالدين؟ اختاره مجاهد. فإنه لما قيل له: عنى به النبي الكريم ﷺ، قال: معاذ الله، إنما عنى به الإنسان[١]. واختاره الزمخشري[٢]، ثم زعم أن ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ معناه: يحملك على التكذيب[٣]. هذا تأويل حسن لو ثبت، ولعله أخذه من إنكار مجاهد، فإن التكذيب بهذا المعنى محال أن ينسب إلى النبي الكريم ﷺ، ولكنه لم يأت بشاهد على هذا المعنى.

والثاني: فما يكذبك أيها النبي الكريم ﷺ بعد ذلك بالدين؟ وذهب إليه الفراء[٤]. وهو مصيب في أنه لم يصرف الكلمة عن المعنى المتداول، ولكنه يبعد عن سياق الكلام وموقع الاستفهام، فإنه ليس في الكلام ما يناسبه خطاب النبي الكريم ﷺ بهذين الاستفهامين، ولا التفريع بقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾، ولا التأكيد بقوله تعالى: ﴿بَعْدُ﴾.

فالظاهر الأقرب من السياق وحسن النظم ما ذهب إليه مجاهد مع إلقاء معنى التكذيب على ما يوجد في كلام العرب. وعلى هذا يسوغ تأويلان:

---

(١) انظر الطبري ٣٠: ١٦٠.

(٢) انظر الكشاف ٤: ٢٢٣.

(٣) انظر حاشية الفصل الثاني.

(٤) انظر معاني القرآن ٣: ٢٧٧.

الأول: فأي شهادة ودليل أيها الإنسان بعد هذه الشهادات يخالف قولك بوقوع الدين ويكذِّبك فيه؟ وعلى هذا يكون الخطاب بالإنسان عموماً، فيكون تثبيتاً لمن آمن بالدين، وحثًا لمن تردد فيه.

وعلى هذا يتبين اختيار كلمة «ما»، فإن الناس لم يزالوا يكذّبون بالدين عناداً وتقليداً، وأما الدلائل والشهادات فليس فيها ما يكذّب. فخاطب نفوسهم لينظروا إلى محض الدلائل فيعلموا أنه ليس فيها ما يكذّبهم به.

والثاني: فأي شيء من الأماني والظنون يخالج صدرك في أمر الدين بعد أن دلّت الوقائع والشواهد؟ وعلى هذا يكون وجه الخطاب إلى المنكرين خاصة.ولهذا الخطاب نظائر. ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ الانفطار: ٦. ويؤيده ما جاء من إظهارهم الظن في أمر الدينونة، كما أخبر الله تعالى عن قولهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ۝٣٢﴾ الجاثية: ٣٢.

وكلا التأويلين واضح حسن كما يظهر. والله تعالى أعلم، وعلمه أحكم.

ومفاد الاستفهام الأول على كلا التأويلين أن يقر الإنسان بالدينونة، ويترك ما يُلقى إليه من الشبهات، سواء كان من الناس أو من قبل نفسه، بعد أن كثرت شواهدها وظهرت براهينها.

ومفاد الاستفهام الثاني أن يذعنوا بالدينونة، لكونها من صفات الرب تعالى. فكأنه قيل لهم: أليس الله بأحكم الحاكمين، فكيف يمكن أن يترك الإنسان سدىً غير مجزيّ، خيارُهم كأشرارهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٦﴾ القلم: ٣٥ - ٣٦.

(١٣)

في نظم السورة بما سبق وبما لحق
وفيه إثبات هذه البعثة

تضمنت السورتان السابقتان ما حمل النبي الكريم ﷺ من أعباء هذه البعثة العظمى التي أُسِّس بنيانُها بيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وجُعِل لأجلها هذا البلد مأموناً من كيد الأعداء، ولذلك أسكن فيه إبراهيمُ ذريتَه. ومع أن الله تعالى أخَّرَ أمرَها، وغشي موضعَها ظلمةٌ إلى مدّة، ما ودّعهم وما قلاهم، حتى أشرقه بنور أتمّ. فبعث فيه هذا النبي ليكمل مقصد بناء هذا البلد، وهو التوحيد الكامل والمواساة بالضعفاء. والربّ تعالى حكيم، عليم بالمصالح، وجعل لكل أمر أجلاً مُسمّىً.

فذكر في سورة التين كيف يدين الله الإنسان بالحكمة، ويقيم من بينهم أمة بعد أمة، ويعطيهم الأمانة، ويرفع قوماً ويضع قوماً ليدينهم حسبما أوفوا بعهده وأمانته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ الأنعام: ١٦٥.

فذكر في هذه السورة شواهد على ظهور بركات هذا البلد. وإن هذا مبني على سنة الله بالإنسان من أول أمره.

ومما ذكرنا تبين أن غاية هذه السورة إثبات هذه البعثة إثباتاً لِـمِّيًّا، لكون الرب تعالى ديّاناً وأحكم الحاكمين؛ وإثباتاً تاريخيًّا، كأنّ سلسلةً وُجِدَتْ كلُّها إلّا الحلقة المتمِّمة، أو كأنّ قصراً أتِمَّ بنيانُه إلّا اللبنة الأخيرة، كما بشّر بها المسيحُ عليه السلام، وجاء في الحديث الصحيح. وذكر مكة باسم «البلد الأمين» ليشير إلى دعاء إبراهيم عليه السلام حين دعا لهذه البعثة ولأمة مسلمة تقوم بفرائضها.

فلما بعث الله هذا النبيَّ ﷺ أمَرَه بأمر واحد، وهو ردُّ الحنيفية البيضاء إلى كمالها وهو الإسلام، وإقامة السلم في الناس. وجعل طريقها تلاوة آيات الله، وتعليم الشرائع والحكمة، والتزكية؛ كما أخبر الله تعالى عن دعاء إبراهيم عليه السلام حين دعا لهذا البلد وبنى هذا البيت المحرم: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة: ١٢٨ - ١٢٩.

وقد أوضح الله لنا رباط هذا البلد الأمين، والإسلام، وتلاوة القرآن، وأن ذلك هو غاية هذه البعثة المتِمَّة حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ النمل: ٩١ - ٩٢.

فبحسب هذا الربط أتبع هذه سورةَ البلد الأمين سورةَ اقرأ، وجعل نعمةَ القرآن غايةَ خلق الإنسان، والبرهانَ على كونه أحسن تقويم. وبيّن ذلك في السورة التالية، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ العلق: ١-٥.

وأقرب منه قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ الرحمن: ١ - ٤، فدلّ على أن القرآن مثل خلق الإنسان من أوضح مظاهر رحمته، فجمع بينهما. فإنه يعطي كلَّ شيء حسبما جعله مستعدًّا له، كما هو مبسوط في موضعه.

وبالجملة فكونُ الإنسان في أحسن تقويم يتبعه أن يعطى القرآن، فإنّ ذلك هو

الرجوع إلى أحسن تقويم، وبروز ما أودع في فطرته من الكمال.

هذا، والله تعالى هو الملهم للرشاد والموفق للسداد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد النبي الأمين، وآله وصحبه أجمعين.

تفسير

سورة العصر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

(١)

للسورة تأويلان عام وخاص

لا يخفى على من مارس كلام الخطباء الكرام أن الألفاظ إذا احتملت معنيين: عامًّا وخاصًّا، وكان المعنى الخاصّ مشيراً إلى ما يناسب موقع الكلام، وسياقُه مُلْمِعًا إلى قوم أو حال خاصّ، ثم كان المعنى العام محكماً صادقاً عالياً = تأولوا الكلام بتأويلين، ليناسب الكلام موضعه، ويوسّع نفعُه، وليشير إلى أمور لا ينبغي التصريح بها، إما للإيجاز أو لوجوه أخر.

وهذا أصل اعتمد عليه المفسرون والأصوليون، وبيّنّاه في كتاب «أصول التأويل».

فاعلم أن سورة «والعصر» من أكبر جوامع الكلم، ولها تأويل خاصّ، وعامّ وسيع. فنفسِّرها أولاً حسب التأويل الخاصّ الذي له زيادة مناسبة بالسورة السابقة، وإن كان التأويل الأوسع أيضاً غير قاطع ربط بينهما، كما ستعلم.

(٢)

مفهوم السورة إجمالاً، وربطها بالتي قبلها

فاعلم أنه قد مرّ في السورة السابقة أنّ أهل النعم انهمكوا في طلب المال، فأفنوا فيه أعمارهم، وهذا هو الخسران العظيم، كما قال تعالى:

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ أي كدهم في جمع الوفر﴿فِي

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي إنهم يدأبون للتكاثر والتنافس، ويحسبونه حزماً وعقلاً، ويسفِّهون من يعمل للآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على البعث والجزاء ﴿وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وهذا هو الخسران ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ الكهف: ١٠٣ - ١٠٦.

فهذا ذكر أهل النعيم المستهزئين بالرسل، وآيات الله، ولقائه.

وفي أول سورة «والعصر» بيّن خسران هؤلاء واضحاً. ثم بيّن طريق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع، لكي يتنافسوا فيما هو أحقُّ به، وينتبهوا عن نوم اللهو والغفلة قبل الفوت والحسرة، كما بيّن لنا في قوله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ أي إلى الحياة الدنيا ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي من الأموال ﴿كَلَّآ﴾ أي لن يرجعوا ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي ليسوا بفاعلين ما يعِدُون، ولا نائلين ما يتمنون ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي سدّ قاطع بينهم وبين ما تركوا خلفهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي بعد البعث أيضاً هم مقطوعون عن كلّ ما تركوا في الدنيا من أعوانهم إلا أعمالهم كما قال:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي بما اقتنى من الخير الباقي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لما لم يكسبوا صالحاً، وضيّعوا أيامهم في أباطيل الدنيا وتطلب زخارفها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ فهذا هو الخسران الكلي ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ المؤمنون: ٩٩ - ١٠٣ فأي خلد كسبوا، ويا لمتاع خسروا!

ولا يخفى مما تلونا من الآيات أنّ خسران الإنسان مبنيٌّ على كون الجزاء حقّا، وكونِ الإنسان تحت قدرة ربه مسؤولاً عما فعل في مدة عمره فيما آتاه ربُّه من نعمه. فكان إثبات الجزاء أول الأمر هاهنا. فلذلك جعل السورة دالّةً على لزوم الجزاء، ثم

على الخسارة العظمى بإضاعة النعمة الكبرى من الله وهي هذه الأيام التي لا عوض لها. ثم بيّن طريق الفوز والربح. وكلّ ذلك بغاية الإيجاز والإحكام، كما ستعرف في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

(٣)
دلالة كلمة العصر

فاعلم أن كلمة العصر اسم للزمان من جهة ذهابه ومروره، كما أن الدهر اسمه من حيث مجموعه. ولذلك يستعمل العصر كثيراً للأيام الخالية، كما قال امرؤ القيس:

وهل يَنْعِمَنْ مَنْ كان في العُصُر الخالي[١]

وكما قال عَبيد بن الأبرص:

فذاك عصرٌ، وقد أراني يحملني بازلٌ شَبوبُ[٢]

أي حينما كنت أراني، كما يظهر مما سبقه. وقال المتلمس:

عرفتُ لأصحاب النجائبِ جِدَّةً إذا عرفوا لي في العصورِ الأوائلِ[٣]

---

(١) صدر البيت:

ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالي

انظر لسان العرب (عصر، صرع). وفي الديوان: ٢٧ «يعمَنْ».

(٢) كذا في المطبوعة، والصواب في عجز البيت:

تحملني نَهْدةٌ سُرحُوبُ

انظر ديوانه: ١٧، وجمهرة أشعار العرب: ٤٥٦.

(٣) ديوانه: ٦٣.

وقال القُطاميّ أيضاً، ولم يكن من الجاهليين:

أنّى اهتديتَ لِتسليمٍ على دِمَنٍ   بالغَمْرِ، غيَّرَهُنَّ الأعصُرُ الأُوَلُ[١]

ومن هنا جاز استعمال العصر في قول دُرَيد بن الصِّمَّة حيث قال:

فإنْ لا تتركي عَذْلي سَفَاهاً   تَلُمْكَ عليه نفسُك غيرَ عَصْرِ[٢]

أي من غير أن يمُرّ بك كثير زمان[٣].

ومن هاهنا «الإعصار» للريح السريعة من جهة المرور والذهاب. و«عصر المائع»: إمراره، و«العصر» لآخر النهار من جهة ذهاب النهار وانعصاره. ومنه: عنصر الشيء.

فكلمة العصر تذكّرهم الأيام الخالية، وتوجِّههم من صفة الزمان إلى زواله وسرعة ذهابه. والأولى عبرة لهم بها جلب على الإنسان من حكم الله فيهم حسب أعمالهم، والثانية تحرِّضهم على التشمير لكسب ما ينفعهم من زمانٍ أجلى صفته سرعة الزوال.

وكان للعرب إلمام بطرف من هذين الأمرين، ونطقت بها ذوو البصائر منهم. قال المثقِّب العبدي:

---

(١) ديوانه: ٢٣، وجمهرة أشعار العرب: ٨٠٤.

(٢) الأغاني ١٠: ٢٨.

(٣) ومن أوضح الشواهد قول عَبْدة بن الطبيب:

يلُمنني في حاجةٍ ذكرتُها   في عصر أزمانٍ ودهرٍ قد نَسَلْ

انظر نوادر أبي زيد: ٢٢٣. وانظر مفردات القرآن للمؤلف: ٢٢٦.

إنّ الأمورَ إذا استقبلتَها اشتبَهَتْ   وفـي تـدبُّرهـا التبيـانُ والعـبرُ[١]

وقال قُسّ بن ساعدة:

فـي الذاهبيـن الأوّليـ   ـنَ من القرون لنا بصائرْ[٢]

وأراد بالبصائر: العبر، وأن الله هو المولى الحق. فإنه أنشد هذا الشعر بعد ما قال:

«تبًّا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية. يا معشر إياد! أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعواد؟ وأين الفراعنة الشِّداد؟ أين من بنى وشيّد، وزخرف ونجّد، وغرّه المال والولد؟ أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم آجالاً؟ طحنهم الثرى بكلكله، ومزّقهم بتطاوله. فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خاوية، عمرتها الذئاب العاوية. كلّا، بل هو المعبود»[٣].

وفي هذا الكلام مع حسنه نقص، وهو أنه ترك ذكر المجازاة. والقرآن كلّما يذكر هذه الأمور ينبّه على طرف العدل، كقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ النمل: ٥٢.

وكان قُسّ قد كاد أن يبصر هذا حيث قال: «بغى وطغى»، ولكنه غفل عن أمر الجزاء، وقصر نظره على زوال النعم. والقرآن كثيراً ما يستدلّ على الجزاء بما وقع على الأمم الخالية، وكذلك الصحف الأولى تذكر قصص الأمم استشهاداً على لزوم

(١) شعراء النصرانية: ٤١٥.

(٢) البيان والتبيين ١: ٣٠٩.

(٣) شعراء النصرانية: ٢١٣.

الجزاء.

وأما ذكرُهم الزمان بالزوال وأنه لا معوّل عليه، فكثير. وأحسنهم قولاً عدي بن زيد، حيث قال:

أعاذلُ، ما يُدريكِ أنّ منيّتي ... إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحى الغدِ؟

أعاذلُ، إنّ الجهلَ من لذة الفتى ... وإنّ المنايا لِلرِّجال بمَرْصد

كَفى زاجراً للمرءِ أيامُ دهره ... تَروحُ له بالواعظات وتغتدي[1]

فقَرُب من صريح الحكمة، ومع ذلك لم يعرُجْ إلى أمر الجزاء وذكر الدار الآخرة.

(٤)

وجه القسم بالعصر

قد أشهد الله العصرَ تذكاراً لما علموا من جريان حكم الله على الأمم الخالية حسبما أصلحوا أو أفسدوا في الأرض، ليعلموا أنهم لابدّ مجزيّون يوماً.

وكذلك أشهد الله على خسارة الإنسان بهذا الزمان الذي هو رأس بضاعته، وهو أسرع شيء زوالاً، مع أن الإنسان معتمد عليه وغافل عن يوم انتهاء عمره ولقاء الله وجزاء أعماله. فإنما مثله كمن بضاعته الثلج، وهو غافل عن الاقتناء به ثمناً يبقى، بل يتلذذ برونقه الزائل وبرده الفاني حتى تنفد هذه البضاعة، ويهجمه الأجل الموعود، فيعلم حينئذ خسرانه.

وهذا تأويل الخسران جاء به القرآن مراراً، فمنه قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ

---

(١) جمهرة أشعار العرب: ٤٩٨-٤٩٩.

كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾

الأنعام: ٣١ - ٣٢.

وهذا هو المراد من قول بعض العلماء كالقسطلاني وغيره في تفسير «والعصر»: «أقسم بالدهر لاشتماله على العجائب والعبر».

ثم في مرّ الزمان بشارة وعون على الصبر، فإن بهذه المدة القليلة الفانية تستطيع أن تكسب كنزاً باقياً وملكاً لا يبلى. فكما أن الزمان يشقى به المنهمك في لذات هذه الحياة الدنيا، فكذلك يربح به العاقل، ويستعين به على الصبر والتقوى وكبح النفس في أيام قليلة. فهو يرى هذه الحياة كحلم نائم، وبرق خاطف، فهو متثبت على الحق الغائب الباقي، ومعرض عن الباطل المشهود الفاني.

فتبيّن لنا أن العصر ليس محض المثل والآية، بل هو دليلٌ حقٌّ وحجّةٌ قاطعةٌ على الجزاء وعلى الخسران، وفيه عونٌ على الصبر والتقوى. فأحسِنْ به مثلاً عالياً جامعاً لمعنى الخسران والفوز في غاية الصدق ونهاية الإيجاز.

(٥)

وجوب الخلافة والطاعة من التواصي بالحق والصبر

فبعد ما أعلن بخسران الإنسان عموماً، هدى إلى طريق الرابحين الذين اشتروا بهذا العمر الذاهب نجاحاً وفلاحاً؛ وهم أصحاب الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي. فجمع بهذه الصفات الثلاث جميع الخيرات.

ولقد جلّت عظمة هذا القول عند من تفكر في إيجازه وسعة نطاقه، فإنه لم يترك من الخيرات شيئاً. فإنّ الإيمان جماع العقائد، والعمل الصالح جماع الشرائع، والتواصي كمالٌ فضّل الله تعالى به هذه الأمة لا سيما الأئمة، لما أوجب عليهم الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون بالبرّ. وبذلك جمع شملهم، وجعلهم إخواناً، وجنّبهم عن التفرق والشقاق. ولم يزل يسمو أمر هذه الأمة متى قامت على هذه القاعدة، كما ترى في أوائل الخلافة، حتى انشقّت عصاهم.

وقد فصّل الله تعالى هذه الفريضة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ أي مذعنون للإطاعة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ آل عمران: ١٠٢ - ١١٠. فكان هذا فرضاً عظيماً على هذه الأمة، وفي ذلك آيات أخر.

ولا يخفى أنّ الله تعالى جعل ذمة الأمر والنهي على أمراء الأمة وأئمتهم، كما تفهم من قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ آل عمران: ١٠٤. ولكنه تعالى جعل التواصي فرضاً عاماً، فدلّنا على أصل الأمر، وهو أن المؤمنين غير موفين بذمتهم حتى أن يعملوا الصالحات، ثم يساعد بعضهم بعضاً في أداء الحقوق الواجبة عليهم، والاستقامة عندما تزِلّ أقدامهم. ولا يستتبُّ أداء الحقوق إلا بعد إقامة الخلافة والسياسة، ولا يتم التثبت عليه إلا بعد الإذعان لها. وليتضح هذا الأمر لابدّ أن نفسر معنى «الحق» و«الصبر».

(٦)

تفسير كلمتي الحق والصبر، وربط ما بينهما ونظام السورة

فاعلم أنّ للحقّ عند العرب معنىً عامًّا، ونذكره إذا فسّرنا السورة بتأويلها العام، ومعنى خاصًّا مناسباً بربط السورة بما قبلها وبعدها. وهو المواساة بمن هو أهلها، كأنّ المرحمة كانت ذمّةً وحقًّا واجباً عليهم. قال ربيعة بن مقروم:

يُهينون في الحقِّ أموالَهم ... إذا اللَّزِباتُ الْتَحَين الـمُسِيَا[١]

أي ينحرون في القحط، ويطعمون الجياع.

وقال سُوَيد بن أبي كاهل اليشكري:

مِنْ أناس ليس من أخلاقهم ... عاجلُ الفُحْش ولا سُوءُ الجَزَعْ

عُـرُفٌ للحـق مـا نَـعيـا بـه ... عند مُرِّ الأمر، ما فينا خَرَعْ[٢]

وقال لبيد:

فإنْ تَقْبلوا المعروفَ نصبِرْ لحقِّكم ... ولن يَعدَمَ المعروفُ خُفًّا ومَنْسِمَا[٣]

وهذا كثير في كلامهم. فكأنه قيل: «وتواصوا بالمرحمة وتواصوا بالصبر». وكأن القرآن العظيم فسّره هكذا حيث جاء: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ البلد: ١٧.

فانظر كيف خَصّ بالذكر من الخيرات ما هو ملاكها. فإن المرحمة هي التي

---

(١) المفضليات: ١٨٣.

(٢) المفضليات: ١٩٤.

(٣) ديوانه: ١٧٩.

تؤلّف قلوب الناس وتجعلهم كنفس واحدة كراماً سُمَحاء. وقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة من تنافسهم في التكاثر، وذلك أصل دائهم، فحسمه بالتواصي للمرحمة، ثم أتبع ذلك بالتواصي للصبر. فإنّ المرحمة لا تمكن إلا بأن يحتمل المرء أذى الناس، ويسامح لهم، ويعفو عنهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ الشورى: ٤٣.

وترى اعتناق المرحمة بالصبر، وأنهما صِنْوانِ بل ثِنْيان لحبل واحد في قوله تعالى في خاتمة آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ آل عمران: ٢٠٠. فأوثق عرى الوفاق، وجمع شمل الأمة بالصبر وروابط الاتحاد.

ويشبه هذا ما قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هود: ١١. فهدانا بهما من الخيرات لعلياها وملاكها.

وقد بيّنا في تفسير «سورة الماعون» و«سورة الكوثر» أن المحبة لله والخلق أول ركن الإيمان، ويعبّر عنها بالصلاة والزكاة أو ما يشبههما. فأجدِرْ بهما أن يُقارَنا بالصبر، فترى في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ البقرة: ٤٥ ، وقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ طه: ١٣٢ مقارنة الصبر بالصلاة.

واعلم أنّ «الصبر» عند العرب ليس من التذلل في شيء كما يصبر المضطهد العاجز، بل هو أصل القوة والعزم. وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى. قال حاتم الطائي:

وغَمْرةِ موتٍ ليس فيها هَوادةٌ ... يكون صُدورَ المشرفي جُسورُها
صَبرنا له في نَهْكِها ومَصَابِها ... بأسيافنا حتى يبوخَ سعيرُها[1]

---

(١) ديوانه: ٢٤٨.

وقال الأصبغ:

يا ابنَ الجَحاجِحة المدارِهْ والصـابرينَ على المكارِهْ[١]

وقال زهير بن أبي سلمى:

قَودُ الجياد وإصهارُ الملوك وصَبْـ ـرٌ في مواطن لو كانوا بها سئموا[٢]

وهذا كثير.

وفي القرآن بيّن معنى الصبر، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ البقرة: ١٧٧. فذكر من مواطن الصبر: الفقر، والمرض، والحرب. وذلك أصول الشدائد. وكذلك الصبر عند نزغات النفس على أذى الناس، كما مرّ بك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ الشورى: ٤٣.

فتبيّن لنا من مقارنة المرحمة والصبر أشرفُ حالة النفس من الجمع بين الدماثة والحماسة. وبيان ذلك في الفصل الثاني عشر. فما أجمع هذا الكلام وأوجزه في تعليم الأخلاق! كأنه مفتاح لكنوز البركات، ومصباح للساري على سبيل الخيرات، ودواء لأدواء القلب الشحيح، وكبح لنزغات النفس الجموح. فصارت هذه السورة واسطةً بين سورتي «التكاثر» و«الهُمَزة» اللتين في ذكر شناعة أهل الحرص والكبرياء المغترين بمتاع الدنيا السريع زوالها.

هذا، والآن نشرع في تفسير تأويل أوسع مما ذكرنا، فإنّ السورة تُلمع إليه.

---

(١) اللسان (دره).

(٢) ديوانه: ١١١، واللسان (صهر).

(٧)

ابتداء التأويل الأوسع للسورة ووجوه مفصلة لكونها من جوامع الكلم

ليس من التكلف اعتناؤنا في تفسير القصار بتبيين سعة معناها، فإنه

١ - لأي شيء جعلها الله سورة برأسها؟

٢ - وقد بيّنا في كتاب «تاريخ القرآن»[1] مصالح تعليم الأصول أولاً بقولٍ جامعٍ منطوٍ على ما سيفصل.

٣- وقد هدانا الله تعالى إلى هذا الأصل، حيث قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ هود: ١.

٤- ثم نرى في نفس عبارة القصار دلالة واضحة على كونها من جوامع الكلم ولوامع الحكم.

٥- وقد روينا عن السلف ما يوافق هذا الرأي. فقال الشافعي رحمه الله في سورة «والعصر»: «لو تدبر الناسُ هذه السورةَ لَوَسِعَتْهم»[2].

فالآن نوجّهك إلى تدبرها، ونبيّن معاني الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي، والحق، والصبر، والنَّسَب التي بين هؤلاء.

---

(١) لم يكمله المؤلف.

(٢) تفسير ابن كثير ٤: ٥٥٠.

(٨)

معنى الإيمان، وأنه يزيد وينقص ويحيط بالعلم والعمل كليهما

فاعلم أن الإيمان أصله الأمن. والإيمان يستعمل لغة على وجوه: فتقول: آمنه: أي أعطاه أمناً، كقوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ قريش: ٤. وآمَنَ له: أي صدّقه، واعتمد عليه. وآمَنَ به: أيقن به. وكل هذا جاء في القرآن.

ومن أسمائه تعالى: المؤمن، لما أنه معطي الأمن لعبده اللائذ بجانبه.

ثم هو اصطلاح ديني قديم. في العبرانية: אמן (أمن) معناه: الصدق والاعتماد. والمتعدّي منه: إيمان، وتصديق، وتثبّت. ومنه: אָמֵן (آمين) كلمة تصديق.

وهو الإيقان الصحيح مع لوازمه من الخشية، والتوكل، والإذعان لحكمه. فالمؤمن: من آمن بالله وبآلائه وآياته، وأذعن لأحكامه، وسلّم له بكليته، فمُلِئَ بالرضا لكل ما قضى.

فكما أنّ الإيمان للعقل هدى ونور، فكذلك هو للقلب صلاح وطهور. فيفيض على الرأي والإرادة معاً، ويحيط بالعلوم والأعمال جميعاً. فالمؤمن في اصطلاح القرآن: هو العابد لله، الذي حقّق عبوديته، بالإيقان لآياته، والإذعان لأحكامه محبةً ورضاً.

ثم اعلم أنّ من سنة الله تعالى رفع النفوس إلى معارج العلا حسب سعيها، فيرقّيها في منازل قربها من ربها. ولما كانت للنفس قدمان: من جهة العقل والرأي، ومن جهة القلب والإرادة، صارت كلّ خطوة من العلم والعمل سبباً لزيادة قربها من هداها وتقواها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ أي عملوا بما علموا ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾

أي علماً ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ محمد: ١٧ أي صحة إرادتهم، فإنّ التقوى هي منبع الأعمال الصالحة.

فكل علم نافع وعمل صالح يجلب هدىً وتقوى، ويصير سبباً لزيادة علم وعمل بنعمة من الله تعالى. وعلى ما قلنا شهادات من الآيات.

١- فمن الشاهد قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات: ١٤. أي لم يتم إيمانكم، بأنه لمّا يصل من رأيكم إلى إرادتكم، ومن قولكم إلى فعلكم.

٢- ومثله ما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ المجادلة: ٢٢. بعد ما ذكر مودتهم، فدلّ على أن الإيمان يتعلق بالقلب، ويبعث المحبة.

٣- ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

٤- ومن الشاهد قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء: ٦٥. أي من لم يسلّم كلية نفسه و إرادته في أعماله تسليماً لأمر الله وحكمه لم يصر مؤمناً، لأن الإيمان اسم لمجموعٍ لم يأت هو إلا بجزء منه.

٥- ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ الأنفال: ٢ - ٤.

بهذا عرّفنا الله تعالى المؤمنين، فذكر من أوصافهم:

(١) خشية قلوبهم بذكر الله، (٢) وزيادة إيمانهم بسماع آياته، (٣) وتوكلهم على ربهم، (٤) وإقامة الصلاة، (٥) والإنفاق، (٦) وأنّ أولئك هم المؤمنون بالحق.

٦- ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات: ١٥.

٧- ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ السجدة: ١٨. انظر كيف جعل المؤمن ضدًّا للفاسق، وصرّح بأنهم لا يستوون.

فبعد هذا لا يبهم عليك ما جاء في القرآن من ذكر العمل الصالح بعد الإيمان. فإنما هو تفصيل وتوضيح من قسم عطف الخاصّ على العامّ. وهذا مثل ما ترى في القرآن كثيراً من عطف الطاعة للرسول على الطاعة لله. فإنّ هناك عطف التفصيل بذكر البعض بعد الكل، أو بذكر الخاص بعد العام. فإنّ بعض الكلم لبطون معناه ربما يخفى بعض أطرافه، فيتبع بما يوضحه. وضرورة الإيضاح في أمر الإيمان ظاهرة، فإنّ محلّه سرّ القلب ومحض العقل، بحيث إن المرء لا يخدع غيره فقط، بل ربما هو يخادع نفسه، فيظنه مؤمناً، وليس بمؤمن. فصار للإيمان شاهدان: قول، وعمل. والقول ربما يكذب، فوجب التنبيه على أن المؤمن بلسانه لا يكون مؤمناً حقًّا إلا بأن يصدّقه عملُه. فجعل الله العمل محكًّا للإيمان الذي أصله أمر باطن.

ومن هاهنا جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ النساء: ١٣٦. أي الذين آمنوا بالقول آمنوا بالعمل.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ العنكبوت: ٢ - ٣. فحملُ كلمة ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وكلِّ ما يُذكر من الأعمال الخاصة بعد كلمة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ على التفصيل أحسنُ تأويلاً. ولكن لا عليك إن جعلته مقابلاً لـ (آمنوا)، فالإيمان له معنى الإيقان أيضاً، كما سنذكره في الفصل الآتي. وحينئذ يكون مجموع

قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعريف المؤمن حقًّا.

وجملة الكلام أن الإيمان

١- حالة نفسانية، وعلاقة روحانية.

٢- وسلطانه على العقائد كسلطانه على الأعمال.

٣- وأنه يزيد بالعلوم كما أنه يزيد بالأعمال.

٤- وأن له ركنين: العلم والعمل، فينخرم بهدم واحد منهما. فإنّ من علم وأيقن بأن الله تعالى ربّ العالمين وبسائر أمور الدين، وبقي على العصيان، لا يكون في شيء من الإيمان المعتبر عند الله تعالى كابليس الذي أيقن به، وليس بمؤمن فلا وزن ليقينه، بل هو حجة عليه فيزيده بُعداً من الله وسخطاً منه. أو كفرعون وآله الذين أيقنوا، ولم يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٣ - ١٤.

والوجه ظاهر، فإن العلم والإرادة أمران، ولا تلازم بينهما. وتفصيل بحث العلم في تفسير السورة السابقة.

(٩)

للإيمان أيضاً معنى خاص، وهو الإيقان، ومعنى سياسي وتوجيه قول الإمام الأعظم

ولكن للإيمان معنى أخصّ مما ذكرنا، وهو الإيقان. ويستعمله القرآن بصيغة الفعل،ويذكر متعلقه، كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ﴾ أي أيقن ﴿ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي بالمعنى الأول ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ﴾ أي بصميم قلوبهم ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ البقرة: ٢٨٥.

ومن هذا الاستعمال خُيّل إلى بعض العقول أن الإيقان هو كل الإيمان المعتبر عند الله، وأنه الجزم المحض، وإذن كيف يزيد بالعمل، أم كيف يكون العمل ركناً له؟ فإن الجزم والعمل متباينان. وخيل إلى هذه الطائفة أن هذا الرأي الذي رآه الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فأبرموا ما زعموا، وتكلّفوا في تأويل آيات واضحة وأمر بيّن.

وأما أنا فالظاهر عندي أن الإمام رحمه الله نظر إلى المسألة نظر الفقيه والقاضي والأمير في جريان الشرائع من الوراثة، والنكاح، والخراج، والجزية، وسائر الأحكام السياسية. فالمؤمن بهذا الاعتبار كلّ من أقرّ بأنه من حزب المؤمنين، وشارك المسلمين في شعارهم، وكان على ما هم عليه فيما ظهر من أحوالهم. فلا فرق بين الصادق والكاذب، والبرّ والفاجر منهم. وفي هذا الإيمان يتساوى بعضهم ببعض، ولا زيادة ولا نقصان فيه. فإن السياسة لا تبحث عما بين المرء وربه، وإنما يكشف عنه يوم القيامة.

وفي هذا ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالمعنى الأول للإيمان، كما بيناه ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا﴾ فإذا فعلوا، وفُرقوا من المؤمنين ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي في الدنيا كأحدكم ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بصريح الكفر ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ الحديد: ١٢ - ١٥.

فعلمنا أن طائفة من الذين في الدنيا مع المؤمنين يُفرقون عنهم يوم القيامة، ويُجمعون مع الذين كفروا. ولا يمكن هذا إلا بتسوية الأمير السائس بين المؤمنين

والذين ليسوا على صفاتهم الأصلية، ولكنهم أظهروا الإيمان للناس.

فأبو حنيفة رحمه الله تعالى لم يرد في هذا البحث من الإيمان معناه الخاص، وهو الإيقان، وإنما هو أراد «الإقرار» و«الإظهار». فإن المسألة كانت: هل الإيمان قول وعمل، أم قول فقط؟ ولم يكن النزاع في أنه علم وعمل. والظاهر أن القاضي إذا أخذ الإيمان بمعنى القول، أو ما ينوب منابه ـ وهو صائب في هذا ـ فلا يجعله محلًّا للزيادة والنقصان. وبذلك بين أنه لم يرد من الإيمان إلا مناط أحكام القضاء، فتصريح القرآن بزيادة الإيمان خارج عن بحثه. والقرآن ناطق بكل لسان، والعقل حاكم بصريح البيان بأن الإيقان والعمل كليهما يتفاوتان، ويصيران سبباً لجلب زائد إليهما، كما فصّلناه في الفصل السابق.

(١٠)

العمل الصالح ما به صلاح الخلائق و تكميلها

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ قول جامع لأشتات الأعمال الحسنة، وهذا ظاهر. ولكن للفظ دلالة على حكمة عظيمة: وهي أن الحسنات لما سمّاها الله «صالحات» علم الإنسان بذلك أنّ فيها صلاح حاله، وقوام أمره في معاشه و معاده، وأفراده وجماعته، وجسمه وعقله وقلبه. فالعمل الصالح ما به حياة الإنسان ونماؤه حسبما أودع الله في فطرته واستعداد خلقته. فبه يتم غاية وجوده حتى ينتهي إلى كماله. وهو المراد بفطرة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ التين: ٤.

وهو المراد من العبادة، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الذاريات: ٥٦. أي لطاعتي. وبها صلاح نفسه وسائر الخلق. لأن الإنسان جزء من العالم بأسره، فالصالح من أعماله ما يجري حسب حكمة أودعها الله في خلائقه، وتدبير قدره في كلية نظامه. فإن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً، ولا لهواً. وكل ما ترى في العالم من

التشاكس والتصادم، حتى يزهق بعضه بعضاً، فما هو إلا مدارج الترقي والنمو من الكون، وتحول شيء إلى شيء، وحال إلى حال.

وقد علّمنا القرآن ارتقاءنا بالعمل الصالح، وأنّ العالم بأسره صائر إلى حكمة بتربية من ربه الذي يُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل، فقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فهذا عروج الإنسان بحسن عمله الصالح له، ولكلية ما هو الحق المقصود من الخلق ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ فاطر: ١٠ لأن السيئات خلاف الحق، فما يمكرون لإبطاله لا ينجح، بل يبطله الله تعالى، لما أراد من الخلق غاية وحكمةً، وسمّاها حقًّا.

وصرّح ذلك في آيات، فمنها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ الأنبياء: ١٦ - ١٨.

ومن هاهنا علمنا لماذا جعل الله تعالى الصالحين وارثين للأرض، فإن المفسد في الأرض يجري إلى خلاف غاية الخلق. والصالحون هم الذين يعملون الصالحات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ العنكبوت: ٩ أي في زمرة الصلحاء، وهم الأنبياء، والصديقون، والشهداء.

وكثر في القرآن والصحف الأولى ذكر إهلاك المفسدين، وبركة الصالحين.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾ أي بلاغ بشرى ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الأنبياء: ١٠٥-١٠٦ أي طائعين لأحكامه، وهي جماع الصلاح، كما مرّ.

فالفاسق عدو نفسه وسائر الخلق. فإنه لا تهمّه إلا عاجلة أمره، فيكره الشرائع، ويتعدّى الحدود، ولا يعلم أن نفعه منوط بنفع الجميع. وأما الصالحون فهم

ملح الأرض، ورئاب الفتق، وأساة الخلق، يحسّون ويألمون لا لأهل زمانهم فقط، بل لمن يأتون من بعد. فتوسع نطاق مواساتهم كتوسع الخلائق، وبهذا استحقوا وراثة العالم، وخلافة ربهم. فما يطلبون إلا صلاحاً عامًّا، وهو: الحق، والقسط، والحكمة، والرحمة.

(١١)

الحق هو المطلوب والغاية لعروجنا

فاعلم أن «الحق» في الأصل هو الموجود المستقر. فله وجوه، أو درجات. فهو:

- الواقع في الكون.
- والثابت في العقل.
- والواجب في الأخلاق إما لك وإما عليك.

واستعمله القرآن بهذه المعاني كلها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ص: ٦٤ أي ذلك واقع لا محالة.

وكما قال تعالى: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ يونس: ٣٠ أي إنه هو المولى بالحقيقة أبداً.

وكما قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾الذاريات: ١٩ أي كالدَّين الواجب عليهم.

وأما المعنى الخاص الذي ذكرناه في الفصل السادس ـ وهو المواساة بالضعفاء ـ فمتفرع من معناه العام، كأن أجلّ الحقوق عند العرب هذه. فهي لازمة على المستطيع، حاصلة لذوى الحاجة. وكأنها ثابتة عند العقل، ومعلومة للناس ـ ولذلك

سمّوا الإحسان «معروفاً» - ومعمولة بينهم كالقانون الثابت المستقر. فالحق بمعنى المواساة كأنه قد أُشربَ من تلك العروق كلها.

فإذا أخذت «الحقّ» بالمعنى العام الوسيع كان محبوباً للعقل والقلب معاً، واشتمل العلم والعمل جميعاً؛ وكان ضدًّا للباطل، والجور، والفساد.

هذا، والآن ننظر إلى حقيقة صفة الحق والصبر، ليتضح النسبة الوسيعة التي بينهما، ويتبين لك نظم هذه السورة حسب وسعة معناها وفسحة مغناها، كجنة عرضها السماوات والأرض.

(١٢)

توضيح الحق والصبر والنسبة التي بينهما

فاعلم أن ملاك النجاة إصلاح القوى العقلية والأخلاقية، وأنّ للعقل والقلب كليهما جانبين من اللين والشدة، والدماثة والحماسة.

فأما جانب الدماثة من العقل فهو أن يخضع للحق كلما وأينما لاح له، ومن القلب فهو أن يتحنن إلى الخالق والمخلوق. فالعقل يؤمن بالحق وهو الله تعالى، وصفاته، وآياته. والقلب يحس بعبوديته وأصله، فيتحنن إلى مولاه الحق، ويحس بما يجب عليه من المواساة إلى جميع الخلق.

فأما جانب الحماسة، فمن العقل أن يصبر على الغيب الحق وينبذ الباطل المشهود، ومن القلب أن يستقيم على المكاره عند الشدائد، ويقوى على العفو عند القدرة. فكما أن الحق يتعلق بالعقل والقلب، فكذلك الصبر يتعلق بهما.

وجملة القول أنّ «الحق» يفتح أبواب الخيرات كلها، و«الصبر» يَسُدُّ عورات الشرور بأجمعها. فالحق هو المحبوب، والصبر هو الالتزام به. وبمثل هذا جاء قوله

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ أي بالصدق ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا قول جامع للإيقان والطاعة، فإن من أقر بربوبيته صار موقنا مطيعا ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ الأحقاف: ١٣ أي تقبلوا الحق، ثم صبروا عليه.

ولا يخفى أنه ليس بعد الفوز بالسعادة الكبرى إلا الدوام عليها. فجمع الخير كله في كلمتين: الحق والصبر، وتبين لك وجه الربط بينهما.

وليس أنّ الصبر ينبغي بعد الفوز بجميع الخيرات، بل بعد كل خير ينبغي التمسك به لكي يعطى ما فوقه. فظهر أن الصبر عون للخير، ولذلك صار من أول شرط للارتقاء. ألا ترى كيف أُمِرَ النبيّون بالصبر أولاً، وكيف كان أمر موسى وصاحبه عليهما السلام؟ فإنه لم يطلب أولا من موسى عليه السلام إلا الصبر، فامتحنه به.

ومزيد بيان منزلة الصبر في الفصل الخامس عشر. وإنما أردنا هاهنا التنبيه على أن الحق والصبر كخطوتين في سيرك.

والآن تمهد لك أن تعلم أن هاهنا سلسلة تفصيل وتفريع. فكما أن «الإيمان» هو الأصل والأمّ، وذكرُ العمل الصالح تفصيلٌ لطرف ظاهر من الإيمان كما بيّناه، فكذلك لما كان «الحق» هو محبوب العقل والقلب، وبه كمالهما وصلاحهما كان «الصبر» نتيجة هذه المحبة. وبقدر المحبة للشيء يكون الالتزام به، والذبّ عنه، والغضب له، والغيرة عليه. وهذا هو أصل النقمة من الله الرحمن. هل تراك تحبّ أحداً، ولا تغضب أن يُقهر أو يُهان؟ ألا ترى غيرة المرأة على ولدها وفلذة كبدها، وتشجّع الأمهات للذبّ عن أبنائها، والأقوام لحماية ذمارها، حتى إن الحمامة المسكينة تضربك بجناحها إن مددتَ يداً إلى بيضتها وفرخها؟ فعلمنا مما تقدم أن الصبر يتفرع من نفس المحبة للحق.

ثم إن الحق جُلّه غيبٌ كما مرّ، فلزمك الصبر له، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الروم: ٦٠.

فلتكن هذه جهاتُ الربط بين الحق والصبر بين عينيك.

(١٣)

بيان النسبة بين العمل الصالح والتواصي

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ يدل على أنهم أهل الحق والصبر، ويتواصون بهما بعد العمل. وإنّما لم يصرّح بهذا، لأنّ الإيمان ثم عمل الصالحات قد اشتمل عليه، ولأن نفس التواصي بالشيء من غير العمل به بادي القبح، وهذا موقع المدح، فلا يصار إليه.

فقد تبيّن لنا أنّ التواصي يتفرّع من عمل الصالحات، كما أنّ عمل الصالحات يتفرّع من الإيمان. فإنّ مَن زُيّن إليه الحقّ، وعمل به، وصبر له = ازداد به علماً، وله حباً، وعليه غضباً؛ وأفرغ جهده لحمايته. فلا يمكنه أن يرى الحق مخذولاً ولا مُضاعاً، والباطل عائثاً في عباد الله. فمثله كمثل بطل شجاع يحرّض إخوانه على أن يحاموا عن الحقيقة، ويصبروا على البأس. وهذا التحريض ليس إلا جزءاً من حمايته. فكذلك هاهنا التواصي جزء من العمل الصالح، وذكره الله تعالى على سبيل التفصيل والتوضيح.

وقد مرّ أن العمل الصالح هو حفاظ السلم والتمدن، فيلزمه التواصي بما هو الحق، وبالاستقامة عليه. وهذا مثل ما قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة: ٢. فالبر هو الحق، والتقوى هي الصبر، أي: تثبيت النفس على الخير في مواقع الزلة.

(١٤)
فريضة النصح على الأمة، وحرية القول لها

مما تقدم من تفسير «العمل الصالح»، و«الحق»، و«الصبر»، و«التواصي» اتضح من غير شبهة ما أودع الله في هذه السورة من فرائض السياسة، والتعاون، والمرابطة في التعايش، وإبطال الخمول والاعتزال عن أمور الأمة العمومية. ولما أن السورة خُصّت بذكر عوازم الأمور، فذكرُ التواصي فيها تنبيهٌ عظيمٌ على ما قلنا.

وبما أوجب علينا من التواصي أعطانا حرية القول. فالأمة مع إذعانها لصاحب الأمر مأمورة بإظهار الحق والنصح، ولذلك سماهم «شهداء». وترى الخلفاء الراشدين كانوا يخضعون لكلمة الحق حتى من العجائز. ولذلك أمَرَ الله النبي ﷺ بالمشاورة لكي يشجّعهم على قول الحق. فكانوا يقولون ما يرون، ولا يرون بأساً بإظهار ما لاح لهم، ولو كان غير ما لاح للنبي ﷺ. ذلك ليجلعها سنّة معمولةً ومن أسوته الحسنة.

ثم ليعرف أن حرية القول ليست في شيء من إثارة الفتنة، فإنما الواجب هو التعاون بالبرّ والتقوى. فإن لم يُسْمَعْ منك، فلا سبيل لك إلى الفساد، حتى يبلغ السيل زباه، وتجتمع الكلمة على الخلع.

وبسطُ الكلام تحت آية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الأعراف: ٥٦، فليكفنا هاهنا إلماع إليه.

(١٥)
زيادة إيضاح لمنزلة الحق والصبر في الدين
وتدبير الله في خلقه

بعد ما سرّحتَ النظر فيما تقدم من الفصول السابقة، وتبيّنتَ غورها، تراءى

لك «الحق» و«الصبر» كالجبلين العظيمين الشامخين، عليهما أوتاد الشريعة العليا ودعائم ملكوت الله.

وقد مرّ أنه تعالى لم يخلق السماوات والأرض إلا بالحق، أي القسط والحكمة. فقال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ المؤمنون: ٧١.

فاعلم أنه تعالى لا يعطي أمةً الخلافةَ في الأرض، ونعمةَ الشريعة والنبوة، إلا بأن يجعلهم قائمين بالقسط، ومذعنين للحق، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ ﴾ أي شهداء القسط ﴿لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ النساء: ١٣٥.

والقسط هو الحق، ويتعلق بالعلم والعمل معا، كما قال تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ آل عمران: ١٨. وقال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ المائدة: ٤٢ و﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ الأعراف: ٢٩. و﴿ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ آل عمران: ٢١.

ثم قال تعالى: ﴿ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الأعراف: ١٥٩ - ١٨١ أي القسط ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٩ - ١٨١ وقال: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ الأنبياء: ١١٢ وقال: ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ سبأ: ٢٦ وقال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ص: ٢٢ وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ غافر: ٢٠.

فألزَمنا القيامَ بالحق، فإنه أقام عليه ملكوته، كما قال [ص: ٢٦-٢٧]: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي القسط ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ فإنه فساد، وزيغ عن سبيل الحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي منهج ملكوت الله الذي أنت خليفته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فإن ذلك يوم جزاء الظالمين ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ﴾ فكيف نرضى لخليفتي أن يترك سبيلي الحق ﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي كون السماء والأرض غير قائمة بالحق ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ ﴾ أي بربوبية الله تعالى.

وأما **الصبر** فما من أمة اصطفاها الله لحمل كتابه إلا وقد امتحنها بالصبر، كما أن الباني يلتمس أساساً صُلْباً لجسر عظيم، أو قصر رفيع. فيكون أول أمر الأمة امتحاناً و بلاءً، حتى إذا صبروا بعد الزلازل والشدائد استحقوا أمانة ربهم. فأنشأهم أمة جديدة، وأيدهم، فأظهرهم على من ناوأهم، كما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ محمد: ٣١.

وقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾ أي أئمة العدل ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢.

وبيّن في قصة بني إسرائيل أنّ رفعتهم وضعتهم دارت على قطب الصبر. والحكمة فيه أن الله يفيض على العباد نعمه حسب أعمالهم، كما قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ﴾ الحج: ٤٠.

فهو مع الصابرين، فألزمهم الصبر دواماً، وجعله عهداً بينه وبينهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ البقرة: ١٥٣، الأنفال: ٤٦. وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ آل عمران: ١٤٦. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ السجدة: ٢٤.

واذكر قصص الرسل عليهم السلام، فإنهم لم يُنْصَروا إلا بعد مدة صبروا فيها، ولذلك قال تعالى لنبينا ﷺ [الأحقاف: ٣٥]: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ أي بالعذاب والغلبة عليهم.

ثم هذا هو الأصل الذي يجري عليه تدبير الله تعالى في خلقه. فإن الله تعالى قدّر الأمور وجعل لها آجالاً، ليتمّ كلّ شيء خلقه، ويخرج ما أودعه من القوى، فلا

يعجل بالعذاب على الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ فاطر: ٤٥. أي حينئذ يقضي عليهم بالحق. فهذا هو الصبر المعبّر عنه بالحلم في تدبير الله خلقه.

ولذلك كثر في القرآن أمرُه لرسوله أن يصبر. فمنه قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ المعارج: ١ - ٧.

فإن رجعت بصرك في تاريخ الأمم الخالية تبينتَ أمرين: الأول: جريان قضاء الله على سنة العدل، وصيرورة الأمور في تقلبها إلى الحق،كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ الأنبياء: ١٨.

والثاني: حلمه بعباده، وإمهاله إياهم، ليبلوهم فيما آتاهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ فيتركهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يونس: ١٣ - ١٤. والحلم كالصبر.

ومما قلنا تبيّن أن الصبر هو أساس للحق، فلو عجّل الله بالعذاب أبطل الحكمة التي يبرزها، والحقّ الذي يخرجه من بواطن خلقه، كما قال: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النمل: ٢٥ أي يُبرز ما بطن في فطرتها من المصالح.

ومثل هذا ما بيناه في (٦) و(١٢)[1] من الملازمة بين الحق والصبر، بيد أن هاهنا ذكرنا سعة هاتين الكلمتين.

فمع كون الحق شديد البطش، والحلم كثير الصفح، إنهما متلازمان. وإذ أمرنا الله تعالى بهما، أمرنا بما فيه صلاح بواطن أخلاقنا، وإصلاح ما بيننا، واستحقاق وراثة الأرض والجنة، والسلوك على سنة الله، وإكمال العبودية والخلافة لربنا الذي يحبّ القسط والعفو، وبهما يُدبّر الخلق، ويُكمِل العالمين. وبسطنا هذا البحث في كتاب «ملكوت الله»[2].

(١٦)

ربط السورة بالتي قبلها والتي بعدها

لا نحتاج إلى كبير بيان لإيضاح موقع السورة ونظامها، فإن السورة السابقة ـ كما علمت ـ في ذكر أهل النعيم المنهمكين في التنافس لزخارف الدنيا، وذكر غفلتهم وسوء عاقبتهم. والسورة التالية في تصوير عقاب هذه الطائفة، وذلّتها وهوانها على رغم حبها للترف، والعزة، والفخار. فوضع هذه السورة بينهما بحيث ينبّههم على خيبة عملهم وضلال رأيهم. وفي ضمن هذا عرف لنا خصال المؤمن، وسبيل الفلاح.

وكثيراً ما ترى في القرآن يجمع بين المتقابلين كذكر البر والفاجر، والجنة والنار. فهكذا هاهنا، لم يذكر في السورة السابقة ولا في اللاحقة إلا أهل النار، فأكمل بهذه السورة أسلوباً عامًّا في القرآن.

ونظام هذه السورة بالتي قبلها كنظام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ

---

(١) يشير إلى رقم الفصلين.

(٢) نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ.

أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ المنافقون: ٩ - ١٠. فتأمل في معنى هاتين الآيتين، والتمس المطابقة التي بينهما وبين سورة «التكاثر» وسورة «والعصر».

هذا، ولا يحيط بعلمه وكلماته إلا هو.

تفسير

سورة الفيل

سورة الفيل مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

(١)

في تفسير كلمات السورة

ليس في السورة كلمة غريبة، وإنما نفسِّرها لتتضح وجوهها وما يتعلق بها من الأحوال.

١- فأما «**أصحاب الفيل**» فجيش أبرهة الأشرم. ونذكر قصته في الفصل (٦-١٠).

٢- وأما «**الفيل**» فواحد، ولكن أضيف إليه الجمع، فأريد به الصنف، وهذا كثير، كقولك: «أصحاب الرأي» و«أصحاب الحديث». قال تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ المزمل: ١١. فاللفظ محتمل للواحد والأكثر، وبكليهما جاءت الروايات، والكثرة أقرب. والله أعلم.

٣- وأما «**الكيد**» فهو التدبير الخفي لضرر العدو. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ الطارق: ١٥ - ١٦. أيضاً في قصة فرعون: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ طه: ٦٠ وأيضاً فيها: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ طه: ٦٤. وأيضاً في كفار العرب: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ آل عمران: ١٢٠.

وقال النابغة:

يقودُهم النُّعمانُ منه بمُحْصَفٍ وكَيدٍ يعُمُّ الخارجيَّ مُناجِدِ[(١)]

وقال زُهَير بن أبي سُلْمى يصف الملك سِناناً:

له لقبٌ لباغي الخير سَهْلٌ وكيدٌ حين تبلوه متينُ[(٢)]

أي تدبير محكم. وقال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٤٥﴾ القلم: ٤٥.

وكذلك ينسب إليه الوهن والضعف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٨﴾ الأنفال: ١٨. وأيضاً: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ النساء: ٧٦.

وكذلك ينسب إليه الضلال و التباب، وعدم الهداية، كما سيأتيك.

٤- وأما «التضليل» فهو المبالغة من «الإضلال». والمصدر هاهنا استعمل بمعنى المجهول. والمراد: عدم إصابة المقصود. ولذلك ينسب إليه الضلال وعدم الهداية، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ٥٢﴾ يوسف: ٥٢. قال كعب بن زهير:

إنَّ الأمانيَّ والأحلامَ تضليلُ[(٣)]

٥- وأما «في تضليل» فمعناه: أنه ذاهب في طريق الضلالة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ٣٧﴾ غافر: ٣٧ و«التباب» صورة الضلال، أي يذهب شَذَرَ مَذَرَ، فلا يبقى منه في يده شيء. وبيّن الله تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿مَّثَلُ

---

(١) ديوان النابغة: ١٣٨. وفي المطبوعة: «يغُمّ» بالمعجمة.

(٢) ديوان زهير: ٨٣.

(٣) ديوان كعب: ٩، وصدر البيت:

فلا يغُرَّنْكَ ما مَنَّتْ وما وعدَتْ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ إبراهيم: ١٨.

٦- وأما «أرسل عليهم» فـ«على» هاهنا جامعة لمعنى العلو والضرر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ القمر: ١٩. وأيضاً: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مريم: ٨٣. وهذا كما يقال: «أرسل الكلب على الصيد».

٧- وأما «الطير» فعند الأكثرين اسم جمع مثل رَكْب وصَحْب، وعندي اسم للصنف، فإنه يطلق على الواحد أيضاً. قال تعالى حكاية عن قول عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ آل عمران: ٤٩. فإذا أريد به الجماعة أريدت غير معدودة، وحينئذ هو أدلُّ على الكثرة من صيغة الجمع. قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ ص: ١٩. أيضاً: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ الملك: ١٩.

٨- وأما ﴿أَبَابِيلَ﴾ فجمع من غير واحد، كالعباديد. وقيل: جمع «إبَّالة». والأبابيل: جماعة من الخيل والطير وغيرهما. قال زُهَير بن أبي سُلْمَى:

وبالفوارسِ مِنْ وَرقاءَ قد عُلِمُوا ... فُرسانَ صِدْقٍ على جُرْدٍ أبابيلِ[1]

وقال الأعشى:

طريقٌ و جَبَّارٌ رِواءٌ أصولُه ... عليه أبابيلٌ من الطير تَنعَبُ[2]

٩- وأما «الحجارة» فقالوا: إنها جمع حجر. وعندي أنها اسم للصنف. قال

---

(١) ديوان زهير: ٥١.

(٢) ديوان الأعشى: ٢٣٧ وانظر اللسان (طرق، جبر، روى).

تعالى حكاية عن قول المشركين: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأنفال: ٣٢. أيضاً: ﴿ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ الإسراء: ٥٠ - ٥١. وقال الأعشى[1]:

وحوادثُ الأيامِ لا   يبقى لها إلا الحجارَه

١٠- وأما ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ فمعرب من «سَنگ» و«گِل». و«سَنگ» بالفارسية: الحجر. و«گل» هو الطين. وهذه كلمة فسّرها القرآن حيث أتى بها في قصة لوط مرة بلفظها، فقال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ هود: ٨٢. أي الحصى من صنف سجيل، ومرةً: ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ الذاريات: ٣٣. واستعمل هذه الكلمة المعربة لكونها داخلة في لسان العرب. وهي أحسن فاصلة من «طين»، فآثرها عليه.

١١- وأما ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾، فالعصف: ورق الزرع وساقه اليابس المنكسر. و«المأكول»: ما من شأنه أن يؤكل، تسمية الشيء بما يؤول إليه، وهذا أسلوب عام في الكلام. قال تعالى: ﴿ لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ الأنفال: ٤٢، ٤٤.

وإنما شبه أصحاب الفيل بالعصف المأكول لما أنهم هُزموا وكُسروا ومُزّقوا كل ممزَّق، وذهبت سلطنتهم بُعيد ذلك. وهذا تشبيه معروف. قال عدي بن زيد في قصيدته المشهورة:

ثم صاروا كأنّهم ورقٌ جفَّ   فألوَتْ به الصَّبا والدَّبورُ[2]

وهكذا في القرآن: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ الكهف: ٤٥ أي جعلهم كهباء منثور.

---

(١) البيت لعمرو بن مِلْقَط الطائي. انظر مفردات القرآن للمؤلف: ٣٤٨.

(٢) كتاب الأغاني ٢: ١٣٩.

وهكذا جاء في الصحف الأولى (هوشع ١٣: ٣): «لذلك يكونون كسحاب الصبح وكالندى الماضي باكراً. كعصف يُخطَف من البيدر وكدخان من الكوة». فبإيراد الفقرات المرادفة بيّن المعنى.

ثم زاد هذا التشبيه حسناً أنّ أصحاب الفيل تناثرت أعضاؤهم، وأكلتهم سباع الطير، كما سيأتيك بيانه. فصدَق عليهم صورةً ومعنىً أنهم صاروا كعصف مأكول.

(٢)
في تعيين المخاطب بهذه السورة

قبل النظر في عمود السورة وربطها، لابدَّ من تعيين المخاطب بهذه السورة، ليتمهد السبيلُ إلى معرفة صحيح التأويل، وربط المعنى، وحُسن الموقع.

فاعلم أنّ الخطاب هاهنا متوجهٌ إلى جميع من رأى هذه الواقعة، أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها.

وهذا أسلوب خاص يطلق الواحد فيه على الجميع على سبيل الانفراد. وله أمثلة في كلام العرب، والقرآن، وفي التوراة حيث خاطب الله بني إسرائيل بضمير الخطاب الواحد، كما بيّناه في «كتاب الأساليب». وأما هاهنا فنذكر بعض أمثلة من القرآن، ليطمئن به الناظر البصير.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ لقمان: ٣١ فبدأ بالواحد، وأعقبه الجمع. فإن المراد من الواحد كان هو الجمع.

وأيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ إبراهيم: ١٩.

وربما يبدأ بالجمع ثم يعقب الواحد، فإنّ المراد هو الجمع، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ حتى قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ البقرة: ١٠٤ - ١٠٧. فبدأ بالجمع، ثم أعقبه الواحد، ثم أعقبه الجمع.

وأيضاً: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٥ فبدأ بالجمع ثم أعقبه الواحد.

أيضاً: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ الأعراف: ١٩٨.

وكثر الانتقال من الواحد إلى الجمع ثم إلى الواحد في آيات (٢١-٤٠) من سورة بني إسرائيل، ولا يمكن القول فيه بأن الخطاب إلى النبي. فإنّ في نفس تلك الجملة ما يمنع عنه، فإنّ فيها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ الإسراء: ٢٣.

فهذا المثال حاسم الشكوك. فإن قيل: نعم، ولكن كيف نجعل المخاطب جماعةً في هذه السورة، والمشهور أنّ الخطاب إلى النبي ﷺ، ولا مانع عنه في الكلام، قلنا: لذلك أسباب:

الأول: أن كلمة «ألم تر» تجيء عموماً لعموم الخطاب، فصرفُها إلى الخصوص من غير قرينة خلافُ سنّتها. بل القرينة الظاهرة أنّ الذين رأوا هذه الواقعة أولى بالخطاب. وكثر في القرآن استعمال المخاطب الواحد للجميع، كما رأيت في الأمثلة

التي ذكرنا، وما هي إلا يسير مما لم نذكره.

فإن قيل: إن القرآن تنزيل من الله تعالى إلى النبي ﷺ، فالأصل في بدء الكلام أن يخاطبه إلا أن يمنع مانع، قلنا: قد علمنا من سنة القرآن أنه يخاطب الناس في بدء الكلام، كما في طيّه. مثلاً: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ التكاثر: ١، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بدأ به سورتين [سورة النساء وسورة الحج]. وفي طيِّ الكلام قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ النجم: ٥٥. وأيضاً: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الرحمن مكرَّراً.

ومن يلتمس حسن التأويل يجد كثيراً مما يراه ناس خطاباً إلى النبي ﷺ أنه خطاب عام. فمنه قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ التين: ٧. أيضاً: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ القارعة: ٣. أيضاً: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ القارعة: ١٠.

وإذ قد أكثر القرآن من خطاب الإنسان عموماً أو المخاطبين حسب موقع الكلام بالواحد والجمع والمثنى، فالأصل في صرف ذلك ليس إلا ما يدلّ عليه حسنُ التأويل.

والثاني: أنّ ظاهر هذه السورة يدل على حماية مكة وأهلها عن عدوهم. والاستفهام هاهنا ليس إلا للردع والتنبيه كما هو ظاهر. وذلك لابدَّ أن يُصرف إلى من ظهر منه تغافل عما استفهم، فينبَّه على ما عَلِم. كأنه قيل له: كيف تفعل ذلك وأنت تعلم ما يسدُّك عن فعلك هذا؟ وترى ذلك بيّناً في الآيات التي أوردناها في هذا الفصل حيث جاء: «ألم تر» و«ألم تعلم» للردع والتنبيه. فكيف يصرف الخطاب إلى النبي ﷺ، وليس في السورة شيء يدل على تغافل منه، أو أمر يقتضي تنبيهه.

وأما أهل مكة فإنهم بشركهم وصدهم المسلمين عن الصلاة أظهروا أنهم غير شاكرين لربهم. وعلى هذا المعنى دلالة واضحة في السورة التالية، فهولاء المشركون أولى بأن ينبَّهوا على ما غفلوا عنه. كأنه قيل لهم: هلا تعبد رب هذا البيت، وتوكَّلُ

عليه، وتدع الشرك؟ فإنه هو الذي نصرك وآمنك من خوف أعدائك الأقوياء.

الثالث: أن القرآن إنما نزل ليقرأ على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ الإسراء: ١٠٦. فإن صرف هذا الخطاب إلى النبي ﷺ، لابد أن يراد به تسليته من الله تعالى، وأنه كما هَزَمَ جنود أعداء هذا البيت فكذلك سيَهْزِمُ هؤلاء المشركين الأقوياء، فإنهم أعداء الله. فهذا المحمل وإن صحَّ خطاباً بالنبي، ولكن إذا قرأه النبي على الناس صار حجةً لهم، فإنهم حينئذ يقولون: نحن أولى بنصر الله، فإنّا ولاة بيته؛ ألا ترى كيف انتصر الله لنا وأهلك أعداءنا؟ فلا يحسن تأويل السورة إلى تهديدهم. وإنما يحسن تأويلها إلى تحريضهم على التوحيد بذكر النعمة التي أنعم عليهم بها، كما صرح به في السورة اللاحقة. وهذا يقتضي صرف الخطاب إليهم.

والرابع: حسن الربط بالسورة التي بعدها، كما سيأتيك بيانه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى. فتبيّن مما قدَّمنا أن السورة ليست بخطاب إلى النبي ﷺ. إنما أنزلت ليخاطب النبيُّ بها قريشاً كلَّها على سبيل الانفراد. وفي اختيار صيغة الواحد دلالة على أنّ كلَّ امرئ منهم يجب عليه أن يشكر ربه، ويذكره، ويخافه؛ كما يخاف العبد مولاه المنعم فيعبده، كما صرَّح به في السورة التالية. فإذا تبين ذلك فلا بدّ من صرف كاف الخطاب في «ربك» إلى ذلك المخاطب.

(٣)

عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها

ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخرٍ بماله، ذاهلٍ عن مآله. فدعا عليه بالويل، وأنبأه بأنه يُنبذ في الحطمة والنار الموقدة. ففي هذه السورة إشهاد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم واجترؤوا على الله، لأنهم قد علموا في كتبهم حرمة هذا البيت العتيق. وقد فعلوا مثل ذلك بالمسجد في أرشليم عناداً باليهود

كما فعل اليهود بهم. وليس هذا موضع تفصيله.

فذكَّر القرآنُ هذا الغنيَّ المختالَ هذه الواقعةَ التي شهدها بعينه، فإنه من كَفَرة قريش. والظاهر أنه أبو لهب المتمسك ببدعاته مع أتباعه الذين أبطلوا حرمة البيت بفسقهم وطمعهم، كما ذكرنا في تفسير سورة لهب وغيره. فكأنه قيل له: ألم تر كيف حَطَّم الله أمثالك وجَعَلَهم كعصف مأكول، أما شهدتَ حالهم ومآلهم إذ نضحهم الربُّ عن هذا البيت المحرم الذي منه شرف قريش ورزقهم وأمنهم؟ وقد علمتَ أنك لم تغلب عليهم بقوتك، بل بنصر من الله الذي هو ربُّ هذا البيت، فأدخل في قلوبهم الرعبَ، وبدَّل حصباءَ أصابتهم حصباء أذابتهم، فطرَدَهم عنك إذ ترى جُلَّهم صرعى بين عينيك أو حولك. ثم أرسل عليهم عصائب طير أبابيل تأكل لحوم الأفيال والأقيال عبرةً لك ونعمةً عليك، فطهّر واديك من نتن الجيف العظام. فكفاك مؤنةً كبرى، وأراك بذلك آيةً أخرى. فكيف أنت بعد مشاهدة هذه النعمة والنقمة تكفر بربك، وتستهين شعائره؟

وأما قولنا إن هذه الطير كانت تأكلهم، فيأتيك بيانه في الفصل التاسع إلى الحادي عشر.

فاتضح مما قدَّمنا أنَّ عمود هذه السورة تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جَعل لأهل مكة خصوصاً والعرب عموماً من العز والكرامة بها حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم. فجعل لذكر هذه النعمة سورة كاملة. فلم يذكر ما يتعلق به من الحكم، أي: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾ قريش: ٣. فجعله في سورة تالية، لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة التي فضلهم بها على سائر الأمم حتى بني إسرائيل، فإنهم أُسِروا وقُتِلوا ومُزِّقوا كل ممزَّق. وكذلك أُخِذَ عنهم بلدهم وهيكلهم، ودُمِّر وحُرِّق ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ البقرة: ١٠٥ فيعطي

حسب علمه وحكمته، فليشكروا له ولا يغترّوا بنعمته.

وإنّا نذكر أسباب هذا التفضيل ليتضح أنّ ذلك كان على غاية الحكمة.

(١٠)
بيان ما فضَّل الله به هذا البيتَ وأهلَه على سائر المعابد وذويه

كلُّ ما علَّمنا الله تعالى من قصص الأولين أودَعَ فيها آياتٍ على عدله وحكمته. فإذا نظرنا فيها ظهر لنا بعض الوجوه التي تهدي إلى هذا الفرق بين مكة ويروشلم وذويهما. والآن نذكر طرفاً منها آخذين من التوراة ليكون حجة على أهل الكتب.

الأول: من جهة كون الكعبة أصلاً وأساساً للدين

وذلك بأنّ هذا البيت كان أول بيت وضع للناس مركزاً للتوحيد والإطعام. وهذا مما بدّلته اليهود مع أنّ حقيقة الأمر تلمع من التوراة. وقد مرَّ بحثه تحت آية: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ آل عمران: ٩٦ - ٩٧. فذكر ثلاثة دلائل على كونها أول بيت وبناء إبراهيم. وبسط الكلام تحت هاتين الآيتين.

فأوّلُ بيت الله أحقُّ بالحفظ. فكان كالأساس و الأمّ للدين الحقّ. وأما بيت يروشلم فكان بناء سليمان عليه السلام كما صرحت به التوراة، ولم يكن لهم بيت العبادة قبله. في الملوك الأول ٨: ١٦:

«منذ يوم أخرجت شعبي إسرائيل من مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط إسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك».

الثاني: مِن جهة كرامة مَنْ بناه

فإن الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما. والبيت المقدس بنته العَمَلة المكرَهة المعذَّبة، كما صرّح به في التوراة. وفي القرآن أيضاً إشارة إليه. ثم دعا إبراهيم عليه السلام أن يتقبلها الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ البقرة: ١٢٧.

ودعا إبراهيمُ عليه السلام لمكة بالأمن والبركة، ولكنه عليه السلام خصَّ بدعائه المؤمنين، فعمَّه الله للكافرين أيضاً في الدنيا، حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ البقرة: ١٢٦. فلرعاية حرمة البيت العظيم لم يرض الله أن يعذِّب ذريته فيه بعد كفرهم.

وأما وعد الله في بيت يروشلم فجاء في الملوك الأول (٩: ١-٩):

«وكان لما أكمل سليمانُ بناءَ بيتِ الربّ وبيتِ الملك وكلَّ مرغوب سليمان الذي سرَّه أن يعمل أنّ الربّ تراءى لسليمان ثانيةً كما تراءى له في جِبْعُون. وقال له الرب قد سمعتُ صلاتك وتضرعك الذي تضرعتَ به أمامي. قدّستُ هذا البيتَ الذي بنيتَه لأجل وضع اسمي فيه إلى الأبد وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام. وأنت إن سلكت أمامي كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة وعملتَ حسب كلِّ ما أوصيتُك وحفظتَ فرائضي وأحكامي فإني أقيم كرسيَّ مُلكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلّمتُ داود أباك قائلاً لا يُعدم لك رجلٌ عن كرسي إسرائيل. إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهةً أخرى وتسجدون لها فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتُهم إياها والبيت الذي قدّستُه لاسمي أنفيه من أمامي ويكون

إسرائيل مثلاً وهُزْأة في جميع الشعوب. وهذا البيتُ يكون عبرةً. كلُّ من يمرُّ عليه يتعجب ويصفرُ ويقولون لماذا عمل الربُّ هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الربَّ إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسَّكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الربُّ عليهم كلَّ هذا الشرِّ».

ومثل ذلك في يرمياه (٧). وفي ذلك لنا عبرة عظيمة، فإن الله تعالى يتقبل شيئاً حقيراً إن قُرِّب به بخضوع القلب والتقوى، كما جاء في قربان هابيل وقابيل. والمسجدان كلاهما رُفِعا بتقوى الله والخضوع ولكن شتان ما بينهما. فإن مسجد يروشلم كان بناءً ملوكيًّا من الأحجار الثمينة والذهب الإبريز، وعملَ رجال مسخَّرين كارهين، فيهم مسلم وكافر. انظر الملوك الأول (٥-١٢).

الثالث: من جهة كونه من الربِّ تعالى

فإنَّ إبراهيم عليه السلام بناه بأمر الربِّ، وأمره بالهجرة إلى موضعها، وأراه مكانها، ووعد أن يعذِّب من جاء إليها ملحداً وظالماً. وأوفى هذا الوعيد بأصحاب الفيل. فهذه أربعة أمور ذكرها في القرآن. وبقي في التوراة إليها إشارات من بقايا ما أخرجته اليهود كعادتهم التي شهدت بها كتبهم.

وأما مسجد يروشلم فجُلُّ أمره أن أراد داود عليه السلام أن يبني بيتاً لعبادة الله، فمُنِعَ عنه وحُوِّل إلى ابنه سليمان عليه السلام، فبناه كيف شاء وأين شاء. جاء في سموئيل الثاني (٧: ١-١٧):

«وكان لما سكن الملِكُ في بيته وأراحه الربُّ من كل الجهات من جميع أعدائه أنّ الملك قال لناثان النبي انظر. إني ساكن في بيت من أَرْزٍ وتابوتُ الله ساكنٌ داخل الشُّقق. فقال ناثان للملك اذهب افعل كلَّ ما بقلبك لأنّ الربَّ معك. وفي تلك الليلة جاء كلام الربّ إلى ناثان قائلاً: اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب. أأنت تبني

لي بيتاً لسكناي. لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدتُ بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن. في كلِّ ما سِرتُ مع جميع بني إسرائيل هل تكلّمتُ بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتُهم أن يرعَوا شعبي إسرائيل قائلاً لم لا تبنون لي بيتاً من الأرز. والآن فهكذا تقول لعبدي داود. هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربَض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل. وكنتُ معك حيثما توجّهتَ وقَرضتُ جميع أعدائك من أمامك وجعلتُ لك اسماً عظيماً كاسم العظماء الذين في الأرض. وعينتُ مكاناً لشعبي إسرائيل وغرستُه فسكن في مكانه ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يذللونه كما في الأول. ومنذ يوم أقمتُ فيه قضاةً على شعبي إسرائيل. وقد أرحتُك من جميع أعدائك. والربُّ يخبرك أنّ الربّ يصنع لك بيتاً. متى كملتْ أيامُك واضطجعتَ مع آبائك أقيم بعدك نسلَك الذي يخرج من أحشائك وأُثَبِّتُ مملكتَه. هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أُثبِّت كرسيَّ مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً. إن تَعوَّجَ أؤدِّبه بقضيب الناس وبضربات بني آدم. ولكنّ رحمتي لا تُنزع منه كما نزعْتُها من شاول الذي أزلتُه من أمامك. ويأمن بيتك إلى الأبد أمامك. كرسيُّك يكون ثابتاً إلى الأبد. فحسَبَ جميع هذا الكلام وحسَبَ كلِّ هذه الرؤيا كذلك كلَّم ناثانُ داودَ».

ثم لما أراد سليمان عليه السلام أن يبني البيت وشرع فيه أوحي إليه. في الملوك الأول (٦: ١١-١٣):

«وجاء كلام الربِّ إلى سليمان قائلاً هذا البيت الذي أنت بانيه إن سلكتَ في فرائضي وعملتَ أحكامي وحفظتَ كلَّ وصاياي للسلوك بها فإني أقيم معك كلامي الذي تكلمتُ به إلى داود أبيك. وأسكن في وسط بني إسرائيل ولا أترك شعبي إسرائيل».

الرابع: من جهة كونه مؤسَّساً على كمال الإسلام

وذلك بأن إبراهيم عليه السلام قَرَّب هناك ابنَه إسماعيلَ، وهما أَسَّسا هذا البيت، ودعوا الربَّ أن يتقبّله، كما مرَّ في الوجه الثاني. واليهود غيّروا هذه القصة، ولكنّ كذبهم بادٍ مكشوف في التوراة؛ غير أنهم أدخلوا اسم إسحاق. ومر هذا البحث في تفسير سورة «والصافات»، وأفردنا له كتاباً يختص بهذا الموضوع[1].

والخامس: من جهة صبر من سكن عنده من ذرية إبراهيم عليه السلام

وذلك على طريقين: طريق القرآن، وطريق ما يوجد في صحف اليهود، فمع كونه من تحريفاتهم، نذكره إلزاماً لهم.

فأما طريق القرآن، فإنّ إبراهيم عليه السلام أسكن ذريته من سارة عليها السلام في أخصب البلاد في الأرض التي تجري عسلاً ولبناً. وأما ذريته من هاجر عليها السلام، فأسكنها في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم.

وأما على طريق ما يذكر في صحف اليهود، فإن افتراق هاتين العشيرتين كان بدؤه بأن هاجر عليها السلام اعتصمت بالصبر على المشقة والهوان مما أصابتها من سارة عليها السلام لما غارت عليها حين رأتها مثمرةً. فباركها الله، وجاءها كلام الله مرتين. ولم يكن هذا لسارة عليها السلام. وفي ذلك عبرة لنا. فإن الله تعالى رؤوف على المنكسرة القلوب، كما ذكر كثيراً في الكتب المقدسة. أما الإشهاد على ما قلنا فجاء في تكوين (١٦: ١٠-١١):

«وقال لها مَلَكُ الربِّ تكثيراً أكثِّر نسلَكِ فلا يُعَدُّ من الكثرة. وقال لها ملكُ

---

(١) وهو «الرأي الصحيح في من هو الذبيح». نشرته دار القلم، دمشق، بيروت، سنة ١٩٩٩م.

الربِّ ها أنت حُبلى فتلدين ابناً. وتَدْعِين اسمَه إسماعيل لأنّ الربَّ قد سمع لمذلّتك» (أي سمع لتضرعك).

وكذلك في تكوين (٢١: ١٧-١٨):

«...ونادى ملكُ الله هاجرَ من السماء وقال لها مالكِ يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي واحملي الغلام وشُدِّي يدَكِ به. لأني سأجعله أمةً عظيمةً».

وكذبت اليهود في قصة هاجرة وإسماعيل عليهما السلام كما مرَّ في سورة إبراهيم. ومع ذلك اعترفوا بأمور على رغم أنفهم، فنُلزمهم ما اعترفوا به.

السادس: من جهة ما كان من بني إسماعيل من حسن الجزاء إلى إخوانهم بني إسحاق مع إساءتهم إليهم، ففضّلهم الله عليهم

وذلك حسب قول اليهود إن سارة قد حقرت هاجرةَ، وسمَّتها جارية. ثم مضت سنَّتها، فعيّرت أولادُها أولادَ هاجرة باسم ولد الأمة، ولم يكونوا إلا أحراراً. فما لبث أولاد سارة أن صاروا عبيداً في مصر، كما جاء في تكوين (٣٧: ٢٥-٢٨):

«ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً. فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلةُ إسماعيليين مقبلةٌ من جِلْعاد وجِمالُهم حاملةٌ كثيراءَ وبَلَساناً ولاذَناً ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه. تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا. فسمع له إخوته. واجتاز رجال مِدْيانيون تُجّار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة. فأتوا بيوسف إلى مصر».

في هذه العبارة أيضاً كتمان أمر، ولا نبحث عنه هاهنا. فكان أول أمرهم أن

باعوا يوسف لبني إسماعيل، ثم أسرتهم الفرس والمصر والروم.

وأما أولاد هاجرة فلم يُستعبدوا منذ كانوا، كما شهد به علماؤهم. والله عاصمهم، وله الحمد.

ثم انتقم بنو هاجرة لبني سارة من مستعبديهم. وبيانه في تفسير سورة البقرة. فاشتراهم بنو إسماعيل، وجرت السنّة بهذا، فإنهم يجدون الملجأ في ملك المسلمين من اضطهاد الأمم. ثم ينعم عليهم في الأيام الآخرة إذا آمنوا بخاتم الأنبياء حسب وعد التوراة والقرآن. ونرى اليوم آثاره.

وفي هذه الوقائع لم يستعبدهم بنو إسماعيل بل نصروهم وانتصروا لهم كما ينتصر الأخ للأخ. ألا ترى حين باعوا يوسف عليه السلام لم يستعبده الإسماعيليون، كما قال تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ يوسف: ٢٠.

السابع: من جهة لصوق بني إسماعيل بالربِّ تعالى أكثر من بني إسرائيل

فإنّ الله تعالى عذَّب اليهود لسوءِ أعمالهم، وتهالكِهم على الوثنية، وتركِ الإله الحي الذي أنعم عليهم، كما ترى ذكر ذلك في التوراة غير ما ذكر من شركهم بالله (يرمياه: ٧).

وأما العرب فلم يتركوا الله الحي. إنما أخذوا له شفعاء وسمَّوهم أبناء الله وبناته كالنصارى، وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣. وكما جاء في سورة يونس: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨. فلم ينكروا بالله أبداً. وكانوا يحجُّون البيت ويهلِّلون ويعبدون الله. فكان كفر اليهود أعظم من كفر العرب.

الثامن: من جهة كون بني إسماعيل أقرب إلى العذر من بني إسرائيل

فإنَّ بني إسماعيل لم يضِلّوا عن أصل دينهم إلا بعد ما طال عليهم الأمد، ونسوا وصايا إبراهيم عليه السلام، ولم يُبعث فيهم نبيٌّ يذكِّرهم. ومع ذلك نشأ فيهم من اتخذوا الحنيفية ديناً وتركوا الأوثان.

فأما اليهود فعبدوا العجل، والنبيُّ بين أظهرهم، وقد آمنوا به وشاهدوا آياته البينات. ثم بعد ذلك تركوا عبادة الله للأوثان مرة بعد مرة ولم يبعد عليهم عهد النبي، كما جاء في كتب «القضاة» و«الملوك» من التوراة. والله تعالى لا يعذب قوماً إلا بعد الإنذار وإقامة الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ الإسراء: ١٥.

فهذه جملة ما تظهر من الوجوه التي لأجلها حمى الربُّ تعالى هذا البيت. ولله الحمد.

(٥)

أمور مهمة مما يتعلق بتقديس مسجد وحفظه

فيما سبق من ذكر مزايا بني إسماعيل على بني إسرائيل، وتاريخ الكعبة، ومسجد يروشلم: إشارةٌ وتمهيدٌ لبعض أمور مهمة غيرَ ما مرَّ عليك في أثناء الكلام. والآن نذكر منها ما يكون مُدْحِضاً لبعض الشكوك.

الأول: أنه ليس للعبد أن يتطاول على الله ويقول: لنا مزية وفضل، فنستحق كذا وكذا. فإن الفضل والمنة لله تعالى. وأوثق عرى العبد هو التذلل والاستكانة. وما يتراءى كالفضيلة فليس إلا جالبةً لرحمته تعالى كالدعاء، فإن العبد بعد دعائه لا يتخيل أنه منَّ على مولاه بشيء، أو صنع له شيئاً فيطلب أجرته. وقصاراه أن يرجو من الرب الرحيم الذي يُسبل النعم من غير دعاء أن لا يُخيِّبَ داعياً متضرِّعاً. وعلى ذلك آيات

كثيرة في القرآن والتوراة والإنجيل.

ولكنه تعالى لا يجعل المحسن والمسيء سواء. فيبتلي العباد، كما ابتلى إبراهيم، فقرَّبَ بإسماعيل، وأسلَمَا للربّ. ولكنّ إسماعيل وأباه ما كانا إلا من مُلك الله وصُنع يده، فأيَّ خير صنعا لربِّه؟ ولكن أنعم عليهما بعد هذا الامتحان بالبركات الجديدة.

فهذا الأمر وإن كان من البديهيات، ولكن إذا قسا القلب وغشيته الظلمات لا يهتدي لها. ولذلك قال يحيى عليه السلام لليهود:

«لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم»[1].

والنصارى أفرطت في جانب آخر، فقالوا: إن الأعمال ليس فيها رجاء، فكانوا كالجهمية، كما أن اليهود تشبه القدرية.

فمع كل ما ذكرنا من مزايا بني إسماعيل لا فضل فيه إلا لله تعالى، وحُقَّ له أن يُذكِّرهم نعمتَه ليرجعوا إليه مخلِصين له الدين.

والثاني: أنه كما أنّ العبد لا استحقاق له على الله تعالى، غير أنه رؤوف ومنجز لما وعد، فكذلك ليس لمسجد أو معبد سُمِّي باسمه حقٌّ على الله أن يحميه، غير أنه من أجل رحمته على عباده يذبُّ عنه لما تقرّبوا به. ألا ترى كيف تضرَّع إبراهيم عليه السلام وسليمان عليه السلام بعد بناء البيت أن يتقبله الله؟ فينظر الله إلى مقربة العبد بعين الرحمة. ولكنهم إذا نسوا الله وعصوه عُتوًّا وتمادياً كان حريًّا بهم أن يضرب الله على وجوههم ما قرَّب به آباؤهم، بيد أنه تعالى لا يعجل بالعذاب، كما جاء في التوراة والقرآن كثيراً.

---

(١) إنجيل متى ٣: ٩.

ففي ذلك إنما المنّة لله تعالى.

وهذا أيضاً من البديهيات. ولكن أكثر الناس غرّتهم الأماني، ويظنّون أن للمخلوق عزّةً على الله.فتأمل فيما مرَّ في آخر الفصل الثاني. ويلمح إلى مثل ذلك ما جاء في سورة التوبة: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ التوبة: ١٩.

فأقرب الوسائل عند الله هو الطاعة والتقوى. وبها ولها قامت شعائر الله، غير ما وعد الله من الرحمة والمهلة. فله الحمد ولنا الرجاء، ولا استحقاق لنا على الرب تعالى.

الثالث: أن الله تعالى إذا تقبل بيتاً وقدّسه لاسمه ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ المائدة: ٢٧ صار ذلك البيت ينبوع بركته، ويمين عهده. فكلما جاؤوا إليه ذاكرين اسمه ومجدّدين عهده كان العهد قائماً، كما قال لبني إسرائيل: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ البقرة: ٤٠، ولبني إسماعيل: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ البقرة: ١٥٢.

ولكنهم إن بدلوا العهد وهم أنفسهم قاموا لخراب البيت، فحري بالرّبِّ أن يخلي بينهم وبين البيت المقدس. فإنّ الله تعالى غني عن العالمين، ويقضي على الأمة حسب أفعال أكثرهم، أو يثبِّطهم حين قام بعضهم للشر. فإن التقوى نصفها التعاون في فعلِ الخير ومنعِ الشر، كما مرّ بيانه في سورة العصر.

هذا حسب مجرى العدل الظاهر. فإنْ عامَلَهم بالحلم لجهلهم، أو لعلمه بخير مستكنٍّ فيهم، أو لحكمة أخرى، فهو العليم الحليم الحكيم. كما ترى ذلك في أمر اليهود والنصارى في أمر صحفهم، فإنهم بدّلوها ولم يمنعهم عن ذلك. وأما القرآن فحفظه عن أيدي الزائغين مع حرصهم على التحريف والتغيير. وله الحمد والمنة.

(٦)

إجمال القصة حسب ما نصَّ عليه القرآنُ

اعلم أنّ قصة أصحاب الفيل لها إجمال وتفصيل. أما مجملها فهو الذي نصَّ عليه القرآن. وأما تفصيلها فأخذوها من الروايات المختلفة المتفاوتة في الصحة والضعف. والمفسرون يذكرون تفاصيل القصص من غير بحث عما ثبت وعما لم يثبت.

وهذا ربما يعظم ضررُه، وربما يَصرف عن صحيح التأويل. فلا بدَّ أولاً من الفرق بين المنصوص وبين المأخوذ من الروايات. ثم لا بدّ ثانياً من التمييز بين ما ثبت وبين ما لم يثبت. فنذكر أولاً ما نصَّ عليه القرآن.

فاعلم أنّ القرآن لم يفصِّل في قصة أصحاب الفيل بأنّهم جاؤوا لهدم الكعبة، ومن كانوا، ومن أين جاؤوا. لأن الواقعة كانت على غاية الاشتهار حتى إن العرب اتخذتها مبدأ تاريخهم، وذكروها في أشعارهم. وسيأتيك بعضها في الفصل العاشر. والسكوت عن التفصيل أبلغ بياناً لدلالته على غاية الشهرة.

وإصدار الكلام بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ يناسب هذا الأمر. فإنه لا يخاطب به إلا فيما لا يخفى على أحد، كأنه رآه كلُّ من يخاطَب به وإن لم يره بعينه. وهكذا ينبغي عند طلب الإقرار بشيء، كما هو معلوم عند أهل العربية.

ثم إذا أُخرج الكلام هذا المخرج لا يذكر فيه إلا ما كان مشهوراً معلوماً، فالتفصيل لا يليق به، كما ترى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ الفجر: ٦ - ١٣. فذكر من هذه الأمم ما كان مجملاً مشهوراً.

فهكذا في قصة أصحاب الفيل اكتفى بالإجمال، وذكر من أمرها ما صرّحت به هذه السورة وما يُلمع إليه موقعُها ونظمُها بالسورة التالية.

فجملة القصة أن الله تعالى مزّق أصحابَ الفيل الذين راموا كيداً خلاف بيته المحرم. فأرسل عليهم جنداً من جنوده، فإنّ له جنود السماوات والأرض، وأهلكهم بحجارة من سجيل رُمُوا بها. وكان ذلك منه إنعاماً على قريش وسائر العرب، وذبًّا عن حَرَمه.

فهذا القدر هو المنصوص. فلا ينبغي الخلط بينه وبين أخبار فيها اختلافات شتى. وبعد ذلك إن تطلعنا إلى ما جاء في الأخبار فلا بدَّ من البحث والتنقيح لتمييز الحق الصريح.

فالآن ننظر أولاً فيما زعموا من سبب مجيء أبرهة ومما جرى بينه وبين أهل مكة، وثانياً فيما كان من رمي أصحاب الفيل، وثالثاً فيما كان من أمر الطير. فهاهنا ثلاث نظرات.

(٧)
النظرة الأولى، وهي فيما زعموا من سبب مجيء أبرهة وفرار أهل مكة وما جرى بينه وبين عبد المطلب

كلُّ ما ذكروا من سبب مجيء أبرهة لغضبه على العرب، ومن فرار أهل مكة، ومما جرى بين أبرهة وعبد المطلب =لم يثبت من جهة السند. فإنّ كل ذلك لا يجاوز ابن إسحاق، ومعلوم عند جهابذة أهل الحديث أنه يأخذ الروايات من اليهود وممن لا يوثق به. ثم يُبطل هذه الأمورَ رواياتٌ أخر، ويبطله ما ثبت عندنا من عادات العرب.

ومما يدل على كونها من أكاذيب الأعداء أنها ما تعمدت إلا غضاضةً من العرب وحميتهم، وإهانةً لرئيسهم عبد المطلب القرشي، وتنويهاً بحسن خلق أبرهة

الحبشي، ومسبَّةً على من هيَّجه على هدم الكعبة، وبسطاً لعذره إذا انتصر لكنيسته. فلم يترك الكذّابون شيئاً من الذلّة والمنقصة والعار والشنار إلا نسبوها إلى العرب وقريش ورئيسها. فلا نكتفي هاهنا بإرسال القول فيها، بل نذكر لك الوجوه التي تدل على كذب هذه الروايات.

فالأول: أنهم زعموا أنّ عبد المطلب قال: إنّ لهذا البيت ربًّا يمنعه، فقام على باب البيت ودعا الله، ثم تحرَّز مع جميع أهل مكة بشَعَفِ الجبال[1].

فنقول: إنه ليس على وجه الأرض قوم لا يعتقد أنّ معبَده بيت الله، فهل تراهم مع ذلك يتركون معابدهم في أيدي العدو، ولا يدفعون عنها؟ هذا لا يُتصوَّر من سكان السهول، فكيف من قريش، بل سائر بني إسماعيل؟ فإنّ أفراسهم وجبالهم وأسيافهم ونبالهم كانت لهم أحصنَ معاقل. ولذلك بقوا على حريتهم منذ كانوا، كما اعترف به المؤرخون الأجانب.

والثاني: أنهم زعموا أنّ عبد المطلب جاء إلى أبرهة يسأله ما أخذ عسكره من إبل عبد المطلب. فلما رآه أبرهة أجَلَّه وأكرَمَه، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه[2]. ثم جرى الكلام بينهما، فقال أبرهة: «أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك. قد جئت لهدمه، لا تكلِّمني فيه؟»[3].

---

(١) ولتفصيل القصة انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٩٤-١٩٦، وتاريخه ٢: ١٣٣-١٣٥. والسيرة النبوية لابن هشام ١: ٤٢-٤٤.

(٢) انظر ابن هشام ١: ٤٢، وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٥.

(٣) انظر ابن هشام ١: ٤٢ وتفسير الطري ٣٠: ١٩٥.

فهل يمكن أن يترك عبد المطلب التكلّمَ في أمر البيت بعد ما رأى وسمع من أبرهة ما يستيقن به أنه لو سأله الانصرافَ عن هدم البيت لفعل. ثم إنه لم يترفع عن المجيء إليه والسؤال لإبله.

والثالث: أنّ أهل السير يروون أنّ القبائل من أول خروج أبرهة كانت تحمل على جيشه، وتمنعه عما أراد[1]. وذلك يدلّ على أنّ العرب كلّها صارت مخالفةً له. وقتالهم لأبرهة كان من الوقائع المشهورة، فقد افتخر به بعض الشعراء. قال ذو الرمة، وهو من قدماء الإسلاميين:

وأبرهةَ اصطادت صدورُ رماحِنا   جهاراً وعُثْنونُ العَجاجةِ أكدَرُ
تنحّى لـه عمروٌ فشَـكَّ ضُلوعَـه   بنافذةٍ نَجلاءَ والخيلُ تَضْـبِرُ[2]

فصرّح بأنه طعنه رجل من قومه، وبأنه كان في يوم ذي غبار كثيف مرتفع إلى السماء. وذلك بأن الله أرسل عليهم ريحاً حاصباً فحَصَبَتْهم، كما سيأتيك ذكره في الفصل العاشر.

وبالجملة فإنّ العرب دافعوا عن بلد الله المحرم. وهذا هو أقرب إلى العقل، فإنّ جمهور العرب تعظِّم الكعبة، فلا أدري كيف غلب الرعب على قريش حتى إنهم لم ينتصروا لما عليه بناءُ رئاستهم وشرافتهم، فضلاً عما أُشربت النفوسُ من الذبِّ عن دينها ومعبدها.

والرابع: أنّ علماء السير يروون أنّ جيش أبرهة جاء في موسم الحج[3].

---

(١) انظر ابن هشام ١: ٣٩ و٤١. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٤. وتفسير ابن كثير ٤: ٥٥٣.

(٢) ديوان ذي الرمة: ٦٣٧ (طبعة مجمع دمشق).

(٣) المشهور عند علماء السير أنه جاء في المحرم. قال السهيلي: وكانت قصة الفيل أوّلَ المحرّم. انظر الروض الأنف =

ويؤيده قول عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف يذكر أخذَهم هَجْمةً من البُدْن:

لاهُمَّ أخْزِ الأسودَ بنَ مقصودْ الآخذَ الهَجْمةَ فيها التقليدْ

بين حراءَ وثبيرٍ فالبِيدْ يحبسُها وهي أولاتُ التطريدْ

فضمَّها إلى طماطِمٍ سُودْ أخفِرْه يا ربِّ وأنتَ محمودْ[1]

فإن خافت قريش، فهل دخل الفشل في جميع العرب؟ وقد كانوا يقاتلون جيش أبرهة وهم متفرقون، فكيف أذعنوا له إذ أمكنهم دفعُ العدو عن مركز واحد بقوة مجتمعة، ومعبدُهم بين أعينهم أو بقرب منهم؟

والخامس: أنهم عابوا ثقيفاً لفرارهم عن حماية الكعبة، كما قال ضِرَار بن الخطّاب:

وفرَّتْ ثقيفٌ إلى لاتها بمنقلَبِ الخائبِ الخاسرِ[2]

والروايات متفقة على موافقة ثقيف بأبرهة، ورجم قبر أبي رغال الثقفي الذي صار دليلاً لجيشه[3]. فلو فرَّت العرب كلُّها مثل ثقيف لما عابوا ثقيفاً ولا لعنوا رئيسها أبا رِغال، وظنوا لعله كان قد أُكرِهَ.

=

١: ٢٧٠.

(١) ابن هشام ١: ٤٣.

(٢) ابن هشام ١: ٤٠. وهذا البيت من أبيات لضرار قالها في حرب الفجار. انظر الأغاني ٢٢: ٧٥ (طبعة دار الثقافة). وقد استشهد به ابن هشام على كون اللات لثقيف، وقد أوهم سياقُه المؤلف رحمه الله أنه قيل في قصة أصحاب الفيل.

(٣) انظر ابن هشام ٣٩-٤٠. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٤، ٢: ١٣٢، وتفسير ابن كثير ٤: ٥٥٣.

والسادس: أنه قد زعموا أن أبرهة كان رجلاً حليماً، وإنما هيَّجه أحد بني فُقيم إذ دخل كنيسته ونجَّسها[١]. ويُبطل هذه الرواية سائرُ أحوال أبرهة وتعصُّبه في دينه، فإنه لما استولى على اليمن قتل أميرها أرياطاً اليهودي، وأبطل اليهودية من اليمن، وبنى كنسية لم ير مثلها[٢]. ثم كتب إلى النجاشي: «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لملك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرف إليه حاجَّ العرب»[٣].

فإن صح ذلك، فالظاهر أن أبرهة لم يمكنه صرفُ العرب عن الكعبة، لما أنهم نشؤوا على حبها القديم، وعلموا أنها بناء أبيهم إبراهيم. فلما رأى أن الكعبة عقبة كؤود في طريقه عزم على هدمها. فذلك أمر وقع على مجرى الطباع وحوادث الأمور.

والذين وضعوا قصة التنجيس ورووها إنما وضعوها لأحد أمرين: إما لمحض التماسِ سببٍ لغضب أبرهة، ولم يخطر ببالهم شيء غيرها؛ أو لحسن ظنهم به، فنسبوا مجيئه إلى ما يكون عذراً لجراءته على هذا الأمر العظيم. ويؤيد ذلك أن من الروايات ما يأتي بقصة أخرى، وهي هذه (من الدر المنثور للسيوطي):

«أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن عثمان بن المغيرة بن الأخنس قال: كان من حديث أصحاب الفيل أن أبرهة الأشرم الحبشي كان ملك اليمن وأن ابن ابنته أكسوم بن الصباح الحميري خرج حاجًّا. فلما انصرف من مكة نزل في كنيسة بنجران، فعدا عليها ناس من أهل مكة فأخذوا ما فيها من الحلي وأخذوا متاع أكسوم، فانصرف إلى جدِّه مغضباً. فبعث رجلاً من أصحابه يقال له شهر بن معقود على

(١) ابن هشام ١: ٣٨-٣٩. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٣، وتاريخه ٢: ١٣٠-١٣١.

(٢) ابن هشام ١: ٣٦، وتاريخ الأمم والملوك ٢: ١٢٨-١٣١.

(٣) المصادر السابقة.

عشرين ألفاً من خولان والأشعريين»[١].

واكتفى صاحب الدر المنثور بهذه الرواية في سبب مجيء أصحاب الفيل. ودلائلُ الكذب فيها ظاهرة لأهل النظر. وأيما كان، فلا حاجة إلى أمثال هذه الروايات السخيفة المنكرة مع وجود الأخبار التي توافق الأمور المعلومة من سيرة أبرهة ومجاري الطباع عموماً.

والسابع: أن القرآن صرح بكيد أصحاب الفيل، وما زعموا من مجيء أبرهة ليس فيه كيد. إنما هو مجاهرةٌ بالقدرة وإرغامٌ لجميع العرب. وأما على ما يستنبط من الروايات الموثوق بها فيثبت منه كيده من وجوه:

الأول: أنّه جاء في الأشهر الحرم إذ ظنَّ أنّ العرب تُمسِك فيها عن القتال وحمل السلاح.

والثاني: أنّه أراد دخول مكة حين تخلَّوا من أهلها، وهم مع سائر العرب في حجِّهم.

والثالث: أنّه أراد الهجوم عليهم خاصة في أيام التشريق، والعرب حينئذ إما واقفون بمنى أو مسرعون إلى أوطانهم بعد طول الشعث والكلال والسآمة. وعلى هذا فانظر كيف ضلَّل الربُّ تعالى كيدَه:

١ - إذ حبس جيشه ببطن محسر.

٢ - وإذ جعل للعرب سلاحاً من حجارة المحصب.

٣ - وإذ أرسل عليهم حاصباً من السماء.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي ٦: ٣٩٤ (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٤هـ).

فاتضح مما ذكرنا أن أهل مكة دافعوا أصحاب الفيل عن بيت الله، ورموهم بالحجارة، ولا مانع لهم عن ذلك. وإنّ ما ذكروا من حلم أبرهة ورفعة قدره يُبطله المنقول والمعقول والقرآن. والحمد لله.

(٨)

النظرة الثانية وهي في رمي أصحاب الفيل بالحجارة وكونها من الآيات العظام

لا شك أنّ رمي أصحاب الفيل بالحجارة كانت من الآيات العظام على عظيم منزلة الكعبة والبعثة المحمدية، فإنّ نبينا ﷺ ولد في هذا العام. ولكن عظمة هذه الآية ليست في كونها عجيبةً ونادرةً بعيدةً عن العادة، بل إنها جاءت حسب سنة الله تعالى في إنزال آياته.

فإنّ من ينظر في مجارى الخوارق يجد أن الله تعالى لا يترك جانب التحجب في الإتيان بها، كما هي سنته في سائر ما يخلق. لأن حكمته جعلت لنا برزخاً بين عالمي الغيب والشهادة، وسنّ لنا التشبث بالأسباب مع التوجُّه إلى ربّها، ليبقى مجال للامتحان والتربية لأخلاقنا. فالمؤمن يضمحلّ عنه غمام الأسباب، والكافر يبقى في ظلماتها غير خارج منها. فبإجراء الخوارق على سنّة سائر الخلق يجعلها واسطةً لفهم أمره الذي هو قوام كل خلق، كما قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ النمل: ٨٨.

ولذلك لا ترى للخوارق اسماً على حدة. فإن الله تعالى يسمِّيها «الآيات» كما يسمي سائر مظاهر قدرته «آيات»، غير أنه ربما يسميها «آيات بينات» نظراً إلى العامة، وإلا فعند أولي البصيرة كلُّها بينات.

هذا، وبسط القول في كتاب «عيون العقائد»[١].

فإن كنتَ موقناً بأنّ الله تعالى هو المتصرِّف في العالم، وملائكته ينفذون بكلماته، وكلُّ شيء من الخلق يجري حسب أوامره على سنن حكمته = كنتَ أهلاً للنظر والتأمل في آيات الله، لتزداد خشيةً وحكمةً.

فاعلم أن لهذه واقعة الفيل نظائر في القرآن والصحف. وهي مما تبيِّن المشابهة بين موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام.

الأول: ما وقع في غزوة بدر. فإن رسول الله ﷺ أخذ حفنةً من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم بها وقال لأصحابه: «شُدُّوا»[٢]. فلم يبق كافر إلا شُغل بعينه، كما جاء في سورة الأنفال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الأنفال: ١٧. فجعل الله تعالى رميَ النبي سبباً ظاهراً لما رماهم، حتى شغل كل واحد منهم بعينه. فكان هناك رميان: رمي من النبي رأوه، و ورمي من الله تعالى لم يروه، ولكن رأوا أثره. ولذلك جاء النفي والإثبات معاً.

وكذلك في هذه السورة. كانت قريش ترميهم بحجارة ينفحونهم بها عن الكعبة، فجعلها الله حجاباً لما أرسل على أصحاب الفيل من الحجارة من السماء. وكما نسب الله تعالى الرمي في بدر إلى نفسه في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، فهكذا هاهنا نسب إلى نفسه أنه جعلهم كعصف مأكول. فلا شكّ أنها كانت من الآيات البينات، فإن منافحة قريش كانت أضعف من أن يفُلَّ هذا الجيش، فكيف يحطِّمهم حتى صاروا كعصف مأكول.

---

(١) انظر: القائد إلى عيون العقائد: ١٦١.

(٢) انظر ابن هشام ٢: ٢٠٣.

والثاني: أن هذه الآية تشبه الآية السادسة من تسع آيات موسى عليه السلام، كما جاء في سفر الخروج (٩: ٨-١١):

«ثم قال الربُّ لموسى وهارون خُذا ملء أيديكما من رماد الأَتُون وَلْيُذَرِّه موسى نحو السماء أمام عيني فرعون. ليصير غباراً على كل أرض مصر. فيصير على الناس وعلى البهائم دمامِلَ طالعةً ببثور في كلّ أرض مصر فأخذا رماد الأَتُون ووقفا أمام فرعون وذَرَّاه موسى نحو السماء فصار دماملَ بُثورٍ طالعةً في الناس وفي البهائم. ولم تستطع السحرة أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت في السحرة وفي كلّ المصريين».

فهكذا كان الأثر من الحجارة على أصحاب الفيل. فروي عن عكرمة رضي الله عنه أنه «من أصابته أصابه جدري»[1]. وهكذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهما. ولكنَّ دماملَ المصريين لم تكن مهلكة، فأما الجدري الذي أصاب أصحاب الفيل أهلك أكثرهم هناك، والباقين في الطريق، كما روي أنهم «خرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل»[2].

والثالث: أنها تشبه الآية الثامنة من آيات موسى عليه السلام. فإن الله تعالى أرسل من البحر طيوراً جوارحَ عظاماً، لتأكلهم وتُطهِّر جانب مكة من جِيَف الأفيال وأصحابها التي لو بقيت لم يكن لقريش أن يسكنوها إلى مدة. وقد جاء في سفر الخروج (١٠: ١٢-١٩):

«ثم قال الربُّ لموسى مُدَّ يدَك على أرض مصر لأجل الجراد. ليصعد على

---

(١) انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٩٣.

(٢) سيرة ابن هشام ١: ٤٥ وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٦.

أرض مصر ويأكل كلَّ عشب الأرض كلَّ ما تركه البرَدُ. فمدَّ موسى عصاه على أرض مصر فجلب الربُّ على الأرض ريحاً شرقيةً كلَّ ذلك النهار وكلَّ الليل. ولما كان الصباحُ حملت الريحُ الشرقيةُ الجرادَ. فصعد الجراد على كل أرض مصر وحلَّ في جميع تخوم مصر. شيء ثقيل جدًّا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطّى وجهَ كل الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميعَ عشب الأرض وجميعَ ثمر الشجر الذي تركه البرَدُ حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر. فدعا فرعونُ موسى وهارونَ مسرعاً وقال أخطأتُ إلى الربّ إلهكما وإليكما والآن اصفحا عن خطيئتي هذه المرة فقط. وصَلِّيا إلى الربِّ إلهكما ليرفع عني هذا الموت فقط. فخرج موسى من لدن فرعون وصلّى إلى الرب. فرد الربُّ ريحاً غربيةً شديدةً جدًّا. فحملت الجراد وطرحته إلى البحر الأحمر»[1].

فهكذا جاءت الطير من جهة البحر، ولم يُرَ مثلُها، وكانت كثيرةً أبابيلَ. وكما أكلت الجرادُ مما حطَّمه البردُ فكذلك أكلت هذه الطيور جثثَ تلك الملحدين. فكانوا كعصفٍ أكلته جرادُ موسى عليه السلام. و هذا أمر الطير هو الجزء الثالث من قصة أصحاب الفيل، فنبحث عنه في الفصل التالي بالتفصيل.

(٩)

النظرة الثالثة، وهي فيما كان من أمر الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل

إنّما قلنا إنَّ الله تعالى أرسل طيوراً لتطهير ناحية مكة من جيف القتلى، والمشهور أنّ الطير أرسلت لرميهم بالحجارة. فاعلم أن النظر في الروايات يكشف

---

(١) في الترجمة البيروتية «بحر سُوف».

عن فريقين متباينين في تصوير هذه القصة. وقبل ترجيح أحدهما على الآخر نسرد مواقع الاختلاف.

أما الفريق الأول فيروي:

١ - أنَّ الطير كانت جوارح كباراً.

٢ - وأنّ لها لوناً وشكلاً كذا وكذا.

٣ - وأنّها أكلت أصحاب الفيل.

٤ - وأنّ الحجارة أصابتهم من كل جانب.

٥ - وأنّها أحدثت الجدري بإصابتها أجسامهم.

٦ - وأنّهم أُهلكوا حيناً فحيناً في فرارهم حتى إنهم تساقطوا على كل منهل.

وأما الفريق الثاني فيروي:

١ - أنّ الطير كانت ترميهم بالحجارة.

٢ - وأنّها حملت هذه الحجارة بمناقيرها و أظافيرها.

٣ - وأنَّ هذه الحجارة نفذت في أجسام الراكبين حتى نفذت في أجسام الفيل.

٤ - ولا بدَّ أنهم هلكوا حيث كانوا.

٥ - وأنَّ سيلاً جاء فذهب بجثث القتلى.

فلا تنس هذه الأمور. والآن نذكر كلا القسمين من الأخبار من تفسير ابن جرير رحمه الله. وإنما اقتصرنا عليه، وتركنا المؤلفات التي تجمع الروايات الملفقة من

غير تنبيه على ضعفها وتلفيقها.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «حدثنا يعقوب قال حدثنا هُشَيم قال أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع».

أيضاً: «حدثني يعقوب قال حدثنا ابن عُلَيَّة عن ابن عَون عن محمد بن سيرين في قوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ قال: قال ابن عباس: هي طير، وكانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكُفٌّ كأكُفّ الكلاب».

ورواها أيضاً عن ابن عباس بطرق عديدة[(١)].

ذلك، واعلم أنّ «الخرطوم» يستعمل لمنقار الجوارح، كما قال امرؤ القيس:

كأنّها لِقْوَةٌ طَلوبٌ   كأنّ خُرطومَها مِنْشَالُ[(٢)]

وروى ابن جرير أيضاً: «حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعي قال حدثنا فضيل بن عياض عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ قال: طير خضر لها مناقير صُفْر تختلف عليهم»[(٣)].

فالرواية عن عكرمة وابن عباس تخبر بأن الطير كانت جوارح كباراً كالعِقْبان والرخم. وفي رواية ابن جبير تصريح بأنها كانت تأكلهم. وليس في هذه الروايات أنها حملت الحجارة.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠: ١٩٢.

(٢) ديوان امرئ القيس: ١٩٢.

(٣) تفسير الطبري ٣٠: ١٩٢.

ثم نجد رواية عن قتادة وعبيد بن عمير أنها حملت الحجارة في أظفارها ومناقيرها، ولا تذكر صفةً تدل على كونها جوارح[١]. وأما الروايات التي جمعت الأمرين فليس إلا من إدخال بعض الرواية في بعض، فإنَّ الرواة ربما كانوا يلفقون. وصرّح به ابن جرير في تاريخه حيث بدأ هذه القصة بقوله: «دخل حديث بعضهم في حديث بعض»[٢].

هذا، والآن نتأمل في هاتين الروايتين، فنقول: إنّ الإخبار بشكل الطير، ولونها، وأنَّ مناقيرها الصفر كانت تختلف عليهم = لا يكون إلا برؤية العين. وأما الإخبار بحملها الحجارة في مناقيرها وأظفارها فقصارى أمره أن يكون إما ممن رأى نزول الحجارة من السماء وظنَّ من بعيد أنها تأتي من الطير، أو ممن ظن أنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم﴾ يرجع إلى الطير، فروى القصة حسبما فهم من تأويل الآية، وليس له معول على علم بالواقعة.

ثم كان بعضُ من أخذ بهذا الرأي تفطَّن لما فيه من الإشكال. فإنَّ جثث الفيلة والقتلى ملأت ناحية بطحاء مكة، فكيف أمكن لأهل هذه البقاع أن يسكنوها، ففزعوا إلى رأي آخر. وهو أنّ الله تعالى أرسل سيلاً فطهَّر الأرض[٣]. ولا يخفى أن السيل الذي يذهب بجثث هذه الأفيال وهذا الجند الكثيف لا يترك سكان هذه البطحاء. فهذا أيضاً من الرأي، وليس في شيء من رواية الخبر عن الرؤية والعلم.

ثم أهل هذا الرأي وجدوا إشكالاً آخر. وهو أن الحجارة النازلة من مناقير

---

(١) انظر المصدر السابق ٣٠: ١٩٢.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ١٣٧.

(٣) انظر تاريخ الطبري ٢: ١٣٨. والكامل في التاريخ لابن الأثير ١: ٢٦٣، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

الطير و أظافيرها تنزل مستقيمة، فكيف تصيب الفيل مع أنّ جسمه حتى رأسه محفوف بالراكبين. فزعموا أن الحجارة نفذت الراكبين ثم أصابت الفيل ونفذت أجسامها[١].

ثم لابد لهم أن يفرضوا أنّ الحجارة أصابت جند أبرهة وأهلكه على مكانه، وأن ينسبوا الإهلاك إلى محض جراحات الحجارة. ولكن رواية الفريق الأول تصرِّح بأنّ من أصابته الحجارة رُمي بالحصبة[٢]، ولم يهلكوا كلهم بالفور، بل فرُّوا وجعلوا يتساقطون على كل منهل[٣].

فتبين أن كل ما ذهب إليه الفريق الثاني ليس إلا ما يتفرع على رأي رمي الطير. ففرَضَ ما يناسبه، ولم يأخذ علمه من الواقعات المشهودة المروية من الذين شاهدوها.

والآن نذكر أقوال الذين شهدوا هذه الواقعة ورأوها بأعينهم.

(١٠)

الاستدلال بكلام العرب على أنّ الرمي كان من السماء والريح

قد مرّ في الفصل السادس أنّ أسلوب الكلام في هذه السورة يدلُّ على أنَّ واقعة الفيل كانت مما علمته العرب واستيقنته، فلم يذكرها القرآن بتفاصيلها لعدم الفائدة فيه. وإنما أراد به إقامة الحجة عليهم، كما ذكَّرهم بوقائع الأمم المهلكة.

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤: ٥٥٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ٣٠: ١٩٣.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١: ٤٥، والطبري ٣٠: ١٩٦.

والآن نذكر تصديق ذلك من أشعار العرب ونستدلُّ بها على صورة الواقعة، فإنهم شهدوا الواقعة بأعينهم. وهذه الأبيات مذكورة في سيرة ابن هشام وكتب أخر.

قال أبو قيس:

ومِنْ صُنْعِهِ يومَ فِيلِ الحبُو ... شِ إذ كلَّما بَعَثُوه رَزَمْ
محاجنُهم تحتَ أقرابِه ... وقد كلموا أنفَه فانخرَمْ
وقد جَعلوا سَوطَه مِغْولاً ... إذا يمَّمُوه قَفَاه كُلِمْ
فأُرْسِلَ مِنْ ربِّهم حاصبٌ ... يَلُفُّهمُ مثلَ لَفِّ القَزَمْ[1]

وقال أيضاً صيفي بن عامر، وهو أبو قيس بن الأسلت، وهو جاهلي من أهل يثرب:

قُومُوا فصلُّوا ربَّكم وتَعوَّذُوا ... بأركانِ هذا البيتِ بين الأخاشِبِ
فعندكُمُ منه بلاءٌ مُصَدَّقٌ ... غداةَ أبي يكسومَ هادي الكتائبِ
فلما أجازُوا بطنَ نَعْمانَ رَدَّهُمْ ... جنودُ الإله بين سافٍ وحاصِبِ
فولَّوا سِراعاً نادمين ولم يؤُبْ ... إلى أهله مِلْجَيشِ غيرُ عصائبِ[2]

وقال طفيل الغنوى، وهو جاهلي:

ترعَى مَذانبَ وَسْمِيٍّ أطاع له ... بالجِزْع حيث عَصَى أصحابَه الفيلُ[3]

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ (طبعة الحميدية). وفي نشرة عبد السلام هارون (٧: ١٩٦): «فأرسل من فوقهم حاصباً». وكذا في سيرة ابن هشام ١: ٤٩.

(٢) الحيوان ٧: ١٩٧، وابن هشام ١: ٤٩-٥٠.

(٣) الحيوان ٧: ١٩٧.

وقال أبو الصلت، وهو أبو أمية بن أبي الصلت. وهو ثقفي طائفي جاهلي. ولثقيف يومئذ اللَّاتُ والغَبْغَبُ، وبيت له سَدَنة، يضاهئون بذلك قريشاً.

إنّ آياتِ ربِّنا بَيِّناتٌ ... لا يُماري بهنَّ إلا الكَفورُ

حَبَسَ الفيلَ بالمغمَّس حتَّى ... ظل يحبو كأنَّه مَعْقورُ

واضعاً حَلْقةَ الجِرَانِ كما قُطِّـ ... ـرَ صَخْرٌ مِنْ كَبْكَبٍ مَحْدورُ(١)

قال بعضهم لأبرهة الأشرم:

أين المفرُّ و الإلهُ الطالبْ ... والأشرمُ المغلوبُ غيرُ الغالب(٢)

وقال عبد المطلب، وهو على حراء:

لَا هُمَّ إنَّ المرءَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَه فامنَعْ رِحالَكْ(٣)

لا يَغْلبَنَّ صليبُهُمْ ... ومِحالُهُمْ أبداً مِحَالَكْ

إنْ كنتَ تاركَهم وقِبْـ ... ـلَتنَا فَأَمْرٌ ما بَدَا لَكْ(٤)

وقال نُفيل بن حبيب الخثعمي، وهو جاهلي، شهد الواقعة:

ألا رُدِّي جِمالَكِ يا رُدَينا ... نَعِمْنَاكم مع الإصباح عَينا

فإنَّكِ لو رأيتِ ولن تَريه ... إلى جنب المحصَّبِ ما رأينا

أكلُّ الناسِ يسأل عن نفيلٍ ... كأنَّ عليّ لِلْحُبْشان دَينا

---

(١) الحيوان ٧: ١٩٨. وابن هشام ١: ٥١.

(٢) الحيوان ٧: ١٩٨. والبيت لنفيل بن حبيب، انظر ابن هشام ١: ٤٤. وتفسير الطبري ٣٠: ١٩٦.

(٣) ويروى «حلالك» انظر الحيوان ٧: ١٩٨، والطبري ٣٠: ١٩٥.

(٤) الحيوان ٧: ١٩٨-١٩٩.

حمدتُ إذ عاينـتُ طيـراً وحَصْبَ حِجارةٍ تُلقَى علينا[1]

وقال المغيرة بن عبد الله المخزومي:

أنتَ حبستَ الفيلَ بالمغمَّسْ حَبَسْتَه كأَنَّهُ مُكَرْدَسْ

مُحتَبَسٌ تَزْهَقُ فيه الأنفُسْ[2]

فإنْ تأملتَ فيما مرَّ من كلام العرب وجدتَ الذين شهدوا الواقعة ذكروا الطير وحصب الحجارة معاً، لكنهم لم ينسبوا الحصب إليهم، بل نسبوه إلى حاصبٍ وسافٍ.

و«الحاصب» يستعمل للهواء والريح الشديدة التي ترمي بالحصباء، والسحاب الذي يرمي بالبرد و الثلج. ذكر الله عذاب قوم لوط، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ القمر: ٣٤. وقال المفسِّرون فيه: أي ريحاً تقلع الحصباء لقوتها. وفي حديث علي ﷺ قال للخوارج: «أصابكم حاصب». وقال أهل اللغة في تفسيره: أي عذاب من الله، وأصله: رُميتم بالحصباء من السماء[3].

ثم إنهم نسبوه إلى «سافٍ». ومحال أن يُحمَل هذا اللفظ على الطير، فإنّ «السافي» يستعمل للريح التي تذري الغبار والورق اليابس. وهذا الغبار أيضاً يسمى «سافياً» من السفي، وهو الخفة. والطير لا تحمل الغبار بالمنقار والأظفار، تذريه. فلا سبيل لإطلاق «السافي» على الطير.

---

(١) الحيوان ٧: ١٩٩. وفي سيرة ابن هشام: «وخِفتُ حجارةً».

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر لسان العرب (حصب).

ثم إنهم مصرِّحون بأنَّ أصحاب الفيل فرُّوا، وولَّوا سِراعاً، فلو نفذت الحجارة النازلة لهلكوا حيث كانوا. وأمر الريح في ذلك اليوم كان عجيباً، فكان حرّياً بالذكر. ولذلك ترى ذا الرمة ذكره وصوَّره، كما مرَّ في الفصل السابع.

وبالجملة فلا بد أنّ الله تعالى رماهم بالحصباء والغبار من السماء والهواء، كما رمى قوم لوط، فأصابت أجسامهم من كل جهة. وكان ذلك بتصريف ملائكة الله، وهذا هو المراد بجنود الله. وبذلك جاء الإشهاد في القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾، وأيضاً: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١﴾. كما بينا في تفسير سورة الذاريات.

فإن قيل: إنهم لم يذكروا أنّ الطير كانت تأكلهم، قلنا: قد جاء ذكر ذلك كنايةً وصراحةً في روايات عن ابن عباس وسعيد بن جبير ﷺ. وأما الشعراء فكثيراً ما يكتفون بالكناية عن التصريح، وبالإجمال عن التفصيل.

وقد ذكر بعضهم أنه رأي طيراً، ومعلوم عند العرب أن سباع الطير كانت تجتمع على مصارع القتلى. وربما استدلُّوا بذلك على وقوع القتل، كما استدلَّ عمرو بن أمية على قتل أصحاب الرجيع[1]. وإن شاعرهم ربما يصف جيشاً عظيماً، فيذكر أن الطير تصحبه لعلمها بكثرة القتلي؛ لما للحيوانات من الفراسات، ولكثرة ما جَرَّبْنَ.

قال النابغة يصف عمرو بن الحارث الغساني وقبيلته:

إذا ما غَزَوا بالجيش حَلَّقَ فوقهم   عصائبُ طَيرٍ تهتدى بعصائبِ
تراهنَّ خلفَ القوم خُزْراً عيونُها   جلوسَ الشيوخِ في ثيابِ المَرانِبِ

---

(١) قال ابن اسحاق: «فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: إن لهذه الطير لشأناً. فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم» ابن هشام ٢: ١٨٥.

جـوانــحَ قــد أيقــنَّ أنَّ قبيلَــه   إذا مـا التقـى الجمعـانِ أولُ غالـبِ[١]

وأخذ أبو نواس منه، فقال:

تتأيّا الطـيرُ غُدْوَتَـه   ثقةً بالشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ[٢]

ففي ذكر الطير مع جيشٍ غناءٌ عندهم عن ذكر أكلها إياهم. ومجيء هذا الصنف من الطير وأكلهم مما لا شك في وقوعه، فهو أولى بالمصير إليه. فإنه لا يخفى أنّ هذا الجيش الثقيل المدلهمَّ بحبشانه العظام وأفياله الضخام كان كقطعة ليل مظلم في بياض قيعان العرب. ولم تكن الطير الجوارح رأت مثل ذلك، فجَلَبَ العِقْبان والرَّخَم القشاعمَ من صحارى إفريقية، كما يدلُّ عليه ما روي من أنها خرجت من البحر[٣]، فاجتمعن عليهم محلّقةً فوقهم.

فإنْ قيل: فهذا أمر وقع حسب العادة، فلم يكن حريًّا بالذكر. قلنا: قد ذكر الله تعالى إهلاك قوم نوح ولوط وعاد وثمود بأسباب عادية. ولا شك أنَّ في ذلك لآيات على رحمته ونقمته.

وقد أكثر في القرآن من ذكر آياته في اختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح والسحب، وتقدير الشمس والقمر. ولا شك أنها أمور تجري حسب العادة. فكما ذكر هذه الأمور ذكر إهلاكه أصحاب الفيل، وأنّه جعله إياهم طُعْمَةً لطير أبابيل. وإنَّ في ذلك لآية ظاهرة، فإنه تعالى منع بلده المحرم وأهل البلد بما صبَّ على أعدائه من الحصباء والتراب، وطهَّر جوار مكة من جِيَف الصرعي بما أرسل عليهم من طير

(١) ديوان النابغة: ٤٢-٤٣.

(٢) ديوان أبي نواس: ٦٩.

(٣) انظر الطبري ٣٠: ١٩٢، وابن كثير ٤: ٥٥٥.

أبابيل تأكلهم.

ثم فيه آية عظيمة على مولد النبي الذي بشّرت به الكتب الأولى. وسنذكرها الآن.

(١١)

في أكل الطير أصحاب الفيل تصديق لبشارة عظيمة في نبينا ﷺ

مما يؤيد قولنا في أمر الطير ما جاء في مكاشفات يحيى عليه السلام، فإنه بعد ذكر عيسى عليه السلام وأتباعه جاء بذكر خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم، وما يقع بعده إلى يوم القيامة. وقال فيه: إن الله يُطعم طيور السماء[١]. وذكرنا في تفسير سورة الماعون أنَّ هاشماً سنَّ هذه السنة، وكان يسمَّى «مطعم طير السماء». فكان هذا من البشارات على قرب مولد نبينا ﷺ عند من كان قد علم بما ذكر يحيى عليه السلام في مكاشفاته. وذلك قوله (ص ١٩: ١١-١٩)[٢]:

«ثم رأيتُ السماءَ مفتوحةً وإذا فرسٌ أشهبُ والجالسُ عليه يُدعَى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكُم ويُحارب. وعيناه كلَهَبِ نارٍ وعلى رأسه تيجانٌ كثيرةٌ وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو. وهو متسربِل بثوب مغموس بدم (أي هو نبي الملحمة. وأيضاً كان ثوبه أحمر حين جاء لفتح مكة) ويدعي اسمُه كلمةَ الله (لعل ذلك زيادة من الناقلين ليجعل هذه الأمور لعيسى عليه السلام، وسائر الأمور أبعد شيء من أحواله، أو لعل الأرواح الطيبات تطلق عليها اسم كلمة الله). وجنودُ السماء كانوا

---

(١) انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٩: ١٧.

(٢) رؤيا يوحنا اللاهوتي.

يتبعونه على خيل بيض لابسين بَزًّا أبيضَ ونقيًّا (كما وقع في بدر). ومن فمه يخرج سيفٌ ماضٍ لكي يضرب به الأمم (أي القرآن الحكيم) وهو سيرعاهم بعصاً من حديد (في ذلك رحمة الرعاة وشدة العدل. والشدة على الكفار ومن استحق الغلظة من أهل الكتاب بعصيانهم، حسبما يفعل الله بالمجرمين ليرجعوا. وهو كما أخبر عنه موسى عليه السلام أنّ ذلك النبي ليغلظ على العصاة. وصورته خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) وهو يُدُوسُ مَعْصَرة خَمْر سَخَطِ وغضبِ الله القادر على كل شيء (كما تراه حين وقف على باب الكعبة خطيباً يوم الفتح، فقال في خطبته: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صَدَقَ وَعْدَه، ونَصَرَ عَبْدَه، وهَزَمَ الأحزاب وحده. ألا كلُّ مَأْثُرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سدانةَ البيت وسِقاية الحاج» وهكذا في خطبته بعرفة: «ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» (رواه مسلم) فداس تحت قدميه أمور الجاهلية. ولهذه العلامة شرح طويل، ليس هذا محله) وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب. (لعله: «رأس الخلفاء» و«سيد السادات» أو مشابهه) ورأيت مَلاكاً واحداً واقفاً في الشمس فصرخ بصوت عظيم قائلاً لجميع الطيور الطائرة في وسط السماء هلم اجتمعي إلى عشاء الإله العظيم لكي تأكلي لحوم ملوك ولحوم قواد ولحوم أقوياء ولحوم خيل والجالسين عليها ولحوم الكل حرًّا وعبداً صغيراً وكبيراً».

وبعد ذلك أمور تشبه بحالات النبي الهاشمي، وليس هذا محل ذكره. وإنما بدأت من أول هذه البشارة لكي يتضح مطابقتها لأحوال نبينا ﷺ.

فلما قدم النبي ﷺ هذه دارَ الدنيا وقربت ولادته دعا الله الطيور لعشائه العظيم. فإن قلت: ألا ترى أن هذه بشارة تقع في آخر الزمان؟ قلنا: بلى، ولكن الله تعالى قدَّم مثلها في إبَّان أمره لتطمئن بما هو الموعود من هلاك أعدائه حين جاؤوا على مدينته المحبوبة، ولتكون تنبيهاً لمن جحد لعله يرجع. وذلك حسب سنة الله في تنبيهه

عباده، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ السجدة: ٢١.

(١٢)

أسباب صارفة عن التأويل الراجح

لا يخفى أنَّ التفصيل الذي اشتهر من قصة أصحاب الفيل صار سدًّا عن التأويل الراجح. فبعد ما دللنا على خطأ ما اشتهر نذكر بعض أسباب هذه الشهرة، وأيضاً ما انضمَّ إليها من أمور أخر مما صرف عن التأويل الصحيح. فإنَّ لكل شيء سبباً، ولا بدَّ من ذكر هذه الأسباب، ليتضح وهنها، وهي ستة.

أما الأول، فإنهم ظنوا أنَّ الخطاب في السورة إلى النبي ﷺ، فلم يمكنهم تأويل كلمة: ﴿تَرْمِيهِم﴾ إلى الخطاب، فإن النبي ﷺ لم يكن يرميهم. ولكنَّا بينَّا في الفصل الثاني أن الخطاب هاهنا إلى أفراد أهل مكة. وكلمة ﴿تَرْمِيهِم﴾ حال عن المجرور في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أو جملة مستأنفة.

والمعنى على الحالية يكون: ألم تر أيها المخاطب كيف أرسل ربك عليهم طيراً أبابيل حال أنت ترميهم بالحجارة؟ وعلى الاستئناف يكون: كنت ترميهم بحجارة، فجعلهم الربُّ كعصف مأكول. والمآل واحد مع فرق لطيف بين الأسلوبين. فإن الحال تشير إلى إسراع الطير الخاطفة وسرعة هلاكهم برمي الحجارة. والاستئناف يدل على كبر الأثر، فإنّ حجارة من طين لا يتوقع منها صيرورتهم كعصف مأكول.

ولعل من لم يمارس كلام العرب يستبعد هذين التركيبين من جهة النحو. فنذكر ما سيقال على كلا التركيبين في ذكر السبب الثاني والثالث.

أما الثاني، فعسى أنّ يتوهم أن الحال إنما تبيِّن هيئة الفاعل أو المفعول، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إنما هو مجرور، لا فاعل ولا مفعول. فنقول: إنما مراد النحويين

أنّ الحال يبين هيئة الشيء عند حدوث أمر، والحدوث يعبَّر عنه بالفعل. فإذا وجدوا الحال عن غير الفاعل أو المفعول فزعوا إلى تقديرات شتى. وحقيقة الأمر أن مجيء الحال عن المجرور ذائع شائع، كما دل عليه القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ﴾ ق: ٤٤، فـ «سراعا» حال عن الضمير المجرور في «عنهم».

وقال امرؤ القيس يصف فرسه:

فلمّا أجنَّ الشمسَ عنّي غيارُها نزلتُ إليه قائماً بالحضيضِ[١]

وأيضاً:

كأنَّ سراتَه لدى البيتِ قائماً مَداكُ عَروسٍ أو صِلايةُ حنظلِ[٢]

وقال الأعشى:

وقيامي عليه غيرَ مُضِيعٍ قائماً بالغدوِّ والآصالِ[٣]

وقال لبيد:

باتتْ وأسبَلَ واكفٌ مِنْ دِيمةٍ يروي الخمائلَ دائماً تَسْجامُها[٤]

وقال نابغة بني جعدة:

تلألأَ كالشَّعرى العَبورِ توقَّدتْ وكانَ عماءً دونَها فتحسَّرا[٥]

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٧٤.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٢٦٦، وانظر شروح المعلقات.

(٣) وجمهرة أشعار العرب: ٣٤٢.

(٤) ديوان لبيد: ٢١٩، وجمهرة أشعار العرب: ٣٦٥، وانظر شروح المعلقات.

(٥) شعر النابغة الجعدي: ٤٢، وجمهرة أشعار العرب: ٧٧٩.

وأيضاً:

و نهنهتُه حتّى لبِستُ مُفَاضةً مضاعفةً كالنِّهْيِ رِيحَ وأُمطرا[١]

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وَلَيأتينَّ عليكَ يومٌ مَرَّةً يُبكَى عليكَ مقنَّعاً لا تَسْمَعُ[٢]

ولنكتف بهذا القدر، فإنه كثير جدًّا.

وأما الثالث، فعلى تأويل ﴿تَرْمِيهِم﴾ إلى الاستئناف عسى أن يتوهم أن مقتضى المعنى أن يؤتى بالماضي، و﴿تَرْمِيهِم﴾ مضارع. فنقول: نعم، ولكن ﴿تَرْمِيهِم﴾ أصله: كنت ترميهم. وحذف الأفعال الناقصة قبل المضارع أسلوب عام، وله مواقع لا يحسن فيها إلا الحذف، كما بينّاه في «كتاب الأساليب»[٣].

وأما هاهنا فنقتصر على بعض الأمثلة من القرآن وكلام العرب. قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ الحاقة: ٧. أي فلو كنت هناك أيها المخاطب لظللت ترى القوم الخ. وقال متمِّم بن نُويرة:

تقول ابنةُ العَمْريِّ: مالكَ بعدَما أراكَ قديماً ناعِمَ الوجْهِ أفرعا[٤]

أي بعد ما كنت أراك. وقال خِدَاش بن زهير بن ربيعة:

---

(١) شعر النابغة: ٤٦ و٧٨١.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٦٨٥.

(٣) وهو مطبوع.

(٤) جمهرة أشعار العرب: ٧٥٣.

قفارٌ وقد تَرعَى بها أمُّ رافعٍ   مذانبَها بين الأَسِلَّةِ والصَّخْرِ [١]

أي وقد كانت ترعى. وقال أعشى بكر بن وائل:

فلئن شطَّ بي المزارُ، لقد أُضْـ   ـحِي قليلَ الهموم، ناعمَ بالِ [٢]

أي لقد كنتُ أضحي. وقال القُطامي:

كانت منازلَ منَّا قد نَحُلُّ بها   حتى تغيَّرَ دهرٌ خائنٌ خَبِلُ [٣]

أي كنا نحلُّ بها. وقال الحطيئة:

تركتُ المياهَ من تميمٍ بلاقعاً   بها قد ترى منهم حُلولاً كراكرا [٤]

أي بها قد كنت ترى.

فتبين أنه لا إشكال في تأويلنا، سواء جعلت ﴿تَرْمِيهِم﴾ حالاً أو استئنافاً. ولا بأس باحتمال تركيبين عند اتحاد المعنى.

وأما الرابع، فإنّ رمي الطير الحجارة كان أعجب إلى النفوس وأبين خرقاً للعادة، فاشتهر بين الناس. فإنّ الجمهور يخرُّون على العجائب صُمًّا وعُمياناً، ويظنّون البحث عنها والأخذ بأوثق الروايات فيها خلاف التقوى. وقد علمت أن المعجزة لا تلزمها النكارة والندرة، بل الحمل على النظائر أولى. وقد علمنا أن موسى عليه السلام ذرا الرماد بيده، ومحمد عليه الصلاة والسلام رمى الحصباء إلى وجوه الكفار بيده؛ ومع

(١) المرجع السابق: ٥٢٤.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٣٢٥.

(٣) جمهرة أشعار العرب: ٨٠٥.

(٤) ديوان الحطيئة: ١٨٥.

ذلك كانتا آيتين عظيمتين. وقد بينّا أن الخوارق تنزل تحت حجاب.

وأما الخامس، فإن بعض الذين شاهدوا الواقعة ذكروا الطير والحجارة معاً، فتوهم بعض السامعين أن الطير هي التي رمت. ويمكن أيضاً أنَّ بعض الشاهدين أنفسهم لم يفهموا إلا أنَّ الطير رمتهم، فذكروا حسبما ظنوا. وعذرهم بيِّن، فإن رمي أهل مكة لم يكن جديراً بما رأوا من الآثار على الأعداء، فأيقنوا برمي من السماء. ولم يروا في السماء إلا طيراً أبابيل، فنسبوا هذا الرمي إليهن. ثم من سمع بهذه الرواية حمل الآية عليها. ولا شك أنَّ حمل ذلك على رمي من السماء في حجاب رمي العرب أولى، كما مر في الفصل الثامن.

أما السادس، فإن الوضاعين افتروا أخباراً كاذبة فيما جرى بين أبرهة وعبد المطلب. واعتمد عليها المفسرون مع غاية وهنها من جهة السند والدراية، كما مرَّ، لعدم مبالاتهم بالتنقيب في القصص. فلما ركز في قلوبهم أنّ أهل مكة فرُّوا عن حماية الكعبة إلى شعف الجبال متحرزين عن جيش أبرهة صار ذلك سدًّا عن حمل ﴿تَرْمِيهِم﴾ على الخطاب. ولم يبق لهم إلا أن يقولوا بأنّ فاعل ﴿تَرْمِيهِم﴾ هو الطير.

وأما السابع، فإنّ كلمة: ﴿تَرْمِيهِم﴾ متصلة بكلمة: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾، فتبادر إلى أفهامهم أن ضمير الفاعل راجع إلى الطير، وترك المتبادر إنما يقع بعد النظر والتأمل. وإنما يتجشمون التأمل إذا رأوا إشكالاً ظاهراً، وليس هاهنا إشكال ظاهر، فاشتهر هذا التأويل، مع بُعده بَعد النظر في الأمور والتأمل فيها. هذا، والله تعالى أعلم.

(١٣)

بيان معنى الرمي بالحجارة، وتمهيد للنظر في أصل رمي الجمار بمنى

اعلم أن الرمي بالحجارة والتراب في وجوه الأعداء هو إظهار اللعنة والدعاء عليهم. ولذلك حين رمى النبي ﷺ الأعداء بالحصباء، قال: «شاهت الوجوه»، كما يقال: «قبَّح الله وجهك» في موقع اللعن. وتقول العرب: «بينهم قِذِّيفَى»، أي سباب ورمي بالحجارة. ولذلك يسمَّى قذف المحصنات قذفاً. بل «اللعن» نفسه مأخوذ من «رمى الحجارة. فإنَّه في أصل معناه: الطرد[1]، كما ترمي الكلب بالحجر فتطرده.

وكانوا يظهرون اللعنة برمي الحجارة من قديم الزمان. فتجده في الإسرائيليين أيضاً، كما جاء في السفر الثاني لسموئيل (١٦: ٥-١٤): «ولما جاء الملك داود إلى بحوريم إذا برجل خارج من هناك من عشيرة بيت شاول (طالوت) اسمه شِمْعي بن جِيرا. يسُبُّ وهو يخرج ويرشق بالحجارة داودَ وجميع عبيد الملك داود وجميعَ الشعب وجميعَ الجبابرة عن يمينه وعن يساره. وهكذا كان شِمعي يقول في سبّه اخرج اخرج يا رجلَ الدماء ورجل بَلِيَّعال. قد ردَّ الربُّ عليك كلَّ دماء بيت شاول الذي ملكتَ عوضاً عنه وقد دفع الرب المملكة ليد أبشالُوم ابنك وها أنت واقعٌ بشرِّك لأنك رجل دماء. فقال أَبِيشَايُ بن صُرُويَةَ للملِك لماذا يسبُّ هذا الكلب الميت سيدي الملك دَعْني أعبر فأقطع رأسه. فقال الملك مالي ولكم يا بني صروية. دعوه يسبُّ لأنَّ الربَّ قال له سُبَّ داودَ ومن يقول لماذا تفعل هكذا. وقال داود لأبيشاي ولجميع عبيده هو ذا ابني الذي خرج من أحشائي يطلب نفسي فكَمْ بالحرى الآن بنياميني. دعوه يسُبُّ لأنّ

(١) انظر مجاز القرآن ١: ٤٦، وتفسير الطبري ٢: ٣٢٨، واللسان.

الربَّ قال له. لعل الربَّ ينظر إلى مذلتي ويكافئني الربُّ خيراً عوضَ مسبَّته بهذا اليوم. وإذ كان داود ورجاله يسيرون في الطريق كان شمعي يسير في جانب الجبل مقابله ويسبُّ وهو سائر ويرشق بالحجارة مقابله ويذري التراب. وجاء الملك وكل الشعب الذين معه وقد أعيَوا فاستراحوا هناك».

إنما الاستناد بأول هذا الكلام وآخره، وأوردته بأجمعه لفوائد. ويُشبه ذلك ما وقع بالنبي ﷺ وأصحابه من مِرْبَع بن قَيْظي الأعمى المنافق وهم مارُّون إلى أحد. فلما كانوا عند حائط له وسمع حسَّهم قام يحثو التراب في وجوههم. فابتدره القوم ليقتلوه. فنهاهم رسول الله ﷺ، وقال: لا تفعلوا، فهذا الأعمى البصر الأعمى القلب، ومضى[1].

ولذلك جعل الله الرجم أسوأ القتل، فجعلها لكبار الذنوب. ولذلك ترى في التوراة جعل الرجم للعقوق والغلول، ليضم اللعنة بالعذاب. ولذلك ترى قوم لوط عذَّبهم الله بمطر الحجارة.

فهكذا هاهنا عذَّب هؤلاء الظالمين برمي الحجارة ليدل على كونهم ملعونين. وإنما كبر هذا الإثم منهم، لأنهم بادعائهم النصرانية كانت حرمةُ هذا البيت واجبةً عليهم لكونه بناء إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ البقرة: ١١٤.

ولذلك رمى الله الكفار ببدر لمنعهم المسلمين عن الصلاة عند البيت. ومن هاهنا «الرجيم» جاء وصفاً للشيطان. فإنَّ الرجم هو الرمي بالحجارة، وإنما صار ذلك

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢: ٦٥.

وصفاً، لما أنه أكبر الملعونين، ولما طرده الله تعالى من الجنة لعصيانه وعتوه، فقال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ الحجر: ٣٤ - ٣٥. ففسر «الرجيم» بما وضعه بين الإخراج واللعنة.

ولما كان الشيطان رأس الملعونين تبادر إلى الأذهان أن رمي الجمار عند الوقوف بمنى هو على الشيطان، فنشأت قصة مكره بإبراهيم عليه السلام. والآن ننظر بتوفيق الله تعالى في أصل هذا الأمر.

(١٤)

أصل سنة رمي الجمار

قد دلّت الأمارات الكثيرة على أن رمي الجمار بمنى كان تذكرةً لرمي أصحاب الفيل. ولكن الروايات الضعيفة ضربت أسداداً دونه.

قال الزمخشري: «روي أنه (أي الكبش) هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي. وروي أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده»[١].

وروى ابن جرير أيضاً عن ابن عباس إفلات الكبش وأنَّ إبراهيم عليه السلام رماه بسبع حصيات إلى الجمرة الأولى، ثم إلى الوسطى، ثم إلى الكبرى[٢]. ومع ذلك روى ابن جرير عن علي رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام وجد الكبش مربوطاً بسمرة في ثبير[٣].

وهذا الذي رواه عن علي رضي الله عنه موافق لما جاء في التوراة: «فرفع إبراهيم عينيه

(١) الكشاف ٣: ٣٠٨.

(٢) انظر تفسير الطري ٢٣: ٥٦.

(٣) المرجع السابق ٢٣: ٥٥.

ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش»[١]. ولا شك أن هرب الكبش لا أصل له.

وروي أيضاً أن آدم عليه السلام رمى إبليس عند الجمرة.

هذا، ولم أجد في صحاح الأخبار ذكراً من سبب سنّة رمي الجمار. فلو ثبت فيه شيء من طريق الخبر لأخذنا به وقرَّت به العينان، ولكنه لم يثبت. وأمر الدين ليس بهيّن. وقال النبي ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدِّثَ بكلِّ ما سمِع»[٢].

فعمدنا إلى طريق الاستنباط، فإنَّ المستنبَط من الصحيح الثابت أولى بالصواب من الصريح الذي لم يثبت. وقد ندب الله تعالى كثيراً إلى التفكر وتوسُّم الدلائل، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ الحجر: ٧٥. فالآن نذكر وجوه استنباطنا، والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

الوجه الأول: أنَّ الحج ومناسكه كان أمراً قديماً، وبقي متصلاً من عهد إبراهيم عليه السلام، واقتدت به العرب كلهم. وكثر ذكره في كلامهم قبل الإسلام إجمالاً وتفصيلاً. فذكروا الإحرام، والاستلام، والطواف، وطير الحرم، وكون الصفا والمروة من شعائر الله، وسوق الهدي إلى منى، والنحر، وزيارة عرفة، والوقوف عند منى ثلاثاً. والشواهد على ما سردنا مذكورة في تفسير سورة آل عمران، فلا نعيدها. وإنما المقصود هاهنا أنا لا نجد في كلام العرب قبل الإسلام ذكر رمي الجمرات، فالأقرب أنه أمر جديد، ولم يكن إلا بعد واقعة الفيل. وأبقاه الإسلام، لما فيه تذكار نعمة عظيمة وآية بينة من الله تعالى، فجُعِلَ من الحجّ، وخُصَّ بالتكبير وذكر الله تعالى. وذلك هو

(١) سفر التكوين ٢٢: ١٣.

(٢) رواه مسلم في مقدمة الصحيح، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المقصود منه، كما روي عن عائشة رضي الله عنها[١].

الثاني: أنَّ أصحاب الفيل رُمُوا بموضع رمي الجمرات.

وبيان ذلك أن الجمرات ترمى في موضع من «المحصَّب». و«المحصَّب» من منى. في لسان العرب[٢]: «قال الأصمعي: المحصَّب: حيث يُرمى الجمار. وأنشد:

أقام ثلاثاً بالمحصَّبِ من مِنى ... ولمَّا يَبِنْ لِلنَّاعِجَاتِ طريقُ[٣]

وقال الراعي:

ألم تعلَمي يا ألأمَ النَّاسِ إنني ... بمكة معروفٌ وعند المحصَّبِ[٤]

يريد موضع الجمار».

ونجد هكذا في قول عمر بن أبي ربيعة:

نظرتُ إليها بالمحصَّب مِن منى ... ولي نظرٌ لولا التحرّج عارِمُ[٥]

وإنما سُمِّي الموضعُ محصَّباً، لكثرة الحصباء فيه. في لسان العرب[٦]: «حَصَّبَ

---

(١) أخرج الحاكم في صحيحه عن عائشة أنها قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه حين صلَّى الظهر، ثم رجع، فمكث بمنى ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس كلَّ جمرة بسبع حصيات يكبِّر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى وعند الثانية فيطيل القيام ويتضرع، ثم يرمي الثالثة ولا يقف عندها. (المؤلف).

(٢) لسان العرب (حصب).

(٣) البيت لحميد بن ثور الهلالي. انظر ديوانه: ١٦٨ (تحقيق محمد شفيق البيطار، الكويت).

(٤) ديوان الراعي: ١٦.

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٢٠٧ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد).

(٦) اللسان (حصب).

الموضع: ألقى فيه الحصى الصِّغارَ وفَرَشَه بالحصباء. وفي الحديث[١] أنَّ عمر ﷺ أمر بتحصيب المسجد.

وقد علمنا من غير شك أن أصحاب الفيل رموا بجنب المحصب. قال نُفيل، وقد شهد الواقعة:

ردينةُ لو رأيتِ ولَنْ تَرَيه　　　لدى جَنْبِ المحصَّبِ ما رأينا[٢]

في أبيات مرَّت في الفصل العاشر. فكان رمي أصحاب الفيل بقرب موضع رمي الجمار.

وقد ذكروا أنهم رُموا ببطن «محسِّر»[٣]. وقالوا: إنما سمي «محسِّرا» لما حَسَر فيه فيلُهم[٤]. و«محسِّر» بين المزدلفة ومنى[٥]. ويؤيد ذلك أمور. ففي الصحاح أن النبي ﷺ أفاض من المزدلفة وعليه السكينة، وأمَرَهم بالسكينة، ولكنه أوضع في وادي محسِّر (راجع صحيح الترمذي ومسلم وغيرهما)[٦]. وقالت العلماء في سبب ذلك أنَّ محسِّراً كان محل عذاب أصحاب الفيل[٧]. ويؤيد ذلك ما رواه الشافعي رحمه الله في

---

(١) النهاية في غريب الحديث (حصب).

(٢) ابن هشام ١: ٤٥.

(٣) قال ابن القيم: «هناك أصاب أصحاب الفيل ما قص الله علينا» زاد المعاد ١: ٢٢٨.

(٤) انظر زاد المعاد ١: ٢٢٨.

(٥) قال ابن القيم: «ومحسر برزخ بين منى وبين مزدلفة» زاد المعاد ١: ٢٢٨.

(٦) في الترمذي عن جابر: أن النبي ﷺ أوضع في وادي محسِّر. وزاد فيه بشر: «وأفاض من جمع وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة»، كتاب الحج باب ٥٥ رقم الحديث: ٨٨٦. «من جمع» أي من المزدلفة. انظر تحفة الأحوذي ٣: ٦٢٩. وجاء في مسلم.

(٧) انظر زاد المعاد ١: ٢٢٨.

كتاب الأم وغيره أنَّ عمر ﷺ كان يحرِّك في بطن محسِّر ويقول:

إليك تعدو قَلِقاً وضينُها مخالفاً دينَ النصارى دينُها[١]

فالمراد من هذا القول: يا رب إني أسعى إليك، كما يسعى العبد إلى سيده، وكانت السكينة أولى بي ـ كما علمنا في قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الجمعة: ٩ ـ ولكني الآن أوضعتُ ناقتي لأخرج سريعاً من هذا الوادي الذي أهلكت فيه النصارى إذ جاؤوا لكي يهدموا بيتك. فأشار إلى سببين لإيضاعه الناقة: الأول أن الخروج سريعاً من محل العذاب أولى بالتقوى. والثاني أن أصحاب الفيل حُبسوا في هذا المحل، ففي الإسراع مخالفتهم. وإنما نسب هذا الأمر إلى الناقة على طريق المجاز، كما هو ظاهر.

والإسراع في محسِّر سُنَّة مشهورة[٢]، ولذلك لا ينبغي الوقوف بمحسِّر. في الموطأ: «أنّ المزدلفة كلها موقف إلا بطن محسِّر»[٣].

وقال الشافعي رحمه الله: «لا يبيت أحد من الحاج إلا بمنى، ومنى ما بين العقبة، وليست العقبة من منى إلى بطن محسِّر، وليس بطن محسِّر من منى»[٤].

وفي صحيح مسلم: إن محسِّراً مِنْ مِنَى[٥].

(١)

(٢) كما جاء في زاد المعاد: «فلما أتى بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير. وهذا كانت عادته في الموضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه» ١: ٢٢٨.

(٣) الموطأ، باب الوقوف بعرفة والمزدلفة (٧٧٢).

(٤) كتاب الأم ٢: ٢٣٦.

(٥) كتاب الحج، باب استحباب إدامة الحاجة التلبية... (١٢٨٠).

وعلى كل حال فبطن محسر متصل بمنى.

ولما كان جيش أبرهة بمحسِّر، وكانوا يأتون إلى مكة، فلا بد أن تكون مقدمة هذا الجيش بالمحصَّب الذي يرمى فيه الجمرات. فإن صح ما ذكرنا فالأقرب أنّ الجمرات علامات لمقدمة جيش أبرهة، أو لفيلته التي رماها المدافعون عن مكة. فأنزل الله تعالى عليهم الحجارة من السماء.

الثالث: أنه من الثابت المتفق عليه أنَّ النحر تذكار لسنة قربان إبراهيم عليه السلام بابنه، فلو كان أصل الرمي، كما زعموا، رمي الشيطان لكان النحر في اليوم الثالث أو الرابع بعد الفراغ عن رمي الجمرات. ولكن النحر يقع في اليوم الأول من أيام الرمي. فلماذا يرجم الشيطان في اليوم الثاني والثالث، وقد طرده إبراهيم عليه السلام قبل ذلك، وقرَّب ابنه، واستراح من مكره؟

أما أصحاب الفيل فلما رُموا أول يوم وأصيبوا وحُبسوا عن التقدم رجع الحجاج إلى رحالهم ومواقفهم بمنى، وشكروا الله ونحروا وكبّروا. ثم لما لم ييئس أبرهة كلَّ اليأس، وتشجَّع، وأراد الخروج إلى مكة في اليوم الثاني = رمى الحجاج جيشه مرة أخرى. وهكذا في اليوم الثالث حتى فلّوا وولّوا بين هالك صريع وسالك سريع.

والرابع: أنه في اليوم الأول من أيام الرمي لا ترمى إلا الجمرة التي تلي العقبة، وهي أقرب الجمرات إلى مكة. ولا يتعرض في هذا اليوم للجمرتين: الدنيا والوسطى. وهذا أحسن مطابقةً لحال تقدُّم أصحاب الفيل إلى مكة في اليوم الأول، فإنهم لما أصيبوا في ذلك اليوم دخلهم الفشل، وتشجعت العرب فمنعوهم وراء المقام الأول.

والخامس: أن الجمرة التي تُرمى في اليوم الأول هي أكبرهن، وهذا أحسن مطابقةً لحال الجيش. فإنهم لما أصيبوا وضعفوا قلَّ عدد المتقدمين منهم. وأما الشيطان فهو الذي تراءى لإبراهيم عليه السلام في اليوم الأول، فبعيد أن تكون علامته متفاوتةً في

الحجم.

والسادس: أنّه بعد الرمي في اليوم الأول والثاني استقبال إلى الكعبة ووقوف ودعاء طويل، ولا وقوف بعد الرمي في اليوم الثالث[١]. فلو كان الرمي على الشيطان لم يكن هذا الاهتمام بالدعاء في اليومين وتركه في الثالث. فإنّ إبراهيم عليه السلام قد كان صمَّم العزمَ ولم ير في نفسه ضعفاً، ورميه الشيطان لو وقع لم يكن إلا استحقاراً به ولعناً عليه. وأما إذا جعلنا الرمي على جيش أبرهة فإنّه كان جيشاً عظيماً زهاء ستين ألفا، كما روي[٢]. فالتضرع إلى الله تعالى وطلب النصر منه على هذا الجيش أقرب إلى المعقول. وقد ذكروا أن عبد المطلب دعا الله تعالى للنصر على أصحاب الفيل، كما مرّ في الفصل العاشر. فعلى هذا نرى أنّ أصحاب الفيل لما هربوا، ومُزِّقوا كلَّ ممزَّق في اليوم الثالث أمسك أهل الحج عن الدعاء عليهم.

والسابع: ما يدل عليه كلمة «الجمرة»، فإنَّ العرب أبصر الأمم في تسميتهم الأشياء. ولذلك ذكروا في تسمية الجمرات وجوهاً. في شرح الزرقاني للموطأ تحت رمي الجمار:

«جمع جمرة وهي اسم لمجتمع الحصى. سميت بذلك لاجتماع الناس بها. يقال تجمَّر بنو فلان إذا اجتمعوا. وقيل: إن العرب تسمي الحصى الصغار جِماراً، فسمِّيت ذلك تسميةً للشيء بلازمه. وقيل: لأن آدم أو إبراهيم لما عرض له إبليس فحصبه جَمَرَ بين يديه أي أسرع، ذكره في الفتح. وقال الشهاب القرافي: الجمار اسم للحصى لا للمكان، والجمرة اسم للحصاة. وإنما سمي الموضع جمرةً باسم ما جاوره وهو اجتماع

---

(١) لا يشرع الوقوف عند جمرة العقبة في الأيام الثلاثة.

(٢) انظر قول عبد الله بن الزبعرى في سيرة ابن هشام ١: ٤٩.

الحصى فيه»[١].

فالوجه الذي ذكره أولاً هو أقرب إلى الصواب، ولذلك قدَّمه. في لسان العرب[٢]: «الجَمْرة: القبيلة لا تنضمُّ إلى أحد. وقيل: هي القبيلة تقاتل جماعة قبائل فيكون فيها ثلاث مئة فارس أو نحوها. والجَمْرة ألف فارس».

أيضاً فيه: «الجمرة: اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل. ومن هذا قيل لمواضع الجمار التي تُرمى بمنى: جمرات، لأنّ كل مجمع حصىً منها جمرة. وهي ثلاث جمرات. وقال عمرو بن بحر: يقال لعَبْسٍ، وضَبَّةَ، ونُمَير «الجمرات». وأنشد لأبي حية النميري:

لنا جَمَراتٌ ليس في الأرض مثلُها ... كرامٌ وقد جُرِّبنَ كُلَّ التجاربِ
نُمَيرٌ وعَبْسٌ يُتَّقى نَفَيانُها ... وضَبَّةُ قومٌ بأسُهم غيرُ كاذبِ»

وفيه أيضاً: «في حديث عمر: لأُلْحِقَنَّ كلَّ قوم بجَمْرتهم، أي بجماعتهم التي هم منها. وأجمروا على الأمر وتجمَّروا: تجمَّعوا عليه وانضمُّوا».

فهذه الأقوال مع بعض الاختلاف فيها تدل على أنّ الجمرة اسم لجماعة مستقلّة لم تنضمَّ إلى أحد من القبائل لاعتمادها على قوتها وبأسها. فعلى هذا نقول: إن جيش أبرهة كانت أولى بهذا الاسم، فإنها جاءت مخالفةً لجميع العرب ولم تنضمَّ إلى أحد من القبائل. والجمرات عند منى لما كانت علامةً لهم سُمِّيت بذلك الاسم.

والثامن: أنهم يذكرون أنّ أبا رغال الذي صار دليلاً لأصحاب الفيل كان رُمِيَ في هذه الواقعة وهلك، فكانت العرب ترجم قبره. في معجم البلدان في ذكر

---

(١) شرح الزرقاني ٢: ٤٩٠ (طبعة دار الكتب العلمية، ١٤١١).

(٢) انظر كلمة (جمر).

المغمس: «موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال، وقبرُه يُرجَم لأنه كان دليل صاحب الفيل، فمات هناك»[1]. وقيل غير ذلك في سبب رجم قبره.

فإن صح ما ذكروا فهذا نظير لرجم أصحاب الفيل، وحمل الأمور على النظائر أولى. وإنما تُرِكَ رجمُ قبر أبي رغال لأنَّ الإسلام ترفَّع عن رجم القبور، ولأن رمي الجمرات يكفي تذكاراً لتلك الواقعة. ذلك، والله تعالى أعلم.

(١٥)

أثر هذا التأويل في القلوب عند عمل رمي الجمار

إن صح ما ذكرنا من أصل سُنَّة رمي الجمار ـ سواء كان الرميُ من الطير أو من العرب ـ بعد أن كان على أصحاب الفيل أعداءِ مكة والمركز الإبراهيمي منبع التوحيد والدين الحنيفي ـ فلا بدّ أن تكون نيتنا عند أداء هذا المنسك وعند الدعاء بعد الرمي غيرَ ما هي تكون إذا توهمنا أنّا نرجم الشيطان الذي رماه إبراهيم عليه السلام أو الكبش الذي ذُبح فدية لإسماعيل عليه السلام. والآن نذكر الفرق بينهما ببعض التفصيل.

(ألف) الذي يرى في رميه أنه يرمي الشيطان لا يُحِسُّ بداعية قويّة خاصة. فإنه يعلم أنه إنما يرمي بحصياته حجراً، ولا يرجو بذلك أنه ينجو به عن مكر الشيطان ويُبعده عن نفسه لمدة، أو أن ذلك أشدُّ تأثيراً من تلاوة المعوذتين أو حوقلته أو التأذين، فلا يجد عند ذلك موقعاً خاصًا، ولا في نفسه عاطفةً قويةً كسائر ما يجد عند مشاعر الحج. وأبعد منه ما يروون من إفلات الكبش، وأن هذا الرمي تذكار لرمي ذلك الكبش، فهذا في غاية السخافة مع كذبه، كما بيّنّاه في أول هذا الفصل.

---

(١) معجم البلدان ٥: ١٦١.

وأما إذا علم أنه يتذكر برميه هذا نصرةَ الله التي خصّها لأهل هذا البيت، وأنه تعالى ضلَّلَ كيدهم وبَدَّدَ جمعهم فإنه يتذكر أمراً عظيماً، ويجمع همته، ويرى أن الله تعالى قادر أن ينصرهم على أعدائهم ـ مع ضعف السبب والعدة ـ بجنوده الخاصة، فيزدادون توكلاً على ربهم واعتصاماً بفضله ورجاءً لرحمته. ويرون أنفسهم مجاهدين في سبيله مقاتلين لا بالسلاح، بل بمحض الهمة وقولهم: «الله أكبر» على قذف كل حصاة.

(ب) ثم إنهم إذا قاموا للدعاء بعد الرمي لم يخرجوا عن تلك الحال، بل دعوا الله دعاء المجاهدين، وتجتمع هِمَمُ جميعهم على أمر واحد. والدعاء إذا كان من جماعة عظيمة على أمر واحد توجه إليه عناية الرب تعالى، كما ترى في صلاة الجماعة وصلاة الاستسقاء. وكان هذا الدعاء تضرعاً إلى الله فيخرجون به من الذين يتكلون على محض جمع الهمة على أمر ما، كأصحاب السحر وعبدة الأوثان. فيكون هذا الدعاء إتماماً وتصحيحاً للنية التي رَمَوا بها الجمار.

(ج) تذكرة تهدي إلى كون الحج كله من الجهاد

ذبح البهيمة علامة ذبح النفس، والأضحية فدية، وحقيقة الجهاد هي ذبح النفس وإنقاذها من النار. ثم هذه رحلة الحجاج، وحلولهم ليلاً، ووقوفهم نهاراً، وصلاتهم صلاةَ المستعجل = كلُّ ذلك أشبه شيء بتمرين عسكري. ومن حجَّ يتيقن أنّ هذا لا يصلح إلا تحت قائد عسكري. كأنَّ حالة الحجاج في هذه المنازل تنادي جهاراً إلى ضرورة نظم عسكري.

وهذا كما ترى موسى عليه السلام أخرج بني إسرائيل، فكان ارتحالهم وقيامهم على قواعد عسكرية. وترى هناك موسى عليه السلام كالقائد العظيم الذي يجلس أحياناً لفصل الخصومات، وأحياناً يقود العسكر على نظام، ويحلّهم على نظام.

فإذا صحح المسلمون نياتهم للجهاد، وكابدوا مشقة هذا التمرين، فكأنهم أشهدوا على تهيُّئهم لذلك إذا دُعُوا إليه. وأين في نية رمي الشيطان هذه الحكمة؟

فإن قلت: إنّ هذا رأي مبتدع، لم نسمع ولم يخطر ببالنا أنّ الحج له أدنى مناسبة بالجهاد، بل هو التعبد المحض والبعد عن الحرب، ولذلك أُمِروا بقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ البقرة: ١٩٧، وإنما هو لذكر الله والطواف لبيته. قلنا: إن كشف هذا يستدعي فصولاً مستقلّةً في بيان حقيقة الحج، وله موضع أولى به من هذا.

هذا آخرُ ما تيسَّر لنا ذكرُه في تفسير هذه السورة. والحمد لله رب العالمين، والسلام على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

(١)

عمود السورة وربطها بما قبلها وبما بعدها

قد مرَّ في تفسير السورة السابقة أنها نزلت في ذكر الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة، لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكها وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والمواساة بالمساكين، فباؤوا بالويل واللعنة، وحُقَّ لهم أن يَسلُبهم اللهُ هذا الخيرَ ويعطيه من استحقَّه حسب سنته، كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ محمد: ٣٨. وكان الله تعالى ينزع ولاية الكعبة عن الخائنين. فبهذه السورة بشَّر الله تعالى نبيَّه بأنه اصطفاه وأمّته لولاية بيتِه المحرَّم، ومسكنِ خليله وذريته التي يبارك بها الأمم، كما جاء في التوراة. ولذلك سمّى الله تعالى هذا البيت: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ آل عمران: ٩٦.

ولا شك أنَّ هذا العطاء هو الفوز الأكبر والخير الكوثر. وهو الضَّمانُ للحوض الكوثر الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة. فموضع هذه السورة بالتي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النقمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلَفين بعد المهلكين. وذلك أسلوب عامّ في القرآن.

ذلك، ولما كانت السورة التالية في إعلان الهجرة من جوار بيته حَسُنَ في نظم الكلام تقديمُ سورة التبشير والتسلية، ليدلَّ القرآنُ بنظمه على أنَّ الله تعالى قَضَى باليُسْر قبل العسرة وإن كان وقوعه بعدَها. فترى أنّ إعلان الهجرة الذي تضمنته سورة الكافرون وُضِعَ بين سورتي التبشير، أعني سورة الكوثر، وسورة النصر.

ثم لما كانت هذه السورة بشارةً للنبي بكثرة أحِبّائه، وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة جاءت سورةُ الكافرون بياناً لأصل هذه المقاطعة، وهو التوحيد الذي بُني عليه هذا بيت الله الواحد.

فهذا إجمال القول في عمود السورة وربطها. وأما الاطمئنان بما ذكرنا فيُرجَى من تفصيل يتبعه.

(٢)
تفسير كلمة «كوثر» وتأويلها

اعلم أنّ تأويل هذه السورة مخبوء تحت كلمة «كوثر». فالأولى أن نبحث أولاً عن معناها. وقد اختلف فيه أقوال السلف رحمهم الله، فلا بدَّ من بسط الكلام حتى يتبين القول الراجح والتأويل الواضح. والله تعالى هو الموفِّق للسداد.

لا يخفى أن «الكوثر» مبالغة الكثير. فهو ذو كثرة عظيمة وبركة وثروة. فإنَّ الكُثْر هو الثروة. وقد سمَّوا به الرجال، كما سمَّوهم بكَثِير وكُثَيِّر. وترى استعماله على طريق الصفة في قول لبيد:

وصاحبِ مَلْحُوبٍ فُجِعْنا بموته ... وعندَ الرِّداعِ بيتُ آخرَ كَوثَرِ[1]

وفي قول أمية بن أبي عائذ الهذلي:

يحامي الحقيقَ إذا ما احتَدَمْـ ... ـنَ حَمْحَمَ في كَوثرٍ كالجِلالِ[2]

فاستعمل الصفة بتقدير الموصوف، أي في غبارٍ كوثرٍ. وقد جعلوا منه فعلاً،

(١) ديوان لبيد: ٥٢.

(٢) شرح أشعار الهذليين: ٥٠٤.

كما قال حَسّان بن نُشْبَة:

أبوا أن يُبيحوا جارَهم لِعدوِّهم وقد ثار نَقْعُ الموتِ حتى تكوثَرا[1]

فالكوثر هاهنا من جهة اللسان محتمل لثلاثة وجوه من التأويل:

الأول: أنه منقول إلى الاسمية، فصار مختصّاً بشيءٍ سمّاه الله تعالى بالكوثر.

والثاني: أنه صفة قُدِّر موصوفها، فصار له بعض التخصيص، كقولهم «مُرْدٌ على جُرْدٍ»[2] أي رجال مُرْدٌ على خيلٍ جُرْدٍ. وكقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ أي الرياح الذاريات، و: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ القمر: ١٣، أي فلك ذات ألواح ودسر. وهذا كثير في القرآن وكلام العرب، ولكنه لا يوجد إلا إذا كانت الصفة خاصّةً بالموصوف، فيفهم من ذكر مجرد الصفة، أو دلّت على الموصوف قرينة أخرى.

والثالث: أنه وصف باق على عموم معناه كأسماء الصنف التي تقع على القليل والكثير، ولا تختص. وحينئذ يكون من جوامع الكلم، ويحتمل كل ما كان فيه خير كثير، ويُحمل حسب القرائن على بعض الأفراد.

واعلم أن أصل ما نتمسك به في تأويل «الكوثر» هو نظم السورة، وموقع آياتها، ورباط معانيها، وحسن تأويلها، كما يتبين لك من النظر في الفصول التي بعد الفصل السابع. وأما ذكر الوجوه الأخر، وتطبيق الروايات، فلرفع الشكوك عمن قل اعتناؤه بمحاسن النظم ومعاني التأويل. وبعد ذكر هذا التمهيد نذكر أقوال السلف في تأويل «الكوثر».

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقي: ٣٣٨.

(٢) ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى من قصيدة له في الأصمعيات: ١٢٩:

ومُـرْدٍ على جُرْدٍ شهدتُ طِرادَها قُبيلَ طلوع الشمس أو حينَ ذرَّتِ

(٣)

أقوال السلف في تأويل الكوثر

ذكر ابن جرير رحمه الله في تأويل «الكوثر» ثلاثة أقوال:

الأول أنه نهر في الجنة. وروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وابن عباس، وابن عمر، وأنس رضي الله عنهم أجمعين، وعن مجاهد، وأبي العالية رحمهم الله.

والثاني أنه الخير الكثير. وروى ذلك عن ابن عباس ﷺ، وعن سعيد بن جبير، وعكرمه، و قتادة، ومجاهد رحمهم الله.

والثالث أنه حوض في الجنة. وروى ذلك عن عطاء رحمه الله[١].

ولا أرى فرقاً بين القول الأول والثالث، وسمي بالحوض في الموقف، وبالنهر في الجنة[٢]، فإنّ ذلك الحوض من ذلك النهر الجاري.

ثم روى عن عكرمة، الذي قال إنه الخير الكثر، أيضاً أنه النبوة. وفي رواية أنه القرآن، وأنه الحكمة، وأنه الإسلام[٣].

واختار ابن جرير رحمه الله بعد ذكر هذه الروايات أنه اسم نهر في الجنة معتمداً على روايات عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ، ولم يتجشم للتطبيق بين هذه الأقوال، مع أن القائل بالقول الثاني هو القائل بالقول الأول. وكذلك منهم من قال بالقول الثاني ثم قال: تارةً إنه القرآن والحكمة، وتارة: إنه الإسلام والنبوة.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) انظر الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢١٠، وابن كثير ٤: ٥٦٠-٥٦٢.

(٣) الطبري ٣٠: ٢٠٨.

ثم يعلم من الروايات أنهم كانوا يعلمون أنّ الكوثر نهر في الجنة، وقد أخبر به النبي الكريم ﷺ، وعرَّفه لهم، فكيف يختلفون بعد العلم؟ لاسيما هذا حبر الأمة وترجمان القرآن، وتلميذه عكرمة. فلا بدّ من التأمل في كلامهم ليتخلص لنا لباب الحق خالياً عن التعسُّف.

(٤)

مآخذ أقوالهم وأنّ مرجعها إلى أمر جامع

اعلم أنّ من أراد من الكوثر هاهنا نهراً في الجنة أو حوضاً في الموقف فقد جعله اسماً منقولاً عن الوصفية، واعتمد فيه على ما أخبر النبي ﷺ عن الكوثر الذي يعطيه الله في الآخرة.

ومن أراد أنه «الخير الكثير» إما بتقدير الموصوف، وهو «الخير»، فإن الموقع موقع ذكر النعمة، وإما بجعل الصفة نفسها خيراً كثيراً، ومآلهما واحد= فالظاهر أنه تمسك بوجوه:

الأول: أنه لو كان منقولاً إلى الاسمية لجاءت نكرةً مثل «سلسبيل» و«تسنيم» و«عليين» و«سجين» و«غسلين» ولعرفه القرآن، لكونه عربياً مبيناً، والتسمية وضع جديد. فاستعمال الكوثر بلام التعريف، مع أنه اسم لشيء لم يعرفوه، يُخرج القرآن عن العربي المبين. فلا يحتمل التسمية على طريق النص، ولكن يراد منه شيء فيه الخير الكثير على سبيل التأويل.

والثاني: أنه من عادة القرآن ذكر عطايا الآخرة بصيغة المستقبل أو بما يدل عليه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ الضحى: ٥ و﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ الإسراء: ٧٩.

والثالث: أن إبقاء اللفظ على عمومه يجعله أوسع وأجمع، والقرآن أُنزل جَمّ

المعاني. ثم «الكوثر» نفسه يقتضي الوسعة، فالاقتصار لا يوافقه.

ثم اعلم أنّ من أراد أنه الخير الكثير لم ينكر الخبر الذي جاء في كوثر الآخرة. إنما جعلوه عامّاً وسيعاً. ثم بعد ذلك حملوه على نهر الجنة من عطايا الآخرة، ومن العطايا الموجودة الآن على القرآن والحكمة والنبوة والإسلام على سبيل التفصيل، لا على جهة التسمية والتعيين. فذكروا أكمل الأفراد مع إبقاء اللفظ على عمومه.

ومن عادتهم التفسير بالقرآن، فحملوا الكوثر على القرآن لما وصفه الله بالمبارك، وعلى الحكمة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩ ولا فرق بينهما فإن القرآن جامع للحكم، وعلى النبوة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ الأنبياء: ١٠٧. وهكذا الإسلام. بل الإسلام يشمل الخلق كله، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ آل عمران: ٨٣. فهذه الأقوال كلها مأخوذة ومستنبطة من القرآن، ومآلها إلى أمر واحد، وإن اختلفت الألفاظ.

وأما ما ذكر الإمام الرازي رحمه الله من كثرة الأولاد، والعلماء، والأتباع، والفضائل، ورفعة الذكر، والخلق الحسن، والمقام المحمود، وهذه السورة، وجميع نعم الله[1]؛ وهذا الآخر نقله عن ابن عباس ﷺ= فبعضها يرجع إلى ما قدمنا، وبعضها لا يناسب لفظ الكوثر، ومع ذلك كلها داخل تحت عموم اللفظ. ولكن تفسير السلف أقوم وأوضح استنباطاً.

والمقصود مما ذكرنا أنّ هاهنا مذهبين فحسب، لا مذاهب كثيرة كما يظهر بادي الرأي. وهو أن الكوثر إما هو شيء خاصّ بعينه من حوض أو نهر أو حكمة أو

(١) انظر التفسير الكبير ٣٢: ١٢٣-١٢٨.

قرآن وأمثال ذلك، أو هو عامّ يشمل كل ما كان ذا خير كثير.

ومعتمد القائل بالتعيين أنّ النبي ﷺ سمّاه بهذا الاسم[١]. ومعتمد القائل بأنه يشمل النهر وغيره تطبيق خبر النبي بالقرآن، فأوّلوا القرآن حسب مقتضى عبارته، ثم أوّلوا ما جاءهم عن النبي بما لا يخالفه. فهذا جمع بين التأويلين، فإنه لا تباين بين العام والخاص.

وكذلك جمع سعيد بن جبير بين قولي ابن عباس ﷺ، كما روى ابن جرير قال: «حدثنا أبو كريب قال ثنا عمر بن عبيد عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر نهر في الجنة حافَتاه من ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدرّ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل»[٢].

وروى أيضاً ـ وهكذا في صحيح البخاري[٣] ـ قال: «حدثني يعقوب قال ثني هشيم قال أخبرنا أبو بِشْر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بِشْر، فقلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة. قال فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه»[٤]. فهذا توفيق بين القولين توفيق الخاص بالعام.

ثم إن أمكن التوفيق التام بين القرآن والحديث بأن يقال إن الكوثر الذي

---

(١) كما في حديث عائشة الذي أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٤٩٦٥) وحديث أنس الذي أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٦٤) وغيره، ومسلم في كتاب الصلاة (٤٠٠).

(٢) تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧.

(٣) في كتاب التفسير (٤٩٦٦) والرقاق (٦٥٧٨).

(٤) المرجع السابق ٣٠: ٢٠٨.

أعطاه رسولَه في الدنيا هي التي في الحقيقة حوض في الموقف ونهر في الجنة كان ذلك أحسن توفيقاً، وقد وجدناه أيضاً أحسن تأويلاً. ونذكره في الفصول الآتية بعونه تعالى.

(٥)

اللوامع الدالة على أنّ الكوثر هو الكعبة وما حولها

قد ظهر مما سبق أنّ السلف رحمهم الله لم يختلفوا في كوثر الآخرة. ولكن حملوا اللفظ على العموم، وراعوا صيغة الماضي. فذكروا ما يدخل في مدلول هذا الاسم، ليكون اللفظ عامًّا وسيعاً كوثراً في دلالته.

ولذلك ساغ للمتأخرين من المفسرين التماس أمور أخر غير ما روي عن السلف. فلو كان القول فيه بدعةً وضلالةً لسكتوا، ولسكت السلف ولم يختلفوا.

فإن التمست قولاً يجعل الكوثرين واحداً لم أرني مخالفاً للسلف، كما أني لا أراهم مخالفين بعضهم لبعض، بيدَ أنهم جعلوا الكوثر عامًّا، فحملوه على حوض أو نهر في الجنة، وعلى غيره مما فيه الخير العظيم من القرآن والحكمة والإسلام والنبوة، من غير رعاية مناسَبةٍ بالحوض أو النهر.

وأما أنا فأحمله على ما هو أشبه شيء بحوض أو نهر وصفه النبي ﷺ، وكُشِفَ له في ليلة المعراج. فإن الله تعالى أراه فيه حقائق أمور أخر وروحانيتها من الأمور التي في الدنيا، فكذلك أراه روحانية الكوثر الذي أعطاه في الدنيا.

وكان النبي ﷺ ربما يصرِّح بما يُكشَف له، كما قال في أمر سورتي البقرة وآل

عمران أنهما تاتيان كغمامتين[١]، وأنّ الدنيا تأتي كعجوز شمطاء[٢]، وأن الموت يأتي في صورة كبش[٣].

وربما يكتفي بالإشارة لكي يتفكروا ويستنبطوا، فيكون تعليماً وتربيةً لعقولهم. فإن لم يبلغنا التصريح منه عليه الصلاة بأنّ الكعبة تكون يوم القيامة حوضاً كوثراً فقد دلّنا بإشارات، وقد رَغّبنا في التفكُّر والتوسُّم.

والآن نذكر ما كشف لنا من اللوامع الدالّة على ما ذكرنا.

الأولى: أن النفوس لها شوق إلى الربّ، ولا تطمئنّ ببعدها عنه. وهذه الفطرة منشأ الديانات في الناس، حتى لا تخلو عنها أمة. وما يعبِّر عن هذا الشوق الروحاني غير «العطش». وكثر في الزبور هذا التمثيل. فإن صح ذلك فالموحدون عند الحج لأشبهُ شيء بالعطاش المجتمعين عند حوض بعد مقاساة الظمأ الشديد. فالكعبة لهم في الدنيا هي كالحوض الكوثر الذي يرِدونه في المحشر.

والثانية: أن النبي ﷺ شبّه مساجدنا بالنهر، كما روى البخاري في صحيحه قال ﷺ: «أ رأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلِّ يوم خمساً»[٤]. فهذا تمثيل من جهة أخرى للماء. فإنَّ الماء كما أنه رواء فكذلك هو طَهور. ولا شك أنّ مورد صلواتنا هذا البيت الذي بمكة، فكأنّ له جداول في كلّ مكان يصلُّون فيه.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي والنواس بن سمعان الكلابي.

(٢) انظر: كنز العمال ٣:٧٢٤ برقم (٨٥٧٩) عن كتاب الزهد لأبي سعيد ابن الأعرابي من حديث ابن عباس.

(٣) من حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٣٠)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٤٩).

(٤) من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب فضل الصلاة لوقتها (٥٢٨)، ومسلم في المساجد باب المشي إلى الصلاة (٦٦٧).

والثالثة: أنه كما تستعلن كثرة هذه الأمة على الأمم عند الكعبة فكذلك تكون عند الحوض. ولا شيء أدلُّ على كثرة هذه الأمة من اجتماعهم في موضع واحد. وإن هذا الاجتماع لأدلُّ على كثرتهم لعلم الناس بأنّ هذه الجماعة إنما هي قطرة من بحر أمته الممتدِّ على بسيط الأرض. فكما تتضح زيادة هذه الأمة على أمم النبيين الآخرين في القيامة عند اجتماعهم على الحوض، فكذلك ترى كثرتهم حول الكعبة في الموسم. فاسم «الكوثر» أظهر مطابقة بهما.

والرابعة: أنّ النبي ﷺ أخبر أنه يعرف أمته على الحوض بآثار الوضوء[1]. ففيه إشارة إلى أن الذين يردون هذا البيتَ بقلوبهم هم الذين يردون في الآخرة ذلك الحوضَ الذي هو حقيقة هذا البيت.

والخامسة: أنّ الله تعالى قد جعل استخلاصَ الكعبة ينبوعاً للكثرة. فدخلوا في دين الله أفواجاً بعد الحجّ الأكبر.

والسادسة: أنّ الله تعالى سمّى مسجد مكة مباركاً، حيث قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ آل عمران: ٩٦ وجعل الله لهذا البيت من البركة ما عمَّ فيضُه جميعَ العرب بل جميعَ العالم، كما وعد إبراهيم عليه السلام. فظهرت بركتُه في إسماعيل عليه السلام أكثرَ من بركة إسحاق عليه السلام، كما مرّ في تفسير سورة الفيل.

ولا يخفى أنّ كلَّ هذه البركات من هذا البيت، ومن الصلاة والنحر.

وأما تسميةُ القرآن بالمبارك، فمن جهة كونه كالمطر النازل من السماء، فسماه

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قالوا: يا رسول الله أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم، لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون عليَّ غُرّاً محجّلين». رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (٢٤٧). ونحوه في حديث حذيفة (٢٤٨).

«مباركاً» كما سمّى المطر «مباركاً». فكما أنّ المطر يحيي الأرض، فكذلك القرآنُ يُحيي القلوبَ. فتسمية القرآن بالمبارك لا تجد فيها ما تُشبِّهه بالحوض. والبلاغة تنكر هذا التشبيه لعلو مكانة القرآن وسعته التي لا نهاية لها.

والسابعة: أنَّ هذه السورة نزلت يوم صلح الحديبية الذي فتح بابَ الوصول إلى بيت الله والحج والصلاة والنحر وظهور الإسلام وكثرته، حتى سمّاه الله تعالى «فتحا مبيناً». ونتكلم على زمان نزولها في الفصل الرابع عشر ببعض البسط إن شاء الله تعالى.

والثامنة: أنّ النبي ﷺ أخبر عن موضع طرف من ذلك الحوض، فأشار إلى الباقي، كما روى البخاري في صحيحه[1]: قال عليه السلام: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

فيستنبط من ذلك أنّ هذه الأرض المباركة التي يتردد فيها الحجاج هي التي تصير حوضَه الكوثر الذي أخبر عنه، ومنبعه الكعبة.

وإلى هذا أرى إشارةً في قوله عليه السلام، كما روى البخاري في صحيحه[2] - وهي **التاسعة** -، أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلّى على أحدٍ صلاتَه على الميِّت، ثم انصرف إلى المنبر (أي منبره في المسجد فقام خطيباً) فقال: «إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإنّي أُعطيتُ مفاتيحَ خزائن الأرض أو مفاتيحَ الأرض، وإنّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تَنَافَسُوا فيها».

---

(١) في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر (١١٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (١٣٤٤).

«الفَرَط»: من يتقدم القوم إلى الماء ليهيئ لهم الأرسان والدلاء، ويملأ لهم الحوض. و«شهيد عليكم»: أي يعرفهم ويشهد على كونهم من أمته، فيكون ذلك شفاعةً لهم.

هذا بيان ما يقع في الآخرة. ثم أشار إلى أن ظاهر ذلك الحوض بين يديه، فإنّ منبره على حوضه، كما مرّ آنفاً. وما ذكر من إعطاء مفاتيح الأرض فذلك ما أنجزه الله تعالى، فإن فتح مكة كان مفتاحاً لفتح الأرض وخزائنها.

والعاشرة: أنه ﷺ أخبر أن طول حوضه ما بين مكة والمدينة. فأشار إشارة لطيفة إلى المطابقة التي بين أرض الحرم وحوضه.

فإن قيل: فهلا ذكَرَ ما أراد بالتصريح؟ قلنا: إنما اختار هذا الاسم لكثرة دلالته، وليتفكروا. فدلّ على كثرةِ الأمة، وفتحِ مكة، وكثرةِ اجتماعهم في الحج، وفي الموقف على حوضه.

وإنما ذكرنا هذه الأمارات تمهيداً وتأييداً لما دلّ عليه نظمُ الآيات، كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى.

هذا، ثم التّدبّر في هيئة الحوض الكوثر يدلّنا على ما ذكرنا من كون الكوثر الأخروي صورةً روحانيةً للكعبة وما حولها. ونذكر ذلك في الفصل الآتي.

(٦)

النهر الكوثر صورة لروحانية الكعبة وما حولها من متردِّد الحُجَّاج

من تأمَّلَ في صفة النهر الكوثر الذي كُشِفَ للنبي ﷺ حين عُرِج به يجده مثالاً روحانياً للكعبة وما حولها. وذلك لما روي من طرق كثيرة من أن الكوثر نهر، على حافته قِبابُ الدُّرِّ المجوَّف. وأرضه يا قوت ومرجان وزبرجد. وفيه آنية مثل نجوم السماء. وماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج، وتربته أطيب من المسك، ترده طيورٌ أعناقُها كأعناق الجُزُر. قال رجل: إنها لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: «آكِلُها أنعَمُ منها. وخريرُ مائه مثل ما يسمع أحدكم إذا أدخل إصبعه أذنيه»[١].

وحصل لنا هذا الوصف بجمع الروايات. ولفظ البخاري[٢]: قال: «بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهرٍ حافتاه قِبابُ الدّرِّ المجوّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربُّك. قال: فضرب الملَك بيده، فإذا طيبه أو طينه مِسْكٌ أذفر».

فقِفْ هاهنا وتأمّل الكعبة وما حولها حين يرِدُ عليها الموحّدون من أقطار الأرض يطفئون غليل شوقهم إلى ربهم. أليست حصباءُ بطحائها عند حسِّهم الروحاني أكرمَ وأبهى من الياقوت والزبرجد، وترابها أطيب من المسك، وقباب الحجاج حولها أحسن من الدّرّ؟

ثم تأمّل مع ورودِ الحجاج ورودَ البُدْن كالطيور على الماء، وذلك أسعد حال

---

(١) انظر تفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧-٢١٠، وتفسير ابن كثير ٤: ٥٦٠-٥٦٢.

(٢) من حديث أنس ﷺ في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٥٨١).

لهن، فإنهن يُقرِّبن إلى الله نيابةً عن الإنسان، فكأنهن من الإنسان، فما أعظم فوزهن!

ثم تأمّل آكليهن ضيوفَ الله الناعمين المبتهجين.

وتأمّل كيف أشار بتشبيه الطيور الوارداتِ بالبُدْن، وذكّر آكليها إلى أنّ البُدْنَ هي الطيور. وكيف جعل الإشارة لطيفةً! فشبّه أعناق الطيور بأعناق البُدْن، ليدل الجزء على الكل. وكيف جانب لفظ «البُدْن» وذكر «الجُزْر»!

وكلّ ذلك ليحثَّ العقول السليمة على الاستنباط. كما يذكر الله الدلائل في القرآن ويتبعها بمثل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: ٤، والنحل: ١٢، والروم: ٢٤ و﴿يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ٩٧، والأعراف: ٣٢، والتوبة: ١١، ويونس: ٥، والنمل: ٥٢، وفصلت: ٣، و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يونس: ٢٤، والرعد: ٣، والنحل: ١١، ٦٩، والروم: ٢١والزمر: ٤٢، والجاثية: ١٣.

والنبي أحسن المعلمين، فكان يربّي العقولَ ويعلّمهم الحكمة. وكان ربما يسأل أصحابه عن مناسبات الأمور، كما سأل عن مثل المؤمن في الأشجار[(١)].

وكذلك كان عيسى عليه السلام يضرب لهم الأمثال، فسألوه: لم لا يُصَرِّح القولَ فأجابهم: حتى لا يفهمها إلا العقلاء؟ وهكذا في القرآن: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العنكبوت: ٤٣.

وجملة الكلام أنّ للإشارات محلًّا وحكمةً في التعليم والتربية. ذلك.

(١) انظر حديث ابن عمر رضي الله عنه في صحيح البخاري: كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا... (٦١)، ومسلم في صفات المنافقين، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

(٧)

نظير ذلك ما جاء من روحانية أورشليم

ويشبه ذلك ما جاء في مكاشفات يوحنّا (٢١: ١٠-٢١): «وذهب بي الروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلةً من السماء من عند الله. لها مجدُ الله (أي عليها نور من الله) ولمعانُها شِبْهُ أكرَمِ حجرٍ كحجَر يَشْبٍ بَلُّوري (ثم ذكر سورها ومسافتها وأبوابها وسُكّانها من أسباط إسرائيل ثم قال:) وكان بناء سورها مِن يَشْبٍ والمدينةُ ذَهَبٌ نقيٌّ شِبه زُجاجٍ نقيٍّ. وأساساتُ سور المدينة مزيّنةٌ بكل حجر كريم. الأساس الأول يَشْب. الثاني ياقوت أزرق. الثالث عقيق أبيض. الرابع زمرَّد ذُبابي. الخامس جَزَعٌ عقيقي. السادس عقيق أحمر. السابع زَبَرْجَد. الثامن زمرد سِلْقِيّ. التاسع يا قوت أصفر. العاشر عقيق أخضر. الحادي عشر أسمانجوني. الثاني عشر جَمَشْتٌ. والاثنا عشر باباً اثنتا عشرة لؤلؤةً. كل واحد من الأبواب كان من لؤلؤة واحدة. وسوقُ المدينة ذهَبٌ نقيٌّ كزجاج شفّاف». ثم ذكر أنه ليس فيها هيكل، ويعبدون الله وحده.

ولا آمن بعض التحريف والزيادة فيما نقلوا. وإنما المقصود أنّ المثال الروحاني لما في الدنيا من الأعيان والأعراض أمر معروف معلوم.

وهذا الوصف الذي ذكره يوحنّا يكشف ما تحسُّه الباصرة فقط. وما جاء في وصف روحانية الكعبة فقد جمع أوصافاً لكلّ حاسّة حتى السمع، بما ذكر من خرير مائها. وخرير الماء من البعيد لأشهى وأحلى للعطشان. ثم الماء الحلو البارد أقرب تأديةً لما يطفئ شوقَ الموحدين المخلصين العطاش الجياع لله. وعنهم أخبر المسيح

عليه السلام بقوله: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنهم يشبعون»[1].

(٨)

تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾

بعد ما فهمنا دلالة كلمة «الكوثر» اتضح لنا معنى الآية الأولى، وهو أنها إخبار عما أعطاه الله تعالى من البركة وكثرة الأمة. وأخبر به حين دنا إنجازُه في الدنيا، لكي يبشِّر النبيَّ ﷺ ثم المسلمين بظهور الإسلام وانتشاره في البلاد، وبفتح مكة. أي: أعطاك الله أمةً عظيمةً من المصلّين المنفقين يحجّون بيت الله الحرام، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ أي المصلّين ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ أي يأتوا لزيارة البيت من القرب رجالاً، ومن البعد تضمر له الركاب، ومن أقطار الأرض. فيدخلوا مكة من كل فجّ، ولكثرة السالكين تصير الفجاج عميقةً. ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي تصير هذه البلدة مثابةً لهم، فينتفعون بالتجارة، ويخالط بعضهم بعضاً آمنين، فيصلح بالهم، ويصلوا أرحامهم. وكانت سُنَّة الخطيب في العرفات أن يحثَّهم على الصلح وصلة الرحم. ولذلك سموا مكة «صلاح» و«أم الرحم». فما أكبر نفع ذلك في معاشهم! ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهذه منفعة دينية. فمع شركهم لم يتركوا ربّهم. وإنما اتخذوا إليه شفعاء ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ الحج: ٢٦-٢٨.

فبيّن أنّ هذا البيت جُعِلَ مركزاً للتوحيد، والصلاة، وإطعام الفقراء لأمة

---

(١) إنجيل متى ٥: ٦.

كثيرة يحجّونه من جميع البلاد. وقد كان إبراهيم عليه السلام دعا الله أن يبعث نبيّاً لهذه الأمة الكثيرة، وقد استجاب الله دعوته. وقد وعده الله تعالى كثرةً في ذريته، لا سيّما في ذريته من إسماعيل، كما جاء في التوراة[1]. واعترف بذلك أهل الكتاب.

وقد ذكر الله تعالى هذا العطاءَ في أوائل بعثة نبينا حيث أخبره في سورة الضحى بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ الضحى: ٥ فهذا الوعد الذي ذكر اقترابه جعله مقضيّاً بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ﴾، وفسّر معنى: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ بكلمة ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾. فإن النبي ﷺ لغاية رأفته، وحرصه على الهداية لا يرضى بالقليل، أو بأن يعطيه الكثير في الدنيا فيدخلون في دين الله أفواجا، ثم يسلبه إياهم في الآخرة حتى يقلُّوا على حوضه. فأزاح كلَّ شبهة بكلمة ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾. وقد كثرت الأحاديث الصحاح بكثرة أمته.

فهذه الآية الأولى بشارة عظيمة من وجوه: من قُرْبِ الفتح، وقُرْبِ دخولِ الناس الكثيرين في أمته، وبقاءِ جماعةٍ كثيرةٍ منهم على الدين الحق، على رغم من يزعمُ بِردَّة أكثر هذه الأمة.

ذلك، و تأتيك بشائر جمَّة عن قريب إن شاء الله تعالى، فإنّ السورة كلّها بشارات. ولله الحمد في الآخرة والأولى.

(١) انظر سفر التكوين ٢١: ١٨.

(٩)

تأويل قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾
وبيان ربطه بما قبله

هذه الآية تدل على أربعة أمور:

الأول: أنّ الصلاة والنحر لهما ربط بهذا العطاء، لما صدر الأمر بالفاء.

والثاني: أنّ في الآية أمراً وإيجاباً بهما عموماً على سبيل الانفراد، وخصوصاً بجمعهما، وذلك في الحج.

والثالث: أنّ بين الصلاة والنحر ربطاً خاصاً.

والرابع: اختصاصنا بهذه العطية، والأمر بالصلاة والنحر معاً. ويهدي ذلك إلى أننا على سنة إبراهيم ﷺ، دون المشركين ومبتدعي اليهود والنصارى، لأنّ المشركين لم تكن صلاتهم ونحرهم للربِّ خالصاً، ومبتدعة اليهود لم يكن لهم غير القرابين. وأن قرابينهم لا تسمّى نحراً، فإنّ النحر مخصوص بالإبل وهو حرام عليهم. ومبتدعة النصارى ليس لهم قربان أصلاً، والصلاة غير واجبة عليهم بزعمهم.

فهذه جملة الكلام. ولابد لها من بعض التفصيل.ونأتي به في عدّة فصول. أما الأمر الأول والثاني، فتجدهما في هذا الفصل، وسيأتيك الباقيان فيما بعد.

فاعلم أنّ الله تعالى بعد ما بشّر النبي ﷺ والمسلمين بهذه العطية عقّبَ البشارةَ أمرين: الصلاة والنحر. والتعقيب يدلُّ على نسبة وربط بين السابق والتالي، أي العطية والأمر. فلما تدبّرنا فيما دلّ عليه نظمُ الكلام ظَهَرَ لنا بعضُ وجوه الربط بتوفيق الله تعالى. فنذكرها، والحمد لله تعالى.

الأول: أنّ هذا الأمر يتضمن بيان مقصد هذا العطاء. فإنّ هذا العطاء كان

لمقصد عظيم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الحج: ٤١، وكما حكى الله تعالى عن إبراهيم الطَّيْلاً: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إبراهيم: ٣٧ أي يأتون إليهم يحجّون بيتك.

فعلمنا أنّ هجرة إبراهيم الطَّيْلاً وسكناه في واد قفر وأرض عاقر لم تكن إلا لإقامة مركزٍ لعبادة الله الواحد، يتوجّهون نحوه، ويأتون إليه من البعد، ويطوفون ويسعَون، ويقدّمون إليه الهدايا، كالعبيد يسعون على باب مولاهم الذي دعاهم فأسرعوا إليه قائلين: «لبيك لبيك لا شريك لك لبيك». ثم يسمعون بما أمر الربُّ ونهى عنه على لسان إمامهم. ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ ﴾ الحج: ٢٧ أي يأتوا إليك لاستماع الحكمة. فإن الله تعالى جعله إماماً للناس، كما جعل ذلك البلدَ مثابةً وبركةً وهدىً لهم. فكان يَقْريهم ويقوم فيهم خطيباً. وهكذا قرى النبيُّ ﷺ عشيرَته حين قام ببعثته ودعاهم إلى الربّ. وقد استمرت سنّةُ الخطبة بعد إبراهيم الطَّيْلاً مع سائر سنن الحجّ، كما مرّ في تفسير سورة البلد.

ثم يُطعمون الناس بما ساقوا من الهدايا، ويأكلون منها، شاكرين بأن تَقَبَّلَ الربُّ هدايا عبيده، ثم أعطاهم ما قرّبوا إليه.

فقد تبين أنّ هذا البيت إنما وُضع لمقاصد عظيمة، بها أعطاهم التمكينَ في الأرض، وأنّ معظمها الصلاة والنحر، فذكرهما بعد ذكر إعطائه، ليعلموا أن هذا العطاء له حق وغاية، ليقوموا بحقه، ويُتمُّوا ما لأجله أُعطُوه. وذلك مبني على وجوب إيفاء الحقوق، فإنّ لكل عطاء حقًّا لابد أن نوفي به، كما قال تعالى: ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ الأنعام: ١٦٥. وأيضاً: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ القصص: ٧٧.

وأيضاً: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ الأنعام: ١٤١.

الثاني: أنه تعالى عقّب ذكرَ العطية ذكرَ ما به بقاؤها. فأمر بالصلاة والنحر أمراً عامًّا، فإنّ هذه العطية كانت للنبي وأمته عامة. فإنّ النبي وكيل أمته، فما أعطاه أعطى أمته، ولذلك قال ﷺ: «أنا فرط لكم على الحوض»[1]، كما مرّ. فكذلك الأمر بالصلاة والنحر عامٌّ، وهو ظاهر. فلما ربط عبادةً بعطية عَلِمنا أنّ الامتثالَ به يضمن بقاء نعمته. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١. وهذا الذي أمَرَنا به هو الحجُّ ومناسكه، كما هو ظاهر. فكأنه تعالى قال: إنا أعطيناك الكوثر، فأدِّ حقَّه، فيبقى لك هذا العطاء.

وسواء أخذت الصلاة والنحر بمجموعهما أو بانفرادهما كان المراد هو الحج. فإن الحج من الصلاة لما جاء في الحديث، ولما دل عليه أعمال الحج. وقد علمنا أنّ مقصد البيت الصلاة، ولذلك بني، كما مرّ. فمن لم يحُجَّ وقد أمكنه لم يُتِمَّ مقصدَه. وكذلك النحر، فإنّ من ضَحّى في غير الحج ترك أعظم الأضاحي. والذي يضحِّي في غير الحج فإنما هو متشبِّه بالحجاج، وهو يريد وينتظر أن يجد سبيلاً، فيحقّق ما يريد. فبأيِّ وجه أخذتَ دلّت الآيةُ على أنّ الحجَّ يلزم الأمة. فمن استغنى عنه أخرج نفسه عنهم.

وهذا يتضح من النظر في حقيقة الحج. وقد صرّح بذلك القرآن والسنّة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ آل عمران: ٩٧. فذلك تصريح بكفر من استغنى عن الحجّ وأنّ الله تعالى لا

---

(١) يشير إلى حديث البخاري، وقد مرّ تخريجه.

يبالي به[١].

والثالث: أنه يتضمّن تسلية النبي والمسلمين. كأنه قيل له: إنهم أخرجوك ومنعوك عن الصلاة والنحر، فالآنَ بعد ما أعطيناك الكوثر لا مانع لك، فافعلهما بفراغ بالك، وبقدر شوقك بإكثار النحر، وبجماعة عظيمة حتى يتحقق معنى الكوثر. وقد علمنا شوق النبي ﷺ والمسلمين إلى الحجّ والصلاة والنسك. والأمرُ بعملٍ مرغوبٍ ـ مع كونه أمراً ـ يتضمّن التبشير، والتسلية، وإظهار الرأفة.

والرابع: أنه بيان عهدنا بالله تعالى. جعل الأمر بالصلاة والنحر مرتّباً على عطيته، فإذا قبلنا العطية أوجبنا على أنفسنا ما أُمِرنا به، ومتى ما بقينا على طاعة أمره بقي لنا ما أعطانا. فصار أخذ العطية عهداً بالله، كما أعطى الله آدمَ وحواء عليهما السلام المسكنَ في الجنة ليأكلا منها رغداً، ولا يقربا شجرةً خاصّةً عرَّفَها لهما، فلما أخذا العطية وجب عليهما عهد الله. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ طه: ١١٥. وكذلك بقي لهما ما أعطاهما الله ما بقيا على عهده.

وكذلك نرى في قصة إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ البقرة: ١٢٤.

فبعد ما امتثل إبراهيم عليه السلام بأوامر ربه تعالى جعل له ربه عهداً. وهذا العهد يبقى لذريته ما داموا قائمين به. وأما الظالمون فيحرمونه.

---

(١) وقد صحّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ليمت يهوديًا أو نصرانيًا رجل مات ولم يحج». انظر: السنن الكبرى للبيهقي حديث رقم (٨٤٤٤).

والخامس: أنه بيان عهد التوحيد. وقد صرّح القرآن بذلك العهد، وصرّح بأدلّته كثيراً. وجماعها: كونه ربًّا منعِماً، وقد أخذنا عطاياه من الخلق، وحسن التقويم، والرزق الطيب. وهذا عامٌّ.

وهاهنا ذكَر نعمةً عظيمةً خاصّةً. فذكَرَ ما أوجبت هذه النعمةُ علينا من التوحيد في صورة خاصّة تناسب العطية الخاصّة. فإنّ الله تعالى هو الذي أعطانا هذا البيت، فلابد أن تكون الصلاة والنحر له.

وفي ذلك أيضا تعريض على الخائنين الظالمين. وهذا يظهر من النظر في كلمة: ﴿إِنَّآ﴾ و﴿لِرَبِّكَ﴾. أي إنا الذين أعطيناك، فلابد لك أن تصلي وتنحر مخلصاً لي خلاف ما فعل المشركون. وصرّح بهذا المفهوم في سورة الحج مراراً، فلا حاجة إلى إيراده هاهنا.

وهكذا فسّرَ الآيةَ محمد بن كعب القرظي، حيث قال: «إن ناساً كانوا يصلّون لغير الله وينحرون لغير الله، فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكن صلاتُك ونحرُك إلّا لي»[١].

(١٠)

وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر

اعلم أنّ للصلاة والنحر وجوهاً كثيرةً دلّنا القرآنُ عليها كلِّها. ولا حاجة إلى استقصائها هاهنا، وتجدها في «كتاب المفردات»[٢] و إنما نذكر الآن منها ما يدلُّ على المناسبة بينهما.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠: ٢١١.

(٢) يعني تأليفه: «مفردات القرآن»، وهو مطبوع عن مسودته الناقصة. وليس فيها هذا المبحث.

وهذه الوجوه وإن لم يصرِّح بها القرآن، فإنّها لا تخفى على من تدبّر في آياته ونظم كلماته. وإنّه بعد ذلك لا يستطيع دفعَها عن قلبه. وكيف يصرف نفسه عن التأمل في آياته من أيقن بحسن نظامه، وقرع سمعَه قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد: ٢٤.

والمقصود أنّ مجردَ ربط الصلاة بالنحر يحثُّنا إلى التدبر في وجوه المناسبة بينهما. وذلك يُطلِعنا على حقائق عظيمة. ونحن ذاكرون هذه الوجوه لا لمجرد بيان حسن النظم، بل أيضاً للكشف عن تلك الحقائق العظيمة، حتى يتضح بعد النظر فيها أنّ **السور القصار بُنِيَت على معظمات الأمور. فلئن صَغُرن من جهة اللفظ، فإنّها لكِبارٌ من جهة المعنى.**

والآن نشرع بعون الله تعالى في ذكر وجوه المناسبة بين الصلاة والنحر.

فالوجه الأول: أنّ المناسبة بينهما تشبه المناسبة التي بين الإيمان والإسلام. وبيان ذلك يقتضي تمهيداً. فاعلم أنّ الدين مبنيّ على صحّة العلم والعمل. فالعلم أن نعرف ربنا ونسبتنا إليه، ولا نذهل عن هذا العلم. ويلزمه حالة قلبية من المحبة والشكر، وتفيض إلى الأعمال. فالعمل متصل بالعلم اتصالَ الأثر بالمؤثر، والظاهر بالباطن. فالعلم من باب الإيمان، والعمل من باب الإسلام.

ثم اعلم أنّ العمل كما يقابل العلم، فكذلك يقابل القول. فالقول وسط بينهما، وهو أول ظهور الإرادة وتحقيق العمل.

وبعد هذا التمهيد انظر إلى ربط الصلاة والنحر.

أما **الصلاة**، فلا يخفى أنها قول وإقرار. وجميع أوضاعها من القيام والقعود، و الركوع والسجود، ورفع اليدين والإصبع = أقوالٌ بلسان الأوضاع. فهي أول خطوة بعد الإيمان، وبها يُفتح باب الأعمال. ولذلك قُدِّمت على جميع الشرائع، كما دلّت عليه

آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ البقرة: ٣. وبسطناه في تفسير سورة الفاتحة.

وقد بيّن الله ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام حيث ذكر أنه لمّا عرف ربّه بالتوحيد قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ الأنعام: ٧٩. والصلاة تحقيق هذا التوجه، ألا ترى أنك تفتح صلاتك بهذا القول؟

وكذلك ترى في قصة موسى عليه السلام، كيف أمره الله تعالى بعد ما أعطاه معرفةَ التوحيد، حيث جاء: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ طه: ١١ - ١٤.

ومثل ذلك قال تعالى بعد إبطال الشرك: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ الروم: ٣٠ - ٣١.

فالصلاة فطرة المخلوقات كلها. ولذلك قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الإسراء: ٤٤. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ النور: ٤١.

فالصلاة من جميع الأعمال أمسُّ بالإيمان، وأوّلُ فيضٍ منه. وكلُّها جماع التوحيد والإنابة والشكر والتوكّل والتبتّل إلى الربّ. وإنها فطرة لجميع الخلق.

وأما **النحر**، فهو جماع معنى الإسلام. فإنّ الإسلام هو الطاعة، وإذعانُ النفس لربها، وتسليمُ كلِّيّتها لمولاها. وهو أيضاً فطرة العباد كالصلاة، فإنّ المخلوق لم

يُخلَق إلا بإذعانه لأمر ربه. أمَره بـ«كُن»، فكان، واستجاب لدعوته في بدء خلقته. فإنْ عصى بعد ذلك ناقَضَ فطرته.

فالإسلام من هذه الجهة أحاط بجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ آل عمران: ٨٣. أي استجبتم دعوتَه في أولِ خلقكم، وكذلك تستجيبونها في الآخرة، فتُحشرون إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الروم: ٢٥. وقال تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ الإسراء: ٥٢. فالإسلام للربّ، والتسبيح والسجدة والصلاة له = كلاهما فطرة، وفي غاية الاتصال.

وإذ جعل الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام إمامَنا، ومسجدَه قبلَتنا، وهديَه سنّتَنا = دلّنا على حقيقة النحر أيضا بقصته، كما دلّنا بها على حقيقة الصلاة. فذكر تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ أي إني مهاجر إلى ربي سيهديني صراطه ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي ذريةً صالحةً لنسلُكَ بهم، فتبين للناس سنن الهدى ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي إسماعيل. وإنما سمي إسماعيل - أي سمع الله - لما أنه كان جواباً لدعوته ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ أي أذبحك لله ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ إنما سأله لكي يُشرِكَه في الطاعة. فإنّ مقصود إبراهيم عليه السلام كان ضربَ طريقٍ وإقامةَ سنَّةٍ. وقد علم من إجابة دعوته أنه يكون عاقلاً، فأمِنَ مخالفته ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ففهم إسماعيل عليه السلام من قول أبيه أنه لم يكن ليذبحه إلا بأمر، وأجاب جواب المتوكلين ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أي لما حقّقا بذلك كمالَ إسلامهما. أما الوالدُ فلأنه أسلم ما كان أحبَّ إليه من نفسه، وأما الولدُ فلم يكن له إلا نفسه ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ فبلغا بذلك درجة الإحسان، وهو كمال الإسلام، وصارا بهذا البلاء إمامَين تأتَمُّ الهُداةُ بهما ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ

﴿١٠٧﴾ الصافات: ١٠٧ أي فدينا الغلام بذبح عظيم، وهو إقامة سُنَّة التضحية ومغفرة المضحِّين بها.

فبيّن الله لنا بهذه القصة أنّ الإسلام أصله الطاعة، وتسليمُ أحبِّ ما عنده للمولى حتى النفس. ولا يكون ذلك إلا بتمام الإيمان والإخلاص، وكمالُهما الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه. فتبيّن مما قدّمنا أنّ ربط النحر بالصلاة كربط الإسلام بالإيمان، أو كربط القول بالعمل، وأنّ الإحسان يجمعهما.

والوجه الثاني: أن النسبة بين الصلاة والنحر كالنسبة بين الحياة والموت. وبيان ذلك أنّ الصلاة سرُّها ذكرُ الربّ، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ طه: ١٤. أيضاً: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ الأعلى: ١٥، وهذا كثير.

والمطلوب دوام الذكر، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ آل عمران: ١٩١. أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ الأحزاب: ٤١ - ٤٣. أي كما أنتم تذكرون الله وتسبحونه، فكذلك هو يصلّي عليكم وملائكته. وبذلك يزيد نوركم، كما قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة: ١٥٢ أيضاً: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ فصلت: ٣٨.

ولهذا السّرّ ملأ ساعاتنا بالصلاة، ولم يرخِّص عنها في حالة. فظهر أنّ الصلاة كالتنفّس لابدّ منها. فبذكر الربّ تبقى الحياة المعبّر عنها بالنور والسكينة والإيمان.

وذلك ظاهر عقلاً، فإنّ توجُّه الربِّ ونظر رأفته إلى العباد بعد ما أعطاهم العقل والتمييز لا يكون إلا بأن يتوجَّهوا إليه. فإنه يزيد النعم بالشكر واستعمالِ ما أعطى، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ محمد: ١٧.

والتوجُّه إليه يكون بذكر اسمه، فيتقرّبون إليه بهذا السبيل، فإنه لا معنى للقرب والبعد منه تعالى إلا ذكره والغفلة عنه أعاذنا الله منها. فإذا ذكروا ربهم اقتربوا منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ العلق: ١٩. فحينئذ توجّه إليهم نظرُ رحمته، وأشرق عليهم نورُ قدسه. والروح إنما يشرب وينصبغ بالذكر والفكر، فبدوام انغماسه في ذكر ربه تنزل عليه حياة وقوة منه. وعن ذلك أخبرنا النبي ﷺ كما روى البخاري: «ما يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحببته. فإذا أحببته كنت سمعَه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش»(١).

وما هذا إلا بيان الحياة الروحانية التي هي الحياة الحقيقية العليا. فعلمنا أن الصلاة هي عين الحياة وسُلَّم النجاة من هذه الحياة السفلى.

وأما **النحر**، فحقيقتها تسليم النفس لربّها، كما دلّت عليه قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وجعل التضحية تذكاراً لتلك القصة والبلاء المبين الذي ابتلى به الربُّ خليلَه. والمؤمنون يحقّقون ذلك التسليم بإهراقِ مُهَجِهم في سبيل الله. فكما أن الصلاة حياتنا بالربِّ فكذلك النحر موتنا له. وذلك هو الدين والإسلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ الأنعام: ١٦١ - ١٦٢.

«النُّسُك» في هذه الآية هو الذبح في الحج والعمرة باتفاق المفسِّرين. وكذلك هو في لغة العرب. فبما ضمَّ الصلاةَ بالنسك، وأتبعَهما بالحياة والموت، دلَّ بنظم الكلام على سرِّهما. والنسبة بينهما على أسلوب التواطؤ، فالصلاة هي المحيا للمسلم، ونسكه

---

(١) انظر كتاب الرقاق، رقم الحديث: ٦٥٠٢.

هو مماته في سبيل ربه. ثم هما متحدان، فإنّ هذا الموت هو باب الحياة. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ البقرة: ١٥٤.

الوجه الثالث: أنّ الصلاة والنحر جانبان للنحر الحقيقي. وبيان ذلك أن الله تعالى لما خلق الإنسانَ ذا عقل وإرادة حاكماً بالحسن والقبح رَفَعَه أعلى درجة، ومع ذلك أقامه على شفا حفرة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ التين: ٤ - ٦. وأيضاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ الشمس: ٧ - ١٠.

وذلك لأن العبد إذا قطع النظر عن منعمه واستغنى عن ربّه حُجِبَ عن نوره، وراقه الباطلُ المزخرَف، واتبع مراد نفسه، وصار الهوى إلهه. كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي بعد أن أعطاه العقل والسمع والبصر، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ الإنسان: ٢ - ٣ أي إن لم يستعمل ما أعطاه الربُّ كان كفوراً ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الجاثية: ٢٣ أي بعد أن أعرض عن ربه أطاع نفسه فصرفته إلى شهواتها وصارت حجاباً على قلبه، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي كما حُجبوا عنه في الدنيا فكذلك يُحجَبون عنه في الآخرة. والعبد يرجع إلى ما صمّم إليه. فإذا تعبدوا للنفس صارت هي مولاهم، فيرجعون إلى حقيقتها، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ المطففين: ١٤-١٦.

فلما كان الإنسان على هذه الحالة لزمه أن يكسر هذا الصنم. ولما كان هوى النفس ذا جهتين: سبعية وبهيمية، لزمَنا أن نكسر كلا جناحيها. فهدانا لإهانتها

بذبحين: ذبح السبعية وذبح البهيمية.

أما الأول فبالخشوع لله والتذلل بين يديه. وجِماعُه الصلاة، فإنَّ بها يُقمَع رأسُ الكِبْر، لأنّ الخشوع من أعظم جهات الصلاة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ المؤمنون: ١ - ٢.

وأيضاً: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ الأعراف: ٢٠٥ - ٢٠٦.

وأيضاً: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ۝٦٤﴾ الفرقان: ٦٣ - ٦٤.

انظر كيف قدّم ذكر التواضع على صلاتهم، فإن الصلاة تزكية النفس عن كبرها. ولا يخفى أن من كان دائم الذكر لربه وكبريائه ورحمته غشيه التواضع والرحمة.

ومثل هذا النظم ترى في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ الفتح: ٢٩. وإنما بدأ بذكر صفة الشدّة هاهنا لإبطال الرهبانية، فإنّ المحبَّ لربّه كما يعظِّمه ويكبره، فكذلك يكون حبُّه لذلك الأمر، فلا يبالي بمن خالفه، ويجاهر به على رغم المعاندين. فلم يقدِّم الشدَّةَ إلا لدفع توهُّم، فإن الآية في صفة قوم على غاية الاعتدال، وكانت هذه الآية في خصائصهم حسبما جاء في التوراة والإنجيل، فقدّم ما يمتازون به عن أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام.

وبذلك أيضاً نبّه على كمال فضيلة العدل والاعتدال، والجمع بين الضدَّين، ولا فضيلة فوقه. فلم يذكر الشدّة إلا تأكيداً لتصحيح صفة التواضع والرحمة الناشئة من الخضوع للربّ. فإنّ خوف الربّ والتواضع له ينفي كلّ خوف لسواه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ آل عمران: ١٧٥. وأيضاً: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ﴾ المائدة:

٣. وفي ذلك آيات كثيرة.

وأما الثاني: فبالنزوع عما تلتذُّ به النفسُ وتحبُّه في هذه الحياة الدنيوية. ولـذلك ثلاث مدارج:

الأولى: بذل النفس في سبيل الربّ. وأكبر منه ذبح فلذة الكبد. ولذلك ابتلي إبراهيم عليه السلام بذبح بِكْرِه وأحبِّ أولادِه، وهو إسماعيل عليه السلام. فإنه لما بُشِّر بإسحاق قال: «ليحيَ إسماعيل»[1] قولاً مفصحاً عن غاية حبّه له.

والثانية: تحمُّلُ المشاقِّ والأذى في طاعة الرب، وتركُ اللذائذ؛ فإنّ ذلك أحبُّ إلى النفس بعد الحياة. ومن هذا الباب الصوم. وهذه الدرجة الثانية نهاية الضعفاء من باب النحر. ولذلك حين سئل المسيح عليه السلام عن أكبر الدرجات فقال: لا يحصل ذلك إلا بالصلاة والصوم.

والثالثة: بذل المال الذي هو مفتاح الملاذّ. والزكاة من هذا الباب. فأما الإنفاق في سبيل الخير بما يزيد على الزكاة المفروضة، ففيه أيضاً إبطال آلة الكبر. ولما كان المقصود من ذبح البهيمية فطام النفس عما يُعَبِّده للذّته لزمه أن يكون مما تحبُّه النفس. فلذلك قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢. وهكذا أمر بتسمين الأضاحي. وبين حقيقة ذلك حين ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح أحبِّ خلقٍ عنده. ولما كان بذل المُهَج هو كمال هذا الذبح جعل إهراقَ الدم أمارته.

فتبين مما ذكرنا أن الصلاة والنحر طرفان لذبح النفس. وإلى ذلك يشير ما جاء في الحديث: قربان هذه الأمّة بدمائها وصلاتها[2]. أي ببذل مُهَجِهم وصلاتهم.

---

(١) في الترجمة البيروتية: «ليت إسماعيل يعيش أمامك». انظر سفر التكوين ١٧: ١٨.

(٢) لعله يشير إلى حديث جابر وفيه من قول النبي ﷺ لكعب بن عجرة: «الصلاة قربان». رواه أحمد وغيره. انظر:

=

والوجه الرابع: أن الصلاة والنحر يتضمّن أحدهما الآخر. فالصلاةُ من وجهٍ نحرٌ، والنحرُ صلاةٌ.

أما كونُ الصلاة نحراً، فقد تبيّن مما مر آنفاً من كونها ذبح السبعية. ثم هي أيضاً تحمل النفس مشقتها، وتكفُّها عن لذتها ورتعها، فذلك من ذبح البهيمية.

وأما كون النحر صلاةً، فقد مرّ أنّ حقيقة النحر هي بذل النفس في سبيل الله. ولا يخفى أنه صلاة في صورة أخرى. فإن بذل المهجة في سبيل الرب إقرار وتصديق بالإيمان، ولذلك سُمّي شهادةً. وأيضاً هو غاية الخضوع والطاعة فتضمّن أوفى حظٍّ من الصلاة إقراراً بالتوحيد وخضوعاً للربّ.

ثم جعل للتضحية من الآداب ما يدل على كونها صلاةً. وذلك أمور:

- الذبح بالمصلّى.

- وبدؤه ببسم الله والله أكبر.

- وتوجيه القربان والمقرِّب إلى القبلة.

- ورعاية القيام في البُدْن.

- والسجود في الكِباش.

- وقراءة دعاء افتتاح الصلاة، كما جاء في القرآن: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ الأنعام: ٧٩. وأيضاً:

=

المسند ٣: ٣٩٩؛ وإلى حديث عبد الله بن مسعود وفيه من وصف النبي ﷺ لأمته: «يصفّون للصلاة كما يصفّون للقتال، قربانهم الذي يتقربون به إليّ دماؤهم» رواه الطبراني في الكبير ١٠: ٨٩. وانظر: النهاية لابن الأثير (قرب).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

- وقد نبّهنا القرآنُ على هذا الأمر، فذكر في قصة تضحية إبراهيم ﷺ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ الصافات: ١٠٣. أي توجَّها إلى الربّ ظاهراً وباطناً، ثم جعله ساجداً. وكذلك ذكر في أمر النحر: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ الحج: ٣٦. أي قياماً كما تصفُّون في الصلاة.

وكذلك ذكر في أمر الزكاة التي هي من أبواب التضحية، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ المائدة: ٥٥، أي يعطُون بهيئة تُظهرُ خُشوعَهم، لا كمن يُعطي رياءً وسمعةً وفخراً.

والوجه الخامس: أنّ الصلاة والنحر كليهما ذكرٌ لله تعالى. أما الصلاة فظاهرٌ أنها للذكر، كما جاء في كثير من الآيات مثلاً: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ طه: ١٤. أيضاً: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾﴾ الأعلى: ١٥.

وأما كون النحر ذكراً، فأيضاً دلّ عليه القرآن، حيث قال: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ الحج: ٣٤. وأيضاً: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ الحج: ٣٧. أي هداكم إلى دين التوحيد والإسلام. فكما نذكر الله بالتكبير في الصلاة، فكذلك عند النسك.

والوجه السادس: أن كليهما شكر. أما الصلاة فكونها شكراً ظاهرٌ حتى عبر عنها به، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ البقرة: ١٥٢. ومعظم الصلاة قراءة سورة الفاتحة. وبناؤها على الشكر.

وأما النحر فإنّا نعلم أن الله سبحانه وتعالى غنيّ عن العالمين ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ الأنعام: ١٤ وإنّما نقرب إليه مما أنعمنا به اعترافاً بأن ما عندنا ملكه ونعمته.

ولذلك نقول عند التضحية: «ومنك ولك». ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الحج: ٣٦.

وكما أنّ الصلاة شكرٌ عامٌ على جميع نعمه الظاهرة والباطنة، فكذلك الذبح ليس شكراً على ما رزقنا من المنافع الدنيوية، بل على ما هدانا إلى دين الإسلام ووفقنا لطاعته. ولذلك قال: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ الحج: ٣٧.

والوجه السابع: أنهما كليهما من التقوى. أما الصلاة، فإنّ العبد لا يزال يذكر ما تعلّق به رجاؤه وخوفه. والصلاة لهذا الذكر، فيتضرع العبد ويتخشع، لما يبغي رضا ربه ويخاف سخطه. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ الأنعام: ٧٢.

وأما كون التضحية من التقوى، فذلك أنّ تسلُّطَ الإنسان على البهائم أشبه شيء بالتعبيد، فوجب أن ينفي هذا التوهم بالتخشّع والإقرار بالعبودية، وأن النعمة والربوبية والملك لله تعالى. وصفة التقوى جماع هذه الأمور، فصارت سرّ التضحية.

فالعبد في الحقيقة يتقرب إلى ربه بالتقوى، ولذلك لا يتقبل التضحية إلا بها، كما قال تعالى في أمر القربان: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المائدة: ٢٧. وأيضاً في الحج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ البقرة: ١٩٧. وإنما سمي التقوى زاداً لأنها تبلّغه منازلَ قرب الرب. والتقريب للتقرُّب، كما نذكره في الوجه الحادي عشر، فلا بدّ فيه من زاد التقوى.

والوجه الثامن: أنهما من منازل الآخرة، فإنّ الصلاة رجوع إلى الله، وصورةٌ لوقوفنا بين يديه في المحشر، ففيها خُلْسَة من المعاد. فمن كان مصلّياً كان ذاكراً لرجوعه إلى ربِّه. وهذا نفهم من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ البقرة: ٤٥ - ٤٦.

فمن علم بأنه راجعٌ إلى ربِّه ومسؤولٌ عن عمله رجع إليه وتاب، وغشِيته هيئةُ الخشوع والوقوف في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ النازعات: ٨ - ٩. وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ المؤمنون: ١ - ٢. وأيضاً: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ النور: ٣٧.

ويُشبهه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ أي كيف يستغني وهو محضر ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ العلق: ٩ - ١٠.

ثم علّمنا القرآن أننا نستجيب دعوةَ الربِّ، فنخرج من القبور حامدين لله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ الإسراء: ٥٢. فهكذا المصلُّون يستجيبون دعوةَ الصلاة، ويصفُّون لله حامدين.

وأما **النحر**، فهو أيضاً رجوعُنا إلى الله، كما مرّ في الوجه الثاني والثالث. والآن ننظر إليه من وجه آخر. وذلك أنّ أجسامنا سُخِّرت لنا كالبهائم، فهي للركوب والرفق إلى أجل مسمى، ثم ترجع إلى الرب. فهي كما قال تعالى في أمر البهائم ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾ الحج: ٣٣.

وأيضاً كما نسوق البُدْنَ إلى ذلك البيت نسوق أبداننا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ الحج: ٢٧.

وكما نحرم الهدايا ونجعل لها شعاراً، فكذلك نفعل بأجسامنا، وإنما لا ننحر جسومنا، بأنّا نفديها بالبُدْن كما فُدي إسماعيلُ عليه السلام بما ذُبِح عوضاً منه. ولكن الله تقبّل هديةَ خليله بما اتخذ إسماعيلَ عليه السلام خادماً لبيته، فكذلك نفدي أجسامنا ولكن لا تردّ إلينا، بل نأخذها أمانة، فنبذلها ونهريق مهجتها في سبيل الله.

وقد نبّهنا القرآن على هذا السرّ حيث قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ التوبة: ١١١. فاشترانا الله بمجرد بيعة الإسلام. ونحضر على باب بيته لتجديد ذلك بمسِّ حَجَرِ العهد، ونُؤكّد عهدَ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكونَنا قرابينَ لله تعالى.

ثم اجتماعنا في الحجِّ أظهرُ تصويرٍ لوقوفنا في المحشر. فصلاتنا واجتماعنا لذكر الله والحج والنحر يُشبه بعضُها بعضا في نسبتها بالمعاد.

والوجه التاسع: أنهما من أبواب الصبر. أما الصلاة فلأنّ العبد يداوم عليها مطمئنًّا بوعد الله، كغارسٍ يقوم على غرسِه يسقيه ويخدمه، ينتظر ثمرَه. وينظر رفاهية الغافلين، فلا يهِنُ ولا يكِلُّ، بل لا يزال يقوم لربه ويحمده ويشكره، ولا يبالي باستهزائهم برجائه للغائب البعيد. فكلُّ ذلك لشدة عزمه وصبره على العاقبة. ولهذه الجهات جَمَع القرآنُ الصبرَ والصلاةَ في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ البقرة: ٤٥.

ودلّ على ما ذكرنا آنفاً قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ طه: ١٣٠ - ١٣٢.

وأيضاً ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الرعد: ٢٢. وأيضاً: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ

مَا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ غافر: ٥٥ - ٥٦.

فنبَّهَنا على موضع الصبر من التمسك بالوعد، والتوكُّل على الربّ، وتحمّل الأذى، وانتظار الفلاح.

وأما **النحر** فهو مبني على تعليم الصبر العظيم الذي ظهر من إبراهيم عليه السلام. فإنه رضي بربه وفضله، ولم يُعطَ ولداً حتى كبِرَ. ثم لما أعطاه الله الولدَ وجعله قُرّةَ عينه فطرةً ولمخايل حسناته ابتلاه بذبحه. فما تزعزع قدمُ صبره، بل شكر للربّ لما طلب منه أحبَّ خلقٍ عنده. فصبرُنا على الصلاة كصبرنا عند احتمال كل مصيبة.

ودلَّ على هذا الربط بين الصلاة والصبر عند احتمال ما يبتلي الله به عباده من إهانة النفس وما دونها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ﴾ المروة هي محل تقريب إبراهيم عليه السلام ابنه كما بيناه تحت هذه الآية في محلها[1] ﴿ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ البقرة: ١٥٨. فجمع في هذا الكلام الصلاةَ والصبرَ والجهادَ والمصائبَ ومذبحَ إبراهيم عليه السلام، لما فيها من الربط الحقيقي.

والوجه العاشر: إقرار الملك والنعمة لله. وهذا في الصلاة ظاهر، فإنها بُنيت على إقرار الشكر والربوبية.

---

(١) انظر كتاب المؤلف: «الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح».

وأما التضحية فهي إقرار بذلك بلسان الحال، كأنّا نقول: إن الملك والنعمة لله تعالى، فنفوسنا وأموالنا كلها لله، فلابدّ أن نُفوِّضها إليه، ونَحبسها لطاعته، ونأخذ منها على سبيل الهبة منه تعالى، فنقرّ بإحسانه ونضعها حيث أَمَرَنا، ولا نُشرك فيها أحداً. فنعبده ونصلي ونقدِّم إليه ما أعطانا، فإنه هو الخالق والواهب، كما هدانا لقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ البقرة: ١٥٦ أي نحن ومالنا لله، فله الحكم والمنة، ولنا الخضوع والشكر. وإليه نرجع كما يرجع المال إلى مالكه. و لذلك لا يحلّ لنا التمتعُ بشيء حتى بأنفسنا إلا بذكر اسمه والإقرار بكونه عطيةً من الله.

وتعليماً لهذا الأصل العظيم جعل علينا فريضة النسك، لنذكر اسمه على ما رزقنا من الأنعام مسخّرةً لنا، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الحج: ٣٤. وأيضاً: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ الحج: ٣٧. ولكون التصرف في الحيوانات شبيهاً بتعبيدهم فرض ذكر اسمه في الذبائح.

وكذلك كلُّ ما أخرج لنا من الأرض جَعَل فيه حقًّا لكيلا نغفل عن كونه من نعم الله، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ الأنعام: ١٤١.

ولذلك حرّم علينا الإسراف، فإنّ كلَّ ما في أيدينا لربِّنا. ولذلك جعل النسك مبنيًّا على سنة إبراهيم عليه السلام الذي شهد بكون الملك لله، فأدّى إلى الربِّ أمانته، وصدَّق بأنّ كلَّ ما عنده حتى نفسه وولده فهو من الربّ تعالى.

والوجه الحادي عشر: أنّ العبد يتقرب بهما إلى الربّ، وذلك ظاهر جدًّا. فإنّ الصلاة من أظهر أمورها أنها توجُّهٌ إلى الرب ورجوعٌ إلى حضرته. فالمصلِّي يرى نفسَه متمثلاً بين يدي الربّ يناجيه ويخاطبه ويتضرع إليه، ولا يلتفت يميناً وشمالاً. فليس

أنّ الصلاة ذريعة التقرب بل هي عين التقرب. ودلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ العلق: ١٩. ولذلك صارت رأسَ العبادات.

وأرى أنّ الصلاة في أصل معناها: القربة القريبة، والإقبال على الشيء، والدخول فيه. فيقال للفرس المتصل بالسابق: «المصلّي»، وللجالس حول النار بقربها: «الصالي»، وكذلك لمن دخل في حرِّها.

وهكذا الأمر في «القُرْبان». فإن المتقرّب يأتي بقُربانه إلى موضع يرى أن الربَّ قدَّسَه واختصّه لعبادته. ولذلك كان للقربان موضع خاص. لا يحل في شريعة اليهود أن يقرِّبوا في غير بيت المقدس. وأما المسلمون فكما جُعِلت لهم الأرض كلُّها مسجداً، فكذلك يحلُّ لهم التضحية في كل مكان.

ومع ذلك كما أنّ للصلاة في المسجد فضلاً فكذلك فضلاً للنسك في المصلّى. وقد جعل الله لقربان إبراهيم عليه السلام مكاناً خاصًّا، وأبقاه لنا سنّته، فنُهدي البُدْن إلى منحره، كما أنّا نأتي مسجده الذي بناه للصلاة. وكل ذلك ليرسخ في قلوبنا أنّا كالعبيد نسعى إلى المولى مُلبِّين دعوتَه، مقرِّبين قرابينَنا كلها لمرضاته، وإقراراً لعبوديتنا له. ولذلك سمي «القربان» قرباناً، كما سميت «الصلاة» صلاة. وإلى هذا الذي ذكرنا إلماع فيما قال النبي ﷺ: «سمّنوا ضحاياكم فإنها مطاياكم»[1]. وبذلك دلّ أيضاً على أنّ تقريب الإبل مما يخصُّ بهم. راجع الفصل التالي.

والوجه الثاني عشر: أنّ الصلاة والنحر أعظم طرق العبادات، وأقدمها، وأرسخها في فطرة الناس. فترى السجود والركوع وتقديم النذور لإظهار التعبد في كل ملة ونحلة سواء عبدوا الله الواحد، أو آلهة متعددة، أو رُوحاً، أو صنماً، أو عظّموا

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بلفظ: «استفرِهوا»، وهو ضعيف جدًّا. انظر: المقاصد الحسنة: ٨٠.

إنساناً كإله معبود.

لاشك أنّ بين الأقوام المهذبة والوحشية وبين أهل الحق والباطل فرقاً عظيماً. وكذلك بين صلاتهم ونسكهم بعداً شاسعاً، ولكن مع ذلك لكلهم نسكٌ وصلاةٌ ما. وهذا، كما أنهم مختلفون في مفهوم الإله مع اتفاقهم في أمر عام من مفهوم المعبود. ولا نرى هذا الاتفاق بينهم في سائر العبادات.

وقد مرّ في الوجه الأول أن الإيمان والإسلام يعمّان جميع الخلق، وأن الصلاة والنسك صورتان لهما. فالآن ترى أنّ الناس انبعثوا من نقطة واحدة في الدين والعبادة، وإنما تشعبت بهم الطرق لدخول الظنون والأهواء. فاختلفوا بإفراط وتفريط، وإفساد وتخليط.

(١١)

تفصيل لما ذكرنا من اختصاصنا بهذا العطاء والأمر بالصلاة والنحر معا

قد علمنا أن للصلاة تقدّماً على النحر كتقدُّمها علي سائر العبادات، ولذلك قدّمها الله في الذكر. ومن تأمل فيما ذكرنا من وجوه المناسبة بينهما تبيّن ذلك، وأيضاً تبيّن رفيع محلهما فلا حاجة إلى إعادة ما سبق. ولكن بقي لنا ما دلّ عليه اختصاصنا بالكوثر، والأمر بالصلاة والنحر معاً. وذلك ثلاثة أمور:

الأول: فضيلة هذه الملة على سائر الملل.

والثاني: انحصار توبة اليهود والنصارى في قبول هذه الملة.

والثالث: كون المسلمين لا غيرهم ورثة إبراهيم عليه السلام.

وأما بيان هذه الأمور فاعلم أن إهراق الدم كان هو طريق التقرب إلى الله في

الأديان القديمة، وكان بمنزلة الصلاة لهم. وإلى هذه مالت اليهود، فلم يذكروا الصلاة أصلاً، وذكروا الصوم بالكناية فقط. وذلك لأن طرف العقل كان غير بالغ فيهم حتى يكفيهم محض التوجه بالقلب. فتقديم الصلاة وجعلها مخ الدين دليل علي عروج الديانة.

ولكن الطباع متفاوتة فطرة، حتى إن قوماً ولو بلغوا ذروة الحكمة توجد فيهم أفراد كثيرة علي ابتداء المدارج. فمع إلزام الصلاة و تكثيرها، لم يُبطلِ الإسلامُ الذبحَ بالكلية، حتى إنه لم يُبطِل أيضاً طرق الأقدمين الذين جعلوا الديانة محض رهبانية، فأبقاها الإسلام في الحجّ.

فإن صحّ ذلك رأيت دين النصارى علي طرف مقابل لليهود. فإنّ لهم صلاةً فقط، ولا نُسُكَ. و ليس لهم أن يدَّعوا بلوغ كمال الديانة، فإن الكمال هو الوسط، ولا خير في الغلو. ولذلك تراهم أوقعهم هذا الغلوُّ حيث صاروا أسفل من اليهود أيضاً في معظم أمر الدين، وهو الإيمان؛ كما أن اليهود أدون منهم في الأعمال.

فلهذه رعايةِ الوسط ووضعِ كلِّ شيء محلّه ترى الصلاة أكثر شيء ذكراً في القرآن، ولا تجد كلمة النحر إلا في هذه السورة، ولم يذكر التضحية إلا تبعاً في مواضع معدودة. فبما جمع الله لنا الصلاة والنحر، وبما دلّ على سرِّهما وموضعهما ومقدارهما، أعطانا من العلم ما نستدِلُّ به على فضيلة هذه الشريعة الجامعة على الملل السابقة.

أما المشركون والملاحدة، فلا صلَّوا لله ولا قرَّبوا. وأما النصارى واليهود فليس أنّهما حُرِمَا ركناً واحداً فقط، بل أفضى أمرهما إلى تمام الحرمان، لما أنهما بقيا على ملة كانت لأجل معدود.

وبيان ذلك أنّ دين النصارى كان دين التجرد والخمول، واشتغال كل امرئ بخِصِّيصاه. فلم يُعطَوا الجهاد، وقنعوا بالصلاة والصوم والزكاة، وأمروا بأن

يُخفوها[١]. فمع كون ذلك أصلح لتربيتهم لم تتبيّن فرائضهم وسننهم، فماتت حتى إنهم ضيّعوا كُلّها فما تأمرهم هذه الأناجيل بصوم ولا صلاة، بل تصرِّح بأنها مستحَبّات فقط. وخلاف ذلك تأمرهم بترك التدبير والكسب والانتصار[٢]. وإذ ضيّعوا قسطاً مما أُعطوا ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ المائدة: ١٤ فنشأت في مكانه بدعاتهم المتكاثفة. فزعموا أنّ النسك إنما رُفِع عنهم، لأن المسيح صار لهم قُرباناً. وزعموا حسبما وجدوا في شريعة اليهود أن لا سبيل إلى كفارة ذنب من غير إهراق دم[٣]، فزعموا بأن المسيح كَفَّر عنهم[٤]. فلزمهم أحد الأمرين، وكلاهما أشنع من الآخر.

وذلك إما أن يقولوا بأن المسيح كفَّر أيضاً ذنوبهم المستقبلة. وقد ذهب إليه طائفة، فزعموا أن الإيمان بالمسيح يكفي للنجاة[٥] وذلك أشنع إرجاء. و إما أن يقولوا إن الذنوب المستقبلة لا مغفرة لها. وقد ذهب إليه طائفة، و اعتقد به إمام هولاء النصارى بولوص[٦]. وذلك أشنع بكثير من شناعة المعتزلة الذين غلوا في خلاف الإرجاء. ذلك.

وأما اليهود فعندهم التصريح بأمرين: الأول أن لا مغفرة إلا بتضحية[٧]،

---

(١) انظر إنجيل متى ٦: ٣-٤ و٦و١٧-١٨.

(٢) انظر مثلاً إنجيل متى ٦: ٢٥-٣٢ و١٠: ١٠. وإنجيل لوقا ١٢: ٢٢- ٣٣، و١٤: ٢٦، ٣٣.

(٣) انظر سفر اللاويين، الأصحاح الرابع و ما بعده.

(٤) انظر رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٥ و ٥: ٩

(٥) رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٨.

(٦) في رسالة بولس إلى أهل رومية ٣: ٢٠.

(٧) انظر سفر اللاويين، الأصحاح الرابع و ما بعده.

والثاني أنّ التضحية لا تصِحّ إلا في هيكلهم(١)، وقد أخرجه الله عن أيديهم. فقد غلقت عليهم شريعتُهم بابَ التوبة غير أن يؤمنوا بالنبي الموعود الذي وُكِل رجاؤهم إليه، وعرّفه لهم أنبياؤهم.

و قد حكى القرآن هذا الوعد الإلهي عند ذكر تقصير اليهود عن تحمل الشريعة الكاملة واستغفار موسى عليه السلام. فقال تعالى: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧.

ومما ذكرنا يتبين لك أن هذه الآية الواحدة: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ بكلماتها الثلاث تربو علي جميع الأديان. فإن وضعت اليهودية والنصرانية في كفة وهذه الآية في كفة أخرى لترجحت علي اليهود بأولها، وعلى النصرانية بآخرها، وعلي سائر الأديان بوسطها، لكون قرابينهم لغير الله، ولإنكارهم بكون الله ربهم، فإنهم اتخذوا لهم أرباباً دون الله الأعلى الأكبر. ومع ذلك دلّت بنظمها على أحسنِ طريق للديانة والسلوك إلى الرب، وهو ذكرُ الرب والتوجُّه إليه في كل حال، وبكل صورة، وعلى قدرٍ يُناسب الأحوال والأزمنة.

ولما أورث الله نبيه وأتباعه وراثة إبراهيم عليه السلام، وقطع عن هذه الوراثة الخاصة اليهود والنصارى، أَمَرَهم بما يخصُّ هذه الأمةَ من الصلاة والنحر. فإن إبراهيم عليه السلام بنى مسجداً لا مذبحاً كما هو ظاهر، وكما قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ

---

(١) انظر سفر اللاويين، الأصحاح الأول وما بعده.

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ البقرة: ١٢٥ فالصلاة هي الغاية الأصلية. وأما النحر فجعله تذكاراً لإسلامه وإسلام ابنه إسماعيل، فجعل موضعه «المروة» التي قرّب عليها ابنه البكر. ثم أبقاه سنّة لإطعام الحجّاج لبيت الربّ.

ومع أن عبادة اليهودية انحصرت في التضحية لم يجعلوها إلا عبادةً ظاهرةً خاليةً عن الحقائق والإشارات التي هدانا القرآن إليها. وليس عندهم أثر ما ولا قول ما يدل على أنّ قرابينهم تذكار لذبح إسحاق عليه السلام. ثم كتابهم نفسه يُبطل دعواهم من وجوه، كما هو مبسوط في موضعه(١).

ولما كان الأمر هكذا حَسُنَ اختيارُ كلمة «النحر» الذي يدل علي ذبح الإبل التي كانت محرمة علي اليهود خاصة(٢). وتفصيل هذا البحث موكول إلى تفسير سورة البقرة وآل عمران. فنحر الإبل ليس فيه نصيب لليهود. فهذه أضحيةٌ إبراهيميةٌ مخصوصةٌ بأولاد إسماعيل عليه السلام وبيت الله الذي أسكن عنده هذه الذرية.

(١٢)

في تأويل كلمتين: ﴿شَانِئَكَ﴾ و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾

قبل تأويل الآية الأخيرة ننظر في كلمتين: ﴿شَانِئَكَ﴾ و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾. أما «الشانئ» فلكونه مضافاً إلى المعرفة صار معرفة. ولا يلزم المعرفةَ أن يكون معيّناً، ولكنّ بعض المفسرين حاولوا التعيين واستنبطوه من طريق النظر في أسباب الأمور، فاختلفت أقوالهم فيه، كما يقع كثيراً في مثل ذلك. فروي عن ابن عباس وسعيد بن

(١) انظر تأليفه: «الرأي الصحيح في من هو الذبيح».

(٢) انظر سفر اللاويين ١١: ٤.

جبير ومجاهد وقتادة أنه العاص بن وائل. وذلك لأنه قال: أنا شانئ محمد[١]. وروي عن شمر بن عطية أنه عُقْبة بن أبي مُعَيط، لما أنّه كان يقول: «إنه لا يبقى للنبي ولد، وهو أبتر»[٢]. وروي عن ابن عباس وعكرمة ما يدل علي أن المراد به قريش[٣].

فنقول: إنّ هذا الاسم، وإن كان في نفس الأمر أولى برجل مخصوص وكان هو أول داخل في مصداق الآية، ولكن إذ لم يرد الله تفضيحه بالتصريح سكتنا عن تسميته، وهذا بفرض إرادة المعيّن، ولكنها غير لازمة كما مرّ.

ولا شك أنّ أسلم الطرق أن نضع زمام الاستنباط في يد القرآن، فنتوجه حيث يقودنا نصُّه واقتضاؤه ونظمُه وسياقُه. وقد رأينا في السورة السابقة أنّ سمت الكلام إلى قريش الذين كانوا أولياء بيت الربّ وقد خانوا في أمانتهم. ثم نجد الرواية المؤيدة لذلك أوثقها. ثم دلّت الحالاتُ على كون قريش أولى بهذا الاسم. ثم ذلك هو المقتضى للكلام السابق، حسبما بيّنا من تأويله.

وبناء على ما ذكرنا من الوجوه ينبغي أن يراد به أولاً وبالذات قريش، ثم يُراد به كل من كان مُتَّصِفاً به، فإنّ خصوصيات موقع النزول لا تمنع الكلام عن سعة معناه الذي دلّ عليه. فهذا جملة القول في هذه الكلمة، وسيأتيك لها مزيد بيان إذا شرعنا في تفسير الآية إن شاء الله تعالى.

وأما ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ فمعلوم أنه صفة من البتْر، وهو القطع. وللكلمة استعمالات شتى، والنظرُ فيها يعينك علي استنباط المعنى المراد هاهنا. فنذكر استعمال هذه المادة

---

(١) انظر الطبري ٣٠: ٢١٢-٢١٣.

(٢) المصدر السابق ٣٠: ٢١٣.

(٣) المرجع السابق ٣٠: ٢١٣.

حسب ترتيب معانيها:

يقال: سيف باتر، أي قاطع، وبتّار: قطاع. بَتَرَ فلان رَحِمَه: قَطَعَها. الأُباتِر: قاطع الرحم. أبترَ الرجلُ: إذا أعطى ثم مَنَعَ. الحجّة البتراء: القاطعة. في حديث الضحايا: أنه نهى عن المبتورة، وهي ما قُطِعَ ذَنَبُها[١]. الأبتر من الحيّات: نوع منها قصير الذنَب.

الأبتر: من لا عقب له. في الحديث: «كل أمر ذي بال لم يبدأ ببسم الله فهو أبتر»[٢]. الخطبة التي لم تبدأ بذكر الله والصلاة على رسوله سُمّيت: بَتْراء[٣]. الأبتر: ما لا عروة له من المزاد والدِّلاء. الأبتران: العَيْر والعبد. البُتَيراء: الشمس إذا بُهِرَتْ وذهبت قُرونها ونَبْلُها[٤].

فالنظر في هذه الأنحاء يدلُّنا على أن «الأبتر» هو المقطوع عما يُفَخِّمه ويُمِدُّه، حتى إنّ الشمس إذا بُهِرت، وذهب عنها نَبْلُها، وانجردت قرصاً صغيراً سُمِّيت بُتيراء. وكذلك من بَتَر رَحِمَه، وانقطع عن عصبته وأنصاره سُمِّي: أبتر. ولذلك سمَّوا العَيْر والعبد: الأبترين، لقلة ناصريهما. وعلى هذا الأصل قال قتادة في تفسير هذه الآية: «الأبتر: الحقير الدقيق الذليل»[٥].

فتبيّن أنّ معنى هذه الكلمة تدرّج من «المقطوع» إلى الصغير القصير، وإلى

---

(١) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٩٣.

(٢) وفي النهاية ١: ٩٣ «لا يبدأ فيه بحمد الله» وكذا في اللسان (بتر).

(٣) كخطبة زياد بن أبيه المعروفة. انظر البيان ٢: ٦١.

(٤) انظر اللسان (بتر).

(٥) تفسير الطبري ٣٠: ٢١٢.

المخذول الحقير.

هذا، والآن نتوجه إلى تأويل الآية بعون الله تعالى.

(١٣)

تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

لا يخفى أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ جواب وردٌّ على من طَعن في النبي ﷺ أنه أبتر. وهكذا فهمه المفسرون. وأما مراد الطاعن بقوله هذا فيقتضي تفصيلاً. فاعلم أنّ النبي ﷺ بعد ما هاجر إلى المدينة ظنّ قريش أنه بَتَرَ رَحِمَه، وترك أكرمَ بيت العرب، وحُرِمَ ما كان له من شرف ولاية الكعبة وجواره. فصار بزعمهم كشجرٍ قُطِعَ عن أصله، فيوشك أن يضمحلَّ أمرُه ويتضاءلَ قدرُه. فبشَّره الله بالبركة والكثرة والفتح والنصرة، وأنه باطل ما زعم عدوه، بل إنّ عدوّه لهو المقطوع المخذول. و لما كان هذا الكلام ردًّا لزعمهم كان فيه تعريض إلى أنّ عدوه هو لَيُسْلَبُ الشرفَ الذي يتباهى به، فصار إخباراً بفتح مكة.

وهذا المعنى الذي هو ظاهر من جهة اللغة ونظم الكلام يؤيده ما جاء في الأخبار. قال السيوطي رحمه الله[1]: أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيِّدهم، ألا ترى إلى هذا الصُّنْبُور المُنْبَتِر من قومه يزعم أنه خيرٌ منّا، ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة؟ قال: أنتم خير منه. فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحي إلى النبي ﷺ قالت قريش: بُتِرَ محمّدٌ منّا، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

(١) لباب النقول: ٢٣٥-٢٣٦.

وأخرج أحمد و غيره عن ابن عباس مثل ذلك.

وأخرج ابن جرير[١] عن ابن بشّار قال: حدثنا ابن أبي عدي أنبأنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه فقالوا له: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيّد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصّنبُور المُنبَتِر من قومه يزعم أنه خيرٌ منّا؟ قال: بل أنتم خير منه. فنزلت عليه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾. قال: و أنزلت عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ النساء: ٥١ - ٥٢.

وهكذا في حديث آخر عن عكرمة غير أن فيه: ونحن أهل الحجيج وعندنا منحَر البُدْن[٢].

والمعنى واحد. فإنهم افتخروا بشرف منبتهم وطيب مغرسهم عند البيت المبارك، وبأنّ فيهم خدمةَ البيت وعهدَ النحر من لدن إبراهيم عليه السلام أصل البركات. وسيأتي بيانه في الفصل...[٣] فزعموا أنّ المنقطع عنهم كالصُّنْبُور المنقطع لا تطول مدة بقائه. وكانوا مطمئنين بهذا الظنّ الباطل معتمدين على قول رئيس اليهود حتى أزال الله عنهم الغطاء حين علموا أنهم هم المخذولون المقطوعون. وقد وقع ذلك الوعد حين نزلت سورة البراءة، فقُطِعَ كلُّ مشركٍ عن المسجد الحرام.

ذلك، ونذكر بعض ما دل عليه هذه الآية في الفصل الخامس عشر.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠: ٢١٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) كذا البياض في المطبوعة، وانظر الفصل الأخير.

(١٤)
موقع نزول السورة ودلالتها على أنها بشارة بفتح مكة

قد مرّ في الفصول الأول أنّ السورة بشارة بفتح مكة، وأنّ استعمال الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ يدلّ على إنجاز وعد الفتح الذي قَرُبَ. فإنّا نرى في القرآن آياتٍ يأمر الله فيها نبيّه بالصبر والانتظار، وأنّ الله سينصره. وفي كل ذلك إبهام، مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ الرعد: ٤٠. وأيضاً: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ الزخرف: ٤١ - ٤٢.

فلم يُبيّن للنبي ﷺ هل يكون حاله كحال عيسى عليه السلام، توفّاه الله قبل النصر؛ أو كحال نوح عليه السلام، أراه الله النصر العظيم؛ أو كحال إبراهيم وموسى عليهما السلام، أراهما الله طرفاً من الفتح والبركة ووعد إتمامَها عند ظهور البعثة الأخيرة. فكان النبي ﷺ والمؤمنون في ظمأ الرجاء حتى إذا نزلت هذه السورة فُلِقَ لهم الصبحُ وجاءتهم تباشيرُ الفتح. فلا نفهم من هذه السورة إلا أنها نزلت قبيل فتح مكة، أو عند فتحها الأول، وهو موادعة قريش عند الحديبية.

ويؤيد ذلك ما جاء من طريق الروايات. قال ابن جرير رحمه الله: «حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني أبو صخر قال حدثني أبو معاوية البجلي عن سعيد بن جبير أنه قال: كانت هذه الآية يعني قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ يوم الحديبية أتاه جبريل عليه السلام فقال: انحر وارجع. فقام رسول الله ﷺ فخطب خطبة الفطر أو النحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البُدْن، فنحرها. فذلك حين يقول:

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾»[١].

قال السيوطي رحمه الله بعد ذكر هذا الحديث: «قلت: فيه غرابة شديدة»[٢]. ولم يذكر وجه شدة الغرابة اعتماداً منه على ظهورها، لما توهَّم رحمه الله أنّ هذا القول يخالف الأمر المشهور من وجوه مختلفة. ولكنها وجوه ناشئة من التوهم زائلة بعد التأمل الصحيح. فلنذكرنّها مع التنبيه على ضعفها، ليتضح الحق الصريح.

فالأول: أنّ السورة مكية، ويوم الحديبية كان بعد الهجرة. ويرفع هذا الوهم أنّ السورة التي نزلت بعد الهجرة عند مكّة أيضاً تُسمّى مكّيّة، كما صرّح به العلماء. والحديبية بقرب مكة، فإنّ بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وهي من الحرم.

والثاني: أنّ يوم الحديبية كان بعد مُضي خمس سنين وعشرة أشهر من الهجرة، وقُتل كعب بن الأشرف في السنة الثالثة، وقد روي أنّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ كان في الذين سألوا كعباً: أهم خير أم هذا النبي، كما مرّ في الفصل السابق. فكيف يصحُّ أنّ السورة نزلت يوم الحديبية؟

ويرفع هذا الوهم أنّ قولهم: «نزل في كذا» لا يدل على الوقت، بل على مطابقة الآية لحال خاص. فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ ناظر إلى كل من كان شانئاً له سواء فيه من مضى ومن يأتي إلى يوم القيامة. وحين نزلت هذه الآية كان أعداؤه الذين ماتوا بالذلة والهوان مثالاً لمن بقي. ولم تنفكَّ قريش بعد مكالمتهم لكعب موقنين بكون النبي كما قال ذلك الفاسق، حتى جاء الفتح، وتبيّن أن أعداء النبي هم

---

(١) تفسير الطبري ٣٠: ٢١٢.

(٢) لباب النقول: ٢٣٦.

المخذولون. فمن قال إنّ آية: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ في قريش الذين زعموا لكعب ما زعموا إنما ذكر مطابقة الآية لحالهم، لا أنّ الله تعالى ردّ عليهم طعنَهم من غير مهلة.

والثالث: أنّ الآية الأخيرة ناظرة إلى عُقبة بن أبي مُعَيط لطعنه في النبي ﷺ بأنه لا يبقى له ولد وهو أبتر. وعُقبة هذا أُسِرَ في يوم بدر وقُتل فيمن قُتل من الأسارى.

ويرتفع هذا الوهم بما ارتفع به الوجه الثاني. مع أن الآية لا نرى تأويلها إلى هذا الطعن. ولا نرى أن «الأبتر» هاهنا: لمن لا عقب له، لسخافة هذا التأويل، ولبعده عن النظم، ولضعفه من جهة الرواية أيضاً. فارتفعت الغرابة عن قول سعيد بن جبير، وتبيّن صوابه.

ثم يوافقه ما روي عن محمد بن كعب القرظي في تفسير الآيتين السابقتين، حيث يقول: «إن أناساً كانوا يصلُّون وينحَرون لغير الله. فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكن صلاتك ونحرك إلا لي»[1]. فكأنه بهذا القول بيّن أن قريشاً شَقُوا بهذا الكوثر بأنّهم لم يؤدُّوا حقَّه، فننْزِعُه عنهم ونُعطيكه. فإذا أعطيناك، وقد أعطيناك، فأدِّ حقَّه.

ولا يخفى أن الأمر بامتثال حكم متفرع على واقعة يدلُّ على أنّ الواقعة قد وقعت أو ستقع، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ النصر: ١ - ٣. فلم يفهموا من ذلك إلا أنّها نزلت عند الفتح وعند دخول الناس في دين الله أفواجا. فهكذا نفهم من قول محمد بن كعب رحمه الله: «إنا أعطيناك الكوثر» إلخ أي قد أُعطِيتَ، وقَرُبَ ظهورُه.

---

(١) تفسير الطبري ٣٠: ٢١١.

(١٥)
النظر في السورة من حيث مجموعها

إنْ صحَّ عندك هذا التأويل الذي قدَّمنا، ثم تأمَّلت السورةَ بمجموعها، ونظرتَ في حدود آياتها = اطلعتَ باديء بدء على قضايا آتية:

الأولى: أنّ الله تعالى أعطى محمداً ﷺ وراثة إبراهيم عليه السلام، وأظهر فيه إجابة دعائه، فجعل لها وَرَثَةً من أمته.

والثانية: أنه قد سلب اللهُ هذا العطاءَ كلَّ خائن كفور، فإنّه ساخط بهم، كما صرّح به في سورة الحج.

والثالثة: أنه إذ رَبَطَ القطعَ عن هذا العطاء بصفة خاصّة، دلَّ على علّته. فتبين أنّ عداوة النبي تقطع عن بركة الله.

والرابعة: أنه بما جعل هذا الحرمان مخصوصاً بأعدائه، دلّ على أنّ الفائزين بوراثته هم أحِبّاؤه. فحصلت لنا علامةٌ بين أهل الحق والباطل، والمتبعين لهدى الله وسنة رسوله والزائغين عنهما. فالأبتر من هذه الوراثة داخل في شانئيه.

والخامسة: أنه كما جعل الصلاة والنحر شعار أحِبّائه، جعل تركهما شعار أعدائه من المشركين واليهود ومبتدعة النصارى والمبتدعة من هذه الأمة. فمنهم من يستخِفُّ بالصلاة، ومنهم من يستخِفُّ بالحج، ومنهم من تسلَّلَ عن كل ذلك. فالمضيعون للصلاة والنحر والحجّ هم الأعداء للنبي، والمقطوعون عن وراثته، والمخذولون كاليهود والنصارى. ولكن في الإسلام بقية من أهل الحق والسنة. ونرجو أن يُكَثِّرهم الله، ويبعث منهم مَن يعزّ به الإسلام، وما ذلك على الله بعزيز. وقد قال عز من قائل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾

محمد: ٣٨.

ومما ذكرنا قد تبيّن أنّ السورة بشارة بفتح مكة، كما قدّمنا في الفصول المتقدّمة. وهي أيضاً إنذار لأعداء النبيِّ بكونهم مقطوعين عن وراثة إبراهيم عليه السلام. فأول السورة وآخرها جاءتا على أسلوب المقابلة، ووسطُها كالبرزخ بينهما ناظرةٌ إليهما. أي من قام بالتوحيد وصلّى ونَحَر أُعطِيَ الكوثر، ومن خالف ذلك بُتِرَ عنه.

فمثل السورة كميزان ذي كِفَّتَين ولسان. ففي كفّةٍ خيرٌ كثيرٌ فما أثقلها! وفي كفةٍ بَتْرٌ كبيرٌ فما أخفَّها! فتوازنهما كتوازن الوجود والعدم. وكما أنّ اللسان يتجه إلى الجانب الثقيل فكذلك الآية الوسطى تتجه إلى الآية الأولى، ولذلك وَصَلهَا بالفاء. وجعل الآية الثالثة مفصولةً. فدلّتْ بأسلوبها أيضاً على قطعِ أعداءِ النبي ﷺ عن الكوثر المخصوص بأحِبّائه.

(١٦)

بشارة الرضوان لأمته ﷺ

قد سبق أنّ المراد بهذا الإعطاء هو الإعطاء العامّ للنبي ﷺ وأتباعه، كما أنّ البتر عام لجميع أعداء النبي. وإذا كان الأمر كذلك فلم تكن هذه البشارة بمحض غلبة الإسلام على الكفر، بل كانت بشارة رحمة الله على أمة هذا النبي في الدار الآخرة. فعبَّر عن هذا الفتح بإعطاء الكوثر إياهم في القيامة. فلما وقع ما بشّرت به السورة ظهر أنهم صدقوا الله ورسوله، فاجتباهم، وامتحن قلوبهم، فرضي وأرضاهم.

وقد علمنا من تاريخ الأنبياء ومن تصريح القرآن أنّ أول النبوّة زلازل وصبر، وآخرها بركات وأجر. فصار فتح مكة برهاناً على كونهم أولياء بيته، وشهداء دينه، وخلفاء أرضه. فكان إنجازاً لما وعدهم في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ

ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ النور: ٥٥ فبشَّر بإنجاز هذا الوعد بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ فتشابه القولان. ثم تجد المشابهة فيما أتبعه قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإنّ ذلك يشبه قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ النور: ٥٥-٥٦. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾، كما سيأتيك بيانه.

وكذلك سورة الفتح بتمامها تخبرنا عما جعل الله لهذه الأمة من الرحمة والسكينة والمغفرة والتمكُّن في الأرض المقدّسة. وهكذا جاء في صحف الأنبياء لا سيّما في الزبور وأمثال سليمان عليه السلام. وقد أشار القرآن إليه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الأنبياء: ١٠٥ أي الأرض المقدسة التي هي مثال لأرض الجنة. ومكة أفضل هذه الأرض وأقدمها، كما ذكرنا في تفسير سورة آل عمران وسورة الفيل.

فعند نزول هذه السورة جعل يتبين إنجاز وعد الوراثة حتى أتمّها الله. فنزع الله تعالى أرضه المقدسة من أيدي الكفار، وأورثها المسلمين. وبذلك بشّرهم بأنهم عباده الصالحون ومصداق قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وإنه جعلهم خلفاء في الأرض وارثين لها، ومكّن لهم دينهم، ونفَى عنهم الأعداء طُرًّا.

وبذلك صدق في هذا النبي ما بشّر به موسى عليه السلام بني إسرائيل من أن النبي الموعود إذا جاء طهّر الأرض المقدسة عن الكفار. ولم يصدُق ذلك في أحد ممن جاء من الأنبياء والملوك في بني إسرائيل كما يشهد به ما بأيديهم من صحفهم المقدسة. ولذلك كانت اليهود تنتظر لمن يطهر الأرض المقدسة من الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ البقرة: ٨٩. فهذه السورة إبّان ظهور تلك

البشارة حتى طهّر الله الأرض المقدسة من أعدائه.

(١٧)

برهان دائم متصل على صدق نبوة محمد ﷺ

قد مرّ أنّ السورة أعلنت بأنّ بناء القطع عن الكوثر هو شنآنُ النبيِّ ﷺ، فصار إخباراً بأمر متصل دائم. وإذ ليس في حدِّ بشرٍ أن يبشِّر بدوام سلطنته على أرض، وقطعِ عدوه عنها، فإنّ الدهر لا يبقى على حدثانه ملك ولا جيل. فكم منهم طار ثم وقع، والتقمه الدهر وابتلع!

فهذه النبوة الصريحة التي نزل بها القرآن مع كونها بشارةً عظيمةً صارت لنا برهاناً دائماً متصلاً على صدق النبي ﷺ. وذلك أقوى دلالةً من نبوات قضت نحبها، مثل ما جاء من نبوة عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ آل عمران: ٤٩، ومن نبوات منتظَرة لم يقع إلى الآن مثل نبوات دانيال وحزقيل.

والنبوة المتصلة أحرى بصاحب البعثة الباقية، فإنّ الله تعالى لما جعله خاتم الأنبياء صدّق فيه كثيراً من نبوات مَنْ قبله، ومنحه حججاً دائمةً متصلةً. ومن عظم النبوة أن يكون خَرقاً للأسباب الظاهرة. وقد مرّ أن السورة أنزلت يوم الحديبية الذي كان الغلبُ الظاهرُ فيه للكفار، كما يظهر من شرائط الصلح، حتى إن بعض الصحابة أظهر للنبي كراهيةً لما جرى به الصلح، وأنكر بعضهم صورة الكتابة حين أمره النبيُّ بمحو بعض ما كتب.

فتبين أن هذه النبوة لم تكن مما يتوقع وينتظر من الأسباب الظاهرة. وذلك مثل إخبار النبي بغلبة الروم بعد بضع سنين مع شدة دلالة الأسباب الظاهرة على خلافه، كما بيّناه في موضعه.

وقد ذكر موسى وعيسى عليهما السلام من خصائص هذا النبي أنه يخبرهم

عما يقع عن قريب حتى يعرفوا أنّه هو الموعود، كما جاء في أصحاح التثنية ١٨: [١٨-٢٢]:

«أقيمُ لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلَك وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي. وإن قلتَ في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب. فما تكلم به النبي باسم الربّ ولم يَحدث ولم يَصِرْ فهو الكلام الذي لم يتكلَّم به الربُّ بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه».

وكما جاء في إنجيل يوحنا أصحاح ١٦: [١٣]: وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية».

فوقع فتح مكة بعد نزول هذه السورة بيسير. ودامت واتصلت هذه النبوة في حق المؤمنين الصالحين بشارةً، وفي حق أعداء النبي إنذاراً. فجاءت هذه البشارة جامعةً لوجوه من البرهان على صدقه، والحمد لله العلي الكبير.

(١٨)

تصديق ما وعد الله إبراهيم عليه السلام من عموم البركة.
وفيه المشابهة بين إبراهيم ومحمد عليهما أتم الصلوات

قد تبين مما ذكرنا في الفصول السابقة أنّ الله تعالى أعطى الخير الكثير لنبينا وأحبابه، وقطع عنه أعداءه. ففي ذلك تصديق لما وعد الله إبراهيم عليه السلام من أن جميع

أهل الأرض يباركون بنسله، ويبارك الله مباركيه ويلعن لاعنيه[1]. فهذان أمران. والأول يضاهئ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١﴾ والثاني يضاهئ قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾. وفي كلا الأمرين مشابهة عظيمة بين محمد وإبراهيم عليهما الصلوات.

وبيان ذلك أن الله تعالى قد قضى بحكمته ورحمته أن يجمع البركات مع إبراهيم عليه السلام. فإنه صار وارثاً لها بعد نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ آل عمران: ٣٣. فاصطفى الله تعالى آل إبراهيم فقط بعد نوح عليه السلام، فإن آل عمران أيضاً من ذرية إبراهيم. ثم بوسيلة إبراهيم عليه السلام وعد الله شمول البركات جميع أهل الأرض. فقد جاء في سفر التكوين أصحاح ١٢: [١-٣]: «وقال الرب لإبراهيم اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنَك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض».

وهذا في قصة هجرته إلى موضع المروة التي قرَّب عليها ابنه إسماعيل عليه السلام. فأشار إلى أن عموم البركة يكون بذريته، كما صرح به في موضع آخر. فقد جاء في تكوين ٢٢: [١٦-١٨]: «بذاتي أقسمتُ يقول الربُّ إنّي من أجل أنّك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك. أباركك مباركة... ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي».

فصرّح بأن أصل البركة هو تقديمه ابنه قرباناً. فمع أن البركة عمّت ذريته من إسحاق عليه السلام أيضاً، فإنّ ينبوعها كان في ذرية إسماعيل الذي قرّبه. ثم دل على حقيقة

---

(١) انظر سفر التكوين ١٢: ١-٣.

هذا السبب في موضع آخر. فقد جاء في سفر تكوين ١٨: [١٨-١٩]: «وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض. لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برًّا وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به». أي البركة التي وعدها لإبراهيم عليه السلام.

فعلمنا أن حقيقة الدين الذي أعطي إبراهيم عليه السلام هي البرّ والعدل. والآن فانظر كيف صدّق الله هذه الأمور ببعثة نبينا ﷺ. فإنه تعالى بعثه من هذا الموضع الذي كان أصل البركات. ثم أعطاه إياه وأورثه شريعة البرّ والعدل، فجعله وارثاً لإبراهيم عليهما الصلوات، وصدّق فيه عموم البركة لجميع أهل الأرض لما أنه بعثه لكافّة الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سبأ: ٢٨. وأيضاً: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

فبما جعل الله نبوته شاملةً لكافة أهل الأرض، جعل البركةَ شاملةً لأتباعه الذين يباركونه وهم الذين يباركون إبراهيم عليه الصلوات. وفيه تصديق ما وعد إبراهيم عليه السلام «وأبارك مباركيك». وذلك بأن المباركة: هي دعاء البركة والخير في الأهل والذرية. فمن بارك رجلاً بارك ذريتَه ومن بارك ذريةَ رجلٍ فقد باركه بذلك. فظهر من ذلك أنّا نبارك إبراهيم عليه السلام حين نصلّي على محمد ﷺ، وكذلك نبارك ذريةَ محمد ﷺ وأهله حين نصلّي عليه. ولذلك نقول في الصلاة: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» أي بما أنك صلَّيتَ على إبراهيم وآل إبراهيم، فصلِّ على محمد وآله إنجازاً لوعدك.

ولا نجد هذا الأمر بالمباركة لغيرنا، فإن الله تعالى أمرنا بذلك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الأحزاب: ٥٦. ولذلك نختم صلواتنا كلَّها بهذه المباركة.

وأما اليهود والنصارى فلا يرون الصلاة فريضة، وإذا صلَّوا فلا يباركون فيه على إبراهيم ولا على أحد من ذريته. فصارت المباركة شعار أمة محمد ﷺ، لأنَّا في تشهُّدنا نفوض الصلوات الطيبات أولا لله تعالى، ثم نسألها لجميع عباده الصالحين، ونذكر بالخصوص نبيَّنا وإبراهيمَ عليهما الصلاة والسلام اعترافاً لحقهما علينا. وذلك من البرّ والعدل الذين بهما تنزل البركات، كما مرّ.

ثم من تصديق عموم بركة هذه الشريعة أنّ الله تعالى أمرنا بها بالبر والعدل لجميع الناس. فقد قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ أي الذين هم أعداء البر والعدل ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ الممتحنة: ٨. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ المائدة: ٨.

وكذلك تجد العموم والتساوي بين جميع الناس في جزئيات أحكام هذه الشريعة الكاملة، كما هو مبسوط في موضعه.

ولا يخفى أنّ الكعبة أقامها الله تعالى للبرِّ والعدل، لأنها بنيت على التوحيد والذكر والشكر لله تعالى، والمواساة بالناس. وقد علّمنا القرآن أنّ التوحيد رأس العدل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ لقمان: ١٣.

وقد بيّنا فيما مرّ أن الصلاة والنحر للتوحيد والذكر والشكر والمواساة، فكلُّ ذلك طُرُق البر والعدل. فهُدِينا من هذه الجهة أيضاً إلى أنَّ الكعبة هي منبع البركات، لكونها مركزاً لتعليم البرّ والعدل. وكذلك رأينا في هذا الفصل أن الله تعالى بارك إبراهيم عليه الصلوات بوسيلة هذا البيت. فهذه الأمور أيضاً تدلُّ على أنّ الكعبة هي ينبوع الكوثر.

وهذا آخر ما تيسر لنا ذكره في تفسير هذه السورة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة على جميع عباده الصالحين.

تفسير

سورة الكافرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ
٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

(١)

في ربط السورة بالتي قبلها

قد علمت أنَّ في سورة الكوثر بشارةً لظهور هذه الأمة وسموِّ أمرها وجمع شملها، وحكماً على قطع عدوّها من الشجرة المباركة للإسلام. فأتبعها بهذه السورة التي تعلن بقطع حبال المودة من الكفار، وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة، كما ستعرف من تفسيرها.

(٢)

في أنّ السورة سورة البراءة والحرب

اعلم أنّ هذه السورة سورة التبرؤ من الكفار، وقطع حبالهم، والمنابذة بعلائق مودتهم. فهي سورة الهجرة والحرب، مثل سورة البراءة التي قُدِّمت بين يدي فتح مكة، كما أن هذه قُدِّمت بين يدي الهجرة منها. وكلتاهما إعلان بالحرب. وهذه أفصحت عن البراءة بجملتها، كما أنّ تلك صرحت بها بأولها.

وهكذا فهمها السلف لما سمَّوها. قال الرازي رحمه الله: «اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة والإخلاص والمقشقِشة»[1]. وفي لسان العرب: «في الحديث: كان

(١) التفسير الكبير ٣٢: ١٣٦.

يقال لسورتي قل هو الله، وقل يا أيها الكافرون: المقشقِشتان»[١].

ولنفسِّر هذه الأسماء لأنها تهدي لتأويل السورة. فالمنابذة هي المنابذة بعلائق المودة، كما قال تعالى: ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ الأنفال: ٥٨. وأما «الإخلاص» فهو تفريق المؤمنين من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤١. وهذا غرض بعثة الأنبياء كما سنبينه. وإخلاص الباطن سبب لإخلاص الظاهر. فالتوحيد أصل الفرقان والتطهُّر من المشركين، كما سنبيّنه.

وأما «المقشقشة» فهي ما تنبئ عن دنو البرء والتطهر من الرجس. فإن «القشقشة»: تهيؤ البرء. وأصلها: تقشُّر الجلد بعد القرح والجدري. فما أفصح هذا الاسم عن الحقيقة! فإنّ الهجرة، والبراءة، والحرب فيها تخشُّن وكراهيةٌ، ولكن تحتها صلاح وخير ونعمة. فهذه الأسماء تطابق معنى السورة.

وهكذا فهِمنا من القرآن، فإنّ الله تعالى أمر النبيَّ بالبراءة في أول النبوة. جاء في سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾ الشعراء: ٢١٤ - ٢١٧.

وهكذا في سورة يونس: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١﴾ يونس: ٤١. وهذا مثل قوله تعالى في هذه السورة: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ الكافرون: ٦.

وفي سورة الأنبياء: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ الأنبياء: ١٠٩. فإن كفار مكة وأطرافها لما أبوا إلا الكفر

(١) انظر (قشش) في اللسان.

والبغضاء، وهمُّوا بالقتل والإخراج، أمره الله بإعلان البراءة والهجرة والحرب.

وهكذا سنّة الله، فإنّ الرسل مأمورون بالصبر، وتحمُّل الأذى، وانتظار الفتح. فإذا أوغلت الكفار في الشرِّ، وهمّوا بالإخراج والقتل، يؤمرون بالبراءة والهجرة وإعلان الحرب، وانتقام الله. فبعد ذلك يأتي وعد الله، فيُبيد الظالمين ويَستخلف المؤمنين. وهذا هو الغرض من البعثة. وفصّلناه في كتاب «ملكوت الله»[1]، وسيأتيك بعض الشواهد.

(٣)

البعثة بالضرورة تجُرّ إلى البراءة والهجرة والنصر

فاعلم أنّ بعثةَ رسول إلى قومٍ يومُ بُحْرانِ ذلك القوم. فإما أنهم يهلكون إلا شرذمةً منهم، فهم يُستخلفون، كبعثة نوح عليه السلام وأكثر الرسل. وإما أن يحيون حياةً جديدةً بعد وشيك الموت كبعثة إبراهيم وداود ويوسف ومحمد عليهم الصلاة. وإما أن تحيى أمة وتهلك أمة كبعثة موسى ومحمد عليهما الصلاة لإزهاق أمة فرعون وكسرى انتقاماً لذرية يعقوب وإبراهيم، كما قال في سورة يونس:

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ
لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يونس: ٤٦ - ٤٩.

فترى أنّ الرسل ما جاؤوا إلا لإحياء أمة صالحة وإهلاك أمة فاسدة. فإنّهم ما

---

(١) نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ.

أُرسلوا إلى أمة إلا كذَّبتهم، وهذه سنتهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ يس: ٣٠، وكما قال: ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ ﴾ المؤمنون: ٤٤.

وكذلك من سنتهم أن يهمّوا بأخذ النبي، فيقتلوه أو يخرجوه، كما ترى القرآن يذكره في قصص الأنبياء. ومنه قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ غافر: ٥-٦. أي إنهم مهلكون حسب سنة الله، وهي أنّهم إذا همّوا بأخذ النبي جاء نصر الله.

ومن سنة النصر أنه يقع بعد الهجرة والبراءة من الذين كفروا، فلا بد منها. والشاهد عليه كثير، ومنه قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة: ٢٠ - ٢٢.

فقد أخبر بعد ذكر سُنّة غلبة المرسلين عن سُنّة المؤمنين من البراءة، ثم عن سُنّة الله أنه يغفرهم ويُدخلهم في حزبه، وهم المفلحون. وستأتيك شواهد أخر في الفصول الآتية.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾ الواو للبيان. وقد بيّن في هذه الآيات أنّ النصر لحزب الله، وأنّ غلبتهم غلبة الله ورسله. فإنّ بعضَ الرسل لم يُنْصَروا في

حياتهم، فكان موتهم هجرتهم، وهذا أشدُّ على الكافرين، كموت يحيى وعيسى عليهما السلام.

والشاهد على أنّ غلبة المؤمنين من غلبة الرسول قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ غافر: ٥١. فاستعمل واو البيان لتعلم أنّ غلبةَ المؤمن غلبةُ الرسول، وغلبةَ الرسول غلبةُ الله. وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

وعلى هذا الأصل جاء قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ غافر: ٧٧.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران: ٥٥.

وفي هذه السُّنَّة من الله تعالى فرقانٌ بين الحق والباطل. فالغالبون هم حزب الله.

(٤)

النصرة والغلبة تأتي على إثر الهجرة عن قريب

فالنصح والدعوة والصبر، ثم البراءة والهجرة، ثم النصر حتى يظهر الحق على الباطل = ليس بأمر تخصُّ بمحمد ﷺ، بل هذه سنّةُ الله برسله، وطريقُ عدله بخلقه، كما ذكر في أكثر الآيات، وجعلها عموداً لبعض السور، وأكثر ذكرَها في بعض. فانظر سورة الأعراف وهود ويوسف والنحل. وليكفنا ههنا بعض آيات جامع.

جاء في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن

رُسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ الإسراء: ٧٦ - ٧٧. وهكذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يوسف: ١١٠. فعلِمنا أنّ النبيَّ إذا هاجر اقترب للناس حسابُهم، فينتصر الإسلام، وينكسر الكفر. وهذه هي سنّة الله.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ إبراهيم: ٩ - ١٦.

فذكر ما يقع بالرسل عموماً. فلتكن هذه الآيات نصب عينيك في تذكُّرك لسنّة الله في عباده. فالرسول يدعوهم إلى التوحيد والتوبة، ويَعِدهم المغفرة، ويُقِرُّ بأنّه عبد، وليس بيده النصر غير التوكل على الله، ويصبر على أذاهم. وترى فيه قول الكفار بأفواههم أنَّهم كفروا بما أرسل، وارتابوا في التوحيد، وأزمعوا بإخراج الرسول من أرضهم. ثم ترى فيه وعد إهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين بعدهم. ثم الرسولُ

يَستفتح، ويخيب كلُّ جبّار، ومن ورائه جهنم.

(٥)

النبي أمان، والبراءة مهلة، لكي يتوب من يتوب

في هذه الآيات وإن لم يصرح بالبراءة والهجرة، ولكنها مُدْرَجة في قوله تعالى: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ...وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ إبراهيم: ١٣ - ١٥. فإنك ترى مما جاء في قصص الأنبياء أن الإهلاك يأتي بعد الهجرة، فإن الرسول أمن للأمة مادام فيهم، حتى إذا استيئس منهم وأُذِنَ له بالهجرة، فحينئذ يعلن الرسول بالبراءة، ويهاجرهم، لعلهم يضَّرَّعون، كما وقع لقوم يونس.

فإذا هاجرهم الرسول اقترب الفتح والعذاب إن لم يتوبوا ويستغفروا، كما قال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الأنفال: ٣٣ - ٣٤. فبيّن أنهم قد استحقّوا العذابَ، وسَلْبَ ولاية بيته. ولكن الله تعالى لا يعجل بالعذاب مادام فيهم رسوله والصلحاء حتى يهاجروا عنه. فإن لم يتوبوا يعذبهم الله.

وأبلغ كلام فيه كلام عيسى عليه السلام حين رأى النساء يبكين، فقال: «يا بنات يروشلم لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»[١]. فإن هجرة عيسى عليه السلام كان من الدنيا لشقاوة اليهود به. وهو قد أخبرهم عن ذلك، ولكنهم لم ينتبهوا، وقست قلوبهم، فأخذهم الله بعد مهلة أربعين سنة.

---

(١) إنجيل لوقا ٢٣: ٢٨.

واتل ست آيات من أول سورة البراءة، لتعلم أنّ البراءة حتى الأخيرة لا تخلو عن مهلة ورجاء توبة.

(٦)
الاستدلال على كون السورة براءةً من عبارتها إجمالاً

فإن تأملت في ألفاظ هذه السورة، وقايستها بما مضى من الآيات يوشك أن يتضح لك أنها سورة التبرؤ والهجرة. ولكن نضمُّ بها آياتٍ أُخَر ليتبين لك الحق صريحاً. ونعتمد في ذلك على قول إبراهيم عليه السلام حين هاجر من قومه. فإن رأيت قوله قبل هجرته يشابه ما في هذه السورة علمت أنها أيضاً كلام قبل الهجرة.

(الف) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ الممتحنة: ٤.

فقوله: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ إعلان بالهجرة والحرب. وقوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ دعاؤه عند ما هاجر قومه للنصرة.

(ب) وكذلك أعلن بقطع حبال الأوثان، وكانت هي التي جمعت المشركين، كما ستعلم. فبذلك تبرَّأ من المشركين، حيث جاء في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الشعراء: ٧٥ - ٧٧. فهذا الكلام غليظ في أسلوبه لإظهار العداوة بهم وبآبائهم.

(ج) قال في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الزخرف: ٢٦ - ٢٨.

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي إلى موضع الهجرة، كما سنبيّن لك. وقوله: ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾: أي بعد ما هاجرهم تهديداً ونصحاً لهم، لكي يرجعوا عن الشرك.

وقال المفسرون: الكلمة الباقية كلمة التوحيد[1]. وقال بعضهم: تسمية أتباعه بالمسلمين[2]. وكلا المعنيين بعيد. ألا ترى ما قال إبراهيم لأبيه وقومه، فهذا القول هو المراد من «الكلمة الباقية». وقالوا: معنى (في عقبه): في أولاده[3]. وهذا الخطأ متفرع من الخطأ الأول.

(د) وصرح الله تعالى بهجرته بعد البلاغ المبين، حيث قال في سورة العنكبوت ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ العنكبوت: ١٦ - ١٨.

ثم ذكر الله سنّته من استبدال قوم بعد قوم كالجملة المعترضة حتى عاد فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ

---

(١) انظر الطبري ٢٥: ٣٨-٣٩، وابن كثير ٤: ١٢٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

ﭐلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ العنكبوت: ٢٤ - ٢٧.

(ه) ومثل ذلك قوله بعد ما كسر أصنامهم، كما جاء في سورة والصافات: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ الصافات: ٩٥ - ١٠١. ثم ذكر قصة إسماعيل عليه السلام، ثم قال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ الصافات: ١١٢.

(و) وتصريح الهجرة مع تفصيل القصة ترى في سورة الأنبياء. وفيها يتبين لك كيف بلغ الخصام غايته حتى هاجر، حيث قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ الأنبياء: ٦٧ - ٦٨. ثم ذكر كيدهم به وخسرانهم، ثم قال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ الأنبياء: ٧١ - ٧٢.

وإن تأملت في هذه الآيات تبيَّنْتَ وقتَ الهجرة. فإنّ بعدها بُشِّر بالأولاد، وقبلها ضيق وخوف. وصرح بذلك في سورة مريم: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾﴾ مريم: ٤٦ - ٤٩.

وهذه هجرة إبراهيم عليه السلام أمر متفق عليه. إنما بدّلت اليهودُ تفصيلَها، ولكنهم لم يكتموا أمر الهجرة. ففي سفر التكوين، الأصحاح الثاني عشر (١-٢):

وقال الربُّ لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة».

وإذ كانت القصة مشهورة مأثورة لم يأت بها القرآن إلا تذكاراً ونصيحةً حسب موقع الكلام. فهذه الآيات كلها مع آيات أخر تتعلق بواقعة واحدة. وهي أنه عليه السلام أقام مدةً مع قومه يَنصحهم، ويُحاجُّهم، ويُداريهم حتى يئس منهم أن يتعظوا بكلامه. فالتجأ إلى أن يمثل لهم أنّ الأصنام لا يملكن لهم ضرًّا ولا نفعًا لعلهم ينتبهون، أو تقوم عليهم الحجة. فكان كما ظنّ. فإنه لما كسر الأصنام رجعوا إلى أنفسهم، فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نُكسوا على رؤوسهم حياءً وفضيحةً، واعترفوا بضلالتهم. فبعد ذلك وبّخهم على سوء عملهم، فأخذتهم حمية الجاهلية وقالوا: حرِّقوه وانصروا آلهتكم. وأوعَده أبوه بالرجم. فحينئذ بلغ غرضُ النبوة منتهاه، وأُمِرَ بالهجرة. فتبرّأ منهم وصَدَع بالقول الدامغ. كما قد ذكرنا. وسنذكر بعض ما بقي عند تأويل ألفاظ السورة.

(٧)

في خطابهم باسم «الكافرون» دلالة على البراءة

اعلم أنه تعالى لم يخاطبهم في جميع القرآن بهذا الاسم إلا في هذه السورة، فإنهم أيأسوا النبي عن الإيمان بما أُرسل به، وأعلنوا أنهم ملتزمون كفرهم. وهكذا لابدّ أن يكون قبل الهجرة، كما مرّ في (٤): ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ إبراهيم: ٩.

فهذا هو قول المستكبرين الذين يتجاسرون بسيء القول، كما جاء في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ سبأ: ٣٤ - ٣٥.

وكما جاء في سورة القصص عن فرعون وأصحابه: ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ القصص: ٤٨.

وكما جاء في الزخرف عن المترفين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الزخرف: ٣٠.

وأيضاً فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الزخرف: ٢٣ - ٢٤. أي سواء كان أهدى أم لم يكن، فإنّا لسنا بتاركين طريق آبائنا، وإنّا كافرون بما أرسلتم.

فتبيّن لنا من هذه الآيات أنّ خطابهم بهذه الكلمة ليس من الشتم كما زعم الرازي رحمه الله[1]. فالمتفوه بهذا القول ليس بمؤمن أبداً، فإنه ليس فيه أثر من الخشية، وهم المترفون أئمة الكفر، أعداء كل خير، حتى يُعذَّبوا ويُقتَّلوا تقتيلا.

وتاريخ الأمم شاهد على ذلك. فإن الجبابرة وقرناءهم لم يُعطُوا الرعايا حقوقَهم إلا بعد القتال وسفك الدماء. فهكذا فعلهم مع الأنبياء. فإذا تمّت عليهم الحجة، وهم لا يرجعون، ضرب عنهم الصفح. وأما البغي والخروج على أولي الحكم والأمر، فهدمٌ لقانون المعاشرة، كما فصّلنا في كتاب «ملكوت الله»[2]. فالنبي حينئذ يتبرأ عنهم. وفي القرآن والكتب المقدسة آيات كثيرة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ النجم: ٢٩ - ٣٠.

---

(١) انظر تفسيره ٣٢: ١٤٤.

(٢) قد طبع عن مسودة المؤلف.

(٨)

الآيتان (٢-٣) عبارة عن البراءة

اعلم أنّ الرابطة الجامعة في الأمم كانت آلهتهم. فالقبائل الشتى اتخذت آلهة متفرقة، والتي أرادت مودة أخرى عبدت إلهها حتى إنّ كثرةَ الأمم في مملكة تُكثِّر آلهتهم. وهكذا كان دأبهم في الأيام الخالية، وكانوا يَعُدُّون هذا من مصالحهم، ويستزيدون الأوثان، لتأتلف قلوبهم، كما علّمنا القرآن في ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ العنكبوت: ٢٥. وقد شهد بذلك تاريخ الأمم الوثنية، كالروم والهند.

فإذا قيل لهم: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ فكأنه قيل لهم: أنا بريء منكم، وأنتم براء مني. وهكذا كان قول إبراهيم عليه السلام وأصحابه، كما مر في الفصل السادس (ألف، و ب، و ج).

وإنما قال: ﴿أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ عوض «تعبدون» لحسن موقعه، ولكنه استعمل للحال لقرينة ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾. وهكذا فهم ابن جرير رحمه الله[1].

(٩)

الآيتان (٤-٥) لتأكيد البراءة

البراءة تقتضي إيضاحاً وتأكيداً في القول. وأسلوب بلاغة القرآن أنه عند التكرار يزيد فائدة جديدة، كما ترى في إيراد القصص والحكم. وقلّما تجد تكراراً

---

(١) انظر الطبري ٣٠: ٢١٣-٢١٤.

محضاً.

فكلمة: (عابدون) يقطع الرجاء في المستقبل، وكلمة: (عبدتم) براءة عن دين آبائهم. وفيه غلظة، كما ترى في قول إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ الأنبياء: ٥٢ - ٥٤، وكما قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الشعراء: ٧٥ - ٧٧. أي لسنا بعابدين إلهكم وإله آبائكم أبداً، ولا أنتم عابدون أبداً إلهنا.

(١٠)
الآية الأخيرة كملة جامعة باقية في البراءة

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ كلام كالخاتمة الجامعة لما مرّ. فقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ يساوي: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ يساوي: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾، وأيضا: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾.

ولكونه جملة اسمية عمّ الأزمنة الثلاث. فهذه الآية لإيجازها كانت كمثل سائر، وقول لا يُنسى، وكلمة باقية، كما جاء عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الزخرف: ٢٦ - ٢٨. وهكذا يعلن قبل الهجرة، كما أعلن هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ هود: ٥٤ - ٥٥.

فترك محمد ﷺ هذا القول ناشباً في قلوبهم، فلم يستقرَّ بهم القرار. فإنهم

علموا أنّ دينه هو دين الله. وأوعبهم من الوعيد في مدة إقامته فيهم، فتركَهم وهم في رعدة. فكانت الهجرة أشدَّ الإبلاغ، لعلهم يرجعون. وقد رجع من قومهم كثير غير من حقَّ عليهم العذاب، فقُتلوا وأُهلكوا.

وهكذا قدَّم أشدَّ الإبلاغ عند فتح مكة، فأرسل إليهم سورةَ البراءة، فآمنت العربُ به فسمِّيت سورة التوبة. وهذه السورة وإن فصلت من سورة التوبة ولكنها ضُمَّتْ بسورة فيها التوبة الكبرى. انظر فصل (١١) لتعلم أن الهجرة ثم العذاب من أسباب الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ السجدة: ٢١.

(١١)

الإشهاد بالأحاديث على أنّ الهجرة كانت حرباً وبراءةً

قد بيّنا فيما سبق (٥) مستندين بالآيات أنّ الهجرة إعلان بالحرب والويل. والآن نورد من الأخبار ما يشهد بأنّ قريشاً اتخذوا الهجرةَ مقدمةً للحرب واستعداداً لها.

قال ابن جرير الطبري في تاريخه بروايته أن القوم لما اجتمعوا ـ وهم سبعون رجلاً وامرأتان ـ بالشعب لبيعة رسول الله ﷺ قال أحد رؤساء الخزرج وهو العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري ثم أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم إلى آخر الحديث[1].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢: ٣٦٣.

وكذلك روى في حديث آخر عن كعب بن مالك أنه قال: «فلما أصبحنا غدت علينا جِلَّةُ قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنّا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا؛ وإنّه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا إن تنشَب الحرب بيننا وبينهم منكم» إلى آخر الحديث[١].

وكذلك روى أنه حين كان يتكلم البراء بن معرور الأنصاري آخذاً بيد رسول الله مبايعاً له اعترض القولَ أبو الهيثم، وكان من حلفاء اليهود، قائلاً: يا رسول الله إنّ بيننا وبين الناس حبالاً و إنّا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا؟ قال فتبسَّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدّم الدّم، والهَدْم الهَدْم! أنتم منّي وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[٢].

فعلمت من هذه الأخبار أنّ الهجرة كانت حرباً بجميع الكفار من المشركين واليهود. فيومئذ نشأت أمة جديدة، وصارت للنبي ﷺ وأصحابه دار وشيعة. فكملت له شرائط لا يجوز الحرب قبلها (انظر: «كتاب الهجرة والحرب»)[٣]. ومع ذلك النبي مقيم بمكة يقاسي الشدائد حتى همُّوا بقتله. فكمل له شرط الهجرة، وحقّت سنّة الأمم برسولهم. وقد علمت في (٢) و(٣) أنّ النبي مأمور بالصبر وتحمُّل الأذى حتى يبلغ السيل الزُّبى. فحينئذ يهاجرهم، ولا يفِرُّ عنهم؛ بل

---

(١) المصدر السابق ٢: ٣٦٥. وانظر البداية والنهاية ٣: ١٦٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢: ٣٦٣، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٤، البداية والنهاية ٣: ١٦٠-١٦١.

(٣) ما وجدنا هذا الكتاب في آثاره.

١ - يعلن أوّلا بالبراءة،

٢ - ويجمع أمره،

٣ - وهو مطمئنّ بأنّ الله عاصمه،

٤ - وينتظر أمر ربه، فلا يبرح إلا على ميقاتٍ من الله،

٥ - بهيئةٍ تُنادي بأنّ الكفار عاجزون عن الإضرار به، كما بيناه في «كتاب الهجرة». فلم يكن فرار، ولكن مهاجرة وبراءة على سنّة الرسل.

(١٢)

ربط السورة بالتي بعدها

فلما كانت هذه السورة سورة الحرب أتبعها الله بسورة النصر للدلالة على أنّ النصر متصل بالحرب، كما ترى في القرآن كثيراً اتصالَ هذين الأمرين؛ وكما تبيّن في الفصل الرابع. وهذا أسلوب بينته بالأمثلة في بحث الوصل من كتاب «أسلوب القرآن»[1].

وما هذا النصر والفتح إلا ردّ المسجد الحرام إلى عبادة الله الواحد، وردّ ذرية إبراهيم عليه السلام إلى ربّها. فتذكّرْ هذا الأمر لفهم ما يأتيك، ولترى أنّ الهجرة تقشّعت عن الوصل والأوبة، والحرب تقشقشت عن السلم والتوبة. فلم تكن بعثة النبي ﷺ إلا بركةً لذرية إبراهيم عليه السلام ورحمةً للعالمين، كما تجد بعض البيان في تفسير سورة يوسف.

هذا، والله تعالى أعلم. فإن أصبتُ فله المنّة، وإن أخطأتُ فأرجو العفو. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

---

(١) يعني «أساليب القرآن» وهو مطبوع.

تفسير

سورة اللهب[1]

---

(١) في الفصل العاشر إضافات، والفصل ١٤ كاملاً زيادة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۢ ٥﴾.

(١)

تأويل الآية الأولى، وربط السورة بالتي قبلها، وأنها ليست بدعاء، بل هي إخبار عن فتح مكة

قد ذكرنا في سورة النصر أن الله تعالى كما ختم هذه البعثة بفتح مكة، فكذلك ختم كتاب هذه النبوة بذكر هذا الفتح العظيم. وذلك إنباء بأنّ الحق بلغ مركزه، لأنّ فتح مكة هو مركز هذه البعثة لكون الكعبة مركزاً للتوحيد والإسلام، كما مر تفصيله في تفسير سورة البقرة. فلم يبق إلا الاستقامة عليه والاعتصام به. فزيدت السور الثلاث الأخيرة للتنبيه على أنّ غاية هذه البعثة هو التوحيد. فسورة «الإخلاص» جامعة لمعرفة التوحيد، و«المعوذتان» لأجل الاستقامة.

ونظير هذا الربط في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ فصلت: ٣٠. وتفصيل ذلك في تفسير المعوذتين.

فلا يخفى أن هذه السور كلها مربوطة. فوضعُ سورة اللهب بين هؤلاء لابدّ له من سبب، لكيلا يكون قاطعاً لربط بعضها ببعضٍ. فاعلم أن سورة اللهب تؤكّد وتوضّح معنى النصر المذكور قبلها وتبشّر به، كأنه قيل: قد نصر الله نبيه، وأهلك عدوه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ الإسراء: ٨١. وترى نظير ذلك في خطبته ﷺ على باب الكعبة بعد فتح مكة، حيث قال:

«لا إله إلا الله وحده (فهذا معنى سورة الكافرون)، وصدق وعده ونصر

عبده (وهذا معنى سورة النصر)، وهزم الأحزاب وحده»[١]. وهذا معنى سورة تبت.

فكما أن هذه الفقرات الثلاث منتظمة، فكذلك هذه السور كلها منظمة عند من أحضر مضمونها إجمالاً.

ذلك، وأما الدليل على تأويلنا لقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ فاعلم أنّ مفهوم تبت يداه: أنه صار عاجزاً عن الانتصار، لأنّ كسر اليد كناية واضحة عن كسر القوة والعجز، كما قال الفِنْد الزِّمَّاني:

وتركنا ديارَ تغلبَ قَفْراً   وكَسَرنا من الغُواة الجناحا[٢]

وجاء مثل ذلك مع فقرات مرادفة موضحة في كتب الأنبياء. والعبرانية أخت العربية في أكثر أساليبها. وذلك ما نجد في صحف ذي الكفل (حزقيل) النبي، فقال (ص ٣٠ ف ٢٠-٢٢):

«وقع في السنة الحادية عشرة في الشهر الأول في اليوم السابع أن كلام الله جاء إليّ قائلاً. يا ابن آدم إني كسرت ذراع فرعون ملك مصر وها هي لن تجبر بوضع رفائد ولا بوضع عصابة لتجبر فتمسك السيف. لذلك هكذا قال السيد الرب. ها أنا ذا على فرعون ملك مصر فأكسر ذراعيه القوية والمكسورة وأسقط السيف من يده»[٣].

فتبين من ذلك أن المكسور اليد هو العاجز الذي لا يستطيع أن يأخذ سيفه. فهذه الآية ليست بدعاء عليه، ولا في شيء من الشتم، بل ذكره بالكنية أقرب إلى

---

(١) انظر زاد المعاد ٢: ١٨٣، والبداية والنهاية ٤: ٣٠١.

(٢) شعراء النصرانية: ٢٤٣.

(٣) من إفادات المؤلف رحمه الله: جاء في المزمور السابع والثلاثين الذي يطابق السور العشر (١٠٥-١١٤): «لأن سواعد الأشرار تنكسر».

الإكرام. فالتأويل الظاهر أنه إخبار ونبوة تنبئ عن هلاك رئيس أعداء الله وفرعون هذه الأمة، كما أن قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ المسد: ٢ إخبار ونبوة. وسيأتيك له مزيد بيان.

فإن سألتني: لم سمّيتَه «فرعون هذه الأمة»، وما كان من أشدِّ مَن عادى النبي ﷺ وأصحابه، وأجلب عليهم بخيله ورجله، كأبي جهل وأبي سفيان، فما كان في عِير ولا نفِير؟ أجبناك بأنّ أول ما دعاني إلى ذلك أنّ الله تعالى خصّه بالذكر دون سائر الكفار. ثم تفكرنا، فوجدنا لذلك أسباباً، ونذكرها الآن.

(٢)

السبب الأول لذكر أبي لهب بالخصوص هو منصبه في الدين، وهو السبب الحقيقي

فاعلم أنّ الله تعالى لم يجعل محمداً ﷺ ملِكاً فيكون أعدى عدوه من نازعه ملكه، بل بعثه نبيًّا داعياً إلى الحق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً. وأمره بالصبر والصلاة، وإعلاء كلمة الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يردّهم إلى ملة إبراهيم عليه السلام، وأن يطهّر بيته من أوضار الشرك إنجازاً لما وعد بانيه، كما بيّنّاه في تفسير سورة البقرة.

ولذلك أمره بإنذار عشيرته الأقربين الذين هم سدنة بيته، وذلك هو طريق الأنبياء. ألا ترى عيسى عليه السلام كيف كان يعنّف على علماء اليهود ويُغْلِظ لهم القول، فإنّ أولئك هم الذين حُمِّلوا أمانة الله، فهم يُسألون. ثم إنهم قادة الجمهور، فيُدْعَون أولاً لتصلح العامة بصلاحهم. ولو ترك الأنبياء سادة الناس كان مداهنةً في الدين وهدماً للسلم، كما تفعل الخوارج من كل قوم، فإنهم يثيرون العامة. ومن هاهنا يظهر الفرق بين طُلّاب المُلك وبين أنبياء الله.

ألا ترى كيف أمر الله تعالى موسى عليه السلام حيث قال عز من قائل: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩﴾ النازعات: ١٧ - ١٩. وترى دانيال عليه السلام يدعو الملك العظيم «نبوخذ نصر» هو الذي يسمونه بختنصر، وترى يرمياه عليه السلام تنبأ على ملوك الشمال. وهكذا ترى محمداً ﷺ خاطب ملوك الأرض ودعاهم إلى السلم. ولتفصيل هذه المسألة موضع آخر.

هذا، وقد سبق في تفسير سورة الماعون أن أبا لهب كان صاحب سدانة البيت، وتولّى أمانته، وقد بالغ في خيانة هذه الرئاسة الدينية، وقد جمع مالاً كثيراً بالرفادة. فلئن كان بالشرك هدم ركناً واحداً من مقصد البيت، فبهذه الخصلة قد هدم ركنه الثاني، وهو المواساة بالمساكين المطلوبة من القربان، وإطعام الحجاج أضياف الله. فحقّ عليه الويل، وسُلِبَ ولاية البيت.

فلما كان أكبر مقصد هذه البعثة استخلاص الكعبة وتطهيرها عن الأرجاس لم يُهِمَّ النبيَّ ﷺ سائرُ قريش من أصحاب الندوة والقيادة واللواء ـ مع أنهم آذووا النبي وحاربوه حتى أخرجوه وأصحابه عن جوار بيت ربهم ـ كما أهمَّه هذا الخائنُ الأمانةِ المبطلُ الديانة. فكان أبو لهب لجهة منصبه هو الخصم الحقيقي للدين، وأما سائر قريش فتبع له. فلما قيل: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ فكأنه قيل: انهشم رأسُ الكفر، واجتُثَّ جرثومُ الفساد. فبشّر المؤمنين بهذه النبوة، كما بشّر بها قبلها من مجيء نصر الله.

(٣)

السبب الثاني لذكره أنه كان أكبر قريش خلافاً للدين من جهة خُلُقه

إنّ الله تعالى بعث نبينا على أحسن الخلق داعياً إلى مكارم الأخلاق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ القلم: ٤. وقال النبي ﷺ: «بعثتُ لأ تمم مكارم

الأخلاق»[١].

وجماع المكارم: الجود، وصلة الرحم، وإعانة الضعفاء. وقد نشأت العرب على هذه الأخلاق. فلما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والمواساة لم يخالفه الشرفاء إلا من جهة إشراكهم بالله، وإنكارهم بالبعث بعد الموت.

وأما أبو لهب فخالفه لحرصه وحسده أكثر مما خالفه لشركه. وذلك يعلم من النظر في سيرته. فإنه لما تألّبت قريش خلاف النبي ظلماً وحميةً جاهليةً، وكتبوا صحيفة الجور، وخذلوا بني هاشم بأجمعهم مؤمنيهم ومشركيهم كان أبو لهب مع الظالمين. فقَطَعَ الرَّحِمَ، وهو عند العرب إثم عظيم وحُوب كبير. فإنّ منزلة الرحم عندهم فوق كل شيء، وكانوا يتساءلون به مثل ما يتساءلون بالله، وينشدون به كما ينشدون بالله، كما ذكر في سورة النساء: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ النساء: ١ حتى إنها كانت أكبر وازع عن السوء، وأصل قانون الصلاح، كما قال زهير يمدح هرم بن سنان:

وَمِنْ ضَرِيبته التقوى ويعصِمُه من سيئ العثراتِ اللهُ والرَّحِمُ[٢]

وتفصيل ذلك في تفسير سورة النساء.

---

(١) الموطأ بشرح الزرقاني ٤: ٩٢.

(٢) ديوانه: ٥٩. وقال الحصين بن حمام المرّي:

أيا أخوَينا من أبينا وأمّنا إليكم وعند الله والرَّحِمِ العذرُ

انظر الخزانة ٧: ٤٩٧. وقال معن بن أوس المزني:

فلولا اتقاءُ الله والرحمِ التي رعايتُها حقٌّ وتعطيلُها ظلـمُ

إذن لعلاه بارقـي وخطمتُه بوَسْم شَنارٍ لا يشاكله وسمُ

انظر ديوانه: ٤٢.

فلما قطع أبو لهب حبل بني هاشم باء بأكبر ذلّة. ولو كان له أدنى حظ من حمية العرب و شرافة نفوسهم لكان على أسوة أبي طالب الذي كان ينافح عن النبي ﷺ مع بقائه على دين قومه، أو كان على أسوة حمزة ﷺ الذي جاءه الإسلام من باب حميته وغضبه لابن أخيه حين آذاه أبو جهل.

وكذلك لم يكن خلافه بالنبي ﷺ وسائر بني هاشم لتصلبه في دينه. فإنه حين خرجت قريش كلهم إلى بدر لقتال النبي ﷺ، وهو أكبر جدالهم، ولم يبق من شرفائهم أحد إلا وقد حضر، فحينئذ قعد أبو لهب ولم يخرج، كما سيأتيك تفصيله في الفصل الثامن.

فلو كان له أدنى حساسة دينية لخرج إلى بدر - كما خرجت كبراء قريش - ولجالد عن دينه، وكان مثل أبي جهل ذي الحمية الأبية الذي قال حين التقى الناسُ ببدر ودنا بعضهم من بعض: «اللهم أقطَعَنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحِنْه الغداةَ»[1]. فما أحسن قولَه وما أدلّه على شرافته ورعايةِ الرحم لولا جهالتُه! أو كان مثل أبي سفيان الذي حين ضاقت عليه الأرض وأتى النبيَّ ﷺ يسأله العفو وصلة الرحم لم يكذب فيما أخبر عن مستكِنّ صدره من إيمانه بالتوحيد وشبهته في الرسالة. فنرى هذين الرئيسين لقريش قائدَين للعرب قائلَين فاعلَين ما يليق بالحمية والإباء.

فلم يعاند أبو لهب النبيَّ ﷺ لعصبية قومية ولا لتعصب ديني حتى يكون ذلك عذراً يعتذر به لقطعه حبال بني هاشم. فلم يبق إلا أمر واحد، وهو أنه كان دنياه مع الكفار لما كان يأخذ من أموال الرفادة ويجمعها لنفسه. وإلى هذا تعرض الآية الثانية ؛ وسنذكره في تفسيرها.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٢٠٣.

ولولا علم الناس بدناءة نفسه وجمعه المال من حَسِّه وبَسِّه لما اتهموه بسرقة غزال الذهب الذي كان في الكعبة، مع كونه من أشرف بيت العرب المشهور بالجود والكرم.

فتبين لنا مما ذكرنا أنّ أبا لهب لم يكن له إباء أبي جهل ولا رئاسة أبي سفيان فيبغض النبي ويخالفه لذلك، بل كان أُشرِبَ قلبه بُغضاً وعناداً بالنبي ﷺ، لما كان يأمره بالجود وينهاه عن البخل، ويحضُّ على البر باليتامى والمساكين، وفكِّ الرقبة، وإطعامٍ في يوم ذي مسغبة، على سنّة بني هاشم الباقية من جدّهم إبراهيم ؏، تزكيةً لنفوسهم وإيفاءً لحقِّ ولاية البيت.

فكان قول النبي ﷺ يقع عليه كالجمر فيملؤه غيظاً، لما كان يعلم من نفسه الخيانة والشحّ. فلم يكن مشركاً محضاً بل زاد على شركه إلحاداً وإبطالاً لخصال الخير والكرم، وقد اطمأن بالحياة الدنيا حسبما ذكر في سورة الهمزة. فكان أكبر خصماء هذه البعثة، ورئيس أعداء الصلاح ومكارم الأخلاق ؛ كما أنّ أكبر أصدقائها من كان أسخاها وأتقاها. وتفصيل ذلك في تفسير سورة «والليل».

(٤)

السبب الثالث لذكره مبادرتُه إلى مخالفة الإسلام

ومثل ما استدللنا من منصبه وخلقه، نستنبط من أفعاله في مخالفة الإسلام، فإنه كان أول الكافرين، لما أنه بادر إلى خلاف النبي حين قام أولاً بالدعوة قبل أن يخالفه أحد، بل إنهم كادوا يُذعنون لقول النبي ﷺ، لأنهم لم يروا منه إلا كلَّ خير. فكان أبو لهب هو الذي صار سدًّا دون الإسلام، فإنّه هو الذي نفّرهم عنه، وأفسد قلوبهم.

وبيان ذلك أن النبي ﷺ لما أمره الله بإنذار قومه وصعد الصفا ونادى منه

قائلاً: «يا صباحاه» واجتمع إليه أهل مكة، فقال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال أبو لهب: «تبًّا لكَ ألهذا دعوتنا؟»[١].

ثم لما أمره الله بإنذار عشيرته الأقربين، ودعاهم، وأطعمهم حتى إذا فرغوا منه، وأراد النبي ﷺ أن يتكلم = بادره أبو لهب قائلاً: «لَقِدْماً سَحَرَكم صاحبُكم». فتفرق القوم، ولم يكلّمهم النبي ﷺ[٢].

ثم لما يئس النبي ﷺ عن قومه الخاص، وجعل يعرض نفسه على قبائل العرب في أيام الموسم، يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، كان أبو لهب يقول من خلفه: «يا بني فلان إنّ هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات و العزى من أعناقكم وحلفائكم من الجنّ من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له»[٣].

وهكذا كان أمره في عداوة الإسلام وتغيُّظٍ من ظهوره حتى مات غيظاً وحنقاً، كما سنذكره في تفسير الآية الثانية.

(٥)

السبب الرابع لذكره من جهة قرابته القريبة بالنبي ﷺ

(وبيان ربط السورة بالتي بعدها)

قد اتضح مما تقدم سبب خصوصية أبي لهب بالذكر دون سائر الكفار على

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾، وتفسير الطبري ٣٠: ٢١٨، وابن كثير ٤ :٥٦٨.

(٢) انظر البداية والنهاية ٣: ٣٩.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢: ٤٩، وابن كثير ٤: ٥٦٨.

وجه يدل على مناسبة السورة بما قبلها، وعلى أنها ليست بدعاء ولا شتم لمخالفته بالنبي ﷺ. والآن نذكر ما يؤيده، ويزيد عليه معنى البراءة من أعداء الله، والاعتصام بالتوحيد، والانقطاع إلى الرب. فهي تمهيد للإخلاص الذي أعلنه في السورة التالية.

وبيان ذلك أنّ الله تعالى إذ خصَّ بصراحة الذكر هذا عمَّ النبيِّ دون سائر الكفار ـ مع شدة إيذائهم إياه ـ علمناه أنه ضرب مثلاً مثلَ آزر، لنعلم أنّ من قطعته أعمالُه عن ربه لن تنفعه قرابةُ الصلحاء حتى النبي الحبيب، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ الممتحنة: ٣ - ٤.

وأيضاً قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ التوبة: ١١٤.

فكما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه بعد إتمام الحجة وإفراغ الجهد في النصيحة له، فكذلك هذا النبي صدع بالحق خلافَ عمِّه بعد إتمام الدعوة ولزوم الهجرة، وهذا أشدُّ عليه. فإنه عليه السلام كان على غاية الرحمة عموماً وبذوي القربى خصوصاً كما علِمنا من أحواله، وكان يستغفر لهم حتى نهاه الله عنه.

فهذه السورة تمثِّل بين أيدينا واقعةً عظيمةً من بطشه تعالى عمّاً قريباً لنبي كريم، إذ عصى الربَّ وتمادى في طغيانه. فبدا لنا من ذلك أنّ الله تعالى هو الحاكم، والأمر كله بيده، وهو قائم بالقسط، لا يراعي الوجوه، ولا يحكم إلا بالحق. فوجب أن نعتصم به، ونتوكل عليه، ولا نغترَّ بوسائل كاذبة. فإنه لا وسيلة إليه إلا بإرضائه، ولا شفاعة إلا بإذنه. فهو الغني المتوحد المتفرد، كما قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ

ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ الإخلاص: ١ - ٤.

فإنّ المبطلين زعموا أنّ له أبناء، فيشفعون لعبادهم، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الزمر: ٣. فبما ذكر الله تعالى من عاقبة أبى لهب، دلّ على قطعِ حبالٍ واهنةٍ. فبهذه الجهة اتصلت السورة بما بعدها.

(٦)

سرد الأدلة على أن هذه السورة إخبار ونبوة، لا دعاء وذم

فبعد ما اتضح لنا التأويل الصحيح لا نرى سبيلاً إلى اختيار قول من قال: إنّ هذه السورة نزلت شفاءً لغيظ النبي، تَشتُمُ أبا لهب وامرأته، لما أنه شَتَمَ النبي حيث قال له: «تبًّا لكَ، ألهذا دعوتنا؟».

لا شك أنّ أبا لهب حينئذ خاطب النبي ﷺ بالسفاهة

(١) ولكن القرآن يأمر بحسن الخطاب والصفح عن السفيه، كما قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥، وقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٥، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ الحجر: ٨٥، وقال: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ الزخرف: ٨٩.

وهكذا أثنى على عباد الرحمن بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ الفرقان: ٦٣. وكذلك حكى عن إبراهيم عليه السلام حيث قال يحكي محاورته بأبيه آزر: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ مريم: ٤٦ - ٤٧.

وقد أمر النبيَّ ﷺ باتباع إبراهيم عليه السلام، وبَعَثَه على خصاله، وأَمَره بالصبر على قولهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ المزمل: ١٠.

(٢) ثم لو أراد الله شفاء غيظه بالشتم لما نهاه عن مُثلة الكفار، وقد ضاق صدره بالحزن حين مَثَّلوا حمزةَ حِبَّ النبي ﷺ وأخاه من الرضاعة وعمَّه.

(٣) ولو أراد النبي ﷺ شفاء صدره لما أعتق أهل مكة يوم فتحها، ولما نهى المسلمين عن الإساءة بهم. وأما إيقاعه بالمعتدين الناكثين العهد فذلك لإقامة العدل وتطهير الأرض من الفساد والفاحشة. ومن تتبع أحكامه في ذلك علم أنه لم ينتقم لنفسه أبداً، وكان يرجِّح اللينة على الغلظة متى أمكنته.

(٤) ولو أراد الله ورسوله شتم أحد من الكفار بعينه كان أبو جهل وعبد الله بن أبيّ رأسُ المنافقين أحقَّ بذلك.

(٥) ولا نرى القرآن يذم الكافرين إلا كناية مطلقة غير موسومة. وما ذاك إلا مثل ذم الصفات المطلقة.

(٦) وهكذا علمنا من تعريضات النبي ﷺ، فكان يقول: «ما بال قوم يفعلون كذا وكذا»[(١)].

(٧) وقد جاء من صفته في الكتب السابقة أنه ليس بصخّاب[(٢)]. ولا أدري لعلها فارقة بينه وبين عيسى عليه السلام الذي تراه يشتم، أو ذلك من تحريف النصارى، وهو أمثل. ففي نسخة متى (١٢: ٣٤):

---

(١) انظر مثلاً حديث عائشة في صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد. قال فيه النبي ﷺ: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليس في كتاب الله...».

(٢) انظر مقدمة سنن الدارمي، باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه.

«يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار».

وكذلك خطابه لأفضل خلفائه شمعون الصفا، كما جاء في مرقس (٨: ٣٣):

«فانتهر بطرسَ (أي الصفا): اذهب عني يا شيطان».

ولذلك أمثال أخر.

(٨) ولم يكن من خلق النبي ﷺ ولا بخليق له إلا حسن الخطاب، لما عَلِمنا من عامة خُلقه، فإنه كان أشدَّهم حياءً، وأطهرهم كلاماً.

(٩) وإذ لم يتنازل القرآن في ذمه إلى تسمية من كان أكبر الكفار عزًّا ونباهةً من قواد الجيوش وخطباء القوم ورؤساء الأحزاب، فهل يتنازل إلى شتم من لم يكن من خصائله إلا كلُّ أمر سخيف دني؟

(١٠) ثم هذا التأويل لا يلائم موضع السورة. فأيُّ محل للشتم بين ذكر أمرين عظيمين من فتح مكة والاستغفار والتسبيح، والإعلان بالتوحيد الكامل الصريح؟

وكلُّ واحد مما ذكرنا من الوجوه يكفي للصدِّ عما توهموه.

(٧)
أسباب الوهم في تأويل السورة إلى الذم

إني لم أجد لتأويل السورة إلى الذم والشتم منشأ ما عدا أربعة أسباب وكلها ضعيفة غير جديرة بالتمسك. وإنما نذكرها بسطاً لعذرهم، وبياناً لضعفها.

فالأول: أن أبا لهب قال للنبي ﷺ: «تبًّا لك»، فردّ الله تعالى عليه بمثل ما قال. وقد مر البحث على هذا الوجه آنفاً، فلا نعيده.

والثاني: أن صيغة الماضي إما تأتي إخباراً أو إنشاءً، ونزلت السورة قبل هلاكه،

فلا تكون إخباراً. والإنشاء هاهنا للعنة، كما يقال: تربت يداه، وشَلّت يمينُه.

فنقول: إنّ صيغة الماضي أصلها للإخبار، والإخبار ربما يكون عما سيقع وقد قُضي أمره من عند الله. وهذا الصنف إنما هو إنباء من الله يعلن بما سيحدث. ومن سرح النظر في أسلوب النبوات المخبرة عما يأتي كما جاء في صحف الأنبياء والقرآن رأى أن قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ إعلان بأمر يقع، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ النحل: ١.

وقال يوحنا في مكاشفاته: «سقطت بابلُ العظيمة»[1] مع أنها تسقط في المستقبل.

ويؤيد كونه خبراً ما جاء بعده من قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ وهو خبر لا محالة. وكذلك ما اتصل به من قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾، فإنه نبوة أيضاً، كما سيأتيك بيانه. وكذلك السورة السابقة جاءت بالاتفاق إخباراً، فكذلك هذه السورة.

والثالث: حملهم هذه الجملة على نظيرها من قولهم: «تربت يداه». فنقول: إن ذلك لا يثبت دعواهم، فإنّ للدعاء صيغاً مخصوصةً، ولا يستعملون من التباب للدعاء إلا «تبًّا». ولو سلَّمنا مجيئه للدعاء أيضاً، فما كان أشبه بالسياق، وأقدم في الدلالة، وأحسن في التأويل = كان مختاراً. ولا يُصار إلا إليه.

والرابع: أن قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ جاء منصوباً لأجل الشتم والذم. فنقول: إن تأويل النصب إلى الذم تأويل سقيم. والصحيح أنه منصوب على

(١) انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٨: ٢.

الحالية، كما ستجد بيانه في الفصل التاسع بعونه تعالى. وبعد ما استيقنّا أن هذه الجملة إخبار ونبوة، فلنذكر الآن كيف صدقت هذه النبوة في أبي لهب.

(٨)

تأويل الآية الثانية وأن النبوة المذكورة في السورة قد وقعت

قد تبين من جهة التأويل أن السورة نزلت على سبيل الإخبار، كما نزلت السورة السابقة. فالآن نذكر من جهة التاريخ كيف صدقت في أبي لهب هذه النبوة.

فاعلم أن يوم بدر كان من أكبر الأيام في تاريخ الإسلام. سماه الله تعالى «يوم الفرقان»، وأنجز فيه ما وعد نبيه من النصر والفتح، وإهلاك أعدائه، كما قال النبي ﷺ يومئذ في دعائه المشهور: «اللهمَّ أنجِزْ لي ما وعدتَني». فأراه الله مصارع كبراء قريش، فخرج النبي ﷺ يُري أصحابه مصرع واحد واحد[١].

وذلك لأن قريشاً يومئذ جمعت أحابيشها وأحلافها وقوادها وأشرافها، فضمّت على المسلمين أطرافها حتى أجلبت ببدر كلَّ ما استطاعت من عُددها وعددها، «وألقت بها أفلاذ كبدها» إلى أن مثل عباس رضي الله عنه مع حبه النبي ﷺ لم يسعه القعود عنها. ففي ذلك اليوم لم يخرج أبو لهب، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة. وكان له عليه أربعة آلاف درهم أفلس بها، فاشترى نفسه بمال لا رجاء له فيه[٢]. وهكذا البخلاء والجبناء يفعلون!

وإنما كانت العرب تجعل المال جُنَّةً للعِرض. فرضي بالقعود خوفاً على نفسه،

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣: ٢٦٢-٢٦٣، ٢٧٦.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢: ١٩٠، والبداية والنهاية ٣: ٢٥٨.

ولكن وقع عليه وعد الهلاك المتاح لأئمة الكفر. فإنه لم يلبث بعد ما جاءه خبر بدر إلا سبع ليال، ورُمي بالعدسة فمات، وتركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفنانه مخافة عدواها حتى أنتن في بيته، وعيَّرهما رجل بذلك وجاء بهما إلى جثته. فما غسلوه إلا قذفاً بالماء من بعيدٍ ما يمسونه. ثم حملوه، فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه الحجارة ووراوه[١]. وقذف الحجارة من اللعنة، كما بيّناه في تفسير سورة الفيل. فانظر:

١- كيف صدق فيه أنه عجز عن الانتصار إذ لم يمسك بسيفه، وقعد عن الخروج.

٢- ثم كيف زاد عجزاً على عجز إذ قُتل أكثر أعوانه. فإن أُولعتَ بالإشارات كفاك ذلك تأويلاً لليدين. فإنّ العرب تسمي الأعوان يداً، مثلاً قول النبي ﷺ: «وهم يد على من سواهم»[٢].

وأما يد العلم والعمل كما قيل، فبعيد من جهة اللسان. وإنما هو تفسير بالرأي المحض.

٣- ذلك، ثم لم تكسر قوته وشوكته فقط، بل هلك نفسه.

٤- ثم انظر كيف لم يُغنِ عنه مالُه، إذ استأجر به من يقاتل عوضاً منه.

٥- ثم لم يغن عنه ماله وكسبه، إذ رُمي بالعدسة، فتركوه حتى تركه ابناه، وهما كَسْبُه على رأي ابن عباس رضي الله عنه[٣]، إن صح عنه. فإنهما خذلاه، وقذفوا عليه الحجارة. وجعل الابن من الكسب تأويل على أسلوب توسيع اللفظ لجميع ما يدل

(١) انظر البداية والنهاية ٣: ٣٠٩.

(٢) انظر سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في السرية تردّ على أهل العسكر.

(٣) انظر الطبري ٣٠: ٢١٨.

عليه مع إبقاء المعنى الحقيقي. فذلك، أو كلمة «ما كسب» تعريض إلى ما ليس بماله حقيقة، ولكنه كَسَبه بأي وجه كان من الحلال والحرام.

والرابط بين الآيتين على كلا التأويلين واحد، وهو أنّ ما حمله على هذه الخيانة والبخل لم يُغن عنه شيئاً. والأهل، والولد، والمال من أكبر ما يُبتلى به دين المرء، كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ التغابن: ١٥. وأيضاً: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ التغابن: ١٤. فإن النساء ربما يطلبن بعولتهن جمع المال لزينتهن، فيصرن سبباً لهلاكهم ويدخلن النار معهم.

فصار التأويل: أن كل ما حسبه قوة وعزة من المال والأولاد لم ينفعه، كما حكى القرآن عن إقرار أمثاله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ الحاقة: ٢٨ - ٢٩، وأن كل ما حمله على الحرص والخيانة من حب المال والأهل لم يغن عنه شيئاً حين بطشه ربُّه. وبهذا التأويل ترتبط هذه الآية بالتي بعدها، كما ستعلم.

وفيما تقدم مرَّ تأويل الآيتين الأوليين، إلا كلاماً يسيراً في سبب ذكر أبي لهب بكنيته، فنذكره في الفصل الآتي.

(٩)
تأويل الآية الثالثة وبيان أن الجزاء يشبه العمل

اعلم أن الله تعالى قد قضى بأن يُهلك من يهتك حرمة هذا المسجد الذي سماه بيته المحرَّم، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ الحج: ٢٥. وما زال هذا القضاء يقع. فسلب الله الخائنين ولاية بيته العتيق، ومزق الملحدين الظالمين كل تمزيق، كما مر في تفسير سورة الماعون. فعلى هذا الأصل بعدما أخبر عن هلاك هذا الخائن، أخبر عما يصير إليه بعد هذا العذاب الدنيوي، فقال: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾.

وذلك بأن الإنسان يُجزى في الآخرة حسبما عمل، بل نفسَ ما عمل. فيحصد ما حرثه، ويجني ما غرسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ الطور: ١٦. وأيضاً: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الزمر: ٢٤. فإن صح عندك هذا الأصل تأمل في أحواله وما ذكر من جزائه تجد المناسبة بينهما.

فإنا قد علمنا أنه كان حادَّ الطبع تتوقد وجهُه كشعلةٍ حتى كني بأبي لهب. واشتهرت هذه الكنية حتى غلبت على اسمه عبد العزى. فلو كان عاقلاً قهر نفسه، وأطفأ سورتها بخصال الكرم والحلم والنصيحة للناس لينال الشرف، كما قال السموأل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمَها   فليس إلى حسن الثناء سبيل[1]

وكما قالت الخنساء:

نهين النفوسَ وهُون النفو   سِ عند الشدائد أبقى لها[2]

فإن الله تعالى جعل كرامة النفس منوطة بالكره واحتمال المشقة، وذلك هو ابتلاؤه. ولكن أبا لهب لم يرد إصلاح نفسه الأبية اللهبية، بل أمدّها بما يزيدها شرًّا من الحرص والعداوة والحسد. فكأنه نفخ في ضرمها، وأشعلها بوقودها. وليس هذا من التخييل الباطل، فإن العرب والعجم شبهت هذه الخصال بالنار. ولا سبيل إلى مشابهة حسية ظاهرة، فلابد أن شبّهوها بالنار لما رأوا من تأثيرها. فعلمنا أن هذه المشابهة مما عرفته أكثر العقول. وقد رأينا القرآن كثيرا ما يذكر الثواب والعقاب على صورة مناسبة بالأعمال، ليشير إلى بعض الحقائق. فمن تدبر ذلك وتأمله ازداد بصيرة،

(١) الحماسة ١: ٢٨.

(٢) ديوان الخنساء: ١٠٥.

وتبين عنده أن الشهوات وأذاها كلها أشبه شيء بالنار ولظاها.

والفائدة الكبرى من ذلك أن نستيقن بأن الجزاء مثل العمل وثمره. فنؤمن بكمال عدل الله تعالى ونزداد معرفةً باسمه «الحق المبين» و«خير الحاكمين»، وأنه تعالى لا يظلم شيئاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ يونس: ٤٤.

فإذا نظرنا في هذه الآية من جهة مشابهة الجزاء بالأعمال لم تزد هذه النظرة إلا تأييداً لما قدّمنا من تأويل السورة وأحوال أبي لهب والمطابقة بينهما. فقوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾ إخبار عن واقعة حق لا محالة عنها.

(١٠)
تأويل الآية الرابعة وذكر الدلائل على أن ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ بيان حالها يوم القيامة

اعلم أن معنى الآية الرابعة أن امرأة أبي لهب تصلى ناراً ذات لهب، وهي حينئذ على هيئة أَمَةٍ حمّالةٍ للحطب، وليس المراد أنها كانت تحمل الحطب في الدنيا، فإن ذلك تأويل بعيد غير صحيح، ودلّت عليه دلائل:

الأول: أن كلمة ﴿حَمَّالَةَ﴾ منصوبة، واجتمع المسلمون كلهم على هذه القراءة[1]، والقرآن يحفظه الله كما وعد. ولا يعتمد إلا على القراءة المتواترة المحفوظة. ولا ننكر اختلاف القراء إذا لم يختلف المعاني، فإنهم أرادوا بذلك تفسيراً وتقريباً إلى فهم المخاطب، فقرؤوا بالرفع ليدل بوجه آخر على ما يفهم من النصب. وإني أفسرها على كلا الوجهين:

---

(١) النصب قراءة عاصم من السبعة، وقرأ الباقون بالرفع.

أما وجه النصب فبأن «الواو» في ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ للعطف. أي تصلى امرأته مع زوجها نارا ذات لهب. وهذا هو الظاهر، فإن سوق الكلام لذكر صلائهما النار، وإرادة المعنى بالنص أولى. وحينئذ نصب الحمالة ليس إلا للحالية.

وأما قول سيبويه: بلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصباً ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ لم يجعل الحمالة خبراً للمرأة، ولكنه كأنه قال: «اذكر حمالة الحطب» شتماً لها[1].

فنقول: إن القراءة عند سيبويه الرفع، فهو لم يرد أنه شتم، وإنما ذكر أن بعض الناس ينصبونه على الشتم. ولا يخفى أن هذا التأويل لا يلزم كل من ينصبه، فإن النصب على الحالية إعراب ظاهر.

فإن قيل: لو أراد ذلك لقال: «تحمل الحطب» أو «حاملة الحطب»، قلنا: ليس في الفعل من البقاء واللزوم ما في الصفة، وليس في اسم الفاعل من الشدة ما في اسم المبالغة، مثلاً تقول: تولّى زيد الإمارةَ حمَّالَ أثقالِ الناس. فهذا أبلغ من قولك: يحمل أو حاملاً.

وأما صاحب الكشاف فقد غرَّه كلام سيبويه. والرجل مولع بكل نادر غريب، ولا معوَّلَ على ذوقه. فإنه لم يعجبه هذا التأويلُ إلا لكونه شتماً، فقال: «وأنا أستحبُّ هذه القراءة. وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بالجميل مَنْ أحبَّ شتمَ أم جميل»[2].

فما أخطأه استعمالاً لصنعة لفظية، والتماساً للتقرب إلى أكرم ولد آدم بشتم

---

(١) الكتاب ٢: ٧٠ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) القاهرة ١٣٨٨/ ١٩٦٨م.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤: ٢٤١.

عشيرته! فأضرب الصفح عن سخافة قوله.

وقد مرّ في الفصل السادس ما يصدُّنا عن إرادة الشتم، ومرّ هناك من الدلائل ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى. وسيتضح لك أن نصبه على الحالية يجعله أوضح محلًّا، وأقرب رباطاً، وأحسن تأويلاً. فلا حاجة إلى وجه نادر للإعراب. وإذ هو حال عن فاعل ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ دلّ على كونها حمالةً حين تصلى النار أو بعد دخولها جهنم. فإن الحال ربما تبين ما سيقع، وقد صرح به أهل النحو، مثلاً في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ الفتح: ٢٧. وليس كبير فرق بين المعنيين.

هذا، وأما وجه الرفع، فليس من جهة كونه نعتاً للمرأة، لأنّ حمالة الحطب نكرة لإضافة اسم المبالغة إلى معموله، فهي لا محالة إضافة لفظية فلم تكسب تعريفاً للمضاف، فلا يكون نعتاً للمعرفة. فمن رفعه لابد أن يرفعه على الخبرية، وهكذا يفهم من قول سيبويه. فنقول: الواو في ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ حينئذ حالية، أي سيصلى أبو لهب ناراً ذات لهب، والحال أنّ امرأته حمالةُ الحطب، في جيدها حبل من مسد. فمن قرأ بالرفع فسّر ما يُفهَم من النصب لكيلا يتوهم متوهم أنه للذم والشتم.

فإن قيل: لا نسلِّم أنّ الواو حالية، بل هي عاطفة، و﴿حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ خبر للمرأة، أو نقف على ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾، ونجعل تقدير الكلام: هي حمالة الحطب. قلنا: فهذا إخبار مبهم لا يُعلم منه أنه حكاية حالها في الدنيا أو الآخرة. فإن أردت الثاني فذلك ما نريد، وإن أردت الأول تصديت لقطع النظم من السابق واللاحق. أما السابق فظاهر أنه ذكرُ صلائه النار في الآخرة، وأما اللاحق فقد اتفقوا على أنه حكاية حالها في الآخرة. فتبين مما ذكرنا أنّ ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ سواء كان منصوباً أو مرفوعاً ليس إلا حكاية حالها في الآخرة، وأن القراءة الصحيحة نصبه وموقعه الحال ليس إلا.

والثاني: أن الآية التي بعدها تتمة لوصف ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ وجزء منه، كما سيتضح لك من تأويل تلك الآية. وحينئذ لابد أن تكون الحالان متصلتين في الزمان والمكان، فأينما وحينما يكون حبل من مسد في جيدها فعند ذلك هي تكون حمالة الحطب. وصاحب الكشاف انتبه لهذا المعنى بعد ما فسر ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ لشدة وضوح دلالة النظم عليه، ولكنه لم يخرج عن وهمه السابق، فخلط الحق بالباطل وقال:

«ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليه حين كانت تحمل حُزَم الشوك، فلا تزال على ظهرها حُزْمَة من حطب النار من شجرة الزقّوم أومن الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار، كما يعذَّب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه»[١].

فإنه قد أصاب لولا أنّه زاد فيه أنها كانت تحمل حزمة الشوك، فإنه رأي محض توهموه من هذه الآية، وليس فيها دلالة عليه.

والثالث: أن منزلة قريش كانت أشرف من أن تحتطب نساؤهم. ومن له إلمام بتاريخ العرب يعلم أن قريشاً هم رؤساؤها وحكّامها، لا سيما هذا بيت هاشم الذي هو ذروتها وسنامها، حتى إنهم من شرافتهم وإحساسهم بها كانوا يتخذون لأولادهم مرضعات من قبائل العرب إشفاقاً على أزواجهم وإكراماً لهن. فهل كانوا يرضون لهن بالاحتطاب، وهو عمل مختص بالإماء، كما جاء كثيراً في كلامهم. قال النابغة:

تَحِيدُ عن أَسْتَنٍ سُودٍ أسافلُه ... مَشْيَ الإماءِ الغَوادي تَحمِلُ الحُزَما[٢]

---

(١) الكشاف ٤: ٢٤١.

(٢) ديوانه: ٦٥.

وقال الحارث بن عُبَاد:

لـم أدَعْ غيرَ أكلُبٍ ونساءٍ و إماءٍ حَواطبٍ وعِيـالِ[١]

وقال قيس بن الخطيم الأوسي:

أصاب صريحَ القوم غربُ سيوفنا وغادرن أبناء الإماءِ الحواطبِ[٢]

وقال الأخنس بن شهاب التغلبي:

يظلُّ بها رُبْـدُ النَّعـامِ كأنها إماءٌ تُزَجَّى بالعشيِّ حَواطبُ[٣]

ولاستبعاد كونها محتطبة ذهب بعضهم إلى أنها كانت نمامة، فقيل لها ذلك على وجه الكناية[٤]. ولاشك أنهم لم يذهبوا إلى هذا التأويل إلا علماً منهم بأنها لم تكن حمالة الحطب كعادة الإماء، لكونها من أكرم بيت في العرب وأكفأ نسباً وصهراً. فإنها أم جميل بنت حرب، فكانت عبشمية في بيت هاشمي. ولكنه لا حاجة إلى المجاز إذا أمكن حمله على الظاهر مع حسن التأويل.

ثم إن القرآن يؤوَّل إلى ما ثبت من لسان العرب القديم. ولا يوجد في كلامهم المدون المحفوظ مع كثرته مثال واحد لهذا المجاز. وأما الاستدلال بقول ابن الأسلت:

نُبِّئْتُكم شَرْجَينِ كلُّ قبيلةٍ لها أزْمَلٌ من بين مُذْكٍ وحَاطِبِ[٥]

---

(١) شعراء النصرانية: ٢٧٤.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٦٥٢.

(٣) الشعر والشعراء: ١٦٩.

(٤) انظر الطبري ٣٠: ٢١٩، وابن كثير ٤: ٥٦٩، واللسان (حطب).

(٥) ابن هشام ١: ٢٢٧.

فلا يصح، فإن العرب لم يذكروا إيقاد الحرب بالنميمة، وإنما هو بالسلاح والخيل، كما قال بشامة بن عمرو الـمُرِّي:

وحُشُّوا الحروبَ إذا أُوقِدَتْ رماحاً طِوالاً وخَيلاً فُحولا

ومِنْ نَسْجِ داود موضونةً ترى للقواضبِ فيها صليلا[١]

وقال عمرو بن الإطنابة الخزرجي:

ليسوا بأنكاسٍ ولا مِيلٍ إذا ما الحربُ شُبَّتْ أَشعَلُوا بالشَّاعِلِ[٢]

وأما ما نقل صاحب الكشاف من قول الشاعر:

من البِيضِ لم تُصْطَدْ على ظَهر لَامةٍ ولم تمشِ بين الحيِّ بالحَطَبِ الرّطب[٣]

فلم يسم الشاعر، والاستناد بالمجهول لا يصح، لا سيما في تأويل القرآن، وهذا الأمر لا خلاف فيه بين العلماء. ثم أتى الشاعر بهذه الاستعارة مع القرينة، فلا تكون دالّةً على ذلك المراد بغيرها.

وكذلك ذهب بعضهم إلى أنها كانت تأتي بالشوك، فتلقيها على طريق الرسول وأصحابه. وهذا هو اختيار ابن جرير رحمه الله[٤]. ولكنه بعيد، فإن الذي يلقي الشوك لا يقال له «حامل الحطب». وأيضاً إلقاء الشوك في الطريق يؤذي كل من يمرُّ لا النبيَّ وأصحابه فقط.

---

(١) المفضليات: ٥٩.

(٢) الحماسة ٢: ٢٩٥.

(٣) انظر الكشاف ٤: ٢٤١.

(٤) انظر الطبري ٣٠: ٢١٩-٢٢٠.

والرابع: أنّ حمل الحطب لا إثم فيه ولا معرة من جهة الدين، فكيف يعيبها القرآن به؟ وما ذاك من طريقه. فإنه قد ذكر كثيراً من عيوب أعداء الله فلم يذكر إلا ما كان منكَراً عند العقل والتقوى. وأما كلمة «زنيم» في سورة «ن» فتلك أيضاً لم يرد بها إلا خصلة التوغل والتملق، كما بيّناه في موضعه.

فهذه أربعة أدلّة، وإن رجعت النظر فيها وجدت أن كل دليل مأخوذ من أصل مستقل. فالأول من اللسان، والثاني من النظم، والثالث من التاريخ، والرابع من سنة القرآن. فمن أي جهة نظرت إلى تأويلنا وجدته بيِّناً محكماً.

وهذه الأدلة إنما أوردناها تمهيداً لكيلا تمنعك مخالجة الشكوك عن تصميم النظر في الدليل الحقيقي المعتمد عليه. وذلك ما سيأتيك من تأويل هذه الآية. فإنّ حسن الربط والمعنى أوثق ما يُستدلُّ به ويُصار إليه في تأويل القرآن.

(١١)
الحكمة في ضرب أمثال النساء عموماً وامرأة أبي لهب خصوصاً

قد بيّنا في الفصل السادس أنه لا سبيل إلى إرادة الشتم والذم لامرأة بعينها لأنها آذت النبي وأصحابه. ولو تنازل القرآن إلى مثل ذلك ـ وحاشاه ـ لكانت اليهودية التي جعلت السمَّ في طعامه أولى بذلك (أو الذي أدمى وجهه يوم أحد)، والذين أخرجوه من الطائف بالرجم والشتم فما شكا إلا إلى ربه، وما أرقَّ ألطفَ قوله! هناك أبو جهل وأصحابه الذين كان من عادتهم الطعن فيه، فهؤلاء كانوا أولى بالطعن. ولكنّ حُسن القول أحبُّ إلى الله ورسوله.

وإذ لم يشتم القرآن أحداً من رجالهم فهل يشتم نساءهم! فدع عنك هذا، وقد مرَّ فيه الكلام من قبل. ولكن التمِسِ الحكمة في ذكر هذه الامرأة. وقد سمى الله

القرآن حكيماً، فما أظلم من لم يطلب الحكمة منه!

فاعلم أن الله تعالى ذكر في كتابه بعض الأقوام والأفراد، وضربهم مثلاً للخير والشر، لنتعظ بما أصابهم من النعمة والنقمة. وكما ذكر بعض الرجال فكذلك ذكر بعض النساء =

١- لأن المثل يتعظ بالمثل.

٢- وأيضاً فإن من خصال الخير والشر بعضها أولى بالرجال، وبعضها أولى بالنساء، فلابد من ذكر كلا الصنفين، ليتم النصح والتبليغ.

٣- ثم بضرب أمثالهن نبهنا القرآن على خطر منزلة النساء، لما يجلبن على الرجال من السعادة والشقاوة. فإن خصالهن تسري وتدِبّ في أزواجهن وأولادهن. والناظر في تاريخ الأمم ربما يتتبع أسباباً لكبار الأمور فيجد منتهاها إلى خيوطٍ يغزِلها غَزال مُقنّع! فلو ترك ذكرهن فاتنا باب عظيم من دقائق الحكمة.

فمن تأمل أمثال القرآن، واستنبط خصائص الأخلاق، وأثر بعضها على بعض، ومدارجها في النفع والضرر = علم أن من أخلاق النساء ما يتعدّى شرّه إلى أخلاق أزواجهن، وذلك إفراطُهن في الشح وحبّ التزيّن. فإنّ ذلك يحملهم على أن يكسبوا لهن المال من أي وجه كان، ولا ينفقوه في الحقوق النوائب، ويجعلوا المال الذي هو قيام الحياة وقيمة النجاة معكوفاً على أجسامهن، فيصير كماءٍ آسنٍ قلّ خيره وكثر شرّه. ألا ترى كيف كرّهَ اللهُ تعالى إلى أزواج النبي ﷺ زينةَ الحياة الدنيا، وأطنب فيه ما لم يطنب في أمر آخر حتى جعلها من أمور الجاهلية والرجس؟

ثم ليس حب التزين علّة وحيدة لجمعهن المال، بل الشح طبيعة مستقلة فيهن، ولذلك يصرفن أزواجَهن عن الجود. وقد صرح القرآن بذلك حيث حذّرنا عن إطاعتهن إذا منعن عن الإنفاق في سبيل الله، ومع ذلك أمرنا أن نعاملهن بالعفو

والصفح، فإن ما لا يصلح كله يدارى به، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ إنما ضمّ الأولاد بهن لأنّ حبّهم يُبَخِّل، كما قال النبي ﷺ: «الولد مَبْخَلَة مَجْبَنة»[1]، وليس المراد أنهم يأمرون بالبخل قولا ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ أي احذروا عن شر يصيبكم من جهتهم ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ التغابن: ١٤ - ١٦.

وكذلك العرب تذكر كثيراً عذل النساء على الجود، مثلاً قال حاتم الطائي:

وعاذلةٍ هَبَّتْ بليلٍ تلومُني ... وقد غاب عَيُّوقُ الثريَّا فعرَّدَا
تلومُ على إعطائيَ المالَ ضَلَّةً ... إذا ضنَّ بالمال البخيلُ و صرَّدا
تقولُ ألا أمْسِكْ عليك فإنني ... أري المالَ عند المُمْسِكين مُعبّدا
ذريني يكنْ مالي لعِرضيَ جُنَّةً ... يقي المالُ عِرضي قبلَ أن يتبدَّدا[2]

وقال أيضاً:

وعاذلتَينِ هَبَّتا بعدَ هَجْعَةٍ ... تلُومان مِتْلافاً مُفيداً مُلَوَّما
تلومان لـمّا غَوّر النجمُ ضَلَّةً ... فتىً لا يَرَى الإتلاف في الحَمْدِ مَغْرَما[3]

ذلك، وقد مرّ في الفصل الثالث أنّ ثروة أبي لهب لم تأته من وجه حسن، وأنّ

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الآدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات.

(٢) ديوانه: ٢١٧-٢١٨.

(٣) ديوانه: ٢٢١-٢٢٢.

حرصه للمال وتهالكه عليه قد أركبه أكبر الشنائع، فخان اللهَ، وقطع الرحمَ، وعاد النبي ﷺ، وامتلأ غضباً حتى مات بغيظه.

فإن تبينت هذه الأمور وأحضرتَها في عقلك جملة، ثم رأيت أنّ الله تعالى أشرَكَ امرأتَه في عذابه، لم تَشُكَّ في أنها قد شاركته أسبابَه، بأن حرَّضَتْه على كسبٍ سيِّئ، لتتزيَّن به، ولترفع عنقها بين النساء تِيهاً، فكانت تمنعه عن الإنفاق فيما يجب عليه؛ فإنّ الله تعالى لا يُشرِك نفساً بنفس إن لم تشتركا في العمل. ثم ما ذكر الله تعالى من حالها يؤيد هذا التأويل، ويوضح أنها حملته على خصال السوء. وسيأتيك بيانه في الفصل الآتي.

فكما أنّ الله تعالى ضرب أبا لهب مثلاً للرجال، ضرب امرأته مثلاً للرجال والنساء معاً، لِينتهين عن الشحّ وحبِّ التبرّج، وينتهوا عن فتنة أزواجهم وإطاعتهم إياهن إذا سددن عن إيفاء الحقوق والإنفاق في سبيل المكارم.

ولا يستصغرنّ أحدٌ أمرَ الشحّ، فإنّه منبع أكثر السيئات. أليس هو ضد الزكاة التي هي نصف الأعمال الصالحة؟ أليس قد جاء في القرآن: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ الحشر: ٩، التغابن: ١٦؟

وقد اقتصرت عدة سور على ذكره مثل سور التطفيف، والتكاثر، والهمزة؛ ولم يقتصر على التوحيد إلا سورة واحدة. فدلّنا على عظم إثمه وشدة الحاجة إلى النظر فيما يأمرن من الإسراف في زينتهن، والبخل عن الحقوق الواجبة. وما أحوجنا إلى هذا النصح، لأنّ ناساً يظنونه مساعدةً منهن على المصالح! ولذلك سماهن الله فتنةً وأعداءً إذا مَنَعْنَ عن الخير.

(١٢)

الحكمة في وصفها بـ«حمالة الحطب»، وأنّ الجزاء يُشبه العمل

اعلم أنّ القرآن كثيراً ما يذكر للمترفين المستكبرين عذابَ الهون والذلة، فإنّ ذلك أشدُّ وقعاً عليهم، كما قال الحماسي[1]:

بضربٍ فيه تَوهينٌ وتخضيعٌ وإقرانُ

فإنهم قالوا: «النار ولا العار»، فأخبرهم الله تعالى بأنّ لهم النارَ والعارَ معاً، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الأحقاف: ٢٠. وأيضاً: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ القلم: ١٦. وأيضاً: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ الدخان: ٤٩.

وكذلك يذكر الجزاء مناسباً بالأعمال ليكون عينَ العدل. وقد ذكرنا في الفصل التاسع أنّ أبا لهب، بحرصه الشديد وعداوته بالنبي ﷺ وحسده عليه، جَعَلَ نفسَه كنار ذات لهب. وقد مرّ في الفصل الحادي عشر أن امرأته حملته على تلك الشنائع لما كانت تحب التبرج بزينتها وحليها، ولذلك أشركها الله تعالى به في العذاب بقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾. فلما ذكر حالها بقوله: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ دلنا على مناسبة الجزاء للعمل بوجوه، وهي:

١ - أنها تتحول من الشرف والترف إلى الذل والمهنة.

٢ - وأنّ حُلِيَّها التي كانت تفتخر بها تصير عليها حطباً. فإنّ الحطام الدنيوي وزخرفها أشبهُ شيء بالهشيم، فتصير كمن يحمل الحطب لتسعير النار التي يُلقى فيها،

(١) وهو الفِنْد الزماني. انظر الحماسة ١: ٦٠.

أو كمن يحمل جذعاً ليصلبوه عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ الأنعام: ٣١.

٣- و إنها لما حملت زوجها على خصالٍ أضرمت النار التي كانت في طبيعته فكأنها التي حملت إليها الحَطَبَ فأشعلتها. فاقتضى عملُها في الدنيا أن تُبعثَ على هيئة حَمّالةِ الحطب، أو تصير إليها بعد دخولها النار.

ويقرب مما قلنا ما روي عن سعيد بن جبير: «أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار»[1].

٤- وقد مرّ أن جزاء أبي لهب كان مناسباً لحاله. فكذلك راعى المناسبة حين أخبر عن حال امرأته.

٥- ولم يقتصر على ذكر هذه الصفة، بل أوضح بالآية الخامسة تصويرَ الأمَةِ المحتطِبة، كما سنذكره الآن.

(١٣)
تأويل الآية الخامسة وبيان ربطها بالتي قبلها

لما كانت آية: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ تُبيّن حالَها التي تكون يوم القيامة، قال بعض أهل التأويل إنّ المراد من ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ ما ذكره القرآن من أحوال الكفار حيث جاء: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ الحاقة: ٣٢[2].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٢-١٧٢.

(٢) انظر الطبري ٣٠: ٢٢٠.

فليس أنهم بدّلوا معنى «المسد»، ولكنهم أوّلوه إلى ما يشابه أحوال المعذبين. ولكن اللفظ لا يُصرف عن معناه الظاهر من غير ضرورة، ولذلك فسّر الآخرون حسب معناه الحقيقي، فإن اللفظ معلوم مستعمل في كلام العرب اسماً وفعلاً.

فالمسد في اللغة: «لِيف» أو «خُوص» أو «لحاء» يُفتل منه الحبال الخشنة. ولذلك يستعمل لكل حبل خشن، سواء كان من ليف ومثله أو جلد. وكثرة استعمال المسد لحبل البَكَرة تدلُّ على أن المسد هو الحبل الغليظ. يقال: مَسَدَ الحبلَ، أي فَتَلَه محكماً غليظاً.

فالتأويل الظاهر: أنها إذا جاءت يوم القيامة أو بعد أن دخلت النار كان في عنقها حبل خشن غليظ، أغلظ مما يكون في أعناق الإماء الحاطبات. ولهذه الزيادة فوائد:

١ - فإنّ فيها توضيحاً لصورتها التي ذكر في كلمة: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾،

٢ - وتصويراً لذلتها التي تصير إليها،

٣ - وتنبيهاً على الموافقة بين الأعمال وتبعاتها. فإنّ السمط والقلادة التي كانت تختال بها في الدنيا تنقلب يومئذ حبلاً خَشِناً، فتصير يومئذ مثل أَمَةٍ تخرج للحطب.

وإذ المرأة المختالة لا تقنع بمحض الزينة بل بحجمها، فناسب حالها أن يكون حبلاً غليظاً. واختيار كلمة ﴿جِيدِهَا﴾ بدل «عنقها» تدل على ذلك. فإن «الجيد» يستعمل في مواقع الحسن والتيه، كقول امرئ القيس:

وجِيدٍ كجِيدِ الرِّئْمِ ليس بفاحشٍ إذا هيَ نَصَّتْه ولا بمعطَّلِ[1]

---

(١) ديوانه: ١٦ وانظر شروح المعلقات.

أو كقوله:

بجيدِ مُعَمٍّ في العشيرةِ مُخْوَلِ[١]

فلو لم يرد ما ذكرنا لاختار العنق، فإنه أشبه بحبل من مسد، وأوفق بحالة الشدة والغلظة، كما ترى مثلاً في قوله تعالى: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ الشعراء: ٤. أيضاً: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ يس: ٨. ولولا إرادة ما ذكرنا من التوضيح والتصوير والتنبيه لما كان هاهنا موقع لذكر الحبل من المسد في عنقها.

ثم الفواصل السابقة تقتضي كلمة آخرها حرف الباء، فلو أراد محض شدة العذاب لم تضِق لغة العرب مع سعتها وكثرة أساليبها عن إتيان فاصلة مشابهة. فعدم مراعاة الفواصل السابقة يدل على مجيء هذه الآية لفائدةِ إتمام البيان، وذكرِ أمر واقع، وتنبيهٍ على توافق العمل والجزاء، كما ذكرنا.

(١٤)
رجع النظر في مضمون السورة جملة

بعد إيضاح تأويل الآيات، نجمع لك ما ذكرنا بَدَداً من المضمون الذي جاءت السورة مخبرةً عنه على سبيل الإخبار والتذكار للذين يتقون ويعتبرون. وذلك أنّ أعدى عدو الدين ورأس المشركين أبا لهب قد قضي عليه الآن. فعن قريب تنكسر قوته، وتهلك أعوانه، ويضِلُّ رجاؤه. ثم هو نفسه يهلك شرَّ هلاكٍ، فلا يُغنيه أمواله التليد والطارف التي بخل بها، ومنعها عن الحقوق، واكتسبها بالخيانة.

---

(١) صدر البيت:

فأدبرنَ كالجَزْعِ المفصَّلِ بينَه

ديوانه: ٢٢ وانظر شروح المعلقات.

ثم بعد الموت لا محالة أنه يصلى ناراً ذاتَ لهب التي أضرمها في نفسه من الحسد والبخل، فتحيطه في الآخرة. ثم تشتركه امرأته في دخول هذه النار بهيئة حمّالةٍ للحطب التي في عنقها حبلٌ لشدِّ حُزَمها. فكما هي ساعدته في الدنيا بإضرام نار في طبعه من الشهوات، فكذلك تحمل إليه الحطبَ في جهنم لإيقادها.

ثم هي لما كانت تَبَخْتَرُ في حُلِيِّها الثقيلة المصوغة من المال الخبيث، وتسُرُّ زوجَها بما عليها من البهاء والزينة، صارت في دار ظهور الحقائق ذليلة مهينة في هيئة أمَةٍ محتطِبة، وانقلبت قلادتُها حبلاً خشِناً غليظاً، إتماماً لصورة تلك الأمة.

فإن كنتَ ذاكراً لما بينّا من تأويل آيات السورة، رأيتَ أنّا لم نذكر إلا ما تضمنت عليه كلماتها بالتصريح والإشارات، وهدانا إليه التدبرُ في آياتها.

(١٥)
زمان نزول هذه السورة، وفائدة العلم به

لم يبلغنا الخبر بزمان نزول هذه السورة عن الذين شاهدوا نزولها. ولكن رُوي لنا من العلماء المستنبِطين أنها نزلت بمكة، ولعل ذلك لما جعلوها جواباً لقول أبي لهب. وكان هلاك أبي لهب بعد واقعة بدر، فلاشك أنها نزلت قبل هلاكه. وهكذا يفهم من أسلوب الكلام. فإنه لو هلك قبل نزولها لكان وجه القول: «ألم تر كيف تبت يدا أبي لهب» أو مثل ذلك. فلاشك أنها أخبرت من قبل عما وقعت. والرواية وافقت ما فهمنا من أسلوبها ونفس عبارتها.

ثم نقول: إنها لم تنزل في أوائل البعثة، كما تبادر إليه من يظنُّها جواباً لشتم أبي لهب، فإنه ظن باطل، كما مرّ بيانه. فإذ هي ليست بجواب لقوله، بل هي نبوة وإخبار، فلا شك أنها نزلت بعد أن شهدت أحوال أبي لهب بإصراره على الكفر. فحينئذ تمت عليه الحجة، ووجب إعراض النبي ﷺ عن خطابه، كما أمره الله تعالى بقوله الحكيم:

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي لا يتجاوزون هذا الحد من العلم ليريدوا ما هو فوق الحياة الدنيا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ النجم: ٢٩ - ٣٠. أي إنما يأمرك الله تعالى بالإعراض عن هؤلاء الذين دلّت أحوالهم وشهدت أقوالهم على إصرارهم بالكفر ونفرتهم عن دار الآخرة، فلا تطمع في هدايتهم، بعد ما أخبرك ربك بأنهم لا يهتدون. فإنه تعالى جعل لكل شيء سبباً، ولكل أمر نهاية، فلا يسامح الكافرين بعد ما أتمَّ عليهم الحجة، وأمهلهم مدةً للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ فاطر: ٣٧.

فبعد هذه المدة وتبيُّن شقوتهم يمنع الله تعالى نبيَّه عن إضاعة الوقت بهم والدعوة لهم، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ فجعل مدة يتبين فيها للمسلمين أنهم من أصحاب النار ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ التوبة: ١١٣-١١٤.

فبعد ما استيقن إبراهيم أنه لا يهتدي أبداً تبرّأ منه. ألا ترى أن الله تعالى قد أهلك الكافرين وعذَّبهم في الدنيا، فهل لأحد أن يقول إنه كان ظالماً لإمكان توبتهم فيما بعد؟ لأنا نقول: إنهم عُذِّبوا وأُهلكوا بعد أن تبيَّن أنهم لم يكونوا ليؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ يونس: ١٣. أي لم يبق رجاء إيمانهم في المستقبل.

وذلك بأن السيئات إذا ارتكبها الإنسان تعمُّداً، وشُرِحَ بها صدراً، زاد ضرُّها وقوي سلطانُها، حتى إنها تحيط بصاحبها، وتصُدُّ عليه أبواب الهداية، فلا يمكنه

الخروج من ظلمات الضلالة، وتجري عليه سنة الله التي هي ربطُ الآثار بالأشياء. فليس أن الله تعالى أضلَّه مِن قِبَلِه، بل الإنسانُ نفسه تمسَّكَ بسبب الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾ التوبة: ٧٠، والروم: ٩.

وقد صرح القرآن كثيراً بوقوع نتائج السيئات من الضلالة والزيغ والقساوة والشقاق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ البقرة: ٢٦. وأيضاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف: ٥. وأيضاً: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ المائدة: ١٣. وأيضاً: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ المائدة: ١٤. وأيضاً: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ المطففين: ١٤.

وأيضاً: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ التوبة: ٧٧.

وأيضاً: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٠١﴾ الأعراف: ١٠١.

وأيضاً: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ الحجر: ٣.

وجملة الكلام أنّ الله تعالى بعد إتمام الحجة يصرف الدعوة عن المصرِّين، ويأمر النبي أن يُعرض عنهم، فإنّ كلمة العذاب قد حقت عليهم، كما قال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾ المعارج: ٤٢.

فتبين مما قدّمنا أنّ السورة لم تخبر عن هلاك أبي لهب إلا بعد أن آيس النبي ﷺ، فأعرض عنه، وكفَّ عن دعوته. والسورة أيضاً لا تخاطبه ولا تدعوه، بل تبشر

المسلمين بهلاك أعدى عدوهم، كما سبق.

وهذا القدر يكفي لنا من العلم بزمان نزولها سواء نزلت بمكة قُبيل الهجرة أو بالمدينة بُعيدها. وفائدة هذا العلم تظهر لك في الفصل الآتي.

(١٦)

لا دلالة في السورة على التكليف بما لا يطاق

قد تمسَّكت الأشاعرة بهذه السورة في وقوع تكليف الله عباده بما لا يطيقون، خلافاً للحنفية وبعض الأجِلَّة من الشافعيين كالإمام أبي محمد الإسفرائيني والإمام أبي حامد الغزالي رحمهما الله. وإنما قالوا بذلك لجدالهم بالمعتزلة الذين يقولون: إن العدل واجب على الله تعالى. فاشمأزت نفوس أكثر فرق أهل السنة عن شناعة هذا الإيجاب، فقالوا: إن الله تعالى هو الحاكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وهو الذي خلق كل شيء، فهل يُوجب عليه مخلوقُهُ حُكماً، ويقضي عليه قضاء؟ وبلغ إنكارهم بقول المعتزلة كل مبلغ، كما تكون نتيجة الجدال والخصام. فتمسكت الطائفتان بكل غث وسمين، وألزموا خصمهم ما لزم وما لم يلزم.

ولأن هذا الخلاف فرع من خصامهم في مسألة العدل، فعليه استمرَّ اللَّجاج، واسبطرَّ العَجَاج، فلا يتضح الحق فيه من الباطل إلا بالكشف عن أصل بحث العدل وفروعه. وهذا المقام لا يتحمله، فلنكتف هاهنا بما يتعلق باستدلالهم بهذه السورة.

فاعلم أن الإمام أبا الحسن الأشعري رحمه الله استدلّ بما أخبرت به هذه السورة على وقوع التكليف بما لا يطاق، فقال رحمه الله تعالى في كتابه المسمى بـ«الإبانة»:

«ويقال لهم (أي للمعتزلة): أليس قد قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ وأمره مع

ذلك بالإيمان. فأوجب عليه أن يعلم أنه لا يؤمن، وأن الله صادق في إخباره عنه أنه لا يؤمن، وأمره مع ذلك أن يؤمن. ولا يجتمع الإيمان والعلم بأنه لا يكون. ولا يقدر القادر على أن يؤمن وأن يعلم أنه لا يؤمن. وإذا كان هذا هكذا، فقد أمر الله سبحانه أبا لهب بما لا يقدر عليه، لأنه أمره أن يؤمن، وأنه يعلم أنه لا يؤمن»[١].

ولا يخفى أن بناء هذا الاستدلال على فرض أمرين: الأول كون أبي لهب مخاطَباً بهذه السورة ومأموراً باليقين بأنه لا يؤمن. والثاني نزول هذه السورة قبل تبيُّن إصراره وإعراض النبي ﷺ عن دعوته. وكلا الأمرين مدفوع، كما مرّ في الفصل السابق، فالاستدلال مختلّ في مادته.

هذا، وزاد الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله هذا الاستدلال قوة من جهة الصورة، فأفرغه في قالب الجمع بين النقيضين ليبيّن كونه محالاً بالبداهة، والمحال لا طاقة عليه. وإذ أمر الله بالمحال، فلا بد أنه كلف بما لا يطاق. فقال رحمه الله:

«احتجّ أهل السنّة على وقوع تكليف مالا يطاق بأن الله تعالى كلّف أبا لهب بالإيمان. ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه. ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار. فقد صار مكلَّفاً بأنه يؤمن وبأنه لا يؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين، وهو محال».

وذكر من جانب المعتزلة جوابين مبهمين ثم ردَّهما، وقال في الآخر: «هذا الإشكال قائم»[٢].

نقول: إن الاستدلال على جمع النقيضين ساقط من وجوه:

---

(١) الإبانة: ١٩٥.

(٢) التفسير الكبير ٣٢: ١٧١.

الأول: أنه لا يتمّ إلا بعد أن يثبت أن الله تعالى حين أنزل هذه السورة كان قد بقي أبو لهب مكلّفاً بالإيمان، ولم يستحقّ الإعراض عنه. ثم إنّه لا يتمّ إلا بعد أن يثبت أن الله تعالى خاطبه بهذه السورة. وقد بيّنّا في الفصل السابق أن الله تعالى أمر نبيَّه بالإعراض عمن أصرَّ واستكبَرَ. فللخصم أن يمنع كون أبي لهب حين أنزلت هذه السورة مكلّفاً بتكليف، فكيف بتكليفين؟

والثاني: بأن الخصم لا يسلِّم كون الكفار مطالَبين بجزئيات الأحكام إلا بعد أن يؤمنوا بكلمة التوحيد و الطاعة جملة، وحينئذ يكلَّفون بالإيمان التفصيلي. ولذلك قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ النساء: ١٣٦.

فإن سلّم كونه مكلَّفاً بالإيمان الإجمالي لا يسلِّم كونه مخاطباً بهذا السورة، ومكلَّفاً بالإيمان بما فيها. فلا جمع بين النقيضين.

والثالث: أن القرآن لم يخبر بأنه لا يؤمن، ولا بأنه أهل النار. إنما أخبر بأنه سيصلى ناراً ذاتَ لهب. ومحض صلائه النار لا يستلزم أنه لا يؤمن وأنه يخلد في النار.

والرابع: أنه لو سُلِّم أنّ القرآن أخبر بأنه من أهل النار، فهل هذا الخبر عين الخبر بأنه لا يؤمن؟ أليس أنّ الكفار يؤمنون يوم القيامة، ومع ذلك يوقنون بأنهم أهل النار. وذلك بأن التصديق يتبع الدلائل، فإذا تبينت الدلائل لامرئ على ما يؤمن به صدَّق به. ومع ذلك إن يتبين له الدلائل على استحقاقه بالنار أيقن بأنه يدخلها.

انظر كيف أجاب الله تعاقلى فرعون حين آمن وأسلم، حيث ذكر القرآن: ﴿ ۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ يونس: ٩٠ - ٩١ فلما أجابه الله بأنك لم تؤمن ولم تسلم، بل بأنه تعالى لا يقبل الآن منه إيمانه ولا إسلامه. ومثله قوله: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ التوبة: ٩٦. فإنّ بين الفعل وبين كونه مقبولاً فرقاً، والعبد إنما يكلَّف بفعله، لا بقبوله.

وجملة الكلام أنه لو كان بين دخول النار والإيمان مناقضة لما اجتمعا أبداً، وقد رأيت اجتماعهما، ولو في بعض الأحوال، فارتفع التناقض.

والخامس: أنه إن سُلِّم أن القرآن أخبر بأنه لا يكون مؤمناً وأنه يخلُد في النار، فهل كلّفه الله بالإيمان بالله ورسوله والطاعة، أم كلّفه بأن يستيقن بأنه مؤمن وأنه لا محالة مُبْعَد من النار؟ فلا تناقض.

فإن قيل: سَلَّمنا أن الإيمان نتيجة الدلائل، ولكن العمل الصالح لابد له من رغبة. وبعد أن أخبره الله تعالى بأنه من أهل النار أيُّ نفع يُرغِّبه إلى العمل الذي هو مكلف به؟

قلنا: إن رجاء النفع غير منقطع، فإنّ للعقاب مدارج. فإن عمل صالحاً نفعه بعض النفع ولو في الدنيا أو في القيامة ببعض التخفيف. ألا ترى أن المرض الذي لا يزول ربما يداوى لتقليل ألمه؟ ثم العمل الصالح جميل بذاته، وأيضاً يجلب حسن الثناء، فدلائل القرآن تثبت عليه ما يؤمن به، ورجاء بعض النفع يُوجب عليه العمل، وإن أيقن بأنه غير داخل في المؤمنين المقبولين.

فقد تبين مما سبق أن هذا الاستدلال لا يتمُّ إلا بعد فرض ما لا دليل عليه، بل الأدلّة خلافه.

ثم نقول: لا تناقض هاهنا مع تسليم ما فرضه المستدل من التكليفين. فإن قوله: «فقد صار مكلفا بأنه يؤمن وأنه لا يؤمن» مغالطة. إنما كان مكلَّفاً بأن يؤمن، لا

بأنه يؤمن، وبينهما فرق عظيم. فإنه لم يكلف بالإيمان بأنه يؤمن، إنما كلف بأن يؤمن: أي بالإيمان بما جاء به النبي ﷺ وبالإيمان بأنه لا يؤمن، وهذان الإيمانان لا تناقض فيهما. وكذلك لا مناقضة في الأخير أيضاً، كما هو ظاهر. ألا ترى الكفار في حالة كفرهم كلهم يؤمنون بأنهم لا يؤمنون؟

فتبين أن دعوى جمع النقيضين لا تصح، وبقي الاستدلال على حالته الأولى، كما تمسَّك به الأشعري رحمه الله في «الإبانة». وجوابه ما ذكرناه آنفاً من الخلل في مادته. أصل القضية التي فرضها المستدل من كونه مخاطَباً بأن يؤمن، ومع ذلك مخاطَباً بالإيمان بكفره ودخوله النار. فإن هذا الخبر جاء بعد ما أعرض عنه وترك، كما بينا في الفصل السابق.

وجملة الكلام أن هذه السورة لا متمسَّك فيها لمن يدعي بوقوع تكليف الله عباده بعمل لا يطيقونه. وأما أصل المسألة فمبسوطة في موضعها. والنزاع يرجع إلى محض اللفظ، والاشعري رحمه الله تعالى أرفع عن القول بما ينسب الظلم إلى الله سبحانه وتعالى عن قول الظالمين.

وهذا آخر ما أردت ذكره في تفسير هذه السورة حسب فهمي القاصر، والله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفهارس

فهرس الآيات الشواهد

(٣) سورة آل عمران

(٨) سورة الأنفال

(١١) سورة هود

(٢٢) سورة الحج

(٣١) سورة لقمان

(٣٢) سورة السجدة

(٣٣) سورة الأحزاب

(٤٦) سورة الأحقاف

(٤٧) سورة محمد

(٤٨) سورة الفتح

(٤٩) سورة الحجرات

(٥٠) سورة ق

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس نصوص العهدين

فهرس الشواهد الشعرية

فهرس الألفاظ المفسّرة

فهرس مصنفات المؤلف

فهرس الأعلام

فهرس مطالب الفصول



دَار الغَرب الإسلامي

تـونـس

لصاحبها : الحبيب اللمسي

6 نهج الدالية باللفي - تونس – فاكس : 0021671396545 – خلوي : 216-96-346567

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم الطبعة : 524 / 1000 / 2 / 2012

التنضيد : جامع الكتاب

الطباعة : دار صادر - بيروت - لبنان